

من عجائب تاریخ مصر

جمع و تالیف
محمد حرموش

من عجائب تاريخ مصر

قطوف من حقائق التاريخ

[/https://wondersofegyptshistory.blogspot.com.eg](https://wondersofegyptshistory.blogspot.com.eg)

جمع وترتيب

محمد عرموش

مقدمة

لمن يريد التعرف علي تاريخ مصر بالكامل بشكل عام
موضوعات كتاب من عجائب تاريخ مصر تحقق لك ذلك
فهي فقرات منتقاة بعناية من كتب ممتعة لكبار الكتاب عشاق مصر من مؤرخين وأدباء ورحالة وشعراء ومبدعين
مرتبة طبقاً لترتيبها الزمني
زهرة من كل بستان في حب مصر
وهي في مجموعها تشمل تاريخ مصر بالكامل تقريباً
تم نشرها من قبل علي صفحة تواصل اجتماعي فيس بوك

جمع وترتيب
محمد عرموش

أهمية التاريخ

١. مقتطفات قصيرة ومختصرة من مقدمة كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار :

يقول الجبرتي الذي توفي في القاهرة عام 1825 م :

الحمد لله القديم الأول الذي لا يزول ملكه ولا يتحول ، خالق الخلائق وعالم الذرات بالحقائق ، مفني الأمم ومحيي الرمم ، ومعيد النعم ومبيد النقم وكاشف الغمم ، وصاحب الجود والكرم ، - - - - - ويعد ، فيقول الفقير عبد الرحمن بن حسن الجبرتي الحنفي غفر الله له ولوالديه ، وأحسن إليهما وإليه : إني كنت سودت أوراقاً في حوادث آخر القرن الثاني عشر وما يليه من أوائل الثالث عشر الذي نحن فيه جمعت فيها بعض الوقائع إجمالية ، وأخري محققة تفصيلية ، وغالبها محن أدركناها وأمور شاهدناها واستطرت في ضمن ذلك سوابق سمعتها ومن أفواه الشبيخة تلقيتها ، وبعض تراجم الأعيان المشهورين ، من العلماء والأمراء الاعتبارين ، وذكر لمع من أخبارهم ، وأحوالهم وبعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم ، فأحببت جمع شملها ، وتقيد شواردها في أوراق متسقة النظام مرتبة علي السنين والأعوام ، ليسهل علي الطالب النبيه المراجعة ، ويستفيد ما يرومه من المنفعة ، ويعتبر المطلاع علي الخطوب الماضية ، فيتأسي إذا لحقه مصاب ، ويتذكر بحوادث الدهر إنما يتذكر أولو الألباب ،

فأنها حوادث غريبة في بابها ، متنوعة في عجائبها ، وأسميته عجائب الآثار في التراجم والأخبار
وأنا لنرجوا ممن أطلع عليه ، وحل بمحل القبول لديه ، أن لا ينسانا من صالح دعواته ، ، وأن يغضي عما عثر عليه
من هفواته - - - - -

ولما كان علم التاريخ علماً شريفاً فيه العظة والاعتبار ، وبه يقيس العاقل نفسه علي من مضى في هذه الدار ، - -
ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الإنساني تعنتي بتدوينه سلفاً عن سلف ، وخلفاً من بعد خلف ، إلي أن نبذ أهل عصرنا وأغفلوه وتركوه وأهملوه وعدوه من شغل البطالين وقالوا أساطير الأولين ،
ولعمري إنهم لمعذرون وبالأهم مشغولون ولا يرضون لأقلامهم المتعبة في مثل هذه المنقبة ،
فإن الزمان قد انعكست أحواله ، وتقلصت ظلاله ، وانخرمت قواعده في الحساب فلا تضبط وقاعه في دفتر ولا كتاب ،
وأشغال الوقت في غير فائدة ضياع ، وما مضى وفات ليس له استرجاع ،
إلا أن يكون - مثلي - منزوياً في زوايا الخمول والإهمال ، منجماً عما شغلوا به من الأشغال ، فيشغل نفسه في أوقات من خلواته ، ويسلي وحدته بعد سينات الدهر وحسناته ، وفن التاريخ علم يندرج فيه علوم كثيرة لولاه ما ثبتت أصولها ، ولا تشعبت فروعها ، - - - - -

وأما الكتب المصنفة فيه فكثيرة جداً - - فمن الكتب المصنفة فيه تاريخ ابن كثير في عدة مجلدات ، وهو القائل شعراً ،
تمر بنا الأيام تـتـري وإنما - - - - - نساق إلي الآجال والعين تنتظر
فلا عائد صفو الشباب الذي مضى - - - - - ولا زائل هذا المشيب المكدر
ومما ورد أيضاً في هذه المقدمة الرائعة :

إذا عرف الإنسان أخبار من مضى - - - توهّمته قد عاش من أول الدهر
وتحسبه قد عاش آخر دهره إلي الحشر - - - إن أبقى الجميل من الذكر ١

٢. هل الانسان حيوان ذو تاريخ ؟

يجيب عن هذا السؤال الكاتب الصحفي الكبير أحمد بهاء الدين ١٩٢٧-١٩٩٦ في مقدمة كتابه أيام لها تاريخ -الصادر عن دار الشروق - الطبعة الثالثة - صفحة ٥ وما بعدها فكتب ما يلي :

أيها القارئ : هل عرفت أحدث تعريف للإنسان ؟

لقد قيل مرة : أنه حيوان ناطق ، ثم تبين أن الببغاء تنطق ،

وقيل أنه حيوان ضاحك ، ثم تبين أن القروء تضحك ،

وقيل : إنه حيوان عاقل ، ثم تبين أن كل الحيوانات تعقل ، وإن كان العقل درجات

وحرار العلماء طويلاً : فالإنسان كائن حي ، يأكل ويشرب وينام ويعقل كغيره من الحيوانات ، ولكن المؤكد أن هناك شيئاً

ما يميزه عن الحيوان ، شيئاً ارتقي به حتي أصبح هذا السيد الذي يحكم الحيوان والجماد ويقهر الطبيعة ، ،

وأخيراً اهتدي العلماء إلي التعريف الدقيق : الإنسان حيوان ذو تاريخ

ما معني ذلك : معناه أن الميزة الأولى التي تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات هي أن كل جيل من البشر يعرف

تجارب الجيل الذي سبقه ويستفيد منها ،

وأنة بهذه الميزة وحدها يتطور ، وعلي العكس من ذلك الحيوان ، فالأسد أو القط أو الكلب الذي كان يعيش في الأرض

منذ ألف سنة لا يمكن أن يختلف عن سلالة التي نراها اليوم ، في الصفات والطباع ونوع الحياة ،

أنت تستطيع اليوم أن تصطاد الفأر الذي تجده في بيتك بنفس الطريقة التي كان يتم اصطياده بها منذ زمن قديم ،

مصيصة وقطعة جبن ، ولو كان في بيتك عشرة فيران لاستطعت أن تصيدها واحداً بعد الآخر ، يوماً بعد يوم بنفس المصيصة

وقطعة الجبن ، ذلك أن الفيران ليس لها تاريخ ، ولا تستفيد من تجربة ،

هي لا تعرف أن في اليوم السابق دخل الفأر لياكل الجبن فأغلقت عليه المصيصة ، وهي قد تعرف ولكنها لا تدرك المغزي

، فلا تتحاشي أبداً قطعة الجبن ،

وعلي العكس من ذلك الإنسان ، إنه يعرف ما أصاب أسلافه بالأمس ، ومنذ مائة سنة ، ومنذ آلاف السنين ، فهو

قادر علي أن يتجنب زلاتهم ، ويستفيد من تجاربهم ، ويضيف إلي اكتشافاتهم ، وكل جيل لا يبدأ من جديد ، ولكن يضيف

إلي ما سبق ، وهذا هو التقدم ،

علي أن الإنسان لا يولد وعبرة التاريخ في جوفه ، ولكنه يتعلم ، فهو لا يستطيع أن يعرف التاريخ إلا إذا قرأ ،

إن كان رجل قانون قرأ ما سبق إليه فقهاء القانون ، وإن كان رجل كيمياء تعلم ما وصل إليه المكتشفون السابقون ،

ومن حيث انتهوا يستطيع أن يبدأ ، ،

وإن كان مواطناً فإنه يتعلم تاريخ وطنه كله ، ويدرك مغزاه ، وسر تطوره ، واتجاه خطواته ،

وليس يكفي أن تعرف حوادث التاريخ لكي تحسب أنك قد تعلمت التاريخ ، فالأهم أن نستخلص من هذه الحوادث

عبرتها : علي أي شئ تدل ؟ وفي أي طريق يمضي التاريخ ؟

فإن ذلك يجعلك تعلم ما سوف يحدث وما لا يمكن أن يعود فيجئك أن تكون رجعيًا ويحميك من السير وراء دعوات براءة

فات وقتها ، والتاريخ هو الفرق بين الإنسان الواعي ، وغير الواعي ، الإنسان غير الواعي لا يري إلا قطعة الجبن ، ،

ولكن الإنسان الواعي يري قطعة الجبن ، ، ويرى المصيصة ،

أحمد بهاء الدين

٣. لماذا نقرأ التاريخ

(- -) العلم بتاريخ الأمم السابقة والتعرف علي آثارها لكي يؤتي ثماره لابد أن يقرن بالعبرة والعظة التي تدفع الدارس والمشاهد والباحث إلي تدبر أحوال نفسه وأسرته ومجتمعه ، فلا يدعهم يقتربون ما اقترب غيرهم من الآثام ، والإعراض عن منهج الله وعبادة ما لم يأذن به الله ، فيهلكهم الله بعذاب أليم كما أهلك من قبلهم ، أما ما يفعله كثير من الدارسين من الاكتفاء بالوقوف علي الأطلال ودراستها دراسة وصفية جافة لا روح فيها كقولهم : إنهم كانوا يستعملون من أدوات الطبخ كذا وكذا وطريقتهم في الأفراح كبت وكبت ، وإنهم كانوا يحرقون بالمحراث الذي نحرت به . . . وحرص الاهتمام بالمظاهر الشكلية من قياس الطول والعرض والحجم والمادة المستعملة إلي غير ذلك

إن هذه الدراسة "الأكاديمية" الجافة لا توقظ في القلب شعوراً ولا تنفخ فيه حياة ، ولا تنير البصائر للتأمل وتتفكر وتستفيد وتتعرف علي سنن الله وآياته في الأنفس والآفاق - -

فالله يطلب منا أن يكون سيرنا في الأرض وبحثنا عن الآثار ودراستها بغرض إيقاظ القلوب والبصائر وبعث الحياة فيها --- وهذا التأمل في آثار السابقين ينتج عنه اتعاظ يتحول إلي سلوك ونهج عملي في واقع الحياة ملتزم بأمر الله ونهيه وقد جعل الله ذلك هداية للمستبصرين فقال : {أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ } (٢٦) سورة السجدة - - ١)

"مقتطفات مختصرة" نقلاً عن كتاب (صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي) تأليف د علي الصلابي ج ١ صفحة ٦٦ -

٤. شخصيات صنعت التاريخ

(إذا ابتعد المسافر عن مدينة أخذت تظهر له من بعيد الأمكنة العالية منها وكلما أوغل في الابتعاد وأمعن في السير صار لا يري إلا أكثر الأمكنة إصعاداً في الجو كذلك الناظر في التاريخ كلما ابتعدت به قافلة الزمن لا يلمح إلا الشخصيات

البارزة) ١

من كتاب (صقر قريش) تأليف (علي أدهم) ص ٧٤ مكتبة الأسرة ١٩٩٥

٥. هؤلاء شاركوا في كتابة تاريخ مصر

إيب وير :

كاتب بردية إيبوير المحفوظة في المتحف الوطني الهولندي للآثار في ليدن، بعد أن تم شراؤها من "جيوفاي أنستاسي" القنصل السويدي في مصر في عام ١٨٢٨. البردية يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. تصف البردية معاناة مصر من الكوارث الطبيعية وحالة من الفوضى، جعلت الأمور تنقلب رأساً على عقب
هيرودوت :

أو هيرودوتس باليونانية، باللاتينية **Herodotus**: كان مؤرخا إغريقيا يونانياً آسيوياً عاش في القرن الخامس قبل الميلاد (حوالي ٤٨٤ ق.م - 425 ق.م). اشتهر بالأوصاف التي كتبها لأماكن عدة زارها حول العالم المعروف آنذاك ومن بينها مصر التي قال عنها أنها هبة النيل
مانيتون :

مؤرخ مصري من مدينة سمنود، محافظة الغربية؛ كان كاهناً في عهد الملك بطليموس الثاني " حوالي ٢٨٠ ق.م" الذي كلفه بكتابة تاريخ مصر القديمة. أخذ مانيتون هذه المهمة على عاتقه واعتمد في كتاباته على الوثائق التي خلفتها الحضارة المصرية والتي كانت تضمها دور حفظ الوثائق بالمعابد بالإضافة إلى كل ما وجده في متناول يديه من وثائق الإدارات الحكومية وغيرها. فقدت النسخة الأصلية من تاريخ مانيتون أثناء حريق مكتبة الإسكندرية، ولم يصل من هذا التاريخ إلا مقتطفات نقلها بعض المؤرخين، ومنهم الإفريقي جوليوس الذي نقل في مؤلفه بعض أسماء الملوك التي كانت مدونة في تاريخ مانيتون الأصلي
يوليوس الأفريقي :

يوليوس افريكانوس (**Julius Africanus**) لاهوتي ومؤرخ مسيحي عاش في الفترة من ١٦٠ إلى ٢٤٠ م تقريباً ، تتلمذ علي يد هيرقلس (**Heraclas**) في مدرسة اسكندرية اللاهوتية بين عام ٢٢٨ - 232 ، وكان هيرقلس تلميذا لأوريغانوس وتولي ادارة مدرسة اسكندرية بعد أوريغانوس
ابن عبد الحكم :

أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم مؤرخ من أهل العلم بالحديث ـ مصري المولد والوفاة 187هـ- 257هـ صنف عبد الرحمن في التاريخ واهتم بتاريخ مصر حيث ألف كتاباً بعنوان فتوح مصر وأخبارها وهو أول ما ألف في التاريخ الإسلامي لمصر وتحدث فيه عن تاريخ مصر قبل الفتح، ثم عن فتح مصر وأخبارها وذكر قضائها منذ دخول جيوش المسلمين بقيادة عمرو بن العاص وحتى عام 264 هـ.
الكندي :

أبو عمر الكندي هو محمد بن يوسف بن يعقوب بن حفص بن يوسف بن نصير أبو عمر التجيبي الكندي نسبة إلى تجيب وهم من بطون قبيلة كندة المشهورة. ولد في مصر في 10 ذو الحجة سنة ٢٨٣ هجرية الموافق 17 يناير 897م وتوفي بها في 3 رمضان سنة ٣٥٠ هجرية 15 / أكتوبر 961م. خلف الكندي آثاراً وكتباً متعددة ضاع معظمها ولكن تبقى منها كاملاً كتابان هما " تسمية ولاية مصر " وأحياناً يسمى "امراء مصر حروبهم والأحداث التي وقعت في عصر كل منهم بدأ بعمرو بن العاص وصولاً إلى محمد بن طغج الاخشيدي حيث تنتهي الرواية بوفاة في ذي الحجة ٣٣٤ هجرية ويلي ذلك تتمة اضافها مؤرخ اخر من بعده تشمل باقي الولاية حتى دخول الفاطميين مصر.
ساويرس بن المقفع

(915- 987) كان أسقف قبضى مصرى ، (أسقف الأشمونين) هرموبوليس فى الصعيد .، و كان كاتب و

مؤرخ. ومن أعماله مصباح الفكر - تاريخ بطاركة كنيسة الإسكندرية القبطية

ابن زولاق

أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق الليثي **306-387 هـ 919 - 997 م** مولاهم المصري، كان فاضلا في التاريخ، وله فيه مصنف جيد، وله كتاب في خطط مصر استقصى فيه، وكتاب "أخبار قضاة مصر" وكان جده الحسن بن علي من العلماء المشاهير. كانت وفاته يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثمانين وثلثمائة.

ابن الأثير :

عز الدين أبي الحسن الجزري الموصلى **555-630 هـ** المعروف بـ ابن الأثير الجزري، مؤرخ إسلامي كبير، عاصر دولة صلاح الدين الأيوبي، ورصد أحداثها ويعد كتابه الكامل في التاريخ مرجعا لتلك الفترة من التاريخ الإسلامي ابن بطوطة :

محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة ولد في **24 فبراير 1304 - 1377 م** بطنجة **779703 - هـ** هو رحالة ومؤرخ وقاض وفقيه مغربي لقب بأمرير الرحالين المسلمين .خرج من طنجة سنة **725 هـ** فطاف بلاد المغرب ومصر والسودان والشام والحجاز وتهامة والعراق وفارس واليمن وعمان والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين الجاوة وبلاد التتار وأواسط أفريقيا .واتصل بكثير من الملوك والأمراء فمدحهم - وكان ينظم الشعر - واستعان بهباتهم على أسفاره. عاد إلى المغرب الأقصى، فانقطع إلى السلطان أبي عنان (من ملوك بني مرين) فأقام في بلاده. وأملى أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلبي بمدينة فاس سنة **756 هـ** وسماها تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .ترجمت إلى اللغات البرتغالية والفرنسية والإنجليزية، ونشرت بها، وترجم فصول منها إلى الألمانية نشرت أيضا. كان يحسن التركية والفارسية .واستغرقت رحلته ٢٧ سنة **13521325-م** ومات في مراكش سنة **779 هـ 1377م** حيث يوجد ضريحه بالمدينة القديمة. تلقبه جامعة كامبريدج في كتبها وأطالسها بأمرير الرحالة المسلمين الوطنيين

ابن خلدون :

عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي **14061332 - م** مؤرخ من شمال أفريقيا، تونسي المولد أندلسي الأصل، كما عاش بعد تخرجه من جامعة الزيتونة في مختلف مدن شمال أفريقيا، حيث رحل إلى بسكرة وغرناطة وبجاية وتلمسان، كما توجه إلى مصر، حيث أكرمه سلطانها الظاهر برفوق، وولي فيها قضاء المالكية، وظل بها ما يناهز ربع قرن (٧٨٤-٨٠٨هـ)، حيث توفي عام ١٤٠٦ عن عمر بلغ ستة وسبعين عامًا ودُفِنَ قرب باب النصر بشمال القاهرة تاركا تراثا ما زال تأثيره ممتدا حتى اليوم ويعتبر ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع الحديث واب للتاريخ والاقتصاد

المقريزي :

شيخ المؤرخين المصريين " أحمد بن علي المقريزي " المعروف باسم " تقي الدين المقريزي " ولد وتوفي في القاهرة **764 هـ . 845 هـ - (1364م 1442 - م)** ممن اهتموا بالتأريخ بكل نواحيه. ترك عدداً من الكتابات التاريخية الفائقة الأهمية مثل: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار المعروف باسم خطط المقريزي أو الخطط المقريزية

ابن تغري بردي :

أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي الأتابكي الشبكاوي الظاهري ولد بالقاهرة سنة **813هـ / 1410 م -** توفي بالقاهرة سنة **874هـ / 1470 م** وتغري بردي محرفة من تنكري يردي، ويردي بالتركية تعني عطا الله. (مؤرخ مصري كان أبوه من كبار أمراء المماليك في عهد السلطان الظاهر سيف الدين برقوق وابنه الناصر فرج بن برقوق. تتلمذ علمياً ودينياً على أيدي كبار مشايخ عصره أمثال زوج أخته قاضي القضاة جلال الدين البلقيني، وابن حجر العسقلاني، وبدر الدين العيني، وابن ظهيرة وابن عربشاه. ثم لازم مجلس شيخ المؤرخين تقي الدين المقرئ فتعلم منه حب التاريخ والتأريخ. وبذلك انتمى ابن تغري إلى طبقة الأمراء وأرباب الدولة وتتلذذ على أيدي العلماء واهل العمائم.

ابن اياس الحنفي :

زين العابدين محمد بن أحمد المعروف بـ بن إياس الحنفي ويكنى بـ " أبو البركات هو مؤرخ مصري ولد في القاهرة سنة ١٤٤٨ وتوفي بها سنة ١٥٢٣ يعد من أشهر وأهم المؤرخين الذين أرخوا للعصر المملوكي ولاسيما في الفترة الأخيرة منه يعد كتابه " بدائع الزهور في وقائع الدهور " (٥ أجزاء في ٦ مجلدات) أهم مؤلفاته وأرخ فيه لتاريخ مصر الضخم من بداية التاريخ لغاية سنة ١٥٢٢.

ابن ابي السرور البكري :

شمس الدين محمد بن محمد بن أبي السرور البكري الصديقي مؤرخ مسلم من أعيان القرن الحادي عشر الهجري. ولد في القاهرة سنة ١٠٠٥هـ، وتوفي بها سنة ١٠٦٠هـ، وكان عميد الأسرة البكرية في وقته، كما كان وثيق الصلة بالولاة العثمانيين.

الجبرتي :

عبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرتي ولد في القاهرة عام - **1756** وتوفي في القاهرة عام **1825** . وهو مؤرخ مصري عاصر الحملة الفرنسية على مصر ووصف تلك الفترة بالتفصيل في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» والمعروف اختصاراً بـ «تاريخ الجبرتي» والذي يعد مرجعاً أساسياً لتلك الفترة الهامة من الحملة الفرنسية. قدم أبو جده من قرية جبرت - والتي تقع الآن في أريتريا - إلى القاهرة للدراسة في الأزهر، واستقر بها.

على باشا مبارك

ولد بالدقهلية عام **1823 -** وتوفي بالقاهرة في **14 نوفمبر 1893** ولقب بـ "أبو التعليم" وكان مؤرخ و تربوى مصرى وتلقى العلم فى القاهرة وفرنسا وهو من اعمدة النهضة المصرية الحديثه. وبعد عودته من فرنسا تدرج في المناصب حتي أصبح رئيس ديوان الاشغال و المدارس، فبذل جهد كبير فى تجميل القاهره و تطوير التعليم و توسيعه. انشأ "الكتبخانه الخديويه" (التي أصبح اسمها دار الكتب المصريه ودار الكتب و الوثائق القومييه فيما بعد)، و دار العلوم. ألف كتاب مهم من عشرين مجلد عنوانه "الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة" علي غرار خطط المقرئ.

عبد الرحمن الرافعي :

عبد الرحمن الرافعي (8 فبراير 1889 م 3 - ديسمبر 1966 م) هو مؤرخ مصري، عني بدراسة أدوار الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث. من أشهر أعماله يؤرخ فيها منذ أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر حتى خمسينياته. تخرج الرافعي من مدرسة الحقوق الخديوية سنة **1908 م**. ومن أشهر مؤلفاته تاريخ الحركة الوطنية وتطور نظام الحكم في مصر. - عصر محمد علي - عصر إسماعيل -.. الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي

سليم حسن :

يعد الدكتور سليم حسن 1961 - 1893 العالم الأثري الكبير عميد الأثريين المصريين. ومن أشهر مؤلفاته: موسوعة مصر القديمة - جغرافية مصر القديمة - الأدب المصري القديم أو أدب الفراعنة ، وفي عام 1929 م بدأ سليم حسن أعمال التنقيب الأثرية في منطقة الهرم لحساب جامعة القاهرة لتكون المرة الأولى التي تقوم فيها هيئة علمية منظمة أعمال التنقيب بأيدي مصرية، وكان من أهم الأكتشافات التي نتجت عن أعمال التنقيب مقبرة رع ور وهي مقبرة كبيرة وضخمة وجد بها العديد من الآثار. واستمر سليم حسن في أعمال التنقيب في منطقة أهرامات الجيزة وسقارة حتى عام 1939 م اكتشف خلال تلك الفترة حوالي مائتي مقبرة أهمها مقبرة الملكة (خنت كاوس) من الأسرة الخامسة ومقابر أولاد الملك خفرع، بالإضافة إلى مئات القطع الأثرية والتماثيل ومراكب الشمس الحجرية للملكين خوفو وخفرع. أحمد فخري :

أحمد فخري (23 مايو 1973 - 1905) لقب بكبير وشيخ الأثريين. كما لقب أيضا براهب الصحراء. ومن أشهر مؤلفاته : الأهرامات المصرية - مصر الفرعونية - الواحات البحرية - واحة سيوة - دراسات في تاريخ الشرق القديم - بين آثار العالم العربي - اليمن ماضيها وحاضرها - رحلة أثرية إلى اليمن ، كما أن له عدة اكتشافات أثرية منها معابد عين المقتلة ، كما اكتشف مقبرة هضبة السوبي واكتشافات أثرية أخرى عبد المنعم ماجد :

المؤرخ المصري الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد (1921) . 1999 م، أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب . جامعة عين شمس، كانت حياته حافلة بالتأليف في مختلف مراحل تاريخ المسلمين خاصة خلال مرحلة العصور الوسطى.. ولد الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد في مدينة الإسكندرية عام ١٩٢١ م، وتدرج في مراحل التعليم المختلفة ثم أوفد في بعثة علمية فحصل على دكتوراه الدولة (Doctorat d'Etat) في التاريخ الإسلامي من جامعة باريس (La Sorbonne) بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٥١، وعاد إلى مصر ليعين بقسم التاريخ بكلية الآداب . جامعة عين شمس، وتدرج في وظائف هيئة التدريس إلى أن حصل على الأستاذية في عام ١٩٦٧ م، ثم صار رئيساً لقسم التاريخ منذ عام ١٩٧٢ حتى عام ١٩٧٨ م، وعمل أستاذاً متفرغاً بالقسم نفسه منذ عام ١٩٨١ إلى عام ١٩٩٩ م. ومن أشهر مؤلفاته نظم الفاطميين ورسومهم في مصر - مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي، وتعريف بمصادر التاريخ الإسلامي ومنهاجه الحديث، - السجلات المستنصرية - الناصر صلاح الدين الأيوبي - نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر - العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى - طومان باي . آخر سلاطين المماليك في مصر، دراسة الأسباب التي أنهت حكم دولة سلاطين المماليك، - التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر، دراسة تحليلية للازدهار والانحيار

جمال الدين الشيال :

الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال مؤرخ مصري وأستاذ التاريخ الإسلامي ولد بدمياط في 27 يونيو سنة 1911م .حصل على الدكتوراه في التاريخ من كلية الآداب ،جامعة الإسكندرية سنة 1947م .عمل ملحقاً ثقافياً بسفارة مصر وتدرج في العديد من المناصب، وحصل على العديد من الجوائز والأوسمة، وكان عضواً في الكثير من الجمعيات واللجان العلمية، توفي الدكتور جمال الدين الشيال في 2 نوفمبر عام 1967 في مدينة الإسكندرية بعد حياة علمية حافلة في التأليف والترجمة. من أشهر مؤلفاته : تاريخ الإسكندرية - تاريخ دمياط - قصة الكفاح بين العرب والاستعمار - رفاعة الطهطاوي - تاريخ مصر الإسلامية،

جمال حمدان :

ولد في ٤ فبراير ١٩٢٨ بالقلوبية وتوفي في ١٧ أبريل سنة ١٩٩٣ بالقاهرة أحد أعلام الجغرافيا المصريين وكان يمتلك قدرة ثاقبة على استشراف المستقبل متسلحا في ذلك بفهم عميق لحقائق التاريخ ووعي متميز بوقائع الحاضر، وقد ألف جمال حمدان ٢٩ كتاب و ٧٩ بحث ومقالة، أشهرها كتاب شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان، محمد عبد الله عنان :

7 يوليو ١٨٩٨ . ٢٠ يناير ١٩٨٦ مؤرخ مصري بارز، اشتهر بوجه خاص بأبحاثه ومؤلفاته وتحقيقاته في مجال الدراسات الأنطولوجية.

يوانان لبيب رزق

ولد يوم **27** أكتوبر، **1933** و مات يوم **15** يناير . **2008** كان مؤرخ وأستاذ للتاريخ الحديث في جامعة عين شمس وكان رئيساً لمركز الدراسات التاريخية بالأهرام، وعضو للمجلس الاعلى للثقافة والمجلس الاعلى للصحافة وكان متخصص في التاريخ المصري المعاصر والتاريخ العربي. سمته الصحافة المصرية والمؤرخين باسم "ذاكرة مصر".

جمال بدوي :

كاتب ومؤرخ مصري واسمه الكامل هو (محمد جمال الدين إسماعيل بدوي)، ولقد ولد في مدينة بسيون في محافظة الغربية يوم **12** فبراير **1934** ودرس الأدب، كما أنه كتب دراساتاً تاريخية بالإضافة إلى تقديمه أكثر من برنامج تاريخي بالتلفزيون المصري، هذا إلى جانب عمله الصحفي.

يعد جمال بدوي من أشهر المؤرخين في العصر الحديث.. أصدر بدوي حوالي عشرين كتابا في الفكر والتاريخ، منها "في محراب الفكر"، و"محمد على وأولاده" و"مسرور والسياف.. واخوانه" مسلمون وأقباط من المهد إلى المجد و"حدث في مصر"، و"معارك صحفية"، و"المماليك على عرش فرعون"، و"حكايات مصرية"، و"أنا المصري"، و"من عيون التراث". وقد توفي يوم ٣١ ديسمبر سنة ٢٠٠٧

٦. بعض عشاق الحضارة المصرية :

شامبليون

جون فرانسوا شامبليون بالفرنسية **Jean-François Champollion** : 23 ديسمبر

4 - 1790 مارس **1832** ، العالم الفرنسي الذي فك رموز اللغة المصرية القديمة بعد استعانتة بحجر رشيد

الذي كان قد اكتشف أثناء الحملة الفرنسية على مصر، فقد نقش على الحجر نص بلغتين وثلاث كتابات: المصرية القديمة ومكتوبة بالهيروغليفية والتي تعني الكتابة المقدسة، لأنها كانت مخصصة للكتابة داخل المعابد، والديموطيقية وتعني الخط أو الكتابة الشعبية، واللغة اليونانية بالأبجدية اليونانية، ومن خلال المقارنة بينهم نجح في فك طلاسم الكتابة الهيروغليفية.

في حقيقة الأمر لم يتمكن شامبليون من الالتحاق بالمدرسة في صغره، فتلقى دروساً خاصة في اليونانية واللاتينية، ويقال أنه حين بلغ التاسعة من عمره كان يستطيع قراءة أعمال هوميروس وفرجيليوس. انتقل شامبليون إلى جرينوبل للالتحاق بالمدرسة الثانوية، وهناك اتصل بفورييه، والذي كان سكرتيراً للبعثة العلمية التي رافقت حملة نابليون بونابرت، وكان لفورييه دوراً أساسياً في دفع الصبي شامبليون لدراسة علم المصريات، وذلك من خلال اطلاعه على مجموعته الخاصة من المقتنيات الأثرية.

ظهر نبوغ شامبليون مبكراً جداً، فقبل أن يبلغ السابعة عشرة كان قد قدم بحثاً عن الأصل القبطي لأسماء الأماكن المصرية في أعمال المؤلفين اليونان واللاتين، كما قضى ثلاث سنوات في دراسة اللغات الشرقية والقبطية على يد كبار علماء ذلك العصر، وأبدى موهبة لغوية نادرة، ثم رجع إلى جرينوبل مرة أخرى لتدريس التاريخ، ثم سافر إلى باريس ليعمل كأول أمين للمجموعة المصرية في متحف اللوفر، كما شغل وظيفة أستاذ كرسي الآثار المصرية في الكوليج دي فرانس، كما وضع شامبليون معجماً في اللغة القبطية، وتوفي وهو في شريحة الشباب بعد أن ترك إنجازاً علمياً حافلاً وشامخاً أيضاً.

مارييت

أوجوست مارييت أوجوست فردينان فرانسوا مارييت **Auguste Ferdinand François** -

(11 Mariette) فبراير 19 — 1821 يناير 1881 . مؤسس المتحف المصري في القاهرة عالم

من علماء المصريات كان له الفضل الكبير في الاحتفاظ بآثار مصر، وعرف فيما بعد بمارييت باشا.

جاء المسيو مارييت مصر سنة 1850 ، موفداً من قبل الحكومة الفرنسية للبحث عن بعض الآثار والمخطوطات، فعكف على التنقيب عن آثار سقارة، وأجرى حفائر عظيمة حتى كشف مدفن العجول السرابيوم ، وكان يعمل في التنقيب منفرداً، دون أن تكون له بالحكومة صلة رسمية، وقد نقل إلى فرنسا كثيراً مما عثر عليه من العاديات واللوحات الأثرية، وظل يعمل على هذا النحو حتى جعله سعيد باشا سنة 1858 مأموراً لأعمال العاديات بمصر، وكان ذلك بسعي المسيو فردينان دليسبس صديق سعيد الحميم، وقد بذل مارييت جهوداً في التنقيب عن العاديات والآثار ونقلت إلى مخازن أعدت لها ببولاقي. ولما مات سعيد لقي مارييت من إسماعيل تعظيماً كبيراً، فأمره الخديوي بإصلاح مخازن بولاقي وتوسيعها، وأفتتحها في حفلة رسمية حافلة يوم 18 أكتوبر 1863 ، وظلت دار العاديات في تقدم مستمر بفضل مثابرة مارييت ومؤازرة إسماعيل إياه طوال مدة حكمه.

ماسبيرو

جاستون كاميل شارل ماسبيرو **Gaston Maspero** عالم فرنسي من أشهر علماء المصريات ان

ماسبيرو يجيد اللغة العربية ولم يكن بعد قد زار مصر حتى جاءت له الفرصة عندما مرض مارييت مدير مصلحة الآثار

المصرية التي قام بتأسيسها - جاء ماسبيرو إلى مصر في 5 يناير من عام 1881 م وكان ذلك قبل وفاة مارييت بثلاثة عشر يوماً، وتولى منصب مدير مصلحة الآثار المصرية وأمين المتحف المصري للآثار ببولاق وكان عمره حينها الرابعة والثلاثين. أكمل ماسبيرو الحفريات التي كان يقوم بها مارييت في سفارة ووسع من نطاق البحث، وكان مهتما بشكل خاص بالمقابر التي تحتوى على نصوص فرعونية مهمة تثرى اللغة الهيروغليفية وقد عثر على ٤٠٠٠ شطر قام بتصويرها وطباعتها.

قام ماسبيرو بإنشاء المعهد الفرنسي للآثار في القاهرة وكان أول مدير لهذا المعهد الذي لم يقتصر على الآثار الفرعونية بل أمتد لدراسة جميع الآثار المصرية سواء الإسلامية أو القبطية.

واصل ماسبيرو حفائر مارييت في معبدى إدفو وأبيدوس، كما أستكمل أعمال مارييت في إزالة الرمال عن أبو الهول بالجيزة حيث أزال عنه أكثر من ٢٠ مترا من الرمال محاولا إيجاد مقابر تحتها ولكن لم يجد ولكن حديثا عثر على عدد من المقابر في أماكن الحفر التي كان ينقب فيها ماسبيرو، وقام بإعادة ترتيب المتحف المصري ببولاق ونقل محتوياته إلى متحف القاهرة الحالى، كما اكتشفت في عهده خبيئة بالكركك تحتوى على مئات التماثيل المنتمية لعصور مختلفة ونشر دراسات أثرية عديدة

ستانلي لينبول :

ولد المؤرخ والرحالة البريطاني ستانلي لينبول في مدينة لندن في الثامن عشر من شهر ديسمبر سنة ١٨٥٤ ودرس في جامعة أكسفورد وجامعة دبلن وبدأ حياته العملية كمؤرخ وباحث في الآثار ، وقد زار مصر أكثر من مرة وعمل بها وله مؤلفات عديدة تتناول تاريخها وتوج في سنة ١٩٠٢ سلسلة مؤلفاته في تاريخ مصر بكتاب (سيرة القاهرة)

أو تاريخ القاهرة **The Story of Cairo** والذي قام بترجمته كل من د حسن إبراهيم حسن و د علي إبراهيم حسن ود إدوار حليم وفي هذا الكتاب وصف رائع للعاصمة المصرية

جيمس هنري برستد **James Henry Breasted** ١٨٦٥ - ١٩٣٥ :

جيمس هنري برستد بالإنجليزية **James Henry Breasted** من ٢٧ أغسطس ١٨٦٥ إلى ٢ ديسمبر ١٩٣٥ عالم آثار ومؤرخ أمريكي. من أشهر علماء الآثار والمصريات، له العديد من المؤلفات والاكتشافات الأثرية المصرية لكن كتابه الأكثر شهرة على الإطلاق هو كتاب "فجر الضمير" الذي أثبت فيه بالأدلة التاريخية والأثرية المؤكدة أن الحضارة المصرية القديمة هي مهد الأخلاق والقيم والحضارة ومنبعها الذي انتشرت منه إلى مختلف بقاع العالم.

تيوفيل جوتييه :

كان تيوفيل جوتييه صحفي وأديب فرنسي يعشق مصر ويحلم أن يعيش علي شاطئ النيل وقد أورد اسمه الدكتور ثروت عكاشة في كتابه الرائع - مصر في عيون الغرباء - فكتب عنه تحت عنوان - الحالم المقتون بمصر فقال أنه لم يتح له أن يري مصر إلا قبل وفاته بثلاث سنوات عام ١٨٦٩ حين دعي ضمن من دعوا لزيارتها مع الإمبراطورة أوجيني إذ كان مراسلاً للجريدة الرسمية في فرنسا وقام بوصف أحداث احتفالات افتتاح قناة السويس في البلد الذي طالما عاش فيه بفكره وخياله من خلال قراءاته لكتابات أصدقائه من الأدباء والأثريين والفنانين وكانت مصر مصدر فيض غزير لإنتاج جوتييه الروائي وفي عام ١٨٥١ نشر جوتييه قصيدته - حنين بين مسلتين - مسلتي الأقصر وبarris

بيير لوتي

عاشق مصر وآثارها - بيير لوتي- يقدم لنا بيير لوتي الأديب الفرنسي الكبير وأحد أساطين أدب الرحلات وعضو الأكاديمية الفرنسية كتابه الخالد - موت فيله - بعد رحله قام بها إلي مصر عام ١٩٠٧ طاف خلالها ببلدانها المختلفة

واستطاع أن يلمح بعينه الثاقبة الطابع الفرعوني والمسيحي والإسلامي لمصر ويتذوقه ، ذلك الطابع الذي يجعلها فريدة بين أمم العالم ، لها نكهتها الخاصة وشخصيتها المميزة وقد أهدي كتابه هذا إلي ذكرى صديقه النبيل مصطفى كامل باشا الذي قضى نحبه عام ١٩٠٨ - - والكتاب بعد ذلك لا يحوي تحليلاً علمياً أو اجتماعياً بل هو مجرد انطباعات أديب لمارح يملك أن يرسم بقلمه مختلف الألوان في بهجة تجذب القلوب وتشد العقول - - - ،

جان ليون جيروم **Jean-Léon Gérôme**

الرسام والنحات الفرنسي المشهور ١٨٢٤-١٩٠٤م من أشهر الفنانين المستشرقين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، زار مصر عام ١٨٥٤ ، وظاف بالعديد من بلدان الشرق الأدنى إلا أن مصر ظلت هي معشوقته الأثيرة وأمضى أكثر من شتاء في ذهبية علي النيل بالقاهرة يدرس بعناية شديدة المباني الإسلامية ومحتوياتها ، ويفتش بعيون كاتب الحوليات وعالم الآثار عن مشاهد الحياة اليومية المصرية والأحداث التاريخية - - حتي أذهل معاصريه باتساع الموضوعات التي تناولها - - ولمدة ثلاثين سنة احتلت لوحات جيروم مكان الصدارة في معارض صالون باريس سواء تصاوير القصص والشخصيات التاريخية

لويجي مايير **Luigi Mayer**

كان العديد من الرحالة الذين زاروا الشرق الأدنى بكثرة قرب نهاية القرن الثامن عشر علي مستوى عالي من الكفاية الفنية ، فقد كان معظم أثرياء الإنجليز قبل اختراع التصوير الفوتوغرافي من هواة الرسم ، ومن لم يكن يجيد التصوير منهم اصطحب معه في رحلته رساماً وقد قام الفنان البريطاني لويجي مايير **Luigi Mayer** برسم ثلاثة عشر لوحة عن مصر في الفترة من سنة ١٨٠١م إلي سنة ١٨١٠م وكانت أبرز هذه اللوحات لوحة مقياس النيل ولوحات الأهرامات والنيل

٧. من مقدمة كتاب المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور - تأليف محمد بن أحمد

بن إياس الحنفى المصري

يقول ابن إياس غفر الله له ولوالديه وأحسن إليهما وإليه :

اعلم - وفقك الله - أن مصر من أجل البلاد قدراً ، قال تعالى مخبراً عن فرعون (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون) وأما بالإشارة والإيماء فمنها قوله تعالى (كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم) يعني مصر ، وأما ما ورد فيها من الأخبار النبوية فمنها قوله صلى الله عليه وسلم (إذا فتح الله عليكم بعدي مصر فاتخذوا منها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض ، لأنهم في رباط إلي يوم القيامة)

قال أبو الريحان : ولد بمصر من الأنبياء موسى وهارون عليهما السلام ، وولد بها يوشع بن نون ودخل إليها عيس بن مريم وأقام بقرية بالصعيد ، ودخل مصر من الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام ، ويعقوب ويوسف والأسباط وأرمياء ، ودخل إليها دانيال ولقمان الحكيم عليهم السلام ، ودفن بها من العلماء جماعة كثيرة كما سيأتي ذلك في مواضعه وكان من أهلها مؤمن آل فرعون الذي أثني الله تعالى عليه في القرآن ، ومنهم آسية امرأة فرعون التي أخبر الله تعالى عنها في كتابه ، قال مساعد الغوثي في كتاب طبقات الأمم : ليس في بلد أعجوبة إلا وفي مصر مثلها أو أعجب منها وقال كعب الأحبار رضي الله عنه : من أراد أن ينظر إلي شبه جنة الفردوس فليُنظر إلي أرض مصر ، قيل قبل طلوع الشمس في زمن ربيعها إذا اطردت أنهارها ، وغردت أطيارها ، وأينعت أزهارها وقد قال القائل في المعنى :

ما مثل مصر في زمان ربيعها لصفاء ماء واعتلال نسيم

أقسمت ما تحوي البلاد نظيرها لما نظرت إلي جمال وسيم

وقال المسعودي (إن كل قرية من قري مصر تصلح أن تكون مدينة علي انفرادها) وقد قال الله تعالى في حق قري مصر (وابعث في المدائن حاشرين) ، وقال القضاعي (لم يكن في الأرض ملك أعظم من ملك مصر ، ولو ضرب بينها وبين سائر قري الدنيا سور لاستغني أهلها بما فيها عن سائر البلاد ، ولو زرعت كلها لوفت بخراج الدنيا بأسرها)

وقد قيل عن مصر :

كل وقت بمصر أمر عجيب نحن منه في السعد كالأغنياء
ذهب حيث ذهبنا ، ودر حيث درنا وفضة في الفضاء

وقال الوردي رحمه الله :

ديار مصر هي الدنيا وساكنها هم الأنام فقابلها بتقبيل
يا من يباهي ببغداد ودجلتها مصر مقدمة والشرح للنيل

مقتطفات مختصرة من مقدمة كتاب المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفي

٨. مكانة الكتابة والكاتب في مصر القديمة

عن هذا الموضوع كتب د مصطفى النشار أستاذ الفلسفة القديمة بكتابه الممتع الخطاب السياسي في مصر القديمة ما ملخصه :

، الحكيم أني يخاطب ابنه قائلاً : فلتكن أمنيتك أن تصبح كاتباً ، فالكتاب أعطي رزق تسعى إليه ، وأعظم هبة يهبها الإله لمن يسعى إليه ، الكتاب أعظم قيمة من مسكن الحياة حيث تشرق الشمس وأبقي خلوداً من مقبرة حيث تغرب الشمس ، إنه أجمل وأمتع من قصر في البستان أو لوحة دعاء في هيكل معبد الآلهة ، إن حياة الكاتب ومهنة الكتابة كانتا تمثلان أملاً وقدوة ينبغي أن تحتذي ، وقد حاول كتاب مصر وحكمائها إقناع ذويهم بذلك قدر الطاقة وبمقدار ما استطاعوا من بلاغة في الخطاب

وها هو الملك الأهناسي المسن يأمر ابنه بفتح ملف البرديات الذي يحتوي علي نصائح الوزير والمفكر المصري العظيم بتاح حوتب وقد مر عليها آنئذ حوالي أربعمئة سنة قائلاً له : كن ممن يحسنون صناعة الكلام لتكون قوي البأس لأن قوة الإنسان هي اللسان ، والكلام أعظم بأساً من كل حرب ،

ولا شك أن ذلك الملك المسن كان ممن يؤمنون بآراء بتاح حوتب الأخلاقية والسياسية وخاصة بقوة منطقته في التدليل علي أهمية الخطابة والقدرة علي الإقناع

إن إدراك قيمة الكتابة وخطاب الحكمة قد انتقل من مستوي النظر إليها كمهنة شريفة تجلب السعادة لصاحبها وللآخرين ، إلي مستوي النفع السياسي ، ويرجع الفضل في ذلك إلي ما كتبه بتاح حوتب في حوالي ٢٧٠٠ قبل الميلاد ، حيث كان هو أول من أدرك ذلك الربط بين الخطاب المكتوب أو المسموع وبين المهارة السياسية ، :

إذ إن ثروة المرء العظيمة هي عقله ، وإذا كان العقل قد صقل بالعلم والمعرفة فلا ينبغي للإنسان أن يتكبر علي الآخرين بما يعرف أو يعلم بل عليه أن يشاور الجاهل والعاقل لأن نهاية العلم لا يمكن الوصول إليها وليس هناك عالم بلغ في فنه حد الكمال ولذلك فهو يطالب العالم - الحكيم بأن يحسن الاستماع كما يحسن الكلام ،

كما أكد أيضاً بتاح حوتب في نصائحه لابنه :

إذا كنت حاكماً فكن شقيقاً حينما تسمع كلام المتظلم ولا تسئ إليه قبل أن يغسل بطنه ويفرغ من قول ما قد جاء من أجله ، وأنها لفضيلة يزدان بها القلب أن يستمع مشفقاً

نقلاً باختصار عن كتاب الخطاب السياسي في مصر القديمة - د مصطفى النشار أستاذ الفلسفة القديمة بكلية الآداب جامعة القاهرة - الناشر دار قباء للطباعة والنشر - الطبعة الأولى ١٩٩٨ - صفحة ٣٣ وما بعدها

٩. القاهرة مدينة يسكنها التاريخ

في مقدمة كتابه الرائع (القاهرة رحلة في المكان والزمان) كتب المؤلف عرفه عبده علي عبقرية المكان - - - وعطاء التاريخ - - - شكلا موضع الجلال وموطن الجمال للقاهرة التي ظلت منذ نشأتها مصدراً للإشعاع الحضاري والتجديد الثقافي ، فتبوأ مكانتها كأهم مراكز الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية في العالم الإسلامي ،

وقد تفردت القاهرة ، بين مدن العالم بما تزخر به من تراث حضاري إنساني شكل طوقاً بديعاً علي صدرها بتنوع ووفرة آثارها وقيمتها التاريخية تمثل العصور المتعاقبة والمتصلة للتاريخ الإسلامي إلي تأسيس مصر الحديثة في عصر محمد علي باشا ثم عصر إسماعيل العظيم ، وقاهرة الشرق لا حد لروعيتها وما استطاع الزمان أن يطمس طابعها وجلالها ، وكم بهرت رحالة وأدباء وفنانين وشعراء ومؤرخين بما حبتها الطبيعة وما أضفاه عليها التاريخ من عراقة ، وما ارتفع علي أرضها من آيات الفن ،

مدينة يسكنها التاريخ ، شوارعها حكايات وبيوتها وسراياتها ومساجدها مشربيات علي تاريخ حافل مثير وللقاهرة في نفوس المصريين خاصة والعرب عامة إيقاع شجي ونغم يحمل في طياته شتي أنواع الألم والحسرة علي ماض جميل يكاد يندثر ، وكم شغفت بالتجوال بين شوارعها وحواريها وأسواقها وميادينها ، وأطوف بين معالمها ، وبعض الزمان يتعلق بأحجار المباني وكل حجر يحمل بصمات فنان ، أسوار ، أبراج ، بوابات مساجد ، مآذن تطاول السماء في إيحاء عميق ، وأخري تتراءي كأطراف من بعيد وأسئلة وحمامات ووكالات وحدائق ومتاحف وبيوت وقصور ، ديكورات لمشاهد صنعت التاريخ ، أمثلة رائعة للجمال تحكي في صمت قصة آلاف الفنانين بناة الحضارة

وأسرع الطرف عجباً أتحمس بنظرات رفيقة جدران عتيقة تراكم عليها الزمان لعلها تجلو لي سراً من أسرار القاهرة ، لا يزال ماء الذهب يسطع ببهجة أيامه الغابرة ، وحيث سجل حياة مدينتنا ، مرصع بأسماء كثير من العظماء الذين تركوا أثراً عند كل موقع ، ويأخذني انطباع سحري يوحي بما كان عليه الحال في سالف الزمان

وما بين صخب الزحام وروائح التوابل والعطور وتناغم الألوان والظلال تمضي المشاهد وكأنها الرؤي ويتشعب الحديث عبر مسالك الزمان والمكان ويبقي تراث القاهرة حياً في الثقافة والتقاليد الموروثة وفي شواهد المجد والعز القديم

وما أروع ما قاله الأديب الفرنسي أندريه مالرو : مصر هي التي اخترعت الخلود ، وأنظروا إلي العمارة

نقلًا عن كتاب - القاهرة رحلة في المكان والزمان - تأليف عرفه عبده علي -تقديم الأديب الكبير جمال الغيطاني -

الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

١٠. السبق الحضاري ملمح أساسي في شخصية مصر

عن هذا الموضوع كتب د جمال حمدان ما يلي :

، - - - إنها البلد الوحيد الذي يلتقي فيه نهر النيل بالبحر المتوسط ، الأول بالطول والثاني بالعرض ، الأول بعد رحلة سحيقة شاقة مفعمة بالأخطار والمخاطر وبالعقبات والسدود ، الجيولوجية والمناخية والنباتية والطبوغرافية والهيدرولوجية ، كل منها كان يمكن وحده أن يشتته يجهضه يقطع عليه الطريق ولكنه يجتازها جميعاً بإلحاح ثم بنجاح - لمصر يجتازها ،

والثاني يصلنا في أقصى نهايته ونهاية مطافه

الأول أوسط أنهار الدنيا موقعاً وأطولها وأعظمها

والثاني أوسط بحار الدنيا ، سيد البحار وأعرقها

إنه لقاء الأكفاء والأنداد والأفذاذ جغرافياً

أبو الأنهار وأبو البحار مهد الفلاحة ومدرسة الملاحة

نهر الحضارة وبحر التاريخ ، أو نهر التاريخ وبحر الحضارة سيان

وبهذا اللقاء مع التحام القارتين وتقارب البحرين فكأنها كل أصابع الطبيعة تشير إلي مصر ،

وكان خطة علوية عظمي قد رتبها الجغرافي الأعظم لتجعل منها قطباً جغرافياً أعظم في العالم القديم

فكانت حضارة مصر النيل الفرعونية ، الحضارة الأولى في التاريخ ، الرائدة المشعل ،

وسواء كانت صدفة سعيدة أو نتيجة حتمية ، فتلك ملحمة جغرافية ترجمت إلي ملحمة حضارية

سواء أكانت هذه الحضارة البكر الخلاقة من خلق النيل المعلم ، أو الفلاح المصري الملهم ، فإنها ثمرة الزواج الموفق

السعيد بين أبي الأنهار وأم الدنيا - - -

وفي جميع الأحوال ، فإن مصر هي واسطة كتاب الجغرافيا تحولت إلي فاتحة كتاب التاريخ

وفي جميع الأحوال أيضاً ، فإن السبق الحضاري ملمح أساسي بلا نقاش في شخصية مصر ،

وأخيراً وليس آخراً فلقد أبدت هذه الحضارة استمرارية نادرة فعمرت بصلاية وتماسك آلاف السنين

نقلًا باختصار عن كتاب - مختارات ٢ من شخصية مصر - دراسة في عبقرية المكان - د جمال حمدان ، مكتبة

مدبولي ، صفحات ٧٢-٧٣-٧٤

١١. عن مصر القديمة والبيئة الفيضية

في كتابه الممتع شخصية مصر كتب د جمال حمدان ما ملخصه :

— — — الحقيقة الكبرى في كيان مصر هي أنها بيئة فيضية ، لا تعتمد علي المطر في حياتها ، وإنما علي ماء النهر ، وقوامها هو زراعة الري — — ومن هنا بالدقة يبدأ كل الفرق في حياة المجتمع النهري وطبيعته ، ففي البلاد التي تعيش علي الأمطار مباشرة يختزل المجهود البشري إلي حده الأدنى ، فبعد قليل من إعداد الأرض والبذر ، يتوقف العمل أو يكاد حتي الحصاد ، وبين هذا وذاك فليس هناك من يحفر الترع والمصارف أو يقيم الجسور والسدود وأهم من هذا كله أن ليس هناك من يمكنه أن يحبس عنك المطر أو أن يتحكم في توزيعه ،

من هنا فقد تكون الطبيعة سيدة الفلاح ولكن الفلاح بعد ذلك سيد نفسه أما في بيئة الري فالأمر مختلف كل الاختلاف — — لابد من مجهود بشري ضخم أي لابد من شبكة غطائية كثيفة من الترع من كل مقياس ابتداء من قنوات الحمل وقنوات التغذية إلي مساقى الحقول حتي تزرع ثم ما جدوي تلك الشبكة إذا لم تسيطر علي أعناقها ورعوسها بالنواظم والقناطر والسدود ؟ أعني أي جدوي فيها بغير ضبط النهر ؟

وأكثر من هذا ما جدوي الجميع بغير ضبط الناس ؟ — — إن زراعة الري إذا تركت بلا ضابط يمكن أن تضيع مصالح الناس المائية في مواجهة بعضها البعض مواجهة متعارضة دموية ، ذلك أن كل من يقيم علي أعلي الماء يستطيع أن يسئ استعماله إما بالإسراف أو بحبسه تماماً عن يقع أسفله أي أن كل حوض علوي يستطيع أن يتحكم في حياة أو موت كل حوض سفلي وكل من يقع علي أفواه الترع يستطيع أن يهدد حقوق المياه لمن يقع علي نهايات الترع ، كذلك يمكن للمحاباة والتحيز أن تسخو بالماء لمن تريد وتقبضه عن تريد

المحصلة إذن واضحة : بغير ضبط النهر يتحول النيل النبل إلي شلال حطم جارف ، وبغير ضبط الناس يتحول توزيع الماء إلي عملية دموية ويسيطر علي الحقول قانون الغاب والأدغال في ظل هذا الإطار الطبيعي يصبح التنظيم الاجتماعي شرطاً أساسياً للحياة ويتحتم علي الجميع أن يتنازل طواعية عن كثير من حريته ليخضع لسلطة عامة أعلي توزع العدل والماء بين الجميع ، سلطة عامة أقوى بكثير مما يمكن أن تتطلبه بيئة لا تعتمد علي نهر فيضي في حياتها

وبذلك لا تكون الطبيعة وحدها سيدة الفلاح ،

وإنما بين الاثنين يضيف الري سيداً آخر هو الحاكم

فإذا ما التفتنا إلي مصر القديمة بصورتها الفرعونية فستجابهنا هذه الملامح ، ملامح المجتمع الهيدرولوجي إلي حد نادر المثال ، فقد عد فرعون ضلعاً أساسياً في مثلث الإنتاج إلي جانب الضلعين الطبيعيين الماء والشمس هذا عن الحكومة أما عن المجتمع فهو أساساً مجتمع تعاوني منظم — — وهنا نجد في القرية المصرية في صميم تركيبها وسيكولوجيتها وزراعتها قدراً كبيراً متوطناً ومتأصلاً من التعاونية والمشاركة التلقائية ، فهي خلية بشرية متلاصقة متلاحمة

نقلاً باختصار عن كتاب مختارات من شخصية مصر ٣ للدكتور جمال حمدان — مكتبة مدبولي — مقتطفات مختصرة من

صفحة ٢٠ وما بعدها

١٢. أول حكومة في التاريخ كانت في مصر

عن هذا الموضوع كتب د جمال حمدان :

(--- فالبينة كما رأينا فيضية ، والمجتمع مجتمع هيدرولوجي ،

ولهذا أصبح الري مرادفاً للتنظيم ، والتنظيم المركزي ، الذي يخضع فيه الجميع طوعية لسلطة عامة مطلقة .

وإن كان هذا من أقوى عوامل ظهور الوحدة السياسية المبكرة في مصر ،

كما أنه علم الشعب "أن" النظام أساس الحضارة ،

إلا أن هذا أيضاً بدأ دور الحكومة الطاعي وأرسي نواة الموظفين الثقيلة ، وأصبحت البيروقراطية المركزية عنصراً أصيلاً

في مركب الحضارة المصرية ، بل ثقلاً عنيداً في موكبها . أصبحت مصر مجتمعاً حكومياً كما نقول ، فالحكومة وحدها هي

التي تملك زمام المبادرة وإمكانات العمل ، العمل الكبير علي أية حال ،

وقد كان لهذا قيمته في بعض المراحل - - ، ولو أنه ربما خلق في جميعها شيئاً من روح التواكل والتكاسل والسلبية

وخلق ملكات المبادأة وحوافز التلقائية في السكان ،

وهنا ، مرة أخرى ، نجد أن الحكومة المركزية الأولى في التاريخ ليست ميزة صافية بلا شوائب ولا كانت مكسباً بلا ثمن

والذي يتعمق تاريخ مصر الاجتماعي ستروعه ولا شك تلك البيروقراطية العاتية التي تمتد علي طوله بغير انقطاع ،

حتى لتشكل نغمة دالة عليه وملحاً أساسياً آخر من ملامحه ، فالبيروقراطية في مصر قديمة قدم الحضارة الفرعونية ، مع

الأهرام تبدأ ، وفيها تتلخص ، ---

ويكفي بعدها أن نري صور كبار الموظفين علي النقوش والآثار القديمة وأن نعرف أخبارهم المتواترة في البرديات

والسجلات العديدة حتي ندرك خطورة الدور الذي لعبته الهيئة البيروقراطية في القديم ، بل إن شئت رمزاً بليغاً

ففي النحت تجده ابتداء من تمثال الكاتب حتي تمثال شيخ البلد

فهذه جميعاً نصب تذكارية وتاريخ محفوظ أو محفور للبيروقراطية الفرعونية الثقيلة (١

نقلاً عن كتاب - القاهرة - د جمال حمدان - صفحة ٨٥

١٣. مصر : جسم بشري واحد ووحيد ، ووسط جغرافي أحادي بالتأكيد ، ونهر سائد

وفريد

عن هذا الموضوع كتب د جمال حمدان ما يلي :

- ، ، ، ومن هذا جميعاً نري أن الوحدة التاريخية التي لم تنقطع والتي كانت جزئياً ثمرة للتجانس البشري قد ضاعت بدورها من هذا التجانس ، حتي قل أن نجد شعباً متماثلاً في ملامحه الجسمية والنفسية ، في مزاجه وتقاليده ، باختصار في (طابعه القومي) كالشعب المصري ، ولربما زدنا هذه الحقيقة وضوحاً إذا ما وضعناها موضع المقارنة مع بلاد أو شعوب أخرى مجاورة في الشرق العربي مثلاً عبر العصور الطوال كما في يومنا هذا ، نجد أن سوريا تمتاز في كل نواحي حياتها وكيانها بمعادلة إقليمية أساسية تعد مفتاحاً لكل أعماق شخصيتها : إنها تتألف من عدد كبير من الوحدات الضئيلة : في الأرض والطبوغرافيا ، في العروق والسلالات ، في اللهجات والاتجاهات ، في الطوائف والملل ، حتي في المدن والواحات ، إنها في ذلك كله كومة مفككة من الأحجار الصغيرة وأكاد أقول من حصي وتراب ، والعراق أكثر تجانساً وتماسكاً ، فهو بنهره وبيئته الطبيعيتين السهل والجبل - - إلخ ، أقرب إلي الثنائية التركيبية - إلي حجرين كبيرين نوعاً

أما مصر في هذه المتتالية التصاعدية فتأتي علي القمة ، فهي حجر واحد monolith ، وحجر ضخمة عند ذلك megalith ، فهنا جسم بشري واحد ووحيد ، ووسط جغرافي أحادي بالتأكيد ، ونهر سائد وفريد ، وهي لذلك كله أبعد ما تكون عن التناثر الداخلي ، أو التخلخل التركيبي ، ومنه تستمد ثقلاً ووقعاً ، وقوة اندفاع فرضت نفسها علي تاريخ المنطقة

نقلًا عن كتاب مختارات (٣) من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان - الفصل الخامس - وحدة مصر الوطنية - مكتبة مدبولي

١٤. السبيلة السياسية في تاريخ العالم الإسلامي وخصائص شخصية مصر

الاستراتيجية الكامنة :

نقلًا عن كتاب مختارات (٣) من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان - الفصل الثاني - شخصية مصر السياسية - مكتبة مدبولي

(- - -) فرغم أن مصر ستفقد استقلالها مرات طوالاً في العصور الوسطى لإمبراطوريات أو خلافت واسعة ، فكثيراً ما سنجابه بها تتحرك في الميدان الدولي كقوة لها وزنها الخاص ، ولا ينقصها الحكم الذاتي ، أو قد تفقد استقلالها لأسرة حاكمة أجنبية ، ولكنها من داخل تلك الأسرة تتصرف كدولة مستقلة دولة داخل الدولة كما قد نقول وتبرز فيها من جديد خصائص شخصيتها الاستراتيجية الكامنة ولا مفر لنا لهذا من أن نعد مسألة السيادة أو التبعية في تاريخ مصر الإسلامية مسألة نسبية أو خاصة تستلزم الاستدراك أو التحفظ في الحكم .

والواقع أن العصر الإسلامي الوسيط عموماً يمتاز سياسياً بخاصية فريدة ، بدونها قد نخطئ فهم الخريطة السياسية كلها ، تلك هي " السبيلة السياسية " غير العادية فلقد كان العصر عصر الدين ، عصر القومية الدينية ، وكان الإسلام هو العقيدة والعصبية ، والجنس والجنسية ، والوطن والوطنية جميعاً ، وكان روح العصر أن ينتقل المسلمون بحرية وبلا قيود داخل دار الإسلام أو الكومنولث الإسلامي ، كذلك غلبت فكرة الوطن المحلي علي الوطن الإقليمي فكان المسلم ينسب إلي بلده أكثر مما ينسب إلي بلده ، فيقال البغدادي ، أو البصري أو السامرائي ولا يقال العراقي ، ويقال الدمشقي أو الحلبي أو الطرابلسي ، أو المقدسي ولا يقال السوري ، والقاهري أو السكندري لا المصري ، والقابسي ، الوهراني ، والفاسي ، لا المغربي وهكذا أما من الناحية السياسية فلم تكن الوحدات الجغرافية الإقليمية بنواتها الطبيعية المحددة ، ولا كانت فكرة الوطن والوطنية بمعنى القومية الحديث والولاء الضيق ، ظاهرة متبلورة أو جامدة ، بل كانت غير واضحة متميعة داخل فكرة الوطن الإسلامي الكبير ومتداخلة معها بصورة شبه هلامية ، بالتالي كان العالم الإسلامي وعاء ضخماً أو هيكلاً أخيراً تقوم فيه الدول المختلفة وتتعدد ، وتتنافس وتتصارع ، ولكنها أساساً تقوم علي أصل أو أساس شخصي أو أسري بحت - أي حكومة عائلة بعينها- أو حاكم بعينه في الاعتبار الأول ، ولقد تستقر علي نواة إقليم جغرافي كامل ، أو محدد بعينه أو أكثر ولكنها ممكن دائماً أن تنتقل أو تتمدد إلي أيما أبعاد إقليمية جغرافية يستطيع أن تصل إليها نفس تلك الأسرة الحاكمة بلا تحديد سوي قوتها السياسية وطاقتها التوسعية ، وبلا أي عائق أو حرج قومي ما بقيت في إطار الوطن الإسلامي الكبير نفسه بعبارة أخرى للدول السياسية الإسلامية أبعاد أو مستويات ثلاثة تتداخل وتترجح بسهولة وبلا تحديد واضح فهي علي المستوي القاعدي حكومات شخصية ، ودول شخصية ، وإمبراطوريات شخصية ابتداء وانتهاء ، وهي علي المستوي الجغرافي لا ترتبط بنواة إقليمية إلا عشوائياً وكما اتفق ، وهي علي المستوي الأعلى والنهائي لا ترتبط إلا بحدود العالم الإسلامي الكبير نفسه ، أخيراً إنها باختصار شديد دول شخصية لا جغرافية

من هنا كان الحكام يتحركون من قطر إلي قطر أو يفتحون أو يضمون قطراً من قطر دون حساسيات إقليمية أو قومية حادة ودون أي مدلول أو محمول استعماري . الاستثناء الوحيد - ويعنف وضراوة عند ذلك - كان في حالة الكفار من وثنيين أو غير مسلمين كالتتار والصليبيين ويبدو أن الظاهرة نفسها وبرمتها كانت تسود داخل أوروبا المسيحية المعاصرة حيث كان الجرمان يحكمون في إيطاليا أو إنجلترا ، أو الفرنسيون في ألمانيا ، أو الإسبان في هولندا ... إلخ ليس هذا فحسب ، الأكثر منه ، وما قد يبدو لنا اليوم الأغرب ، أن هذه الدول ، تماماً مثلما سلم البطالسة أنفسهم من قبل للرومان ، كثيراً ما كانت تسلم نفسها بنفسها لبعضها البعض ، ربما بكثير من الصراع السياسي والصدام العسكري ، ولكن بغير حساسيات قومية حادة تستثار أو تتراكم ، وبلا نعرات إقليمية تتلم أو تمتن ، وإنما الأقوي والأقدر علي المحافظة علي الإسلام والعصبية الإسلامية في وجه الخطر الأجنبي ، أي الكفار "كالتتار والصليبيين" هو ببساطة الذي يُدال إليه وربما يُستدعي استدعاء من جانب المُدال منه لكي يقوم بالمهمة المقدسة التي تغلو علي الطرفين جميعاً

١٥. نقلاً باختصار عن كتاب شخصية مصر - دراسة في عبقرية المكان للدكتور

جمال حمدان حيث كتب ما ملخصه :

(، - - -) فنحن كشعب - لابد لنا بصراحة أن نعترف - لا نحب فقط أن نمجد أنفسنا بحق وبغير حق ، ولكننا أيضاً نحب أن نسمع عن أنفسنا ما يرضينا ويعجبنا أو يرضي إعجابنا بذاتنا الوطنية وبشخصيتنا القومية ، بل إننا لنكره أشد الكره أن نسمع عن عيوبنا وشوائبنا ، ونرفض بإباء أن نواجهها أو نواجه بها ، ولا تكاد توجد فضيلة أو ميزة علي وجه الأرض إلا وننسبها إلي أنفسنا ونلصقها بها ، وأيما رذيلة أو عيب فينا - إن هي وجدت علي الإطلاق - فلا محل لها لدينا من الإعراب أو الاعتراف ، وإن اعترفنا بها علي مضض واستثناء فلها العذر الجاهز والمبرر والحجة المقنعة أو المقنعة ، ومن طريف ما يلاحظ في هذا الصدد أننا ، حين نرجع مثلاً فيما نكتب عن أنفسنا إلي كتابات الرحالة والمؤرخين العرب في العصور الوسطي أو الكتاب الأجانب المعاصرين ننتخب منها فقط تلك الإشارات الطبية والمرضية ونحشدها حشداً كفضائل مصر مهملين ببساطة شديدة كل الإشارات العكسية أو المعاكسة التي أوردها الكاتب نفسه والتي قد تكون أضعاف الأولى كما وكيفاً ، ليس هذا فحسب أو ليت هذا فحسب فما أكثر بعد ذلك ما نقبل عيوبنا عن عمد إلي مزايانا ونقائصنا إلي محاسن ، بل أسوأ من ذلك قد نتباهي ونتفاخر بعيوبنا وسلبياتنا ذاتها ، - - - ويبدو عموماً أننا كلما زاد جهلنا بمصر كلما زاد تعصبنا لها ، بل الملاحظ أننا كلما ازدادت أحوالنا سوءاً وتدهوراً كلما زاد تفاخرنا بمجدنا وعظمتنا - - -

أياً ما كان ، فنحن معجبون بأنفسنا أكثر مما ينبغي وإلي درجة تتجاوز الكبرياء الصحي إلي الكبر المرضي ، ونحن نتلذذ بممارسة عبادة الذات في نرجسية تتجاوز العزة الوطنية المتزنة السمحاء إلي النعرة الشوفينية الساذجة البلهاء أو الهوجاء ،

ويدهي أن هذا الشعور يرجع في حالتنا إلي ميراث القرون والأجيال الكاتمة الكئيبة من الاستعمار والتبعية والاستبداد والمذلة والتخلف والفقر ، ومن هنا جميعاً تبدو الهوة هائلة والتناقض فاحشاً إلي حد السخرية بين واقعنا وحقيقتنا وبين ادعاءاتنا وطنناتنا

--- حتي عن مستقبل مصر نحن إما متفائلون بإسراف يدعو إلي السخرية والإشفاق أو متشائمون إلي حد متطرف قابض للنفس ، ففي النظر إلي مستقبلنا نلاحظ غالباً أن هناك من جهة خطر المتفائلين إما بسذاجة أو بخبث شديد أولئك الذين يفضلون خداع النفس لراحة البال علي مواجهة الحقيقة المرة (في عيناها) ، ومن جهة أخرى خطر المتشائمين المنذرين الذين أفقدهم التوتر حس النسبية الصحيح هم أيضاً ، باختصار مصر إما بخير دائماً ، أو في خطر أبداً ، وكلا الحكمين لا يري أو يضع الحقائق في حجمها الطبيعي السليم ،

-- لا غرابة بعد هذا كله أن نجد معظم ما يكتب عن مصر غالباً ما يجنح إلي المغالاة والتطرف إما نحو التهويل أو التوهين ، التمجيد أو التنديد ،

لا يمكن لكاتب أو عالم أو مفكر أن يوجه إلي مصر نقداً موضوعياً بناء صادقاً ومخلصاً إلا وعد علي التو والفور وللغربة والدهشة عدواً بغيضاً أو حاقداً موتوراً إن كان أجنبياً ، وخائناً أعظم أو أحقر إن كان مصرياً ، وهذا وذلك إنما افتراءات علي مصر والمصريين أو أكاذيب وأباطيل ، إلخ ، وبالاختصار فنحن المصريون أكبر جداً من النصح ، ومصر فوق النقد والحقيقة أن ابن مصر البار الغيور علي أمه الكبرى إنما هو وحده الذي - لصالحها - ينقدها بقوة وبقسوة إذا لزم الأمر ويلا مداراة أو مداورة ،

١٦. خصائص الشخصية المصرية من كتاب شخصية مصر للدكتور جمال حمدان،

حيث كتب ما يلي :

- - قائمة مربكة بقدر ما هي مقلقة فادحة ، ولكن بصفة عامة علي أية حال فلعل هناك شبه اتفاق علي بعض خصائص أساسية تعد أركان أو أقطاب تلك الشخصية ، أولها دائماً التدين ، وثانيها حتماً المحافظة ، وثالثها باستمرار الاعتدال ، ورابعها غالباً الواقعية ، وخامسها أحياناً السلبية ، وبهذا الشكل تبدو السلسلة كمتوالية تنازلية إلي حد ما ، تتدرج نسبياً من الموجب إلي السالب أو من القوة إلي الضعف ، وبذا أيضاً تتابع منطقياً فيما بينها ، بحيث تؤدي كل واحدة منها إلي تاليتها ، التي تترتب بدورها علي كل سابقتها ، وفيما عدا هذا ، فلأن خاصية الاعتدال بالذات تمثل نقطة الوسط والارتكاز بين تلك الخصائص والنواة النووية في قلبها ، فلعل لنا من قبيل اليسر والتبسيط الأكاديمي أن نتخذ منها المظلة الجامعة والعنوان الرئيسي العريض الشامل لها جميعاً

فأما التدين إذا أردنا تفصيل ما أجمالنا ، فسمه مصرية أصيلة وقديمة قدم الأديان ، بل سابقة هي للأديان ، ولعلها هي التي منحت المصري قوة داخلية ومقاومة خارجية وصلابة غير عادية ضد الكثير من الأخطار والمحن والمآسي التي تعرض لها عبر التاريخ ، سياسية كانت أو إجتماعية ، خارجية أو داخلية ، من استعمار الغزاة أو قهر الطغاة ، غير أن هذه الخاصية - يخشي البعض - كانت أيضاً مهرباً إلي حد ما من الصدام مع تلك الأخطار والتحديات ، ومن ثم قد في النهاية تفضي بنا إلي خاصية السلبية وتؤكد تشخيصها ،

ومهما يكن ، فإن التدين والنزوع الديني إذا جاز أن يرد في دوافعه إلي الزراعة طبيعة الحضارة الزراعية ، علي الأقل جزئياً ، فلعله أن يكون بدوره دافعاً جزئياً مثلها وبجانبيها إلي الصبر والدأب والجلد والتحمل ، وهي الصفات التي تبدو عريقة القدم والجذور في التاريخ المصري ، ويكاد يجمع الكل بلا تردد علي إتصافها الشديد بالانسان المصري عامة والفلاح المصري خاصة أما المحافظة ، بل والمحافظة الشديدة كما يشدد العقاد ، فتعني أن المصري مقيم علي القديم والتراث والتقاليد والموروثات ، ولا يقبل الجديد بسهولة ، وهذا يعني بدوره أنه تقليدي مقلد ، غير ثوري غير مجدد ، بل إنه - عند العقاد أيضاً - إذا ثار علي الإطلاق فإنما ليحافظ علي القديم والموروث ، أي أنه - للغربة والدهشة ، وبصيغة نقيض النقيض - ثوري من أجل المحافظة ومن المحافظة وعدم الثورية ، علي أية حال خطوة قصيرة ومنطقية إلي الاستقرار ، فالاستقرار نتيجة المحافظة ولكنه بالمقابل يعود فيدعمها ، ومن هذه الحلقة المفرغة أو اللولب الصاعد يتحقق الاستمرار إلي أبعد حد وينتفي التغير إلي حد بعيد ، وهكذا تنتهي الدائرة مرة أخرى لتعود بنا حيث بدأنا بالمحافظة علي القديم وعدم التجديد ، إلخ

وإذا كان ثمة من مصل مضاد نوعاً لهذه المحافظة المستمرة أو الاستمرار في المحافظة ، المستمرة أو الاستمرارية في المحافظة ، فهو الاعتدال ، وإن كان هذا نفسه غير بعيد عن المحافظة ، إن لم يكن حقاً امتداداً مباشراً لها ، فالاعتدال المغروس المركز في طبيعة المصري ، أياً كان أصله ، فيبتعد به عن التطرف الشديد يميناً ويساراً ، يبتعد به ضمناً وديالكتيكياً ولحسن الحظ عن التطرف في المحافظة ، بذلك يوفر له هامشاً معقولاً من المرونة والتلاؤم والتغيير والحيوية ، التي تضمن له علي أقل تقدير القدرة علي التطور البطيء ، التطور خطوة خطوة بالجرعات الصغيرة ، وبالتالي تضمن له البقاء الطويل علي المدي البعيد وأخيراً وبحكم الاعتدال كان المصري العادي أو المتوسط أميل في الغالب إلي الوداعة والهدوء والدمائة والبشاشة ، وإلي الشخصية الاجتماعية الودود ، السلسة السهلة المنطقية EXTROVERT غير المنغلقة أو المعقدة ، كما كان أجنح إلي التعاون منه إلي التنافس ، وفي الوقت نفسه أبعد شئ عن العنف والقسوة والدموية والمزاج الحمراوي الدموي

ومن الاعتدال بعد هذا نقلة لا شك قصيرة ومباشرة إلي الواقعية ، فالانسان المصري رجل عملي ، علمته البيئة والتجربة ، أي الجغرافيا والتاريخ ، احترام الواقع والالتصاق به وعدم الانفصال عنه أو التناقض معه ، فهو إلا في القليل النادر لا يهرب من

الواقع سواء بالتدين المفرط (الدروشة) أو بأحلام اليقظة والتمني المجنحة (الغيبيات) أكثر كثيراً مما يتصادم معه ويتحداه ، وهو من ثم مطيع بالضرورة ، أكثر مما هو متمرد بالطبع ، فإذا ما عجز عن تغيير الواقع فإنه في العادة أو في النهاية يخضع له ويرضخ للأمر الواقع ، إلا أنه حينئذ قد يسخر منه للتعويض والتنفيس

من هنا تأتي شهرته الداوية في السخرية التعويضية والتعويض بالتعريض بالواقع دون التعرض له ، وهو بدوره التناقض الخفيف الذي أفضي به في نظر البعض إلي الشخصية الفهلوية SMART التي تعوض عن عجزها العملي بالتذكي المفرط SMARTIG واصطناع اللامبالاة أو إدعاء الحلم والتخفي وراء العقل والتعقل ، والنموذج المثالي أو التقليدي في ذلك هو علاقة الفلاح المصري بالسلطة والحكومة ، فهو يكرهها ويخشها منذ قال الجبرتي (والمصري يكره الحكام في كل صورة حتي أديانها) إلي أن حدد العقاد علاقته بالحكومة كعلاقة عداوة مريبة ، لكنه مع ذلك يقبل بها وقد يتملقها ، إلا أنه حتماً يسخر منها ويتندر بها سراً وعلناً

ولقد يعود بنا هذا السلوك أو التصرف الواقعي إلي صفة الاعتدال كنوع من الإفراط في العقل ، إلا أنه أدعي وأفضي إلي السلبية كالنتج النهائي لكل الخصائص السابقة وكالحلقة الأخيرة في سلسلتها المترابطة المتداعية ، فالمحصلة النهائية لتلك المتوالية التنازلية من التدين إلي المحافظة إلي الاعتدال إلي الواقعية إنما هي منطقياً شخصية سلبية نوعاً أكثر منها إيجابية جداً فهو -المصري العادي أو المتوسط- في الأعم الأغلب وفي أغلب الآراء يتجنب الصدام ويتحاشاه لاسيما في المواقف العدائية وبالتالي يؤثر السلامة علي المواجهة والسلام علي الصراع - - - -

تلك في عجالة سريعة مقتضبة ولكنها مركزة الخصائص الرئيسية الخمس التي تميز الشخصية المصرية في أغلب الآراء ، وإن جادل أو عدل البعض في بعضها أو كلها بدرجات متفاوتة ، ثم اختلفوا أكثر في تقييمها وتأويلها سلباً أو إيجاباً وقوة أو ضعفاً ، بحيث سنجد دائماً في الحساب الختامي الرأي المضاد والحكم ونقيضه وفي النهاية الصورة الوردية والصورة القاتمة

١٧. الشخصية القومية المصرية في ميزان د جمال حمدان

نقلاً باختصار عن الجزء الرابع من كتاب شخصية مصر

فمن ناحية فإن ما قد يراه البعض إيجابيات ومحاسن قد يعده البعض الآخر سلبيات ومثالب وما يعتبره البعض نقط قوة وبقاء ومفاخر للشخصية المصرية قد يصمه البعض الآخر بأنه نقط ضعف وهوان ومن الواضح عند هذا الحد أن مثل هذا الخلاف الجذري في الحكم والتقييم إنما يتوقف علي وجهات نظر ذاتية تماماً كفلسفة الأخلاق ومعني الخير والشر ، هذه واحدة مشكلة النظرة الذاتية الفلسفية الثانية ولعلها الأخطر هي مشكلة المصلحة الذاتية ، فإن أشد المنتقدين لنقاط الضعف والسلبيات في الشخصية المصرية هم عادة أشد الوطنيين المصريين الممتازين طموحا وإخلاصا وأشدّهم حبا لمصر ورغبة في تقدمها ورقبها هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى فلقد كان علي رأس الراضين عن تلك السلبيات والعيوب بعينها والساكتين عليها بل والممجدين لها ، أولئك المنتفعون بها أولئك الذين ينظرون إلي الشعب نظرة الصائد للطير لا القائد للجند ، بينما ينظر الشعب إليهم نظرة الطير للصائد لا الجند للقائد بتعبير سعد زغلول الشهير فأما الناقدون فليس علي الإطلاق لأنهم ناقمون حاقدون أو موتورون كما يتهمهم المنتفعون بالكذب والخداع والمكر السيئ ، بل هم مجرد زاجرين متحمسين وذلك استنهاضاً واستنفاراً للهمم والوعي وحثاً علي التغير نحو الأحسن ، أما المنتفعون بالسلبيات فضماناً لبقائهم علي القمة ، قمة الاستغلال والابتزاز للشعب ، وأيضاً نتيجة لهذا فإن من بين المنتقدين بعنف للسلبيات يلقون الاتهامات جزافا وبلا تحديد فتسقط ظلما وبالضرورة علي رأس الشعب الذي يخرج من ثم وهو مفترى عليه مرتين مرة بالقهر ومرة بالإسقاط ، مرة بالفعل ومرة بالقول

١٨. آفة الشخصية المصرية

عن هذا الموضوع كتب الدكتور جمال حمدان عن أحد هذه النظريات - صفحة ٥٤٤ ج٤ - كتاب شخصية مصر
أما كيف كان الاعتدال آفة الشخصية المصرية في الصميم وعلي وجه التعميم كما تذهب هذه النظرية ، فذلك أن
المصري فعلاً صبور ولكنه قنوع أكثر مما ينبغي ، دعوب مثابر إلا أنه إيجابي أقل مما يجب ، واقعي جداً بدرجة تجعله
مثالياً أقل من اللازم جداً . مستقر إلي حد بعيد لكنه غير حركي بما فيه الكفاية ، محافظ بالتأكيد إلا أنه غير ثوري علي
الإطلاق ، طيب سمح الأخلاق حقاً ودمث فعلاً غير أنه بسيط غير طلعة محدود الأفق نوعاً ، صلب إلي حد معلوم ولكنه
غير طموح جرئ مغامر بما فيه الكفاية ، بعيد بالفعل عن التعصب بيد أنه ليس قريباً بالقدر الصحيح من العصبية وقوة
الشكيمة التي هي أساس الصلابة الوطنية ، وفي النتيجة النهائية أميل إلي الكم منه إلي الكيف ، يفضل الحياة علي الحرية
، والبقاء علي القيادة ، باختصار شخصية غير مقتحمة غير متحدية أو متوثبة متفجرة وإن كانت معتدلة ، شخصية
متوسطة ولكنها غير طليعية غير قيادية

هذا عن الإنسان المصري كفرد ، أما عن المجتمع بعامة فإنه إنعكاس علي المقياس الكبير أو تكبير مضخم لهذه الأبعاد
والحدود بما فيها من نقص وقصور فالشعب المصري طيب لا بأس به أصلاً كخامة ، إلا أنه -تتحفظ النظرية- طيب أكثر
من اللازم ، طيب بدرجة ساذج أحياناً ، وساذج بدرجة عاجز نوعاً ، وعاجز بدرجة مسالم نسبياً ، ومسالم بدرجة خاضع إلي
حد ما ،

من ثم وعلي الجملة نجد دور مصر في الحضارة أكبر بالقطع من دورها في القوة والإمبراطورية ، ومن هنا ، وليس من
هناك ، كانت أول حضارة ، ولكن للأسف كانت أيضاً أطول مستعمرة ، ومصر بهذا ما عاشت ولا بقيت آلاف السنين إلا
لأنها قبلت بالحلول الوسطي مع السادة الغزاة مؤثرة البقاء علي الصدام ولكن بثمن الخضوع ولا نقول العبودية
أما في الختام ، فإن جماع هذا وذاك ومنتهاه أن هناك شعباً وسطاً معتدلاً مسالماً متوسط القدرات والطموحات ، فظفر
تاريخياً بالسبق والريادة ، ولكنه لم يظفر بعدها بالزعامة والقيادة ، بل وسرعان ما سقط في التبعية ، - - -
فإذا انتقلنا من التشخيص إلي التفسير كما تطرحه النظرية ، فذلك لأن الاعتدال المصري هو أساساً (تطرف في الاعتدال)
وهو من ثم مرض خبيث ، بل ومن أخطر أمراض مصر ، وربما مقتلها البطيء المزمن علي مر التاريخ ، فإذا كان التطرف
في التطرف تدميراً وهدماً وعدمية ، فإن التطرف في الاعتدال هو إفراط في السلبية ، ومن هنا فإن بعض التطرف خير من
بعض الاعتدال ، فلقد يكون الاعتدال فضيلة ولكنه قد يكون أحياناً الفضيلة التي هي عجز ، والمطلوب لمصر الآن هو
(الاعتدال في الاعتدال) ولا علاج لها سوي جرعة محسوسة ولكنها محسوبة من التطرف المعتدل كمصل مضاد لاعتداله
المتطرف

١٩. الاستمرارية والانقطاع

كتب الدكتور جمال حمدان في الجزء الرابع من كتابه شخصية مصر - دراسة في عبقرية المكان - الصادر عن دار الهلال في الباب العاشر تحت عنوان (آفاق الزمان وأبعاد المكان) وبالفصل الثاني والأربعين ، تحت عنوان الاستمرارية والانقطاع ، من صفحة ٦٠٤ وما بعدها :

(- - -) فعلي طرفي النقيض الأقصى والمطلق من مصر الاقتصادية ، وعلي خلاف مصر الاجتماعية ، إلي حد بعيد ، لم تكد مصر السياسية تتغير أو تعرف التغير ، فهي إن لم تكن بعيدة تماماً عن التغير فإنها بلا نزاع آخر وأقل ما يتغير في مصر ، إنها قمة الاستمرارية والثوابت وقاع الانقطاع والمتغيرات في مصر ، لكنها للأسف والأسى بالطبع أسوأ استمرارية وشر الثوابت علي وجه اليقين والإطلاق ، ذلك أنها النقطة السوداء والشوهاد في الاستمرارية المصرية جميعاً ، مثلما هي الوحيدة التي لم تعرف الانقطاع أو التغير قبل العصر الحديث وبعده ، إنها الاستمرارية السلبية بامتياز ، مثلما هي قمة سلبيات الاستمرارية بيقين ، والسؤال ببساطة هل تغيرت مصر المعاصرة عن مصر الحديثة ، والحديثة عن القديمة ، في قضية التركيب الاجتماعي - السياسي ونظام الحكم والسلطة ، وإلي أي حد ؟ ، التغير الجوهرى في الشكل ، أما الجوهر فلم يكد يتغير ، وهذا الجوهر هو الطغيان الشرقي ، الطغيان الفرعوني ، بكل أعمدته التقليدية ، فهو الخط المستمر والقاسم المشترك الأعظم ، الذي يجري خلال تاريخ مصر كله منذ مينا - - - المتغير الوحيد هو الشكل ، - - - فقدما كان الفلاحون عبيد فرعون ثم عبيد السلطان ، وحديثاً فإذا لم تكن قد صرنا حقاً أو نوعاً عبيد - فنحن يقيناً مازلنا بين فراغة وفلاحين ، ورعايا لا مواطنين ، - - - وبمزيد من التوضيح ، فنحن في مصر الحديثة قد بدأنا حياتنا النيابية العصرية بالأخذ بالنموذج الغربي الديمقراطي البورجوازي الليبرالي المتعدد الأحزاب ، بل وذلك منذ وقت مبكر نسبياً تحت - الخديو اسماعيل - وقبل كثير من الدول الأخرى ، غير أن ذلك لم يكن للأسف إلا كقشرة وطلاء وواجهة ديموقراطية شكلية بحتة لخلفية اجتماعية محض إقطاعية طبقية رجعية ، ولأرضية استبدادية غاشمة من الحكم المطلق والطغيان المعهود ، فالحرية كلمة مستوردة لم تدخل قاموس السياسة المصرية إلا منذ الطهطاوي والمثل الفرنسي ، ولكن كأسم لا كفعل ، فالقاعدة الأصولية في مصر ، والتي لا تزال مرعية بأمانة - - هي أن كل من يختلف مع الحاكم فهو خائن بطريقة أو بأخرى ، أو علي الأقل فإنه هو الحقد الذي لم يجد له قط علاجاً ،

ذلك أن الرأي - كالقوة وكالفعل - ملك للحاكم فقط وحكر عليه وحده ، أما المعارضة فلم تعرفها مصر منذ الفرعونية - - - إلا رمزاً وإلا شكلاً والرأي الآخر لم يوجد إلا في نفس صاحبه فقط - - - من هنا جميعاً فإن هذه الديمقراطية البرلمانية المستوردة ليست إلا غلافاً جذاباً وقناعاً براقاً للديكتاتورية الأصلية والأصلية ، لذا يمكننا - والديموقراطية أكثر شئ نسبياً إن لم تكن أكثر شئ مطاطاً - أن نسميها بحق الديمقراطية الشرقية كمرادف محلي أو عصري للطغيان الشرقي وبممكنك أيضاً أن تسميها ديموقراطية العالم الثالث - - - وما هي إلا الغراب يقلد مشية الطاووس - - -

وكما في دول الشرق الأوسط والعالم المتخلف ليس ثمة شئ في سياسة مصر الخارجية اسمه الشعب من الوجهة العملية ، ولا أوهام في هذا أو انفعال ، فصناعة السياسة الخارجية وتشكيلها وتوجيهها هي عملياً وواقعياً بغض النظر عن الشكليات السطحية المموهة حكر لرجل واحد هو الحاكم - - -

وأنه حاكم مطلق خارجياً كما هو داخلياً ، ولا يكاد يوجد حاكم في العالم القديم أو الحديث ينفرد بوضع سياسة بلده الخارجية كحاكم مصر ، وقد عبر بعض المعلقين الأمريكيين مؤخراً علي هذه الظاهرة بقولهم إن السياسة الخارجية في هذا الجزء من العالم سياسة شخصية أساساً ، الدور الشخصي للحاكم هو الدور المحوري إن لم يكن الأوحد فيها ، وفي هذا بالدقة تكمن جذور المأساة العظمي ، فمكان مصر ومكانتها الدولية كقوة سياسية ، انتصارها وهزيمتها مصيرها وبقاؤها -

- إلخ كل أولئك بين يدي شخص واحد - - - - لقد تغيرت مصر الحديثة والمعاصرة في جميع نواحي الحضارة المادية واللامادية والحياة الاقتصادية والاجتماعية بدرجات متفاوتات ، وذلك علي الأقل بحكم العصر والحضارة الحديثة المعدية ، تماماً مثلما تغير كل العالم الثالث ولربما تفوقت مصر في مدي هذا التغيير ، غير أنها من أسف لم تكد تتغير من ناحية نظام الحكم ، ففي هذا لا جديد تحت الشمس -)

٢٠. فضائل مصر

من شاهد الأرض واقطارها والناس انواعا واجناسا ولا رأى مصر ولا اهلها فما رأى الدنيا ولا رأى الناس ، فهي أم البلاد وهي أم المجاهدين والعباد قهرت قاهرته الامم ووصلت بركاتها إلى العرب والعجم ، هي بلاد كريمة التربة ، مؤنسة لذوي الغربة فكم لمصر واهلها من فضائل ، ومزايا ، وكم لها من تاريخ في الاسلام وخفايا منذ أن وطنتها اقدام الانبياء الطاهرين ومشت عليها اقدام المرسلين المكرمين والصحابه المجاهدين. إذا ذكرت المصريين ذكرت الكعبة والبيت الحرام فإن عمر رضي الله تعالى عنه ، ارسل إلى عامله في مصر أن يصنع كسوة للكعبة المشرفة ، فصنعت الكسوة من عهد عمر رضي الله عنه وظلت كسوة الكعبة تصنع في مصر سنة تلو سنة حتى مرت اكثر من الف سنه وكسوة الكعبة ترسل من مصر إلى مكة ولم يتوقف ذلك إلا قبل قرابة المئة سنة . إذا ذكرت المصريين ذكرت الحجاج والمعتمرين فإن البعثة الطبية المصرية كانت في الحج لسنوات طويلة هي ابرز ماينفع الحجاج في علاجهم يأتون من اقطار الدنيا لأجل أن يلتقوا بهذه البعثة المصرية ..إذا ذكرت المصريين ، إذا ذكرت الدفاع عن فلسطين وذكرت الجهاد والمجاهدين فصالح الدين اقام بمصر ،وكثير من قواده منها وابرز المعارك مع اليهود قادها مصريون ..

إذا ذكرت المصريين ذكرت امنا هاجر ، ومارية القبطيه ذكرت اخوال رسولنا ،واصهار نبينا فمصر هي كوكبة العصر ، وكتيبة النصر وديوان القصر ، ام الحضارة وام المهارة ومنطلق الجدارة .. ارض العزة و بلاد القطن ، والبز . ذكر الله تعالى مصر في القرآن وبين الله جل وعلا اسمها صريحا في اربعة مواضع في كتابه ، تشريفا لها وتكريما فقال الله جل وعلا ((وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ)) يوسف: ٢١ . وقال سبحانه ((ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمِينٌ)) يوسف: ٩٩ وقال جل وعلا ((وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا)) يونس: ٨٧ .

وقال تعالى قاصا عن فرعون لما قال ((أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)) الزخرف: ١٥ ليس هذا فقط بل اشار الله تعالى إلى مصر ولم يصرح باسمها في ٣٠ موضعا في القرآن كقوله جل وعلا ((وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ)) [القصص: ١٥] يعني: مصر . وقوله جل وعلا ((قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)) [الاعراف: ١٠٩] إلى آخر هذه المواضع . إن مصر هي الارض الطيبة التي قال الله تعالى عنها لما طهرها الله تعالى من فرعون وقومه مدح الله تعالى مصر فقال ((كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَغُيُوبٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾)) الدخان

إن مصر فيها خزائن الأرض بشهادة ربنا جل وعلا لما قال ليوسف عليه السلام ((قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)) يوسف: ٥٥ ولم يذكر الله تعالى قصة نهر في القرآن إلا نهر النيل قال جل وعلا : ((وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا زَادُوهُ إِيَّاكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)) [القصص: ٧] يعني في نيل مصر . وفي مصر الوادي المقدس طوى ، وفيها الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، وفيها الجبل الذي تجلى الله سبحانه إليه فانهذ الجبل دكا، وهي مبعوء الصديق الذي قال الله تعالى عنه ((وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ)) [يونس: ٩٣] وفي أرضها يجري نهر النيل المبارك الذي ينبع من أصله من الجنة : [قال عليه الصلاة والسلام ، النيل وسيحان وجيحان والفرات من انهار الجنة] رواه مسلم . وفي ارض مصر الربوة التي أوى إليها عيسى عليه السلام وأمه قال جل وعلا ((وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)) [المؤمنون : ٥٠] وعلى أرض مصر ضرب موسى عليه السلام بعصاه فانفلق الحجر له ماء وانشق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم

نعم إنها مصر.. إذا أردت القرآن وتجويده فالتفت إلى مصر..إذا أردت اللغة والفصاحة فإنك تنتهي إلى مصر..

إذا أردت الأخلاق الحسنة وحلاوة اللسان وحلاوة التلاوة والقرآن فالتفت لزاما إلى مصر ..فهي ليست بلدَ عادياً ، فمصر بلد عظيم القدر جليل الجناح اشار الله تعالى لكبر مصر ، وأشار لعظم مساحتها فقال جل وعلا ((فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾)) [الشعراء] .وهذا يدل على كثرة مدنها ولعظم قدر مصر ..ومنذ القديم افتخر فرعون انه يملكها دون غيرها فقال كما حكا الله جل وعلا عنه((أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)) [الزخرف:٥١].قال عمرو بن العاص رحمه الله ورضي عنه قال :[ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة] يعني أن كل بلاد الاسلام في كفة ، وإن الذي يلي على مصر يكون اخذ الكفة الاخرى .وقال سعيد ابن هلال إن مصر ام البلاد وغوث العباد ، إن مصر مصورة في كتب الاوائل وقد مدت اليها سائر المدن يدها تستطعمها وذلك لأن خيراتها كانت تفيض على تلك البلدان [قال الجاحظ : [إن اهل مصر يستغنون بما فيها من خيرات عن كل بلد حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور ماضرهم] .

٢١. مصر أرض الشفاء

عن هذا الموضوع كتب الكاتب الكبير أنيس منصور في كتابه الممتع (من نفسي) ما يلي :

الحكيم بقراط كان ينصح الناس بالسفر إلى مصر للعلاج ، والحكيم جالينوس أيضاً ، والمؤرخ هيرودوت لم ينس أن صحته تحسنت عندما جاء إلى مصر وقال :

ان العجائب التي في مصر قد انعشت روحه ، والشمس قد أذابت الصلابة في عضلاته ، والفراغة هم أول من عرف أن الرطوبة الموجودة في الجو هي التي تفسد أجسام الموتى ، ولذلك كانوا يضعون الجثث في أماكن جافة بعيدة عن الرطوبة الموجودة في الهواء ، فأقاموا مقابرهم في الصحراء وفي جنوب مصر ، والفراغة هم أول من نصح المريض بأن يبعد عن البيت والأسرة ومكان العمل ويذهب إلى الجنوب حيث الهدوء والدفع والجفاف وشفاء السماء ،

والطب الحديث يؤكد أن حكمة الفراغة صادقة وأطباء السويد الذين جاءوا إلى مصر في رحلات للعلاج السياحي يرون أن مصر كلها ، وليس جنوب مصر فقط ، هي أحسن مكان للعلاج من أمراض الشيخوخة والروماتزم واضطراب الدورة الدموية وكثير من الأمراض الجلدية ،

ومنذ أيام قرأت تقريراً لبعض أطباء السويد يؤكدون فيه أن عشرات من المرضى من السويد والنرويج وفنلندا والدنمارك بعض المرضى جاء إلى مصر لا يقوي علي المشي وبعد أيام استمتع بركوب الخيل إلى جوار الهرم ، وبعض المرضى كان لا يقوي علي الجلوس علي مقعد له عجلات ، وبعد أيام كان يساعد المرضى الجدد في الجلوس علي هذا المقعد ويدفعهم إلى الأمام ، كل هذا قرأته ، ولولا أنني قرأت ذلك ما صدقته ،

وزارني الدكتور مورسنج أحد المشرفين علي السياحة العلاجية وقلت له إن أسوان لم تكن تعرف الرطوبة ولا السحب ولا المطر وهي الآن أصبحت معتدلة الجو مثل الإسكندرية ، فهل هذه الرطوبة تعوق العلاج ؟

وأكد لي الدكتور مورسنج بالأرقام والتقارير الطبية أيضاً أن أسوان تشفي العليل ، وأن هناك سراً أو سحراً إشعاعياً في جنوب مصر وشمالها ، وأن هذا السر جعل مصر هي أصح بلد في العالم كله لعلاج كل الأمراض التي يشكو منها أهل السويد والنرويج وكل الدول الشمالية (وطلبت إليه أن يعيد هذه الجملة ، وأعادها بهدوء وبساطة كمن يقول أن ٢ زائد ٢ يساوي ٤)

وشعرت بالارتياح وتمنيت أن أجد نفسي في أسوان بسرعة وأن أعرض نفسي لهذا السحر الإشعاعي الذي عرفه المؤرخ هيرودوت ولم يعرف اسمه ، ولما سألني الدكتور مورسنج عن الأمراض التي أشكو منها وسوف تشفيها أسوان قلت :

مرض واحد اسمه القاهرة

نقلًا عن كتاب - من نفسي - للكاتب الكبير أنيس منصور - دار الشروق - الطبعة السابعة - صفحة ٢٤٢-٢٤٣

٢٢. الأنبياء في مصر

(- - -) إن ما بقي لنا من قصص نبي الله ورسول مصر إدريس - عليه السلام - ليوحي بأن هذا العمق الحضاري والسبق في التمدن ، اللذين تميزت بهما مصر قبل سائر الحضارات ، إنما كانت لهما عروة وثقي بعلم النبوة الذي جاء به رسولها إدريس عليه السلام - - فيقولون أنه أقام ومن معه بمصر يدعو الخلائق إلي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله - - فعرفهم السياسة المدنية وقرر لهم قواعدها وعلمهم العلوم وهو أول من استخرج الحكمة وعلم النجوم فإن الله عز وجل أفهمه أسرار الفلك وتركيبه ونقط اجتماع الكواكب فيه وأفهمه عدد السنين والحساب - - - وعبر هذا التاريخ المصري الذي هو أطول وأعرق ما حفظت ذاكرة الإنسانية من التاريخ ظلت ومضات التوحيد الديني في مصر شاهدة علي انتماء المصريين إلي دين الله ولقد تمثل ذلك فيمن زارها وعاش فيها من الأنبياء والمرسلين وفيمن ولد فيها ونشأ وبعث منهم - ممن قص الله علينا قصصهم في القرآن الكريم - وأيضاً في حكمائها الذين جددوا الدعوة إلي التوحيد ورفعوا راياته في مواجهة الوثنية والذين قد يكونون أنبياء ورسلاً ممن لم يرد ذكر لأسمائهم في القرآن الكريم - - فإلي مصر رحل إبراهيم الخليل - عليه السلام - وهو أبو الأنبياء ومن بنات مصر هاجر عليها السلام أنجب نبي الله ورسوله إسماعيل عليه السلام - وإلي مصر جاء يوسف عليه السلام وفيها أوحى إليه ربه وبها بلغ الرسالة وعمل وساس وأصلح - - - وباستدعاء من يوسف جاء نبي الله يعقوب وعدد من بنيهِ إلي مصر وعاش فيها وعبد الله ودعا إليه - وفي مصر ولد ونشأ وتعلم نبي الله موسى وأخوه هارون عليهما السلام وأوحى الله إليهم وأنزل عليهم التوراة والألواح فجابهت حرية التوحيد عبودية الفرعونية علي ضفاف وادي النيل ١ - - وإلي مصر لجأ المسيح عيسي ابن مريم عليه السلام مع أمه سيدة نساء العالمين طلباً للأمن ٢)

هذا بعض ما ورد بكتاب عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) مقتطفات من صفحة ٤ إلي صفحة ١٠

^١ المسافات الموجودة بين العبارات يوجد بها كلام في الكتاب الأصلي المأخوذة عنه الفقرة

^٢ عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) مقتطفات من صفحة ٤ إلي صفحة ١٠

٢٣. لم يحكم المصريون مصر لمدة ٢٢٩٤ سنة

يعرف الكثيرون أن المصريين قد استعادوا حكم مصر بعد ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ م وبالتحديد بعد حوالي سنة كاملة من قيام الثورة حيث تم إنهاء حكم أسرة محمد علي وإعلان الجمهورية سنة ١٩٥٣ م ولكن قد لا يعرف البعض متى كانت آخر مرة حكم فيها المصريون مصر قبل هذا التاريخ ويمكن اعتبار أن الملك نقتان الثاني (نختنبو الثاني) هو آخر حاكم مصري حكم مصر ، وهو آخر ملك من ملوك الأسرة الثلاثين الفرعونية التي تعتبر آخر أسرة فرعونية في التاريخ المصري وقد انتهى حكم هذا الفرعون الأخير علي يد الفرس حوالي سنة ٣٤١ قبل الميلاد وليس معني هذا أن العصر الفرعوني نفسه كان خالياً من الحكام الغير مصريين فقد حكم مصر خلال العصر الفرعوني علي فترات متباعدة الهكسوس والليبيون والنوبيون والآشوريون والفرس سواء بالاحتلال المباشر أو بالهجرات السلمية الكثيفة ولكن كان المصريون يحرون مصر ويعودون للحكم في كل مرة خلال العصر الفرعوني ، ولكن الذي طرد الفرس عندما أعادوا احتلال مصر لم يكن المصريين هذه المرة بل طردهم الإسكندر المقدوني الشهير حوالي سنة ٣٣٢ ق م وتلاه في حكم مصر أسرة البطالمة ثم تبع البطالمة الاحتلال الروماني لمصر سنة ٣٠ قبل الميلاد ثم تعرضت مصر لغزو فارسي في أواخر حكم الرومان سنة ٦١٨ م ثم استعادها الرومان مرة أخرى سنة ٦٢٧ م إلي أن تم فتح مصر سنة ٦٤٠ م أثناء الاحتلال الروماني لها وكان فتح مصر في عهد دولة الراشدين ثم تلتها الدولة الأموية فالعباسية ثم تأسست في مصر الدولة الطولونية سنة ٨٦٨ م ثم الإخشيدية سنة ٩٣٥ م ثم حكم مصر الفاطميون سنة ٩٦٩ م وتلاه الأيوبيون سنة ١١٧١ م ثم دولة المماليك البحرية سنة ١٢٥٠ م ثم المماليك البرجية سنة ١٣٨٢ م ثم الحكم العثماني لمصر سنة ١٥١٧ م ثم جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ م لمدة ثلاث سنوات ثم حكم مصر محمد علي باشا وأسرته من سنة ١٨٠٥ م وقد قامت بريطانيا باحتلال مصر خلال عصر أسرة محمد علي حوالي سبعين سنة من سنة ١٨٨٢ م ثم انتهى حكم أسرة محمد علي بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وبالتالي لم يجلس علي عرش مصر حاكم مصري منذ عهد نقتان الثاني إلا بعد قيام ثورة يوليو أي منذ سنة ٣٤١ قبل الميلاد إلي سنة ١٩٥٣ م وبالتالي تكون المدة بالكامل ٢٢٩٤ سنة كاملة

٢٤. حكام مصر علي مر التاريخ

م	الدولة	مدة الحكم	من سنة	إلى سنة	ملاحظات
١	الفراعنة	١٣٩٠ سنة تقريباً	٣١٠٠ ق م	١٧١٠ ق م	منذ بداية الأسرة الأولى الفرعونية
٢	الهكسوس	١٥٠ سنة تقريباً	١٧١٠ ق م	١٦٨٠ ق م	
٣	الفراعنة	٧٣٠ سنة تقريباً	١٦٨٠ ق م	٩٥٠ ق م	
٤	الليبيون	٢٢٠ سنة تقريباً	٩٥٠ ق م	٧٣٠ ق م	
٥	الفراعنة	١٥٠ سنة تقريباً	٧٣٠ ق م	٧١٥ ق م	
٦	النوبيون	٥٢ سنة تقريباً	٧١٥ ق م	٦٦٣ ق م	تم دخول الآشوريون مصر أيضاً في هذه الفترة
٧	الفراعنة	١٣٨ سنة تقريباً	٦٦٣ ق م	٥٢٥ ق م	
٨	الفرس	١٢١ سنة تقريباً	٥٢٥ ق م	٤٠٤ ق م	
٩	الفراعنة	٦٣ سنة تقريباً	٤٠٤ ق م	٣٤١ ق م	
١٠	الفرس	٨ سنوات	٣٤١ ق م	٣٣٢ ق م	
١١	الإسكندر والبطالمة	٣٠٣	٣٣٢ ق م	٣٠ ق م	
١٢	الرومان	٦٤٨ سنة	٣٠ ق م	٦١٨ م	
١٣	الفرس	١٠ سنة	٦١٨ م	٦٢٧ م	
١٤	الرومان	١٣ سنة	٦٢٧ م	٦٤٠ م	
١٥	دولة الخلفاء الراشدين	١٩ سنة	٦٤٠ م	٦٥٩ م	
١٦	الدولة الأموية	٩١ سنة	٦٥٩ م	٧٥٠ م	
١٧	الدولة العباسية	١١٨ سنة	٧٥٠ م	٨٦٨ م	
١٨	الدولة الطولونية	٣٧ سنة	٨٦٨ م	٩٠٥ م	
١٩	الدولة العباسية	٣٠ سنة	٩٠٥ م	٩٣٥ م	
٢٠	الدولة الإخشيدية	٣٤ سنة	٩٣٥ م	٩٦٩ م	
٢١	الدولة الفاطمية	٢٠٢ سنة	٩٦٩ م	١١٧١ م	
٢٢	الدولة الأيوبية	٧٩ سنة	١١٧١ م	١٢٥٠ م	
٢٣	المماليك	٢٦٧ سنة	١٢٥٠ م	١٥١٧ م	
٢٤	الدولة العثمانية	٢٨٨ سنة	١٥١٧ م	١٨٠٥ م	تخللها دخول الفرنسيون لمدة ثلاث سنوات من سنة ١٧٩٨ م
٢٥	أسرة محمد علي	١٤٨ سنة	١٨٠٥ م	١٩٥٣ م	تخللها دخول الإنجليز مصر حوالي سبعين سنة من سنة ١٨٨٢ م

ملحوظة : هناك بعض التواريخ التقريبية الغير مؤكدة خلال العصر الفرعوني

نقلاً عن (موسوعة حكام مصر) (د ناصر الأنصاري)

٢٥. كيف كان يعيش المصري القديم في العصر الحجري

(كان المصري في ذلك الوقت جامعاً للقوت يحصل علي حاجته مما يجده من ثمار الأشجار ومما يستطيع أن يصطاده من أسماك النهر والبحيرات ، أو من الطيور وصغار الحيوانات ، ومثل هذه الحياة تستلزم التنقل الدائم ولا تحتاج إلي ضرورة إقامة العائلات علي مقربة من بعضها ، كما أنها لا تحتاج إلي أثاث ثقيل يحمله الإنسان معه ، وجاء اليوم الذي عرف فيه الإنسان ^١ أنه يستطيع أن يستنبت بعض حبوب النباتات البرية ويحصل منها علي كميات كبيرة بعد زرعها ، وبعبارة أخرى أخذ المصري يتحول تدريجياً من جامع للقوت إلي منتج له ، فأجبرته الزراعة علي الإقامة في مكان معين ليرعى حقله وليحصل علي ثماره ، كما بدأ الإنسان يستأنس الحيوانات أيضاً ^٢ ، ويبنى له مستقراً يأوي إليه ويضع فيه محصوله ، كما بدأ أيضاً يصنع من بعض النباتات ومن الطين أوان لحفظ حاجياته ، وعندما وصل الإنسان إلي هذه المرحلة ، أي بعد ترك اعتماده علي حياة الصيد وجمع القوت اعتماداً كاملاً ، أخذ يودع حياة العصر الحجري القديم وأخذ يبدأ العصر الحجري المتوسط الذي حسن فيه الإنسان بعض أدواته وأخذ يرتقي قليلاً قليلاً في مدارج المدنية ، وبدأ يتحلى ببعض أدوات الزينة وما جاء العصر النيوليتي أو العصر الحجري الحديث حتي كان هذا الإنسان يعيش في قري صغيرة (^٣ ، وتسمى الفترة بين بداية العصر النيوليتي " أي العصر الحجري الحديث " ويين ظهور الأسرات في مصر ، وتقرب من ألفي سنة العصر الحجري النحاسي أحياناً ---- ونستطيع أن نقول إنه كان لكل من حضارتي الدلتا والصعيد مميزات خاصة (^٤ وبعد انتهاء العصر الحجري بدأ عصر الأسرات الفرعونية

نقلاً باختصار عن كتاب مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة ٣٥-٣٦

^١ كل ما عرفه الإنسان ويتعلمه بإرادة الخالق عز وجل فهو سبحانه الذي يلهم الإنسان العلم والمعرفة المناسبة لكل مرحلة من حياة الإنسان علي الأرض ولا شأن للصدفة في ما يتعلمه الإنسان وإنما هي أسباب يسببها المولي عز وجل
^٢ {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} {وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} (٧١) ، (٧٢) سورة يس
^٣ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة ٣٥-٣٦
^٤ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة ٣٧

٢٦. معلومات مختصرة عن ملخص العصر الفرعوني

ينقسم العصر الفرعوني إلى ثلاثة عصور رئيسية

عصر الدولة القديمة

عصر الدولة الوسطي

عصر الدولة الحديثة

وتسبق هذه العصور الثلاثة عصر يسمى بالعصر العتيق ويلي كل عصر من هذه العصور فترة اضمحلال

الاضمحلال الأول بين الدولة القديمة والدولة الوسطي

الاضمحلال الثاني بين الدولة الوسطي والدولة الحديثة

الاضمحلال الأخير في نهاية الدولة الحديثة ونهاية العصر الفرعوني بالكامل

وقد قام المؤرخ المصري القديم (مانيتون) بحصر عدد الأسر في العصر الفرعوني

فذكر أنها ثلاثين أسرة فرعونية ، موزعة علي العصور الفرعونية المختلفة

والأسرة الفرعونية تعني عائلة حكمت مصر فترة معينة وتبدأ بمؤسس لهذه الأسرة ثم يتبعه

ويليه أبنائه ثم أحفاده حتي يظهر مؤسس آخر لأسرة جديدة وهكذا

ويختلف عدد ملوك كل أسرة عن الأخرى في أغلب الأحيان فمثلاً عدد ملوك الأسرة الثامنة عشرة عبارة عن ١٤ ملك

وعدد ملوك الأسرة الرابعة عبارة عن سبعة ملوك بينما تكونت الأسرة الثامنة والعشرون من ملك واحد فقط

وعادةً ما ينتهي حكم أي أسرة لعدة أسباب أهمها هو انتهاء نسل الذكور في هذه الأسرة فيأتي مؤسس جديد لأسرة

جديدة ، ويشترط أن يتزوج احدي أميرات الأسرة الملكية السابقة حتي تجري الدماء الملكية في عروق أبنائه فيكتسب

شرعية الحكم لأسرته

وفيما يلي توزيع عدد الأسرات علي العصور المختلفة

العصر العتيق (عصر تأسيس الدولة)

يتكون من أسرتين فقط (الأولى والثانية) من حوالي سنة ٣١٠٠ قبل الميلاد إلي حوالي سنة ٢٦٩٠ ق م

وأشهر ملوك هذا العصر هو الملك مينا موحد القطرين والفرعون الأول في الأسرة الأولى

الدولة القديمة (عصر بناء الأهرام)

من الأسرة الثالثة إلي الأسرة السادسة من حوالي سنة ٢٦٩٠ ق م إلي حوالي سنة ٢١٨٠ ق م

وأشهر ملوك هذا العصر الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة وصاحب الهرم المدرج بسقارة والملك سنفرو مؤسس الأسرة

الرابعة وكذلك خوفو وخفرع ومنقرع أشهر ملوك الأسرة الرابعة وأصحاب الأهرامات الثلاثة بالجيزة

الاضمحلال الأول (عمت القواضي البلاد)

من الأسرة السابعة إلي الأسرة العاشرة من حوالي سنة ٢١٨٠ ق م إلي حوالي سنة ٢٠٦٠ ق م

الدولة الوسطي (عصر الاهتمام بالسياسة الخارجية)

يتكون من الأسرة الحادية عشرة والأسرة الثانية عشرة فقط من سنة ٢٠٦٠ ق م إلي سنة ١٧١٠ ق م

وأشهر ملوك هذا العصر ملوك الأسرة ١١ (منتوحتب) الأول والثاني وهكذا وملوك الأسرة ١٢ (امنمحات و سنوسرت)

الأول والثاني وهكذاالاضمحلال الثاني (تخلله احتلال الهكسوس لمصر)

من الأسرة ١٥ إلي الأسرة ١٧ من سنة ١٧١٠ ق م إلي سنة ١٥٦٠ ق م وأشهر ملوك هذا العصر الملك سقتن رع

والملك كامس الذين كافحوا الهكسوس ولم يتمكنوا من طردهم

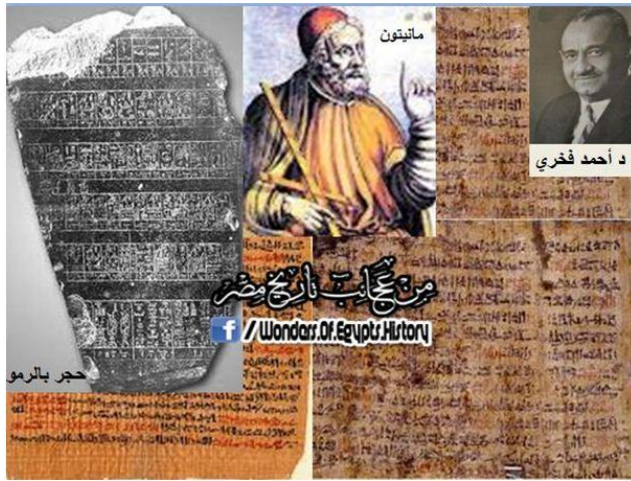
الدولة الحديثة (عصر الإمبراطورية المصرية)

من الأسرة ١٨ إلى الأسرة ٢٠ من سنة ١٥٨٠ ق م إلى سنة ١٠٨٥ ق م وأشهر ملوك هذا العصر الملك أحمس الأول وهو أول ملوك الأسرة ١٨ وطارد الهكسوس ، ومن أشهر ملوك هذا العصر ملوك الأسرة ١٨ بشكل عام مثل الملكة حتشبسوت والملك تحتمس الثالث مؤسس الإمبراطورية المصرية والملك امنحوتب الرابع (اخناتون) والملك توت عنخ آمون والملك حور محب وأشهر ملوك الأسرة ١٩ الملك سيتي الأول والملك رمسيس الثاني والملك مرنبتاح وأشهر ملوك الأسرة ٢٠ الملك رمسيس الثالث

الاضمحلال الأخير (نهاية الفراعنة وتخلله حكم ملوك ليبيين ونوبيين وآشوريين وفرس علي فترات مختلفة) من الأسرة ٢١ إلى الأسرة ٣٠ من سنة ١٠٨٥ ق م إلى سنة ٣٤١ ق م وأشهر ملوك هذا العصر الملك شاشنق الأول وهو مصري من أصل ليبي وهو مؤسس الأسرة ٢٢ ومن أشهر ملوك هذا العصر أيضاً الملك بعنخي وهو مصري نوبي مؤسس الأسرة ٢٥ ، والملك بسماتيك الأول مؤسس الأسرة ٢٦ ، أما الملك (نقطانب الثاني) ويطلق عليه ايضاً اسم (نخت نبف) الثاني أو (نختنبو) الثاني فهو آخر ملك في الأسرة الثلاثين الفرعونية أي أنه آخر فرعون مصري تقريباً

نقلا عن (موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم مع صورهم وأعلامهم ورموزهم) تأليف د ناصر الأنصاري - الطبعة الخامسة - ١٩٩٤ - دار الشروق - باختصار

٢٧. من أهم مصادر التاريخ الفرعوني : حجر بالرمو وبردية تورين وتاريخ مانيتون



وقد تم تسمية حجر بالرمو ١ بهذا الاسم نسبة لمدينة بالرمو الإيطالية الموجود بها أكبر قطعة من هذا الحجر بعد تحطمه ويوجد في المتحف المصري بالقاهرة أربع قطع صغيرة اشترت مصلحة الآثار ثلاثة منها في عام ١٩١٠ وعثر أحد خفراء المصلحة فيما بعد علي القطعة الرابعة ملفاة بين الخرائب في منف أما القطعة السادسة فهي الآن في لندن في متحف الجامعة وقد ورد في صفحة ٦٣، ٦٤ بكتاب مصر الفرعونية "لأحمد فخري" عن هذا الحجر ما يلي :

(في أواخر أيام الأسرة الخامسة المصرية أو ربما في أوائل الأسرة السادسة كان يقوم في معبد من معابد العاصمة في منف حجر لا يقل طوله عن مترين ويزيد ارتفاعه عن سبعين سنتيمتراً نقش وجهه بنقوش في سطور رأسية كتبت فيها أسماء جميع من حكموا مصر منذ أيام ما قبل الأسرة الأولى مع مدة حكم كل منهم ، مقسماً إلي سنوات وأهم ما حدث في كل سنة ولأمر ما حطم هذا الحجر إلي قطع صغيرة عثر حتى الآن علي ستة منها أكبرها وأهمها موجودة في صقلية منذ ١٨٥٩ ونقلت إلي متحف مدينة بالرمو في عام ١٨٧٧ وما زالت هناك حتي الآن)

أما بردية تورين ٢ فقد ورد عنها في صفحة ٦٥ بنفس المرجع السابق ما يلي :

(حصل علي هذه البردية الرحالة الإيطالي دروفني في أوائل القرن التاسع عشر وقيل إنه عثر عليها في منف وكانت البردية في حالة جيدة عندما تسلمها دروفني ولكنها تهشمت بعد ذلك ونقلت إلي إيطاليا عقب الحصول عليها ووضعت في متحف تورين منذ ذلك الوقت وكانت تحتوي هذه البردية علي أكثر من ثلاثمائة اسم من أسماء الملوك وتحت اسم كل منهم عدد سنوات حكمه وهي تبدأ بالآلهة الذين حكموا مصر - - وتنتهي بأسماء الملوك قبيل الأسرة الثامنة عشرة)

^١ (في أواخر أيام الأسرة الخامسة المصرية أو ربما في أوائل الأسرة السادسة كان يقوم في معبد من معابد العاصمة في منف حجر لا يقل طوله عن مترين ويزيد ارتفاعه عن سبعين سنتيمتراً نقش وجهه بنقوش في سطور رأسية كتبت فيها أسماء جميع من حكموا مصر منذ أيام ما قبل الأسرة الأولى مع مدة حكم كل منهم ، مقسماً إلي سنوات وأهم ما حدث في كل سنة ولأمر ما حطم هذا الحجر إلي قطع صغيرة عثر حتى الآن علي ستة منها أكبرها وأهمها موجودة في صقلية منذ ١٨٥٩ ونقلت إلي متحف مدينة بالرمو في عام ١٨٧٧ وما زالت هناك حتي الآن) (صفحة ٦٣-٦٤ مصر الفرعونية "أحمد فخري")

^٢ حصل علي هذه البردية الرحالة الإيطالي دروفني في أوائل القرن التاسع عشر وقيل إنه عثر عليها في منف وكانت البردية في حالة جيدة عندما تسلمها دروفني ولكنها تهشمت بعد ذلك ونقلت إلي إيطاليا عقب الحصول عليها ووضعت في متحف تورين منذ ذلك الوقت وكانت تحتوي هذه البردية علي أكثر من ثلاثمائة اسم من أسماء الملوك وتحت اسم كل منهم عدد سنوات حكمه وهي تبدأ بالآلهة الذين حكموا مصر - - وتنتهي بأسماء الملوك قبيل الأسرة الثامنة عشرة (صفحة ٦٥ مصر الفرعونية "أحمد فخري")

أما تاريخ مانيتون ١ فقد كتب عنه أحمد فخري ما يلي :

(كان مانيتون كاهناً مصرياً في معبد في سمنود واشتهر بعلمه ومعرفته لتاريخ مصر ولغتها وأراد بطليموس الثاني " حوالي ٢٨٠ ق م " أن يستفيد من علمه وذلك بتكليفه بكتابة تاريخ لمصر استقي مصادره مما كان في المعابد ومكاتب الحكومة من وثائق ومما يبعث علي الحزن أن تاريخ مانيتون الأصلي فقد في حريق مكتبة الإسكندرية ولم يعثر حتي الآن علي أي نسخة كاملة أو ناقصة منه وكل ما وصل إلي أيدينا ليس إلا مقتطفات من ذلك التاريخ نقلها المؤرخ اليهودي يوسيفوس - - ووصل إلينا أيضاً من تاريخ مانيتون جداول بأسماء الأسرات والملوك وعدد سني حكمهم في مؤلفات بعض الكتاب وخاصة جوليوس الإفريقي "٢١٧ ميلادية " ولكن أفضل النصوص وأدقها هو ما جاء في الكتاب الذي قام بجمعه جيورجيو سينكلوس)

ومن مصادر التاريخ الفرعوني أيضاً

ثبت الكرنك و ثبت أبيدوس و ثبت سفارة وما يسمى بنصوص الأنساب وكلها تحتوي علي أسماء ملوك وأحداث شهدتها فترات حكمهم ولكن كل مصدر منهم إما أنه تهشم وفقدت منه معلومات مهمة أو أن كاتبه كان له مقاصد خاصة في كتابته وبالتالي حذف أسماء بعض الملوك أو فترات كاملة من تاريخ مصر كانت لا تعجبه فمثلاً ثبت أبيدوس (أهمل ملوك إهناسيا الأسرتين التاسعة والعاشره ولم يذكر إلا ملكين فقط من ملوك الأسرة الحادية عشرة - - ولم يذكر ثبت أبيدوس أي ملك من ملوك عصر الفترة الثانية -الاضمحلال الثاني- بما في ذلك ملوك الهكسوس الذين كانوا في نظر ملوك مصر أجنب مغتصبين لحرية البلاد ، ويبدأ بعد ذلك بملوك الأسرة الثامنة عشرة فيسميهم جميعاً إلي أن يصل إلي الملك امنحوتب الثالث فيتبعه بحور محب آخر ملوك الأسرة وأسقط "إخناتون" و "سمنخ كا رع" و "توت عنخ آمون" و "آي" لأنهم كانوا في رأيه ملوكاً مارقين وخارجين علي ديانة آمون وكذلك فعل بالملكة حتشبسوت لأن خروجها علي التقاليد واغتصابها العرش لنفسها جعلها ملكة غير شرعية في نظر الأجيال التالية) ٢ ،

ويضيف الدكتور أحمد فخري ما يلي :

(ومهما قيل عن نتائج الحفائر وما ظهر منها حتي الآن فلا يزال أماننا الكثير من المناطق الأثرية في مصر الوسطي مازالت تحتفظ بأكثر ما أبقى عليه الزمن من مخلفاتها ، حتي طيبة نفسها عاصمة الإمبراطورية فإنه لم يتم حفرها أو بحثها البحث العلمي الكافي ، ولهذا يمكننا القول بأنه ما زال أمام علم الآثار المصرية وقت طويل ربما يمتد إلي أكثر من بضع قرون قبل أن يستطيع علماء الآثار أن يقولوا بأنه لم يعد هناك مزيد من البحث ، وقبل أن يقول المؤرخون أنهم قد قالوا كلمتهم النهائية في تاريخ مصر ، وأنه لم تعد هناك فجوات في ذلك التاريخ) ٣

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (الآية ٨٢ سورة غافر

^١ كان مانيتون كاهناً مصرياً في معبد في سمنود واشتهر بعلمه ومعرفته لتاريخ مصر ولغتها وأراد بطليموس الثاني " حوالي ٢٨٠ ق م " أن يستفيد من علمه وذلك بتكليفه بكتابة تاريخ لمصر استقي مصادره مما كان في المعابد ومكاتب الحكومة من وثائق ومما يبعث علي الحزن أن تاريخ مانيتون الأصلي فقد في حريق مكتبة الإسكندرية ولم يعثر حتي الآن علي أي نسخة كاملة أو ناقصة منه وكل ما وصل إلي أيدينا ليس إلا مقتطفات من ذلك التاريخ نقلها المؤرخ اليهودي يوسيفوس - - ووصل إلينا أيضاً من تاريخ مانيتون جداول بأسماء الأسرات والملوك وعدد سني حكمهم في مؤلفات بعض الكتاب المسيحيين وخاصة جوليوس الإفريقي "٢١٧ ميلادية " ولكن أفضل النصوص وأدقها هو ما جاء في الكتاب الذي قام بجمعه جيورجيو سينكلوس (صفحة ٦٦-٦٧ مصر الفرعونية "أحمد فخري")

^٢ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة ٦٩

^٣ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة ٧٤

٢٨. أسئلة محاكمة الميت أمام أوزوريس

من وجهة نظر الفراعنة
 هل حفظت جسدك طاهراً ؟
 هل قتلت نفساً بغير حق ؟
 هل عذبت حيواناً ؟
 هل تعلقت بالدنيا بسلاسل من ذهب ؟
 هل عميت من أمور الآخرة ؟
 هل صنت نفسك ولسانك عن الشهادة الزور ؟
 هل عرفت السحر الأسود ودينست نفسك به ؟
 هل تذكرت الإله وسألته دوماً الهداية والرشد ؟
 هل خنت جارك أو صديقك الذي ائتمنتك علي عرض بيته ؟
 هل اعتنيت بالنباتات وأطفأت ظمأها ؟
 هل عاملت الحيوانات بالرفق والشفقة كما تود أن يعاملتك بالرفق من هو أقوى منك ؟
 هل استمعت لصوت ضميرك ؟
 هل كرهت إنساناً ؟
 هل جلبت الرضا لقلب أمك والشرف لبیت أبيك ؟
 هل أعطيت خبزك للمحتاج ؟ وبعض ثمار حقلك للمنهكين ؟
 هل امتدت يدك لسرقة ما ليس لك ؟
 هل كنت في أي حال تكذب ؟
 يجيب المتوفي عن هذه الأسئلة ثم يضيف :
 كنت عيناً للأعمى ، ويدااً للمشلول ، ورجلاً للكسيح ، وأباً لليتيم ، ولم أجعل أحد يبكي مني ، وإن قلبي نقي ويدي طاهرتان

وعندما ترجح كفة قلب المتوفي ، ، يعلن تحوتي براءة قلب المتوفي من الذنوب
 نقلاً عن كتاب (مصر علمت العالم) د وسيم السيسي - الدار المصرية اللبنانية - الطبعة الأولى ٢٠١٣ - صفحة

٢٩. عندما كان الكاتب هو الأرقى اجتماعياً عند الفراعنة

من كتاب موسوعة مصر القديمة - سليم حسن - الجزء الثامن عشر - مكتبة الأسرة ٢٠٠٠

حيث ورد ما يلي :

كانت الطبقات المثقفة عماد الأدبين القديم والحديث ، وكان للكاتب فضل السبق علي غيره من أصحاب المهن الأخرى ، بل إنك لتجد فجوة كبيرة تفصل بين المصري المتعلم وغير المتعلم ، ومن يبرع في الكتابة ينل أسمى المراكز وإن لم تسم مواهبه الأخرى ، بل لم يكن للحاكم نفسه قيمة إلا بكتابه ، ومن هنا تدرك السر في رغبة كبار الموظفين القدماء أن يصوروا أنفسهم في هيئة الكاتب ، لأن الكتابة في نظرهم سلم يرقى فيه المرء إلي أقوى المراكز وأعلاها ، والرجل الذي يستطيع الإبانة عما في ضميره بأسلوب جميل مهذب يجد الطريق أمامه مفتوحة لأكبر المناصب وأعلى الدرجات ، ومن هنا شملت الكتاب موجه من الغطرسة والكبرياء ، وراحوا يدلون علي غيرهم بمركزهم الاجتماعي ، ويظهر هذا واضحاً جداً في أدبهم القديم الذي كونه بحيث كان ذلك التعالي ميزة له ،

والكبر وإن كان في ذاته مكروهاً إلا أن المثل العليا التي وضعتها طائفة الكتاب للموظف الذي يعتد بنفسه ويرتفع بكرامته جعلتنا نتجاوز عن ناحية الصلف ونعترف لهم بأنهم جعلوا من واجب الموظف أن يكون عادلاً ينتصر للمظلوم ويأخذ من الظالم ، حاذقاً يعرف كيف يتغلب علي الصعاب ويفتح الطريق بين أعظم الصخور وأمنع العقبات

٣٠. الملك العقرب



نعرف جميعاً اسم الملك مينا كموحد للقطرين وكأول فراعنة الأسرة الأولى الفرعونية ولكن القليل يعرف الملك المسمي بالملك العقرب والذي تم في عهده محاولة لتوحيد القطرين في مصر وإن لم تنجح هذه المحاولة ولم تستمر طويلاً ، إلا أنها كانت محاولة سبقت ما أنجزه الملك مينا بفترة

فما لا شك فيه أن هناك تطوراً كبيراً قد حدث في مصر حوالي سنة ٣٣٠٠ قبل الميلاد ، إذ أن البلاد كانت في مرحلة انتقال من العصر الحجري الحديث إلى عصر بداية الأسرات ، بمعنى أن طبيعة البلاد والمصلحة المشتركة نقلتهم من حياة القرية إلى المدينة ومنهما إلى حياة الأقاليم التي كانت تتمثل في إمارات صغيرة ، وبدأت هذه الأقاليم تتحد مع بعضها البعض بوسيلة أو أخرى ،

فقد فرض بعضها نفوذه علي البعض الآخر عن طريق الحرب أو عن طريق النمو الطبيعي وتغلب المصالح المشتركة ووصلوا في النهاية إلى مملكتين

مملكة الشمال وتتمثل في الدلتا وعاصمتها مدينة (بي) بوتو بمعنى المقر أو العرش (قرب دسوق) وإلهها الصقر حورس وتاجها التاج الأحمر ورمزها النحلة

أما المملكة الأخرى ففي الجنوب وعاصمتها مدينة (نخن) بمعنى الحصن (قرب إدفو) وإلهها أيضاً الصقر حورس وتاجها التاج الأبيض ورمزها نبات السوت (ربما البوص أو الخيزران)

ونعرف من الملوك المحاربين الملك العقرب ، الذي كان أغلب الظن أحد ملوك مصر قبل الملك مينا (نعرمر) مؤسس الأسرة الأولى الفرعونية ،

وتدل آثار الملك العقرب التي عثر عليها في نخن أنه قام بأعمال إنشائية ، فمثلاً نراه علي دبوس قتاله لابساً التاج الأبيض ماسكاً بفأس يضرب بها الأرض ، ربما يشق ترعة جديدة أو يقوم بأحد المراسم الدينية ،

وفوق هذا نري مجموعة من الألوية تمثل مقاطعات الصعيد ويتدلي منها طيور مذبوحة ربما لتعبر عن قبائل الدلتا وقد يدل هذا علي انتصار الملك العقرب علي الشمال وتوحيد البلاد ، ومن الملاحظ أن هذه الوحدة قد انقسمت عراها لأسباب دينية تقريباً ثم عادت من جديد في أول العصر التاريخي ، عندما أخضع أهل الجنوب أهل الشمال ،

وقامت الوحدة التاريخية التي بدأتها الأسرة الأولى التي أنهت عصر ما قبل التاريخ وبدأت التأريخ منذ الملك مينا

وهناك خلاف حول شخصية موحد مصر ، هل هو الملك نعرمر م ابنهأأم ابنه الملك حور عحا (بمعني الصقر المحارب) ؟ فمينا لم يكن اسماً أو لقباً مستخدماً أثناء حياة الفرعون ، ولكنه نعت أطلقه عليه أبناء الأجيال التالية وهو يعني الخالد وهناك خلاف أيضاً حول تاريخ توحيد القطرين ويظن بعض المؤرخون أنه تم حوالي سنة ٢٩٢٠ قبل الميلاد نقلاً عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر) - حمدي عثمان - الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣١. الملك مينا الفرعون ١ الأول والأسرة الأولى :

الملك الأول في الأسرة الأولى الفرعونية هو الملك مينا (مني) ٢ الشهير بموحد القطرين ومؤسس الدولة والجد الأكبر لجميع ملوك الفراعنة تقريباً ويقول عنه سليم حسن أنه قد كانت له مهابة في قلوب الفراعنة الذين خلفوه حتى أنهم ألوهه بعد موته وبقيت عبادته زمناً طويلاً حتى أنه بعد عشرين قرناً من وفاته وجد تمثاله محمول في مقدمة كل تماثيل الملوك الآخرين في احتفال ديني في عهد رمسيس الثالث في معبده ٣ ويقول سليم حسن أن ملوك الأسرة الأولى يبلغ عددهم سبعة فقط واستمروا نحو ٢٠٠ سنة من سنة ٣٢٠٠ ق م إلى سنة ٣٠٠٠ ق م ٤ والملك مينا قد وضع أساس متين لكل من جاء بعده من الفراعنة فالنظام الحكومي والإداري الذي كانت تسير عليه البلاد في عهده بقي نحو ٣٠٠٠ سنة ٥ لم يطرأ عليه تغيير إلا نادراً ، وقد وردت عدة أسماء للفرعون الأول موحد القطرين منها (مني = مينا = منا = نعرمر = نارمر) كما ورد في تاريخ مانيتون وبردية تورين وقائمة أبيدوس بأن الفرعون الأول هو "مني" بمعنى الخالد أو المثبت (أما كلمة فرعون فقد أتت من اللفظ المصري القديم "برعو" أي القصر العظيم) ونرى في الصورة لوحة شهيرة للملك مينا أثناء القتال والتاج المزدوج

من كتاب موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الأول ص ٢٦٧ وكتاب (معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول) - د سيد توفيق صفحة ٥٣

^١ (أما كلمة فرعون فقد أتت من اللفظ المصري القديم "برعو" أي القصر العظيم "قارن الباب العالي والبيت الأبيض") معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق صفحة ٥٣

^٢ وردت عدة أسماء للفرعون الأول موحد القطرين منها (مني = مينا = منا = نعرمر = نارمر) وقد استخدم هنا الدكتور سيد توفيق اسم "مني" للفرعون الأول كما ورد في تاريخ مانيتون وبردية تورين وقائمة أبيدوس بأن الفرعون الأول هو "مني" بمعنى الخالد أو المثبت

^٣ موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الأول ص ٢٦٧

^٤ موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الأول ص ٢٦٧

^٥ موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الأول ص ٢٦٧

٣٢. شرح لوحة الملك مينا (نارمر)



التي توضح معاركه لتوحيد القطرين ، وظهوره بتاج الوجه القبلي على أحد أوجه اللوحة وبتاج الوجه البحري على الوجه الآخر ، نقلاً عن ويكيبيديا

عثر عليها العالم البريطاني كويل في هيراكونبوليس بالقرب من إدفو وهي من حجر الشيست الأخضر. تعتبر لوحة نارمر من أول اللوحات التاريخية، كتبت ورسمت في عهد الفرعون نارمر الذي وحد الوجهين المصريين
أولاً : الوجه الأول:-

في أعلى اللوحة نجد وجهان لإمرأه لها أذنى وقرنى بقره وهي الإلهة حتحور وبين والوجهين نجد واجهة القصر "السرّخ" ونقش بداخله اسم نعرمر.

في الصورة اسفلها نجد الفرعون مصورا بحجم كبير يلبس تاج مصر العليا(الجنوبية)الأبيض ويمسك بيده سلاحه ليضرب به أحد أعدائه الشماليين (التي تميزه باروكة الشماليين)، وخلف الملك حامل صندل الملك ومعه وعاء من الماء. وأمام الملك نجد الإله حورس في هيئة الصقر وهو يقدم للملك رأس أسير وجسمه عبارة عن علامة الأرض عند المصريين القدماء ويخرج منها نبات البردى أى دليل على أنها أرض الشمال ومعنى ذلك أن حورس يقدم للملك أرض الدلتا ليحكمها ويبسط عليها نفوذه.

بعد ذلك نجد في أسفل اللوحة اثنان من الأعداء يهربان وبجوار كل منهما اسم مقاطعته (بوتو وسائيس) كل منهما ينظر ورائه دليلاً على قوة ما يهربان منه، وبجوارهما رسماً لحصنهما الذي استولى عليه نارمر.

ثانياً : الوجه الثاني:-

نجد أولاً في أعلى الصورة المنحوتة نفس وجهى المعبودة حتحور وبينهما السرّخ،

أسفلها منظر يصور انتهاء الحرب ويمشى الملك في موكب النصر المتجه لمعبد مدينة بوتو المقدسة، وهنا يلبس الملك التاج الأحمر تاج الدلتا وورائه حامل الصندل وأمام الملك كبير وزرائه وفوقه كلمة "سات" يعنى وزير، وأمام الوزير حملة الأعلام. ومن الأعلام نستنتج أن مصر القديمة كانت أول من يكون حكومة مركزية في التاريخ، حيث يرجع تاريخ تلك اللوحة وهذا الحدث إلى ٣١٠٠ سنة قبل الميلاد. ونجد على أقصى اليمين مجموعة من الأسرى مقطعة رقابهم وموضوعة بين أقدامهم ونرى أن جميع الأسرى أقدامهم مواجهة لبعضها ما عدا إثنين منهم، وذلك تمييزاً لهما ويعتقد أنهما قائدين من الشمال.

أسفل هذا المشهد نجد صورة لحيوانين خرافيين متشابكة الأعناق ليشكلوا بؤرة الصلاة لطحن كحل الملك وفى نهاية اللوحة نجد الملك مصوراً على هيئة "ثور" قوي دليلاً على قوته يدمر أحد حصون الأعداء ويطأ بقدمه أحد الأعداء

٣٣. بناء قبر جيد في الدنيا ،،، يضمن لك حياة جيدة في الآخرة ،،، (اعتقاد

فرعوني

(كانت رغبة المصري القديم أن يتم بناء المقبرة في حياته ، فهداه تفكيره إلى عمل المدخل الموصل إلى حجرة الدفن على شكل أحدور خارج البناء العلوي لكي يسحب عليه الجثمان ليستقر في حجرة الدفن ، ثم يسد مدخل الحجرة بكتلة من الحجر ويملاً المنحدر بالرمال ، وبهذه الطريقة استطاع المصري أن ينتهي من البناء العلوي دون حاجة لانتظار الانتهاء من مراسيم الدفن - - أما عن العناصر الضرورية في الدولة القديمة لإعداد مصطبة يعتبرها المصري كاملة لضمان مستقبله في العالم الآخر فهي في رأي "عالم الآثار" ديفز كما يأتي :

١ - اللوحة المشكلة على هيئة باب " أي الباب الوهمي " وهذه غالباً ما تحمل رسم المتوفى داخلاً وخارجاً أو تمثاله ، وعادة تكون حافلة بالدعوات

٢ - تمثال وأسماء وألقاب المتوفى

٣ - قائمة بأصناف الطعام والشراب تشمل نحو مائة صنف إذا كانت كاملة

٤ - صورة المتوفى جالساً أمام مائدة غنية بالطعام

٥ - مواكب الخدم تحمل الزاد ، ومناظر ذبح الحيوانات للطعام

٦ - النصوص التي تتحول بواسطتها المأكولات المصورة إلى حقيقة

٧ - صورة زوجة المتوفى وأسرته والحيوانات الأليفة ، والخدم المقربين لضمان مصاحبتهم له في حياته الجديدة (

من كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق مقتطفات من صفحة ١٠٣ وما بعدها

٣٤. الاحتفال بالعيد الثلاثيني عند الفراعنة

كما ورد في كتاب مصر الفرعونية لأحمد فخري ما يلي :

(----- عيد السد = كان هذا الاحتفال معروفاً في مصر دون شك قبل الأسرة الأولى بزمان كبير ، ويرجع أصله إلى عادة ما زالت تمارسها بعض الشعوب الإفريقية حتي الآن ، وهي تحديد ثلاثين سنة لحكم أي زعيم ، لأن رخاء الناس يتوقف علي قوة ذلك الزعيم ، فإذا امتد عمره أكثر من ذلك قضوا عليه في حفل ديني - - كما تقدم البعض الآخر في تفكيره وقبل من الزعيم أن يثبت قوته باصطياد أسد أو قتل عدو فيشتري بذلك سنوات أخرى من الحياة ، وتقدم آخرون أكثر من ذلك فجعلوا الزعيم يحصل علي سنوات أخرى باسترضائه للاله بتشييد معبد جديد أو تقديم قرابين خاصة في حفل يثبت فيه هذا الزعيم استمتاعه بالصحة الوفيرة ، ويظهر أن هذه العادة كانت معروفة ومتبعة في مصر في وقت مبكر قبل عصر الأسرات ، ووصلت إلي مرحلتها الأخيرة وهي تجديد الحق في البقاء في الحكم قبل أن تنتهي فترة الثلاثين سنة ويكون ذلك في احتفال وفق مراسيم خاصة يثبت فيها الزعيم قوته ، ويشيد لهذه المناسبة بعض المباني الخاصة - - وظل ملوك مصر منذ الأسرة الأولى حتي آخر أيام حضارتها ، مخلصين لهذا التقليد وكثيراً ما نري الإشارة إليه ، ونري بعض طقوسه علي جدران المعابد في جميع العصور حتي ما شيد منها في أيام الرومان)

من كتاب (مصر الفرعونية - موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتي عام ٣٣٢ قبل الميلاد)

للمؤرخ الكبير (أحمد فخري) صفحة ٨٢-٨٣ مكتبة الأنجلو المصرية (الطبعة الثامنة) ١٩٩٥

٣٥. الملك زوسر ١ مؤسس الأسرة الثالثة الفرعونية



حكم مصر من حوالي سنة ٢٦٣٠ ق م إلي سنة ٢٦١١ ق م ، واسمه الأصلي هو نثرخت أما كلمة زوسر فأصلها لقب منحه له المصريون فيما بعد وهو - جسر - أي المقدس

(بالرغم من أن الملك زوسر كان علي الأرجح ابنا لآخر ملوك الأسرة الثانية فقد اعتبره القدماء مؤسساً لأسرة مملكة جديدة وهي الأسرة الثالثة) ٢ ،

(وليس من شك في أن أهم الآثار التي وصلت إلينا من عصر الأسرة الثالثة هي تلك المجموعة الهرمية التي أمر الملك جسر "زوسر" ببنائها بسقارة - -

ومن الطريف أن الملك زوسر قبل أن يبدأ في بناء مجموعته الجنائزية في سقارة سار علي نهج من سبقوه من ملوك الأسرتين الأولى والثانية فبني مقبرته الأولى علي شكل مصطبة كبيرة الحجم وهي من الطوب اللبن - - أما مقبرته الثانية بسقارة ونقصد بذلك الهرم المدرج فقد ترك تشييدها لوزيره الشاب أيحمتب وهو المهندس الذي استخدم الحجر علي نطاق واسع لأول مرة - - وقد خلد هذا البناء الضخم مهندسه أيحمتب (٣ ،

(وأثبتت الأبحاث الحديثة وما تعري وتهدم من بعض أجزاء الهرم "هرم سقارة المدرج" أنه بني علي أساس تصميمات مختلفة - - وأصبحت قاعدة الهرم بعد كل هذه التعديلات ١٢١ متر من الشرق إلي الغرب و ١٠٩ متر من الشمال إلي الجنوب وارتفاع الهرم يصل إلي ٥٩.٦٤ متر - - وغير هذا فهناك العديد من الممرات والغرف التي حفرت في الصخر الطبيعي تحت بناء الهرم وتشعبت في اتجاهات مختلفة بأطوال متباينة وعلي أعماق مختلفة ووجد بها عشرات الآلاف من الأواني الحجرية الضخمة ويعتقد بأن عددها يزيد علي ٣٠٠٠٠ إناء من المرمر والجرانيت والديوريت والشست ؛ وهي تمثل الإتقان الذي وصلت إليه صناعة الأواني في عصر الملك جسر وقد زينت إحدى جدران هذه الغرف بثلاثة أبواب وهمية مثل عليها الملك زوسر يقوم بطقوس عيد السد يصاحبه اسمه وألقابه) ٥

^١ تم استخدام اسم (جسر) للملك زوسر في كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر للدكتور سيد توفيق وكلمة جسر تعني المقدس باللغة المصرية القديمة

^٢ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة ٩٢

^٣ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق صفحة ٥٦-٥٧

^٤ تفكر الملك زوسر كان حائط كل هذه الأواني فيه أسفل الهرم بتاعه ، حاجة غريبة جداً ، ممكن يكون سمع إشاعة إن سعرها سيرتفع

^٥ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق صفحة ٦٦

(كانت فترة حكم زوسر لمصر فترة زاهرة ولكن منذ وفاته حتي آخر أيام الأسرة لم يخلفه علي العرش من نستطيع أن نقارنه به ، ويذكر مانيتون أسماء ثمانية ملوك حكموا في هذه الأسرة بينما لا نجد في ثبت أبيدوس إلا أسماء ستة ملوك فقط ، أما بردية تورين المهشمة فلم تحفظ لنا غير خمسة أسماء) ١ ،

(وكانت فترة حكم الأسرة الثالثة مائة سنة علي الأرجح وقد بدأت بعهد زاهر وهو عهد زوسر ولكن سرعان ما توقفت تلك النهضة ولم تتابع تقدمها علي الصورة التي كنا نتوقعها ، فقد رأينا كيف عرفت مصر تشييد الهرم المدرج ، ومضت عشرات السنين بعد ذلك فلم تخط الخطوة التالية وهي معرفة بناء الهرم الكامل - ظلت مصر نحو أربعمائة سنة وهي تبني مقابر ملوكها في الأسترتين الأولى والثانية علي شكل مصاطب مستطيلة الشكل حتي ولد معماري نابغ وهو إيمحوتب فارتفع بقبر الملك وجعل منه هرمًا مدرجًا وظل تجديد إيمحوتب مثلاً أعلي مدة تقرب من قرن كامل حتي انتهت أيام الأسرة الثالثة وبدأت الأسرة الرابعة) ٢

(أما الملك حوني آخر ملوك هذه الأسرة فقد حكم ٢٤ سنة ويذكر نقش يحمل اسمه في جزيرة الفنتين أنه أقام عند الجندل الأول حصناً ليؤمن حدود مصر الجنوبية وهذا النقش هو الإشارة الوحيدة للأحداث السياسية التي تمت في عهده كما بدأ خلال فترة حكمه ببناء هرمه في ميدوم " ٧٥ كم جنوب القاهرة " ولكنه مات قبل أن يتمه ، فأكملة الملك سنفرؤ أول ملوك الأسرة الرابعة) ٣

نقلا عن كتاب - مصر الفرعونية - أحمد فخري وكتاب معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق
الصورة لتمثال الملك زوسر الذي تم العثور عليه في السرداب الواقع إلي أقصى الشرق من معبد الجنائزي بمنطقة سقارة والتمثال من الحجر الجيري الأبيض ويمثل الملك بحجمه الطبيعي بالتقريب بقامة ممدودة ، جالسا في وضع هادئ مستقر واضعاً يده اليسري علي ركبته واليميني علي صدره

^١ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة ٩٨

^٢ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة ١٠١

^٣ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق صفحة ٦٧

٣٦. المهندس إيمحوتب



تاريخ مصر حافل بالعابرة ومن أقدمهم في تاريخ مصر المهندس العبقري إيمحوتب الذي قام ببناء هرم سقارة المدرج ليكون مقبرة للملك زوسر

كان إيمحوتب واحداً من أولئك النوابغ الذين تظهر عبقريتهم في أكثر من ميدان واحد فلم يقتصر نبوغه علي فن العمارة والنحت فأحدث التطور الأكبر في الفن المصري بل نبغ أيضاً في الطب وألف فيه ، كما ألف في الحكمة وألهه المصريون بعد وفاته وعبدوه وشيدوا له المعابد في أواخر أيام حضارتهم ^١ كتاب مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة ٩٦

^١ مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة ٩٦

٣٧. الملك سنfro مؤسس الأسرة الرابعة الفرعونية



أسس الملك سنfro ١ الأسرة الرابعة - - ويرى مانيتون أنه حكم ٢٩ سنة وبردية تورين ٢٤ عاما كما نعرف من حجر بالرمو أنه قام ببعثات حربية إلى بلاد النوبة وأحضر معه من هناك ٧٠٠٠ أسير ، ٢٠٠٠٠٠ رأساً من الماشية وبعد ذلك اتجه إلى ليبيا وانتصر عليها وعاد منها ومعه ١١٠٠٠ أسير و ١٣١ ألف رأس من الماشية كما يذكر حجر بالرمو أيضاً أنه أرسل أسطولاً بحرياً إلى لبنان لإحضار أخشاب الأرز (٢)

وكان سنfro متزوجاً من الأميرة حنتب حرس ابنة الملك حوني آخر ملوك الأسرة الثالثة والتي كانت تحمل بحكم دمها الملكي حق وراثة العرش وأنجب منها ابنه خوفو الملك الشهير وكان نظام وراثة الحكم إذا انقطع نسل الذكور من الأسرة المالكة فإن الملك الجديد لا بد أن يتزوج من إحدى بنات البيت الملكي السابق حتي يجري الدم الفرعوني في عروق أبناءه كما فعل سنfro مع ابنة الملك حوني ولقد أكمل الملك سنfro هرم الملك حوني في ميدوم بالفيوم وشيد لنفسه هرمين في دهشور ، الأول يسمى الهرم المنكسر الأضلاع ويبلغ ارتفاعه ١٠١.١٥ متر ويبدو أنه الحلقة التالية لتقدم فكرة بناء المقبرة الملكية بعد المصطبة المدرجة الخاصة بالملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة

والهرم المنكسر عبارة عن قاعدة ضخمة عالية بنيت جوانبها بزاوية ٥٤.١٤ درجة وفوق هذه القاعدة بني القسم الثاني بزاوية قدرها ٤٣.٢١ درجة ونتج عن تغيير الزاوية ذلك الهرم المنكسر الأضلاع ، أما طول ضلع قاعدته المربعة فهو ١٨٨.٦ متراً ، ويمتاز هذا الهرم عن جميع أهرام مصر بأن له مدخلين ، مدخل في الجهة الشمالية والآخر في الواجهة الغربية ، كما يمتاز أيضاً بأن الكساء الخارجي له لا يزال علي حالته الأولى ، وإلى الشمال من هذا الهرم علي بعد لا يقل عن ٢ كم نجد الهرم الثاني لسنfro والذي يعتبر أول هرم حقيقي في تاريخ العمارة المصرية ويبلغ ارتفاعه حوالي ٩٩ متر وطول ضلع قاعدته حوالي ٢٢٠ متراً

وضمن آثار الملك سنfro وجدت قائمة كاملة لأغلب الأقاليم المصرية في ذلك الوقت فيما تعتبر أول وثيقة لتقسيمات مصر الإدارية في عصر يرجع إلي أكثر من ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد

وإذا تكلمنا عن الملك سنfro سنجد أن عصره امتلأ بحوادث كثيرة منها الحملة البحرية التي أرسلها إلي الموانئ السورية وعادت هذه الحملة بحوالي أربعين سفينة محملة بالأخشاب التي تستخدم في البناء وتم قطعها من غابات لبنان ١

^١ كتب سليم حسن عن سنfro ما يلي (وكانت كل القوة مجتمعة في يد الملك الذي حل محل رؤساء القبائل ، ولما كان الملك هو الوارث لمعبود القبائل أصبح القوم يعتقدون فيه أنه إله حقيقي) موسوعة سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الأول - صفحة ٢٨٤

^٢ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق صفحة ٦٨

ويبدو أن الملك سنفرو كان ملكاً جاداً لأن سليم حسن كتب عنه ما يلي بالحرف الواحد

(وكانت مصر في عهد هذا الفرعون مملكة متحدة ثابتة الأركان)^٢

وعندما ينتقل في أرجاء قصره أو خارجه كان لزاماً علي رعيته أن يركعوا أمام جلالته ويقبلوا التراب الذي تحت قدميه علي حد تعبير سليم حسن وبعد وفاته كان القبر الذي يضم رفاته موضع تقديس وكانت حاشيته وعظماء البلاد في عهده تدفن حول قبره أو بالقرب منه حتي يقدموا له خدماتهم في الدار الآخرة بنفس الولاء والإخلاص

أما عن سبب عدم وجود آثار تخص بيوت وقصور الفراعنة فيقول سليم حسن (وقد كان للآلهة في هذا الزمن السحيق معابد من حجر علي حين أن الملك كان يسكن في مأوي بسيط من الطوب اللبن أو من طين النيل المجفف في الشمس ولم يكن لأحد الحق في أن يسكن في مساكن من الحجر إلا الموتى لأنهم كانوا يعدون كالآلهة)^٣

نقلًا عن موسوعة سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الأول وكتاب هؤلاء حكموا مصر - حمدي عثمان

الصورة لتمثال الملك سنفرو والهرم المنكسر بدشور

^١ موسوعة سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الأول-صفحة ٢٨٤

^٢ موسوعة سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الأول-صفحة ٢٨٤

^٣ موسوعة سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الأول-صفحة ٢٨٥ ، ٢٨٦

٣٨. الأسرة الرابعة الفرعونية وبناء الأهرامات في مصر



الأسرة الرابعة هي أشهر أسرة في العصر القديم

وهم بحق بناء الأهرام

وهذه الأسرة مكونة من سبعة ملوك أولهم الملك سنفرو مؤسس الأسرة

وكان سنفرو متزوج من بنت الملك حوني آخر ملوك الأسرة الثالثة وأنجب منها ابنه خوفو الملك الشهير

وبعد أن مات سنفرو جاء الملك خوفو للحكم وأياً كان السبب الرئيسي لبناءه هذا الهرم العملاق ١ وأياً كانت ظروف حكمه إلا أن الهرم الموجود حالياً باسمه يعتبر من عجائب الدنيا بالفعل فيكفي أن اذكر لك بعض الحقائق عن هذا الهرم لتعرف حجم العمل الذي تم فيه رغم أن فترة حكم خوفو لم تتجاوز العشرين عاماً مما يدل على أن فن الإدارة وتنظيم الأعمال كان متقدماً في عهده لإنجاز هذا العمل الضخم في توقيت قصير نسبياً ،

يبلغ طول قاعدة الهرم ٢٢٧.٥ متر وارتفاعه حوالي ١٣٧ متر وعدد أحجاره تقريباً مليونين وثلاثمائة ألف حجر ومتوسط وزن الحجر الواحد حوالي ٢.٥ طن يعني وزن الهرم بالكامل ستة ملايين طن تقريباً وحجمه ٢.٥ مليون متر مكعب ٢ وبالرغم إن خوفو كان يريد أن يكون هذا الهرم المقر الأبدي لجثمانه إلا أن حلمه لم يتحقق وقد تم اقتحام حجرة الدفن في عهد الثورة التي كانت في نهاية الأسرة السادسة الفرعونية لأن حجرة الدفن الخاصة بالملك خوفو خالية تماماً وعليها آثار تخريب واضحة من مخلفات الأسرة السادسة

تقريباً ويقول سليم حسن عن الملك خوفو (وربما يتوهم البعض أن بناء الهرم الأكبر قد شغل خوفو عن باقي أعمال ملكه ولكن الواقع أننا نجد له آثاراً باقية في مدن ملكه وقد ترك خوفو اسمه منقوشاً في مناجم النحاس والفيروز في شبه جزيرة سيناء) ٣

(والظاهر أن بعد وفاة خوفو قامت منازعات على الملك إذ نجد في قوائم الملوك التي وصلت إلينا أن الملك الذي خلف خوفو هو ددف رع ولكن بعض العلماء ينكرون ذلك وقد استمر في الحكم مدة ثمانية أعوام) ٤

وهذه الصراعات استمرت حتي في عصر خفرع صاحب الهرم المعروف باسمه في الجيزة حيث أن خفرع لم تكن بيده مطلق الصلاحيات في الحكم أو بمعنى أصح سلطاته كانت غير كاملة علي مصر بسبب هذه الصراعات مع أبناء ددف رع

^١ يعتقد بعض علماء الآثار أن من أسباب بناء هذا الهرم أن الملك قرر تأمين شعبه ضد البطالة وخاصة في الفترات التي تتوقف فيها أعمال الزراعة ولذلك كان يتم العمل في الهرم في هذه الفترات فقط من السنة وهي فترات مرتبطة طبعاً بتوقيات حدوث فيضان النيل

^٢ موسوعة سليم حسن - مصر القديمة - الجزء الأول - صفحة ٢٩٢

^٣ موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) الجزء الأول ص ٢٩٤ (مكتبة الأسرة)

^٤ موسوعة مصر القديمة (سليم حسن) ج ١ ص ٢٩٥ (م الأسرة)

أخوه ومع كل هذه الصراعات استطاع بعزيمة فولاذية بناء هرمه الفخم بجوار هرم خوفو وقد أنجب خفرع ١٦ فرد من الذكور والإناث وفي الغالب أن الفرعون منقرع أحد هؤلاء وقد خلف أبوه في الحكم وبنى هرمه الصغير بجوار هرم خوفو وهرم خفرع كما نعلم جميعاً

الملك منكورع :

(-) - لم تستطع الآثار المصرية المعروفة لدينا الآن أن تعطينا الشيء الكثير عن حياة الملك منكورع وإن تغلبت الذكري الطبية عند الحديث عنه في العصور المتأخرة - - بعكس ما اتصف به والده خفرع وجده خوفو من قوة واستبداد - - والاحتمال كبير في صدق هذه الرواية لسبب بسيط هو أن بناء مثل هذين الهرمين الكبيرين وما يتبعهما من معابد للملكين خوفو وخفرع لا شك حملاً للدولة ما لا تستطيع من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية - - ويقع هرم منكورع في الركن الجنوبي من الهضبة ويبلغ ارتفاعه الآن ٦٢ متر " كان ٦٦.٥ متر " وطول ضلع قاعدته ١٠٨.٥ متر - - وعلي الرغم من أن فترة حكم منكورع قد تزيد عن ١٨ عاماً فإنه لم يستطيع أن يتم تشييد هرمه الصغير وما يتبعه من معابد فأكملها له ابنه شبسكاف - - ولم يبق شبسكاف بتشيد هرم له في الجيزة واتخذ منطقة سقارة جبانة له وقام في جنوبها بتشيد تابوت ضخم مستطيل (١٠٠×٧٥ متر وارتفاع ١٨ متر) بني من الحجر الرملي - - وهو المعروف الآن بمصطبة فرعون ويبدو أن نفوذ كهنة الشمس ازداد وازداد معه قوة وسيطرة الإله رع في هليوبوليس - - ومن أهم الأسباب التي سمحت لهم بتحقيق هذه السياسة أن ملوك الأسرة الرابعة بعد الملك خفرع كانوا ملوكاً ضعافاً فاستطاع هؤلاء الكهنة أن يفرضوا سيادتهم ويسقطوا الأسرة الرابعة - - وجعلوا بعد ذلك الإله رع إله الدولة وقللوا من أهمية الإله حورس ١ الذي كان يهيمن علي مصر قبل ذلك كإله للدولة (٢)

نقلًا عن كتاب (موسوعة مصر القديمة) (سليم حسن) الجزء ١٣ (مكتبة الأسرة)
وكتاب (معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق)

^١ مسألة غلبة إله علي إله بالطبع كلام فارغ ولكن الموضوع له علاقة بالمصالح المرتبطة بالكهنة أنفسهم فكل معبد له ما يشبه الأوقاف من الأراضي وخلافه تدر مبالغ كبيرة لكهنة المعبد وكلما زادت أهمية أحد المعابد زاد بالتالي دخله ولتسهيل الموضوع يمكن إعطاء مثال أن كهنة كل معبد كانوا يديرون مشروعات تدر أرباحاً ضخمة كما لو كانت شركات وأسماء الآلهة عبارة عن أسماء لهذه الشركات (شركة رع - شركة حورس وهكذا) {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} (٢٢) سورة الأنبياء

^٢ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق صفحة ٨٢-٨٣

٣٩. الأسرة الخامسة (أسرة فرعونية غير مشهورة حالياً) :

الأسرة الخامسة مكونة من تسعة ملوك أولهم يسمى (أو سر كاف) وآخرهم الفرعون (أوناس) وهي أسرة من بناء الأهرامات ولكنها ليست علي نفس مستوي الأسرة الرابعة من الشهرة حالياً حيث تم بناء أهرامات خوفو وخفرع ومنقرع في عهد الأسرة الرابعة

(ويؤكد حجر بالرمو بأن ملوك الأسرة الخامسة تميزوا بإقامة المعابد الكثيرة ، أما هيرودوت فأوضح أن هذه الأسرة تميزت بنزعة دينية خالصة ، ويفضل الترتيب الآتي لملوك هذه الأسرة :

وسر كاف - ساحورع - نفر إير كا رع - شبسكارع - نفر اف رع - ني وسر رع - من كاو حور - جد كا رع اسسي - ونيس (١) ،

(ونعرف من المصادر التاريخية أن وسر كاف هو أول ملك شيد معبد لإله الشمس رع في منطقة أبو غراب " علي بعد ميل شمال أبو صير جنوب الجيزة (٢) ،

(أتى ساحورع بعد الملك وسر كاف وقد حكم طبقاً لما جاء في حجر بلرمو ١٤ سنة وإن كانت بردية تورين تعطيه ١٢ سنة فقط أما مانيتون فيذكر له ١٣ عاماً ٣ - - اهتم بتزيين المعابد بالمناظر والنقوش ، التي نعرف منها نشاط الملك ساحورع الحربي فنعرف أنه قام بحملات ضد الليبيين ٤ الذين حاولوا غزو الدلتا وضد البدو في الشمال الشرقي ، ونعرف أيضاً أنه أرسل أسطولاً إلي شواطئ فينيقيا - -

أتي بعد ساحورع أخوه نفرير كارع المعروف بكاي ويشير حجر بلرمو الذي تم نقشه - أغلب الظن - في عهده أنه حكم فترة عشر سنوات ، ويعطيه المؤرخ مانيتون عشرين عاماً - - أصدر نفر إير كا رع مرسوماً بإعفاء رجال الدين وفلاحي المعابد من القيام بأعمال أخرى تتصل بمشاريع الإصلاح في الدولة هذا المرسوم الذي ساعد علي تقوية الكهنة وزاد من نفوذهم وفي نفس الوقت بدأ يتقلص نفوذ الملك وأخذت سلطته تضعف وبالتالي أخذت سلطة الحكومة المركزية تضعف مما أدي فيما بعد إلي انهيار الدولة القديمة وبداية عصر الاضمحلال الأول

- أتي بعد الملك كاي الملك شبسكا رع وتلاه الملك نفر اف رع وكل ما نعرفه عن هذين الملكين خلاف اسميهما هو فترة حكمهما فقد حكم الأول ٧ سنوات والثاني ٤ سنوات - -

بعد ذلك جاء إلي العرش الملك ني وسر رع الذي حكم فترة تقرب من ثلاثين سنة وقام ببناء هرمه ومعبد لإله الشمس رع في منطقة أبو صير (٦) ،

(الملك ونيس " أوناس " آخر ملوك الأسرة الخامسة حكم فترة ثلاثين عاماً وهو أول ملك نقش في حجرة دفنه نصوص اصطلاح علي تسميتها بنصوص الأهرام - متون الأهرام - وهي التي كشف عنها -عالم الآثار الشهير - ماسبيرو عام

^١ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق صفحة ٨٦

^٢ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق صفحة ٨٧

^٣ لاحظ أن هناك تضارب بين التواريخ والأرقام في الآثار الفرعونية نفسها وعموماً هذا لا يعنيننا كثيراً فالمهم الأحداث نفسها

^٤ سنلاحظ معاً عند قراءة التاريخ الفرعوني بالكامل أن محاولات الليبيين كانت مستمرة للإقامة بمصر ولم تنجح عسكرياً ولكنها نجحت في فترة من

الفترات في الهجرة السلمية بأعداد كبيرة لدرجة أنهم تولوا حكم مصر كما سنري إن شاء الله أثناء الحديث عن الأسرة الثانية والعشرين الليبية

^٥ (نعرف اسم الملك نفر إير كا رع من عدة مقابر لكبار موظفيه علي سبيل المثال مقبرة "رع ور " التي اكتشفها سليم حسن عام ١٩٢٩ وهذا القبر لا

تقل جراته عن الخمسين وعثر فيه علي أكثر من مائة تمثال أكثرها مهشم وكان "رع ور " يحمل أكثر من ثلاثين لقباً من بينها لقب مدير القصر الملكي

، ونذكر هنا حادثة لطيفة تدل علي عطف الملك ذكرها "رع ور " في مقبرته فقد حدث ذات مرة في احتفال رسمي أن الملك وكز بعضاه ساق رع ور

من غير قصد ولاحظ الملك هذا واعتذر عما بدر منه وقال له " انك أحب رجل لدي وأخص الناس بعطفي " ولم يكتف بذلك بل جعل هذه الحقيقة واضحة

للناس فأمر بنقشها علي حجر لكي تودع في قبر رع ور ، وهناك حادثة مشابه حدث للوزير والقاضي " واش بتاح " (معالم تاريخ وحضارة مصر -

القسم الأول- د سيد توفيق صفحة ٨٩ ، ومن هذه القصة يتضح مدي جبروت ملوك مصر الفراعنة مما يجعل مثل هذا الحدث العادي إشادة بعطف الملك

وسنلاحظ أيضاً أن الحاشية فقط هي التي تحظى بهذه الرعاية أما باقي الشعب فالوضع مختلف كما سنري عند الحديث عن الثورة العارمة التي حدثت في

نهاية الدولة القديمة

^٦ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق صفحة ٨٨-٨٩-٩٠

١٨٨٠ في هرمه المشيد في الركن الجنوبي الغربي لسور الهرم المدرج بسقارة وهي عبارة عن مجموعة تعاويذ وصلوات وطقوس دينية مختلفة تم اختيارها بواسطة الكهنة -

ويصل ارتفاع هرم ونيس الآن ١٩ متر بعد أن كان في الأصل ٤٤ متر وطول قاعدته المربعة ٦٧ متر وهو مهدم إلى حد كبير - -

انتهت الأسرة الخامسة وإن لم تترك لنا أهرامات ضخمة مثل أهرامات الأسرة الرابعة إلا أنها تركت ثروة لغوية تمثلت في نصوص الأهرام هذا بجانب مناظر الحياة اليومية الممثلة علي جدران مقابر كبار رجال الدولة (١)

(نعرف اسم الملك نفر اير كا رع من عدة مقابر لكبار موظفيه علي سبيل المثال مقبرة "رع ور " التي اكتشفها سليم حسن عام ١٩٢٩ وهذا القبر لا نقل حجراته عن الخمسين وعشر فيه علي أكثر من مائة تمثال أكثرها مهشم وكان "رع ور " يحمل أكثر من ثلاثين لقباً من بينها لقب مدير القصر الملكي ، ونذكر هنا حادثة لطيفة تدل علي عطف الملك ذكرها "رع ور " في مقبرته فقد حدث ذات مرة في احتفال رسمي أن الملك وكز بعصاه ساق رع ور من غير قصد ولاحظ الملك هذا واعتذر عما بدر منه وقال له " انك أحب رجل لدي وأخص الناس بعطفي " ولم يكتف بذلك بل جعل هذه الحقيقة واضحة للناس فأمر بنقشها علي حجر لكي تودع في قبر رع ور ، وهناك حادث مشابه حدث للوزير والقاضي " واش بتاح ")

نقلا عن كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق
الصورة لمتون الاهرام او نصوص الاهرام. من داخل هرم الملك اونس

٤٠. ثورة الجوع في العصر الفرعوني



في عصر الأسرة السادسة الفرعونية (- - طال الحكم بالملك بيبى الثاني الذي استبدت به شيخوخته ثم بدأ يتبدل حال الحكومة المركزية فدب فيها الضعف وقلت هيبتها وفي نفس الوقت زاد سلطان حكام الأقاليم وزادت ثروتهم وقل ولائهم لصاحب العرش - - واشتدت المظالم مما أدى إلي القيام بثورة ، - -) وبعد ذلك بدأ عصر الاضمحلال الأول وهي الفترة التي (- - استمرت ما يقرب من قرن ونصف وتشمل الأسرات من السابعة حتي نهاية العاشرة - - لقد سقطت مصر في هوة عميقة من الاضمحلال بعد موت الملك بيبى الثاني ، فانهار صرح الملكية وتدهورت سلطة البلاد المركزية وبدأ الشعب يفكر في الثورة ليتحرر من قيوده فكانت الثورة ، ثورة علي قدسية الملوك وقدسية الآلهة - - ويصف لنا الحكيم المصري "أبوور" الذي يحتمل أنه عاش في أواخر عهد الملك بيبى الثاني أو أحد خلفائه الضعاف - ، البلاد وصفاً ممتعاً علي الرغم مما فيه من قسوة [- من وجهة نظره لأن الفقراء حصلوا علي كل شئ في هذه الثورة ولم يتركوا للأغنياء شيئاً]^١ واستمر السلب والنهب حتي تم نهب كنوز المقابر [فيعدد صور البؤس ويؤنب الملك الحاكم علي استهتاره وضعفه بقوله " ما هذا الذي يحدث في مصر ؟ - إن النيل لا يزال يأتي بفيضانه وليس هناك من يقوم بحرق حقله - ، لماذا حقاً أصبح الفقراء يمتلكون الكنوز ؟ ، إن من كان لا يملك نعلأ أصبح الآن من الأثرياء - - لماذا حقاً عم الحزن الأشراف ؟ بينما ساد الفرح والسرور الفقراء - - أنظر كيف أصبحت نساء الأشراف متسولات ، ومن لم يملك خرقة ينام عليها أصبح اليوم وهو صاحب سرير ، ومن كان يفتقد الرغبة أصبح الآن يملك مخزناً من الغلال ، انظروا : إن من كان لا يملك ثوراً أصبح الآن من أصحاب القطعان "]^٢ وكلام الحكيم المصري (أبوور) يعبر عن تدهور السلطة المركزية في مصر وبالتالي لم يأمن أحد علي كل ما يملكه

من كتاب (معالم تاريخ وحضارة مصر) - القسم الأول - د سيد توفيق مقتطفات بتصرف من صفحة ١٢٦ وما بعدها
الصورة للملك بيبى الثاني

^١ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق صفحة ٩٩ وما بعدها
^٢ لاحظ معي عندما نتأمل ما كتبه الحكيم المصري أنه مستاء لأن الفقراء وعامة الشعب أصبحوا أغنياء ومعهم أموال كثيرة وأن الملك وحاشيته وكبار رجال الدولة يعيشون حياة سيئة ومن هنا يتضح أن الطبقة العليا في الدولة هي الجديرة بالحياة الكريمة بل وبالدفن الكريم أيضاً إذا جاز التعبير أما عامة الشعب فيري المؤرخ المصري القديم أنه من البؤس علي حد تعبيره أن يراه ينتعم بالحياة وهذا شئ محير جداً (لاحظ أيضاً أن هذا الحكيم وأمثاله هم أحد أهم مصادر التاريخ الفرعوني وبالتالي من الممكن أن يكونوا قد حذفوا فترات التوحيد وظهور الأنبياء وغياب ألوهية الفرعون وفقدانه السيطرة علي أنحاء مملكته واعتبروها فترات مظلمة من وجهة نظرهم بالطبع وربما والله أعلم تكون هذه الفترات هي ومضات النور القليلة التي عرفت فيها مصر دين الله سبحانه وتعالى ثم تعود وتترك عبادة الخالق وتعبد المخلوق) (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي { (٣٨) سورة القصص
^٣ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق مقتطفات من صفحة ١٢٦ وما بعدها

٤١ . عندما كتب المظلوم شكواه بأسلوب رائع

لم يتم الاستجابة لها حتي يتم الاستمتاع بالمزيد من الشكاوي الرائعة قصة طريفة من العصر الفرعوني بعنوان القروي الفصيح ، ،

(-) وهي قصة كتب أحداثها أديب من العصر الأهناسي ١١ والقصة في حد ذاتها بسيطة في وقائعها إلا أنها تمتاز ببلاغة الأسلوب ويبدو أن الهدف ليس القصة نفسها بل الشكاوى التسعة التي ناقش فيها القروي النظم الاجتماعية والفوارق بين الطبقات كما طالب بمحو الظلم وإعطاء كل ذي حق حقه وحماية الفقير من الحاكم الغني الظالم (٢)

وتعود أحداثها إلي عصر الملك نب-كاو-رع أحد ملوك أهناسيا في الأسرة العاشرة الفرعونية

وتتلخص مقدمة هذه القصة في أن قروياً يدعي خون أنبو أحس أن مخازن الغلال في منزله كادت تفرغ مما فيها ، فاستأذن زوجته في السفر إلي العاصمة أهناسيا للحصول علي المزيد من الطعام والغلة التي تكفي أولاده وطلب منها أن تعد له ما يكفيه من زاد الطريق وخرج هذا القروي من قريته حقل الملح بالقرب من وادي النطرون يحمل علي حميره بعض السلع التي اشتهرت بها قريته وكان عليه أن يخترق في طريقه إلي العاصمة ضيعة رنسي مرو مدير القصر الفرعوني وكان أحد عماله ويدعي جحوتي نخت طماعاً فلما رأي حمير خون أنبو بمنظرها الخلاب وما عليها من سلع ثمينة متنوعة طمع فيها ، ففكر في حيلة للاستيلاء عليها بطريقة تخدع القروي ويستسلم لها

وقد أمر خادمه بأن يسرع بإحضار بعض قطع من قماش الكتان وأسرع فمدها علي الطريق الضيق بين ماء التربة وحقل القمح ، فاحتر القروي أين يتجه فلم يكن أمامه إلا أن يميل بحميره فيسير علي الجانب الذي به القمح فصاح فيه جحوتي نخت وبالبطبع فقد انتهز الحمار الفرصة التي انشغل فيها صاحبه بالكلام وملأ فمه بحزمة من القمح وحينئذ كشف جحوتي نخت عن مؤامره الدنيئة للاستيلاء علي حمير القروي بحجة أنه أكل قمحه

اتجه القروي إلي الجنوب ليلتقي رئيس الحجاب رنسي مرو بعد أن ظل عشرة أيام كاملة يتوسل إلي جحوتي نخت ليعيد إليه حقه ، وقد استمع كبير الحجاب إلي الشكوي وسرعان ما نقلها إلي جلالة الملك نب كاو رع فسارع الملك بدوره نتيجة إعجابه ببلاغة هذا القروي بإصدار توجيهاته إلي كبير الحجاب بأن يلزم الصمت حتي يستمر القروي في شكواه حتي يمكن للملك الاستمتاع ببلاغة القروي وفصاحته في التعبير ، ولقد أصدر الملك توجيهاته في ذات الوقت بأن يتولي رنسي تدبير حياة أسرة القروي بإرسال المعونات الغذائية إليهم دون أن يعلم القروي شيئاً عن ذلك

وفي نهاية القصة اقتص الملك من الظالم بأن أخذ كل ما كان يملكه وأعطاه لذلك القروي الفصيح ولم يكتف بأن رد إليه ما سرق منه وهذا يعني أنه قد عوضه عما أصابه من ألم ويقول القروي مخاطباً رنسي ليحثه علي العدل في شكواه الأولي :إذا نزلت إلي بحيرة العدالة من المؤكد أنك ستبحر فيها مع ربح مواتية ، ولن يقتلع شرارك ، ولن تتقدم سفينتك ببطء ، ولن يصيب ساريتك الضرر ، ولن تنكسر عوارض السواري ، ولن تجرفك المياه ولن تعاني من مشاق النهر ولن تشاهد وجوهاً مرعبة ، بيد أن الأسماك ستتجه إليك وقد فزعت بسرعة وسوف تصطاد الطيور السمينة لأنك أب لليتيم وزوج للأرملة وأخ للمطلقة ، ومئزر لمن فقد أمه ، أياها الخالي من كل حسد ، الرجل العظيم المجرد من الشراسة ، الذي يقضي علي الكذب ويوقظ الحقيقة تعال علي صوت من يتحدث إليهم وأجهز علي الشر ، أقم العدالة أيها الرجل الممدوح الذي يمتدحه الذين يمدحون ، اطرد ضيقي ، لاحظ أنني أرزح تحت وطأة حزني ، لقد وهنت بسببه

نقلًا باختصار عن كتاب الخطاب السياسي في مصر القديمة - الدكتور مصطفى النشار - أستاذ الفلسفة القديمة - دار قباء للطباعة والنشر الطبعة الأولى ١٩٩٨ - مقتطفات مختصرة من صفحة ٩٢ وما بعدها

^١ يسمى هذا العصر بالعصر الإهناسي نسبة إلي مدينة إهناسيا حيث كانت مكان عاصمة الدولة في ذلك العصر بدلا من منف وطيبة وغيرهم
^٢ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق صفحة ١٣٢

٤٢. نصائح الملك خيتي الرابع لابنه

كان الملك خيتي الأول من أبرز من حكموا مصر في فترة الاضطرابات وتعدد الأسر الفرعونية وتعدد الحكام (خلال عصر الاضمحلال الأول) فقد استطاع الأمير خيتي حاكم الإقليم العشرين من أقاليم الصعيد في ظل الاضطرابات التي سادت الفترة الانتقالية الأولى من نهاية الأسرة السادسة حتي قيام الأسرة الحادية عشرة ، استطاع أن يؤسس الأسرة التاسعة الفرعونية حوالي سنة ٢١٣٤ قبل الميلاد ، ويتخذ من عاصمة إقليمه وهي مدينة أهناسيا عند مدخل الفيوم عاصمة لمصر ، ولقبه الأثريون باسم الملك خيتي الأول ، ويسمى هذا العصر بالعصر الإهناسي

أما الملك خيتي الرابع (واح كا رع) فقد جلس علي عرش أهناسيا خلال الأسرة العاشرة ، وكان ملك حازم ، ومشهور بوصيته لابنه (مري كا رع) تلك الوصية التي تلقي الضوء علي ذلك العصر ، والتي يعطي فيها خلاصة تجاربه لابنه حتي لا يقع فيما وقع فيه هو من أخطاء

ويبدأ هذه النصائح بتحذير ابنه من أي تابع له يكثر من الكلام وراءه أتباع كثيرون فإن هذا الشخص يسبب الانقسام بين الناس

ويوصيه بأن يكون فناناً في الحديث ، وينصحه بأن ينهج سبيل آبائه وأجداده وأن يكثر من قراءة ما خلفوه من كتب الحكمة

وألا يفعل الشر وأن يتحلي بالصبر ويترك وراءه ذكري حسنة من حب الناس له

ويحذر ابنه من الطمع ، وينصحه بأن يعتني بتثبيت حدوده وأن يعلي من شأن رجاله ويقويهم

وينصحه باتباع الحق وإقامة العدل

ويحذره من ظلم الأرملة

ويوصيه ألا يحرم شخصاً من ثروة أبيه ،

وألا يطرد الموظفين من وظائفهم وألا يعاقب أحداً دون خطأ وينصح ابنه بالعناية بهم وتقريبهم منه وأن يمنحهم الحقوق

، ويكافئهم بإعطائهم بعض الماشية

ويحذره بشده أن يميز ابن شخص غني علي ابن شخص فقير ، بل يجب أن يقدر كل إنسان حسب كفاءته الشخصية ،

ويوصيه بالإكثار من إقامة المنشآت الدينية وتقديم القرابين - - -

، ويختتم نصائحه بحث ابنه علي طاعة الإله والخوف منه ، - - ويذكره بألا ينسي آخرته وأن يعمل لليوم الآخر وأن

يذكر دائماً نعم الإله عليه

تلك كانت نصائح ثالث ملوك الأسرة العاشرة الفرعونية إلي رابع ملوك تلك الأسرة

نقلًا باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر - من مينا إلي مبارك - إعداد حمدي عثمان - المراجعة العلمية د ناصر

الأنصاري - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية ٢٠١٢

٤٣ . الملك منتوحتب الثاني وبداية الدولة الوسطى الفرعونية



كانت مصر علي موعد مع منتوحتب الثاني لينتشلها من فوضى عصر الاضمحلال الأول وقد استمر الاضمحلال من الأسرة السابعة إلي العاشرة وكانت الأسرتين السابعة والثامنة تحكمان مصر من (منف) أما التاسعة والعاشرة فمن (إهناسيا) وكلاهما في الوجه البحري في شمال مصر وكانت الأقاليم والمقاطعات شبه مستقلة عن الحكومة المركزية ، ثم بدأ يزيد نفوذ أسرة جديدة في الجنوب ، وكان عميد هذه العائلة حاكم لهذه المنطقة وكان اسمه (إنيوتف) وظل هذا الرجل وكل من جاء بعده في هذه العائلة علي خلاف واضح مع ملوك الأسرة العاشرة في إهناسيا بل وقد وقعت بعض الحروب بين الطرفين وقد تم توسيع نطاق حكم هذه العائلة الحاكمة حتي شمل خمسة أقاليم في جنوب مصر وكان هذا في عهد (إنيوتف الثاني) الذي حكم طيبة لمدة خمسين عاماً ثم تلاه في هذه العائلة إنيوتف الثالث ثم (منتوحتب الأول) ثم (منتوحتب الثاني)

وهنا يتوقف التاريخ ويغير مجراه ، لأن منتوحتب الثاني لم يحكم الجنوب فحسب مثل سابقه وجدوده ولكنه استطاع الإطاحة بملوك الشمال الضعفاء في إهناسيا ويحكم مصر بالكامل ويوحدها ليصبح مؤسس الأسرة الحادية عشرة بل مؤسس الدولة الوسطى بالكامل

، وكان ذلك حوالي سنة ٢٠٥٢ ق م ويقول عنه أحمد فخري في كتابه الرائع مصر الفرعونية (ولهذا يري بعض المؤرخين اعتبار من سبقه من ملوك هذه الأسرة والتسعة أعوام الأولى من حكمه وقتاً معاصراً للأسرة العاشرة وأن الأسرة الحادية عشرة تبدأ من هذا التاريخ فقط ، لكن الإنصاف في البحث يحتم علينا اعتبار أيام الأسرة الحادية عشرة منذ عهد إنيوتف الأكبر أي قبل ذلك باثنين وثمانين عاماً)^٢ وتعتبر الأسرتين ١١ ، ١٢ هما الدولة الوسطى التي استعادت فيها الفراعنة أمجادهم مرة أخرى قبل أن يدخلوا في عصر الاضمحلال الثاني ويقول أحمد فخري

(وما من شك في أن أكثر ملوك الدولة الوسطى لم يكونوا عتاة أو متجبرين في الأرض بل نعرف عن أكثرهم أنهم كانوا فخورين بعدلهم بين الناس وسهرهم علي رعايتهم ولهذا سرعان ما أطمأن الناس إلي حكامهم وتركوا أمر سعادتهم بين أيديهم)

من كتاب (مصر الفرعونية) - أحمد فخري - صفحة ١٩٢ وصفحة ٢٤٠ - الصورة لتمثال الملك منتوحتب الثاني ، وهذا الاسم يعني (الإله منتو راضي) ويعتبر الإله منتو هو إله الحرب عند الفراعنة

^١ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ١٨٩

^٢ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ١٩٢

٤٤ . الملك امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة الفرعونية

لم يكن امنمحات إلا رجلاً عصامياً من الشعب رفعه زكاءه وجده إلى المكان الذي يستحقه - - وكان من بين أساليب رده علي خصومه كتابة البردية المعروفة باسم تنبؤات نفرتي المحفوظة الآن في متحف ليننجراد والتي أُنشئت في وصف ما سيحل بمصر من فوضى وأن إنقاذها سيتم علي يدي ملك سيأتي من الجنوب يسمى أميني " امنمحات " ابن امرأة من النوبة ويولد في الصعيد سيهزم الأسويون أمام مذابحه ويقع الليبيون صرعي أمام لهيبه - - ولم يكن المقصود من كتابة تلك البردية إلا الترويح بين الشعب لهذا الحاكم الجديد ومحاولة إقناع الناس بأن اختياره لإنقاذ مصر أمر أرادته الآلهة منذ أبعد الأزمنة - - وطالت الأيام بأمنمحات حتي وصل حكمه إلي ثلاثين عاماً ولم يقدر له أن يموت وهو في شيخوخته ميتة هادئة بل مات غيلة وهو في قصره ، إذ انتهز أعداؤه فرصة غياب ابنه وولي عهده وشريكه في الملك سنوسرت ، في حملة علي ليبيا ودبروا مقتله - - ونعرف بعض التفاصيل عن تلك النهاية من برديتين إحداهما من بردية شخص يسمى سنوهي ، أما البردية الثانية فهي معروفة باسم نصائح امنمحات لابنه وقد كتبت دون شك بعد موت الملك وكأنها علي لسانه من العالم الآخر يتحدث فيها إلي ابنه ويوصيه كيف يسوس الملك - - وكانت من أحب الموضوعات الأدبية إلي قلوب المصريين في الدولة الحديثة من الأسرة ١٨ حتي الأسرة ٢٠ وكانت موضع دراسة كثير من العلماء

(وتمتاز الأسرة الثانية عشرة بما أنتجه صانعوا الحلي وبخاصة لأميرات البيت المالك إذ جمعت تلك الحلي بين الدقة المتناهية في الصناعة والذوق الفني الرفيع) ١ كما يمتاز هذا العصر بنشاط دبلوماسي كبير وعلاقات واسعة مع دول الجوار ، كما اهتمت هذه الأسرة بالجنوب وقامت بتعيين حاكم مصري جنوب الشلال الثالث وأقامت حصناً ومخزناً كبيراً للتجار هناك كما أقامت هذه الأسرة مشاريع للري واهتمت بالزراعة وبنهر النيل اهتمام خاص كما ازدهر في عهد هذه الأسرة الأدب والفن

(هذه المعلومات من صفحة ٢١٨ وما بعدها بكتاب مصر الفرعونية لأحمد فخري)

٤٥ . قصة مسلة من الدولة الوسطي الفرعونية



أسس الملك امنمحات الأول الأسرة الثانية عشرة الفرعونية في الدولة الوسطي ، وكان امنمحات رجل عصامي برز من صفوف الشعب ، وتمتاز هذه الأسرة عامة بأنها نزلت قليلاً عن السلطة القدسية التي كانت لملوك الدولة القديمة ، وتقربت إلى الشعب بإقامتها منار العدل ، وبالعديد من الإصلاحات والأعمال الإقتصادية والعمرانية التي زادت من رخاء الشعب ، وقد استمر حكم هذه الأسرة ما يقرب من مائتي عام ، تقدمت البلاد تقدماً عظيماً في شتي النواحي ، وكانت مصر في عهدها أقوى دولة في المنطقة ، وكان الملك سنوسرت الأول ثاني ملوك هذه الأسرة ، وقد أقام مسلة شهيرة باقية إلى الآن (بالمطرية) ويبلغ ارتفاعها ٦٦ قدماً ، وهي قطعة واحدة من الجرانيت الأحمر ، وقد أقامها في مدخل المعبد والمدرسة الجامعة اللذين بناهما في عين شمس (التي يسميها اليونانيون هليوبوليس) - مدينة أون - وهي أقدم مسلة قائمة في مكانها الأصلي ، ويقول الدكتور أحمد بدوي في كتابه (موكب الشمس ج ٢ صفحة ١٣٠) إن مسلة عين شمس إحدى خمس مسلات مازالت في مكانها الأصلي وأما باقي مسلات الفراعنة فقد نقلها الضعف والهوي السياسي إلى ما وراء البحار إلى لندن وباريس ونيويورك وروما وإستانبول وفي روما وحدها مسلات تسع

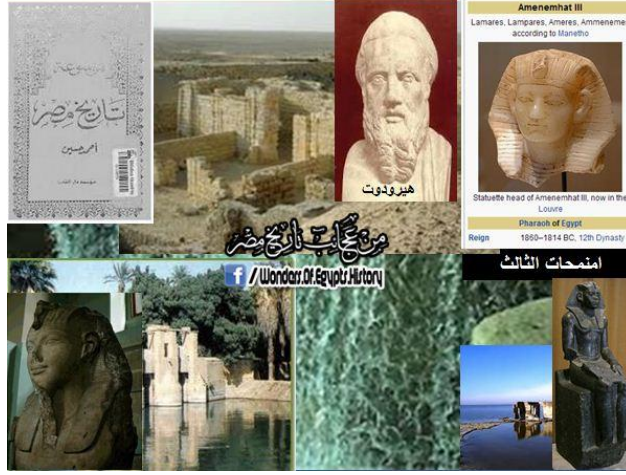
نقلًا عن كتاب تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة - تأليف عبد الرحمن الرافعي - صفحة ٥٣

الصورة لمسلة الملك سنوسرت الأول وتمثاله

٤٦. عندما انبهر المؤرخ اليوناني هيرودوت بمشروعات الملك امنمحات الثالث

ورد بالجزء الأول من موسوعة تاريخ مصر للأستاذ أحمد حسين صفحة ٨٠ وما بعدها وتحت عنوان امنمحات الثالث

حوالي ١٨٤٢ قبل الميلاد :



حكم امنمحات الثالث مصر وقد سمي باسم ني ماعت رع ويعتبره المؤرخون من أعظم من حكموا مصر ، ودام حكمه خمساً وأربعين سنة مرت علي مصر في هدوء وسلام وملئت بالمشاريع الكبرى العمرانية كان أعظمها بطبيعة الحال نظام الري الذي ابتكره للوجه البحري بأن اتخذ من منخفض اقليم الفيوم الذي ينخفض في بعض أجزائه عن البحر بـ ١٢٩ قدماً خزاناً للماء حيث لا تزال بحيرة قارون آية علي ذلك فشيدوا علي الفتحة في سلسلة الجبال التي تربط وادي النيل بمنخفض الفيوم سداً عظيماً - سد اللاهون - فنشأت هذه البحيرة الهائلة في التاريخ التي عرفت باسم بحيرة مورييس والتي كانت تمد النيل بعد ذلك بالماء خلال فترة التحريق أشبه بخزان أسوان أو السد العالي في عصرنا الحديث

وبهذا ضرب عدة عصافير بجحر واحد ، فهو أنفذ الفيوم من الغرق الذي كانت تتعرض له كل عام ، واستصلح أراضي زراعية قام باستغلالها بالفعل ومد النيل بالماء أيام التحريق ومن الأعمال العمرانية العظيمة التي تنسب إلي امنمحات الثالث ، القصر العظيم الذي اطلق عليه اليونانيون اسم قصر اللابيرانت - قصر التيه - وكان طوله يبلغ ألف قدم وعرضه ثمانمائة وقد استعمل معهداً دينياً وإدارياً ، وقد وصف هيرودوت هذين الأثرين ونعني بهما بحيرة مورييس وقصر اللابيرانت ، فقد رآهما رأي العيان ووصف ما رأي عامة وسجل انبهاره كما ورد في كتاب هيرودوت يتحدث عن مصر لمحمد صقر خفاجة

إن اللابيرانت عمل يعجز عن وصفه البيان ، إذ لو قدر لإمرئ أن يجمع معرضاً للمباني والآثار الفنية التي شيدها اليونانيون لبدت عملاً أقل من هذه اللابيرانت - - - -

ثم ينتقل هيرودوت للتحدث عن بحيرة مورييس فيقول :

ومع أن اللابيرانت علي هذه الدرجة من العظمة ، لكن البحيرة المسماة ببخيرة مورييس والتي بني اللابيرانت بالقرب منها تثير إعجاباً أشد

وراح هيرودوت يسجل أبعاد الخزان العظيم وكيف يصل إليها الماء من النيل لمدة ستة أشهر ثم يرجع منها إلي النيل مدة ستة أشهر ثانية

وهي القنّاة المعروفة اليوم باسم بحر يوسف ، كما تحدث هيرودوت عن تمثالين لامنمحات الثالث
وفترة حكم امنمحات الثالث حل فيها النعيم والأمن والسكينة علي البلاد ، حتي ترنم القوم بالفرعون قائلين :
أنه يكسو القطرين جنة خضراء أكبر من النيل العظيم ، لقد زاد القطرين قوة ، كيف لا وهو نفس الحياة المرطب للأنوف
، هو الذي يوزع الخيرات علي تابعيه ، هو المغذي لخلفاءه ، هو الفداء وفي فمه الخير
نقلًا باختصار عن كتاب موسوعة تاريخ مصر للأستاذ أحمد حسين
ويتضح بالصورة رأس تمثال للملك امنمحات الثالث متواجدة حالياً بمتحف اللوفر بفرنسا

٤٧. في عهد الملك سنوسرت الثالث أبحرت السفن المصرية في الجرانيت

عندما قرر الملك سنوسرت الثالث ١٨٧٤-١٨٥٥ ق.م. إجراء أعمال حربية في النوبة لتأمين حدود مصر الجنوبية وجد عقبة كبيرة أمام سفن الأسطول ، فشق لأسطوله طريقاً بين صخور الشلال الأول ، وأنشأ مهندسوه هذا الطريق المائي في أصعب مناطق الشلال الجرانيتية لمسافة مائتين وستين قدماً بعرض أربعة وثلاثين قدماً وعمق ستة وعشرين قدماً ، وحمل علي النوبة عدة حملات وطدت فيها السلطة المصرية ، وشيد حصنين متقابلين في آخر الحدود الجنوبية للدولة علي شاطئ النيل ، ولا تزال آثار هذين الحصنين باقية الآن تشهد لمصر في تلك الأوقات بالبراعة الحربية والكفاية في اختيار مواقع الدفاع الحصينة ، والمقدرة علي تشييد الحصون المنيعة ، وكان سنوسرت الثالث من ملوك الأسرة الثانية عشرة الفرعونية بالدولة الوسطي ، وقد نصب لوحته المشهورة التي يتحدث فيها إلي المصريين عن الكفاح الوطني ويحثهم عليه ، وفيما يلي بعض ما جاء في لوحة الملك حيث قال :

(- - ولقد جعلت تخوم بلادي أبعد مما وصل إليه أجدادي ، وزدت في مساحتها علي ما ورثته ، وإنني ملك يقول وينفذ ، وما يختلج في فؤادي تفعله يدي ، وإنني طموح إلي السيطرة ، وقوي أحرز الفوز ، ولست بالرجل الذي يرضي بالتقاعس عندما يعتدي عليه ، أهاجم من يهاجمني حسبما تقتضيه الأحوال فإن الرجل الذي يركن إلي الدعة بعد الهجوم عليه يقوي قلب العدو ، والشجاعة هي مضاء العزيمة - -)

نقلًا عن كتاب تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة - تأليف عبد الرحمن الرافعي - صفحة ٤٥

٤٨ . أجمل المجوهرات من عهد الأسرة الثانية عشرة الفرعونية

بالدولة الوسطي من حوالي سنة ٢٠٦٠ ق م إلي سنة ١٧١٠ ق م

حكمت هذه الأسرة ما يقرب من قرنين ، وتتكون من مجموعة من الملوك اشتهروا باسم امنمحات وسنوسرت علي التوالي وهذا هو الترتيب المفضل لملوك هذه الأسرة :

امنمحات الأول - سنوسرت الأول - امنمحات الثاني - سنوسرت الثاني - سنوسرت الثالث - امنمحات الثالث - امنمحات الرابع - الملكة سبك نفرو وقد امتاز عصر هذه الأسرة بالرقى في الذوق الفني ومما يؤكد ذلك ما تركته من الحلبي التي يتحلي بها النساء الأميرات فيقول عنها شيخ الأثريين د أحمد فخري **1973 - 1905** في كتابه مصر الفرعونية : (وتمتاز الأسرة الثانية عشرة بما أنتجه صانعوا الحلبي وبخاصة لأميرات البيت المالك إذ جمعت تلك الحلبي بين الدقة المتناهية في الصناعة والذوق الفني الرفيع)

كما يمتاز هذا العصر بنشاط دبلوماسي كبير وعلاقات واسعة مع دول الجوار مثل فلسطين وسوريا وبعض الجزر البحر المتوسط مثل قبرص وكانت الدول التي ارتبطت بمصر بعلاقات صداقة هي المستفيدة أكثر بهذه العلاقات بطبيعة الحال لأن مصر في ذلك الوقت كانت أعظم الأمم ثقافة وقوة وحضارة في بلاد الشرق القديم علي حد تعبير أحمد فخري أو كما ورد في الأغنية الشهيرة طوف وشوف لكوكب الشرق أم كلثوم :

كان نهار الدنيا لسه ما طلعتش ، وهنا عز النهار

، كما اهتمت هذه الأسرة بالجنوب وقامت بتعيين حاكم مصري جنوب الشلال الثالث وأقامت حصناً ومخزناً كبيراً للتجار هناك كما أقامت هذه الأسرة مشاريع للري واهتمت بالزراعة وبنهر النيل اهتمام خاص كما ازدهر الأدب والفن في عصر هذه الأسرة ،

وقد كتب أيضاً المؤرخ والأثري الكبير د أحمد فخري في كتابه الممتع مصر الفرعونية وتحديداً في الصفحة رقم ٢٤٠ (وما من شك في أن أكثر ملوك الدولة الوسطي لم يكونوا عتاة أو متجبرين في الأرض بل نعرف عن أكثرهم أنهم كانوا فخورين بعدلهم بين الناس وسهرهم علي رعايتهم ولهذا سرعان ما أطمأن الناس إلي حكامهم وتركوا أمر سعادتهم بين أيديهم)

٤٩ . الهكسوس وعصر الاضمحلال الثاني للفرعنة

(تعرضت مصر منذ الأسرة الثالثة عشرة وطوال قرنين أي حتي الأسرة السابعة عشرة للضعف وللانحلال واجتازت فترة أخرى مظلمة ١ أشد من التي اجتازتها أعقاب الدولة القديمة فتحكم فيها ملوك ضعاف - وقد استمر عصر الاضمحلال الثاني ما يقرب من ٢٢٠ عاما- وغزا الهكسوس مصر في الأسرة الخامسة عشرة وأطلق عليهم العالم الألماني أوتو اصطلاح الهكسوس الكبار فقد أعطوا لأنفسهم الحق بالاحتفاظ بالألقاب الملكية المصرية ويبدو أنهم استطاعوا في البداية السيطرة علي جميع أنحاء مصر وانتشرت اسمائهم - ونخص بالذكر هنا الملك خيان والملك أبوفيس من النوبة إلي فلسطين ثم بعد ذلك أتت مجموعة أخرى من حكام الهكسوس أطلق عليهم نفس العالم اصطلاح الهكسوس الصغار أو الضعاف وهم الذين ينتمون للأسرة السادسة عشرة ولم يستطع هؤلاء السيطرة علي جميع أنحاء مصر إذ قام في هذه الفترات بيت حاكم قوي في الصعيد اتخذ من طيبة مقرا له وأسس الأسرة السابعة عشرة وأخذ علي عاتقه تحرير مصر من الهكسوس - وكانت الفوضى قد بدأت تسود مصر في الفترة التي بدأت تظهر في غرب آسيا حركة هجرة قبائل واسعة تنتمي إلي العنصر الهندو أوروبي وقد وصل أثرها إلي مصر وبدأت تشعر بها في أوائل الأسرة الرابعة عشرة وذلك بعد أن استقرت هذه القبائل في سوريا وفلسطين وأخذوا بمظاهر الحضارة السامية الموجودة هناك وعرفوا في التاريخ باسم الهكسوس) ٢ والهكسوس كتب عنهم الفرعنة أنفسهم بعد ذلك ووصفوهم بأوصاف تعبر عن مدي استيائهم الشديد منهم فقالوا عنهم الرعاة البدو وقالوا عنهم الطاعون أما كلمة هكسوس نفسها فتعني (حكام الأقاليم الأجنبية) وهو المعني المقبول تفسيره من وجهة نظر سليم حسن في موسوعته (صفحة ١ بالجزء الرابع) ، وكان عدد ملوكهم الذين حكموا مصر ٢٣ ملكاً تقريباً ٣ - وقد تركوا آثاراً موجودة إلي الآن وكان الثلاثة وعشرين ملكاً موزعين علي أسرتين ١٥ ، ١٦ وكانت عاصمتهم في أواريس في الوجه البحري ، إلي أن جاءت الأسرة السابعة عشرة الفرعونية وظلت تقاومهم وتحاربهم حتي نجح أحمر في طردهم من البلاد وأسس الأسرة ١٨ بل إنه أسس عصر الدولة الحديثة

من كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق مقتطفات من صفحة ١٦٣ وما بعدها وكتاب موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) صفحة ٣١

١ لا أدري ما هو المقصود بالفترة المظلمة هل لأن الفرعون فقد سيطرته وعبوديته في مصر بالكامل أم لعدم وجود آثار رائعة باقية من تلك الفترة أم لأن الشعب المصري تخلص من قهر الحكومة المركزية أم لعدم وجود استقرار للعرش أم لوجود احتلال لا ندري هل كان أرحم بالشعب من الفرعون نفسه أم كان أكثر قسوة ويبدو أن مفهوم العصور المظلمة والعصور الزاهرة له علاقة وثيقة بعبادة الفرعون نفسه فكلما كان الفرعون شديد القوة والبطش والسيطرة والبناء والتشييد للمقابر والمعابد الخاصة به وبكبار رجال دولته وكهنته كلما وصف المؤرخون عصره بالعصر الزاهر

٢ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق مقتطفات من صفحة ١٦٣ وما بعدها

٣ موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) ص ٣١

٥٠. ما قاله مانيتون عن الهكسوس

(في عهد الملك توتيمايوس ولا أدري السبب في ذلك أصابتنا ضربة من الله ودون أن نتوقع ذلك جاءنا غزاة من جهة الشرق من أصل مجهول ساروا تملؤهم الثقة في النصر ضد بلادنا وتمكنوا بقوتهم من الاستيلاء عليها بسهولة دون ضربة واحدة وبعد أن تغلبوا علي حكام البلاد حرقوا مدننا دون رأفة وهدموا معابد الآلهة من أساسها وعاملوا جميع الأهالي بعداء قاس فذبحوا البعض وأخذوا نساء وأطفال البعض الآخر ليكونوا إماءاً وعبيداً لهم)^١

وكان مانيتون كاهناً مصرياً في معبد في سمبود واشتهر بعلمه ومعرفته لتاريخ مصر ولغتها وأراد بطليموس الثاني " حوالي ٢٨٠ ق م " أن يستفيد من علمه وذلك بتكليفه بكتابة تاريخ لمصر استقي مصادره مما كان في المعابد ومكاتب الحكومة من وثائق ومما يبعث علي الحزن أن تاريخ مانيتون الأصلي فقد في حريق مكتبة الإسكندرية ولم يعثر حتي الآن علي أي نسخة كاملة أو ناقصة منه وكل ما وصل إلي أيدينا ليس إلا مقتطفات من ذلك التاريخ نقلها المؤرخ اليهودي يوسيفوس - - ووصل إلينا أيضاً من تاريخ مانيتون جداول بأسماء الأسرات والملوك وعدد سني حكمهم في مؤلفات بعض الكتاب وخاصة جوليوس الإفريقي " ٢١٧ ميلادية " ولكن أفضل النصوص وأدقها هو ما جاء في الكتاب الذي قام بجمعه جيورجيو سينكلوس

وعادةً ما يتم مقارنة ما جاء في تاريخ مانيتون من تواريخ مع باقي مصادر العصر الفرعوني كبردية تورين مثلاً وقد حصل علي هذه البردية الرحالة الإيطالي دروفني في أوائل القرن التاسع عشر وقيل إنه عثر عليها في منف وكانت البردية في حالة جيدة عندما تسلمها دروفني ولكنها تهشمت بعد ذلك ونقلت إلي إيطاليا عقب الحصول عليها ووضعت في متحف تورين منذ ذلك الوقت وكانت تحتوي هذه البردية علي أكثر من ثلاثمائة اسم من أسماء الملوك وتحت اسم كل منهم عدد سنوات حكمه وهي تبدأ بالآلهة الذين حكموا مصر - - وتنتهي أسماء الملوك قبيل الأسرة الثامنة عشرة

من كتاب (مصر الفرعونية) ("أحمد فخري")

^١ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ٢٥٣

٥١. الملك سقنن رع الثاني



مومياء سقنن رع وتشير المساهد لآثار الجروح الممثلة في رأسه

هو أحد ملوك الأسرة ١٧ الفرعونية وعاصر احتلال الهكسوس لمصر وكان حاكماً قوياً في طيبة بالوجه القبلي ، بينما كان الملك أبوفيس ملك الهكسوس يحكم في أواريس بالوجه البحري ، ويحصل علي الضريبة من أجزاء مصر المختلفة وقد أرسل أبوفيس للملك سقنن رع رسولاً يوضح له أن أصوات أفراس النهر في طيبة تقلق نومه وهو في قصره في مدينة أواريس بالوجه البحري ويطلب منه إسكاتها ، كما يطلب منه أيضاً ضرورة عبادة الإله سوتخ بدلاً من تعبدته للإله آمون رع وقد كانت هذه الشرارة الأولى والسبب المباشر للحرب ضد الهكسوس

وقد بدأ سقنن رع رحلة الكفاح ضد الهكسوس لتحرير مصر وتطهير أرضها من ذلك المستعمر الغاصب ، ولكن شاعت الأقدار أن يتوفي الملك سقنن رع متأثراً بجراح في مجتمته نتيجة لحرب التحرير التي خاضها دون أن يتم الجلاء عن مصر ، فاستكمل ابنه الملك كامس هذه المهمة وحقق عدة انتصارات علي الهكسوس ولكن لم يتم التحرير الكامل إلا عندما تولى الملك أحمس بعد أخيه كامس قيادة الكفاح ضد الهكسوس ، حيث تم تحرير مصر تماماً في عهد الملك أحمس والذي اعتبره المؤرخ المصري القديم مؤسس لأسرة جديدة وهي الأسرة ١٨ الفرعونية رغم أنه ابن الملك سقنن رع أحد ملوك الأسرة ١٧ وبذلك أصبح أحمس أول ملوك الأسرة ١٨ كبداية جديدة لعهد جديد بعد تطهير البلاد من احتلال الهكسوس ، وقد نشأت الأسرة ١٨ الفرعونية في طيبة بالوجه القبلي واستمرت أكثر من قرنين ، تم خلالها تشييد الإمبراطورية المصرية في عهد الملك تحتمس الثالث سادس ملوك هذه الأسرة

وقد كرس الملك أحمس فترة حكمه التي استمرت ما يقرب من ٢٥ سنة من حوالي سنة ١٥٥٠ قبل الميلاد إلي سنة ١٥٢٥ قبل الميلاد لإزالة الرواسب التي تركها الغزاة الأجانب فأعاد النظام والطمأنينة والأمن في البلاد

نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر - حمدي عثمان - الطبعة الثانية - الهيئة المصرية العامة للكتاب

ويبدو في الصورة الملك أحمس الأول أثناء معاركه ضد الهكسوس ، كما تبدو في الصورة آثار الجروح في مومياء الملك سقنن رع وهو أول ملك قاتل الهكسوس ، أما كلمة هكسوس باللغة المصرية القديمة فتعني ملوك الرعاة - صور مومياء سقنن رع من موقع المعجم الفرعوني

٥٢. إلى أي أسرة فرعونية ينتمي الملك أحمس الأول ؟

بدأت الأسرة السابعة عشرة الكفاح ضد الهكسوس وكان سقتن رع بطل من أبطال هذا الكفاح وتلاه ابنه كامس ثم توج أحمس هذا الكفاح بانتصار كاسح علي الهكسوس وطردهم من مصر للأبد وبالرغم من أنه أخو الملك كامس وابن سقتن رع فإن المؤرخ المصري القديم وضعه علي رأس عائلة جديدة ١ وكانت فترة حكمه ٢٤ سنة ٢ وهكذا تم اعتبار الملك أحمس الأول أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية وبدأ عصر جديد هو عصر الدولة الحديثة الفرعونية ويتميز عصر هذه العائلة بأن النساء أصبح لهن دور كبير في البلاد وأول شخصية نسائية لمعت في هذه الأسرة هي الملكة (تتي - شري) وهي أم سقتن رع وجدة أحمس الأول وكان لها دور علي ما يبدو في إشعال روح القتال ضد الهكسوس في أبناءها وأحفادها وكانت محبوبة من الجميع وقد ظل أحمس وفيًا لذكرى جدته إلي آخر سنة في عمره حيث أقام لها مقبرة وكتب عنها لوحة خالدة وكانت هناك سيدة أخرى اسمها (إمح حوتب) وكان لها دور كبير في الحرب ضد الهكسوس وهي أم الملك أحمس ٣ أما السيدة الثالثة فكانت (أحمس نفرتاري) وهي أخت أحمس وكامس وقد تزوجت من كامس ثم من أحمس ٤ بعد موت كامس وكلمة أحمس تعني (ولد القمر)

نقلًا عن كتاب مصر الفرعونية لأحمد فخري - - بتصرف من صفحة ٢٧١ - والصورة للملك أحمس الأول

^١ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ٢٧١

^٢ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ٢٧٢

^٣ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ٢٧٤

مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ٢٧٤

٥٣. عندما طارد فرعون بني إسرائيل

إسرائيل هو نبي الله يعقوب فهو شخص واحد وله اسمين وبالتالي فإن بني إسرائيل هم بني يعقوب عليه السلام ، وقد دخل إسرائيل وعائلته مصر بدعوة من ابنه يوسف عليه السلام ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ﴾ ١ (٩٩) سورة يوسف - - وقد كتب ابن كثير عن أبناء يعقوب (إسرائيل) أنهم ليسوا جميعاً من أم واحدة فقد أنجب سيدنا يعقوب من أربعة نساء (أختين هما ليا وراحيل وجاريتيهما) بمعنى إن سيدنا يعقوب تزوج من أختين واحدة اسمها "ليا" والثانية اسمها "راحيل" ولم يكن هذا محرماً في شريعتهم في ذلك الوقت وأنجب من الأختين ، وكانت لكل زوجة منهما جارية (أمة) تملكها ووهبتها لزوجها يعقوب وقد أنجب سيدنا يعقوب من الجاريتين أيضاً ويقول الإمام ابن كثير رضي الله عنه في كتابه قصص الأنبياء صفحة ١٧٦ : (وكان أولاد يعقوب الذكور اثني عشر رجلاً فمن " ليا " روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا وإسحاق وزابلون ، ومن "راحيل" يوسف وبنيامين ، ومن أمة "راحيل" دان ونفتالي ، ومن أمة "ليا" حاد وأشير) ٢ ومن هؤلاء جاء شعب بني إسرائيل بالكامل بعد ذلك ، ومكث بني إسرائيل في مصر ما شاء الله لهم أن يمتكثوا وتكاثروا وكان لهم وضع خاص في مصر عندما كان يوسف عليه السلام له مكانة خاصة عند الملك ثم مرت السنين بعد وفاة يوسف عليه السلام وتدهورت أحوالهم في مصر إلى أن قام فرعون مصر باستعبادهم واضطهادهم إلى أن خرجوا من مصر مع موسى عليه السلام وبالتالي فإن يوسف عليه السلام هو السبب في دخولهم مصر بينما موسى عليه السلام هو السبب في خروجهم من مصر وكان بينهما وقت طويل جداً لا أحد يعرفه علي وجه الدقة ، ، وقد خرجوا جميعاً من مصر مع موسى عليه السلام وكان يطاردهم فرعون وجنوده كما ورد في القرآن الكريم ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ٣ (٩٠) سورة يونس ،) وقد كتب الإمام ابن كثير عن خروجهم من مصر في كتابه قصص الأنبياء وتحديداً في صفحة ٢٧٢ : (وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حلياً كثيراً فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوي الذراري بما معهم من الأنعام وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة هذا نص كتابهم وهذه السنة عندهم تسمى سنة الفسخ)

١ (٩٩) سورة يوسف

٢ قصص الأنبياء (ابن كثير) ص ١٧٦

٣ يونس ٩٠

٥٤. الملكة حتشبسوت (ماعت كا رع) - الأسرة ١٨ الفرعونية - الدولة الحديثة



تولي الملك تحتمس الثالث عرش مصر بعد وفاة والده الملك تحتمس الثاني ، ولقد تزوج من ابنة الملكة حتشبسوت الأميرة نفرو رع ليؤكد حقه في وراثة العرش ، وكان تحتمس عند تتويجه صغير السن وكانت حتشبسوت زوجة أبيه وأم زوجته وعمته في آن واحد امرأة قوية ناضجة طموحة تحمل الألقاب (ابنة الملك ، أخت الملك ، الزوجة الملكية ، الزوجة الإلهية لآمون) فاستطاعت بقوة شخصيتها منذ البداية أن تتولي شؤون البلاد وأن تدير دفة الأمور ،

ولم تكن حتشبسوت بالمرأة التي تكتفي بهذا ، فتمكنت في العام الثاني من حكم تحتمس الثالث من أن تنحيه عن العرش نهائياً ، بل أرغمته علي الاعتكاف وأمرت بتتويجها بموافقة الإله آمون ورغبته كما هو منقوش علي جدران معبدها الجنائزي بالدير البحري بطيبة ،

وأصبحت حتشبسوت ملكة علي مصر ، وقامت بدور الإله حورس ومثله علي الأرض ، واتخذت لقب ابن الشمس بل تشبهت بمظهر الرجال وارتدت زيهم ، كما استعملت الذقن الملكية المستعارة الخاصة بالملوك

ولقد حكمت الملكة حتشبسوت مصر ما يقرب من ٢٠ سنة كرست فيها كل جهودها للإنشاءات المعمارية ، وذلك غير حملة عسكرية واحدة أرسلتها إلي النوبة للقضاء علي الثوار هناك ، ولقد أبحرت خمس سفن ضخمة في عهد حتشبسوت إلي بلاد بونت ، قرب الصومال لإحضار منتجات هذه البلاد إلي مصر وقد صورت هذه الرحلة البحرية التي تعتبر من أهم النقوش لدراسة بلاد بونت ومنتجاتها علي جدران معبدها بالدير البحري

كما أرسلت الملكة حتشبسوت التي حكمت مصر من حوالي ١٤٧٨ ق م إلي سنة ١٤٥٨ ق م ، بعثات إلي محاجر أسوان لإحضار الزوج الأول والثاني من مسلاتها ، ولقد استغلت مناجم الفيروز بشبه جزيرة سيناء خير استغلال ، أما معبدها الجنائزي فهو المعبد المشهور الآن باسم معبد الدير البحري بالبر الغربي بطيبة حيث احتضنه الجبل في حنان ، ويتكون من ثلاثة طوابق يتوسطها طريق صاعد إلي أعلى في المنتصف

رواق المدرج الأول : ناحية اليمين يشاهد الزائر فيه مناظر صيد الطيور بالشباك والقوارب ، أما ناحية اليسار وعلي الجدار الخلفي فصور احتفال نقل المسلات من أسوان بواسطة النيل علي قوارب كبيرة ونري حتشبسوت تقدم قرباناً للإله آمون

المدرج الثاني : يري (إيوان الولادة) وتمثل مناظره الميلاد المقدس للملكة حتشبسوت ، ويرى الزائر في أقصى اليمين مقصورة مكرسة لعبادة الإله أنوبيس حارس الجبانة وعلي اليسار من الناحية الأخرى (إيوان بونت) وعلي جدرانه نقوش تمثل البعثة التجارية التي أرسلتها حتشبسوت إلى بلاد بونت (الصومال حالياً)

المدرج الثالث : يوجد فناء تزين واجهته الأعمدة التي يستند إليها بعض تماثيل ملكية في هيئة أوزيريس ، ويتوسط هذا الفناء باب من الجرانيت الأحمر الجميل عليه نقوش باسم الملك تحتمس الثالث الذي أزال اسم حتشبسوت ، أما ناحية الشمال فتوجد حجرة فيها الصورة الوحيدة الباقية لحتشبسوت والتي سلمت من أيدي المخربين

والجدير بالذكر أن الملك تحتمس الثالث الذي حكم مصر بعد حتشبسوت استطاع تكوين إمبراطورية ضخمة وأصبحت طيبة في عهده عاصمة للعالم القديم تتدفق إليها الخيرات من كل مكان

نقلًا باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر - من مينا إلى مبارك - إعداد حمدي عثمان - المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية ٢٠١٢

٥٥. من يريد أن يعرف كيف كانت حضارته قديماً فليأتي إلي مصر :

(كانت طيبة في أيام تحوتمس الثالث عاصمة العالم القديم ، وكانت تتدفق عليها خيرات إفريقيا وآسيا وجزر البحر المتوسط ، وكان يفد إليها كل عام رسل جميع البلاد يحملون خير ما استطاعت بلادهم تقديمه من ذهب وفضة ، ومعادن أخرى وأحجار كريمة ، ومصنوعات مختلفة ، وكان موظفو الخزانة هم المسئولون عن تسلم هذه الهدايا وأنواع الجزية ، كما كان الوزير يستقبلهم بحكم منصبه ليقدمهم إلي فرعون ، وكثيراً ما سجل كبار موظفي ذلك العهد هذه المناظر علي جدران مقابرهم فأصبحت مقابر طيبة سجلاً جامعاً لحضارات بلاد الشرق القديم في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، إذ سجل الفنانون المصريون ما رأوه فرسموا وفود هذه البلاد بملابسهم الوطنية ، وما كانوا يحملونه من مصنوعات بلادهم ومحاصيلها ، وقد زال أثر تلك الحضارات من كثير من بلاد آسيا ، وجزر البحر الأبيض والسودان ، وأصبحنا نعتمد علي مقابر طيبة وحدها كالمصدر الأول لدراسة حضارات تلك البلاد والشعوب -)

من كتاب (مصر الفرعونية) (موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتي عام ٣٣٢ قبل الميلاد) تأليف المؤرخ أحمد فخري صفحة ٢٩٧ مكتبة الأنجلو المصرية (الطبعة الثامنة) ١٩٩٥

٥٦. الملك تحتمس الثالث ومسلاته الأربعة



ملخص ما ورد عن الملك تحتمس الثالث بالجزء الأول من موسوعة تاريخ مصر للأستاذ أحمد حسين من صفحة ١٠٣ وما بعدها تحت عنوان حكم تحتمس الثالث - حوالي سنة ١٤٦٨ قبل الميلاد

--- ولم يكد يصبح حاكم البلاد ، حتي اضطربت أحوال البلاد الآسيوية فكون الآسيويون حلفاً ، فزحف تحتمس الثالث بجيوشه وانتصر علي أعدائه في معركة مجدو الخالدة التي تحفظ لنا الآثار تفاصيلها الكاملة ، مبتدئاً بذلك هذه السلسلة من المعارك التي بلغت سبعة عشرة حملة ، استولي في بعضها علي الساحل الفينيقي كله ، جعلت منه أشبه بنابليون مصر في ذلك التاريخ البعيد

وأعظم هذه الحملات تلك التي قام بها في السنة الثانية والثلاثين من حكمه والتي بلغ فيها الفرات ودونت تلك الحملة علي جدران معبد الكرنك وعلي لوح جبل بركل فهابته الملوك والأمراء والدول في هذه الأنحاء ، وراحوا يخطبون وده بالهدايا والجزية

وقد اتبع تحتمس الثالث سياسة حكيمة ، فلم يمس عقائد الشعوب أو قوانينهم وترك لحكامهم الأصليين مباشرة سلطانهم شريطة أن يدفعوا لمصر الجزية في مواعيد مقرر

وعمل علي أن يتعلم أنجالهم بمصر ليغرس في قلوبهم حب مصر وليعودوا إلي بلادهم وكلهم عطف ومحبة علي البلد الذي علمهم

وقد صاغ كهنة آمون ملحمة شعرية رائعة يتغنون فيها بأمجاد فرعون وفيها تلخيص لكل معاركه وحروبه وفي هذا النشيد يخاطب آمون فرعون ولده تحتمس الثالث --- --

وكان تحتمس الثالث قائداً حربيّاً ممتازاً ، لم يكلف أحداً من رجاله القيام بعمل صعب ، فكان يتقدم هو الصفوف ، وكان إدارياً ممتازاً فقد وصفه وزيره رخ مي رع أنه كالصقر الذي يري ما لا يبصره البشر العادي

واتصفت حملاته بلون آخر ، فإلي جوار الكتاب العسكريين والفنانين والرسميين الذين كان يصطحبهم معه ، فقد أخذ في ركابه بعض علماء الحيوان والنبات الذين احضروا بعضها إلي مصر

وأقام تحتمس الثالث المسلات التذكارية فشاد اثنتين منها في معبد الكرنك واثنتين في مدينة الشمس

وكان القدر شاء أن يخلد تحوتمس الثالث ، فتوزعت مسلاته الأربع في أرجاء المعمورة ، تختال بها بلاد العالم العظمي ، وتقف في أعظم ميادينها ناطقة بعظمة تحتمس الثالث

تقف إحدى مسلاته في مدينة القسطنطينية - أحضرها الإمبراطور الروماني تيودوسيوس ٣٧٩-٣٩٥ م -
وتقف الثانية في مدينة روما أمام قصر لتران وتقف مسلة ثالثة أهداها محمد علي لحكومة إنجلترا في مدينة لندن علي شاطئ التيمس ، ما أهدى الخديوي اسماعيل المسلة الرابعة إلي حكومة الولايات المتحدة ، حيث تقوم في حديقة السنترال أعظم حدائق نيويورك
ومات تحتمس الثالث بعد أن حكم أربعاً وخمسين سنة وتجاوز عمره السبعين عاماً

٥٧. البحيرة المقدسة وعبقرية المهندس المصري القديم :

البحيرة المقدسة بمعبد الكرنك وسر المياه الثابتة التي لا تجف
 أنشأها الملك تحتمس الثالث، بطول ٨٠ مترًا، وعرض ٤٠ مترًا، وكان يحيط بها سور. ويوجد على جانبيها الشمالي
 والجنوبي مقياس للنيل، له مدخلان أحدهما من الجهة الشرقية، والثاني من الناحية الغربية بكلا منها سلالم حجرية. ■
 تلك التي كان يغتسل فيها الكهنة قبل أداء المراسم الدينية أو الاحتفالات القومية التي تقوم الآلهة بحضورها. وكان يتم
 تغذيتها عن طريق قناة تصل البحيرة بمياه النيل أنشأها الملك تحتمس الثالث والاعجاز في هذه البحيرة ان المياه فيها ثابتة
 ولا يزيد منسوب المياه او ينقص حتى مع تغير ارتفاع او نقصان منسوب النيل من أكثر من ٣٠٠٠ سنة ولم تجف البحيرة
 أبدا وهذا واحد من اهم براهين اثبات عبقرية المهندس المصري القديم العظيم
 أي عبقرية وأي إعجاز مياه منسوبها ثابت لا يقل رغم عوامل البخر والفقد والتسرب ولكن لا عجب فهو المهندس
 المصري الذي شيد وبنى وعمر وحير كل مهندسي التاريخ

٥٨. الملك أمنحتب الثاني

Amenhotep II, 7th Pharaoh of Egypt's 18th Dynasty

هذا الملك هو سابع ملوك الأسرة ١٨ الفرعونية بالدولة الحديثة وهو ابن الملك تحتمس الثالث مؤسس الإمبراطورية المصرية

وقد نشأ أمنحتب الثاني وترعرع علي دقات طبول الحرب ورأي العالم كله ينحني أمام أبيه ١ صاحب الشخصية الفذة والذي قام بتربية ابنه تربية عسكرية تحت إشراف أحد ضباطه الموثوق بهم ٢ ، وقد قام القائد الذي قام بتدريب الأمير أمنحتب بتسجيل هذا الحدث بالطبع في مقبرته ليؤكد أنه كان يدرّب ابن الملك تحتمس الثالث (إذ نري صورته علي أحد جدران مقبرة الضابط "مين" بطيبة وهو الذي كان يشرف علي تربية أمنحتب العسكرية ويعلمه الرماية ، وهو يوجه الحديث لأمنحتب قائلاً : شد القوس حتي أذنك مستعملاً كل ما في ذراعيك من قوة وثبت السهم يا أمير أمنحتب)

وبمجرد موت تحتمس الثالث أعلنت بعض الولايات في سوريا استقلالها عن الحكم المصري وهذا بالطبع يعد استخفافاً بأمنحتب الثاني فقام علي رأس جيش وخاض معركة انتقامية بشعة نكل فيها بأعدائه أشد التنكيل مما أدى إلي توطيد أركان إمبراطوريته

وعرف الجميع أن الجالس علي العرش لا يقل قوة عن أبيه وسارعت كل الولايات بإرسال الهدايا وتقديم فروض الطاعة للملك الجديد ، وقد جلس أمنحتب الثاني علي عرش الإمبراطورية لمدة ٢٥ سنة ٣ تقريباً من حوالي سنة ١٤٢٥ قبل الميلاد

ولقد أمر أمنحتب الثاني بحفر مقبرته في وادي الملوك بطيبة علي غرار مقبرة والده تحتمس الثالث ، وقد تم تزيينها بأجمل الصور والكتابات الدينية ، بل اعتبرت مقبرة أمنحتب من أجمل ما خلفه فراعنة الأسرة الثامنة عشرة من المقابر في طيبة ،

كما أن لهذا الملك العديد من الآثار ومن بينها تمثال راقع وفي يديه إناغان ، وقد زاد هذا الملك كثيراً في معبد الكرنك الشهير

نقلا عن كتاب مصر الفرعونية - أحمد فخري ، وكتاب هؤلاء حكموا مصر - حمدي عثمان

الصورة لتمثال الملك أمنحتب الثاني

^١ (كانت طيبة في أيام تحتمس الثالث عاصمة العالم القديم ، وكانت تتدفق عليها خيرات إفريقيا وآسيا وجزر البحر المتوسط ، وكان يفد إليها كل عام رسل جميع البلاد يحملون خير ما استطاعت بلادهم تقديمه من ذهب وفضة ، ومعادن أخرى وأحجار كريمة ، ومصنوعات مختلفة ، وكان موظفو الخزانة هم المسئولون عن تسلم هذه الهدايا وأنواع الجزية ، كما كان الوزير يستقبلهم بحكم منصبه ليقدمهم إلي فرعون ، وكثيراً ما سجل كبار موظفي ذلك العهد هذه المناظر علي جدران مقابرهم فأصبحت مقابر طيبة سجلاً جامعاً لحضارات بلاد الشرق القديم في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، إذ سجل الفنانون المصريون ما رأوه فرسموا وفود هذه البلاد بملابسهم الوطنية ، وما كانوا يحملونه من مصنوعات بلادهم ومحاصيلها ، وقد زال أثر تلك الحضارات من كثير من بلاد آسيا ، وجزر البحر الأبيض السودان ، وأصبحنا نعتد علي مقابر طيبة وحدها كالمصدر الأول لدراسة حضارات تلك البلاد والشعوب -) مصر الفرعونية - أحمد فخري صفحة ٢٩٧

^٢ جدران المقابر يا عزيزي توضح الكثير والكثير عن العصور الفرعونية لأن كل واحد كان يبسجل كل أعماله التي يفخر بها داخل مقبرته وطبعاً القائد الذي قام بتدريب الأمير أمنحتب سجل هذا الحدث بالطبع في مقبرته ليؤكد أنه كان يدرّب ابن الملك تحتمس الثالث (إذ نري صورته علي أحد جدران مقبرة الضابط "مين" بطيبة وهو الذي كان يشرف علي تربية أمنحتب العسكرية ويعلمه الرماية ، وهو يوجه الحديث لأمنحتب قائلاً : شد القوس حتي أذنك مستعملاً كل ما في ذراعيك من قوة وثبت السهم يا أمير أمنحتب) معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة ١٨٨

٣ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ٣٠٥

٥٩. النبوءة المزعومة بين مخالف أبو الهول :

كان تحتمس الرابع من ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية وقام بعدة حملات لإعادة النظام في بعض الولايات الخاضعة للإمبراطورية المصرية وترك العديد من الآثار الموجودة حتي الآن ١ من بينها مسلة موجودة حالياً في روما وتعتبر من أعلى المسلات المصرية إذ يصل ارتفاعها إلي ٣٠.٧ متر

(ومن أشهر الآثار الباقية من عهده ، اللوحة الجرانيتية التي ترجع للعام الأول من حكمه وهي المقامة للآن بين مخالف تمثال أبو الهول بالجيزة ، ويقص علينا تحتمس الرابع من خلال نص منقوش عليها ، أنه ذهب عندما كان شاباً ليحتمي بظل أبو الهول وذلك بعد رحلة صيد مرهقة فغلبه النعاس فرأى فيما يري النائم الإله حور-ام-أخت "المجسد في تمثال أبو الهول " يبشره بتاج مصر عندما يحرره من الرمال التي عليه ، ويبدو أن الملك تحتمس الرابع قد حقق للإله حور-ام-أخت رغبته بعد توليته العرش مباشرة ، هذه القصة تؤكد أن تحتمس الرابع لم يكن الوريث الشرعي ولهذا اختلق هذه النبوءة لكي يفسر لنا أن اختياره قد تم بواسطة الإله حور -ام-أخت)

من كتاب (معالم تاريخ وحضارة مصر) - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة ١٨٩

^١ (ومن أشهر الآثار الباقية من عهده ، اللوحة الجرانيتية التي ترجع للعام الأول من حكمه وهي المقامة للآن بين مخالف تمثال أبو الهول بالجيزة ، ويقص علينا تحتمس الرابع من خلال نص منقوش عليها ، أنه ذهب عندما كان شاباً ليحتمي بظل أبو الهول وذلك بعد رحلة صيد مرهقة فغلبه النعاس فرأى فيما يري النائم الإله حور-ام-أخت "المجسد في تمثال أبو الهول " يبشره بتاج مصر عندما يحرره من الرمال التي عليه ، ويبدو أن الملك تحتمس الرابع قد حقق للإله حور-ام-أخت رغبته بعد توليته العرش مباشرة ، هذه القصة تؤكد أن تحتمس الرابع لم يكن الوريث الشرعي ولهذا اختلق هذه النبوءة لكي يفسر لنا أن اختياره قد تم بواسطة الإله حور -ام-أخت) معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة ١٨٩ ، وعلي فكرة يتكرر هذا الموضوع مع أكثر من ملك من ملوك العصر الفرعوني المشكوك في صحة توليهم العرش حيث يقوم الملك باختلاق قصص وينسبها للآلهة الفرعونية ليؤكد أحقيته بالعرش كما فعل تحتمس الرابع عند أقدام تمثال أبو الهول

٦٠. الملك امنحوتب الثالث وزوجته الملكة تي



جلس علي عرش مصر الملك تحتمس الرابع بعد وفاة أبيه امنحوتب الثاني ، وكان ملك محارب مثل أبيه وجده وقام بعدة حملات لإعادة النظام في بعض الولايات الخاضعة للإمبراطورية المصرية التي أسسها الملك تحتمس الثالث (وقد خطي تحتمس الرابع خطوة جريئة في السياسة الخارجية وهي أنه تزوج من ابنة الملك الميتاني "ارتاتاما" وهي خطوة لها أكثر من مدلول إذ أن هذا الزواج الدبلوماسي يؤكد اعتراف فرعون مصر بدولة الميتاني وفي نفس الوقت يعلن إنهاء حالة الحرب بين مصر وهذه الدولة وأصبحت من الآن مملكة الحيثيين هي العدو المشترك لمصر وللميتانيين وقد أطلق المصريون علي هذه الأميرة الميتانية اسماً مصرياً هو "موت أم أويا" وهي التي أصبحت فيما بعد أم الفرعون المصري أمنحوتب الثالث)^١

وقد مات تحتمس الرابع شاباً ، وكان قد تولى الملك من حوالي سنة ١٤٠١ قبل الميلاد إلي سنة ١٣٩١ قبل الميلاد تقريباً ودفن في وادي الملوك

وبعد أن مات تحتمس الرابع تولى ابنه الملك امنحوتب الثالث حكم مصر وكان لا يميل للحروب وبدأ في عهده ما يسمى (أيام السلم)^٢

وقد تزوج هذا الفرعون فتاة من عامة الشعب ولم يتزوج أميرة ملكية ، وكانت مصر في عهده قد تأثرت بثقافات وحضارات الشعوب الأخرى التي شملتها الإمبراطورية المصرية فأصبح المصريون أكثر مرونة في تقاليدهم الدينية القديمة وكانت زوجته اسمها الملكة (تي)

وفي هذا العصر بدأ المصريون يقيمون التماثيل للملكات جالسات جنباً إلي جنب بجوار الملوك وفي نفس الحجم^٣ وعندما جلس هذا الفرعون علي عرش مصر كانت الخزائن عامرة بالذهب وجميع الولايات مستقرة ، وكانت الخيرات تعم البلاد وبدأ الناس يعيشون حياة الترف وازدهر الفن وإقامة المباني الرائعة ذات النقوش البديعة في كل مكان وكان هذا الفرعون وزوجته من أصحاب الذوق الفني الرفيع ،

نقلاً عن كتاب - معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق وكتاب - مصر الفرعونية - (أحمد فخري)
ويبدو في الصورة تمثال الملك أمنحوتب الثالث وزوجته الملكة - تي - من الحجر الجيري - بالمتحف المصري

^١ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة ١٩٠

^٢ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ٣٠٩

^٣ لاحظ معي أن قبل عصر هذا الملك توجد عدة آثار فرعونية تم تمثيل النساء فيها بحجم صغير جداً بجوار أقدام الملوك حتي لو كانت زوجته الملكة

٦١. رسالة الملكة تي



زوجة الملك امنحتب الثالث وأم الملك امنحتب الرابع (اخنتون)

كما وردت بكتاب معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق

(وتوضح لنا مراسلات تل العمارنة - أن الملكة تي أم أمنحتب الرابع قد أرسلت للملك الميتاني توشراتا خطاب تبلغه فيه بموت زوجها أمنحتب الثالث وترجوه أن يستمر في صداقته وعلاقته الودية مع ابنها فرعون مصر الجديد أمنحتب الرابع وقد أجاب توشراتا -وهو ابن الملك السابق - علي خطاب تي بأن عليها أن تقنع ابنها بالمحافظة علي هذه العلاقات الودية بين مصر ودولة الميتاني وقد يستدل من هذه الخطابات أن أمنحتب الرابع لم يعتل عرش مصر إلا بعد وفاة والده - أي لم يكن شريكا معه في الحكم - وفي نفس الوقت برهان علي قوة نفوذ الملكة تي سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية)

معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق - صفحة ١٩٨

وجدير بالذكر أنه بعد أن مات الملك تحتمس الرابع تولي ابنه الملك امنحتب الثالث حكم مصر وكان لا يميل للحروب وبدأ في عهده ما يسمى (أيام السلم) ١

وقد تزوج هذا الفرعون فتاة من عامة الشعب ولم يتزوج أميرة ملكية ، وكانت مصر في عهده قد تأثرت بثقافات وحضارات الشعوب الأخرى التي شملتها الإمبراطورية المصرية فأصبح المصريون أكثر مرونة في تقاليدهم الدينية القديمة وكانت زوجته اسمها الملكة (تي)

وعندما جلس هذا الفرعون علي عرش مصر كانت الخزائن عامرة بالذهب وجميع الولايات مستقرة ، وكانت الخيرات تعم البلاد وبدأ الناس يعيشون حياة الترف وازدهر الفن وإقامة المباني الرائعة ذات النقوش البديعة في كل مكان وكان هذا الفرعون وزوجته من أصحاب الذوق الفني الرفيع ،

وعقب وفاة الملك أمنحتب الثالث تولي ابنه أمنحتب الرابع عرش مصر وهو يعتبر عاشر ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية وكان عمره لا يزيد عن ١٦ عاماً فعاونته أمه الملكة تي في إدارة البلاد

وقد استمر حكم هذا الملك لمدة ١٨ سنة ، أي من حوالي سنة ١٣٥٣ قبل الميلاد إلي سنة ١٣٣٥ قبل الميلاد وقد بدأ امنحتب الرابع حكمه مثل أسلافه من الملوك بتقديم الولاء للإله آمون الإله الرسمي للدولة وتلقب بالألقاب المعتادة المتوارثة ، ثم تزوج من الأميرة الجميلة نفرتيتي

وما كادت الأمور تستتب للملك أمنحوتب الرابع حتي بدأ يفكر في دينه الجديد والدعوة له ، وإلي إله واحد يكمن في قرص الشمس أطلق عليه اسم الإله آتون

وأقام معبد لعبادة قرص الشمس التي كان يعتبرها مصدر القوة مما جعل كهنة آمون يشعرون بالخطر علي الآلهة أمام هذا الانقلاب الديني الكبير ثم قام بتغيير اسمه من امنحوتب الرابع إلي إخناتون وتعني (المفيد للشمس)^١ واشتد العداء بينه وبين كهنة آمون بل إن أمه الملكة تي غضبت أيضاً من هذا التحول الغريب علي الأسرة ولم يكن اخناتون من الملوك المحاربين فبدأت الولايات واحدة واحدة تنفصل عن حكم مصر وتتداعي أركان الإمبراطورية التي أقامها أجداده المحاربين وتنهار ، وقام بتشيد عاصمة جديدة له ولعائلته ولأتباعه وأطلق عليها "أفق آتون" وهي المدينة المعروفة حالياً بتل العمارنة علي البر الشرقي للنيل بالقرب من ملوي^٢

مما أدى إلي تدبير مؤامرات لقتله والتخلص منه لإنقاذ الإمبراطورية المصرية من الانهيار الكامل وفيما يلي مقطع صغير جداً من النشيد الذي كان يتعبد به إلي الإله آتون الذي كان يعبد (ما أعظم أعمالك التي عملتها ، إنها خافية علي الناس أيها الإله الأوحده ، الذي لا شبيه له ،

لقد خلقت الدنيا كما شئت عندما كنت وحدك ، الناس والماشية والوحوش الضارية وكل ما علي الأرض يسعي علي قدميه وكل ما يرتفع في السماء يطير بجناحيه ، تضع كل شئ في مكانه إنك أنت الذي يمدهم بما يحتاجونه ويحصل كل شخص علي طعامه وسنوات حياته مقدره له)^٣

^١ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ٣١٧

^٢ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق- صفحة ٢٠١

^٣ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ٣٢٦

٦٢. الملك امنحوتب الرابع-إخناتون- وزوجته الملكة نفرتيتي

عقب وفاة الملك أمنحوتب الثالث تولى ابنه أمنحوتب الرابع عرش مصر وهو يعتبر عاشر ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية وكان عمره لا يزيد عن ١٦ عاماً فعاونته أمه الملكة تي في إدارة البلاد وقد استمر حكم هذا الملك لمدة ١٨ سنة ، أي من حوالي سنة ١٣٥٣ قبل الميلاد إلى سنة ١٣٣٥ قبل الميلاد وقد بدأ امنحوتب الرابع حكمه مثل أسلافه من الملوك بتقديم الولاء للإله آمون الإله الرسمي للدولة وتلقب بالألقاب المعتادة المتوارثة ، ثم تزوج من الأميرة الجميلة نفرتيتي وما كادت الأمور تستتب للملك أمنحوتب الرابع حتي بدأ يفكر في دينه الجديد والدعوة له ، وإلي إله واحد يكمن في قرص الشمس أطلق عليه اسم الإله آتون

وأقام معبد لعبادة قرص الشمس التي كان يعتبرها مصدر القوة مما جعل كهنة آمون يشعرون بالخطر علي الآلهة أمام هذا الانقلاب الديني الكبير ثم قام بتغيير اسمه من امنحوتب الرابع إلي إخناتون وتعني (المفيد للشمس) واشتد العداء بينه وبين كهنة آمون بل إن أمه الملكة تي غضبت أيضاً من هذا التحول الغريب علي الأسرة ولم يكن إخناتون من الملوك المحاربين فبدأت الولايات واحدة واحدة تنفصل عن حكم مصر وتتداعي أركان الإمبراطورية التي أقامها أجداده المحاربين وتنهار ، وقام بتشيد عاصمة جديدة له ولعائلته ولأتباعه وأطلق عليها "أفق آتون" وهي المدينة المعروفة حالياً بتل العمارنة علي البر الشرقي للنيل بالقرب من ملوي ٢

مما أدى إلي تدبير مؤامرات لقتله والتخلص منه لإنقاذ الإمبراطورية المصرية من الانهيار الكامل

وفيما يلي مقطع صغير جداً من النشيد الذي كان يتعبد به إلي الإله آتون الذي كان يعبده

(ما أعظم أعمالك التي عملتها ، إنها خافية علي الناس أيها الإله الأوحده ، الذي لا شبيه له ،

لقد خلقت الدنيا كما شئت عندما كنت وحدك ، الناس والماشية والوحوش الضارية وكل ما علي الأرض يسعى علي

قدميه وكل ما يرتفع في السماء يطير بجناحيه ، تضع كل شئ في مكانه إنك أنت الذي يمدهم بما يحتاجونه ويحصل كل

شخص علي طعامه وسنوات حياته مقدره له) ٣

نقلًا باختصار عن كتاب - مصر الفرعونية لأحمد فخري وكتاب هؤلاء حكموا مصر لحمدى عثمان

^١ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ٣١٧

^٢ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة ٢٠١

^٣ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ٣٢٦

٦٣. عندما سيطر كهنة آمون علي الملك توت عنخ آتون وتغير اسمه إلي توت

عنخ آمون



بدأ امحتب الرابع المعروف حالياً باسم اخناتون كأى ملك في طيبة في الأسرة ١٨ وقام بتقديم الولاء لإله الدولة آمون وتزوج من نفرتيتي وكانت أمه الملكة تي تساعده في الحكم في سنواته الأولى ١ (وما كادت الأمور تستتب لخناتون حتي بدأ يفكر في دينه الجديد والدعوة له ، الدعوة إلي إله واحد يكمن في قرص الشمس أطلق عليه آتون) ٢ مما جعل كهنة آمون يشعرون بالخطر علي الآلهة أمام هذا الانقلاب الديني الكبير فقد غير اسمه من امحتب الرابع إلي إخناتون وبدأت تتداعي أركان الإمبراطورية التي أقامها تحتمس الثالث وقام اخناتون بتشيد عاصمة جديدة له ولعائلته ولأتباعه وأطلق عليها "أفق آتون" وهي المدينة المعروفة حالياً بتل العمارنة علي البر الشرقي للنيل بالقرب من ملوي ٣

مما أدي إلي تدبير مؤامرات لقتله والتخلص منه لإنقاذ الإمبراطورية المصرية التي أهملها ، وكان اخناتون لديه ثلاثة بنات فقط ماتت إحداهن وهي صغيرة ولم يكن له أولاد ذكور وكان يوجد إخوة صغار لإخناتون كان أحدهم اسمه (سمنخ كا رع) والثاني اسمه (توت عنخ آتون) وكان اخناتون يميل أكثر إلي (سمنخ كا رع) فقام بتزويجه من ابنته وجعله شريكاً له في ملكه ثم بدأت المؤامرات للتخلص من اخناتون وشريكه في الملك (سمنخ كا رع) وتم اغتيال (سمنخ كا رع) ثم تم قتل اخناتون بعد عامين من قتل شريكه في الملك وتولي حكم البلاد توت عنخ آتون الذي تزوج من إحدى بنات اخناتون وكان صغير السن وقام بتغيير اسمه تحت ضغط من الكهنة ليصبح توت عنخ آمون ؛ وأعاد العاصمة مرة أخرى في طيبة وتم تحطيم معظم آثار اخناتون وخرّبوا عاصمته في العمارنة وكان الملك الصغير توت عنخ آمون مستسلم تماماً لقرارات الكهنة وترجع شهرته حالياً إلي العثور علي مقبرته كاملة بكل كنوزها لأنها كانت مخفية عن اللصوص كل هذه السنين ، وقد تم اكتشاف المقبرة في ٤ نوفمبر ١٩٢٢ (بكل ما فيها من ثروة تدل علي البذخ والإسراف الذي عاش فيه ملوك الإمبراطورية ، ويجب أن يؤخذ في الاعتبار بأن توت عنخ آمون كان له كل هذه الثروة من الأثاث الجنائزي ولم يكن ملكاً له

^١ (وتوضح لنا مراسلات تل العمارنة – أن الملكة تي أم أمنحتب الرابع قد أرسلت للملك الميتاني توشراتا خطاب تبليغه فيه بموت زوجها أمنحتب الثالث وترجوه أن يستمر في صداقته وعلاقته الودية مع ابنها فرعون مصر الجديد أمنحتب الرابع وقد أجاب توشراتا – وهو ابن الملك السابق - علي خطاب تي بأن عليها أن تقع ابنها بالمحافظة علي هذه العلاقات الودية بين مصر ودولة الميتاني وقد يستدل من هذه الخطابات أن أمنحتب الرابع لم يعزل عرش مصر إلا بعد وفاة والده – أي لم يكن شريكاً معه في الحكم - وفي نفس الوقت برهان علي قوة نفوذ الملكة تي سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية) معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق- صفحة ١٩٨

^٢ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق- صفحة ١٩٩

^٣ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق- صفحة ٢٠١

٤ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ٣٤٠

مكانته التاريخية ، فماذا لو قيس بغيره من الملوك وفي هذه الحالة قد يستطيع الإنسان أن يتخيل ما يجب أن يكون عليه الأثاث الجنائزي بالنسبة للملوك العظام أمثال تحتمس الثالث وأمنحوتب الثالث وسيتي الأول ورمسيس الثاني)^١ معلومات باختصار من كتاب مصر الفرعونية (أحمد فخري) صفحة ٣٤٠ ، وكتاب معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول- د سيد توفيق صفحة ٢١١

^١ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة ٢١١

٦٤. توت عنخ آمون - ليبيرم التونسي

من عهد ما كتفوك في القبر يا فرعون
 داست بلادك ملل من كل شكل ولون
 وخلصوا منا تار موسى وتار هارون
 وبعد جور الزمن واللي جرى فينا
 ظهرت لما بقى لك في المنامة قرون

مش عيب عليك تستخبي نص مليون حول
 وكل من جاك بلادك يسأل أبو الهول
 لا يبوح بسرّك لا بمشاوره ولا بالقول
 وجا الزمان اللي بلاقوا المناجم فيه
 عتر عليك لورد بيفتش على بترول

في مصر كنت الملك لك جيش ولك حاميه
 في دولة غير دولتك ما تتعمل موميا
 وأمة غير أمتك ما تزرع الباميا
 ولما خشوا عليك المقبرة يلاقوك
 نايم مفتح ولكن.. في بلد عاميه

٦٥. الملك حور محب يعيد الأمن والرخاء لشعب مصر



في أواخر عهد الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية مرت مصر بفترة ضعف واضطراب بدأت من أواخر عهد (امنحتب الرابع) المعروف باسم إخناتون ، وكادت البلاد تقع في هاوية الإنقسام الداخلي والانحلال ، لولا أن قيض الله لها زعيماً من عامة الشعب أهلته مواهبه وشخصيته لتسلم زمام الأمور وإنقاذ الوطن وهو (حور محب) الذي كان من ضباط الجيش في عهد إخناتون وقائد الجيش في عهد توت عنخ آمون ، ولم يكن ظامعاً ولا راغباً في أن يؤسس أسرة ملكية ، ولا أن يكون ملكاً ، تولي حور محب الملك لأن الظروف دفعته إلى ذلك دفعاً ، لإنقاذ البلاد من الهاوية التي تردت فيها ، - -

وقد تزوج حور محب من الأميرة موت نجمت أخت الملكة نفرتيتي ليكتسب شرعية الحكم كما كانت تقتضي الأمور في العصر الفرعوني عندما يكون الملك الجديد لا ينتمي للأسرة الحاكمة السابقة

وقد شيد حور محب في معبد الكرنك بوابة من الجرانيت ويمتد من هذه البوابة طريق الكباش إلى الجنوب حتي معبد الإلهة موت ثم يأخذ طريقاً آخر إلى معبد الأقصر وقد استطاع هذا الملك أن يعيد الاستقرار للبلاد ولاستكمال هذا الاستقرار حارب الحثيين وعقد مع ملك خيتا معاهدة ضمنت له استقرار الأمور مؤقتاً علي الحدود وتفرغ للإصلاح الداخلي حتي تستعيد البلاد قوتها وهيبتها كتب عنه الدكتور أحمد بدوي بعنوان (حور محب أبو الشعب وصديق الفلاح) ما ملخصه :

(كان يؤذيه ما رأي من حال الشعب ، فالفلاح المسكين قد أهمل حاله واشتد بؤسه بعد أن تجرع مرارة العيش قبل أيام حور محب ، فعزم علي إصلاح شأنه وتأمين رزقه ، وتوفير سعادته ، فعمد إلي إصدار قانون ينظم حياة الأمة أملاه بنفسه علي كتابه ، كما حدد القانون شروط تعيين القضاة في محاكم الدولة فاخترهم من أحسن الناس سيرة وأكرمهم خلقاً ، وأجرأهم قلباً ، وأظهرهم لساناً ، وأعفهم يداً ، وحرّم علي القضاة أن يصادقوا أحداً من الناس ، أو يتهادوا مع الناس ، أو تكون بينهم وبين الناس معاملات مالية ، وهكذا كان حور محب رجل حزم وعزم ، لا يلين في الحق ، ولا تأخذه في تنفيذه لومة لائم ، وقال الملك حور محب عن القانون الذي وضعه :

(إنني قد وضعته لضمان رفاهية شعبي)

ويعتبر الملك حور محب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة وقد حكم مصر ما يقرب من ١٢ سنة ، من حوالي سنة

١٣١٩ قبل الميلاد إلي حوالي سنة ١٣٠٧ قبل الميلاد

نقلاً عن كتاب (تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة)- من فجر التاريخ إلي الفتح العربي- تأليف عبد الرحمن

الرافعي - دار المعارف - صفحة ١٠٢ ، ١٠٣ - وكتاب هؤلاء حكموا مصر - حمدي عثمان - صفحة ٦٧

٦٦. الملك سيتي الأول وعصر الولادة في الأسرة ١٩ الفرعونية :



يعد الملك رمسيس الأول هو أول ملك في الأسرة ١٩ الفرعونية وقد حكم مصر أقل من عامين فقط وجاء بعده (سيتي الأول) ويعتبر هذا الملك هو المؤسس الحقيقي للأسرة ١٩ لأنه بدأ عصر جديد يطلق عليه "عصر الولادة" أو البعث فقد قام بعمل إصلاحات واسعة للمباني الدينية كما قام بإخماد العديد من الثورات وهزم البدو في سيناء وجنوب فلسطين بل إنه اندفع بجيشه في كل مكان (ليبيا ، سوريا ، فلسطين --- إلخ) لإعادة أمجاد تحتمس الثالث وسجل انتصاراته علي الجدران وترك العديد من الآثار أشهرها بهو الأعمدة الرائع في الكرنك واهتم بالمناجم وحفر الآبار وأشرك ابنه في الحكم لتدريبه علي الحكم وبعد أن مات تولى ابنه رمسيس الثاني حكم مصر ثالث وأشهر ملوك الأسرة ١٩ الفرعونية الصورة لتمثال الملك سيتي الأول ومعبده

٦٧. أهم ملوك الأسرة ١٩ الفرعونية (الدولة الحديثة)



يعتبر الملك رمسيس الأول الذي حكم مصر أقل من عامين فقط هو أول ملوك هذه الأسرة وقد حكم مصر من حوالي سنة ١٣٠٧ قبل الميلاد إلى سنة ١٣٠٦ قبل الميلاد

وجاء بعده (سيتي الأول) الذي يعد المؤسس الحقيقي للأسرة ١٩ لأنه بدأ عصر جديد يطلق عليه "عصر الولادة" أو البعث فقد قام بعمل إصلاحات واسعة للمباني الدينية كما قام بإخماد العديد من الثورات واندفع بجيشه في كل مكان لإعادة أمجاد الملك تحتمس الثالث مؤسس الإمبراطورية المصرية بالأسرة ١٨ الفرعونية

وسجل الملك سيتي الأول انتصاراته على الجدران وترك العديد من الآثار أشهرها بهو الأعمدة الرائع في الكرنك حيث اشترك في إقامته وقد بلغت مساحة هذا البهو ٥٤٠٠ متر ، فالنصف الشمالي من هذا البهو ينتمي إلى سيتي الأول والنصف الثاني ينتمي للملك رمسيس الثاني وكل هذه الأعمدة مزينة بالنقوش والمناظر ، كما اهتم سيتي الأول بالمناجم وحفر الآبار وقد جلس على عرش مصر ستة عشر عاماً

وبعد أن مات تولى ابنه رمسيس الثاني حكم مصر وهو يعد من أشهر الفراعنة في تاريخ مصر وقد حكم مصر لمدة سبعة وستين عاماً وامتألت مصر بآثار عديدة ومتنوعة من عهده وهو صاحب معركة قادش الشهيرة التي بدأ سير القتال لصالح العدو في بداية المعركة ولكنه استطاع أن يلحق بهم هزيمة منكرة في نهاية المعركة وطلبوا منه الصلح وقبلوا الأرض تحت قدميه ،

وسيطر رمسيس الثاني على فلسطين ولبنان وجزء من سوريا ١ بعد ان اتفق مع الأعداء (الحيثيين) على احترام الحدود من كلا الطرفين وإنهاء الحرب بالرغم من انتصاره الساحق

- - وكانت حالة التوتر مستمرة بين المصريين والحيثيين إلى أن أدرك الطرفين أن السلام خير لهما ، فأبرموا معاهدة " أمن طيب وأخوة " شهد الآلهة المصريون والحيثيون عليها ، ونعرف تفاصيل هذه المعاهدة من النصوص المصرية المكتوبة بالهيروغليفية على أحد جدران معابد الكرنك ومن النصوص المسمارية المكتوبة على لوحين من الطين عثر عليهما في بوزغاز كوي - - بعد ذلك بدأ تبادل الخطابات الودية بين حكام الدولتين ، وقد اشتركت في هذه المراسلات أيضاً كلاً من زوجة رمسيس الثاني الملكة نفرتاري وزوجة الملك خاتو سيلي الثالث الملكة بوتو خيبا ، بل أكثر من هذا لقد قام خاتو سيلي الثالث بزيارة ودية لمصر ٢

١ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ٣٦٩

٢ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة ٢٢٤-٢٢٥

وكان حكم الملك رمسيس الثاني مستقر وحافل بالإنجازات وكان له أولاد وبنات كثيرين لم يستطع المؤرخون حصرهم ويقال أنه كان عنده ما يزيد عن ١٠٠ ولد وبنت تقريباً ،

وبعد أن مات خلفه علي العرش ابنه الملك (مرن بتاح) وأغلب الحروب التي خاضها هذا الملك حروب دفاعية علي ما يبدو ١ ومات بعد ١١ سنة من حكمه

(علي أن الخطر الذي كان يهدد مصر في عهده لم يكن فقط من الشرق أو من الجنوب بل أتى أيضاً من الغرب من ليبيا ، فقد بدأت هجرات لقبائل من شمال أفريقيا ومن الصحراء الغربية بنسائهم وأطفالهم للبحث عن الطعام وذلك بسبب القحط الشديد الذي ألم ببلادهم وقد أتوا بقيادة -مري- رئيس قبيلة الليبو "ليبيا" وقد أتى ومعه أولاده وزوجاته الاثني عشر وقد يدل هذا علي نية الاستيطان في وادي النيل ،

ولهذا اضطر الملك مرنبتاح في العام الخامس من حكمه أن يرسل حملة عسكرية للدفاع عن حدود مصر الغربية وذلك بعد أن أعد لهم جيشاً قوياً من المشاة والمركبات الحربية فاستطاع هزيمتهم

وكانت هذه الهزيمة القاسية عقاباً لهم وردعاً لأمتالهم ، وقد ذكرت النقوش المصرية التي ترجع لعهد تفصيل هذا القتال علي أحد جدران معابد الكرنك

وقد أمر مرنبتاح باستغلال ظهر لوحة حجرية من عهد الملك أمنحوتب الثالث ليسجل عليها أن الخراب قد حل بالتحنو "ليبيا" وأن إسرائيل قد خربت وزالت بذرتها " وهذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها اسم إسرائيل علي لوحة مصرية -) وتعتبر لوحة مرنبتاح من أشهر وأهم الآثار من تلك الفترة وهي تسمى أيضاً لوحة الانتصار حيث سجل فيها انتصاراته في الشرق والغرب كما أنها اللوحة الفرعونية الوحيدة المذكور فيها كلمة إسرائيل

ويبدو أن هذا الملك كان آخر الملوك الأقوياء في الأسرة ١٩ إذ لم يخلفه ملك يمكن مقارنته به إلي أن تأسست الأسرة ٢٠ الفرعونية التي كان من أهم ملوكها الملك رمسيس الثالث بعد ذلك

وفيما يلي أسماء جميع ملوك الأسرة ١٩ علي الترتيب :

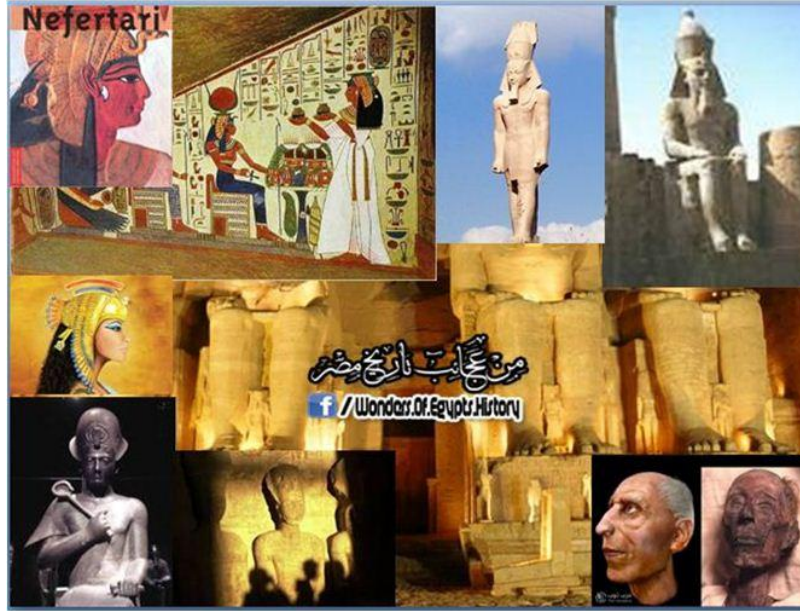
رمسيس الأول - سيتي الأول - رمسيس الثاني - مرنبتاح - سيتي الثاني - آمون مس - سيبتاح - تاوسرت (ملكة)

نقلا عن كتاب هؤلاء حكموا مصر - حمدي عثمان ، وكتاب مصر الفرعونية - أحمد فخري ، وكتاب معالم تاريخ

وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق

^١ (علي أن الخطر الذي كان يهدد مصر في عهده لم يكن من الشرق أو من الجنوب بل أتى هذه المرة من الغرب من ليبيا ، فقد بدأت هجرات لقبائل من شمال أفريقيا ومن الصحراء الغربية بنسائهم وأطفالهم للبحث عن الطعام وذلك بسبب القحط الشديد الذي ألم ببلادهم وقد أتوا بقيادة -مري- رئيس قبيلة الليبو "ليبيا" وقد أتى ومعه أولاده وزوجاته الاثني عشر وقد يدل هذا علي نية الاستيطان في وادي النيل ، ولهذا اضطر الملك مرنبتاح في العام الخامس من حكمه أن يرسل حملة عسكرية للدفاع عن حدود مصر الغربية وذلك بعد أن أعد لهم جيشاً قوياً من المشاة والمركبات الحربية فاستطاع في معركة الست ساعات من أن يقتل ٦٠٠٠ وأن يأسر ٩٠٠٠ وكانت هذه الهزيمة القاسية عقاباً لهم وردعاً لأمتالهم ، وقد ذكرت النقوش المصرية التي ترجع لعهد تفصيل هذا القتال علي أحد جدران معابد الكرنك وقد أمر مرنبتاح باستغلال ظهر لوحة حجرية من عهد الملك أمنحوتب الثالث ليسجل عليها أن الخراب قد حل بالتحنو "ليبيا" وأن إسرائيل قد خربت وزالت بذرتها " وهذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها اسم إسرائيل علي لوحة مصرية -) معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة ٢٢٦-٢٢٧

٦٨. الملك رمسيس الثاني وزوجته الملكة نفرتاري



يعد الملك رمسيس الثاني أشهر فرعون في تاريخ مصر بالكامل في هذه الأيام

واسم رمسيس أصله (رع مس سو) أي الإله رع هو الذي أنجبه

وقد حكم مصر لمدة ما يقرب من ستة وستين عاماً

أي من حوالي سنة ١٢٩٠ قبل الميلاد إلى سنة ١٢٢٤ قبل الميلاد

وامتألت مصر بآثار عديدة ومتنوعة من عهده وهو صاحب معركة قادش الشهيرة التي بدأ سير القتال لصالح العدو في

بداية المعركة ولكنه استطاع أن يلحق بهم هزيمة منكرة في نهاية المعركة وطلبوا منه الصفح وقلبوا الأرض تحت قدميه

، وسيطر رمسيس الثاني علي فلسطين ولبنان وجزء صغير من سوريا ١ بعد ان اتفق مع الأعداء (الحيثيين) علي

احترام الحدود من كلا الطرفين

(- -) وظلت حالة التوتر مستمرة بين المصريين والحيثيين إلى أن أدرك الطرفين أن السلام خير لهما ، فأبرموا معاهدة

" أمن طيب وأخوة " شهد الآلهة المصريون والحيثيون عليها ، ونعرف تفاصيل هذه المعاهدة من النصوص المصرية

المكتوبة بالهيروغليفية علي أحد جدران معابد الكرنك ومن النصوص المسمارية المكتوبة علي لوحين من الطين عثر

عليهما في بوغاز كوي - - بعد ذلك بدأ تبادل الخطابات الودية بين حكام الدولتين ، وقد اشتركت في هذه المراسلات أيضاً

كلاً من زوجة رمسيس الثاني الملكة نفرتاري وزوجة الملك خاتو سيللي الثالث الملكة بوتو خيبا ، بل أكثر من هذا لقد قام

خاتو سيللي الثالث بزيارة ودية لمصر (٢)

ويعتبر رمسيس الثاني فرعون من فراعنة مصر الكبار وكان ثالث ملوك الأسرة ١٩ الفرعونية وكان حكمه مستقر وحافل

بالإنجازات وكان كثير الأبناء ولم يستطع المؤرخون حصرهم فكان عنده ما يزيد عن ١٠٠ ولد وبنت تقريباً ،

ولقد خلد رمسيس الثاني نفسه بما أقامه من معابد ومسلات (١٠٠مسلة) ومقاصير وتماثيل ضخمة تزن مئات الأطنان

ولوحات في أنحاء مصر المختلفة ،

ومنها الجزء الأمامي من معبد الأقصر وتكاملته ليهو الأساطين بمعبد الكرنك الذي بلغت مساحته حوالي ٥٤٠٠ متر ،

وبه ١٣٤ عموداً علي ١٦ صفاً وبلغ ارتفاع العمود حوالي ٢١ متر ،

١ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ٣٦٩

٢ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة ٢٢٤-٢٢٥

وكذلك شيد الملك رمسيس الثاني معابد في تنيس وأبيدوس والنوبة ولعل من أشهرها معبد أبي سمبل الكبير الذي كرسه لعبادة الإلهين آمون رع وبتاح والملك رمسيس الثاني نفسه ، وكذلك معبد أبي سمبل الصغير الذي كرسه لعبادة الإلهة حتحور وزوجته الملكة نفرتاري التي كانت الزوجة الرئيسية لرمسيس الثاني أو كبيرة الزوجات الملكيات واسمها تم ترجمته بمعاني مختلفة مثل جميلة الجميلات أو التي لا مثيل لها هذا إلى جانب بناء معبد الجنائزي الذي شيده في البر الغربي بطيبة ويعرف باسم معبد الرمسيوم والجدير بالذكر أن الشمس تتعامد علي وجه تمثال رمسيس الثاني في معبد في مدينة أبي سمبل ، جنوب أسوان مرتين كل عام مرة يوم تتويجه ومرة أخرى يوم مولده وتتوغل الشمس لمسافة حوالي ٦٠ متر من مدخل المعبد لتصل إلي قدس الأقداس ، ويرغم أن الملك رمسيس الثاني شيد مقبرة عظيمة في وادي الملوك إلا أنه لم يدفن بها ، أما الملكة نفرتاري فقد دفنت في مقبرتها الشهيرة بوادي الملكات بطيبة الغربية وتعتبر من أروع المقابر الفرعونية في مصر ومما يذكر أيضاً للملك رمسيس الثاني أنه لم يهمل الناحية البحرية لمصر ، فقد بني أسطولاً من السفن المحاربة ليرد به هجمات قراصنة البحار

نقلاً باختصار عن كتاب مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ٣٦٩ وكتاب معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول

- د سيد توفيق - صفحة ٢٢٤-٢٢٥ ، وكتاب هؤلاء حكموا مصر - حمدي عثمان - صفحة ٧٠

٦٩. الأخطار التي كانت تهدد مصر في عهد الملك مرنبتاح

ابن الملك رمسيس الثاني ورابع ملوك الأسرة ١٩ الفرعونية التي حكمت مصر من حوالي سنة ١٣١٤ ق م إلي سنة ١٢٠٠ ق م ١ ، كما ورد في كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر ما يلي :

(----- بدأت هجرات لقبائل من شمال أفريقيا ومن الصحراء الغربية بنسائهم وأطفالهم للبحث عن الطعام وذلك بسبب القحط الشديد الذي ألم ببلادهم وقد أتوا بقيادة - مري - رئيس قبيلة الليبو "ليبيا" وقد أتى ومعه أولاده وزوجاته الاثني عشر وقد يدل هذا علي نية الاستيطان في وادي النيل ، ولهذا اضطر الملك مرنبتاح في العام الخامس من حكمه أن يرسل حملة عسكرية للدفاع عن حدود مصر الغربية وذلك بعد أن أعد لهم جيشاً قوياً من المشاة والمركبات الحربية فاستطاع في معركة الست ساعات من أن يقتل ٦٠٠٠ وأن يأسر ٩٠٠٠ وكانت هذه الهزيمة القاسية عقاباً لهم وردعاً لأمثالهم ، وقد ذكرت النقوش المصرية التي ترجع لعهد تفاصيل هذا القتال علي أحد جدران معابد الكرنك وقد أمر مرنبتاح باستغلال ظهر لوحة حجرية من عهد الملك أمنحوتب الثالث ليسجل عليها أن الخراب قد حل بالتحنو "ليبيا" -)

ومن ناحية أخرى أشار الملك مرنبتاح إشارة غامضة وعابرة إلي أنه قاتل إسرائيل وهزمها وقد تم تسجيل ذلك علي نفس اللوحة الشهيرة بلوحة مرنبتاح حيث كتب عليها الآتي (-----) وأن إسرائيل قد خربت وزالت بذرتها " ---) وهذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها اسم إسرائيل علي لوحة مصرية)

من كتاب (معالم تاريخ وحضارة مصر) - القسم الأول - د سيد توفيق - صفحة ٢٢٦-٢٢٧

٧٠. الملك رمسيس الثالث



ربما يكون هذا الملك أقل شهرة من الملك رمسيس الثاني ولكنه لا يقل عنه قوة ومكانة في تاريخ الفراعنة وبينما كان الملك رمسيس الثاني ينتمي إلي الأسرة ١٩ الفرعونية ، فإن الملك رمسيس الثالث يعد أول وأشهر ملوك الأسرة رقم ٢٠ المكونة من سبعة ملوك وكلهم اسمهم رمسيس (من الثالث إلي التاسع) وحكموا مصر حوالي ١١٥ سنة ١ وكان هو مؤسس هذه الأسرة الذي حكم البلاد لمدة ٣٢ سنة ،

يقول عنها أحمد فخري (-- كانت في الواقع فترة صحو بين عهدين فاسدين) ٢

وفي عهده تم تشييد العديد من الآثار الرائعة واستطاع أن يحمي مصر من جميع الأخطار التي تعرضت لها وفي عهده حصل كهنة آمون ٣ علي وضع خاص جداً (إذ نعرف مجموع ما امتلكه معبد آمون من أراضي زراعية وصل إلي ١٠% من مجموع الأراضي في حين أن نصيب جميع الآلهة الأخرى لا يزيد عن ٥% من هذه الأراضي ، فقد كان يتبع معبد آمون في طيبة بمفرده ٨٦٤٨٦ خادماً و ٤٢١٣٦٢ رأساً من الماشية كبيرها وصغيرها وكان عدد الأرغفة التي تقدم في الأعياد ٢٨٤٤٣٥٧ والطيور ١٢٦٢٥٠ كما كان يمتلك مناجم للذهب والفضة هذا فضلاً عن العديد من المصانع التي تنتج له ، وقد يوضح هذا مدي ما وصل إليه نفوذ كهنة الإله آمون في عهد رمسيس الثالث)

كما تشير الأرقام إلي مدي دقة الحسابات التي تحصر كل شئ يخص المعابد في ذلك العهد والمدونة علي الآثار ومحفوظة إلي الآن وكان رمسيس الثالث من المعجبين جداً بالملك رمسيس الثاني وقام بمحاكاته في كل شئ وأطلق اسمه علي أولاده تيمناً به ثم سرعان ما تدهورت البلاد مرة أخرى من بعده وأهم ما يميز هذا العصر الذي كان تمهيداً لعصر الاضمحلال الأخير ونهاية الفراعنة بعد ذلك أن الأجانب تولوا وظائف هامة في الدولة وفي البلاط الملكي وتسبب هؤلاء الموظفون في إحضار الجنود المرتزقة الغير مصريين وساعت الحالة الاقتصادية في البلاد في آخر أيام هذا الملك وتولي حكم مصر من بعده ملوك ضعفاء عجزوا عن التغلب علي الأزمة الاقتصادية وسيطر عليهم الكهنة إلي أن انتهت هذه الأسرة تماماً وبداية ما يسمى بعصر الاضمحلال الأخير

نقلاً عن كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق ، وكتاب مصر الفرعونية - أحمد فخري

١ موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) ص ٣٤

٢ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ٣٨٩

٣ (إذ نعرف مجموع ما امتلكه معبد آمون من أراضي زراعية وصل إلي ١٠% من مجموع الأراضي في حين أن نصيب جميع الآلهة الأخرى لا يزيد عن ٥% من هذه الأراضي ، فقد كان يتبع معبد آمون في طيبة بمفرده ٨٦٤٨٦ خادماً و ٤٢١٣٦٢ رأساً من الماشية كبيرها وصغيرها وكان عدد الأرغفة التي تقدم في الأعياد ٢٨٤٤٣٥٧ والطيور ١٢٦٢٥٠ كما كان يمتلك مناجم للذهب والفضة هذا فضلاً عن العديد من المصانع التي تنتج له ، وقد يوضح هذا مدي ما وصل إليه نفوذ كهنة الإله آمون في عهد رمسيس الثالث) معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق- صفحة ٢٣٠ وطبعاً عزيزي القارئ معناه إن كهنة آمون كانوا عايشين حياتهم علي حساب باقي المعابد وهذا يفسر ما كان يحدث من صراعات بين نفوذ الآلهة طوال تاريخ العصور الفرعونية إنه صراع اقتصادي علي ما يبدو بين الكهنة لامتلاك المال والنفوذ معاً ومن دقة الأرقام المسجلة من هذه الفترة يتضح أنها كانت تخضع لحسابات صارمة

٧١. أثناء العصر الفرعوني قامت لجنة التحقيق في سرقة المومياوات

في عهد الملك رمسيس التاسع من الأسرة العشرين الفرعونية تم تشكيل لجنة تحقيق كما كتب د سيد توفيق ما يلي :

(-----) جلس علي عرش مصر بعد ذلك الملك رمسيس التاسع واستمر يحكم أكثر من عشرين عاماً ولعل شهرته ترجع للبرديات التي تتحدث عن سرقات مقابر الملوك التي حدثت في عهده ، وقد وصل الفساد الإداري ذروته في العام السادس عشر من حكمه وبدأت العصابات في طيبة تتجه لسرقة المقابر وما بها من ذهب وفضة ولم تسلم مقابر فراعنة مصر العظام أمثال أمنحوتب الثالث وسيتي الأول ورمسيس الثاني من عبثهم ، وبدأ الناس يفقدون أيمانهم بآلهتهم وبملوكهم وحكامهم ، إذ تسجل إحدى هذه البرديات كيف أن "باسر" عمدة مدينة الأحياء الممثلة في الضفة الشرقية لطيبة تقدم بتقرير للوزير " خع إم واست " الذي كان ينوب عن الملك رمسيس التاسع يبلغه فيه عن السرقات التي تحدثت في مدينة الموتى " الضفة الغربية لطيبة " تحت سمع وبصر عمدتها "باورعا" فأمر الوزير بتشكيل لجنة للتأكد من صحة ما جاء بالتقرير ، وقد سجلت هذه اللجنة النتائج التي وصلت إليها علي أكثر من بردية لعل أهمها هي بردية "أبوت" التي أبقاها لنا الزمن لنعرف منها تفاصيل هذه السرقات وما تم بخصوصها فقد اعترف اللصوص بانتهاكهم لقدسيتها مومياوات فراعنة مصر كبيرهم وصغيرهم مما اضطر ملوك الأسرة الحادية والعشرين من الكهنة أن ينقلوا - سرّاً - بعض مومياوات فراعنة الدولة الحديثة لحمايتها من عبث اللصوص إلي أكثر من مخبأ ، فنقلوا ١٣ مومياء إلي مقبرة أمنحوتب الثاني ثم اختاروا مقبرة لم تتم بالدير البحري ووضعوا فيها ٤٠ مومياء أخرى وهي ما يطلق عليها اصطلاحاً خبيئة الدير البحري ، وظلت مومياوات الملوك في مخبأها إلي أن توصل "إميل بروكش " عام ١٨٨١م إلي مومياوات الدير البحري "ولوريه" عام ١٨٩٨م إلي المومياوات المختبئة في مقبرة أمنحوتب الثاني وهم جميعاً الآن بصالة المومياوات بالمتحف المصري)

من كتاب (معالم تاريخ وحضارة مصر - من أقدم العصور حتي الفتح العربي) - القسم الأول - د سيد توفيق -

صفحة ٢٣٢ ، ٢٣٣ - دار النهضة العربية (الطبعة الثانية) ١٩٨٠

٧٢. عندما ورد اسم ملك مصر في التوراة



الملك شاشنق الأول

هذا الملك هو أول ملوك الأسرة الثانية والعشرين الفرعونية والتي تنحدر من أصول ليبية

وقد عاصر هذا الملك دولة إسرائيل الأولى ودخل معها في صراع مسلح

، ويقول المؤرخ الكبير عبد الرحمن الراعي (والصحيح أنه وإن كان أصله البعيد يرجع إلى ليبيا ، لكن أسرته تمصرت منذ أن استوطنت مصر من عدة أجيال مضت وسكنوا إهناسيا المدينة ، وصاروا من المواطنين المصريين ، وتقلد كثير منهم مناصب الدولة ، وأظهروا فيها إخلاصاً لوطنهم ، فلا يصح القول بأن هذه أسرة ليبية وأن الليبيون حكموا مصر ، بل الصحيح أنها أسرة مصرية اندمجت في المواطنين فصارت منهم)

ويقول الدكتور أحمد فخري (من التجني علي التاريخ أن يسمى وجود أفراد هذه الأسرة علي عرش البلاد أنه استعمار ليبي ، أو أن مصر فقدت استقلالها - - -) وقد اتخذت هذه الأسرة عاصمة لها في مصر وهي (تل بسطة) الزقازيق حالياً وقد تدهورت العلاقات بين مصر ومملكة بني إسرائيل في عهد الملك شاشنق في مصر وعهد الملك (رجبام) في بني إسرائيل في فلسطين وقام شاشنق بشن حملة علي فلسطين واستولي علي خيراتها ويقول أحمد فخري في ذلك (ولكن التوراة تذكر لنا أنه في السنة الخامسة من حكم رجبام حنق شيشاق ملك مصر علي أورشليم واستولي علي كنوز بيت الرب وكنوز الملك وأخذ كل شيء) ١

وقد غزا الملك شاشنق الأول فلسطين كلها تقريباً ليوسع نفوذ مصر ويعيد أيام الفراعنة المحاربين من أمثال تحتمس الثالث ورمسيس الثاني وغيرهم

وقد ورد اسمه في التوراة بالإصحاح الرابع عشر بالآية الخامسة والعشرين ، ومات حوالي سنة ٩٢٠ قبل الميلاد بعد أن حكم مصر ٢١ سنة

نقلًا عن كتاب تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة - تأليف عبد الرحمن الراعي - صفحة ١٢٣ وكتاب مصر الفرعونية - تأليف أحمد فخري - صفحة ٤٢٠

٧٣. عندما جلس الملك بعنخي ملك النوبة علي عرش مصر

في حوالي سنة ٧١٥ قبل الميلاد وأثناء عصر الاضمحلال الأخير في زمن الفراعنة اشتعلت الصراعات علي الحكم وتعددت الأسرات المالكة في نفس الوقت فظهرت قوة جديدة طاغية اجتاحت البلاد وسيطرت عليها بقيادة واحد من طراز القادة الكبار وهو ملك النوبة في ذلك الوقت الملك (بعنخي) واستطاع أن يؤسس أسرة مالكة جديدة في مصر وهي الأسرة الخامسة والعشرين المكونة من خمسة ملوك حكموا مصر لمدة حوالي ٥٢ سنة

وبدأت هذه القصة عندما هرب كهنة آمون إلي الجنوب نتيجة لعدم اعترافهم بما يحدث في مصر أثناء الحكم الليبي لها وطبعاً الكهنة قاموا بنشر الديانة المصرية في شمال السودان وبلاد النوبة حيث استطاعوا أن يجعلوا تقديس الإله آمون هو الشغل الشاغل لكل حكام هذه المنطقة بل إن السبب الرئيسي لتقدم جيوش الملك بعنخي نحو الشمال كان لتأييد الإله آمون وإنقاذ طيبة من أعدائه والقضاء علي الفوضى والفساد الذي عم مصر كلها ويقول أحمد فخري عن ذلك (-- لم يرسل بعنخي هذا الجيش غازياً يريد الفتح والنصر وإنما أرسله ليؤيد آمون وكهنته وينقذ طيبة ممن حدثتهم أنفسهم بالاعتداء عليها ولهذا نري بعنخي يذكر جنوده بأنه لا حول ولا قوة إلا بآمون ويأمرهم عندما يرون أسوار طيبة أن يلقوا بأسلحتهم ويطهروا أنفسهم ويدخلوا مدينة آمون خاشعين)

ويعتبر الملك بعنخي من الشخصيات البارزة التي تفرض نفسها علي كتب التاريخ بقوة وكان هذا الملك يعشق الخيول وعندما شاهد خيول القصر الملكي الذي دخله فاتحاً بعد استسلامه وجد الخيول هزيلة جداً نتيجة إهمالها فوبخ الملك المستسلم علي ذلك أكثر من توبيخه علي الفساد والفوضى التي سادت البلاد في عهده وهذا يدل علي أن الملك بعنخي كان فارس أصيل ويتمتع أيضاً بأخلاق الفرسان ،

نقلًا عن كتاب (مصر الفرعونية) أحمد فخري صفحة ٢٨٤

٧٤. الملك بسماتيك الأول

محرر مصر من الآشوريين

يعرف الكثير منا الملك أحمس الأول طارد الهكسوس ومحرر مصر وأول ملوك الأسرة ١٨ الفرعونية ولكن القليل منا يعرف الملك بسماتيك الأول طارد الآشوريين ومحرر مصر وأول ملوك الأسرة ٢٦ الفرعونية فقد قام هذا الملك بتحرير مصر من الاحتلال الآشوري ولكن الفرق بينه وبين الملك أحمس أنه استعان ضمن جيشه بجنود مرتزقة من الإغريق بينما حرر أحمس مصر بجيش مصري خالص وقد أسس بسماتيك الأول الأسرة السادسة والعشرين المكونة من ستة ملوك حكموا مصر حوالي ١٣٨ سنة ١ من سنة ٦٦٣ ق م إلي سنة ٥٢٥ ق م وقام بالعديد من الإصلاحات والإنجازات ولكنه أخطأ خطأ فادح عندما استعان بالجنود المرتزقة اليونانيين (الإغريق) في تحقيق أهدافه بالإضافة إلي الجنود المصريين

وبالرغم من أن الحضارة المصرية الفرعونية كانت أعرق من الحضارة الإغريقية أيام أمجاد الفراعنة الأوائل إلا أنها بدأت تتراجع عندما فقد الفراعنة روح القتال واعتمدوا علي المرتزقة ففي عهد هذه الأسرة لم يفقد المصريون هذه الروح بالكامل تقريباً فقط بل إن الشعب المصري فقد أيضاً روح الإبداع الفني فتراه يكرر ويحاكي الفن الفرعوني السابق ٢ دون تجديد أو ابتكار نظراً لوجود العديد من اليونانيين الإغريق في بلاده سواء بصفتهم محاربين أو بصفتهم تجار فحاول أن يتمسك علي قدر المستطاع بأمجاد سابقه خوفاً علي هويته من الضياع في ظل الحضارة الإغريقية فأصبح يقلد الفراعنة الأوائل في فنونهم دون أن يقدم حضارة جديدة نقلاً عن كتاب (مصر الفرعونية) - أحمد فخري - صفحة ٤٤٧ بتصرف

٧٥. لماذا قرر الملك الفارسي قمبيز فتح مصر سنة ٥٢٥ قبل الميلاد في عهد

الملك بسماتيك الثالث آخر ملوك الأسرة ٢٦ الفرعونية ؟

يجيب عن هذا السؤال الأستاذ جمال بدوي في كتابه الممتع في رحاب الفكر حيث كتب تحت عنوان ناموس الحياة ما ملخصه :

ونسأل : لماذا قرر قمبيز فتح مصر ؟ رغم أن مصر كانت تعيش مرحلة من مراحل البيات والسكون ولم يصدر عنها أي إساءة للفرس ، ولم ترتكب فعلاً يهدد الأطماع التوسعية عند العاهل الإيراني ؟
قد يبدو هذا السؤال ساذجاً إذا نظرنا إليه في إطار الفكر الاستعماري التوسعي ، الذي لا يسمح لك بأن تسأل دولة عظمى عن سبب عدوانها علي دولة صغرى مسالمة ولا يجوز لك مثلاً أن تسأل بريطانيا لماذا احتلت مصر وضربت الاسكندرية في يوليو ١٨٨٢ ، ولا يجوز أن تسأل فرنسا لماذا احتلت الجزائر ١٨٣٠ ومكثت فيها ١٣٠ سنة ، كما لا يجوز لك أن تسأل الوحوش في الغابات لماذا تفتك بالغزلان ، ولا تسأل الأسماك الكبيرة في البحار عن سر حبها للأسماك الصغيرة .. ولكن إذا سألت دهاقنة السياسة فسيقولون لك إن هذا هو ناموس الحياة منذ نشأة الحياة .. فطالما أن هناك فراغاً في جهة ما .. فلا تلوم من يملأه . وكانت مصر تعيش حالة الضعف عشية الغزوة الفارسية في الوقت الذي بلغت فيه الإمبراطورية الفارسية ذروة قوتها

نعم كانت مصر حينئذ تعيش مرحلة آخر انبعاثة وطنية في تاريخها القديم ، عصر النهضة الأخيرة التي استعادت فيه استقلالها في العصر الصاوي وفي ظل الأسرة ٢٦ ولكن هذه الفترة كانت أقصر دورات الإمبراطورية في تاريخ مصر ، أقصرها عمراً وقامة علي حد تعبير جمال حمدان فهي لم تعمر أكثر من القرن وثلث القرن ولم تصل إلي آفاق القرون السابقة كأنما هو الهدوء الذي يسبق العاصفة ، لأن ظهور قوة بابل الصاعدة لم يسمح بالمحافظة علي تلك المكاسب ودخلت مصر مرحلة الشيوخوخة التي ضعفت فيها داخلياً وتغلغل النفوذ والتوطن الإغريقي فيها بالتدريج ، إلي أن أتت النهاية علي يد الغزو الفارسي فانتهدت الدولة والدورة معاً . - - - -

كانت حملة قمبيز في الإطار التاريخي أمراً متوقعاً بل محتوماً من قوة متعاضمة نحو قوة غاربة ولكن المؤرخين وهم ليسو محللين للتاريخ يحلو لهم أن يضعوا مسببات تتراوح بين الحقيقة والخيال ، فإذا عرفت أثر الأسطورة عند الشعوب القديمة فلا تعجب لما يقوله المؤرخون عن دوافع هذه الغزوة الفارسية

فتقول إحدى الروايات التاريخية إن قمبيز إنما اقتحم مصر لينتقم من الإله آمون الذي تنبأ كهنته بأن قمبيز سوف يأتي إلي مصر وأن جيشه سوف تذروه الرياح ويدفن في رمال الصحراء وأن هذه الأسطورة أو الإشاعة ترددت في كل أنحاء الشرق الأوسط حتي وصلت إلي مسامع قمبيز فقرر غزو مصر والذهاب إلي معبد آمون في واحة سيوة ليهدمه علي رؤوس كهنته ويثبت للعالم أن آمون إله بكاش ..

وتقول رواية أخرى أن قمبيز جاء إلي مصر لينتقم من الملك أمازيس الذي خدعه في أعز ما يملك وهو شرفه الفارسي الأثيل وذلك أن فانيس الضابط اليوناني الخائن بعد أن لجأ إلي بلاط قمبيز أخذ يحدثه عن جمال وفتنة ورشاقة الفتاة المصرية نفريت ابنة الملك أمازيس حتي أن الوحش الإيراني صمم علي امتلاكها فأوفد بعثة شرف إلي فرعون مصر يطلب منه يد ابنته ولما كان أمازيس الفرعون الشقي الذي يلعب بالبيضة والحجر يعرف وحشية قمبيز ويعرف أيضاً إنه لن يستطيع أن يرد له طلباً فقد تفتق ذهنه عن حيلة يتقي بها شره ، فبعث إليه بفتاة أخرى هي ننتياس ابنة الفرعون السابق علي أنها ابنته هو ظناً منه أن الوحش الإيراني لن يكتشف الفرق بين الفتاتين وغادرت ننتياس أرض النيل إلي مهوي النار مضحية بنفسها من أجل الحفاظ علي أمن وطنها من غدر قمبيز ولكن ما إن ظهرت الفتاة في البلاط حتي أوقعها حظها

العاشر في طريق فانيس الذي كان يعرفها جيداً ووشي بالخدعة إلى سيده الذي استشاط غضباً وأقسم بشرف النار المقدسة عنده أن يؤدب ملك مصر لأنه باع له بضاعة مغشوشة

هذان هما السببان اللذان من أجلهما وقعت مصر فريسة سهلة بين فكي قَمبِيز ولكل منهما دلائل تاريخية موثوقة والعيب أن قصة الحب التي كانت سبباً في احتلال مصر لم ينتبه إليها أحد من أدبائنا باستثناء أمير الشعراء أحمد شوقي بك فجعل منها إحدى روائع مسرحه الشعري وتحمل اسم قَمبِيز

٧٦. الاحتلال الفارسي لمصر ونهاية الفراعنة



أواخر أيام الفراعنة

أثناء عصر الاضمحلال الأخير

وفي عهد الملك بسماتيك الثالث آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية ، قرر الملك الفارسي قمبيز بعد أن اجتاحت مملكة بابل أن يضم مصر إلى المملكة الفارسية ، والجدير بالذكر أن أحد الضباط الإغريق المرتزقة العاملين بالجيش المصري ذهب إلى الملك قمبيز وأعطاه كافة المعلومات التي يحتاجها لغزو مصر وأوضح له مواطن الضعف في الاستحكامات الدفاعية المصرية بل شجعه وأغراه علي دخول مصر ودخلها فعلاً بعد مقاومة عنيفة وحصار لمدينة منف إلى أن تم الاستسلام التام وأصبحت مصر ولاية فارسية لأول مرة

وقد أرسل قمبيز حملة إلى الواحات وحملة أخرى إلى الجنوب وقد فشلت الحملة علي الجنوب عند حدود مملكة نبتا أما الجيش الذي ذهب في اتجاه سيوه فلم يصل إليها ولم يرجع أيضاً بل إنه مدفون حتي الآن تحت الرمال نتيجة لعاصفة رملية هائلة أطاحت به وهلك عن آخره في الصحراء ،

وقد أسس الفرس في مصر أسرة حاكمة جديدة وهي الأسرة السابعة والعشرين من سنة ٥٢٥ ق م إلي سنة ٤٠٤ ق م وهذه الأسرة تكونت من خمسة ملوك وبالرغم من بعض الإصلاحات والتودد الذي أبداه بعض ملوك هذه الأسرة للمصريين إلا أن المصريين قاوموا الاحتلال بشدة ونشبت ثورة عظيمة أدت إلي قيام الفرس بأعمال قمع وعنف للسيطرة علي البلاد بقبضة من حديد وكان أيامها (الإغريق) في صراع مع الفرس

أما اليهود الموجودين في مصر في ذلك الوقت فقد كانوا أعواناً للفرس ضد المصريين ٢ وفي سنة ٤٤٩ ق م تم توقيع معاهدة صلح بين الفرس والإغريق

ثم بعد ذلك بسنة قامت ثورة رهيبة ومعارك عنيفة بين المصريين والفرس انتهت بتحرير البلاد منهم وطردهم خارج مصر وبدأ المصريون هذه الثورة بقتال اليهود لشدة العداء والكراهية بينهما ثم قاتلوا الفرس وكان سبب تملق ومساعدة اليهود للفرس هو أن يسمحوا لهم ببناء معبدهم وإعادة تشييد هيكلهم فقرروا الوقوف بجانبهم ضد المصريين لتحقيق مصالحهم الخاصة مما أدى إلي هذه الكراهية الشديدة لهم من المصريين فأطاحت الثورة بهم وبالفرس واستمرت هذه الثورة حوالي أربعة سنوات وكان قائدها هو الملك المصري (أمير تي)

١ موسوعة حكام مصر (ناصر الأنصاري) ص ٣٧

٢ مصر الفرعونية (أحمد فخري) ص ٤٦٢

وقد استمر حكمه من سنة ٤٠٤ ق م إلي سنة ٣٨٩ ق م وهو مؤسس الأسرة الثامنة والعشرين وكان عدد ملوك هذه الأسرة ملك واحد فقط هو نفسه هذا الملك واسمه مكتوب في موسوعة حكام مصر (أمير تي) أما في كتاب مصر الفرعونية لأحمد فخري فاسمه (آمون حر) ، وكان يحكم مصر من عاصمته (سا) "سايس" صان الحجر حالياً ولا توجد أي آثار حتي الآن توضح ما تم في عهد هذا الملك

ثم بعد ذلك ويهدوء تم نقل الحكم إلي أسرة جديدة وهي الأسرة التاسعة والعشرين (٣٩٨-٣٧٨ ق م) وهي مكونة من أربعة ملوك ١ أولهم الملك (نايف عاو رود) "تفريتس الأول" ،

وكانت عاصمة الأسرة التاسعة والعشرين مدينة مندى (تل الإمديد وتل الربع شمال شرق السنبلوين) ،

(وكان أهم ملوك هذه الأسرة هو مؤسسها نايف عاو رود الذي حكم ست سنوات من ٣٩٩-٣٩٣ ق م وتحالف مع الأسبرطيين ضد الفرس وأمدهم بالقمح بما يكفي لتجهيز أسطول مكون من مائة سفينة مقاتلة ولكن المدد لم يصلهم إذ تم اعتراضه وتحطيمه عند جزيرة رودس ، وتولي بعده الملك هكر واستمر حكمه سبع سنوات من ٣٩٣ إلي ٣٨٠ ق م حاول فيها القيام بإصلاحات داخلية في البلاد فرمم المعابد وتعاون بالمال والمنونة مع أثينا ضد الفرس وتولي بعده ملكين حكم كل منهما مصر بضع شهور ثم انتقل العرش إلي أسرة جديدة هي الأسرة الثلاثين ٢)

وكانت نهاية الأسرة الثلاثين الفرعونية علي يد الفرس سنة ٣٤١ ق م

وهي آخر أسرة فرعونية في التاريخ ، وكان آخر ملك فيها هو الملك نقتانب الثاني ، والطريف أن المعركة الفاصلة التي أنهت حكم الفراعنة للأبد ، لم يكن فيها الجيش المصري جيشاً مصرية خالصاً ولكن كان يحتوي علي العديد من الجنود المرتزقة

ومن عجائب تاريخ هذه الفترة أن الجنود المرتزقة الإغريق كانوا منتشرين ويقاثلون لمن يدفع المال حتي أنهم يتواجدون في المعركة الواحدة في كلا الجيشين المتحاربين

وكان المصريون في نهاية العصر الفرعوني يعتمدون علي غيرهم في القتال مما أدى إلي نهايتهم

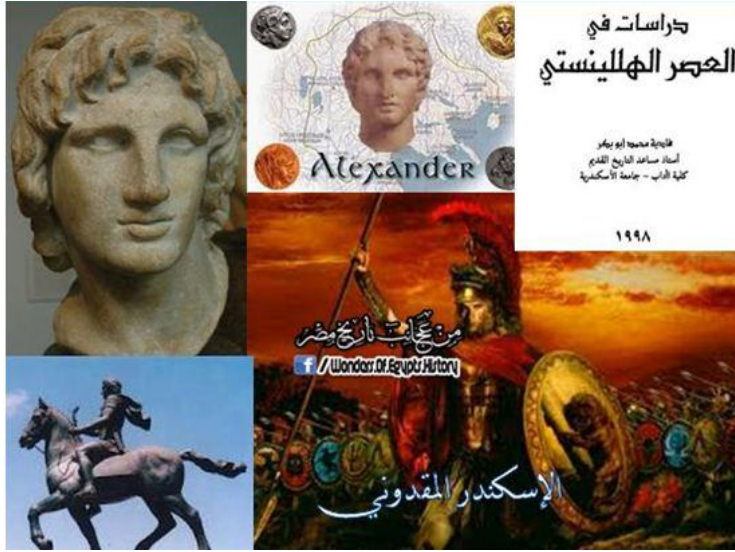
كما حدث في المعركة الأخيرة التي أنهت حكم الفراعنة للأبد

وقد وردت معلومات عن هذه المعركة بالجزء رقم ١٣ من موسوعة سليم حسن مصر القديمة حيث ذكر أعداد الجنود وجنسياتهم في الجيش المصري بقيادة نقتانب الثاني (الفرعون الأخير) بل إن هذا الفرعون لم يحتوي جيشه علي جنود فقط من الإغريق ولكنه كان يضم جنود من ليبيا وكان يعاونه في القيادة اثنين من القادة الإغريق فكان الجيش المصري مكون من عشرين ألف مقاتل من الجنود الإغريق المرتزقة وعشرين ألفاً من الليبيين المرتزقة وستين ألفاً من المصريين بينما كان الجيش الفارسي مكون من ثلاثة أضعاف الجيش المصري كله وكان يضم أيضاً عدداً كبيراً من الجنود الإغريق المرتزقة وبدأت المعركة وتساقطت المدن المصرية مدينة وراء أخرى وكانت بعض المدن ومن فيها من حاميات إغريقية تتفاوض علي الاستسلام بدون علم الفرعون نفسه ، ثم انتهت المعركة لصالح الفرس واختفي الفرعون الأخير للأبد

نقلاً عن كتاب - معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الأول - د سيد توفيق -

وكتاب موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري)

٧٧. الاسكندر المقدوني



ولد الإسكندر عام ٣٥٦ ق م وكان تلميذاً للفيلسوف أرسطو وأعتلي عرش مقدونيا في سن الـ ٢٠ بعد مقتل أبيه فيليب في عام ٣٣٦ ق م ، ويلقب عادةً بالإسكندر الأكبر ، وكان شديد التعلق بأمه أولمبياس ، وقد غيرت فتوحاته مجرى التاريخ ،

في مستهل ربيع عام ٣٣٤ ق م خرج الإسكندر علي رأس جيش مقدوني إغريقي وخرج معه عدد من العلماء والأدباء وعبر الدردنيل وكان الإسكندر معجباً بعصر البطولة وبالأبطال الإغريق الأسطوريين ، وكان يحمل معه نسخة من الإلياذة ، التحم الإسكندر بالجيش الفارسي وانتصر عليه عام ٣٣٤ ق م ، وحرز انتصاره الثاني علي الملك الفارسي دارا الثالث في نوفمبر ٣٣٣ ق م ، وفر دارا الثالث بعد الهزيمة تاركاً أسرته التي وقعت في يد الإسكندر ، وقد عامل الإسكندر زوجة وبنات الملك الفارسي معاملة كريمة وردهن إليه ،

وكانت مصر ولاية فارسية وكان التنافر شديداً بين الفرس والمصريين لاختلاف العقائد الدينية ،

دخل الإسكندر مصر في خريف عام ٣٣٢ ق م وأدرك الوالي الفارسي عبث المقاومة فاستسلم دون قتال ودخل الإسكندر ممفيس حيث نهج نهجاً يختلف تماماً عن نهج الفرس فقدم ولاءه للآلهة الوطنية ، واعتبره المصريون وريثاً للفراعنة ، وقبلوه ملكاً علي الفور ، وعند قرية مصرية قديمة تسمى راقودة أسس الإسكندر مدينة إغريقية تحمل اسمه ولا تزال ، وهي مدينة الإسكندرية في يناير ٣٣١ ق م ، وتابع الإسكندر سيره نحو الغرب حيث بلغ موقع مرسى مطروح الحالية ومنها انحراف جنوباً ضارباً في قلب الصحراء قاصداً واحة الإله آمون المعروفة الآن بواحة سيوة ودخل قدس الأقداس بمعبد الإله آمون ، حيث حياه كاهن المعبد كابن للإله آمون ،

عاد الإسكندر إلي منف وأعاد نظام الحكم والإدارة علي أسس جديدة ، ومنح مصر استقلالاً داخلياً ، ولم يعين حاكماً عاماً للبلاد ، وإنما وزعت السلطة بعناية شديدة ليمنع أي حاكم بمفرده من أن يقوي سلطانه ويتمكن من الاستقلال بالبلاد وغادر مصر في ربيع عام ٣٣١ ق م ، ليواصل قتال الفرس وتواصلت انتصاراته وفتوحاته في آسيا ، ثم قفل راجعاً إلي بابل التي اتخذها عاصمة لإمبراطوريته وفيها مرض بالحمي ومات في ١١ يونيو عام ٣٢٣

وكان الاسكندر هو أول من نبه أذهان الإغريق إلى فكرة الإمبراطوية وما يستتبعها من السيطرة علي العالم المأهول وقتئذ ، وما فيه من شعوب وعناصر مختلفة وفتوحاته الواسعة هي أوضح دليل علي تبلور هذه الفكرة في ذهنة ، وقد أفصح عن هذا في رسالته التي بعث بها إلى دار الثالث بعد انتصاره عليه ، في معركة أسوس عام ٣٣٣ ق م ، وفيها يصف نفسه بسيد آسيا ويمضي الإسكندر قائلاً له :

لقد انتصرت عليك وأصبحت أمتك أراضيك بفضل الآلهة ، وهكذا يجب أن ترسلني الآن باعتباري ملك آسيا العظيم ، وحاذر من أن تكتب إلي كما تكتب إلي ند (نظير) لك ، لكن اذكر دائماً عندما تلتمس مني مطلباً إلي سيد كل ما تملكه وجدير بالذكر أن وفاة الملك الإسكندر الأكبر كانت مبكرة مع بداية شبابه ، فاتفق قادة جيوش الإسكندر علي تقسيم البلاد فيما بينهم ، فكانت مصر من نصيب القائد بطليموس بن لاجوس (بطليموس الأول) الذي يعتبر مؤسس دولة البطالمة في مصر والتي استمرت حتي سنة ٣٠ قبل الميلاد ، أي حوالي ثلاثة قرون وكانت الاسكندرية هي العاصمة التي أصبحت منارة للحضارة الإغريقية

نقلًا باختصار عن كتاب دراسات في العصر الهلنستي ، إعداد د فادية محمد أبو بكر أستاذ مساعد التاريخ القديم كلية آداب جامعة الإسكندرية - دار المعرفة الجامعية

٧٨. لا أحد من البشر يقدر علي قتل أبيك ،،،

كيف استطاع كهنة آمون إقناع الإسكندر الأكبر أنه ابن الإله آمون وذلك أثناء زيارته الشهيرة لمعبد سيوة وكانوا قبل ذلك قد أشاعوا أن الإسكندر ابن الإله آمون ، والطريف إن الإسكندر عند حضوره إلي مصر مكث بها حوالي ستة أشهر فقط ١ وأمر ببناء مدينة الإسكندرية لتكون مركزاً للتجارة العالمية علي البحر المتوسط وتصبح معقل للحضارة الإغريقية ، والجدير بالذكر أنه طلب زيارة معبد آمون في سيوة وتحمل مشقة السفر إلي هناك وعند وصوله استقبله كهنة المعبد بحفاوة بالغة وأدخلوه قدس الأقداس ،

وأظرف ما في هذه الزيارة إنه عندما طلب أن يتحدث إلي الإله آمون المزعوم من خلال وسيط من الكهنة طبعاً ، طلب من الإله آمون أن يقتص من قتلة أبيه الملك فيليب فكان هذا المشهد الذي يرويهِ الدكتور سيد الناصري في كتاب معالم تاريخ حضارة مصر

(--- ولا يعرف أحد ما دار من حوار بين الإسكندر وروح الإله عن طريق وسيط هو الكاهن ، لكن المؤرخ أريانوس يروي أن الإسكندر سأل الإله عما إذا كان قد اقتص من قتلة أبيه فيليب ورد عليه الكاهن قائلاً " وضح عبارتك فلا أحد من البشر يقدر علي قتل أبيك " وقد اعتبر الإسكندر ذلك اعترافاً بأنه ابن آمون رع وتغير سلوكه من هذه اللحظة فلم يعد يعتبر نفسه بشراً --)

من كتاب (معالم تاريخ وحضارة مصر - من أقدم العصور حتي الفتح العربي) - القسم الثاني - د سيد الناصري -
صفحة ٢٢ دار النهضة العربية (الطبعة الثانية) ١٩٨٠

٧٩. الملك بطليموس الأول (سوتير)

Ptolemy I Soter



مؤسس دولة البطالمة في مصر

رغم فتوحات الملك الإسكندر الأكبر ابن الملك فيليب المقدوني والملكة أولمبياس ، ورغم زيجاته العديدة سواء في الشرق أو في الغرب ، فإنه لم يعقب ولداً ليكون خليفة له علي الإمبراطورية المقدونية ، وفاته كانت مبكرة مع بداية شبابه ، فلم ير ابنه الأول الوحيد من زوجته الأميرة روكسانا ابنة الملك الفارسي دارا الثالث ، وفي الوقت نفسه كان أخوه الملك فيليب أرهيداوس مختلاً عقلياً فأصبحت الإمبراطورية بلا إمبراطور رشيد يتولي أمورها فاتفق قادة جيوش الإسكندر علي تقسيم البلاد فيما بينهم ، فكانت مصر من نصيب القائد بطليموس بن لاجوس الذي يعتبر مؤسس دولة البطالمة في مصر منذ سنة ٣٢٣ قبل الميلاد والتي استمرت حتي سنة ٣٠ قبل الميلاد ، أي حوالي ثلاثة قرون

وفي بداية حكمه استطاع أن يعيد إلي شعب مصر التماثيل والكتب المقدسة التي كان الفرس قد نهبوا من مصر ، كرد لاعتبارهم ، فلقي بذلك تأييد الكهنة والشعب المصري علي السواء ، ثم تخلص من وزير المالية الإغريقي الذي كان يستغل أموال الشعب المصري ومحاصيلهم ،

ولقد استطاع بطليموس الأول أن يأتي بالموكب الجنائزي للإسكندر الأكبر إلي مصر ، وأن يقوم بدفنه في مدينة الإسكندرية المحببة إليه ، وقد أحسن المصريون استقبال الجنان وأثنوا علي تقوي بطليموس بن لاجوس الذي فضل أن تكون مصر هي مثوي الإسكندر الأكبر ، وليس مقدونيا كما هو متبع ، وبذلك أصبحت الإسكندرية هي كعبة الإغريق يأتون إليها من كل حذب لمشاهدة ضريح معبود الإغريق العظيم وقائدهم المظفر الذي فرض نفسه علي تاريخ البشرية

وكانت سياسة بطليموس الأول سوتير تتلخص من خلال أعماله في حماية مصر وحدودها من الشرق والغرب ، وإقامة قاعدة بحرية للأسطول في قبرص لتساعده علي نشر نفوذه في آسيا الصغرى أو بلاد اليونان ، كما كان في مخططة دائماً الإستيلاء علي سوريا لتأمين الطرق التجارية والاستفادة من أخشاب الأرز من أجل بناء الأسطول القوي ،

واستطاع إخضاع منطقة ليبيا ، كما صالح حكام مملكة مروي في الجنوب وكسب صداقتهم ،

ولتحقيق هذه الأهداف استلزم الأمر دخول بطليموس الأول في العديد من الحروب السياسية والعسكرية ، حتي استطاع

بناء دولة بطلمية عظيمة قاعدتها مصر

ولقد حمل الملك بطليموس الأول سوتيروس الألقاب المصرية الفرعونية التقليدية ، أما لقب سوتيروس فيعني المنقذ أو

المخلص ،

وإرضاء للشعب المصري الذي ينظر إلي الملك الفرعون الذي لابد أن يجري في عروقه الدم الملكي المقدس تزوج بطليموس الأول من إحدى الأميرات المصريات حتي يعطي لنفسه الحق في تولي عرش مصر طبقاً للتقاليد المصرية المتبعة كما أبقى علي نظام الإدارة الفرعوني القديم واحترم حقوق طبقة الكهنة وامتيازاتها ، وجعل الإسكندرية هي عاصمة البلاد بدلاً من منف ، وقد حرص بطليموس الأول علي الحفاظ علي الدم الإغريقي نقياً حتي لا يضيع في بحر المصريين ، ولهذا فرغم احترامه لمشاعر المصريين حرم الزواج بين الشعبين

ولقد اهتم بطليموس الأول بتوطيد ودعم تجارة مصر في حوض البحر المتوسط وقام بسك عملة مصرية تحمل إحداها علي وجهيها صورة كل من الإسكندر الأكبر وبطليموس الأول ، وفي الوقت نفسه حرص علي دقة وزن العملة وصفاء ونقاء وزنها ، سواء كانت ذهبية أو فضية

وقد فكر بطليموس الأول في وضع ديانة جديدة لتوحيد الشعب المصري والإغريقي روحانياً من أجل السلام والتعايش السلمي وهي ديانة سيرابيس المصرية المتأغرقة (عبارة عن توفيق بين الديانتين) وحرص بطليموس الأول علي حضور جميع الاحتفالات الدينية وقام بترميم المعابد الشهيرة

ولم يهمل بطليموس الأول النواحي الثقافية والفكرية فأحدث نهضة فنية وعلمية كبرى في مصر تذكرنا بحضارة مصر الفرعونية القديمة ، وإن كانت اقتصر علي الإسكندرية أكثر من سواها من مدن مصر

وعندما زاد عدد العلماء والفنانين والفلاسفة في مدينة الإسكندرية قرر بطليموس بناء أكاديمية لهم أطلق عليها اسم الموسيون أي بيت ربات الفنون والآداب التسع ، وتم بناء مكتبة عظمي أحضرت لها الكتب والمخطوطات النادرة من كل مكان وازدادت أعداد الكتب في عهد خلفاء بطليموس الأول حتي وصلت إلي ٧٠٠ ألف كتاب بمكتبة الإسكندرية

وقد ظل بطليموس الأول يعمل بنشاط لا يكل ويعزيمة لا تلين حتي بلغ الثمانين من عمره ثم أعلن تنازله عن العرش لابنه بطليموس الثاني فيلادلفوس سنة ٢٨٥ قبل الميلاد

ومما يذكر لعهد الملك بطليموس الأول أنه أمر ببناء منارة الإسكندرية في جزيرة فاروس وقد اكتمل بناءها في عهد بطليموس الثاني

وقد تواجد بالإسكندرية العديد من العلماء والأدباء والمؤرخين والفلاسفة والفنانين فمن هؤلاء إقليدس وهيروفيلس وثيودوروس وإراستوثينيس وغيرهم فأصبحت الإسكندرية منارة للإشعاع الحضاري بعد اندماج الحضارتين المصرية والإغريقية وفي عهد البطالمة كتب المؤرخ المصري مانيتون كتابه الشهير عن تاريخ مصر ورتب الأسرات الفرعونية وقوائم ملوك الفراعنة

وقد اتخذ بطليموس الأول سياسة ثابتة لتشجيع هجرة الإغريق وتنظيمها إلي مصر

واستمرت دولة البطالمة تحتفظ بمكانتها إلي أن دب فيها الضعف والاضمحلال

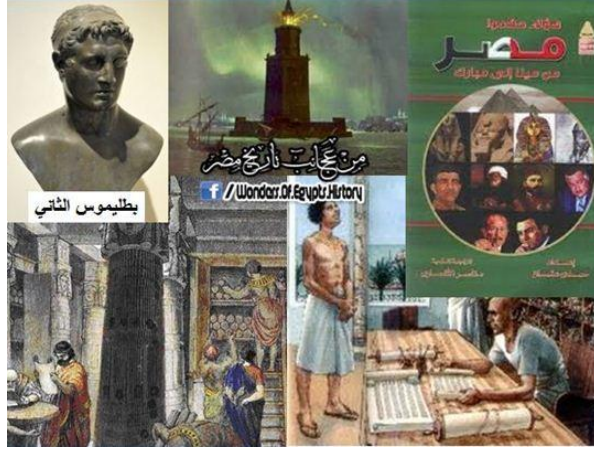
فسقطت حين دخلها الإمبراطور الروماني أوكتافىوس أغسطس منتصراً سنة ٣٠ قبل الميلاد فتحولت مصر إلي ولاية رومانية منذ ذلك التاريخ

نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر - من مينا إلي مبارك - إعداد حمدي عثمان - المراجعة العلمية د ناصر

الأنصاري - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية ٢٠١٢ - صفحات ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣

٨٠. بطليموس الثاني فيلادلفوس

Ptolemy II Philadelphus



تولي الملك بطليموس الثاني عرش مصر وهو في الخامسة والعشرين من عمره بعد أن قام والده الملك بطليموس الأول سوتيروس بواجبه علي أتم وجه ، ولذا نشأ محباً للترف والنعيم غير ميل للحروب والقتال ، إذ لم يخرج علي رأس جيشه أبداً وإنما كان يترك لقواده هذه المهمة لكنه كان ذا عقلية سياسية خطيرة إلي أقصى حد ، وكان من أكثر الناس تأثيراً عليه أخته الملكة أرسينوي وزوجته في الوقت نفسه ، فقد كان متيماً بها حتي أطلق عليه لقب فيلادلفوس بمعنى المحب لأخته ، ولقد احتفل الملك بطليموس فيلادلفوس سنة ٢٧٨ قبل الميلاد بعيد جلوسه علي العرش ، حيث استعرض خيرات البلاد التي تتدفق علي الإسكندرية عاصمة مصر في ذلك الوقت من كافة أنحاء الإمبراطورية وأقام الاستعراضات

ويعتبر عصر فيلادلفوس أغني عصور البطالمة إذ لم تشهد البلاد رخاء وبذخاً مثلما شهدت في عصره وهذا نعرفه من بقايا آثار وفنون الإسكندرية القديمة كما حرص علي دعم مكتبة الإسكندرية بالمخطوطات النادرة واهتم بإقامة حديقة حيوانات جمع فيها كل ما هو غريب في عالم الحيوان

وإذا كان بطليموس الأول هو الذي وضع أساس الدولة ، فإن بطليموس الثاني هو الذي استكملها وزاد عليها ودعم قواعد الحكم من حيث تنظيم وبناء جهاز الدولة الإداري والإقتصادي والمالي ، كما اهتم بالتجارة والتوسع التجاري بحيث أصبح الأسطول المصري يجوب بحرية في مياه البحر المتوسط ، وشجع التجارة والأسواق واهتم بتطوير الزراعة وأكمل مشروع تعمير الفيوم كما قام بإنشاء الترعة والمصارف والقنوات وتطهيرها من الرواسب لتوسيع الرقعة المزروعة كما شجع كبار الزراع علي تصدير منتجاتهم

ولقد كانت سياسة بطليموس فيلادلفوس الخارجية تسير علي نفس المسار الذي سار عليه أبوه ، وهو المحافظة علي أمن واستقرار مصر أولاً ثم الاستيلاء علي سوريا وفينيقيا شرقاً وقبرص وبعض جزر بحر إيجة ومدن آسيا الصغري شمالاً وقوريناية غرباً ومصادقة مروي جنوباً وقد دخل الملك بطليموس الثاني في صراع مرير مع الممالك الإغريقية الأخرى من أجل الاحتفاظ بالنفوذ المصري بتلك البقاع ،

وكان هناك أسلوب مميز للملك فيلادلفوس تجاه أعدائه وهو إثارة الفتن والقلق داخل أملاك الدولة المعادية بحيث تتخبط الدولة في نفسها وتكون له هو السيادة والأمن ولا يلجأ لأسلوب الحرب إلا في الحالات القصوي مع الاستعداد التام له علي الدوام ،

وفي سنة ٢٤٦ ق م توفي الملك بطليموس الثاني فيلادلفوس بعد فترة حكم استمرت ما يقرب من ٣٩ سنة ، أي من حوالي سنة ٢٨٥ ق م إلي سنة ٢٤٦ ق م ومما يذكر للملك بطليموس الثاني اهتمامه البالغ بزراعة الكروم والزيتون والأزهار وتربية النحل ، وقد شيد عدداً كبيراً من المعابد المصرية اختص إيزيس باثنتين منها ، ذلك أنه بدأ بناء معبدها الكبير في جزيرة فيله ، وتم في عهده اكتمال بناء فنانة الإسكندرية التي أمر والده بطليموس الأول بتشييدها نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر من مينا إلي مبارك إعداد حمدي عثمان - المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري -الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية- صفحة ١١٤-١١٥

٨١. معركة رفح في عصر البطالمة تلهب الحماس وتبعث الروح مرة أخرى في

الشعب المصري



حرص حكام مصر في بداية عصر البطالمة علي عدم تجنيد المصريين في جيش دولتهم فكان اعتمادهم علي المقدونيين والإغريق (اليونانيين) فقط في الحروب ، وكانوا يكتفون من المصريين بخدمة الجيش البطلمي من الناحية الإدارية فقط ونقل ما يحتاجه أثناء الحروب وكان مغزي ذلك واضحاً ، حيث أن ابتعاد المصريين عن القتال بشكل عام يفقدهم روح المقاومة ونجح بطليموس الأول وتلاه بطليموس الثاني في تكوين جيش بطلمي قوي بدون مصريين واستطاعا تحقيق جميع أهداف دولة البطالمة باستخدام هذا الجيش

وعندما جلس علي عرش مصر بطليموس الثالث لم يكن يعتمد علي القتال في تحقيق أهدافه حيث كان داهية سياسية وكان أعداءه في الخارج مشغولين بالمشاكل والثورات الداخلية في بلادهم والتي كانت تحدث بسببه هو شخصياً ، ويقول عنه د سيد الناصري في القسم الثاني من كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر صفحة ٧٥

(-- وبذلك نجح بطليموس الثالث عن طريق الذكاء والدبلوماسية أن يحفظ توازن القوي وهو جالس في قصره بالإسكندرية لكنه حرص في نفس الوقت علي دعم مركزه في الداخل أي عند المصريين ويعتبر بطليموس الثالث من أعظم البطالمة اعتدالاً واتزاناً --) وبعد وفاة الملك بطليموس الثالث تولى ابنه بطليموس الرابع فيلوباتور وقد حكم مصر ما يقرب من ١٦ سنة أي من حوالي سنة ٢٢١ قبل الميلاد إلي سنة ٢٠٥ قبل الميلاد ويعتبر عهده بداية النهاية لدولة البطالمة ، وكانت الممالك الإغريقية الأخرى تتطلع للنيل من الإمبراطورية المصرية البطلمية وخاصة مملكة السلوقيين بآسيا الصغرى ، ففي عهد بطليموس الرابع تقدمت جيوش الدولة السلوكية نحو الشام واستطاعت إخضاع سوريا وفلسطين وأصبحت تدق أبواب مصر نفسها ، و كان الجيش البطلمي في حالة يرثي لها عندما وصل بطليموس الرابع للحكم

وذلك لأن بطليموس الثالث أهمله بعض الشئ لاعتماده علي الدبلوماسية التي حقق بها ما يمكن تحقيقه بالجيش وبالتالي اضطر بطليموس الرابع أن يجند حوالي عشرين ألف مقاتل مصري مع الجنود الإغريق ليدافع عن ملكه ، وحدثت المعركة الشهيرة في التاريخ باسم معركة رفح سنة ٢١٧ ق م ، التي أبرزت معدن ابن وادي النيل بالانتصار الساحق علي القوات السلوكية ، الأمر الذي جعل الملك السلوكي يعترف بالسيادة المصرية علي سوريا ، وذلك نصر اشتاقت إليه نفوس المصريين منذ أيام الفراعنة ، فمنذ ذلك التاريخ حدثت الصحوة الكبرى للمصريين في عصر البطالمة

وبالتالي واجه البطالمة بعد ذلك ثورات عنيفة في البلاد لم تكن لتحدث قبل تجنيد المصريين

وكانه كما يقال في الأمثال الشعبية

قام بتحضير عفريت مارد ولم يتمكن من صرفه الصورة لبطليموس الرابع

٨٢. علاقة بطليموس الخامس بحجر رشيد

الذي بواسطته تم حل لغز اللغة المصرية القديمة



وهذا الحجر مكتوب عليه ثلاث خطوط وهي

الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية

وقد تم كتابة هذا الحجر في عهد الملك بطليموس الخامس بواسطة الكهنة تمجيداً لأعماله الدينية واهتمامه بالمعابد

وكان ذلك حوالي سنة ١٩٦ قبل الميلاد

وكان بطليموس الخامس كسائر البطالمة يتوود إلى الكهنة المصريين ويهتم بمعابدهم اهتمام خاص

وكان في مصر في ذلك الوقت تستخدم أكثر من لغة نتيجة لاندماج الحضارة الإغريقية والحضارة المصرية مما نتج عن

ذلك ظهور لغة مشتركة

وقد استطاع العالم الشهير شامبليون فك رموز هذا الحجر عندما اكتشف أن النص اليوناني ما هو إلا ترجمة للنص

الهيروغليفية أي أن المنقوش علي الحجر نص واحد مكتوب بثلاث لغات مختلفة وبالمقارنة استطاع أن يفك الرموز

وبناءً على ذلك تمكن العلماء من معرفة كل هذه المعلومات التاريخية والأحداث التي دونها الفراعنة بلغتهم التي تجمع

بين الحروف والرموز في وقت واحد وهذا الحجر موجود في بريطانيا حالياً

وفيما يلي بعض مقتطفات من المكتوب علي هذا الحجر :

ملك مصر العليا والسفلى ---- تجسيد حي لآمون ----- ابن رع --- بطليموس الخالد المحبوب من بتاح ---

(- - - - - حيث أن الملك يقوم بواجبه نحو الآلهة ويقدم المساعدات المالية للمعابد - - - - - وحيث أنه قدم الهبات

إلى محراب عجل أبيس ونظم إجراءات دفنه وحيث أنه أمر بترميم المعابد والمحاريب للآلهة في كافة أنحاء البلاد وحيث أن

الملك قام بجميع هذه الأعمال فإن المجمع قد عقد العزم علي أن يزيد من ألقاب الشرف الممنوحة له ولأسلافه وأن يقيم في

كل معبد مصري تمثالاً لبطليموس - ١)

من كتاب (معالم تاريخ وحضارة مصر - من أقدم العصور حتي الفتح العربي) - القسم الثاني - د سيد الناصري -

صفحة ٨٦ ، ٨٧ دار النهضة العربية (الطبعة الثانية) ١٩٨٠

٨٣. عندما أنقذت روما عرش البطالمة في مصر



تنافست عدة قوي وتصارعت علي الصدارة وفرض النفوذ والسيطرة في العالم بعد وفاة الإسكندر المقدوني من بينها دولة مقدونيا نفسها ودولة البطالمة في مصر ودولة السلوقيين في سوريا وكانت مصر في عهد كل من بطليموس الأول والثاني والثالث من أقوى الدول في المنطقة وأرقاها حضارة حيث كانت الإسكندرية العاصمة مركز إشعاع للحضارة الإغريقية وكان يتوافد عليها العلماء والأدباء والحكماء من كل أنحاء العالم وكان بها مكتبة الإسكندرية العريقة والشهيرة

واستمر البطالمة يحكمون مصر من سنة ٣٣٣ ق م تقريباً إلي سنة ٣٠ ق م أي حوالي ٣٠٣ سنة ١ ومع مرور الوقت ضعفت هذه الدول وصعد نجم روما كقوة عظمي جديدة ووحيدة في العالم في ذلك الوقت ففي حوالي عام ١٧١ قبل الميلاد خرجت روما منتصرة في الحرب التي نشبت بينها وبين مقدونيا فأطاحت بما كان لمقدونيا من سلطان وجاء وأصبحت روما صاحبة الجاه والسلطان في كل العالم كما أصبحت حكماً في كل الخصومات التي كانت تظهر بين الدول المتنافسة بوجه عام وفي ذلك الوقت كان يشترك في حكم مصر ملكان شقيقان من ملوك البطالمة وهما بطليموس السادس الملقب بفيلوميتور ، وأخاه بطليموس الملقب بيورجيتس الثاني

بينما كان هناك خطر يهدد مصر من دولة السلوقيين في سوريا فقد استطاع ملك سوريا أنتيوكوس الرابع احتلال مصر وحصار الإسكندرية واستفحل الأمر وفرض هيمنته علي مصر إلي أن لجأ البطالمة إلي روما فتدخلت لصالح البطالمة وأرسلت مبعوثيها لتحذير الملك أنتيوكوس الرابع وقد وصف المؤرخون مدي الكبرياء والتعالي الذي قام به مندوب روما وهو يسلم الملك رسالة مجلس الشيوخ الروماني ففي هذه اللحظة كان أنتيوكوس يحاول أن يتخلص من هذا الموقف ، غير أنه لما رأي في نهاية الأمر أنه كان مجبراً علي أن يجيب الرومان علي الرسالة ، قال بصوت متهدج :

سأفعل ما يرغب فيه مجلس الشيوخ

وكان ما يرغب فيه مجلس الشيوخ الروماني من أنتيوكوس هو أن ينسحب من مصر جميعها في الحال علي أن يكون خارج حدودها في توقيت محدد وطبقاً للترتيبات التي قررتها روما وهكذا أنقذ الرومان عرش البطالمة في مصر

^١ موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري) ص ٤٠

غير أن الرومان لم يتركوا البلاد المصرية وشأنها لتحكم نفسها بنفسها ولكنها كانت تتدخل في شئونها ، وتستغل الانقسام الموجود نتيجة الصراع بين الملكين الشقيقين فتشعل الموقف بينهما تارة وتقوم بدور المصالحة بينهما تارة أخرى ، وطبقاً لما يحقق مصالحها وعلي حد تعبير سليم حسن :

وهكذا نرى أن السياسة الرومانية تحت ستار الصلح والتراضي بين الأخوين قد نقضت العمل العظيم الذي جاهد في إتمامه البطالمة الأول ، فقد ضربت بمعولها البناء الذي كانوا قد أقاموه ، وكذلك نجد أنها إدخرت لنفسها الحق في أن تثير عند الحاجة طمع أحد الأخوين عندما يشعر أنه قد نال نصيباً أقل من ملك والده

والجدير بالذكر أن سيطرة روما علي مصر استمرت حتي نهاية عصر البطالمة عندما قررت روما ضم مصر كولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية التي اتسعت حدودها وابتلعت كل دول المنطقة فكانت مصر آخر دولة سقطت في يد الرومان

ودخلها الإمبراطور أوكتافيوس أغسطس منتصراً سنة ٣٠ قبل الميلاد

نقلًا عن كتاب (موسوعة سليم حسن - مصر القديمة) الجزء السادس عشر (من عهد بطليموس الخامس إلي نهاية

عهد بطليموس السابع) مكتبة الأسرة ٢٠٠١ بتصرف من صفحة ٢٤١ - ٢٤٤

الصورة لرأس الملك بطليموس السادس متوجاً بالتاج المصري

٨٤. بطليموس الثاني عشر (الزمار) يتنزل لروما :



حكم مصر في بداية عصر البطالمة بطليموس الأول والثاني والثالث وغيرهم وكانت مصر في عهدهم من أقوى الدول وأعظم الحضارات وكانت الإسكندرية في ذلك الوقت بمكتبتها الشهيرة وعلماءها مركزاً للإشعاع الحضاري ثم بدأ رويداً رويداً ينحدر عصر البطالمة نحو الهبوط وبدأ يعتلي عرش مصر بطالمة ضعفاء إلي أن وصل الحال أن أصبح بطليموس الثاني عشر علي عرش مصر وكان أهل الإسكندرية يطلقون عليه لقب (الزمار) لأنه كان يحب الرقص والغناء وشرب الخمر ويحب العزف علي المزمار ، وأصبح هذا البطليموس وصمة عار في جبين الأسرة البطلمية ، وكان الزمار يتنزل لروما ويرسل لها الرشاوى والهدايا ويقول عنه الدكتور سيد الناصري (- - -) ولكي يحظى باعتراف الرومان راح الزمار يتنزل ويريق ماء وجهه ويدفع الهدايا والرشاوى ويشترى ذمم القادة الرومان من أمثال بومبي ويوليوس قيصر وغيرهم وكان زعماء الحزب الجمهوري الأرستقراطي في روما يفضلون أن يظل الزمار في هذا الوضع المهين ويدفع لهم الأموال التي لا تقل عن دخل مصر إذا ما ضموها ١ - -) ٢ فكان حكم بطليموس الثاني عشر لمصر أفضل لقادة روما من أن يتم احتلالها وتعيين والي روماني عليها ، وظل هذا الحال إلي أن ثار علي الزمار شعب الإسكندرية فهرب سراً إلي روما وأوصي في وصيته أن يتولي عرش مصر من بعده أكبر بناته وهي كليوباترا السابعة التي سيطرت علي قادة روما ولكن بطريقة أخرى مستغلة جمالها

من كتاب (معالم تاريخ وحضارة مصر - من أقدم العصور حتي الفتح العربي) - القسم الثاني - د سيد الناصري - صفحة ١٠٥ دار النهضة العربية (الطبعة الثانية) ١٩٨٠
يبدو في الصورة نحت بارز لبطليموس الثاني عشر بمعبداً

^١ ربما فكر قادة روما أنه في حالة احتلال مصر سيقوم والي الروماني المعين عليها بإرسال أموال وقمح مصر إلي روما بصفة رسمية وطبقاً لحسابات خاصة بولايات الإمبراطورية ولكنه بالطبع لن يضطر إلي إرسال هدايا ورشاوى شخصية للقادة في بيوتهم أما الزمار فكان يرسل ما يفيد روما بشكل عام ويفيد القادة بشكل خاص وبالتالي هذا الوضع قد يكون أفضل من الاحتلال ولهذا كانت مصر هي آخر ما سقط من تركة الإسكندر في يد الرومان
^٢ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص ١٠٥

٨٥. الملكة كليوباترا السابعة وقصة نهاية دولة البطالمة في مصر



كانت وفاة الملك الإسكندر الأكبر مبكرة مع بداية شبابه ، فاتفق قادة جيوش الإسكندر علي تقسيم البلاد فيما بينهم ، فكانت مصر من نصيب القائد بطليموس بن لاجوس (بطليموس الأول) الذي يعتبر مؤسس دولة البطالمة في مصر منذ سنة ٣٢٣ قبل الميلاد والتي استمرت حتي سنة ٣٠ قبل الميلاد ، أي حوالي ثلاثة قرون وكانت الاسكندرية هي العاصمة التي أصبحت منارة للحضارة الإغريقية واستمرت دولة البطالمة تنعم القوة والازدهار لفترة طويلة إلي أن دب فيها الضعف والاضمحلال وتولي الحكم بطالمة ضعفاء في حين بزغ نجم روما كقوة لا يستهان بها استطاعت أن تسيطر علي معظم بلدان العالم القديم ، وكانت مصر من آخر الدول سقوطا في أيدي الرومان ويرجع السبب إلي أن البطالمة كانوا علي صلة طيبة بالرومان وكانوا يساعدونهم في حروبهم بتزويدهم بخيرات وقمح مصر حتي أن الرومان في فترة من الفترات وجدوا أن البطالمة في أواخر أيامهم كانوا يحكمون مصر كما لو كانوا ولاية تابعة لروما بحيث كانت تأتي الخيرات من مصر إلي روما دون الحاجة إلي احتلال فعلي وكان البطالمة في ذلك الوقت يفعلون ذلك ليأمنوا هجوم الرومان عليهم ، كما زاد نفوذ روما في مصر وتدخلت في شئونها الداخلية في عهد البطالمة الضعفاء في نهاية العصر البطلمي الذي كان يحتضر بل مات فعلاً وينتظر شهادة الوفاة الرسمية ،

وعندما تولى بطليموس الثاني عشر حكم مصر وتزوج أخته كليوباترا السادسة كان أهل الإسكندرية يطلقون عليه لقب (الزمار) لأنه كان يحب الرقص والغناء والشرب ويحب العزف علي المزمار ، وعندما ثار عليه شعب الإسكندرية هرب سراً إلي روما وأوصي في وصيته أن يتولي عرش مصر من بعده أكبر بناته وهي كليوباترا السابعة وكان يتحتم عليها أن تتزوج من أخيها الصغير بطليموس الثالث عشر طبقاً لوصية أبوها ولكنها حاولت التخلص منه والانفراد بالسلطة وحدها ،

وهنا تدخلت روما أيضا في هذا الصراع حيث حاول يوليوس قيصر التوفيق وفض النزاع بين كليوباترا وأخيها وطلب حضورهما للقصر الملكي في الإسكندرية وهذا يعتبر تدخل سافر وإهانة عظمي فكان موكب يوليوس قيصر في شوارع الإسكندرية يثير كراهية الجماهير ،

ثم استطاع يوليوس قيصر أن يدعم موقف كليوباترا ويجعلها ملكة علي البلاد بعد مقتل أخيها أثناء الصراع ، وظل قيصر في مصر مع كليوباترا لفترة ثم عاد إلي روما بعد أن ترك لكليوباترا قوة رومانية لحمايتها ، ثم أنجبت كليوباترا منه ولدا ولم تعترف روما بهذا الزواج

ثم قامت كليوباترا بزيارة روما ومعها ابنها من يوليوس قيصر ليتم الاعتراف به دون جدوي حاولت كليوباترا أن تعيد أمجاد البطالمة الأوائل وتنهض بمصر مستغلة جمالها وسيطرتها علي قادة روما ، يوليوس قيصر ثم أنطونيوس بعد مقتل يوليوس قيصر

ولكن القائد الروماني الشهير أوكتافيوس لم يرضي بهذا الوضع لأن أوكتافيوس وجد أن كليوباترا لها تأثير عجيب علي القادة الرومان وتقريباً تحكم نصف الإمبراطورية الرومانية مستغلة حب أنطونيوس لها ، فكانت معركة بحرية كبيرة (معركة أوكتيوم) انتصر فيها أوكتافيوس ودخل مصر منتصراً وضمها رسمياً إلي الإمبراطورية الرومانية وكان ذلك في شهر أغسطس عام ٣٠ ق م ،

أما أنطونيوس فقد هرب إلي مصر عندما تأكد من هزيمة أسطوله أمام أوكتافيوس وعندما وصل أشاعت كليوباترا أنها انتحرت ولم يتحمل أنطونيوس خبر انتحار كليوباترا فانتحر علي الفور وجاء الإمبراطور الروماني أوكتافيوس أغسطس إلي مصر وأرسل قوة للبحث عن كليوباترا لينتقم منها بعد كل ما فعلته في قادة الرومان يوليوس قيصر ثم ماركوس أنطونيوس وعندما شعرت كليوباترا أنها ستهان وتعاقب عقاب لا يليق بها قامت بالانتحار عن طريق لدغة ثعبان لتهرب من المصير السيئ الذي ينتظرها وتم قتل ابن يوليوس قيصر الذي أنجبه من كليوباترا وبدخول أوكتافيوس تم إعلان وفاة عصر البطالمة للأبد بعد أن استمر أكثر من ثلاثة قرون تزوجت خلالها الحضارتين المصرية والإغريقية

نقلا عن كتاب -معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري)

٨٦. عندما كانت تتوقف الحروب بسبب الألعاب الأولمبية في العصر الهلنستي

كانت فتوحات الاسكندر لها عواقب عديدة بالنسبة للدول اليونانية. فقد وسعت آفاق كبيرة لليونانيين، وأدت إلى هجرة مطردة، وخاصة للشباب والطموحين، للإمبراطوريات اليونانية الجديدة في شرق البلاد فهاجر كثير من اليونانيين إلى الإسكندرية وأنطاكية والعديد من المدن الهلنستية الجديدة التي تأسست في أعقاب الاسكندر الأكبر. فبعد وفاته قُسمت إمبراطوريته، بعد فترة من الصراع، بين جنرالاته، مما أدى إلى المملكة البطلمية استنادا إلى مصر، والإمبراطورية السلوقية استنادا إلى بلاد الشام، بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس، وأسرة أنتيجونيد التي مقرها في مقدونيا .

والعصر الهلنستي فترة في التاريخ القديم كانت فيها الثقافة اليونانية تزخر بالكثير من مظاهر الحضارة في ذلك الحين. وقد بدأت بعد وفاة الإسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق.م، واستمرت حوالي ٢٠٠ سنة في اليونان وحوالي ٣٠٠ سنة في الشرق الأوسط. ويستخدم اصطلاح هيلنستية لتمييز هذه الفترة عن الفترة الهلينية وهي فترة الإغريقين القدماء التي اعتبرت أوج عبقرية وعظمة الفكر والعلوم والفلسفة الإغريقية في ظل الامبراطورية الأثينية.

والجدير بالذكر أن الفترات الوحيدة تقريباً التي كانت تتوقف فيها الحروب بين الممالك الهلنستية هي الفترات التي كانت تقام فيها دورات الألعاب الأولمبية فتتحول الصراعات الحربية إلى منافسات رياضية ثم تعود الحروب مرة أخرى بعد انتهاءها

وكانت قبل ذلك قد بدأت الدورات الاولمبية القديمة في عام ٧٧٦ قبل الميلاد. وكانت تقام كل أربع سنوات على شرف زيوس كبير آلهة اليونان وزوجته هيرا وتدوم لمدة سبعة أيام. ولم تكن دورات الألعاب الأولمبية القديمة مجرد رياضة فقط بل كان لها معان دينية ووطنية.

ولم تشهد دورات الالعاب الاولمبية القديمة أي توقفات حتى أثناء الحرب الفارسية حيث أقيمت الدورة عام ٤٨٠ قبل الميلاد.

وفي عام ١٤٦ قبل الميلاد سيطر الرومان على اليونان وفرضوا سيطرتهم بالتالي على الدورات الاولمبية ورغم ذلك ظلت الدورات الاولمبية تقام كل أربع سنوات حتى عام ٣٩٣ الميلادي قبل أن يلغها الامبراطور البيزنطي المسيحي تيودوروس الاول ليقضي علي مظاهر الوثنية وكان يعتبر أن هذه الدورات من هذه المظاهر لتتوقف الدورات الاولمبية بعد نشاط دام ١١٧٠ عاماً.

وبعد ١٥ قرناً كاملة غابت فيها الشمس عن دورات الالعاب الاولمبية منذ قرار الامبراطور البيزنطي تيودوروس الأول بإلغاء دورات الالعاب الاولمبية القديمة عادت الشمس لتشرق من جديد على الدورات الاولمبية من خلال الدورات الحديثة التي انطلقت في أواخر القرن التاسع عشر ، وكان النبيل الفرنسي ببيير دي كويرتان هو صاحب فكرة إحياء الدورات الاولمبية الحديثة وبالفعل بعث هذا المهرجان الرياضي من مقره الأساسي في اليونان عندما أقيمت أولى الدورات الاولمبية الحديثة في العاصمة اليونانية أثينا عام ١٨٩٦.

وأقيمت الدورة الأولى في أثينا باليونان خلال الفترة من السادس إلى ١٥ نيسان/أبريل ١٨٩٦ وافتتحها الملك اليوناني جورج الأول والنبيل الفرنسي ببيير دي كويرتان صاحب فكرة إحياء الدورات الاولمبية الحديثة وذلك على الاستاد الاولمبي بالعاصمة اليونانية أثينا والذي غطي بالرخام والمرمر. وكانت الدورة مهددة بعدم إقامتها أو بنقلها إلى العاصمة المجرية بودابست لعدم وجود استاد أولمبي في أثينا، بالإضافة لعدم وجود الامكانيات المناسبة لدى الحكومة اليونانية لإقامة هذا الاستاد. ولكن الاستاد بني في غضون ١٨ شهراً فقط بعدما تبرع الثري اليوناني جورج أفيروف أحد أبناء مدينة الإسكندرية المصرية بمبلغ ١٠٠ ألف دولار لتشييد الاستاد الذي اتسع لأكثر من ٧٠ ألف مشجع

٨٧. سر الإمبراطورية - إجراءات أغسطس في مصر :

في نهاية عصر البطالمة وعندما تم احتلال مصر في عهد الإمبراطور أغسطس سنة ٣٠ ق م شعر بأهمية مصر كولاية غير عادية في الإمبراطورية الرومانية فاتخذ بها عدة إجراءات خاصة بها فقط ،
ومن أهم الإجراءات أنه قام بتوزيع عدد ضخم جداً من القوات الرومانية في مواقع حساسة ومهمة في أنحاء مصر وبلغت هذه القوة ثلاثة فرق رومانية كاملة وعدداً من الكتائب المساعدة وهذا يعادل حوالي ٢٢٨٠٠ مقاتل وهو عدد يفوق بكثير متطلبات الموقف ١ وذلك يعكس حقيقة قلق أغسطس البالغ ،
كما قسم مصر إلى ثلاثة مناطق إدارية وأصدر قرار غريب جداً يمنع بمقتضاه أي شخص من عظماء روما أن يزور مصر إلا بإذنه شخصياً سواء كان من مجلس السناتو أو من كبار القادة الطموحين لأنه كان يخشى أن يتولي حكم مصر والي ذو طموح يمكنه الاستقلال بها باستغلال إمكانياتها وهذا يدل علي حكمته البالغة وخبرته الواسعة في أمور القتال والسياسة أيضاً ،
كما قام بإجراء العديد من الإصلاحات الزراعية ومشاريع الري وتطهير القنوات وشق الترع وإصلاح المرافق وأعطى تعليماته للوالي أن يستكمل كل هذه الأعمال بعد مغادرته إلي روما وكان اهتمام أغسطس بالزراعة وخاصة زراعة القمح في مصر لأنها ستصبح المصدر الرئيسي للقمح في الإمبراطورية حيث أصبحت مصر تطعم روما بعد ذلك كما جعل لمصر عملة خاصة بها وأطلق علي هذه الإجراءات (سر الإمبراطورية)
من كتاب (معالم تاريخ وحضارة مصر - من أقدم العصور حتي الفتح العربي) - القسم الثاني - د سيد الناصري -
صفحة ١٢٣

٨٨. الرومان وبداية نهب مصر

(- - -) كان حكم الرومان لمصر يتشابه مع حكم الفراعنة والبطالمة وهو استغلال هذا البلد واعتباره ضيعة خاصة ، سواء للفرعون أو للبطليموس أو للإمبراطور الروماني ولكن هناك فرق كبير بين حكم الفراعنة والبطالمة وبين حكم الرومان ففي الحالتين السابقتين كان ثراء مصر يبغي داخلها بالرغم من أنه يذهب إلى خزانة الفرعون أو البطليموس أما في العصر الروماني فإن خيراتها كانت تنقل إلى الخارج ، إلى روما ليتمتع بها الشعب الروماني وما يذهب لا يعود ، أي أنه مع الحكم الروماني بدأ نهب مصر الفعلي ، وكأن روما كانت الثري الذي يؤجر ضيعته وهو مقيم في أوروبا حيث ينفق ريعها هناك - - -) من كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص ١٤٣

٨٩. الإمبراطور أغسطس يعزل أول والي روماني علي مصر فينتحر

دخل أوكتافىوس أغسطس مصر بقواته الرومانية وذلك في ٢٩ أغسطس سنة ٣٠ قبل الميلاد ، وأعلن ضم مصر إلي إمبراطورية الشعب الروماني ، ويموت أنطونيوس وكليوباترا أصبح أغسطس الوريث الشرعي لملك مصر من بعد الفراعنة والبطالمة

ولقد جعل أغسطس مصر إحدى الممتلكات الشخصية والخاصة بالإمبراطور والتي يرتبط حكمها بشخصه مباشرة ، حتي أنه أصدر قراراً بمقتضاه حرم علي طبقة السناتو واللامعين من طبقة الفرسان دخول مصر إلا بمقتضي إذن خاص من الإمبراطور شخصياً ، ويسري هذا القرار حتي علي آل البيت الإمبراطوري الحاكم وقد رأي أغسطس عدم إدماج مصر إدماجاً كاملاً في الإمبراطورية ، بل أصر علي عزلها وعدم المساس بنظمها الإدارية والدينية التي كانت موجودة بها قبل دخول الرومان وعين علي البلاد والياً من طبقة الفرسان يساعده ثلاثة من كبار الموظفين ، هم المشرف علي العدالة والمسئول عن الحسابات الخاصة وأمين الخزانة

وكان أغسطس بالنسبة للمصريين فرعوناً وابن الإله آمون رع وله كل مظاهر القداسة والتأليه من المصريين ، فحمل الألقاب المقدسة التقليدية حسب العقيدة والفكر المصريين

أما بالنسبة للإغريق (شعب الإسكندرية في ذلك الوقت) فقد كان الوريث لسلطان البطليموس ، وقد صادر قسماً كبيراً من أراضي المعابد ونقل إدارتها إلي الدولة مقابل صرف رواتب ومنح للكهنة ومما أثار حنق السكندريين (الإغريق) علي الحكم الروماني المحاباة التي أظهرها أغسطس لليهود الموجودين بمدينة الإسكندرية (التي كانت بمثابة مدينة إغريقية كاملة علي أرض مصر) إذ وافق علي استمرار كل الإمتيازات التي كان اليهود يتمتعون بها إبان عصر البطالمة

وقد فعل أغسطس ذلك لإيجاد توازن بين السكندريين واليهود ومكافأة اليهود علي ولائهم للرومان وكذلك لأن الرومان كانوا مطمئنين من ناحية اليهود لأنهم أقلية ، بالإضافة إلي أنهم سيكونون عملاء للرومان في المستقبل ، وكما ترك أغسطس حامية عسكرية بالإسكندرية ، وترك أخرى بضاحية بابلون التي كانت امتداداً لمنف عبر النيل شرقاً ، كما وضع أوكتافىوس أغسطس فرقة رومانية ثالثة عند مدينة طيبة (الأقصر) ، كذلك وزع عدداً من الكتائب المساعدة لترابط عند المناطق الاستراتيجية ، وبلغ حجم القوات الرومانية التي تركها في مصر حوالي ٢٢٨٠٠ جندي وكان الوالي الروماني جايوس كورنيليوس جالوس هو أول والي روماني يعينه الإمبراطور أغسطس علي مصر ، وكان قبل ذلك يقوم بدور الاتصال والوساطة بين الملكة كليوباترا السابعة البطلمية والقائد أوكتافىوس أغسطس الروماني وهو أحد قواد أوكتافىوس ،

وقد أسدي هذا القائد خدمة جليلة له عندما استولي علي منطقة مرسى مطروح ورد الهجوم البري والبحري الذي قام به ماركوس انطونيوس علي المدينة لاسترداد فرقته العسكرية التي تخلت عنه ،

وقد حكم كورنيليوس مصر من سنة ٣٠ ق م إلي سنة ٢٧ ق م أي ما يقرب من ٣ سنوات ،

وهو أحد رجال الفرسان وكان صديقاً شخصياً لأغسطس

وبالإضافة لصفته العسكرية كان أديباً وشاعراً معروفاً لدي الأوساط الأدبية ،

وأهم ما يذكر في عهده قيام أول حركة تمرد ضد الحكم الروماني بالقرب من خليج السويس ، وقد تمكن جالوس من القضاء علي هذا التمرد ،

ولم يكد يمضي عام حتي هب بركان الثورة في طيبة سنة ٢٩ ق م بمجرد وصول جباة الضرائب الرومان ،

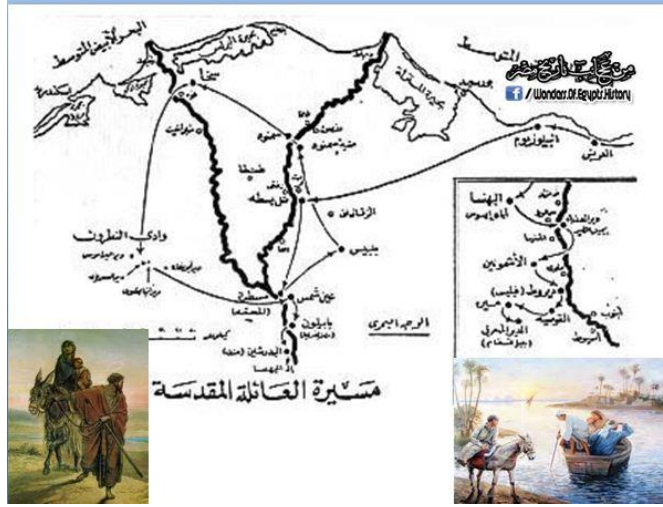
وبلغ من شدة هذه الثورة أن قام والي الروماني بنفسه بقيادة القوات الرومانية لقمع هذه الثورة ، وأدرك الثوار أنهم أمام والي قاسي جاد لا يسمح بأي تساهل ، واشتبك الجيش الروماني مع الثوار المصريين في معركتين سحق فيهما خمس مدن

وبعد الانتهاء من هذه المهمة قرر والي كورنيليوس جالوس أن يسير جنوباً لتأمين حدود الإمبراطورية في أفريقيا وقد سمح والي كورنيليوس بأن تقام التماثيل من أجله وأن تنقش أخبار انتصاراته علي واجهة المباني العامة ، الأمر الذي أزعج الإمبراطور أوكتافيوس أغسطس فعزله ونفاه ، فاشتد الحزن بجالوس حتي انتحر ذلك والي الذي كان أول من حمل لقب والي الإسكندرية ومصر

نقلًا عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر - من مينا إلي مبارك) إعداد حمدي عثمان - المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري
- الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية ٢٠١٢ - مقتطفات مختصرة من صفحة ١٣٨ إلي صفحة ١٤١

^١ نقلًا عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر - من مينا إلي مبارك) إعداد حمدي عثمان - المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية ٢٠١٢ - مقتطفات مختصرة من صفحة ١٣٨ إلي صفحة ١٤١

٩٠. السيدة مريم العذراء تلجأ إلى مصر ومعها السيد المسيح



ولد السيد المسيح عيسي بن مريم في عهد الإمبراطور الروماني أوكتافوس أغسطس وكانت مصر ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية

وقد لجأت السيدة العذراء إلى مصر بولدها وكان يحكم مصر أثناء هذه الرحلة والي روماني يسمى (جايوس تورانيوس) وكان قد تولي حكم مصر سنة ٥ قبل الميلاد ، وفي عهده ولد السيد المسيح في بيت لحم بفلسطين ، حيث كانت فلسطين أيضاً تابعة لنفوذ الإمبراطور الروماني أغسطس وكان يحكم فلسطين الملك اليهودي (هيرودس) الكبير

ولقد هربت السيد مريم العذراء بولدها علي ما يروي إنجيل متي إلى مصر ، وإن هناك شبه إجماع علي أن كنيسة أبي سرجة بمصر القديمة شيدت في نفس المكان الذي أقامت به العائلة المقدسة لما هربت إلى مصر من وجه هيرودس

وقد جاءت العائلة المقدسة إلى مصر عن طريق صحراء سيناء ودخلوها من جهة الفرما (قرب بورسعيد) ، ومنها إلى مدينة بسطة (تل بسطة بجوار الزقازيق) ، واتجهوا غرباً فعبروا فرع النيل الشرقي عند سمندوط وظلوا سائرين غرباً إلى فرعه الغربي فعبروه ومروا بوادي النطرون ، ومن هناك ساروا إلى الوجه القبلي فنزلوا بمدينة الاشمونين ، ثم مضوا إلى القوصية إلى قرية ميرة وهبطوا حيث يوجد دير المحرق ، وبعد أن اقاموا به بضعة أشهر علي الأكثر انددروا شمالاً حتي جاءوا بابلين (مصر القديمة) وكان بها حي لليهود ونزلوا في الموقع الذي به كنيسة القديس سرجيوس المعروفة بكنيسة سرجة ، وغادروها إلى عين شمس ، وكانت مدينة عامرة باليهود فأقاموا يستظلون بشجرة يقال إن موضعها حيث توجد الآن الشجرة المعروفة بشجرة العذراء بالمطرية ، ومن هناك انطلقوا إلى فلسطين عن طريق محافظة الشرقية

نقلًا عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر - من مينا إلى مبارك) إعداد حمدي عثمان - المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري

- الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية ٢٠١٢ - صفحة ١٤٤

{وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ} (٥٠) سورة المؤمنون

^١ نقلًا عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر - من مينا إلى مبارك) إعداد حمدي عثمان - المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري - الهيئة المصرية العامة

٩١. مؤامرة اليهود علي الوالي الروماني بالإسكندرية في عهد الإمبراطور كاليجولا



كانت مدينة الإسكندرية منذ نشأتها وطوال عصر البطالمة والرومان مدينة ذات طابع إغريقي بالكامل فكان يسكنها الإغريق وأقلية من اليهود فعندما يذكر أحد المؤرخين شعب الإسكندرية في تلك الفترة فهو لا يقصد المصريين بل يقصد الإغريق واليهود فقط وكان كل من الشعبين الإغريقي واليهودي علي خلاف دائم ونزاع حول الامتيازات المخصصة لكل منهم فكان الإغريق أصحاب ديانة وثنية أما اليهود فكانوا أصحاب ديانة سماوية

وقد تجد بعض المؤرخين عندما يكتبون عن شعب الإسكندرية يطلقون عليهم الإغريق المصريين أو المصريين الإغريق ويقصدون بذلك شعب الإسكندرية ، ومنذ أن تم احتلال مصر بواسطة الرومان كان يلقب الوالي الروماني بوالي مصر والإسكندرية علي أساس أن الإسكندرية تمثل دولة في حد ذاتها داخل الدولة المصرية

أما عن قصة مؤامرة اليهود علي أحد الولاة الرومان بالإسكندرية وكان اسمه أولوس أفيليوس فلاكوس فقد وردت في كتاب (هؤلاء حكموا مصر) (إعداد حمدي عثمان) في صفحة ١٤٦ وصفحة ١٤٧ وفيما يلي بعض ماورد عن هذا الموضوع بالكتاب :

تولي أفيليوس فلاكوس حكم مصر في سنة ٣٤ م ، وقد اشتهر بالحزم في إدارة شئون مصر ، وقد عاصر حكم فلاكوس أواخر عهد الإمبراطور الروماني تيبيريوس وأوائل عهد الإمبراطور كاليجولا

وأهم ما يذكر في عصر فلاكوس الحرب الأهلية بين الإغريق المصريين وبين طائفة اليهود ولذلك أصدر منشوراً يحرم فيه حمل الأسلحة إلا بإذن منه ، ويحدد عقوبة مخالفة ذلك بالإعدام فأمر بتفتيش منازل اليهود بحثاً عن الأسلحة ، وقد اندلعت الشرارة الأولى في الحرب الأهلية بين المصريين الإغريق وبين الطائفة اليهودية سنة ٣٨ م ، ومن الواضح أن الوالي الروماني وقع ضحية لحرب ذكية بين فريقين متعادلين لأنه لم يكن منحازاً لأهل الإسكندرية ، بل كان رومانياً مخلصاً يهمله إرضاء سيده الجالس علي العرش قبل كل شيء

فاستطاع اليهود عن طريق ممثلهم في روما إيغار صدر الإمبراطور كاليجولا علي الوالي فلاكوس فأرسل الإمبراطور قوة عسكرية تحت إمرة قائد يدعي (باسوس) وحرصت القوة علي أن تنزل بالميناء ليلاً ثم تسللت إلي داخل المدينة واتجهت أولاً إلي بيت قائد الجيش الروماني وأبلغته أمر القبض علي الوالي ، وبعدئذ بحثت عن الوالي فعرفت أنه مدعو في وليمة عند أحد أصدقائه ، فاقتحمت المكان وألقت القبض عليه ونقلته إلي روما في أكتوبر سنة ٣٨ م ، حيث قدم للمحاكمة التي قررت إدانته ، وصودرت أملاكه وأمواله ونفي إلي جزيرة أندروس الصخرية الموجودة في بحر إيجة وبقي فيها حتي إعدامه

الصورة لتمثال الإمبراطور الروماني الشهير كاليجولا

٩٢. عندما أعاد الإمبراطور الروماني القمح للمصريين



رغم أن الإمبراطور تراجانوس لم يزر مصر ، إلا أن اهتمامه بها كان بالغاً ، فقد تولي الإمبراطور تراجانوس عرش الإمبراطورية الرومانية من سنة ٩٨ م إلى سنة ١١٧ م ،

وقد كان الإمبراطور تراجانوس حالة خاصة جداً في تاريخ الرومان فكان ينظر في المظالم والشكاوي بنفسه

وكثيراً ما أبدل مركز روما التقليدي من مصر بأن أطعم الثانية علي حساب الأولى ،

فقد أراد في إحدى السنوات أن يخفف من وطأة المجاعة التي كانت تجتاح مصر بسبب انخفاض النيل ،

فأعاد إلي مصر أسطولاً محملاً بالقمح

وقد شجع تراجانوس التجارة المصرية مع الشرق وذلك بشق قناة تصل بين البحر الأحمر والبحر المتوسط عن طريق نهر النيل وهذا بالقرب من رأس الدلتا أطلق عليها قناة تراجان ، فعاد هذا العمل علي مصر بالخير فزادت تجارتها إلي حد كبير وأصبحت الهند هدف التاجر المصري المجد ،

ورغم أن الرحلة كانت تستغرق ١٢ شهراً فإن الأرباح الناتجة عنها كانت تبرر متاعبها ومشاغلتها

وقد قام تراجانوس إبان حكمه بعدة تغييرات عسكرية وأعمال عسكرية ، منها بناء قلعة بابليون علي ضفة النيل الشرقية ، كذلك أنشأ فرقة عسكرية رومانية جديدة وجعلها تعسكر في حصن بابليون

(كما فعل قبل الإمبراطور أغسطس وأنشأ ضاحية النصر بالإسكندرية لتتمركز فيها أحد الفرق الرومانية وهي المنطقة المعروفة حالياً باسم فيكتوريا بالإسكندرية)

وقد تولي حكم مصر في عهد الإمبراطور تراجانوس الوالي جايوس فيبيوس ماكسيموس الذي عزله الإمبراطور بسبب اتهامه من شعب الإسكندرية بعدة اتهامات منها الابتزاز والرشوة واستغلال النفوذ

وكذلك تولي حكم مصر في عهد تراجانوس الوالي روتيليوس لوبوس

وكذلك تولي حكم مصر في عهده الوالي ماركوس توريو

نقلاً عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر) (إعداد حمدي عثمان)

وتبدو في الصورة رأس تمثال للإمبراطور الروماني تراجانوس

٩٣. الثورة العارمة ضد الرومان :

تم احتلال مصر سنة ٣٠ قبل الميلاد بواسطة الرومان في عهد الإمبراطور أغسطس ، وقد اعتنى بمصر واتخذ بها مجموعة من الإجراءات الخاصة كي تصبح المصدر الرئيسي للقمح وكان كمن يعتنى بالبقرة قبل أن يحلبها ومع مرور الوقت وتعاقب الأباطرة الرومان في حكم الإمبراطورية قل الاهتمام بالعاية بمصر واستمر النهب فقط حتي أصبحت مصر تعاني من الإهمال ،

وفي عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس الذي تولى الحكم سنة ١٦١ ميلادياً كانت ثورة عارمة قام بها المصريون الوطنيون وكان قائد الثورة كاهن مصري اسمه (ايسودوروس)

ولم يتمكن الرومان من قمع الثورة بالقوة ويقول عنها د سيد الناصري

(-- وكان مبعث هذه الثورة هو تفشي السخط بين الفلاحين المصريين بسبب بهائظة الضرائب وتعددها وبسبب أعمال السخرة المهينة لدرجة أنهم لم يعودوا يتحملون عملية الاستنزاف الاقتصادي والنهب المالي لمواردهم والذي وصل إلي حد تسخير طاقاتهم البشرية ذاتها --) ٢

وقد أصبحت الإسكندرية العاصمة نفسها في ذلك الوقت مهددة بالسقوط في يد الثوار مما أدى إلي استخدام الرومان أساليب أخرى للسيطرة علي الثورة لأن القوة لم تغلج معها

وكان يوجد في ذلك الوقت قائد روماني يتسم بالمكر والدهاء اسمه (افيدىوس كاسيوس) وقام بإحداث وقعة بين صفوف الثوار أنفسهم فتحولوا من قتال الرومان إلي قتال بعضهم البعض وهكذا انتهت هذه الثورة بالحيلة وليس بالقوة ، وظل الرومان يستنزفون خيرات مصر بأسلوب مبالغ فيه جداً مما أدى إلي دخول مصر في أزمت اقتصادية حادة فتم اعتماد روما علي قمح شمال أفريقيا في المقام الأول بدلاً من مصر لأن إنتاج القمح المصري لم يعد يسد حاجة روما ٣

نقلاً عن كتاب (معالم تاريخ وحضارة مصر) (القسم الثاني) (د سيد الناصري) صفحة ٢١٠ و صفحة ٢١٨

١ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) ص ٤٧

٢ معالم تاريخ وحضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) ص ٢١٠

٣ معالم تاريخ وحضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) ص ٢١٨

٩٤. الملكة زنوبيا تسيطر على مصر وتتحدى الإمبراطورية الرومانية



في عام ٢٧٠ م استطاعت القوات العربية التدمرية غزو مصر وهزيمة القوات الرومانية المستقرة بها حيث قامت قوات الملكة زنوبيا بهزيمة قوات الوالي تيناجينو بروبوس ، الذي أثر الانتحار علي العار ، ونودي بالأمير وهب اللات (وابالاثوس) ابن الملكة زنوبيا (الزباء) والذي كان صبياً في العاشرة من عمره إمبراطوراً حيث رسمت صورته علي عملة مدينة الإسكندرية - عاصمة مصر في ذلك الوقت - جنباً إلي جنب مع صورة الإمبراطور الروماني كلاوديوس جوثيكوس مع بقاء الإدارة الرومانية ، أي كان الحكم امتزاجاً بين العربي والروماني ، ---

وعندما تولي الإمبراطور الروماني أوريليانوس عرش الإمبراطورية الرومانية ، اعترف - مؤقتاً - بوهب اللات شريكاً له في حكم ولايات الشرق وظهرت عملة مدينة الإسكندرية تحمل صورة الإمبراطور أوريليانوس علي الوجه وصورة وهب اللات علي الوجه الآخر ، -- وبعد ذلك بفترة سكنت عملة في الإسكندرية سنة ٢٧١ م تحمل صورة وهب اللات علي الوجه وتلقبه باسم (الإمبراطور المؤله) وهو اللقب التقليدي لأباطرة الرومان ، بينما ظهرت صورة أمه علي الوجه الآخر ، وفي ربيع سنة ٢٧١ م تأزمت العلاقات بين وهب اللات العربي والإمبراطور أوريليانوس الروماني ، فأعلن وهب اللات نفسه إمبراطوراً لا علي الشرق فحسب بل علي الإمبراطورية الرومانية كلها ، لأنه كان يطمع في تأييد قوات الشرق له ، ورداً علي ذلك قام الإمبراطور الروماني بإرسال قواته للقضاء علي وهب اللات وأمه حيث استطاع القائد الروماني أن يستولي علي الإسكندرية ولكن باقي مصر ظل خارج سلطان الرومان ---

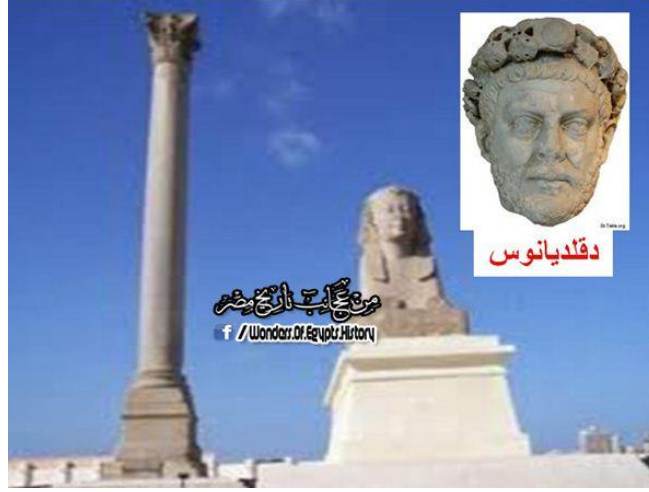
وبعد العديد من المعارك سقطت زنوبيا ووقعت أسيرة وسار بها الإمبراطور الروماني في شوارع روما مقيدة بسلاسل ذهبية وتوقف سك العملة التي تحمل صورة وهب اللات علي الوجه وصورة أمه زنوبيا علي الظهر ، وحلت محلها العملة التي تحمل صورة أوريليانوس وحده إمبراطوراً

نقلًا عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر) حمدي عثمان - صفحة ١٦٧ ، ١٦٨ - الهيئة المصرية العامة للكتاب -

الصورة لتمثال الملكة زنوبيا التي كانت تحكم مملكة تدمر العربية في منطقة الشام الحالية وثارَت علي الحكم الروماني وسيطرت علي سوريا وضمت مصر إلي حكمها وفرضت ابنها علي الإمبراطور الروماني لفترة

٩٥. عندما كانت مصر أتعس ولاية في الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور

دقلديانوس



عندما جلس الإمبراطور دقلديانوس علي عرش الإمبراطورية الرومانية قرر أن يقوم بإجراء تعديلات جوهرية لتطبيق علي جميع الولايات الرومانية

وشملت هذه التعديلات مجالات عديدة مالية ١ واجتماعية وعسكرية ٢ ، وقد تأثرت مصر بهذه التعديلات وتغير وضعها تماماً عن ذي قبل بل إن هذا الإمبراطور بالذات بلغ في عهده الاضطهاد الديني في مصر ذروته ، حتي أن عهده يعرف باسم عصر الشهداء وكان طبعاً لليهود دور كبير في محاربة الديانة المسيحية فكانوا يقومون بالوشاية لدي السلطات الرومانية لتعذيب وقتل المسيحيين بل إنهم كانوا يحاولون بث الخلاف المذهبي والفكري بينهم وكان عدد ولاية مصر في عهد هذا الإمبراطور سبعة ولاية ٣ حكموا مصر في عهده حوالي ٢١ سنة

كانت خلالها مصر أتعس الولايات الرومانية فمثلاً بعد أن كانت لها عملة خاصة بها تميزها عن سائر الولايات الرومانية أصبح هناك عملة رومانية موحدة للإمبراطورية بالكامل بما فيها مصر ، وكل المزاي والقواعد التي وضعها الإمبراطور أغسطس لمصر هدمها دقلديانوس

والطريف أن في بداية عهده قامت ثورة في الإسكندرية وكان قائدها ضابط روماني الجنسية

وقد أعلن التمرد علي روما بل التفت حوله جماهير الإسكندرية فقد أعلن نفسه إمبراطوراً ، وكانت هذه الصدمة الكبرى الأولى لدقلديانوس مما أدى إلي حضوره بنفسه إلي مصر بقوات ضخمة وحاصر الإسكندرية لمدة ٨ شهور كاملة حتي جاع الناس فيها

ودخلها بعنف ودمر وحرق العديد من منشآتها ومبانيها ثم قرر أن يتوود لأهلها

ويقول عن ذلك د سيد الناصري (- - وربما حاول دقلديانوس شراء صبر السكندريين وولاءهم ، حفاظاً علي هيكل الإمبراطورية الآيل للسقوط ، عندما أصدر قراراً بأن تخصص نسبة حيازة القمح لرفع الجوع عن أهل المدينة فأقام الوالي الروماني أثراً ضخماً لشكر الإمبراطور ، ويعرف حالياً بعمود السواري - -) ٥ ، لكن المشكلة الحقيقية إن دقلديانوس قرر

^١ من ضمن الإجراءات المالية توحيد العملة علي مستوي الإمبراطورية بالكامل بما فيها مصر ولم تعد لمصر العملة الخاصة بها وقام هذا الإمبراطور بنفس كل ما تبقي من إجراءات الإمبراطور أغسطس في مصر والمعروفة بسر الإمبراطورية

^٢ من أهم الإجراءات العسكرية التي قام بها هذا الإمبراطور هو انسحاب القوات الرومانية من حدود الإمبراطورية إلي خطوط أقوى

^٣ موسوعة مصر (د ناصر الأنصاري) ص ٥٠

^٤ معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) ص ٢٥٤

^٥ معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) ص ٢٥٥

استئصال الديانة المسيحية التي كانت منتشرة في عهده أكثر من العهود السابقة فقد كان يعتبر أن هذه الديانة تحدياً سافراً لسلطانه المؤله علي شعوب الإمبراطورية لأن المسيحيين رفضوا في عناد عبادة الإمبراطور

(- - -) ومما دفع الإمبراطور إلي فقدان اتزانه ، أن يحدث هذا في مصر التي عرفت بعبادة فراعنتها ثم عبادة ملوك البطالمة كفراعنة وعبادة أباطرة الرومان كآلهة وفراعنة فلماذا يحدث هذا لشخصهون أسلافه ، ولهذا اعتبر هذا الرفض تحدياً لشخصه ولم يفهم الدوافع النفسية أو العقائدية وراء هذا الإصرار - - (١) ،

وتم قتل مئات الآلاف (- -) وقد بلغ من هول الجريمة أن المسيحيين المصريين رغم مرور أكثر من خمسة عشر قرناً من الزمان علي ذلك إلا أن ذكراها لم تخبو ولهذا بدأت الكنيسة المرقسية القبطية المصرية تقويمها فيما بعد بتاريخ اعتلاء ديوقليانوس عرش الإمبراطورية "٢٨٤م" حيث أطلقوا علي هذا التاريخ عام الشهداء - - (٢) ،

(- -) وكان المسيحيين يتسابقون نحو الشهادة وهم فرحون ويرتلون أغاني الحمد والشكر لله الذي أهلهم أن يموتوا من أجله - - (٣)

وقد بلغ عدد القتلى أكثر من ٨٠٠٠٠٠ نسمة ٤ وكانت أساليب القتل والتعذيب في عهد دقلديانوس متعددة ومختلفة مثل الحرق بالنار والزيت المغلي وتمزيق الأجساد بالآلات الحادة وإطلاق الحيوانات المفترسة عليهم في أماكن مغلقة وغير ذلك من أفظع الوسائل وأبشعها

نقلًا عن كتاب (معالم تاريخ وحضارة مصر) (من أقدم العصور حتي الفتح العربي) (القسم الثاني) (د سيد الناصري) دار النهضة العربية (الطبعة الثانية) ١٩٨٠

وكتاب (المسيحية والإسلام في مصر) د حسين كفاقي - مكتبة الأسرة ١٩٩٨

الصورة للإمبراطور الروماني دقلديانوس ، وعمود السواري بالإسكندرية

١ معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) ص ٢٦١

٢ معالم وتاريخ حضارة مصر (القسم الثاني) (د سيد الناصري) ص ٢٦٢

٣ المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاقي) ص ٤١

٤ المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاقي) ص ٥٢

٩٦. زيارة عمرو بن العاص لمصر قبل الإسلام

زار عمرو بن العاص مصر قبل الإسلام تقريباً في (صيف عام ٦٠٢ م) ١ ففي أثناء رحلة من رحلاته التجارية إلى الشام وأثناء وجوده في جنوب فلسطين (- - -) فإذا به يقابل شماساً مصرياً وقد أصابه عطش شديد في يوم صيف قانظ شديد الحرارة ، فسقاه عمرو من قرب له فشرب حتي ارتوي ونام الشماس مكانه من فرط الإعياء والتعب وكان الشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس ويبدو أنه كان يتعب في جبال المنطقة التي تقابل فيها مع عمرو بن العاص وأثناء نوم هذا الشماس في ظل شجرة هائلة عجفاء خرجت حية من حفرة لها بجوار الشماس فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها) ٢ وعندما أحس الشماس بأن عمرو أنقذ حياته مرتين أصر علي أن يعطيه مكافأة مقابل لذلك فسأله كم يكون دية القتل عندكم في بلاد العرب وما نظير ذلك من الدنانير فأخبره عمرو أنها ألف دينار فقرر الشماس أن يدفع لعمرو ديتين أي ألفي دينار نظير إنقاذ حياته مرتين وعرض عليه أن يصحبه إلي مصر كي يتمكن من تنفيذ وعده (فقال عمرو : كم يكون مكثي في تلك الرحلة ؟ قال له الشماس : شهراً ، تنطلق معي ذاهباً عشرة أيام وتقيم عندنا عشرة أيام وترجع في عشرة أيام ولك علي أن أصحبك وأحفظك ذاهباً وأن أبعث معك من يرافقك ويحفظك راجعاً - -) ٣ وبعد أن شاور عمرو أصحابه انطلق مع الشماس إلي مصر وكانت أول زيارة له لمصر ، وأثناء الرحلة استطاع عمرو أن يعرف الكثير عن مصر وشاهد في مصر (- - -) مروراً بالقرى والريف والمدن ومخالطة للأهالي الفقراء والأغنياء والريف والتجار والفلاحين والكهان والرهبان والقساوسة ، هذا بالإضافة إلي جحافل الاستعمار البيزنطي من ضباط وجنود وموظفين ، وخلال هذا الحشد الهائل من البشر سواء كانوا مصريين مستعبدين أو بيزنطيين مستعمرين ، عرف الكثير والكثير عن بعض الأمور ، وعرف خلالها المداخل والطرق والمسالك والوديان والجسور والأماكن التي يمكن الإقامة فيها ، واستطاع أن يحس بالشعب المصري وما يعانيه من جنود الروم وما يقاسيه من ظلم وقهر - -) ٤ وكان الشماس المصري يتحدث مع عمرو في الطريق عن أحوال مصر والمصريين وعن سر الاضطهاد الديني للمصريين من أباطرة بيزنطة كما تحدث معه عن حضارة الإسكندرية العريقة وانبهر عمرو بالإسكندرية ومبانيها المختلفة وتجول في أنحاءها ودخل أسواقها وشواطئها وأحياءها ومكث بها عشرة أيام كاملة فكانت هذه الزيارة تمهيد وإعداد لفتح مصر بعد ذلك

من كتاب (المسيحية والإسلام في مصر) تأليف (د حسين كفاي) مقتطفات من صفحة ٩٣ إلي صفحة ١٠١ مكتبة

الأسرة ١٩٩٨

١ المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاي) ص ٩٣
 ٢ المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاي) ص ٩٤
 ٣ المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاي) ص ٩٥
 ٤ المسيحية والإسلام في مصر (د حسين كفاي) ص ١٠١

٩٧. كيف أقنع عمرو بن العاص أمير المؤمنين عمر بفتح مصر

ظل عمرو يستغل كل فرصة تتاح له لإقناع الخليفة بفتح مصر لأنه يعتبرها نصراً للإسلام ولينال شرف تنفيذ ما بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتح مصر وظل عمرو رضي الله عنه يصف لأمر المؤمنين مصر وخيراتها كما أنها أصبحت آخر معاقل الروم في المنطقة وقد يتخذونها قاعدة للهجوم على الشام واستعادتها مرة أخرى من المسلمين أي أن فتحها يعتبر ضرورة حربية أيضاً ،

وكان أمير المؤمنين يخاف الله في دماء المسلمين (---) - كان يخشى أن يراق دم مسلم واحد ظلماً أو خطأ فيسأل عنه أمام ربه في اليوم الآخر ، كان عمر أحرص الناس على رعيته وكان يرى أن أمر العرب لم يستقر بعد في الشام فكيف يستطيع أن يرسل جيشاً جديداً لفتح جديد في مصر ؟ (- -) ١

ثم نجح عمرو أخيراً في إقناع الخليفة بفتح مصر (- -) - فوافق عمر ، علي أن تمتد المشورة إلى ما بعد عودته للمدينة - وفيها كبار الصحابة - وعلي أن يظل القرار النهائي معلقاً بنتائج الشوري - - ويدخل الجيش الفاتح إلى الديار المصرية - - وعاد عمر إلى المدينة في ديسمبر ٦٣٩ م في الوقت الذي سار فيه عمرو بن العاص علي رأس جيش الفتح المكون من أربعة آلاف مقاتل قاصداً فتح مصر فلما وطئت أقدام الجيش الإسلامي أرض مصر أدركهم رسول أمير المؤمنين بكتابه الذي يدعوهم إلى الرجوع إن لم يكونوا قد دخلوا أرضها) ٢ ،

(- -) لم يكد عمرو يحصل علي موافقة عمر حتي أسرع بالمسير فخرج في جوف الليل وترك عمر يفكر ويعيد التفكير ، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه عثمان بن عفان وهو من نعرف من ورعاً وتؤدة ، فسأل عمر ما به ، فأخبره بما كان من موافقته عمرو علي المسير إلي مصر فأجاب عثمان في الحال : يا أمير المؤمنين إن عمراً لمجرأ وفيه إقدام - - - - - ، فأخشي أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا ، - - - - - وندم عمر علي ما فعل ولكنه لا يدري ماذا يفعل الآن وقد سار عمرو بجيشه نحو مصر فسأل عثمان الرأي فقال عثمان : فاكتب إليه إن أدركك كتابي هذا قبل أن تدخل مصر فارجع إلي موضعك وإن كنت دخلت مصر فامض لوجهك) ٣

وبالطبع كان عمرو من الذكاء بحيث فهم ما تحتويه رسالة أمير المؤمنين ، ويقال أنه استمهل رسول الخليفة ولم يقرأ كتابه حتي دخل مصر (- -) ثم سأل من حوله - وهو أعلم منهم بأرض مصر وحدودها : أنحن في أرض مصر أم في الشام ؟ فقليل له : نحن في مصر فقرأ عليهم كتاب الخليفة ثم قال : إذن نسير في سبيلنا علي بركة الله كما يأمرنا أمير المؤمنين - -) ٤

من كتاب (تاريخ مصر الإسلامية) الجزء الأول - تأليف (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٤ ، ١٦ - دار المعارف

١ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ١ ص ١٤

٢ عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) ص ٣٤

٣ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ١ ص ١٦

٤ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ١ ص ١٦

٩٨. أحداث فتح مصر علي يد القائد عمرو بن العاص رضي الله عنه

قسم الدكتور جمال الدين الشيال حوادث فتح مصر إلي ثلاثة مراحل ، الأولى من بدء الفتح وحتى وصول المدد ، والثانية تنتهي بموقعة عين شمس - وفتح - حصن بابليون ، والثالثة تنتهي بفتح الإسكندرية ١ ،

ووصف د جمال الدين الشيال الطريق الذي سلكه الجيش الإسلامي فقال

(- - وصل - المسلمون - إلي أرض مصر في الشهر الأول من سنة ١٩ للهجرة " يناير ٦٤٠ م " وكانت العريش أول مدينة - تم فتحها - ثم غادروها وسلكوا بعد ذلك الطريق التي تصل بين العريش والفرما (بورسعيد حالياً) وهي طريق رملية بعيدة شيئاً ما عن البحر تتخللها عيون وقرى صغيرة وقد سلكها منذ أقدم العصور كل وافد علي مصر) ٢ ،
(- - وأدرك عمرو بعد - فتحه - هذه المدينة ذات الموقع الممتاز والأهمية الكبيرة وبعد الصدام الأول مع هذه الفئة القليلة من جند الروم أنه سوف لا يستطيع - فتح - حصون مصر الأخرى وخاصة حصن بابليون إلا إذا وصله إمدادات جديدة من -أمير المؤمنين - عمر رضي الله عنه -) ٣

وبعد هزيمة الروم في الفرما اتجه عمرو بالجيش الإسلامي إلي الجنوب الغربي تاركاً الطريق الساحلي ، وعند بلبيس وقعت ثانية وقائع القتال الشديد بينه وبين الروم ودامت هذه المعركة هي الأخرى نحواً من الشهر انتصر فيها المسلمون علي الرومان ٤ ،

واستمر عمرو بن العاص في التقدم إلي أن حاصر حصن بابليون ، وجاءه المدد أثناء الحصار ويقول عن هذا المدد الدكتور محمد عمارة (- - أمدّه أمير المؤمنين عمر ب ٤٠٠٠ مقاتل ، وعلي رأس كل ألف منهم واحد من أبطال صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر عمر بن الخطاب أنه يزن ألفاً من المقاتلين فأصبح عدد الجيش الفاتح ٨٠٠٠ ووزنه ١٢٠٠٠ من المقاتلين - -) ٥

وكان من بين هؤلاء الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد رضي الله عنهم ، ثم حدثت المعركة الفاصلة التي انتهت بحصار حصن بابليون حصار محكم تخلله مفاوضات مع المقوقس وكان عمرو قد استقبل رسل المقوقس وسمح لهم بالتجول في معسكره

وعندما عادوا سألهم المقوقس (- - كيف رأيتموهم ؟ قالوا : رأينا قوماً الموت أحب إلي أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، إنما جلوسهم علي التراب وأكلهم علي ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف --- سيدهم فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم ، فقال المقوقس : والذي يحلف به ، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوي علي قتال هؤلاء أحد - -) ٦ ومن هنا أيقن المقوقس أن جيش المسلمين سينتصر لا محالة ، فقرر أن يعقد صلحاً مع عمرو بن العاص وتم - فتح - الحصن بعد ذلك ثم توجه عمرو بجيشه إلي الإسكندرية وحاصرها ثم فتحها وتم عقد صلح بالإسكندرية وهو الصلح الثاني بعد صلح المقوقس ببابليون ومعاهدة الصلح تم توقيعها في أوائل شهر نوفمبر سنة ٦٤١ م وأبحرت جنود الروم إلي بلادها في ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م ٧ ، وإذا حسبنا مدة فتح مصر بالكامل سنجد أنها حوالي سنتين مقتطعات من كتاب (تاريخ مصر الإسلامية) للدكتور جمال الدين الشيال الجزء الأول صفحة ١٧ ، ١٨ ، ومقتطعات من كتاب (عندما دخلت مصر في دين الله) للدكتور محمد عمارة صفحة ٣٥ ، ٣٧

١ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ص ١٧

٢ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ص ١٧

٣ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ص ١٨

٤ عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) ص ٣٥

٥ عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) ص ٣٥

٦ عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) ص ٣٧

٧ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ١ ص ٢٥

٩٩. الأنبا بنيامين يجلس علي كرسي بطركيته الذي كان مغتصب من قبل الرومان

عندما دخل عمرو بن العاص الإسكندرية

----- كانت الدولة البيزنطية تفرض علي المصريين بطريك للكنيسة في مصر مخالف لمذهب مصر مما أدى

إلي أن المصريين كانوا ينتخبون البطريرك الخاص بهم سراً

(وأول بطريك تم انتخابه سراً هو بطرس الرابع وذلك عام ٥٧٦ م) ١

وفي عام ٦٢٢ تم انتخاب الأنبا بنيامين الذي عاصر ظهور الإسلام والفتح العربي لمصر

ويقول د حسين كفاي في كتابه الممتع (المسيحية والإسلام في مصر) صفحة ١٩٤

(- - -) لم تكن الإسكندرية تهون علي الرومان إذ كانوا يعتبرونها جزء لا يتجزأ من الدولة البيزنطية ، فحشدوا لها الحشود لكي تبقي في أيديهم إلا أن المصريين كانوا يقدمون للمسلمين العون والمساعدة في القتال ، بل كانوا يبذلون أرواحهم من أجل التخلص من المستعمرين الرومان ، فأيام التعذيب وعصور الاستشهاد ليست بعيدة ، فما زالت ذاكرة المصريين تجتر هذه الأيام السوداء ، الحالكة الظلام ، هكذا تعود المصريون علي التضحية والفداء والاستشهاد ، وها هي الفرصة جاءت لهؤلاء الشجعان ليبدلوا النفس والنفيس (ليتخلصوا من حكم الروم والاضطهاد الديني البغيض

، ويقول المقريري المؤرخ الشهير في كتابه (الخطط) صفحة ٥٣٤ ، ٥٣٥ بالجزء الثالث

(- - -) وكتب عمرو لبنيامين بطرق اليعاقبة أماناً ، في سنة عشرين من الهجرة فسر ذلك وقدم علي عمرو وجلس علي كرسي بطركيته بعد ما غاب عنه ثلاث عشرة سنة - فغلبت اليعاقبة علي كنائس مصر وأديرتها كلها ، وانفردوا بها دون الملكية - -) ٢ ،

ويقول الدكتور محمد عمارة في كتابه (عندما دخلت مصر في دين الله) صفحة ٥٣

(- - -) وبعد أن كانت كنائسها وأديرتها مغتصبة من قبل مسيحية الدولة الرومانية الاستعمارية ومذهبها الملكاني - حرر الفتح الإسلامي هذه الكنائس الوطنية وأعادها إلي الأقباط فكانت المرة الأولى التي يحرر فيها أهل دين مقدسات دين آخر - -) ٣

١ معالم تاريخ وحضارة مصر - القسم الثاني (د سيد الناصري) ص ٢٨٥

٢ عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) ص ٥٣

٣ عندما دخلت مصر في دين الله (د محمد عمارة) ص ٥٣

١٠٠. المؤرخ البريطاني ستانلي لينبول يذكر أحداث فتح مصر

ويتكلم عن مدينة كانت تعرف باسم مدينة مصر بالقرب من حصن بابليون الروماني ، ثم نشأت بعد ذلك مدينة عربية تعرف باسم الفسطاط بالقرب من نفس الحصن ويذكر لنا يوحنا أسقف نقيوس - الذي نعتمد علي تاريخه فيما نكتبه عن هذه الناحية - أن العرب لم يلاقوا أية مقاومة إلا حينما حاولوا الإستيلاء علي الحصن ومهما يكن من شأن مدينة مصر أو تندونياس ، فإنها قد اختفت تماماً من عالم التاريخ بمجرد استيلاء العرب عليها ، وآخر ما نسمعه عنها في معاهدة الصلح التي أبرمها عمرو بن العاص ، وهاك نصها :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما صالح عليه عمرو بن العاص أهل مصر ، علي أنفسهم ودينهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وأرضهم ومائهم ، لا يدخل في شئ من هذا ولا ينقص ، وأن يسمح لأهل النوبة بأن يقيموا بينهم ، وإن أذعن أهل مصر للصلح فرضت عليهم الجزية خمسين ألف إذا هبط ماء نهرهم ، وكل منهم مسئول عما يأتيه سراقهم من أعمال العنف ، ومن لم يدخل في هذا الصلح أدي ما علي غيره من الجزية من تلقاء نفسه وتحت مسئوليته ، وإذا نقص ماء النيل نقصت الجزية تبعاً لهذا النقصان ، ومن رضي من الروم والنوبيين بهذا الصلح عومل كغيره من أهل مصر ، ومن أبي وأراد الخروج أمن علي نفسه حتي يبلغ مأمنه أو ترك بلادنا ، وستجمع الضرائب علي أقساط ثلاثة كل ثلث منها علي حدة ، وعلي عهد الله وعهد رسوله وعهد الخليفة أمير المؤمنين ، وعهد المؤمنين ، شهد علي ذلك الزبير وولده عبد الله ومحمد وكتبه وردان)

ويربط المؤرخون العرب هذه المعاهدة ، التي يظهر أنها وثيقة لها قيمتها ، باستسلام مدينة مصر بعد موقعة هليوبوليس ، ولكن لما كانت مصر يقصد بها القطر المصري كما يقصد بها الحاضرة ، فإن هذه الوثيقة نفسها إنما تثبت أن الفاتح العربي قد توخي الكرم والسخاء في معاملته لأهل مصر ، فهي لا تذكر شيئاً واضحاً صريحاً عن مدينة مصر التي أصبحت تسمى بعد قليل الفسطاط

نقلا عن كتاب (سيرة القاهرة) تأليف المؤرخ البريطاني (ستانلي لينبول) ترجمة د حسن ابراهيم حسن ، و د علي ابراهيم حسن ، و د إدوار حليم - صفحة ٥٠ وصفحة ٥١ - مكتبة الأسرة ١٩٩٧ - الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٠١. عمرو بن العاص يصف مصر لأمير المؤمنين

قال بعض المؤرخين : إنه لما استقر عمرو بن العاص رضي الله عنه علي ولاية مصر كتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن صف لي مصر فكتب إليه :

ورد كتاب أمير المؤمنين أطل الله بقاءه يسألني عن مصر ، اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر (أيام) ، يكتفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ، ويكثر فيه دبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها حتي إذا ما اصلختم (اشتد) عجاجه وتعظمت أمواجه ، فاض علي جانبيه فلم يمكن التخلص من القري بعضها إلي بعض إلا في صغار المراكب ، وخفاف القوارب - - فإذا تكامل في زيادته ، نكص علي عقبه كأول ما بدأ في جريته ، وطما في درته ، (زيادته وفيضه) ، فعند ذلك يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ، - - فإذا أهدق الزرع وأشرق ، سقاه الندي وغذاه من تحته الثري ،

فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي ديباجة رقشاء فتبارك الله الخالق لما يشاء ، - - - -

فلما ورد الكتاب علي عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لله درك يا بن العاص ، لقد وصفت لي خيراً كأنني أشاهده نقلاً باختصار عن كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨١٣-٨٧٤) - قدمه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين - دار الكتب العلمية - صفحة ٤٢ ، ٤٣

١٠٢. الوالي مسلمة بن مخلد الأنصاري

تولي مسلمة بن مخلد حكم مصر سنة ٦٦٧م في عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، وأثناء ولايته خرج الأسطول المصري بقيادة عبد الله بن قيس سنة ٦٦٨م من ترسانة الإسكندرية لغزو جزيرة صقلية حيث وجد الحامية البيزنطية بصقلية من الضعف بحيث أحرزت أساطيل عبد الله بن قيس عدة انتصارات عليها ، غير أن عبد الله بن قيس قنع بما غنمه ولم يحاول البقاء بصقلية أو استثمار انتصاراته السابقة وعاد بأسطوله المظفر إلى مصر محملاً بالغنائم ورداً على هذه الغزوة البحرية قام الأسطول البيزنطي بغارة على السواحل المصرية عند البرلس سنة ٦٧٣م ، ونتيجة لهذا النشاط البحري المستمر أنشأ الوالي مسلمة بن مخلد داراً لصناعة السفن جديدة بجانب ترسانة الإسكندرية وترسانة القلزم وهي ترسانة بابليون سنة ٦٧٤م

ولقد توفي مسلمة بن مخلد والي مصر في عهد الخليفة الأموي يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بعد أن بني في الروضة مقياساً للنيل وداراً للصناعة وعامل القبط بالعطف وشملهم بالرعاية فقد سمح لهم بأن يبنوا كنيسة في القسطنطينية وعني ببناء المساجد وإصلاحها ، فقد أمر سنة ٦٧٣م بهدم جامع عمرو بن العاص وبنائه من جديد بالآجر بعد أن كان مبنياً باللبن في عهد عمرو وكان يقيم الصلاة بنفسه طول مدة ولايته ، غير أن أعظم أعماله جميعاً هو استقباله لأهل بيت الرسول صلي الله عليه وسلم وعلي رأسهم السيدة زينب بعد معركة كربلاء وقتل معظم أهل البيت ، فأخلي بيته ليقيموا فيه وهو البيت الذي تحول إلى مسجد السيدة زينب بعد موتها ولا يزال

نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر من مينا إلى مبارك إعداد حمدي عثمان - المراجعة العلمية د ناصر

الأنصاري -الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية- صفحة ٢١٤-٢١٥

١٠٣. لماذا اشتهرت السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب في مصر بلقب رئيسة

الديوان ؟

اختارت السيدة زينب رضي الله عنها مصر للتوجه إليها مع من تبقى من آل البيت بعد معركة كربلاء وتشير معظم المراجع إلى دخول السيدة زينب رضي الله عنها مصر في مستهل شهر شعبان سنة ٦١ هـ الموافق ٢٦ إبريل سنة ٦٨١ م وما إن وصلت إلى مدينة بلبيس حتى كان في استقبالها مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر ورهط من كبار الأمراء والعلماء وجمع من عامة المسلمين وبكى مسلمة وبكت السيدة زينب ويصل الموكب إلى مدينة الفسطاط ويخصص لها الوالي داره الشهيرة معزة مكرمة وكانت فيها موضع إجلال المصريين وتقديرهم

وكانوا يغدون إلى دارها ملتسمين دعواتها ، مستمعين إلى ما ترويه من أحاديث نبوية شريفة وآداب رفيعة ، كما كان ديوان الحكم يعقد في هذه الدار ، والوالي والأمراء يستفتونها من خلف حجاب في أمور الدين والدنيا ، فاشتهرت عند العامة من أهل مصر حتى يومنا هذا بلقب رئيسة الديوان

وإلى رحاب الله تنتقل السيدة الطاهرة يوم الأحد لأربع عشرة مضت من رجب سنة ٦٢ هـ الموافق ٢٧ مارس سنة ٦٨٢ م فمهدت لها الأرض في خلوتها من دار مسلمة حيث أقامت ، وضريحها كان في الجهة البحرية من دار الوالي مسلمة بن مخلد مشرفاً على الخليج الذي كان يخرج من النيل عند فم الخليج حالياً

وفي عصر الدولة الطولونية كان المشهد الزينبي أحد مشاهد آل البيت التي أمر أحمد بن طولون بتجديدها وعمارته

وفي عصر الدولة الفاطمية كان المعز لدين الله أول من شيد عليه بناءً أما الحاكم بأمر الله فقد اختص ضريحها بأوفر نصيب من الأوقاف

وظل هذا الضريح موضع عناية جميع الدول التي تعاقبت الحكم ، وفي القرن السادس الهجري في زمن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب شهد هذا المسجد عمارة وتجديداً برعاية الأمير فخر الدين اسماعيل الجعفري نقيب الأشراف الزينبيين ، ويشير العلامة المؤرخ الجبرتي إلى أن الأمير عبد الرحمن كتحدا أعاد تشييد مسجد السيدة زينب ، وفي عهد الخديوي توفيق شهد المسجد تجديدات وعمارة شاملة واستمرت أعمال التجديدات حتي العصر الحالي

مقتطفات مختصرة نقلاً عن كتاب - القاهرة رحلة في المكان والزمان - تأليف عرفه عبده علي - تقديم الأديب الكبير جمال الغيطاني - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

١٠٤. عصر الولاة

(----) اعتاد المؤرخون أن يسموا العصر الذي يبدأ بفاتح مصر عمرو بن العاص حتي قيام الدولة الطولونية سنة

٢٥٤ هـ "٨٦٨م" بعصر الولاة

وقد روعي في اختيار هؤلاء الولاة أن يكونوا من أصحاب السمعة الطيبة والنزاهة والعدالة فإذا أهمل أحدهم شئون مصر أو استبد بأهلها عزله الخليفة وأتي بغيره طبقاً لتعاليم الإسلام التي تقرر أن الحكم ينبغي أن يكون في أصلح الناس له ، ولهذا كان الولاة أو علي وجه الدقة معظمهم ، يحرصون علي استثمار ثروات مصر ومواردها فيما يعود بالنفع علي الشعب المصري الذي ارتضي الإسلام ديناً وبدأ يتعرب من الجيل الأول بعد الفتح - ١) ،

(- وفي عصر الولاة اهتم حكام مصر بشئونهم الاقتصادية ، فأولوا عنايتهم بالزراعة عقب الفتح مباشرة وعملوا علي زيادة الغلات والمحاصيل واهتموا بشئون الري - - ٢) ،

(- ويلاحظ أن الصناعة في مصر في عصر الولاة كان يقوم بها القبط ثم أصبح معظم الذين يقومون بها من المصريين الذين ظلوا علي دينهم والذين أسلموا - - لأن العرب في أول ذلك العصر كان بيدهم السياسة والحكم والحرب - - ٣) ،

(- وقد لقيت التجارة في مصر بعد الفتح العربي لها العناية اللازمة نتيجة لاهتمام العرب بالتجارة علي وجه الخصوص - ٤) (- والواقع أن مصر في عصر الولاة قد شهدت نشاطاً علمياً بارزاً نهض به علماء مصريون وغير مصريين ، وصارت مصر مركزاً اجتذب إليه العلماء والطلاب من الأقطار المجاورة من بلاد المغرب والأندلس - ٥)

من كتاب (مصر في العصور الوسطي - الأوضاع السياسية والحضارية) تأليف (د محمود الحويري)

مقتطفات مختصرة من صفحة ٦٨ و صفحة ٩٠ ، ٩١ ، ٩٧ - (طبعة سنة ٢٠٠٣)

١ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٦٨
٢ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٩٠
٣ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٩١
٤ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٩١
٥ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٩٧

١٠٥. الوالي قرة بن شريك يقاوم هجرة الفلاحين إلى المدن

تولي قرة بن شريك حكم مصر سنة ٧٠٩م في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، وقام ابن شريك باستصلاح بركة يطلق عليها بركة الحبش بظاهر الفسطاط وغرس بها القصب ، وظلت عامرة بالبساتين وأشجار الفاكهة حتي القرن الرابع الهجري

ولقد تجلت في ولاية قرة بن شريك علي مصر ظاهرة خطيرة وهي الهجرة من الريف إلى المدن للإفادة من إمكانيات الحياة الواسعة هناك ، والمشاركة في معالمها الحيوية ، ولقد اقترنت تلك الظاهرة الإجتماعية بأزمة اقتصادية ، إذ أدى تطلع الفلاحين إلى الحياة الإجتماعية الجديدة إلى حرمان الريف من السواعد الفتية وإصابة الإنتاج الزراعي بضرية قاسية فاتخذ والي مصر قرة بن شريك عدة إجراءات للحد من هذه الظاهرة والقضاء عليها وأنشأ هيئة خاصة لإعادة كل شخص إلى موطنه الأصلي فكان لا يسمح لأي شخص بتغيير محل إقامته إلا بإذن خاص ولمدة محدودة وعلي عهد قرة بن شريك كان بمصر ثلاث دور كبري لصناعة السفن ، الأولي في الإسكندرية ، والثانية في القلزم والثالثة في بابلون ، وكان ابن شريك شديد الاهتمام بتزويد تلك الدور بما يلزمها ملزماً حكام الأقاليم بتحمل تكاليف النقل البري في حالة الإهمال ، وكانت ترسانة الإسكندرية موجهة لحوض البحر المتوسط ، سواء دفاعاً أو هجوماً ،

أما ترسانة القلزم فكانت موجهة لحوض البحر الأحمر سواء لحماية السواحل المصرية أو تقديم المساعدة لسواحل الحجاز أما ترسانة بابلون فكانت لمعاونة كل من ترسانة الإسكندرية وترسانة القلزم

ولقد خرج الأسطول المصري في غزوة علي جزيرة سردينيا ، وأثناء ذلك قام الخوارج بمؤامرة لمحاولة اغتيال قرة بن شريك وهو في الإسكندرية ، لكن المؤامرة فشلت وتم القبض علي المتآمرين وكان عددهم حوالي مائة شخص وجدير بالذكر أن الدولة الأموية عندما تم تناولها في موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري من صفحة ٦٠ إلى صفحة ٦٥ ذكر أنها استمرت في دمشق من سنة ٤٠ هجرياً ٦٦١ ميلادياً إلى سنة ١٣٢ هجرياً ٧٥٠ ميلادياً أي حوالي ٨٩ سنة ، تولي فيها الخلافة ١٢ خليفة وتولي خلالها علي مصر ٢٥ والياً كان أولهم عمرو بن العاص الذي عينه معاوية وظل والياً إلى أن توفي بها سنة ٦٦٤ ميلادياً ، وأشهر من تولي حكم مصر في العهد الأموي من الولاة عمرو بن العاص وعتبة ابن أبي سفيان أخو معاوية وعبد العزيز بن مروان بن الحكم في خلافة أبيه ثم أخيه ، وقره بن شريك العبسي في خلافة الوليد بن عبد الملك وأيوب بن شرحبيل في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وبشكل عام كانت ولاية مصر من الأمور المهمة جداً في الخلافة الأموية ، أما أشهر خلفاء الدولة الأموية بعد معاوية ، ابنه يزيد وعبد الملك بن مروان وأولاده الوليد بن عبد الملك الذي بني في عهده المسجد الأموي الشهير في دمشق وسليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك وابن عمهم عمر بن عبد العزيز بن مروان

نقلاً عن كتاب - موسوعة حكام مصر - د ناصر الأنصاري وكتاب - هؤلاء حكموا مصر - حمدي عثمان - الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٠٦. الرخاء يعم الجميع في عصر الولاة

يقول الدكتور شوقي ضيف :

(ومما يدل بوضوح علي رخاء مصر في عصر الولاة ومدي ما كان يتمتع به القبط من حسن المعاملة خبر رواه المقرئ في وقع في أثناء زيارة - الخليفة - المأمون لمصر سنة ٢١٧ هـ إذ مر بقرية يقال لها وطاء النمل وكانت إقطاعية لقبطية عجوز تسمى مارية ، فتعرضت له تسأله أن ينزل في ضيافتها مع حاشيته ومن يرافقه من جنده ، وعجب لكثرة ما قدمت من أطعمة ،

فلما أصبح جاءتته ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق ، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصري ، فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا في كل طبق كيس من ذهب ، فشكرها وأمرها برده ، فأبت إباء شديداً ، وتأمل الذهب أو الدنانير فإذا بها من ضرب عام واحد ، مما يدل علي ربحها من عام ، فقال : هذا والله أعجب ، - - وقال لها ردي مالك بارك الله لك فيه ، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا الذهب من هذه الطينة التي تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندي من هذا الذهب شيء كثير ، فأخذ المأمون لبيت المال)

نقلًا عن كتاب (تاريخ الأدب العربي) عصر الدول والإمارات - مصر - تأليف د شوقي ضيف -
دار المعارف صفحة ٥٥

١٠٧. عندما قيل للخليفة المأمون عن مصر (فما ظنك بشئ دمره الله هذا بقيته)

كتب الإمام السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء عن المأمون (صفحة ٢٤٥) ما يلي
(- -) كان المأمون أفضل رجال بني العباس حزمًا وعزماً وحلمًا وعلماً ورأياً ودهاء وهيبة وشجاعة وسؤددًا وسماحة وله محاسن وسيرة طويلة لولا ما أتاه من محنة الناس في القول بخلق القرآن ، ولم يل الخلافة من بني العباس أعلم منه وكان فصيحاً مفوهاً - -) وكان المأمون أماراً بالعدل فقيه النفس ، يعد من كبار العلماء ٢ وقد حضر المأمون إلي مصر للقضاء علي ثورة شعبية عارمة ضد الوالي عيسى بن منصور طبقاً لما كتبه الدكتور جمال الدين الشيال بكتاب تاريخ مصر الإسلامية (ج ١ صفحة ٦١) :

(- وفي سنة ٢١٦ هـ في ولاية عيسى بن منصور علي مصر من قبل الخليفة المأمون ، ثار سكان أسفل الأرض " الوجه البحري " - - وكان سبب الثورة - كما يذكر الكندي " سوء سيرة العمال فيهم " وبذل الوالي عيسى بن منصور والقائد العباسي الأفشين جهدهما لإخضاع الثورة التي ظلت قائمة نحو ثمانية شهور - من جمادي الأولى إلي ذي الحجة من سنة ٢١٦ هـ - حتي اضطر الخليفة المأمون أن يأتي إلي مصر بنفسه لإخضاع هذه الثورة ، وأخضعها وعاقب كلاً من الحاكم والمحكومين بما يستحق ، أما الوالي عيسى بن منصور فقد عزله المأمون بعد أن عنفه بقوله " لم يكن هذا الحدث العظيم إلا من فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس ما لا يطيقون وكنتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد - -) ٣

وقد حدث موقف له معني رائع عند حضور المأمون إلي مصر وقد ورد في كتاب الحسن ابن زولاق أن مصر لم تعجب المأمون كثيراً عندما قارنها ببغداد وكانت بغداد في ذلك الوقت في قمة مجد وازدهار الدولة العباسية فقال لمن معه ما معناه (لعن الله فرعون حيث قال : { يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ }) ؟ (فلو رأي فرعون بغداد وجمالها ما كان ليقول ذلك عن مصر)
فقال له صاحبه يا أمير المؤمنين ألم تقرأ قول الله تعالى {وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَغْرُسُونَ} ٥
(فما ظنك بشئ دمره الله هذا بقيته) ٦ من كتاب (فضائل مصر وأخبارها وخواصها لابن زولاق) تحقيق د علي محمد عمر - مكتبة الأسرة طبعة ١٩٩٩ صفحة ٥٤

١ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٢٤٥

٢ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٢٤٥

٣ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ١ صفحة ٦١

٤ (٥١) سورة الزخرف

٥ (١٣٧) سورة الأعراف

٦ فضائل مصر وأخبارها وخواصها (ابن زولاق) صفحة ٥٤

١٠٨. أحمد بن طولون يتولى حكم مصر :



(قال المقرئزي المؤرخ الشهير) عن أحمد بن طولون ما يلي :

(وكان قد نشأ نشوءاً جميلاً وطلب الحديث وأحب الغزو وخرج إلي طرسوس مرات ولقي شيوخ المحدثين وسمع عنهم ، وكتب العلم وحصل من ذلك قطعة كبيرة ، وصحب هناك جماعة من الزهاد وأهل الدين والورع فتأدب بأدابهم وحسنت طريقته وظهر فضله ، حتى تمكن له في قلوب الأولياء ، ما ارتفع به علي طبقته وبان فضله علي وجوه الأتراك وصار عندهم ممن يوثق به - -) ١

واكتسب ابن طولون في مصر حب الجميع علي اختلاف دياناتهم ومذاهبهم المختلفة فقد كان كما يقول عنه ابن الأثير "عاقلاً حازماً ، كثير المعروف والصدقة متديناً يحب العلماء وأهل الدين ، وعمل كثيراً من أعمال البر ومصالح المسلمين " ٢ ومن المواقف التاريخية عن أحمد ابن طولون التي تؤكد مدي حب الجميع له في مصر ، عندما مرض مرضاً شديداً في آخر أيامه (- - خرج المسلمون بالمصاحف واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل والمعلمون بالصبيان إلي الصحراء ودعوا له - -) ٣ مما يؤكد أن الستة عشر عاماً التي قضاها ابن طولون في حكم مصر حتي وفاته بها كانت من أحسن الأعوام التي عاشها المصريون في ذلك الوقت

ولقد كانت الفسطاط عاصمة مصر منذ الفتح العربي الإسلامي وحتى تأسيس مدينة العسكر التي اتخذها العباسيون عاصمة لمصر ، ثم جاء احمد بن طولون وأسس عاصمة جديدة لدولته الجديدة وكانت معروفة باسم القطائع لأنها مقسمة بين الجنود ، ويقول د جمال الدين الشيال عن القطائع (- - لما ولي أحمد بن طولون علي مصر ، اتخذ لنفسه جيشاً كبيراً كان معظمه من السودانيين والروم والأتراك فضاحت بهم الفسطاط والعسكر فأراد أن يبني لهم عاصمة جديدة وبناها في الفضاء الذي كان بين العسكر وبين جبل المقطم - - وبني فيها قصره العظيم وشيد جامعته المعروف باسمه - وجعل بين القصر والمسجد ميداناً كبيراً لسباق الخيل وعرض الجند -) ٤

^١ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٠٢

^٢ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٠٩

^٣ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٠٩ ، ١١٠

^٤ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ٤٤

وقد تم بناء القلاع وما بها من منشآت علي طراز مدينة سامراء التي بناها العباسيون في العراق ، حتي أن مئذنة الجامع الشهير الموجود إلي الآن تشبه مئذنة جامع مدينة سامراء ، وكان بالقلاع العديد من الأسواق والمساجد والطواحين والحمامات والأفران والقصور (- -) وتزايدت العمارة حتي اتصلت بالفسطاط وصار كل بلدًا واحدًا (-) ١ ،

أي أن الفسطاط والعسكر والقلاع حدث بينهم اندماج وأصبحوا كما لو كانوا مدينة واحدة كبيرة وعمارة وظلت القلاع عاصمة للدولة الطولونية إلي أن تم اقتحامها بواسطة الجيش العباسي عندما انهارت الدولة الطولونية سنة ٩٠٤ م وعادت للفسطاط مكانتها ومركزها كعاصمة لمصر للولاة العباسيين ،

ويقول عن القلاع الكاتب الكبير محمود السعدني في كتابه الممتع " مصر من ثاني "

(-) ولقد كانت عاصمته الجديدة القلاع غاية في الفن الهندسي أنفق علي إنشائها كل ما غنمته جيوشه المظفرة في الشرق والغرب وكانت دورها واسعة وحدائقها أوسع - - ، ولما كانت القلاع تقع علي قمة تل يتوسط النيل والصحراء الشرقية فقد أقام لها قناطر شديدة الارتفاع ورفع الماء إليها عن طريق سواقي في المكان المعروف الآن بفم الخليج (٢) (-) وقد أجمعت المصادر علي اهتمام الطولونيين بتقدم أحوال مصر الاقتصادية وازدهارها ويدل علي ذلك وفرة الثروات التي خلفها الطولونيين ورخص الأسعار وتوفر السلع في سائر أنحاء مصر بصورة لم تشهدها من قبل (- -) ٣ كما أن أحمد بن طولون كان يهتم بشكل خاص بصحة المواطنين حيث قام ببناء مستشفى كبير مجاني وألحق به صيدلية لصرف الأدوية مجاناً أيضاً دون تمييز بين الطبقات والأديان

(- -) ويظل المريض تحت العلاج حتي يتم شفاؤه وكانت دلالة شفاء المريض قدرته علي أكل رغيف ودجاجة وعندئذ يسمح له بمغادرة المستشفى وكان ابن طولون يتفقد المستشفى ويتابع علاج الأطباء ويشرف علي المرضى (-) ٤ ، كما اهتم ابن طولون بالجيش الضخم الذي كان يسيطر عليه سيطرة كاملة وكان لديه أسطول محترم وأنشأ مراكز حربية متقنة الصنع ،

كما حدثت طفرة صناعية في مصر في هذا العصر وخاصة صناعة النسيج والزجاج والورق والأسلحة والصابون والسكره وقام ابن طولون ببناء دار لسك العملة (- -) حيث سكت الدينار ذات المستوي الرفيع في النقاء (- -) ٦ وشهدت مصر في عهده نهضة تجارية عظيمة (- -) فكانت البضائع التي تصل من بلاد الهند والصين تسلك طريق البحر الأحمر ومنها إلي مواني إيطاليا وفرنسا وأسبانيا (- -) ٧ ، كما كان في مصر في هذا العهد أيضاً العديد من العلماء والفقهاء والمؤرخين والأدباء والشعراء نبغوا في عهد الدولة الطولونية وغاية القول في هذا الموضوع أن مصر في هذا العهد شهدت فترة ازدهار في جميع المجالات وشاركت في النهضة الحضارية (التي شهدها العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري - -) ٨ وقد قد قام ابن طولون بتوسيع نطاق حكمه وضم إلي مصر ليبيا والشام والنوبة وشعر الناس بالرفاهية والرخاء في عهده وتفوقت مصر مادياً ومعنوياً علي باقي أنحاء الأمة الإسلامية

نقلًا عن كتاب (مصر في العصور الوسطي) تأليف (د محمود الحويري) مقتطفات مختصرة من صفحة ١١٤ إلي صفحة ١٢٠ وكتاب (مصر من ثاني) تأليف (محمود السعدني) صفحة ٢٤ ، وكتاب (تاريخ مصر الإسلامية) تأليف (د جمال الدين الشيال) صفحة ٤٤

الصورة لجامع ابن طولون وهو آخر ما تبقي من مدينة القلاع عاصمة الدولة الطولونية

^١ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ٤٤

^٢ مصر من ثاني (محمود السعدني) صفحة ٢٤

^٣ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١١٥

^٤ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١١٤

^٥ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١١٧

^٦ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١١٧

^٧ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١١٧

^٨ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٢٠

١٠٩. صدقات احمد بن طولون كما وردت في خطط المقرئ حيث كتب ما يلي :

وكانت صدقاته علي أهل المسكنة والستر وعلي الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة ، وكان راتبه لذلك في كل شهر ألفي دينار ... سوي ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر علي تجديد النعم ، وسوي مطابخه التي أقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ، ويغرف للناس في القدور الفخار والقصاع ، علي كل قدر أو قصعة لكل مسكين أربعة أرغفة في اثنين منها فالودج والاثنان الآخرا علي القدر وكانت تعمل في داره وينادي : من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر وتفتح الأبواب ويدخل الناس الميدان ، وابن طولون في المجلس الذي تقدم ذكره ينظر إلي المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسره ذلك فيحمد الله علي نعمته

ولقد قال له مرة إبراهيم بن قراطغان وكان علي صدقاته : أيد الله الأمير ، إنا نقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقة ، فتخرج لنا الكف الناعمة المخضوبة نقشاً والمعصم الرائع فيه الحديد والكف فيها الخاتم فقال : يا هذا ، كل من مد إليك يده فأعطه ، فهذه هي اللطيفة المستورة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه فقال (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ) فاحذر أن ترد يدا امتدت إليك وأعط كل من يطلب منك

وجدير بالذكر أن احمد بن طولون هو مؤسس الدولة الطولونية في مصر سنة ٨٦٨م واكتسب ابن طولون في مصر حب الجميع علي اختلاف دياناتهم ومذاهبهم المختلفة فقد كان كما يقول عنه ابن الأثير "عاقلاً حازماً ، كثير المعروف والصدقة متديناً يحب العلماء وأهل الدين ، وعمل كثيراً من أعمال البر ومصالح المسلمين " ومن المواقف التاريخية عن أحمد ابن طولون التي تؤكد مدي حب الجميع له في مصر ، عندما مرض مرضاً شديداً في آخر أيامه (- -) خرج المسلمون بالمصاحف واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل والمعلمون بالصبيان إلي الصحراء ودعوا له (- -) ٢ مما يؤكد أن الستة عشر عاماً التي قضاها ابن طولون في حكم مصر حتي وفاته بها كانت من أحسن الأعوام التي عاشها المصريون في ذلك الوقت

^١ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة ١٠٩

^٢ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة ١٠٩ ، ١١٠

١١٠. قطر الندي

عندما تولي خمارويه بن أحمد بن طولون حكم مصر سنة ٨٨٤م أكد العديد من المؤرخين أن خمارويه لم يكن علي نفس مستوي أبيه أحمد بن طولون من القوة والعظمة بل الفترة التي جاءت بعد ابن طولون كانت تشبه السير بالقصور الذاتي حيث أن العجلة التي أدارها ابن طولون بقوة لم يعد أحد بعده يديرها بل ظلت تدور تأثيراً بقوة ابن طولون فقط إلي أن توقفت تماماً وانهارت الدولة ،

ولأن ابن طولون أسس دولة قوية وأدار العجلة بقوة دفع ضخمة فقد ظلت تدور فترة ليست بالقصيرة حتي توقفت تماماً ، وغاية ما يقال عن خمارويه أنه كان مسرفاً إلي حد ما (- -) ولم يحسن خمارويه الاستفادة من الأموال الجمة التي تركها له أبوه فأخذ يسرف في البناء وأنواع الترف (-) ، ويذكر أن الأمير خمارويه ورث ما كان في خزانة أبيه من ذهب ويقدر بحوالي عشرة ملايين من الدينار جعلت الدولة قوية الاقتصاد مترامية الأطراف شملت مصر والنوبة والشام والحجاز واليمن فأسرف بشدة وعلي سبيل المثال ما أنفقه في تجهيز ابنته ويمثل عهد خمارويه ذروة الترف في مصر ولقد أنفق خمارويه كثيراً علي جيشه والأسطول الذي ورثه عن أبيه والمكون من مائتي قطعة حربية تامة التجهيز بالعدد والسلاح ، وكانت القطع البحرية المصرية ترابط بسواحل الشام تعزيزاً لجيوشه البرية إلي أن تم الصلح باعتراف الخلافة العباسية بولاية خمارويه علي مصر والشام ومن ثم انضم أسطول الخلافة إلي أسطول مصر وتابعا مواصلة الجهاد ضد الدولة البيزنطية وكان الخليفة المعتمد قد مات هو وأخوه الموفق وخلفه الخليفة المعتضد بالله بن الموفق في بغداد عاصمة الخلافة العباسية آنذاك ، وبعد الصلح اهتم خمارويه باكتساب ود الخليفة العباسي الجديد وعرض عليه زواج ابنته أسماء التي تلقب بقطر الندي من ابن الخليفة ولكن الخليفة اختارها لنفسه فوافق أبوها علي ذلك وجهازها بجهاز يفوق الوصف مما أدي إلي إفلاس مصر وقد أفاضت المصادر في وصف جهاز العروس (- -) ٢

ويقال أن خمارويه أمر ببناء قصر علي رأس كل مرحلة من مراحل المسافة بين مصر وبغداد لتقيم فيه ابنته أثناء سفرها إلي الخليفة (- -) مجهز بكل وسائل الراحة والرفاهية كأنها في قصر أبيها في مدينة القطائع إلي أن وصلت بغداد ودخل بها الخليفة المعتضد في ربيع الآخر سنة ٢٨٢ هـ (مايو ٨٩٥ م) ٣

وغاية ما يقال عن عصر خمارويه وما بعده وحتى انتهاء الدولة الطولونية ما قاله الكاتب محمود السعدني عن ابن طولون وأولاده (- -) فلما مات ابن طولون ماتت دولته كذلك وإن بقيت أمام الناس فترة من الوقت ولكن الذي قام لم يكن دولة ابن طولون ولكن شبح الدولة وصدي الصوت القوي الذي كان يتردد في جنباتها يوماً ما غير بعيد (- -) ٤

وقد سادت الفوضى بعد موت خمارويه وأصبحت مصر غير قادرة علي السيطرة علي ممتلكاتها في الشام وغيرها ، وجاء ثلاثة من الطولونيين حكموا مصر لمدة قصيرة ، بلغ فيها الضعف ما بلغه مما أدي إلي انهيار الدولة حيث كان الخليفة العباسي في ذلك الوقت يراقب ما يحدث في مصر ويتابع ما يدور بها وقرر استعادة السيادة الكاملة والسيطرة المطلقة علي مصر

نقلا عن كتاب - مصر في العصور الوسطي - (د محمود الحويري) ، وكتاب - مصر من تاني - محمود السعدني

^١ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١١١

^٢ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١١١

^٣ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١١١

^٤ مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ٢٥

١١١. بعض أبيات من رثاء الدولة الطولونية من كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي :

قف وقفةً وانظر إلي الميدان	والقصر ذي الشرفات والأيوان
والجوسق العالي المنيف بناؤه	ما باله قفر من السكان
فانظر إلي ما شيدوا من بعدهم	هل فيه غير اليوم والغريان
أين الألي حفروا العيون بأرضه	وتأنقوا فيه وفي البنيان
غرسوا صنوف النخل في ساحاته	وغرائب الأعناب والرمان
والزعفران مع البهار بأرضه	والورد بين الآس والريحان
كانوا ملوك الأرض في أيامهم	كبراء كل مدينة ومكان
فتمزقوا وتفرقوا فهناك هم	تحت الثري يبلون في الأكفان
والله وارث كل حي بعدهم	وله البقاء وكل شئ فان

١١٢. أبو بكر الإخشيد يتولى حكم مصر (ويؤسس الدولة الإخشيدية)

قال المقرئ عن أبو بكر محمد ابن طغج الملقب بالإخشيد ما يلي (- -) وكان حازماً شديداً التيقظ في حروبه ، حسن التدين ، مكرماً للأجناد ، شديد - لا يكاد يجر قوسه غيره ، حسن السيرة في الرعية ، نجيباً شهماً - (١) ولقب الإخشيد هو اللقب الذي يتلقب به ملوك أحد بلاد ما وراء النهر وتسمى فرغانة (- -) وشهدت مصر في عصر الدولة الإخشيدية رغم قصره نشاطاً حضارياً مزدهراً في ميادين الفنون والآداب والعلوم ، ويتضح ذلك من تشييد العمائر وإنتاج التحف والآثار الفنية التي تمثل شتي ميادين الفن الإسلامي (- -) ٢ ، (- -) وتميز عهد الإخشيديين بظهور عدد من أعلام الفقه من أبناء مصر كان لهم نشاطاً مرموقاً (- ٣) ، (- -) واهتم الإخشيديون بانتعاش الأحوال الاقتصادية في مصر وأولوا عنايتهم بالزراعة والصناعة والتجارة ، أما الزراعة فكانت الحرفة الأساسية لمعظم السكان ، وتمثل المورد الرئيسي لدخل الدولة ، ولم يكن إيجار الأرض الزراعية مرتفعاً في العصر الإخشيدي ، إذ كان يتراوح بين دينار واحد وبين دينارين ونصف دينار للفدان في السنة حسب جودة الأرض - وقد بذل كافور الإخشيدي جهده لتنمية الزراعة ، حتي زاد خراج مصر علي أربعة ملايين كل سنة وبلغ خراج الفيوم وحده سنة ٣٥٦ هـ " ٩٧٦م " في عهد كافور أكثر من ٦٢٠ ألف دينار (٤) ، أما عن الصناعة فيقول د محمود الحويري (-) وإلي جانب هذا كانت مصر بلداً صناعياً هاماً في العصر الإخشيدي ، فاشتهرت بصناعة النسيج الرقيق في تنيس ودمياط وشطا وديبق ، وامتازت بصفة خاصة بالأقمشة ذات الخيوط الذهبية التي كانت تصدرها إلي العراق ، وقد ظل الخلفاء العباسيون في عهد الإخشيد يستمدون من مصر أكثر ما يلزمهم من المنسوجات النفيسة المحلاة بكتابات كوفية فيها العبارات والأدعية المعروفة - - وظهرت في العصر الإخشيدي صناعة الورق التي حلت محل البردي وترجع أول وثيقة حكومية من الورق إلي عام ٩١٢م ، كما ترجع آخر وثيقة حكومية من ورق البردي إلي عام ٩٣٥م ، يضاف إلي هذا اشتهار مصر حينئذ بصناعة الأسلحة والتحف الدقيقة المطعمة بالذهب والفضة والجواهر الثمينة - - واحتفظ نهر النيل بمكانته الهامة في نقل التجارة الداخلية بين شمال مصر وجنوبها في العصر الإخشيدي (- ٥) وكما طلب ابن طولون من الخليفة العباسي الحضور إلي مصر واتخاذها مقراً له خوفاً عليه من مؤامرات الأتراك ، فعل الإخشيد نفس الشيء وطلب من أمير المؤمنين أن يحضر إلي مصر (- -) فالتقي به الإخشيد في الشام ، وأبدي له بالغ الاحترام والتقدير ودعاه إلي ترك بغداد والمجيء إلي مصر والإقامة فيها - - ولكن الخليفة فضل ألا يترك عاصمة ملكه ورفض عرض الإخشيد - - وإذا كان الإخشيد قد أخفق في جعل مصر مركزاً للخلافة العباسية ، فإن ذلك الأمر قد تم فيما بعد علي يد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في سنة ٦٥٩ هـ " ١٢٦١م " (٦) ، ومن هنا يتضح أن الإخشيد كان حريصاً علي الخلافة العباسي ومخلصاً له أشد الإخلاص ، من كتاب (مصر في العصور الوسطي) تأليف د محمود الحويري - مقتطفات من صفحات ١٣٣-١٣٤-١٣٦ طبعة ٢٠٠٥

^١ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٢٧ (نقلاً عن المقرئ)

^٢ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٣٣

^٣ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٣٤

^٤ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٣٥

^٥ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٣٦

^٦ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٣٠ ، ١٣١

١١٣. أبو الطيب المتنبي يرثي أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد

عاش المتنبي أفضل أيام حياته وأكثرها عطاء في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب وكان أحد أعظم شعراء العرب، وأكثرهم تمكناً باللغة العربية وأعلمهم بقواعدها ومفرداتها، وله مكانة سامية لم تتح مثلها لغيره من شعراء العربية. فيوصف بأنه نادرة زمانه، وأعجوبة عصره، وظل شعره إلى اليوم مصدر إلهام ووحى للشعراء والأدباء. وهو شاعر حكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. وتدور معظم قصائده حول مدح الملوك. وقد مدح سيف الدولة كما عاتبه أيضاً في قصيدة شهيرة فيما يلي بعض مقتطفات منها :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي "
 فيك الخصام و أنت الخصم والحكم "
 سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا "
 بانني خير من تسعى به قدم "
 انا الذي نظر الأعمى إلى أدبي "
 و أسمعت كلماتي من به صمم "
 إذا رأيت نيوب الليث بارزة "
 فلا تظنن أن الليث يبتسم "
 الخيل والليل والبيداء تعرفني "
 والسيف والرمح والقرطاس و القلم "
 يا من يعز علينا أن نفارقهم "
 وجداننا كل شيء بعدكم عدم "
 إن كان سركم ما قال حاسدنا "
 فما لجرح إذا أرضاكم ألم "

وعندما مات حاكم مصر أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد الذي يقول عنه المقرئ (- وكان حازماً شديداً التيقظ في حروبه ، حسن التدبير ، مكرماً للأجناد ، شديد القوي لا يكاد يجر قوسه غيره ، حسن السيرة في الرعية ، نجيباً شهماً -)^١ وتأثر الناس بموته ورثاه المتنبي فقال :

هُوَ الزَّمَانُ مَنْتَبَ بِالَّذِي جَمَعَا
 فِي كُلِّ يَوْمٍ تَرَى مِنْ صَرْفِهِ بَدْعَا
 لَوْ كَانَ مُمْتَنِعٌ تُغْنِيهِ مُنْعَتُهُ
 لَمْ يَصْنَعْ الدَّهْرُ بِالْإِخْشِيدِ مَا صَنَعَا
 ذَاقَ الْحِمَامَ فَلَمْ تَدْفَعْ عَسَاكِرُهُ
 عَنْهُ الْقَضَاءُ وَلَا أَغْنَاهُ مَا جَمَعَا
 لَوْ يَعْلَمُ اللَّحْدُ مَا قَدْ ضَمَّ مِنْ كَرَمٍ
 وَمِنْ فَخَارٍ وَمِنْ نِعْمَاءٍ لَا تَسْعَا
 يَا لَحْدُ طُلَّ إِنَّ فِيكَ الْبَحْرَ مُحْتَبَسَا

^١ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة ١٢٧ (نقلاً عن المقرئ)

وَاللَّيْثَ مُهْتَصِرًا وَالْجُودَ مُجْتَمِعًا
يَا يَوْمَهُ لَمْ تَخُصَّ الْفَجْعَ أُسْرَتَهُ
كُلُّ الْوَرَى بِرَدَى الْإِخْشِيدِ قَدْ فُجِعَا

وعندما تولى بعد ذلك أبو المسك كافور حكم مصر في نهاية عصر الدولة الإخشيدية مدحه المتنبي في البداية ثم
اختلف معه وهجاه بعد ذلك

١١٤ . أَبَا كُلِّ طَيْبٍ لَا أَبَا الْمِسْكِ وَحْدَهُ

في أواخر عصر الدولة الإخشيدية وعندما تولى أبو المسك كافور الإخشيدى حكم مصر وقعت في مصر هزة أرضية عظيمة خافوا الناس من ذلك وهربوا إلى الجبال وتشاءم الأمير كافور من الأمر واعتزل الناس ، حتي أخرجه من عزلته شاعر مصر الرسمي محمد بن عاصم ، إذ دخل عليه وألقى قصيدة عصماء بين يديه منها هذا البيت :

ما زلزلت مصر من خوفٍ يرادُ بها

لكنها رقصت من عدله طربا

قصيدة دفع فيها أبو المسك كافور ألف دينار ذهباً ، وهذه الجائزة هي السبب الحقيقي الذي جعل المتنبي يشد رحاله إلى كافور ، فإذا كان يدفع ألف دينار إلى شاعر مثل محمد بن عاصم فكم يدفع لشاعر في وزن المتنبي ، وبالفعل حضر أبو الطيب المتنبي إلى مصر ومدح كافور في قصيدة شهيرة هذه مقتطفات منها

وَحَسْبُ الْمَنَآيَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

صَدِيقًا فَأَعْيَا أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا

فَلَا تَسْتَعِدَّنَ الْحُسَامَ الْيَمَانِيَا

وَقَدْ كَانَ غَدَارًا فَكُنْ أَنْتَ وَافِيَا

لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجِعَ الْقَلْبِ بِأَكْيَا

حَيَاتِي وَنُصْحِي وَالْهَوَى وَالْقَوَافِيَا

وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّوَافِيَا

فَإِنْ لَمْ تَدُبْ مِنْهُمْ أَبَادَ الْأَعَادِيَا

إِلَيْهِ وَذَا الْيَوْمِ الَّذِي كُنْتُ رَاجِيَا

وَكُلَّ سَحَابٍ لَا أَخْصَّ الْغَوَادِيَا

فَإِنَّكَ تُعْطِي فِي نَدَاكَ الْمَعَالِيَا

فَيَرْجِعُ مَلُكًا لِلْعَرَاقِينِ وَالْيَا

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا

تَمَنِّيْتُهَا لَمَّا تَمَنَيْتَ أَنْ تَرَى

إِذَا كُنْتَ تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ بِذِلَّةٍ

حَبِيبَتُكَ قَلْبِي قَبْلَ حُبِّكَ مِنْ نَائِي

خُلِفْتُ أَلُوفًا لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبِي

وَلَكِنْ بِالْفُسْطَاطِ بَحْرًا أَرْزَتْهُ

قَوَاصِدَ كَافُورٍ تَوَارِكَ غَيْرِهِ

يُبِيدُ عَدَاوَاتِ الْبَغَاةِ بِلُطْفِهِ

أَبَا الْمِسْكِ ذَا الْوَجْهِ الَّذِي كُنْتُ تَائِفًا

أَبَا كُلِّ طَيْبٍ لَا أَبَا الْمِسْكِ وَحْدَهُ

إِذَا كَسَبَ النَّاسُ الْمَعَالِي بِالنَّدَى

وَعَبْرُ كَثِيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ

ولكن لم يتحقق ما كان يتمناه المتنبي من كافور فهجاه بعد ذلك وقد كتب الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني عن كافور في كتابه الممتع مصر من تاني ما يلي : لقد كان عمنا كافور صاحب فضل وصاحب علم ، وكان لا يصاحب إلا أعلم أهل زمانه ، وكان من حاشيته علماء النحو وعلماء الفقه وأعدل القضاة ، وكانت موائده العامرة مبدولة للجميع ، ودواره مفتوحة للفقراء قبل الأثرياء ، وكان لمطبخه في كل يوم ألفا رطل من اللحم البقري وسبعمئة رطل من اللحم الضأن ، ومائة طير أوز ، وثلاثمئة طير دجاج ، وثلاثمئة فرخ حمام ، وعشرون فرخ سمك كبار ، وعشرون جملاً رضع ، وثلاثمئة صحن حلوي ، وألف قفص من تفاح ، ومائة قرية من السكر ، وكان يحضر علي سماطه الخاص والعام

وقد اضطربت أحوال مصر بعد وفاة كافور وأصبحت جاهزة تماماً للزحف الفاطمي من الغرب وقد كان المعز لدين الله الفاطمي ينتظر هذه اللحظة لينتزع مصر من الخلافة العباسية السنية ويضمها للمد الشيعي فكان يعد العدة لذلك ويقول عن ذلك د محمود الحويري (- بدأ المعز لدين الله الفاطمي يعد العدة لفتح مصر ، فحفر الآبار علي الطريق من أفريقية إلى برقة ، وأنشأ النزل علي رأس كل مرحلة من هذا الطريق ، وعندما وصلت الأخبار بموت كافور الإخشيدى جهز جيشاً ضخماً بلغ تعداداه مائة ألف مقاتل أغلبهم من القبائل البربرية عهد بقيادته إلي قائده جوهر الصقلي ، وقد تجمع هذا

الجيش في مدينة القيروان ، وهناك التفت المعز إلي المشايخ الذين وجههم مع جوهر وقال : والله لو خرج جوهر هذا وحده ليفتح مصر وليدخلنها بالأردية من غير حرب ----- ويبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا - - ١)
 من كتاب (مصر من تاني) تأليف (محمود السعدني) صفحة ٢٧ ، ومن كتاب (مصر في العصور الوسطي) تأليف
 (د محمود الحويري) صفحة ١٣٨ ، ١٤٥

^١ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٤٥

١١٥. سيف المعز وذهبه

عندما أشاع المعز لدين الله أن نسبه يعود إلي السيدة فاطمة الزهراء قال أحد الشعراء في مصر :

إنا سمعنا نسباً منكراً - - - يتلي علي المنبر في الجامع
إن كنت فيما تدعي صادقاً - - فاذكر أبا بعد الأب الرابع
أو فدح الأنساب مستورة - - وادخل بنا في النسب الواسع

وقد أثار موضوع نسب بني عبيد إلي البيت العلوي الكثير من الجدل في أوساط الأمة الإسلامية حتي أن المعز لدين الله عندما سأله أعيان مصر عن نسبه (-) وضع المعز يده علي مقبض سيفه وجذبه من جرابه إلي النصف وقال هذا " نسبي " ثم مد يده الأخرى بمقدار من الذهب ونثره عليهم وقال هذا " حسبي " ١ - - - ثم ذكر ابن خلكان أن المصريين اعتبروا هذا التصرف فراراً من الجواب لأنه مدخول في نسبه (-) ٢

وقد اعتبر المعز أن من يمتلك القوة والمال يمتلك السلطة ويرمز بذلك بالسيف والذهب ، وإن كان الفاطميون قد نجحوا في فرض سيطرتهم بالقوة علي الشعب المصري إلا أن المصريين (-) - لم يقبلوا فكرة تقديس الأئمة وعصمة الإمام وهي الفكرة التي كانت تضيي نوعاً من القدسية الإلهية رفضها المصريون من قبل فيما يتعلق بألوهية فرعون أو الأباطرة الرومان فيما بعد ، وكان المصريون يسخرون كثيراً من هذا الجانب في المذهب الشيعي) ،
وقد كتب الكاتب الكبير محمود السعدني عن الدولة الفاطمية ما يلي :

(- -) ولكن وأياً كان الأمر في أصل المعز وفصله ومهما قيل عن ثروته وذهبه وسيفه فالذي لا شك فيه أن كل العصور التي مرت في السابق كانت شيئاً والعصر الفاطمي شيئاً آخر فهذه بالفعل دولة الانفتاح والكذب والرشوة وهذا هو عصر الأقارب والمحاسيب والأنصار وستعود الدولة المصرية الإسلامية إلي عصر فرعون الذي ولي ، دولة غنية وشعب من الفقراء وأسرة حاكمة تملك كل شئ وشعب لا يملك إلا صلاة النبي - - -) ٣

وقد سيطرت الدولة الفاطمية علي مصر من سنة ٩٦٩ م إلي سنة ١١٧١ م ؛ أي حوالي ٢٠٢ سنة وأسسوا عاصمة جديدة لمصر بل للخلافة الفاطمية كلها وهي مدينة القاهرة وحكم منهم ١١ خليفة أشهرهم المعز لدين الله والحاكم بأمر الله والمستنصر بالله وآخرهم العاضد لدين الله الذي انتهت في عهده الدولة الفاطمية علي يد صلاح الدين الأيوبي الذي أعاد مصر إلي المذهب السني وإلي الخلافة العباسية مرة أخرى

من كتاب (أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم) (لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد) صفحة ١١ وكتاب (مصر من تاني) تأليف (محمود السعدني) صفحة ٣٢ ، ،

^١ المقصود هنا أن الحسب والنسب هما القوة والمال ومن يمتلك القوة والمال يمتلك السلطة

^٢ أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم (لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد) صفحة ١١

^٣ مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ٣٢

^٤ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ٨٦ ، ٨٧

١١٦. القاهرة الفاطمية في أيام مجدها الأول

نقلًا عن كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان ١٨٩٦-١٩٨٦ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مكتبة الأسرة ١٩٩٨ - صفحة ٣٣ ، ٣٤



ولبثت القاهرة منذ قيام الدولة الفاطمية في مصر عاصمة الملك والخلافة ، وبلغت أيام الفاطميين من الضخامة والرونق والبهاء مبلغاً عظيماً بل إنه لم يمض نصف قرن فقط علي قيام القاهرة المعزية حتي كانت بقصورها ومرافقها تكون مدينة من أعظم مدن الإسلام وكانت القصور الفاطمية قد نمت وبلغت منذ أوائل القرن الخامس الهجري منتهى الضخامة والبذخ وكان القصر الخلفي الكبير أو القصر الشرقي يقع في وسط المدينة في منطقة خالية وأمامه من الناحية الغربية يقع القصر الغربي أو القصر الصغير وهو الذي أنشأه الخليفة العزيز بالله وخصص فيما بعد لإقامة ابنته الأميرة ست الملك ، وبين الصرحين ميدان شاسع هو ميدان بين القصرين الشهير وهو الذي كانت تجتمع فيه الجيوش المسافرين أو الحرس الخلفي أو طوائف الشعب أيام الأعياد والأحداث العامة وكان الجامع الأزهر وهو جامع القاهرة الرسمي ، يحتل مكانه الخالد ، الذي يقوم فيه حتي اليوم ، وسط المدينة فيما بين الشرق والغرب ، وقد وصف لنا الشاعر والرحالة الفارسي ناصري خسرو الذي زار القاهرة سنة ٤٣٨هـ - ١٠٤٦م - القصر الفاطمي الكبير بقوله :

إنه قصر شاسع تراه من خارج المدينة كأنه جبل نظراً لضخامة مبانيه وارتفاعها ، ولا يمكن أن تراه من داخل المدينة إذ تحيط به أسوار شاهقة الارتفاع ، ويقال إن هذا القصر يضم من الحشم اثني عشر ألف نفس ، ومن ذا الذي يستطيع أن يقول كم يضم من النساء والبنات ، وهم يؤكدون أنه يضم ثلاثين ألف شخص ، ويتكون القصر من عشرة أجنحة وله عشرة أبواب تفضي إلي الحرم

ثم يقول ناصري خسرو إن القاهرة لها خمسة أبواب وهي ليست محصورة في رقعة محصنة ولكن المباني والمنازل مرتفعة جداً حتي أنها تبدو أعلي من الحصن وكل منزل وكل قصر يمكن اعتباره قلعة ومعظم المنازل تضم خمس أو ست طبقات

وقد بنيت منازل القاهرة بمنتهى العناية والترف حتي ليكن أن يقال إنها قد بنيت من الأحجار الكريمة وليس من الآجر أو الأحجار العادية والمنازل كلها منعزلة بحيث أن الأشجار القائمة في أحدها لا تصل أغصانها إلي المنزل الآخر ويستطيع كل إنسان أن يهدم داره وأن يبنيتها دون أن يضار أحد

وتضم القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف حانوت كلها من أملاك الخليفة ومنها عدد عظيم يؤجر الحانوت منه بعشرة دنانير معزية في الشهر والقليل منها يؤجر بأقل من ذلك كذلك يوجد منها عدد عظيم يصعب حصره من الخانات والحمامات

وغيرها من الأبنية العامة وهذه أيضاً كلها من أملاك الخليفة إذ لا يسمح لإنسان أن يمتلك منزلاً أو عقاراً إلا ما كان من أبنية الخليفة نفسه

هذا ما يقوله رحالة زائر عابر خلّبت لبه روعة القاهرة المعزية ، ومن ثم فإننا نستطيع أن نفهم كيف سحرت هذه العظمة وهذه الصروح الباذخة التي امتازت بها العاصمة الفاطمية ألباب المعاصرين واللاحقين من المؤرخين والكتاب من أبنائها وشغف بتسطير ووصف صروحها وبذخها وبهائها ، أقلام بارعة كأقلام ابن زولاق والمسبحي والقضاعي وابن عبد الظاهر ثم المقرئ ، ولقد شهدت القاهرة في ظل الخلافة الفاطمية ألواناً من العظمة والبهاء والبذخ قلما شهدت في ظل دولة إسلامية أخرى ومع أنها نمت بعد ذلك نمواً عظيماً واتسعت جنباتها وأحيائها حتى غدت في القرن التاسع الهجري أضعاف ما كانت عليه أيام الفاطميين فإنها لم تسطع بمثل ما سطعت في عهدها الأول ولم تشهد مثل ما شهدت فيه من مواكب الخلافة الفخمة ، ورسومها وأعيادها الباذخة ولياليها وحفلاتها الباهرة ، نفلأعن كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان

والطريف أنه لم يترك الفاطميون عيداً إلا واحتفلوا به وكأن الاحتفال في حد ذاته هو المهم وليست المناسبة الخاصة به ، وكانوا يبالغون كثيراً في مظاهر هذه الاحتفالات واحتفلوا (- برأس السنة الهجرية وبليلة المولد النبوي الكريم وبليلة أول رجب وبليلة المعراج فيه وبليلة أول شعبان ونصفه وغرة رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى ومولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومولد ولديه الحسن والحسين ومولد زوجه السيدة فاطمة الزهراء ويوم عاشوراء وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين بن علي في كربلاء وكانت الخلافة الفاطمية تحتفل بهذه الأعياد - عدا يوم عاشوراء - في فيض من البهاء والبذخ - - أما يوم عاشوراء فكان يعتبر يوم حزن عام تغلق فيه الأسواق - - واحتفل الخلفاء الفاطميون بأعياد الأقباط بكثير من مظاهر الأبهة والعظمة ومن أهم تلك الأعياد ليلة الغطاس وخميس العهد - - كذلك اهتم الفاطميون بالاحتفال بوفاء النيل فقد كان الخليفة يخرج وفي ركبة عشرة آلاف فارس يمتطون الخيل المطهمة الملجمة ، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة (-) ١ ، وقد (-) أسهب المؤرخون في وصف مظاهر الترف والبذخ والثراء التي عرفها العصر الفاطمي بصورة لا نجدها في مصر في سائر العصور ، ويتجلى بذخ الخلفاء في القصور التي بنوها ومن أشهرها القصر الشرقي الذي بناه جوهر الصقلي للخليفة المعز لدين الله الفاطمي والقصر الغربي الذي بناه الخليفة العزيز بالله - - ومما يدل على مظاهر الثروة والأبهة عند الخلفاء الفاطميين الوصف الذي أورده المؤرخ الصليبي وليم الصوري رئيس أساقفة صور عند زيارة سفير عموري الأول ملك بيت المقدس - - في عهد الخليفة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية فقد جاء فيه " وقد استقبل السفيران بحفاوة ، فاجتازوا الردهات والأبواب التي يقف عليها حراس سودانيون أشداء بسيوفهم اللامعة وكذلك الحدائق المليئة بالحيوانات والطيور النادرة ، وأخذوا يسيران من قاعة إلى أخرى حتي ظهرت أمامهما قاعة العرش الذهبي ، وقد أسدل عليها ستارة من الحرير مرصعة بالذهب واللائي ، ومثلت عليها صور بشرية كثيرة وهيئات طيور وحيوانات تتألق بأحجار الزمرد والياقوت والأحجار الكريمة من كل نوع ، ثم فتحت الستارة فظهر الخليفة جالساً علي مقعد من الذهب والأحجار الكريمة وقد ارتدي ملابس فاخرة لم يتح لكثير من الملوك إذ ذاك لبسها - -

٢(

وجدير بالذكر أنه قد تولى الفاطميون حكم مصر من سنة ٩٦٩ م إلي سنة ١١٧١ م ٣ أي حوالي ٢٠٢ سنة وسيطروا لفترة كبيرة علي معظم أنحاء الأمة الإسلامية مثل شمال أفريقيا والشام والحجاز واليمن ، وتولي القائد جوهر الصقلي حكم مصر وأعدّها لاستقبال المعز لدين الله ويعتبر جوهر الصقلي أول حاكم لمصر في عصر هذه الدولة وحتى حضور المعز لدين الله أبو تميم " معد " في رمضان سنة ٣٦٢ هـ / يونيو ٩٧٣ م وتوفي المعز سنة ٩٧٥ م وخلفه ابنه العزيز لدين الله

^١ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة ١٧١

^٢ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة ١٧٠

^٣ موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة ٨٦ ، ٨٧

"نزار" أبو منصور إلي أن توفي سنة ٩٩٦ م وجاء بعده ابنه الحاكم بأمر الله المنصور أبو علي إلي أن قتل سنة ١٠٢٠ م ثم الظاهر لإعزاز دين الله ثم المستنصر بالله ثم المستعلي بالله ثم الأمر بأحكام الله ثم الحافظ لدين الله ثم الظافر بأمر الله ثم الفائز بنصر الله وأخيراً العاضد لدين الله آخر خليفة فاطمي حكم مصر وانتهت في عهده الدولة الفاطمية علي يد صلاح الدين الأيوبي حيث أعادها إلي المذهب السني وإلي ظل الخلافة العباسية مرة أخرى

١١٧. الشدة المستنصرية في العصر الفاطمي :

أثناء ما يسمى بالشدة المستنصرية في العصر الفاطمي (- - -) وكان من مظاهرها الغلاء الشديد وانتشار الأوبئة التي أدت بحياة الألوف في ريف مصر ومدنها واقتربت هذه الشدة بقيام الفتن والاضطرابات في مصر (- -) ١ ، وقال المقرئ (- -) ثم وقع في أيام المستنصر بالله الغلاء الذي فحش أمره وشنع ذكره وكان أمده سبع سنين وسببه ضعف السلطنة ، واختلال أحوال المملكة واستيلاء الأمراء علي الدولة ، واتصال الفتن بين العريان وقصور النيل ٢ - أي قلة المياه به - - وكان ابتداء ذلك سنة سبع وخمسين وأربعمائة - هجرية - ، فنزع السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتي تعطلت الأراضي من الزراعة وشمل الخوف ، وخيفت السبل برأ وبحراً - - وأكلت الكلاب والقطط حتي قلت الكلاب فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنائير وتزايد الحال حتي أكل الناس بعضهم بعضاً وتحرز الناس - - ثم آل الأمر إلي أن باع المستنصر بالله كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره وصار يجلس علي حصير وتعطلت دواوينه وذهب وقاره وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن : الجوع الجوع تردن المسير إلي العراق فتسقطن عند المصلي وتمتن جوعاً - - واحتاج المستنصر حتي باع حلية قبور آباءه - - ٣

ويذكر المقرئ أيضاً غلاء وقع في أيام الخليفة الأمر بأحكام الله وغلاء آخر وقع في أيام الحافظ لدين الله وكان الوزير هو الأفضل بن وحش ووقع غلاء في أيام الفائز بوزارة الصالح طلائع بن رزيك ٤ (- -) وقد دفع سوء الأحوال في مصر الخليفة المستنصر بالله إلي استدعاء بدر الجمالي من فلسطين لإعادة الأمور إلي نصابها - فلما ولي الوزارة سنة ٤٦٦ هـ " ١٠٧٣ م " قضى علي المفسدين وعناصر الشدة فاستقرت الأمور وعاد الرخاء تدريجياً - - ٥ (- -) وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر - الجمالي - إلي آخر الدولة - الفاطمية - هو سلطان مصر ، وصاحب الحل والعقد ، ٦(-)

وقد استمرت الدولة الفاطمية تسيطر علي جزء كبير من العالم الإسلامي وفي عهد المستعلي بالله تم وصول الحملة الصليبية الأولى وإعلان قيام مملكة صليبية في بيت المقدس الذي كان في ذلك الوقت تحت سيطرة الفاطميين إلي أن تم سقوط الدولة الفاطمية علي يد صلاح الدين الأيوبي ثم تحرير بيت المقدس بعد ذلك من كتاب (مصر في العصور الوسطي) تأليف (د محمود الحويري) صفحة ١٥٧ وكتاب (إغاثة الأمة بكشف الغمة) (المقرئ) صفحة ٥٢ ، ٥٣ ، - - - - -

^١ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٦٦

^٢ قصور النيل معناه قلة الماء فيه

^٣ إغاثة الأمة بكشف الغمة (المقرئ) صفحة ٥٢ ، ٥٣

^٤ صاحب مسجد الصالح طلائع المواجه لباب زويلة بالقرب من الغورية والخيامية

^٥ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٦٦

^٦ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٥٧ (نقلاً عن المقرئ)

١١٨. شاور وضرغام ونهاية الدولة الفاطمية في مصر

عصر الوزراء :

سيطر الوزراء علي حكم مصر في العصر الفاطمي منذ عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله وأثناء مجاعة وشدة كبري ألفت بمصر

وكان أول من سيطر منهم علي الأمور هو أمير الجيوش بدر الجمالي والذي يطلق اسمه حالياً علي حي الجمالية بالقاهرة الفاطمية

(- -) وقد دفع سوء الأحوال في مصر الخليفة المستنصر بالله إلي استدعاء بدر الجمالي لإعادة الأمور إلي نصابها فلما ولي الوزارة سنة ٤٦٦ هـ " ١٠٧٣ م " قضي علي المفسدين وعناصر الشدة فاستقرت الأمور وعاد الرخاء تدريجياً - ١(

ويقول المقرئزي عن زيادة نفوذ الوزراء في مصر (- وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر إلي آخر الدولة هو سلطان مصر ، وصاحب الحل والعقد ، وإليه الحكم في الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية وهو الذي يولي أرباب المناصب الديوانية والدينية -) ٢

ويقول ابن الأثير (- كانت الوزارة في مصر لمن غلب والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالمتكلمين وقل أن وليها أحد بعد الأفضل " الوزير الفاطمي " إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك -) ٣ وتدهور الأحوال في مصر واشتعلت الصراعات علي منصب الوزارة

وكان الصليبيون قد نجحوا في تأسيس مملكة صليبية في بيت المقدس بعد أن تمكنوا من هزيمة الفاطميين (- وكان أن اخترقت الحملة الصليبية الأولى آسيا الصغرى ومنها زحف الصليبيون نحو مدينة بيت المقدس التي كانت خاضعة للفاطميين آنذاك فسقطت في أيديهم في ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ م وهناك لم يتورعوا عن ارتكاب أفظع الأعمال الوحشية فقتلوا عشرات الألوف من المسلمين أطفالاً ونساءً ورجالاً وشيوخاً مما ترك أثراً سيئاً عميقاً في جميع أنحاء العالم الإسلامي ولم تمض سنوات قليلة حتي أسس الصليبيون ثلاث إمارات كبري في الرها وانطاكية وطرابلس فضلاً عن مملكة بيت المقدس الصليبية ، وبعبارة أخرى ، صار في أيدي الصليبيين الجانب الأكبر من فلسطين وساحل الشام وموانئه لتأمين الاتصال البحري بأوروبا الغربية -) ٤ ،

واستمرت مملكة بيت المقدس تحاول الاستيلاء علي مصر إلي أن اتفقت الدولة الفاطمية مع الصليبيين علي دفع جزية قدرها مائة وستون ألف دينار ٥ من الفاطميين للصليبيين مقابل عدم غزو مصر ، وكان صراع الوزراء علي السلطة هو الشغل الشاغل في مصر والقتال الدامي ومن أكبر النزاعات علي منصب الوزارة في مصر ما دار بين رجلين مهمين من رجال الدولة وهما " شاور " و " ضرغام " فهي حكاية مهمة جداً وأصبح لها تأثير كبير علي الأحداث بعد ذلك

حكاية شاور وضرغام :

^١ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٦٦

^٢ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٥٧ (نقلاً عن المقرئزي)

^٣ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٥٧ (نقلاً عن ابن الأثير)

^٤ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٦٠

^٥ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٨٥

وقد لجأ كل منهما إلي قوة خارجية لتدعم موقفه في الصراع
 أما شاور فقد لجأ إلي نور الدين محمود حاكم الشام القوي ، وطلب منه أن يرسل معه جيشاً إلي مصر ليستعيدها من
 ضرغام مقابل (ثلث إيرادات مصر وأن يدين له بالولاء إن عادت إليه مقاليد الحكم والوزارة - ١)
 وكان نور الدين محمود علي المذهب السني بالطبع أما شاور وضرغام والفاطمييين جميعاً علي المذهب الشيعي فقد
 كانت صفقة غريبة بين طرف شيعي وطرف سني ليس من وراءها إلا الوصول للسلطة بأي أسلوب ،
 أما ضرغام فقد لجأ للصليبيين وقوتهم في صراعه مع شاور وكان موقف نور الدين محمود علي ما يبدو يؤكد أنه يريد
 أن يتدخل في مصر بأي أسلوب أو أي صورة كي يتم له مستقبلاً إزالة الشيعة من مصر ووجد أن مساعدة شاور في خطته
 فرصة لوضع يده علي مصر والسيطرة عليها كخطوة لتوحيد الأمة الإسلامية في مواجهة الصليبيين ،
 وكما فكر نور الدين محمود في هذا فقد فكر أيضاً الصليبيون في مساعدة ضرغام وبالتالي يكون لهم نفوذ في مصر
 وقوة علي أرضها وطبعاً هناك فرق بين تفكير نور الدين محمود ونواياه ، وبين تفكير الصليبيين ونواياهم ، وبالمناسبة كان
 ملك بيت المقدس في ذلك الوقت اسمه الملك "عموري" أو هكذا تم درجه في كتب التاريخ العربي ، وإليك عزيزي القارئ
 بعض تفاصيل الصراع

أسد الدين شيركوه يهزم ضرغام :

قرر نور الدين محمود إرسال جيش بقيادة أسد الدين شيركوه إلي مصر بصحبة شاور ،
 (- علم ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله إلي مصر فأصابه الفزع إذ لم يكن الجيش الفاطمي في ذلك الوقت
 في حالة تمكنه من المقاومة أو إحراز النصر - ٢)
 وأرسل ضرغام رسائل إلي عموري ملك بيت المقدس لينقذه ولكن كان قد فات الأوان فقد قام أسد الدين شيركوه وجيشه
 بهزيمة ضرغام هزيمة ساحقة انتهت بقتل ضرغام وتفرق أعوانه وتم تعيين شاور وزيراً في مصر في الدولة الفاطمية
 ثم قرر شاور الغدر بأسد الدين شيركوه ورفض إعطائه ما تم الاتفاق عليه وطلب منه العودة إلي الشام هو وجيشه،
 وطبعاً أسد الدين شيركوه رفض وقرر أن يتحصن هو وجيشه في مدينة بلبيس ولم يغادر مصر
 شاور يرسل إلي عموري :

ولأن شاور ومن قبله ضرغام كل ما يهمهما هو السلطة ، أرسل شاور إلي ملك الصليبيين عموري لينقذه من جيش أسد
 الدين شيركوه وبالفعل حضر عموري بنفسه علي رأس جيش قوي إلي مصر ليوقف بجوار شاور ضد أسد الدين شيركوه وكان
 عموري بالطبع علي علم بأن الدولة الإسلامية الموجودة في الشام علي خلاف مع الدولة الموجودة في مصر ولذلك لم يكن
 يعتبر نفسه محاصراً من الشمال والجنوب من دولة إسلامية واحدة قوية ،
 وهكذا اجتمع في مصر جيش إسلامي سني وجيش إسلامي شيعي وجيش صليبي ، وطبعاً كان ملك الصليبيين يخشي
 أن يسيطر نور الدين محمود علي مصر فيصبح خطره من الشمال والجنوب ويتم حصار الصليبيين بدولة إسلامية واحدة
 علي مذهب واحد وتحت قيادة واحدة

عموري يحاصر بلبيس :

حاصر عموري بلبيس بمن فيها من جيش أسد الدين شيركوه لمدة ثلاثة أشهر وهنا أيقن نور الدين محمود خطر وجود
 عموري في مصر وأن جيش أسد الدين ليس بالقوة الكافية لمواجهة الصليبيين في بلبيس ،
 فقرر أن يجبر ملك الصليبيين علي الانسحاب وذلك بمهاجمة قواته في الشام مما جعل عموري يقلق علي مملكته وهو
 غائب عنها وقرر أن الأولوية للمملكة وليس لحصار بلبيس ،

^١ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة ١٤

^٢ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة ١٥

وكان هذا بالطبع تصرف حكيم من نور الدين محمود يؤكد أنه قائد علي مستوي عالي من الحنكة ، ويعرف كيف يضغط علي الأعداء ويفتح جبهات أخرى للقتال لتخفيف الضغط علي الجبهات الضعيفة ، ووصلوا في النهاية إلي حل وسط وقاموا بالاتفاق علي أن (- - ينسحبوا معاً وفي وقت واحد من مصر -) ١ وهكذا ترك أسد الدين شيركوه وجيشه مصر وترك أيضاً عموري وجيشه مصر

نفس الموقف يتكرر مرة أخرى :

كان نور الدين محمود يهدف إلي توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين واعتبر أن ضم مصر وسيلة مهمة لتحقيق هذا الهدف وكان مقتنعاً تماماً أن أسد الدين شيركوه كان يقود جيشاً صغيراً قليل العدد والعدة ولا يكفي لإتمام هذه المهمة ولم يكن يتوقع أن يذهب عموري بنفسه إلي مصر علي رأس جيش بهذه القوة ، بل لم يكن يتوقع أن شاور سيستجد بعدو مشترك لهما ، فأرسل نور الدين محمود القائد أسد الدين شيركوه للمرة الثانية إلي مصر ولكن بجيش أقوى من الجيش السابق خوفاً من عودة الصليبيين إلي مصر ، وللمرة الثانية أيضاً أرسل شاور إلي عموري ليأتي لمحاربة جيش أسد الدين شيركوه وتكرر المشهد ولكن لم يحدث قتال في بلبيس هذه المرة ولكن في المنيا حيث قام أسد الدين شيركوه بهزيمة شاور وعموري وأجبرهما علي الانسحاب إلي القاهرة ثم حدث بعد ذلك اتفاق علي مغادرة الجيشين لمصر ، ولكن ترك عموري حامية صليبية في القاهرة للدفاع عنها عند الضرورة ، وهكذا استعان الوزير شاور بقوة صليبية علي أسوار القاهرة للدفاع عن مركزه

المرة الثالثة :

حضر الملك عموري ملك بيت المقدس إلي مصر بجيشه للمرة الثالثة إلي مصر ولكن هذه المرة بدون دعوة ولكن لاحتلال مصر ، مما أدى إلي إصابة شاور بالرعب الشديد وأعد العدة للدفاع عن مصر (-) وأمر بإخلاء مدينة الفسطاط وإحراقها فظلت النار تعمل فيها وفي منشآتها ومبانيها أربعة وخمسين يوماً وأدرك الخليفة الفاطمي العاضد خطورة الموقف (- ٢) وكان الخليفة الفاطمي العاضد كمن سبقه من الخلفاء الفاطميين في أواخر عهد الدولة الفاطمية ليس له علاقة بالحكم لسيطرة الوزراء علي مقاليد الحكم ولكنه استشعر الخطر وأرسل العاضد بنفسه هذه المرة إلي نور الدين محمود لينقذ مصر من الاحتلال الصليبي ومن التصرفات الحمقاء التي يقوم بها وزيره ، فأسرع نور الدين محمود بإرسال أسد الدين شيركوه بجيش قوي إلي مصر وكانت قوة الجيش هذه المرة كافية لأن يرتد عموري ويعود إلي الشام (- بعد أن يؤس من الاستيلاء علي مصر يأساً تاماً -) ٣

وزير سني لخليفة شيعي :

حاول شاور الغدر بأسد الدين شيركوه وقتله حتي يخلو له الجو فقد علم أن الخليفة العاضد يثق بأسد الدين شيركوه ومنحه كافة الصلاحيات تقريباً ، كما أن شيركوه يسيطر علي الأمور ومعه جيش قوي متواجد في مصر للدفاع عنها بناءً علي طلب الخليفة الفاطمي ،

فتم التخلص من شاور وإراحة الناس من شره وغدره وخيائنه ،

وقام العاضد بتعيين أسد الدين شيركوه وزيراً له فأصبح الخليفة شيعي ووزيره سني موالٍ للخليفة العباسي في بغداد ولكن سرعان ما مات أسد الدين شيركوه بعد شهرين فقط من توليه الوزارة ،

^١ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة ١٥

^٢ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة ١٨

^٣ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني صفحة ١٨

فاختار العاضد لهذا المنصب صلاح الدين الأيوبي الذي كان يصاحب عمه أسد الدين شيركوه عند حضوره إلى مصر وقاتل معه الجيش الصليبي بقيادة عموري

صلاح الدين يسيطر علي مصر :

وكان صلاح الدين يوسف الأيوبي بصحبة عمه أسد الدين شيركوه وأحد قادة جيشه وشهد معه المعارك التي دارت في مصر مع الصليبيين وكان يدين بالولاء لنور الدين محمود حاكم الشام وللخليفة العباسي السني ، وقد أصبح صلاح الدين الأيوبي وزيراً للدولة الفاطمية في عهد آخر خليفة فاطمي (العاضد) وكما نعلم أن منصب الوزير في ذلك الوقت يعني أنه أصبح الرجل الأول في مصر ولديه جميع الصلاحيات وكان هذا تمهيداً لقيام الدولة الأيوبية التي واجهت الصليبيين بعد ذلك وحررت بيت المقدس

نقلًا عن كتاب : مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) ، وكتاب : تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني

١١٩. صلاح الدين والصليبيين

(- توالى انتصارات صلاح الدين علي الصليبيين في سرعة مذهلة بحيث لم يعد الصليبيون يلاحقون تحركاته (-) ١-) ونتيجة للضربات المتلاحقة التي كالهها صلاح الدين للصليبيين طلب بلدوين الرابع وكبار باروناته الصلح من صلاح الدين في مايو ١١٨٠م فوافق وعقد معهم هدنة مدتها سنتين (-) ٢ ولكن كان هناك شخص متطرف جداً اسمه " ريجنالد شايون " صاحب حصن الكرك ومشهور باسم " أرناط " في كتب التاريخ العربي ، قام أرناط بنقض الصلح بل حاول إرسال أسطول وجيش قوي لاحتلال الحرمين الشريفين (-) ولا شك أن وصول تلك الحملة الصليبية الجريئة إلي شواطئ الحجاز يوضح لنا مدى الخطورة التي كانت تهدد المسلمين في أعظم مقدساتهم ، ولكن يقظة الدولة الأيوبية في تلك المرحلة من تاريخها ردت اعتداء الغزاة الصليبيين إلي نحورهم فلم ينالوا مغنماً مما أرادوه (-) ٣ وبالرغم من الهدنة التي احترامها صلاح الدين مع الصليبيين إلا أن أرناط (-) انقض علي قافلة كبيرة قادمة من مصر إلي دمشق وقتل الجند المكلفين بحراسة القافلة وحمل التجار أسري إلي حصنه ، ولما وصل خبر ما حدث للقافلة إلي صلاح الدين أرسل إلي أرناط يطلب إطلاق سراح الأسري ورد ما نهبه فامتنع ورد علي رسل صلاح الدين قائلاً " قولوا لمحمد يخلصكم " ورفض تسليم الأسري

وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين إلا الحرب فأعلن الجهاد (-) ٤ (-) وخرج علي رأس جيوشه وهزم الصليبيين في معركة شرسة بالقرب من مكان اسمه " صفورية " (-) وسقط معظم الجيش الصليبي بين أسري وقتلي ثم قام بمهاجمة مدينة طبرية ولم يلبث أن استولي علي المدينة في يوليو سنة ١١٨٧ م (-) ٥ ثم وقعت معركة حطين الشهيرة الحاسمة التي هزم فيها صلاح الدين الصليبيين هزيمة ساحقة ووقع في الأسر ملك بيت المقدس بلدوين الرابع وأرناط صاحب الكرك الذي حاول من قبل غزو الكعبة ، ويذكر التاريخ عن هذه الواقعة أن صلاح الدين عامل الأسري معاملة طيبة (-) فيما عدا أرناط الذي قتله صلاح الدين بسيفه جزاء له علي غدره ومكره لأنه تجاوز الحد وتجراً علي الأنبياء (-) ٦ واضطر الصليبيون إلي عقد معاهدة تقضي بإخلاء بيت المقدس من الصليبيين بدون إراقة دماء ووافق صلاح الدين علي أن يسمح لهم بالخروج سالمين وتم تسليم المدينة (-) في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ " ٢ أكتوبر ١١٨٧م " - - ولا شك أن ما فعله صلاح الدين جاء متناقضاً تماماً لما فعله الصليبيون عندما استولوا علي بيت المقدس سنة ٤٩١ هـ " ١٠٩٧م " قتلوا به أكثر من سبعين ألفاً) ٧ وقد ظل بيت المقدس في أيديهم حوالي ٩٠ سنة ٨

نقلًا عن كتاب (مصر في العصور الوسطي) تأليف (د محمود الحويري) مقتطفات بتصرف من صفحة ١٩٩ إلي

صفحة ٢٠٣

^١ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٩٩

^٢ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ١٩٩

^٣ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠٠

^٤ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠١

^٥ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠١

^٦ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠٢

^٧ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٠٣

^٨ لاحظ معي أن بيت المقدس لم تمض عليه في يد اليهود حالياً كل هذه المدة

١٢٠. معاهدة سلام في العصر الأيوبي

كان الأيوبيون في جهاد مستمر مع الصليبيين ويواجهون الحملات الصليبية المختلفة الواحدة تلو الأخرى وكأنهم تواجدوا في هذه الحقبة من تاريخ الأمة الإسلامية خصيصاً لهذا الغرض وأكبر دليل على ذلك أن الصليبيين أيقنوا أن الطريق إلى بيت المقدس يبدأ من مصر (فقد كان هدف الحملات الصليبية التالية هو القضاء على الدولة الأيوبية في مصر باعتبارها مركز المقاومة الأول -) ١ وقد حكم الأيوبيون مصر لمدة ٧٩ سنة من سنة ١١٧١م إلى سنة ١٢٥٠م وكان أشهر ملوكهم الملك الناصر والملك العادل والملك الكامل والملك الصالح

وعندما وصل للحكم في الدولة الأيوبية الملك الكامل كان محباً للسلام وكان الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وملك الصقليتين محباً للسلام أيضاً وقررا العيش في سلام (- - وكان كلاهما لا يلجأ إلى السيف إذا استطاع أن يحل مشكلاته بالسياسة والطرق السلمية ، وقد أحسن " كانتوروفتر " مؤرخ فردريك الثاني في وصف الرجلين حين قال : كان الملك الكامل صورة شرقية من الإمبراطور إن لم يكن أقرب إلى الصحة أن نقول إن الإمبراطور كان صورة غربية من السلطان الملك الكامل - -) ٢

ومن هنا كانت الحملة الغربية والطريقة جداً والتي لا مثيل لها وهي الحملة الصليبية السادسة التي تزعمها الإمبراطور فردريك الثاني وكانت تتكون من ستمائة فارس فقط وهي حملة سلمية وكان الغرض منها تنفيذ معاهدة السلام التي تمت بين فردريك الثاني والملك الكامل وفيما يلي بنود المعاهدة كاملة كما وردت في الجزء الثاني من كتاب " تاريخ مصر الإسلامية " للدكتور جمال الدين الشيال وتحديداً في صفحة (٩٠)

(١) أن تسلم بيت المقدس للإمبراطور باعتبارها ملك الدولة الصليبية بشرط ألا يقيم فيها حصوناً أو قلاعاً

(٢) أن يعطي للصليبيين بيت لحم والناصرة وطريق الحاج من بيت المقدس إلى يافا على الساحل

(٣) أن يبقى في أيدي المسلمين من بيت المقدس منطقة المسجد الأقصى على ألا يحمل المسلمون في تلك المنطقة سلاحاً

(٤) أن يطلق الكامل سراح من عنده من الأسري

(٥) أن يتعهد فردريك بمخالفة الكامل ضد جميع أعدائه حتي ولو كانوا مسيحيين صليبيين

(٦) أن يضمن الإمبراطور عدم وصول إمدادات صليبية إلى الإماراتين الصليبيتين في إنطاكية وطرابلس

(٧) أن تسري هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات

وظل الطرفين ينعمون بالسلام والأمن لفترة من الوقت استطاع فيها الملك الكامل أن يحقق رغبة الصليبيين في تكوين مملكتهم المحببة في بيت المقدس ولكن منزوعة السلاح مع سيطرة المسلمين على كل مقدساتهم الإسلامية في المنطقة سيطرة كاملة مع السماح للحجاج المسيحيين بالتوجه بحرية إلى أماكنهم المقدسة

نقلًا عن كتاب (تاريخ مصر الإسلامية) تأليف (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني

^١ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٧٨

^٢ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٨٩

١٢١. الحملة الصليبية السابعة تستولي على دمياط :

كانت الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا والتي اتجهت إلى دمياط واستولت عليها بطريقة ليس لتفوقهم دخل فيها فقد كان السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب مريضاً مرضاً شديداً وعندما وصلت السفن الفرنسية (- أرسل الأمير فخر الدين الحمام الزاجل يحمل النبأ إلى السلطان ، وتعددت رسائله دون أن يتلقى رداً فأدرك أن السلطان قد مات ، فانتظر حتي وافي الليل وانسحب بجيشه كله من الشاطئ الغربي إلى دمياط ثم تركها وسار جنوباً - - - ونظر أهالي دمياط فوجدوا الجيش الذي أتى لحمايتهم قد غادر المدينة فخافوا علي أرواحهم وخرجوا في الليل تاركين مدينتهم - -) ١

أما الملك لويس فعندما أصبح وجد المدينة خالية من الجند ومن الأهالي فظن أنها مكيدة وقام بإرسال من يستكشف الموقف فتأكد من خلو المدينة بالفعل ودخل الجيش الفرنسي المدينة بلا مقاومة وبلا أدنى مشقة أو عناء نتيجة لقرار خطأ اتخذته الأمير فخر الدين والطريف أن لويس التاسع ورجاله وجدوا المدينة عامرة بالأقوات والذخائر لأنها كانت تستعد لحصار طويل فاستولي لويس علي كل ذلك وفرح به ومكث بالمدينة ستة شهور كاملة ،

فكان تأثير خبر وفاة الملك في هذه الفترة في منتهي الخطورة حتى لو كان خبر غير صحيح ورغم مرضه الشديد وحزنه علي انسحاب حاميه دمياط إلا أن الملك الصالح استطاع أن يحشد الجيش بالمنصورة واتخذها قاعة لقتال الصليبيين وقام بتحسينها واستعد للمعركة الكبرى معهم ، كما أن المجاهدين قاموا بأعمال إغارة علي معسكر الصليبيين بدمياط والعودة في كل يوم بعدد من الأسري ٢ وفي وسط كل هذه الأحداث مات الملك الصالح في ليلة الاثنين النصف من شعبان سنة ٦٤٧ هـ " ٢٢ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م " في أدق مراحل القتال ضد الصليبيين شجرة الدر تخفي خبر وفاة الملك :

كانت شجرة الدر زوجة الملك الصالح سيدة قوية وحازمة وشعرت بأن هذا الخبر قد يؤدي إلي ضعف معنويات الجيش وقد يحدث ما حدث في دمياط عندما كانت مجرد شائعات عن وفاة الملك فما بالك بخبر مؤكد يصل إلي الجيش فقررت إخفاء خبر وفاته

(- وعهدت للأمير فخر الدين بقيادة الجيش وكان الأطباء يدخلون كالعادة إلي حجرة السلطان كل يوم وكأنهم يعودونه كما كانت الأوراق الرسمية تدخل إلي نفس الغرفة وتخرج ممهورة بإمضاء الملك وعلامته بخط يشبه خطه كل الشبه وأرسلت الرسل إلي الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح -) ٣

واحتدم القتال وبرغم كل هذه الإجراءات تسرب نبأ وفاة السلطان إلي الأعداء ثم بوصول تورانشاه ابن الملك الصالح تولي قيادة المعركة فقام بقطع الإمدادات بين معسكر الصليبيين والمواجه للمنصورة وبين مدينة دمياط التي تأتيهم الإمدادات منها حتى ضاق الحال بلويس التاسع

^١ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٩٧

^٢ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٩٨

^٣ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ٩٨

فشعر بأن حملته ستفشل قبل أن تحقق أهدافها فطلب من تورانشاه أن يسلمه بيت المقدس مقابل الانسحاب من مصر ١ فرفض تورانشاه

واشتعل لهيب المعركة وانقض جيش المسلمين علي الأعداء وقتلوا وأسروا أعداداً ضخمة منهم ووقع في الأسر الملك لويس التاسع الذي تم حبسه في دار ابن لقمان بالمنصورة وكان الموكل بحراسته شخص اسمه الطواشي صبيح

وكان نصراً عظيماً بفضل الله سبحانه وتعالى
ثم بعد ذلك تم فدء الملك لويس بمبلغ كبير من المال وتم انسحاب الفرنجة من مصر دون قيد أو شرط بعد أن بقي العديد منهم في المنصورة واعتنقوا الإسلام

والطريف أن أحد الشعراء في مصر في ذلك الوقت اسمه جمال الدين بن مطروح ٢ ودع جنود فرنسا المنسحبين وأشار إلي أن دار ابن لقمان ستظل موجودة وبها الطواشي صبيح إذا فكر الملك في العودة مرة أخرى فقال الشاعر :

قل للفرنسييس إذا جئته - - - مقال نصح عن قؤول فصيح
أتيت مصر تبتغي ملكها - - - تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقلك الحين إلي أدهم - - - ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم - - - بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يري منهم - - - إلا قتيل أو أسير جريح
وقل لهم إن أضمرؤا عودة - - - لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان علي حالها - - - والقيد باق والطواشي صبيح
نقلاً عن كتاب (تاريخ مصر الإسلامية) تأليف (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني

^١ كانت تتم عادةً هذه المراسلات بين الملوك والقادة خلال المعارك بشكل طبيعي مع تأمين الرسل تماماً أثناء قيامهم بمهامهم وهو عرف قديم ومعروف
^٢ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) الجزء الثاني ١٠٢

١٢٢. مكانة المدرس في العصر الأيوبي

عن هذا الموضوع وتحت عنوان المدارس في العصر الأيوبي كتبت الأستاذة الدكتورة عفاف سيد محمد صبره أستاذ التاريخ الوسيط كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر - فرع البنات كتبت ما ملخصه :

احتل سلاطين الأيوبيين مكانة بارزة بين الحكام المسلمين في الاهتمام بالعلم والتعليم ، حتي أصبح لهذا العصر سمة خاصة ميزته عن غيره من العصور الإسلامية الأخرى ، فقد شهد نهضة فكرية وثقافية وأدبية ودينية ، ولا أدل علي ذلك من النتاج العلمي والمؤلفات الكبيرة التي تذخر بها المكتبات الإسلامية إلي جانب الشخصيات البارزة التي تألفت ونالت حظها في ميدان الفكر والدين والسياسة - - - - -

بلغ من سمو ومكانة التدريس في مصر أنه كان يصدر بها تقليد أو مرسوم من السلاطين ، واعتبرت هي والقضاء من درجة واحدة ، وكثيراً ما جمع الشخص الواحد بين الوظيفتين معاً ، ومن جموعهم بين الأمرين زين الدين بن أيوب وتولي الوظيفتين سنة ٥٩٥ هـ وكتب له التقليد بذلك صاحب بهاء الدين بن الاثير الجزري ، وكان التقليد يقرأ بطريقة علنية في المسجد الجامع بعد أن يجمع له الناس علي اختلاف المراتب ويتولي قراءته خطيب المسجد - - - - -

وإذا كنا قد أوضحنا مكانة المدرسين ، فقد كانت هناك شروط ملزمة لهم وهي أن يكونوا منزهين عن أخذ مال الوقف المنوط به ، وأن يتقيدوا بشروط الوقف وأن ينفذوا رغباته وأن يحافظوا علي محتويات الوقف وألا يتعاطوا التدريس في غير المكان أو المدرسة التي كلفوا بها إلي غير ذلك ، - - - - -

كانت المرتبات التي تمنح للمدرسين إما نقداً وإما عيناً كما تأثرت بظروف متعددة منها مقدار الوقف علي المدرسة ومكانة المدرس وسمعه ، وقد كان هناك مدرسون يتناولون مرتباتهم المنتظمة من الخزينة العامة للبلاد

هناك مثل للمرتب الذي منحه صلاح الدين للشيخ نجم الدين الخبوشاني عندما عينه علي التدريس والنظر في المدرسة الصلاحية فقد أورد السيوطي (أن صلاح الدين شرط له من المعلوم في كل شهر أربعين ديناراً معاملة ، صرف كل دينار ثلاثة عشر درهماً وثلاث درهم عن التدريس)

وقد بني صلاح الدين مدرسة أخرى سماها السيوفية وقرر في تدريسها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتي ورتب له في كل شهر أحد عشر ديناراً وباقي ريع الوقف يصرفه علي ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده علي قدر طبقاتهم أما عن الطريقة الأخرى لدفع المرتبات عيناً فذلك ما حدث في المدرسة القمحية المالكية التي أنشأها صلاح الدين ورتب بها أربعة من المدرسين وكانت نفقاتهم من ضيعة موقوفة بالفيوم يفرق محصولها عليهم ، وعلي طلابها من القمح المتحصل من ضيعة الحنبوشية بالفيوم ، ويذكر بن دقماق أن هذه المدرسة قسمت إلي أربع زوايا أي أن كل مدرس اختص هو وطلبته بزواية منها

اندثرت مدارس القاهرة في العصر الأيوبي كلها ولم تبق منها غير أطلال مدرستين إحداهما المدرسة الكاملية والمدرسة الصالحية والتي حدد المقريري أنها مجموعة مدارس وليست مدرسة واحدة لأنها تدرس المذاهب الأربعة

المدرسة الكاملية (دار الحديث):أمر السلطان الكامل بإنشاء أول مدرسة في مصر لتدريس الحديث النبوي سنة ٦٢١ هـ /١٢٢٤م بخط بين القصرين وسميت بدار الحديث الكاملية

المدرسة الصالحية (المذاهب الأربعة) : بناها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩ هـ - - وهو أول من عمل بديار مصر دروساً أربعة في مكان سنة ٦٤١ هـ

نقلًا عن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية - إعداد د عبد العظيم رمضان - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مكتبة الأسرة ٢٠٠٠

١٢٣. المماليك

مر المماليك في تاريخ مصر بثلاثة مراحل مختلفة (- فقد انقسمت فترة حكم المماليك لمصر إلي ممالك بحرية استمرت من ١٢٥٢ م إلي ١٣٨٢ م - - - ثم تلتها المماليك البرجية وهم سكان أبراج القلعة والتي انتهت بالفتح العثماني لمصر علي يد السلطان سليم الأول في ١٥١٧ م) ١ ثم المماليك البكوات في العصر العثماني الذين بسببهم ساءت سمعة المماليك بشكل عام)،

وليس من الإنصاف أن نضع المماليك جميعاً بمراحلهم الثلاثة في سلة واحدة ،

فقد كانت بداية المماليك البحرية في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب بداية رائعة فكان أسلوب إعداد المملوك جدير بالإعجاب (- فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار - - - فإذا صار إلي سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك فيتسلم كل طائفة معلم حتي يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه وعندما ينتهي المملوك من تدريبه ويثبت جدارته ويصير محارباً كفنّاً ينقل إلي خدمة السلطان ويتدرج في الرتب حتي يصير من الأمراء -) ٢

وقد حقق المماليك البحرية العديد من الانتصارات علي التتار وبقايا الصليبيين واستضافوا الخليفة العباسي في مصر وكانت له مكانته ، واتسع نفوذهم في المنطقة وقاموا بخدمة الحرمين الشريفين

وبلغة هذه الأيام قد حصل المماليك البحرية علي الجنسية المصرية حيث يقول الدكتور محمود الحويري :

(- أنهم جاءوا إلي مصر كرقيق من بلاد متعددة وأمم شتي وأصول عرقية متنوعة ووجه الأهمية هنا أنهم أتوا أطفالاً صغاراً انقطعت حبالهم نهائياً بمواطنهم الأصلية وتربوا تربية إسلامية وتعلموا اللغة العربية ولم يعودوا يعرفون لهم وطناً غير مصر واستقروا فيها للأبد ومهما قيل في أن المماليك أجانب عن مصر وأنهم ولدوا في أرض غير إسلامية ، أو أنهم يرجعون في أصولهم إلي دماء غير مصرية فإن هذا القول مردود عليه ، لأن الانتماء الحقيقي للوطن يقوم أساساً علي خدمة هذا الوطن والدفاع عنه ورعاية مصالحه ، بغض النظر عن الجنس الذي يعيش فوق أرضه أو الأصول التي تحدر منها ، وهي حقيقة أثبتتها التاريخ علي مداه الطويل ، فليس ثمة وطن يجري في عروق أبنائه دماء واحدة نقية خالصة ، ومصر بموقعها الجغرافي وتاريخها الطويل قد استقبلت أجناساً عديدة تركت أثرها فيها بصورة ما ، وإن كانت مصر قد امتصت تلك الأجناس وطبعتها بطابعها وشخصيتها ، فصارت مصرية ، وهذه الحقيقة تنطبق علي المماليك في مصر ، فهم الذين حموا شعبها وحاربوا باسمه وحافظوا علي استقلاله ضد الغزاة وينبغي ألا ننسى أن المماليك منذ ظهورهم علي مسرح الأحداث في مصر ومنطقة الشرق الأوسط قد ارتبطوا بالشرعية التي منحتها لهم الخلافة الإسلامية بوصفهم حماة والمدافعين عنها وعن الإسلام ولذلك من الظلم الفادح أن نعتبر المماليك أجانب عن مصر -) ٣

نقلًا عن كتاب مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٤٠

أسلوب انتقال السلطة في العصر المملوكي :

لم ينجح نظام توريث الحكم في عهد المماليك بشكل واضح (- ويرجع السبب في عدم نجاح نظام الوراثة الشرعية عند المماليك إلي أنهم كانوا جنوداً محاربين نشأوا نشأة واحدة وربوا تربية واحدة متجانسة فهم قوم قد انقطعت صلاتهم بأسراتهم منذ اشتروا في أسواق الرقيق أو أسروا في ميادين الحروب فضغفت عندهم مع الزمن معاني الصلات الأسرية وقويت عندهم

^١ موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلي اليوم (د ناصر الأنصاري) صفحة ٩٣

^٢ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٣٨ ، صفحة ٢٣٩

^٣ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٤٠

في نفس الوقت معاني صلات أخرى كان لها شأن كبير في حياتهم - - - فكان يصعب علي المماليك دائماً أن يلي السلطنة ابن سلطان سابق لأنه لم ينشأ نشأتهم ولم يرب تربيتهم وليس بينهم من العلاقات ما يلزمهم بالولاء له فكانوا في العادة يقبلون سلطنة هذا الابن مؤقتاً احتراماً لما أخذ عليهم من موثيق وأيمان إلي أن تنتهي المشاورات بين كبراء أمراءهم ويتفقوا علي تولية أحدهم وكان الاختيار يقع عادة علي أقرب الأمراء إلي السلطان السابق ، وأقرب الأمراء إلي السلطان السابق كان في العادة أقدمهم والأخذ بنظام الأقدمية من المبادئ الهامة التي كان يحترمها ويعمل بها المماليك - (١)

(- وإذا كان المماليك قد كونوا طبقة عسكرية شديدة البأس - - فقد أدى ذلك إلي ظهور علماء الدين المصريين الذين وقفوا أمام استبداد المماليك ، وتكلموا بلسان الشعب المصري باعتبارهم من أبناءه ، ودافعوا عنه ضد كل طغيان ، وبلغ رجال الدين في دولة المماليك مكانة سامية ، جعلت سلاطين المماليك يستمعون إلي شكواهم ويجيبون طلباتهم ، بل توجسوا من بعضهم خيفة ، وليس أدل علي ذلك من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يزجر السلطان الظاهر بيبرس عن المظالم وينهاه عنها - -) (٢)

كما أن (- قاضي قضاة الحنفية شمس الدين الحريري كان شديد السطوة لا تأخذه في الله لومة لائم وكانت الأمراء تخافه ولقد ذكر لابن بطوطة أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون قال يوماً لجلسائه : " إني لا أخاف أحداً إلا شمس الدين الحريري " -) (٣)

، (- وكثيراً ما كان السلطان المملوكي يرجو نصيح علماء الدين باعتبارهم أهل الحل والعقد ولا يقوم بحرب أو يتخذ قرارات عليا هامة تمس أمور الدولة إلا بعد استشارتهم ، هذا في الوقت الذي كان رجال الدين يعتبرون سلاطين المماليك درع الأمة الإسلامية وأن احترامهم من احترام الإسلام -) (٤)

نقلًا عن كتاب (تاريخ مصر الإسلامية) (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ١١٩

وكتاب (مصر في العصور الوسطي) (د محمود الحويري) صفحة ٢٤١

^١ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ١١٩

^٢ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٤١

^٣ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٤١

^٤ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٤٢

١٢٤. الحياة الفكرية والأدبية في مصر في عهد المماليك :

(كانت القاهرة في عصر دولة المماليك دون نزاع أكثر العواصم الإسلامية ازدهاراً بالبحث والدرس وحملت وحدها مشعل الثقافة العربية الإسلامية وحافظت عليها من خطر الضياع بعد أن دوت مراكز العلم والتنوير في معظم البلاد الإسلامية ، خاصة بعد سقوط بغداد في أيدي المغول وتدميرهم لكنوز المخطوطات ، وتعرض قرطبة في الأندلس لحركة الاسترداد المسيحية وإلحاق الضرر ببلاد الشام علي أيدي الصليبيين والمغول جميعاً واستقبلت مصر العلماء والباحثين والطلبة من كل مكان لينهلوا من مراكز العلم بها ، وفي العصر المملوكي زاد عدد المدارس زيادة كبيرة)^١

(وقد بلغت الحياة الفكرية والأدبية في مصر الإسلامية ذروة النضج والازدهار في القرنين الثامن والتاسع الهجريين ففي هذين القرنين تحتشد أعظم جمهرة من العلماء والكتاب من كل فن وضرب وفيها تغص القاهرة بأكابر العلماء الوافدين عليها من المشرق والمغرب ، تجتذبهم نهضتها الفكرية ، وأزهرها التالد ، وبلاطها المستنير ، حامي الآداب والعلوم ، ويمتاز القرن الثامن في مصر بظاهرة فكرية خاصة ، وهي أنه عصر الموسوعات العلمية والفنون المعروفة يومئذ ، في مؤلفات جامعة لم تعرفها الآداب العربية من قبل وكتبت في عدة موسوعات جليلة ، مازالت تتبوأ مقامها الفذ في تراث الأدب العربي)^٢ وأشهر هؤلاء العلماء الموسوعيين أحمد ابن عبد الوهاب النويري المتوفي سنة ١٣٣٢ م صاحب كتاب " نهاية الأرب في فنون الأدب " وأحمد ابن فضل الله العمري المتوفي سنة ١٣٤٨ م صاحب كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار وأبو العباس الفلقشندى المتوفي سنة ١٤١٨ م صاحب كتاب صبح الأعشى في كتابة الإنشاء (وإنه لمن التجاوز والتواضع أن نسمي هذه المؤلفات المدهشة كتباً ، فهي في الواقع موسوعات ضخمة شاسعة لا تدل أسماؤها علي حقيقة محتوياتها)^٣ وظلت هذه الحركة العلمية مستمرة في مصر وانتهت بدخول العثمانيون ومحاولتهم نقل هذه الحضارة إلي عاصمة ملكهم مما أدى إلي خلو مصر من العلماء في كافة المجالات وغلق العديد من المدارس العمارة والفنون في عهد المماليك :

(علي الرغم من أن المماليك كانوا طبقة حاكمة تميل إلي البطش والقسوة والقوة إلا أنهم كانوا رعاة للفنون التي لم تشهد لها مصر مثيلاً منذ عصر البطالمة ، وتمتعوا بذوق راق وحب للفنون فملأوا سماء القاهرة بالتحف الهندسية الرائعة ولازالت القاهرة تزخر بالمساجد والمدارس والقباب والخوانق والأضرحة والقصور والأسبلة والحمامات والبيمارستانات وغيرها من التحف المعمارية ، وقد عني سلاطين المماليك وأمرائهم عناية تامة منذ قيام دولتهم بتشبيد المنشآت العامة حتي كاد يخطئها العد)^٤ نقلاً عن كتاب (مصر في العصور الوسطى) تأليف (د محمود الحويري) صفحة ٢٨٦ وصفحة ٢٩٢ وكتاب (مؤرخو مصر الإسلامية) تأليف (محمد عبد الله عنان) صفحة ٧٦

^١ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة ٢٩٢

^٢ مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة ٧٦

^٣ مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة ٧٦

^٤ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة ٢٨٦

١٢٥. الحياة الاقتصادية في عصر المماليك :

(اهتم سلاطين المماليك بالزراعة باعتبارها مصدر الثروة الأول الذي عاش عليه المصريون في مختلف العصور ، ولذلك عني سلاطين المماليك بحفر الترع وإقامة الجسور حرصاً علي وصول المياه إلي أراضي لم تصل إليها من قبل مما زاد في رقعة الأراضي الصالحة للزراعة وبالتالي كثرة الغلات والخيرات (١) ،

(وإلى جانب الزراعة اهتم سلاطين المماليك بالثروة الحيوانية فعملوا علي تحسين سلالتها وجلب الأنواع الممتازة لتربيتها والإكثار منها ، وفي عصر المماليك ارتقت الصناعة وأصبحت علي درجة كبيرة من الجودة والإتقان ، ومن أهم الصناعات في العصر المملوكي صناعة المنسوجات - - وبرع المصريون في الصناعات الجلدية - - والمصنوعات المعدنية ، وازدهرت صناعة الزجاج ، وكذلك صناعة الخزف وخضع الصانع وأصحاب الحرف في العصر المملوكي لنظام النقابات ، فكان أفراد كل حرفة يكونون نقابة خاصة بهم لها نظام ثابت يحدد عددهم ومعاملاتهم ، كما يكون لهم رئيس أو شيخ يرأسهم ويفض مشاكلهم ويرجعون إليه في كل ما يهم) (٢) ،

(أما التجارة في عصر المماليك فقد لعبت الدور البارز كمصدر للثروة سواء كانت تجارة داخلية أو خارجية ، ولكن التجارة الخارجية ساهمت بالنصيب الأكبر في دخل دولة المماليك وثرانها (٣)

وكان سلاطين المماليك يهتمون بالتعامل معاملة حسنة مع التجار الأجانب ومن أظرف الأمثلة علي ذلك أن السلطان المنصور قلاوون بعث إلي المسئول عن ميناء الإسكندرية رسالة يأمره فيها بتنمية تجارة الميناء

(ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذي كانوا ألفوه منه ، فإنهم هدايا البحور ، ودوابه الثغور ، ومن ألسنتهم يطلع علي ما تجنه الصدور وإذا بذر لهم حب الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور ، - - -

وهيأت دولة المماليك وسائل الراحة لإقامة التجار الأوروبيين في مينائي الإسكندرية ودمياط فبنت الفنادق ووضعتها

تحت تصرف هؤلاء التجار حتى يعيشوا وفق النمط الذي اعتادوه في بلادهم (٤)

نقلًا عن كتاب (مصر في العصور الوسطي) تأليف (د محمود الحويري) صفحة ٢٩٢

^١ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٨٨

^٢ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٩٠

^٣ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٩٠

^٤ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٩١ ، ٢٩٢

١٢٦. كيف استعادت دولة المماليك البحرية لمواجهة التتار :

بعد انتهاء عصر الدولة الأيوبية وفي بداية عصر المماليك البحرية في مصر وتحديدًا في عهد السلطان الصغير نور الدين علي ابن السلطان عز الدين أيبك هاجم هولاكو العراق وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرّب بغداد تخريباً شديداً واقترب خطر المغول من مصر ويقول السيوطي عن الخليفة العباسي المستعصم قتيّل التتار (-) كان متديناً متمسكاً بالسنة كأبيه وجده ولكنه لم يكن مثلهما في التيقظ والحزم وعلو الهمة - - ثم ركن المستعصم إلي وزيره مؤيد الدين العلقمي الرافضي^١ فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد وباطن التتار^٢ وناصحهم وأطمعهم في المجرى إلي العراق وأخذ بغداد - - - وصار إذا جاء خبر منهم كتمه علي الخليفة ويطالع بأخبار الخليفة التتار إلي أن حصل ما حصل (-)^٣ ، ووصل التتار إلي بغداد (-) وبذل السيف في بغداد واستمر القتال فيها نحو أربعين يوماً - - - ، ولم يسلم إلا من اختفي في بئر أو قناة وقتل الخليفة رفساً ، قال الذهبي : ما أظنه دفن ، وقتل معه جماعة من أولاده وأعمامه وأسر بعضهم وكانت بلية لم يصب الإسلام بمثلها ولم يتم للوزير ما أراد وذاق من التتار الذل والهوان ولم تطل أيامه بعد ذلك وعملت الشعراء قصائد في مراثي بغداد وأهلها (-)^٤

بادت وأهلوها معاً فبيوتهم - - - ببقاء مولانا الوزير خراب

وقال بعضهم :

يا عصابة الإسلام نوحى واندي - - - حزناً علي ما تم للمستعصم

دست الوزارة^٥ كان قبل زمانه - - - لابن الفرات فصار لابن العلقمي

وعندما اقترب الخطر من مصر تم تولية قطز السلطنة وقال (-) إني ما قصدت إلا أن نجتمع علي قتال التتار ولا يتأني ذلك بغير ملك ، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا في السلطنة من شئتم (-)^٦ ويقول السيوطي (- - -) وقدم صاحب كمال الدين بن العديم إليهم رسولاً يطلب النجدة علي التتار ، فجمع قطز الأمراء والأعيان ، فحضر الشيخ عز الدين ابن عبد السلام وكان المشار إليه في الكلام ، فقال الشيخ عز الدين : " إذا طرق العدو البلاد وجب علي العالم كلهم قتالهم ، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به علي جهازهم ، بشرط أن لا يبقى في بيت المال شئ وأن تبعوا ما لكم من الحوائص والآلات ويقتصر كل منكم علي فرسه وسلاحه وتتساووا في ذلك أنتم والعامة ، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا (-)^٧ وتم جمع الأموال استعداداً لقتال العدو والذي تم بعد ذلك في معركة عين جالوت الشهيرة مقتطفات بتصرف من كتاب (تاريخ الخلفاء) للسيوطي صفحة ٣٦٨ ، صفحة ٣٧٠ ومن كتاب (تاريخ مصر الإسلامية) الجزء الثاني تأليف د جمال الدين الشيال صفحة ١٢٢

^١ كان للمستعصم وزير اسمه مؤيد الدين العلقمي وهو شيعي رافضي وكان يحاول هدم الخلافة السنية وإقامة خلافة شيعية

^٢ باطن التتار أي اتفق معهم علي معاونتهم ضد الخليفة سراً

^٣ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٦٣

^٤ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٦٨

^٥ دست الوزارة = منصب الوزارة

^٦ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ١٢٢

^٧ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٧٠

١٢٧. العز بن عبد السلام - سلطان العلماء

كان العز بن عبد السلام جليلاً مهاباً حسن الصورة، منبسط الأسارير، متواضعاً في مظهره وملبسه، وكان لا يتأنق ولا يتكلف الحشمة ولا يستألف الوقار استئلافاً،

ولد في دمشق سنة ١١٨١ م وتوفي في مصر سنة ١٢٦٢ م

حضر إلى مصر في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب حيث ولاه القضاء والخطابة

وقد أفتي بأن الأمراء المماليك عبيد ولا يصح لهم ما يصح للأحرار وطلب من الملك الصالح أن يتم عقد مجلس وينادي عليهم بالبيع لبيت مال المسلمين وقد تم معارضة هذا في البداية بشدة من الأمراء ومن الملك نفسه ولكنه تم بالفعل بضغط من العز بن عبد السلام عندما قرر أن يغادر مصر وكاد أن يغادرها معه كل أهل مصر فنزل الملك علي حكمه وتم بيع الأمراء ولذلك يقال عنه أنه بائع الملوك حيث تولي المماليك بعد ذلك حكم مصر

وعندما كان قطز نائباً للسلطان الصغير الملك المنصور نور الدين علي واقترب الخطر المغولي من البلاد كان لابد من جمع الأموال للإنفاق علي إعداد الجيش الذي سيواجه المغول وكان لابد من صدور فتوى من أحد الفقهاء لجمع المال لمواجهة العدو حتي لا يبدأ الجهاد بظلم العباد ،

وأثير هذا الموضوع المهم عند وصول رجل يطلب معونة مصر لصد هجوم التتار وكانت فتوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام أن الإنفاق لابد أن يشمل الجميع بلا استثناء وبعد أن تستنفذ الدولة كل ما لديها من أموال في بيت مال المسلمين وإليك رواية السيوطي عن هذا الموضوع : (- ثم دخلت سنة سبع وخمسين ١ - ٦٥٧ هـ وفيها نزل التتار " آمد " وكان صاحب مصر المنصور علي ابن المعز أيك صبيلاً وأتابكه الأمير سيف الدين قطز المعزي مملوك أبيه ،

وقدم صاحب كمال الدين بن العديم إليهم رسولاً يطلب النجدة علي التتار ، فجمع قطز الأمراء والأعيان ، فحضر الشيخ عز الدين ابن عبد السلام وكان المشار إليه في الكلام ، فقال الشيخ عز الدين : "

إذا طرق العدو البلاد وجب علي العالم كله قتالهم ، وجاز أن يؤخذ من الرعية ما يستعان به علي جهازهم ، بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء وأن تبيعوا ما لكم من الحوائص والآلات ويقتصر كل منكم علي فرسه وسلاحه وتتساووا في ذلك أنتم والعامه ، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا -) ٢

وقد بلغ رجال الدين في دولة المماليك مكانة سامية ، جعلت سلاطين المماليك يستمعون إلي شكاوهم ويجيبون طلباتهم ، بل توجسوا من بعضهم خيفة ، وليس أدل علي ذلك من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يزجر السلطان الظاهر بيبرس عن المظالم وينهاه عنها - -) ٣

نقلًا عن كتاب مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) وموسوعة ويكيبيديا

^١ ربما يقصد السيوطي هنا سنة ٦٥٧ هجرياً وجرت العادة علي ما يبدو أنه طالما ذكر في بداية الكلام عدد المئات فإنه لا يذكرها بعد ذلك فيقول مثلاً سبعة وخمسين ولا يضيف الستائة إلا في بداية الفقرة فقط والله أعلم

^٢ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٧٠

^٣ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٤١

١٢٨. معركة عين جالوت :

أرسل هولاكو رسلاً من عنده إلى مصر يحملون رسالة تحذير وتهديد (- فيا أيها الباقون أنتم بمن مضي لاحقون ، يا أيها الغافلون أنتم إليهم تساقون ، ونحن جيوش الهلكة لا جيوش الملكة ، مقصودنا الانتقام وملكنا لا يرام ونزيلنا لا يضام ، وعدلنا في ملكنا قد اشتهر ومن سيوفنا أين المفر - - دمرنا البلاد وأيتنا الأولاد وأهلكنا العباد وأذقناهم العذاب وجعلنا عظيمهم صغيراً وأميرهم أسيراً ، تحسبون أنكم منا ناجون أو متخلصون -) ١ وكان قطز علي علم تام أنه لن يكون هناك أي فرق بين الاستسلام أو عدم الاستسلام فهم علي أي حال سوف يقتحمون مصر ويدمرونها كما دمروا غيرها وسيقتلون الناس بلا رحمة حتي في حالة الاستسلام وبالتالي كان رد قطز بلا تردد هو قطع رؤوس رسل هولاكو (وعلق رؤوسهم علي أبواب القاهرة وأخذ يحشد قواه ويستعد لملاقاة المغول -) ٢ (- وبدأ النضال العنيف بين عنصرين من أخطر وأقوي العناصر المحاربة وبين فنيين من فنون الحرب الممتازة في العصور الوسطي ---- وقد تأرجح النصر مرات بين الفريقين أثناء المعركة -) ٣ (- وفي أول المعركة هزم المماليك وتفرقوا ولكن قطز ثبت في مكانه وألقي بخوذته إلي الأرض وصرخ بأعلى صوته " وا إسلاماه " وحمل بنفسه علي العدو فالتف المماليك حوله ثانيةً وانتصروا علي عدوهم - - - غير أن التتار لم يلبثوا أن ضمو صفوفهم وتجمعوا وتقدموا وأوشكوا أن ينتصروا علي المماليك ثانيةً فتقدم قطز وصرخ صرخته الأولى ثلاث مرات " وا إسلاماه ، يا الله انصر عبدك قطز علي التتار " فأثارت هذه الصرخة وهذا الدعاء حمية المماليك وحملوا علي التتار حتي هزمهم هزيمة شنعاء فلما تم النصر نزل قطز عن فرسه ومرغ وجهه علي الأرض وقبلها وصلي ركعتين شكراً لله -) ٤

مقتطفات بتصرف من كتاب (تاريخ الخلفاء) للسيوطي صفحة ٣٧٠ ، ومن كتاب (تاريخ مصر الإسلامية) الجزء

الثاني صفحة ١٢٢ ، ١٢٣

^١ تاريخ الخلفاء (السيوطي) صفحة ٣٧٠

^٢ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ١٢٢

^٣ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ١٢٢ ، ١٢٣

^٤ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) ج ٢ صفحة ١٢٣

١٢٩. سيرة الظاهر بيبرس بين خطر المغول وخطر الصليبيين

كان بيبرس علي علم أن المغول سوف ينتقمون مما حدث لهم فأعد العدة لقتالهم وكان في نفس الوقت يواجه خطراً صليبياً من نوع آخر وظل بيبرس يقاوم كل منهم بكافة الوسائل (-) وكان بيبرس في دمشق وقد فرغ من أمر الصليبيين وعلم أن التتار قد أعادوا الهجوم علي البيرة فتقدم نحو الشمال يقود الجيش بنفسه ثم حمل بعض السفن المفككة إلي نهر الفرات حيث أعاد تركيبها وعبر بجنوده إلي الشاطئ الشرقي حيث انتصر علي التتار الذين تقهقروا سريعاً واحتل بيبرس البيرة وحصنها وأقام بها حامية للدفاع عنها - ومنذ ذلك الحين اتجه النضال بين بيبرس وبين التتار إلي ميدان آخر إلي آسيا الصغرى (-) ١ ، وكانت المعركة الكبرى لبيبرس ضد جيوش المغول وحلفاءهم من سلاجقة الروم في مكان اسمه "الأبلستين" في سنة ١٢٧٧ م (-) وفيها انتصر بيبرس انتصاراً حاسماً عظيماً وانتقل بعد هذا النصر إلي قيسارية عاصمة الدولة ونزل بدار السلطنة وجلس علي عرش سلاجقة الروم ولهذه الواقعة نتيجة هامة أخرى فقد حطمت دولة سلاجقة الروم وأتاحت الفرصة لقيام دويلات تركية أخرى في أنحاء آسيا الصغرى سيكون لبعضها شأن عظيم فيما بعد ، من هذه الدويلات ، دولة بني قرمان ودولة بني عثمان (-) ٢ وبهذا كسر بيبرس شوكة التتار (-) ولكن بيبرس لم يقدم علي مهاجمة الصليبيين إلا بعد أن اختط لنفسه خطة واضحة تدل علي ما كان يمتاز به من ذكاء خارق ومواهب سياسية فذة ، كانت هذه الخطة تتلخص في عقد سلسلة من التحالفات مع كل القوي الإسلامية والمسيحية المحيطة به وبالصليبيين لتحقيق هدفين ، أولهما أن يمنع هذه القوي أن ترسل أو تسمح بمرور أي مدد إلي الصليبيين ولإيقاف جيوش المغول إن فكرت في التقدم لمساعدة الصليبيين (-) ٣ واستمر بيبرس في حروبه ضد الصليبيين لمدة عشر سنوات كاملة ؛ وكان يتزامن أحياناً القتال مع الصليبيين مع القتال علي جبهات أخرى ضد المغول وغيرهم (-) وقد لقي بيبرس في حملاته ضد الصليبيين مشاق ومتاعب جمة غير أنه كان المنتصر دائماً فلم ينهزم قط في معركة من معاركهم ولم يمتنع عليه حصن من حصونهم (-) ٥ وكانت أهم إنجازات بيبرس في قتاله ضد الصليبيين تحرير إمارة صليبية كبرى وهي إمارة إنطاكية ، (-) وقد كان لانتصارات بيبرس المتتالية أثرها القوي في نفوس الشعب العربي في مصر والشام فأعجب ببطولة بيبرس وأكبره وراح يتغنى بشجاعته وانتصاراته وألف أديب مصري مجهول "سيرة الظاهر بيبرس" فكانت ملحمة للبطلية وظلت قروناً يتغنى بها الشعراء والقصاص في المقاهي ومجالس السمر ليثيروا النخوة والعزة والبطلية في نفوس الشعب (-) ٦

مقتطفات مختصرة بتصرف من كتاب (تاريخ مصر الإسلامية) للدكتور جمال الدين الشيال الجزء الثاني من صفحة

١٣٨ وما بعدها

^١ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٣٨
^٢ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٣٨ ، ١٣٩
^٣ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٤٩
^٤ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٥٥
^٥ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٥٦
^٦ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٥٨

١٣٠. السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون وجلاء آخر جندي صليبي من الشام :

استطاع الصليبيون تكوين أربعة إمارات صليبية في الشام وهي إمارة الرها وإمارة بيت المقدس وإمارة إنطاكية وإمارة الرابعة طرابلس ثم بدأت معارك التحرير ويقول د جمال الدين الشيال : (- تهاوت الإمارات الصليبية الثلاث من قبل علي أيدي أبطال الجهاد المسلمين ، فسقطت إمارة الرها علي يد عماد الدين زنكي ، وسقطت إمارة بيت المقدس علي يد صلاح الدين الأيوبي وسقطت إمارة إنطاكية علي يد الظاهر بيبرس ولم تعد إلا الإمارة الرابعة وهي إمارة طرابلس التي كان يحكمها أمراء النورمان ، وبقيت بعض فلول الصليبيين في مدن أخرى متناثرة وهي بقايا مملكة بيت المقدس وكان مقرها مدينة عكا وحصن المرقب ويحكمه فرسان الاسبتارية وطرسوس ويحكمها فرسان الداوية (-) ١ ، وقد استطاع السلطان قلاوون ومن بعده ابنه الأشرف خليل هزيمة الصليبيين وطردهم من الشام بالكامل لتنتهي بذلك هذه الصفحة من تاريخهم في الشام وقد استطاع قلاوون تحرير طرابلس (-) وخرج علي رأس جيش ضخم حتي وصل إلي طرابلس فحاصرها تسعة وثلاثين يوماً ، وبعد قتال عنيف سقطت طرابلس واستولي عليها قلاوون في أبريل سنة ١٢٨٩ م (-) ٢ ، وكانت عكا آخر المعاقل الصليبية في الشام وأخذ قلاوون يعد العدة لتحريرها ولكنه مات قبل أن يتم ذلك فتولي الملك الأشرف خليل بن قلاوون المسؤولية ودعا للجهاد ضد الصليبيين في جميع البلاد الإسلامية (-) وفي القاهرة أقام السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون احتفالاً دينياً في القبة المنصورية دعا إليه القضاة والعلماء والأعيان وحضرته طوائف الشعب ، وضج المجتمعون بالدعاء إلي الله أن يكتب النصر للسلطان ثم خرج خليل بجيشه من القاهرة واجتمعت هذه الجحافل ٣ من كل مكان عند أبواب عكا في ربيع سنة ١٢٩١ م - - - واشتد الحصار ودام ثلاثة وأربعين يوماً - - - وسقطت عكا في أيدي العرب بعد أن لبثت في أيدي الصليبيين مائة عام كاملة وسرعان ما تساقطت المدن الصليبية القليلة الباقية كما تتساقط أوراق الشجر - - - وهكذا اختتمت حلقة من حلقات الاستعمار الأوروبي وطرد من عكا آخر جندي صليبي بعد نضال طويل وكفاح مستمر مرير بدأه عماد الدين زنكي وشارك فيه جماعة من الأبطال المغاوير : نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وبيبرس وقلاوون ثم كان التطهير علي يد الأشرف خليل بن قلاوون (-) ٤

من كتاب (تاريخ مصر الإسلامية) (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ (مقتطفات بتصرف)

^١ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٦٧

^٢ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٦٨

^٣ خرج كل أمير من أمراء الشام بقوة كبيرة ليقابل جيش السلطان عند عكا وجدير بالذكر أن هذه المعركة اشترك فيها المجاهدين المسلمين وليس المماليك فقط

^٤ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٦٩

١٣١. السلطان الناصر محمد بن قلاوون

تولي السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون حكم مصر ثلاث مرات متباعدة ، كانت الأولى سنة ١٢٩٣ م ، والثانية سنة ١٢٩٨ م ، والثالثة سنة ١٣٠٩ م ، وقد شيد الناصر محمد مسجداً مازال موجود حتى الآن بالقلعة بجوار مسجد محمد علي ، وإن كانت ضخامة مسجد محمد علي وارتفاعه تجذب الانتباه عن جامع الناصر محمد ، وتعتبر مئذنة جامع الناصر وقبته وكذلك جدرانه الداخلية قد غشيت جميعها ببلاطات من القيشاني الأخضر اللون ، ولقد اهتم السلطان الناصر بتعمير منطقة بولاق فسكنها الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامّة ، ولم يقتصر الناصر علي تشييد العمائر الدينية والمباني السكنية فحسب ، بل شملت حركة البناء والتعمير إقامة مجاري المياه والقناطر والعيون ، ومن أهم هذه المباني مجري عيون فم الخليج لتوصيل مياه النيل إلي قلعة الجبل ، وتعد هذه المجري من الآثار العمرانية التي تفخر بها القاهرة في العصور الوسطى ، والتي لا تزال باقية حتي الآن ، كما شيد الناصر المدرسة الناصرية التي تقع بشارع المعز لدين الله الكائن بحي النحاسين ، كذلك شرع الناصر في تجديد المارستان الكبير المنصوري الذي أسسه السلطان قلاوون ، وبني الناصر سبيلاً ألحقه بمدرسته وقبة ألحق بها مكتبة عظيمة وشيد القصر الأبلق في قلعة الجبل ،

وقد ازداد تعلق شعب مصر بالناصر محمد لما أتاه من جليل الأعمال وما تكشف لشعبه فيه منه جميل الخصال ، ويعتبر عصر الناصر محمد بن قلاوون أزهي عصور دولة المماليك البحرية ، إذ فيه توطدت دعائم هذه الدولة وبدأت أساليب الحكم والإدارة في الاستقرار

وكانت القاهرة في عصر الناصر حاضرة لإمبراطورية شاسعة بسطت نفوذها علي مصر والشام وأعلي الفرات والحجاز واليمن والنوبة وبرقة وتونس وبعض الجزر بالبحر المتوسط ،

ويعد الناصر محمد من السلاطين الأبطال الذين خاضوا غمار الحروب وأحرزوا النصر تلو النصر ، وفي سنة ١٣٠٣ تقابل المغول بقيادة زعيمهم غازان عند مرج الصفري علي مقربة من حمص مع المماليك بقيادة السلطان الناصر محمد فهلك معظم جيش المغول وهزموا ومات كثير منهم وتعتبر هذه الواقعة من المواقع الحاسمة في التاريخ وعلي إثرها مات غازان كمداً وقوبل الناصر حين عودته من الشام إلي مصر بأعظم الترحيب ، وأقيمت له أقواس النصر في القاهرة وخرج الشعب المصري يحيي قاهر المغول ، وعني الناصر محمد بموارد الدولة المالية فوسع نطاقها حتي يستطيع تنفيذ المشروعات النافعة لجميع مرافق البلاد والقيام بما تتطلبه الدولة من ضروب الإصلاح مع إبطال العديد من الضرائب ، كل ذلك أدى إلي توافر الأقوات ورخص أسعارها وسهولة الحصول عليها

نقلًا باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر - حمدي عثمان - الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٣٢. زيارة الرحالة الشهير ابن بطوطة لمصر :

زار ابن بطوطة مصر في عصر المماليك البحرية وتحديدًا في عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاوون وهذا السلطان كان عهده عهد استقرار ورخاء فقد جاء بعد رحلة كفاح طويلة ضد التتار والصليبيين وأصبح هناك هدوء نسبي يسود الأمة وراحة من الحروب الكثيرة الناجحة ،

ويعتبر عهد الملك الناصر محمد من أفضل عصور سلاطين المماليك إن لم يكن أفضلها علي الإطلاق

، وقد وصف ابن بطوطة الملك الناصر محمد بأن له سيرة كريمة وفضائل عظيمة كما قال عنه :

(وكفاه شرفاً انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تعين الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء) ١

وقد انبهر ابن بطوطة بمصر بلا شك فقد كانت مركز للحضارة والعلم ووصفها بقوله :

(هي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة المتناهية في كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ومحط الضعيف والقادر - - - تموج موج البحر بسكانها - - - قهرت قاهرته الأمم وتملكت ملوكها نواصي العرب والعجم - - -

كريمة التربة مؤنسة لذوي الغربة - ويقال أن بمصر من السفائين علي الجمال اثني عشر ألف سقاء - - - وأن بنيها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً - - - تمر صاعدة إلي الصعيد منحدرية إلي الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات - - - وعلي ضفة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان النزهة والتفرج وبه البساتين الكثيرة الحسنة - - - وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها وأما المارستان الذي بين القصرين - - - فيعجز الواصف عن وصف محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر - - - والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة للفقراء) ٢

وقد قام ابن بطوطة بوصف العديد من الأمور التي شاهدها في مصر وكتب عن القضاة والعلماء والحرفيين وكافة الطبقات ووصف كل ما رآه بإعجاب

(وقد كانت القاهرة في عصر دولة المماليك دون نزاع أكثر العواصم الإسلامية ازدهاراً بالبحث والدرس وحملت وحدها مشعل الثقافة العربية الإسلامية وحافظت عليها من خطر الضياع بعد أن ذوت مراكز العلم والتنوير في معظم البلاد الإسلامية ، خاصة بعد سقوط بغداد في أيدي المغول وتدميرهم لكنوز المخطوطات ، وتعرض قرطبة في الأندلس لحركة الاسترداد - الأوروبية - وإلحاق الضرر ببلاد الشام علي أيدي الصليبيين والمغول جميعاً واستقبلت مصر العلماء والباحثين والطلبة من كل مكان لينهلوا من مراكز العلم بها ، وفي العصر المملوكي زاد عدد المدارس زيادة كبيرة) ٣

(وعلي الرغم من أن المماليك كانوا طبقة حاكمة تميل إلي البطش والقسوة والقوة إلا أنهم كانوا رعاة للفنون التي لم تشهد لها مصر مثيلاً منذ عصر البطالمة ، وتمتعوا بذوق راق وحب للفنون فملأوا سماء القاهرة بالتحف الهندسية الرائعة ولازالت القاهرة تزخر بالمساجد والمدارس والقباب والخوانق والأضرحة والقصور والأسبلة والحمامات والبيمارستانات وغيرها من التحف المعمارية ، وقد عني سلاطين المماليك وأمراهم عناية تامة منذ قيام دولتهم بتشديد المنشآت العامة حتي كاد يخطئها العد) ٤

١ المختار من رحلات ابن بطوطة (د حسين مؤنس) صفحة ٥٨

٢ المختار من رحلات ابن بطوطة (د حسين مؤنس) صفحة ٥١ ، ٥٢

٣ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة ٢٩٢

٤ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة ٢٨٦

ولكن كيف استطاع الرحالة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي الطنجي الشهير بابن بطوطة القيام برحلاته في العالم الإسلامي بقليل من المال ويجيب الدكتور حسين مؤنس علي هذا السؤال كالآتي :

(- -) وقد ذكرنا أن ابن بطوطة خرج لرحلته بمال قليل ، فكيف استطاع أن يقوم بهذه الرحلات الطويلة وهو لم يكن بتاجر يبيع ويشترى ويسد نفقات الرحلة علي الطريق ؟ - الجواب علي هذا السؤال يكشف عن ناحية من أجمل نواحي الحضارة الإسلامية ، وهي ناحية ترابط الأمة وتآخوها وتعاون أفرادها بعضهم مع بعض ، واجتهادهم في المحافظة علي وحدة أمتهم وسلامة دار الإسلام ، ذلك أنه كان هناك دائماً عالمان إسلاميان : عالم السياسة ، وكله خلافات وحروب ومكايد ، وعالم الأمة نفسها ، وهي وحدة متماسكة مترابطة كما ذكرنا - - فهذا الرجل قطع العالم الإسلامي كله من المغرب إلي اندونيسيا - - دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله ووجد في كل مكان من يستقبله ويؤويه ويقدم إليه الطعام ، لا علي سبيل التكرم والتفضل بل لأنه كان هناك تنظيم محكم وضعته الأمة وقامت علي رعايته وتنفيذه دون تدخل الدولة - - وقد فعلت الأمة ذلك تنفيذاً لما نص عليه القرآن الكريم مرة بعد مرة من رعاية ابن السبيل وإكرامه وإطعامه ، وابن السبيل هو المسلم الغريب عن وطنه - - وقد أحصيت ست آيات علي الأقل في القرآن الكريم أوصي الله سبحانه فيها المسلمين بابن السبيل ، وجعل له نصيباً في أموال الناس - - لهذا حرصت الأمة وهي القيمة الحقيقية علي الدين علي تنفيذ هذا التوجيه القرآني العظيم ، فأقامت الزوايا والربط ودور الضيافة في كل مكان ورحلة ابن بطوطة أكبر دليل علي ذلك - -) ١

نقلًا عن كتاب (المختار من رحلات ابن بطوطة) تأليف (د حسين مؤنس) ،
وكتاب مصر في العصور الوسطي تأليف (د محمود الحويري)

ابن خلدون يصف مصر

زار ابن خلدون العالم الشهير مصر سنة ٧٨٤ هـ (نوفمبر ١٣٨٢ م) في عصر دولة المماليك الجراكسة (وكانت هذه أول مرة يري فيها القاهرة ، فقال :

فانتقلت إلي القاهرة أول ذي القعدة فرأيت حضرة الدنيا ويستأن العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك تلوح القصور والأواوين في جوه ، وتزهر الخوانق والمدارس بأفاقه وتضيء البدور والكواكب بين علمائه ، - ونحن لهذا العهد نري أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت

من كتاب (مصر في العصور الوسطي - الأوضاع السياسية والحضارية) (د محمود الحويري) صفحة ٢٨٥ ، ٢٨٦ دار النشر (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - طبعة سنة ٢٠٠٣)

١٣٤. الخيول المملوكية

عن أهمية الخيول في العصر المملوكي كتب الكاتب الكبير جمال الغيطاني في كتابه الممتع ملامح القاهرة في ألف سنة ما ملخصه :

نتجه إلي ميدان الرميطة الممتد تحت قلعة الجبل ، ربما كان التجول في سوق الخيل مدخلاً طبيعياً إلي عالم رحب وثيق الصلة بكافة تفاصيل الحياة خلال العصور الوسطي

لم يتغير موقع هذا السوق طوال العصر الوسيط ، ترتفع صيحات الدالين والمنادين ، وأنواع عديدة من الخيول لكنها موزعة علي ثلاثة أقسام رئيسية ، الخيول العربية ، أنفسها وأغلاها قيمة مطلوبة للسباق وللحاق ، مصدرها بلاد الحجاز ونجد واليمن والشام والعراق ومصر وبرقة ، والنوع الثاني تركي أو أعجمي ، وكانت تسمى الهماليج أو الأكاديش ، مرغوبة لصبرها علي السير الحثيث وسرعة المشي ،

النوع الثالث مولد بين العربية والأعجمية ، إذا كان الأب أعجمياً والأم عربية قيل له هجين وهي وسط بين النوعين السابقين ، أما الخيول الإفريقية فهي أفضل الأنواع وأرخصها ثمناً هنا ، ولا يقبل عليها أحد ،

الخيول العربية نفسها تنقسم إلي عدة أنساب ، الحجازية أشرفها ، والنجدي أيمنها والمصري أفرها ، والغربي أنسلها وعندما ترد السوق خيول مؤصلة فإنها تعرض علي السلطان

كان السلاطين مهتمين جداً باقتناء أنفس الأنواع وألقي الأنساب - - - - - ،

كان الناصر بن قلاوون شغوفاً بجلب الخيول العربية ، - - - - - وأفرد لها دفاتر تسجل أنساب الخيل كما تسجل أنساب الآدميين ، وعندما مات ترك خلفه ما يقرب من ثمانية آلاف فرس في اصطبلاته ،

أما السلطان برقوق - - - - - فقد خلف وراءه ستة آلاف فرس ،

كان اقتناء الخيول والاهتمام بها مظهراً من مظاهر القوة والجاه ، ولا عجب ، فقد قام النظام المملوكي علي دعامتين ، الفارس والفرس ، ربما كان هذا سبباً قوياً في أهمية سوق الخيل وقربه من قلعة الجبل مركز الحكم ورمز السلطة في مصر وقتئذ ،

في السوق نري ألواناً عديدة ، غير أن الألوان الأساسية أربعة ، وما عدا ذلك متفرع منها :

الأول : اللون الأبيض وكان سلاطين المماليك يفضلونها ، ويطلقون عليها الفرس البوز ، ويذكر ابن إياس في بدائع الزهور أن السلطان الغوري كان يخرج في المواكب ممتطياً فرس بوز أبيض

الثاني : هو الأسود ، وكل فرس شديد السواد كان يطلق عليها أدهم

والثالث : هو اللون الأحمر ، ويسمي الكميت ، واللون الرابع هو الأصفر

ومعرفة ألوان الخيل ضرورية بالنسبة للفرسان - - - - - وأحياناً كان بعض الفرسان يحرسون علي ركوب فرس ذات لون معين في كل يوم - - - - - ولهذه الألوان علاقة بالتفاؤل ، ولا يقتصر التفاؤل والتشاؤم علي اللون العام للفرس ، وإنما يتعلق الأمر ببعض العلامات في جسده ،

فالغرة ، أي البياض الذي يكون في وجه الفرس ، إذا استدارت أو كانت تشبه حرف الحاء فإنها تدل علي اليمن والبركة ، وإذا أصاب البياض خداً دون الآخر فإن الفرس يكون مكروهاً ويتشاءم به ، كذلك إن غطت عيناً دون الأخرى ، فيصبح من المتوقع أن تقتل مع صاحبها ، أما إذا غطت العينين فإنها تقهر مع فارسها ،

وإن مالت إلي اليمين تدل علي الشؤم ، وإلي اليسار فإنها تدل علي المكاسب ، وإن وصلت إلي الأنف فإنها تدل علي البركة والخير

وفي سنة ٨٠٢ هـ ١٣٩٩ م ، كسر الأمير تنم وسقط أسيراً ، واستفسر المؤرخ ابن تغري بردي عن سبب وقوع الأمير عن فرسه ثم أسره ، فقالوا كان في فرسه شوم ، وأشاروا إلي هذه العلاقة ، وقالوا : إن أصحابه نهوه عن ركوبه فأبى في سوق الخيل نلاحظ أن المشتريين والفاحصين يطلبون التحديق لاختبارها وفحصها والتفريس له قواعد ، فلا بد أن ينظر إلي الفرس في جميع حالاته خاصة أثناء الجري والفرس الجيد يعرف من شدة نفسه ، وحدة نظره ، وصغر كعبيه ، ورقة جحافله ، وقصر ساقيه ، وقلة التوائه ، ولين التفاته ، وإذا نظر الإنسان إلي آثار قوائمه وقت جريه وقاس ما بينهما ، فإذا كانت ستة أذرع يكون فرساً سباقاً - - - كما يجب أن يكون صافياً عن الصهيل فهذا دليل علي صحة الرئتين ، وعلامات أخرى عديدة كان المتفرسون يعرفونها وسجلتها كتب الفروسية ، - - -

نقلًا باختصار عن كتاب ملامح القاهرة في ألف سنة للكاتب الكبير جمال الغيطاني ، ، الناشر نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الخامسة سبتمبر ٢٠٠٧ ، مقتطفات من صفحة ٥٤ إلي صفحة ٥٦

١٣٥. جامع السلطان حسن



معجزة العمارة الإسلامية في القاهرة هل هو جامع أم مدرسة ؟

عن هذا الموضوع وتحت عنوان العلم بين المسجد والمدرسة كتب الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة القاهرة ما ملخصه :

يقول المقرئ ما نصه : (وفي هذا الجامع عجائب من البنيان منها المدارس الأربع التي بدور قاعة الجامع) إذا فقد أقيمت في دور قاعة الجامع أربعة مدارس لها أربعة أواوين متقابلة بحيث تختص كل مدرسة منها بمذهب من مذاهب أهل السنة الأربعة ، ومعني هذه العبارة أن المدارس أنشئت في قاعة الجامع وليس الجامع هو الذي أقيم في ساحة المدرسة حتي غدت هذه المدارس من عجائب فن البنيان في هذا الجامع ، فالجامع هو الأصل وهو الهدف وهو الأساس ولكي تعم الفائدة ويعظم الأجر والثواب أقيمت به مدارس لتعليم علوم الدين وأحكامه وشرائعه ، علي أنه ثمة مرة واحدة في كتابه المواعظ استخدم المقرئ في عبارة (مدرسة الناصر حسن بسوق الخيل) ولكن هذه العبارة وردت في تعداده لأسماء المساجد التي تقام فيها الجمعة ، ونص العبارة :

(وقد بلغت عدة المساجد التي تقام بها الجمعة مائة وثلاثين مسجداً منها جامع شيخو - جامع قانباي - جامع ألماس - جامع قوصون - جامع الصالح - مدرسة السلطان حسن بسوق الخيل) ، والمقرئ هنا يضع مؤسسة السلطان حسن في قائمة المساجد الجامعة وليس في قائمة المدارس وربما نعت هذه المؤسسة باسم الشهرة الذي عرفت به

ولم يكن المقرئ هو المؤرخ المعاصر الوحيد الذي أطلق علي مؤسسة السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون اسم جامع وإنما هناك مؤرخ آخر عاصر الناصر حسن وعاش أيامه هو الحسن بن عمر المعروف بابن حبيب المتوفي سنة ٧٧٩هـ - ١٣٧٧م صاحب كتاب (تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه) ومن الواضح أن ابن حبيب ألف كتابه الضخم هذا الذي يقع في ثلاثة مجلدات مخصصاً إياه للتأريخ لأسرة قلاوون ، أعني السلطان المنصور قلاوون وسلالته من الحكام حتي أيام ابن حبيب نفسه ولذا يعتبر هذا الكتاب مصدراً أساسياً للوقوف علي أخبار تلك الحقبة يقول ابن حبيب ما نصه :

وفيهما شرع السلطان الملك الناصر حسن أيداه الله في عمارة المكان الذي أنشأه بالرميلة تحت قلعة الجبل ظاهر القاهرة المحروسة ، وهو بناء مشيد محكم عظيم الشأن مرفوع القواعد ، عالي الأركان ، متسع الفناء يشتمل علي جامع فسيح له صحن كبير فيه أربعة أواوين متقابلة ، وفيه المنبر ، وفيه تقام الجمعة ، وعلي كتفي الأيوان الشرقي بابان عظيمان يدخل منهما إلي مدرستين وعلي كتفي الأيوان الغربي مثل ذلك ، وعلي كتفي الأيوان الشمالي بابان أعظم من الأربعة المشار إليهن ، الأيمن منهما مجاز إلي الجامع المذكور ، وبوسط هذا الجامع بركة ماء عليها قبة عظيمة ، وعلي بابه سبيل

في جامع السلطان قم يا من أتى مصرا وطف سعيًا بذيالك الحرم

وانظر بناء ينجلي للناس في ثوب الشباب واطرح ذكر الهرم

نقلًا عن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية - إعداد د عبد العظيم رمضان - الهيئة المصرية العامة للكتاب -

مكتبة الأسرة ٢٠٠٠

١٣٦. السلطان الظاهر برقوق

تولي السلطان المملوكي الظاهر سيف الدين برقوق حكم مصر سنة ١٣٨٢م ، وكان محباً للفروسية ميالاً للعب بالرمح ، ولقد ألغى السلطان برقوق الكثير من الضرائب فنشطت الحركة التجارية وهبطت أسعار السلع المستوردة ، الأمر الذي شجع الكثير من التجار الأجانب وخاصة الشرقيين منهم علي الإتجار مع مصر

وقد اتسع ملك مصر في عهده ، فقد خطب باسمه في أماكن لم يخطب لأحد قبله فيها من سلاطين المماليك ، فخطب باسمه في مدينة تبريز وفي الموصل وفي ماردين وسنجار بجانب مصر وبرقة والشام والحجاز واليمن وضربت السكة باسمه في هذه الأماكن، وعندما توفي الظاهر برقوق دفن بالصحراء مع مجموعة من العلماء والصالحين ، وكان قد أوصي أن يبني لهم مدفن وأن يلحق به مسجد وخانقاه ، ولقد نفذ ابنه الناصر فرج الوصية ،

وتعتبر مدرسة (مسجد) وخانقاه السلطان برقوق أولي المنشآت المعمارية في دولة المماليك الجراكسة بمصر وهي ملاصقة لمدرسة الناصر محمد بن قلاوون وتطل علي شارع المعز لدين الله في (بين القصرين) أما تخطيط المدرسة فهو كبقية المدارس المملوكية ، فهي تتكون من صحن مكشوف بوسطه فسقية عليها قبة مقامة علي ثمانية أعمدة وتحيط بها أربعة إيوانات ، ولقد استخدم الرخام لأول مرة في زخرفة الواجهة الرئيسية وزخرفة المئذنة أما مدفن السلطان برقوق فيكفي هذا الأثر فخراً أن صورته استعملت رمزاً لأحد العملات الورقية في مصر ولقد شيد ذلك المدفن السلطان الناصر فرج بن برقوق لأبيه ، واستغرق بناؤه اثنتي عشرة سنة ، واستغل هذا المكان كمدفن وخانقاه للتعبد ومدرسة لتدريس المذاهب الأربعة ومسجداً جامعاً وعلي عهد الظاهر برقوق ارتفع نجم القائد تيمورلنك ملك التتار ودارت عدة صراعات بسبب ذلك في المنطقة ولقد عاصر أيضاً جلوس السلطان الظاهر برقوق علي عرش مصر مقدم الفيلسوف المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون إلي مصر حيث وصل إلي الإسكندرية من البلاد المغربية واندمج منذ وصوله إلي مصر في نسيج حياتها يدرس في الجامع الأزهر ويتولي رئاسة القضاء الحنفي وقد زار ابن خلدون العالم الشهير مصر سنة ٧٨٤ هـ (نوفمبر ١٣٨٢م) في عصر دولة المماليك الجراكسة (وكانت هذه أول مرة يري فيها القاهرة ، فقال : فانتقلت إلي القاهرة أول ذي القعدة فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر وإيوان الإسلام وكرسي الملك تلوح القصور والأواوين في جوه ، وتزهر الخوانق والمدارس بأفائه وتضيء البدور والكواكب بين علمائه ، - ونحن لهذا العهد نري أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت

نقلا عن كتاب هؤلاء حكموا مصر - حمدي عثمان ، وكتاب (مصر في العصور الوسطى - الأوضاع السياسية والحضارية) (د محمود الحويري)

١٣٧. السلطان يفي بالنذر

أثناء حدوث أحد الفتن الكبرى في عصر المماليك اختفى الأمير لاجين المنصوري داخل مئذنة جامع ابن طولون لفترة حتى انتهاء هذه الفتنة وكان هذا الجامع في ذلك الوقت خرباً ومهجوراً ولا تقام فيه الصلاة ، فأخذ الأمير لاجين علي نفسه عهداً ونذر نذراً بأن يعمر هذا الجامع إذا انتهت هذه الفتنة بسلام ، وبالفعل دارت الأيام وتلاحقت الأحداث وأصبح لاجين سلطان مصر سنة ١٢٩٦م وقد وفي بنذره وقرر إجراء أعمال إصلاح شاملة للجامع وبناء ما يلزم من منشآت به ، وعهد بإجراء هذه الأعمال إلي الأمير علم الدين سنجر الدواداري ، ولا زالت هذه الأعمال موجودة بالمسجد حتي الآن وتنسب إلي عهد السلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين لاجين المنصوري

نقلًا عن كتاب (العمارة الإسلامية في مصر) تأليف د كمال الدين سامح صفحة ٢١

الصورة لجامع ابن طولون

١٣٨. جزيرة قبرص بين الملك الأشرف شعبان والملك الأشرف برسباي :

تعرضت مصر في عهد الملك الأشرف شعبان لحملة من ملك قبرص بطرس الأول لوزنيان حيث حضر إلي الإسكندرية بأسطول ضخم في ٩ أكتوبر سنة ١٣٦٥ م وكان والي الإسكندرية في ذلك الوقت يؤدي فريضة الحج والنائب الموجود مكانه ليس علي نفس الوزن من الخبرة والدراية فلم يحسن الدفاع عن المدينة واستطاع بطرس وجيشه البقاء بها ثلاثة أيام كاملة قام خلالها بالتخريب والنهب والقتل وعندما شعر بطلان جيوش المماليك القادمة من القاهرة فر ومن معه من الإسكندرية (وصحبوا معهم خمسة آلاف أسير وأسيرة من أهالي الإسكندرية منهم كما يقول النويري المؤرخ السكندري "المسلم والمسلمة واليهودي واليهودية والنصراني والنصرانية")^١ وعندما هرب بطرس من الإسكندرية هرب مسرعاً مرعوباً حتي أنه ألقي بعض المنهوبات التي أثقلت سفنه خوفاً عليها من الغرق (- وصدق قول النويري حيث وصفه بأنه " جاء المدينة لئلاً وخرج منها لئلاً -)^٢

وبعد هذا الحدث بحوالي ستين عاماً وفي عهد السلطان الأشرف برسباي الذي أرسل ثلاث حملات بحرية إلي جزيرة قبرص (الأولى سنة ٨٢٧ هـ "١٤٢٤ م" والثانية سنة ٨٢٨ هـ "١٤٢٥ م" والثالثة سنة ٨٢٩ هـ "١٤٢٦ م")^٣ وفي الحملة الثالثة استطاع المماليك فتح قبرص والسيطرة عليها بالكامل بل وتم أسر ملك قبرص الذي كان في ذلك الوقت الملك جانوس الذي تم إطلاق سراحه في مقابل أن تصبح الجزيرة تابعة لمصر وتدفع الجزية (وهكذا انتقمت مصر لنفسها من جزيرة قبرص ونجحت في القضاء علي نشاطها في مياه البحر المتوسط ، وظلت قبرص منذ ذلك الوقت تابعة للقاهرة ، وتدفع جزية سنوية حتي نهاية حكم المماليك علي يد العثمانيين سنة ١٥١٧ م)^٤

نقلاً باختصار عن كتاب (تاريخ مصر الإسلامية) (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٩٦ - ١٩٨

وكتاب (مصر في العصور الوسطي) (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٧-٢٦٩

^١ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٩٨

^٢ تاريخ مصر الإسلامية (د جمال الدين الشيال) صفحة ١٩٨

^٣ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٧

^٤ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٦٩

١٣٩. سلطان مصر الأشرف إينال يستقبل رسالة من السلطان العثماني محمد الفاتح

هو السلطان الأشرف أبو النصر سيف الدين إينال العلاني الظاهري وهو السلطان الثاني عشر من دولة المماليك البرجية الشراكسة في مصر ببيع بالسلطنة في يوم الاثنين ٨ ربيع أول عام ٨٥٧ هـ. الموافق ١٩ مارس ١٤٥٣م وكانت فترة حكمه لمصر والدولة المملوكية حوالي ٨ سنوات ويقال أن إينال كلمة تركية من مقطعين هما: «أى» ومعناها القمر، و«نال» ومعناها شعاع أى أن اسمه يعنى «شعاع القمر» وكان قد تولى عدة مناصب قبل السلطنة منها رأس نوبة ثاني ونائب غزة ونائب الرها في زمن السلطان برسباي عام ٨٣٦ هـ ثم حضر إلى القاهرة وأصبح مقدم ألف ثم أصبح نائب صفد عام ٨٤٠ هـ ثم عينه السلطان جقمق أتابكا عام ٨٤٩ هـ. وكان السلطان إينال ملكا هينا لينا قليل الأذى لم يسفك دما قط بغير وجه شرعي، ينقاد للشريعة الغراء ويحب العلماء ويُعتبر من خيار ملوك الشراكسة. وكانت الدولة العثمانية في ذلك الوقت تربطها علاقات طيبة مع دولة المماليك وظلت هذه الدولة القوية تحاول فتح القسطنطينية حتي تم لها ذلك في عهد السلطان العثماني محمد الثاني الذي أطلقوا عليه بعد ذلك اسم محمد الفاتح وكان ذلك في عهد السلطان المملوكي الأشرف إينال الذي وصلته رسالة من السلطان العثماني محمد الفاتح يخبره فيها بفتح القسطنطينية وهذا بعض ما جاء في رسالة محمد الفاتح إلي الأشرف إينال : (- - - إن من أحسن سنن أسلافنا رحمهم الله تعالى أنهم مجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ونحن علي تلك السنة قائمون وعلي تلك الأمانة دائمون ممثلين بقوله تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (٢٩) سورة التوبة ، ومستمسكين بقوله عليه الصلاة والسلام " من اغبرت قدماء في سبيل الله حرمه الله علي النار " فهمنا في هذا العام غممه الله بالبركة والإنعام معتصمين بحبل الله ذي الجلال والإكرام ومتمسكين بفضل الملك العلام إلي أداء فرض الغزو في الإسلام مؤتمرين بأمره تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ (١٢٣) سورة التوبة ، وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح مدينة ملئت فجوراً وكفراً التي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخرًا - - - فمتي طلع الصبح الصادق من يوم الثلاثاء يوم العشرين من جمادى الأولى هجماً مثل النجوم رجوماً لجنود الشياطين سخرها الحكم الصديقي ببركة العدل الفاروقى بالضرب الحيدري لآل عثمان من الله بالفتح قبل أن تظهر الشمس من مشرقها ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿٤٥﴾، (٤٦) سورة القمر) وبالطبع فرح المسلمون في مصر وفي جميع أنحاء الأمة الإسلامية فرحاً عظيماً بهذا الفتح كما سعد الخليفة العباسي بذلك سعادة بالغة فكم ناصبت الدولة البيزنطية العداء للأمة الإسلامية وأذاقتها من شرورها وقام السلطان إينال بالرد علي رسالة السلطان محمد الفاتح برسالة يهنئه فيها بالفتح العظيم وجاء فيها بعض أبيات من الشعر الذي نظمته الشعراء في مصر بهذه المناسبة كان منها :

كذا فليكن في الله جل العزائم - - - وإلا فلا تجفوا الجفون الصوارم

كتائبك البحر الخضم جياها - - - إذا ما تهدت موجه المتلاطم

يا ناصر الإسلام يا من يغزوه - - - علي الكفر أيام الزمان المواسم^٢

وكان فتح القسطنطينية في ٢٠ جمادى الأول سنة ٨٥٧ هجراً (٢٩ مايو ١٤٥٣ ميلادياً) ومنذ هذا التاريخ لم يعد

هناك وجود لما يسمى بالدولة البيزنطية^٣

من كتاب - الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي محمد محمد الصلابي) صفحة ١٤٩ ،

١٥٠، ١٥١ باختصار وكتاب مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة ٢٧٤

^١ الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي محمد محمد الصلابي) صفحة ١٤٩ ، ١٥٠

^٢ الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط (د علي محمد محمد الصلابي) صفحة ١٥١

^٣ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة ٢٧٤

١٤٠. قلعة قايتباي بالإسكندرية



تم بناء هذه القلعة علي أساس منارة الإسكندرية القديمة ، وقد أنشأها الملك الأشرف قايتباي سنة ١٤٧٩ م واشتملت علي مسجد بقيت منارته إلي ما بعد الاحتلال الفرنسي لمصر وتأثر بضرب الإسكندرية سنة ١٨٨٢ أسوأ الأثر وكانت أحداث ضرب الإسكندرية قد تسببت في تخريب هذه القلعة وهدم أبراجها وقسم كبير من واجهاتها وبقيت متخربة إلي أن عنيت إدارة حفظ الآثار العربية بإصلاحها ، وقد أصلحت أبراجها وما يعلوها من أبنية بعد إعادتها لحالتها الأصلية وهي تبدو لزائر الإسكندرية من كل جهة والسلطان قايتباي هو السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي الجركسي وهو من عصر دولة المماليك البرجية ، ولد في سنة ١٤٢٣ م ، وبويع بالسلطنة سنة ١٤٦٨ م ، وقد ظل ملكاً لمصر نحو ٢٩ سنة ، وأقام كثيراً من المنشآت المعمارية من مساجد ومدارس ووكالات ومنازل وأسبلة وقناطر للمياه ، كما عني بالعمارة الحربية وبالحصون فأنشأ قلعة الإسكندرية وأخري برشيد ، وقد توفي في سنة ١٤٩٦ م وينسب إليه ما يزيد عن سبعين أثراً إسلامياً ما بين إنشاء وتجديد ، وتعتبر مجموعة قايتباي بالقرافة الشرقية من أبدع وأجمل المجموعات المعمارية في مصر الإسلامية ، وترجع أهميتها إلي جمال تنسيق المجموعة مع بعضها ، وهي تتكون من مدرسة ومسجد وسبيل وكتاب وضريح ومنذنة ، وقد لعبت دقة الصناعة وكذا جمال النسب دوراً هاماً في إبراز جمال هذا الأثر المعماري القيم والجدير بالذكر أن في عهد الأشرف قايتباي بدأت العلاقات تسوء بين الدولة المملوكية والدولة العثمانية فقد دامت العلاقة الطيبة لفترة كبيرة بين المماليك والعثمانيين في ظل الخلافة العباسية وكان لجهاد الدولة العثمانية تقدير كبير لدي جميع المسلمين ، ثم أخذت الأوضاع تسوء بين الدولتين شيئاً فشيئاً (بعد أن اعتلي الأشرف قايتباي عرش سلطنة المماليك في سنة ٨٧٢ هـ "١٤٦٨م" أخذت العلاقات بين المماليك والعثمانيين تزداد سوءاً ، ذلك أنه عندما تولي بايزيد الثاني عرش الدولة العثمانية في سنة ٨٨٩ هـ "١٤٨١م" نافسه فيه أخوه " جم " ولكن بايزيد الثاني قضى علي حركته فلجأ جم إلي مصر ، حيث رحب به قايتباي وأكرم وفادته الأمر الذي أغضب بايزيد ونقم علي قايتباي - -) وتم اعتبار ما فعله السلطان قايتباي تدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية ، ثم بدأت بعد ذلك سلسلة من المشاكل والصراعات السياسية بين الدولتين المملوكية والعثمانية وصلت إلي حد الصراع المسلح وقام بايزيد بأعمال عدائية ضد المماليك (- - إذ استولت قواته علي قلعة كوكك التابعة للمماليك في آسيا الصغرى ، فلم ير قايتباي بداً من إرسال حملة في سنة ٨٩٠ هـ

بقيادة الأمير أزيك^١ استطاعت أن تلحق الهزيمة بالعثمانيين وأوقعت عدداً كبيراً منهم في الأسر وعلي الرغم من ذلك فقد أطلق قايتباي سراح الأسري وأرسلهم إلي بلادهم علي أمل أن يتم الصلح بينه وبين بايزيد وشاع في مصر أمر الصلح بينهما - - وفي الحقيقة أن الصلح لم يتم بين المماليك والعثمانيين^٢
 نقلاً عن كتاب (العمارة الإسلامية في مصر) تأليف د كمال الدين سامح - الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٠ صفحة ٤٧
 و صفحة ٤٨ ،

وكتاب (مصر في العصور الوسطي) تأليف د محمود الحويري صفحة ٢٧٤ و صفحة ٢٧٥
 الصورة لقلعة قايتباي بالإسكندرية

^١ شيد السلطان قايتباي مسجداً باسم الأمير أزيك تقديراً لجهوده العسكرية ولم يعد لهذا المسجد وجود حالياً ولكن بقيت المنطقة التي تم تشييد المسجد بها معروفة باسم الأزبكية حتى الآن نسبة إلي الأمير أزيك والله أعلم
^٢ مصر في العصور الوسطي (د محمود الحويري) صفحة ٢٧٥

١٤١. السلطان الأشرف قايتباي وبداية الاضطرابات بين الدولة المملوكية والدولة

العثمانية

تولى السلطان الأشرف قايتباي حكم مصر سنة ١٤٦٨ م وكان من ألمع سلاطين المماليك الذين حكموا مصر ، وهو ثالث ثلاثة بالغوا في البناء والإنشاء والتعمير وأولهم الظاهر بيبرس وثانيهم المنصور قلاوون وثالثهم الأشرف قايتباي ، - كما يمكن اعتبار السلطان الغوري فيما بعد رابعهم في عشق البناء - إذ أنشأ السلطان قايتباي في حكمه من المباني الفاخرة أشياء كثيرة ، منها مدرسة بئر دمياط ، ومدرسة بئر الإسكندرية ، والبرج العظيم الذي أنشأه مكان الفنار القديم - المعروف بقلعة قايتباي - والبرج الذي بئر رشيد ، وأما ما أنشأه بمصر فهو الجامع الذي بالصحراء مكان مدفنه وجامع بالروضة ، وجامع برأس الكباش وجامع بباب الخزن ، والسبيل والمكتب اللذان بقرب (تحت الربع) وجامع لطيف خارج باب القرافة ، وجدد عمارة قبة الإمام الشافعي وأنشأ مدرسة بالخانقاة وأنشأ غير ذلك عدة زوايا وأسبلة ومدارس وجوامع وصهاريج وربوع في مواضع متفرقة ، وجعل لها أوقافاً ، وجدد عمارة قناطر أبو النجا والقناطر التي بشبرامنت ، وجدد عمارة قنطرة باب البحر والميدان الكبير الذي بجوار البركة الناصرية ، وأنشأ عدة ربوع بالخشابين والجامع الأزهر ، كما أنشأ العديد من المباني التي عم نفعها . وبلغت الأسعار حداً من الرخص لم يسبق له مثيل برغم تفشي الطاعون في مصر ثلاث مرات أثناء فترة حكم السلطان قايتباي ولقد وصل إلي القاهرة الأمير (جم) العثماني أخو السلطان العثماني بايزيد ، لخلاف وقع بين الأخوين فرحب به قايتباي وأحاطه بعناية كبيرة ، فكانت هذه الحركة سبباً لإفساد العلاقات بين مصر المملوكية والدولة العثمانية ، فلم يغفر السلطان بايزيد للسلطان قايتباي إيواء الأمير جم ، ووقعت أول معركة بين الجانبين سنة ١٤٨٤ م وقد انتصر فيها الأمراء المماليك ، وقد وقعت معركة أخرى سنة ١٤٨٦ م حيث التقى جيش مصري ضخم تحت قيادة الأمير يزيك أتابك العسكر المصري مع جيش عثماني في أقصى الشمال فهزم الجيش العثماني هزيمة ساحقة حتى قيل إن عدة من قتل من العثمانيين يربو علي أربعين ألفاً وقبض علي قائد الجيش العثماني أحمد هرسك واستولي علي الأعلام العثمانية ، واهتزت القاهرة لهذا النصر الكبير وأقيمت الزينات وسارت المواكب التي استعرضت فيها الأعلام العثمانية وقد وقعت مواجهة أخرى بين الجانبين سنة ١٤٨٧ م اشترك فيها الأسطول العثماني وكان النصر أيضاً حليف الجيش المصري ، ومن جديد ارتجت القاهرة لهذا النصر الجديد وأقيمت فيها الاحتفالات واستقر الرأي بعد مفاوضات متواصلة بين السلطان قايتباي المملوكي والسلطان بايزيد العثماني علي عقد صلح بين الملكين علي أساس أن يرسل بايزيد مفاتيح القلاع التي استولي عليها إلي مصر إشارة إلي ردها إلي ملكية مصر ، علي أن يطلق قايتباي من عنده من الأسري العثمانيين ، وتبادل السلطانان الهدايا والمجاملات الودية وهكذا فتحت صفحة جديدة من الود بين الدولتين سنة ١٤٩٢ م والجدير بالذكر أن العلاقات ساءت بين الدولتين مرة أخرى وبلغت ذروتها في عهد كل من السلطان المملوكي الأشرف قنصوة الغوري والسلطان العثماني سليم الأول والتي انتهت بهزيمة الغوري في معركة مرج دابق ثم هزيمة طومان باي في معركة الريدانية حيث تحولت مصر إلي ولاية تابعة للحكم العثماني سنة ١٥١٧ م

١٤٢. وصف عودة السلطان الأشرف قايتباي من رحلة الحج كما ورد بكتاب بدائع

الزهور في وقائع الدهور لابن إياس الحنفي

وفيه قدم مبشر الحاج وهو شخص من الخاصكية يقال له اسنباي وقد استمر اسمه بالمبشر بعد ذلك فأخبر بسلامة السلطان وأنه دخل إلي مكة في موكب حافل وكان له يوم مشهود ، ولقاه أمير مكة من مسيرة يومين ، ، وأنه تصدق علي فقراء بمكة بخمسة آلاف دينار ، وتواضع تواضعاً وخضوعاً إلي الغاية ، وكان بطول الطريق لا يتكلم في شئ يتعلق بالأحكام بين الناس وفعل في الطرقات أشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف فحصل لاسنباي المبشر جملة خلع ، ومالا له صورة ، من الأمراء وأعيان الناس ، ومن خوند زوجة السلطان وغير ذلك من أرباب الدولة ،

وفيه جهز الأتابكي أزيك ويشبك الدودار وجماعة من الأمراء إقامات لملاقاة السلطان من العقبة ، وخرج الأمير أزيك اليوسفي أحد الأمراء المقدمين صحبة ذلك ، وخرج معه جماعة كثيرة من أرباب الدولة لملاقاة السلطان من العقبة ، واهتم الأمير يشبك الدودار ببياض أماكن بالقلعة ودهان أبوابها وضرب الرنوك عليها وجلا واجهة القصر الأبلق وما يليه حتي ظهر رخامه الملون وقد احتفل في إصلاح ذلك جداً ، سنة خمس وثمانين وثمانمائة (١٤٨٠م) :

فيها ، في المحرم بعث السلطان نجابا إلي الأمراء وأخبر النجاب بأن السلطان دخل إلي المدينة الشريفة ، علي صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وزار النبي صلي الله عليه وسلم وأنعم علي الفقراء الذين بها بخمسة آلاف دينار ، وأنه رحل نحو الينبع قاصدا للعقبة ، ثم رحل عنها وهو واصل عن قريب ، ثم رسم لهم بالألا يخرج لملاقاته أحد من الأمراء ، وأن السلطان ينزل بقبة الأمير يشبك التي بالمطرية فبادر الأمراء بالخروج إلي هناك ونصبوا الخيام ، ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل إلي البويب فلما تحقق الأمراء ذلك ركب الأتابكي أزيك والأمير يشبك الدودار وبقية الأمراء من المطرية وتوجهوا إلي ملاقاته السلطان ، فلما وصلوا إلي البويب اجتمعوا بالسلطان هناك وساروا قدامه حتي وصل إلي الوطاق الذي بالمطرية ، وكان له هناك موكب حافل ، وكان دخوله في ثاني عشر المحرم قبل دخول الحاج بثمانية أيام ، فلما نزل بقبة الأمير يشبك مد له الأمير أزيك الأتابكي هناك مدة حافلة جداً وبات السلطان هناك وبات عنده قضاة القضاة ومشايخ العلم وهننوه بقدمه

فلما كان يوم الاثنين رابع عشر ركب السلطان من هناك وحمل الأتابكي أزيك علي رأسه القبة والطير ، وركب قدامه الأمراء والعسكر وهم موكبون كالأعياد ، وسارت الأمراء والقضاة الأربعة قدامه ، فدخل من باب النصر ، وشق من القاهرة ، وقد زينت له زينة حافلة ، واستمر في هذا الموكب العظيم ، وطلب طلبا حافلا ولعب قدامه بالغواشي الذهب وكان له يوم مشهود إلي أن طلع إلي القلعة ، فلما طلع فرشت له خوند عدة شقق من باب القلعة إلي الحوش ، ونثرت علي رأسه خفائف الذهب والفضة وتوشحت الخدام بالبندود الذهب والحريير الأصفر ، وتخلخت بالزعفران ، فلما دخل السلطان إلي الحوش ، مد له هناك الأمير يشبك مدة حافلة أعظم من مدة الأتابكي أزيك التي مداها له بالقبة ، ثم أن السلطان خلع علي من كان معه من أرباب الوظائف ونزلوا إلي بيوتهم وانفض ذلك الموكب ، وعدت هذه الحجة من النوادر الغريبة ، ودخل عليه جملة تقادم من مال وتحف تعدل مائتي ألف دينار من أمير مكة وقضائتها ، ومن أمير الينبع وغير ذلك

وقد نظم الشعراء في هذه الواقعة عدة قصائد ، فمن ذلك :

قدم السرور بمقدم السلطان ،،، من حجة المقبول بالرضوان

سلطاننا الملك الهمام الأشرف ،،، الراقي سماء الحسن والاحسان

فهناؤنا ببقائه ، في نعمة ،،، وسلامة فرض علي الأعيان

لما نوي حجا ولبي محرما ،،، عم الأمان مراتع الغزلان

والوحش في أبياتها والدوح في ،،، أنباتها والطير في الطيران

ثم الصلاة علي النبي المصطفى ،،، عدد الرمال بجملة الكثران
فلما استقر السلطان بالقلعة ، أخذ في أسباب تفرقة الهدية علي الأمراء ، فابتدأ بالأتاكي أريك ثم بقية الأمراء كل من هو في
منزلته ، ثم المباشرين وأرباب الدولة ، وكان الأمراء والمباشرون قدموا للسلطان أيضاً تقادم حافلة ، ما بين مال وخيول وقماش
وغير ذلك

١٤٣. كيف حاولت مصر إنقاذ الأندلس في العصر المملوكي

نقلًا عن كتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان ١٨٩٦-١٩٨٦ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مكتبة الأسرة ١٩٩٨ - مقتطفات من صفحة ٢٠٢ وما بعدها

قلما نجد في صحف مصر الإسلامية ما يثير من التأثر والشجن ، قدر ما تثيره هذه المحاولة النبيلة التي بذلتها مصر لتنتقذ دولة الإسلام في الأندلس ، ولقد كانت أيضاً آخر محاولة بذلتها مصر المستقلة في ميدان الدبلوماسية الإسلامية ،

— — —

في سنة ١٤٨٩ كانت جيوش أسبانيا النصرانية - أو جيوش قشتالة وأراجون - تتقدم في قلب مملكة غرناطة آخر معقل لأسبانيا المسلمة وكانت دولة الإسلام في الأندلس قد أخذت منذ أوائل القرن السابع الهجري تتحدر بسرعة إلى هاوية الانحلال والفناء - - - -

ثم حل الصراع الأخير ، واتحدت قشتالة وأراجون علي يدى فرناندو وإيسابيلا ، واعتزمت أسبانيا النصرانية أن تقوم بضربتها الحاسمة للإسلام في الأندلس ، فتقدمت الجيوش المتحدة علي مملكة غرناطة ، وكانت أحوال غرناطة يومئذ تنذر بالويل ، وكان الخلاف الداخلي قد دب إليها ومزقتها المنافسات والمعارك الأهلية ، وشطرتها إلى شطرين يتربص كل منهما بالآخر ، أحدهما غرناطة وبعض أعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل ، وكان فرناندو وإيسابيلا قد شهرا الحرب علي الإسلام قبل ذلك بأعوام ، - - -

وكانت أنباء الأندلس قد ذاعت يومئذ في العالم الإسلامي ، واهتز لمصابها أمراء الإسلام قاطبة ، وكان أمراء الأندلس وزعماءها يتجهون إزاء الخطر الداهم بأبصارهم إلى دول الإسلام في إفريقية ومصر وتركيا لتسعي إلي غوثهم ، وكانت سفاراتهم ورسائلهم تتري منذ أعوام علي فاس والقاهرة وقسطنطينية ، وكان سلطان مصر يومئذ الملك الأشرف قايتباي المحمودي الظاهري ، ولم تكن أحوال مصر علي ما يرام يومئذ ، فقد كان يسودها الانحلال الداخلي ، وكانت فوق ذلك تخشي الخطر يهددها من ناحية الترك ، ولكن مصر لم تنس مهمتها التاريخية في توجيه الدبلوماسية الإسلامية كلما دعيت إلي أدائها - - -

ووصلت سفارة الأندلس إلي مصر في أواخر سنة ٨٩٢ هـ (نوفمبر سنة ١٤٨٧ م) ، ويصف ابن إياس هذه السفارة فيما يأتي :

وفي ذي القعدة سنة ٨٩٢ هـ جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس ، وعلي يده مكاتبه من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه علي قتال الفرنج ، فإنهم أشرفوا علي أخذ غرناطة وهو في المحاصرة معهم ، - - - ومهما يكن من موقف مصر وتركيا يومئذ إزاء حوادث الأندلس فإن مصر هي التي انفردت بتلبية نداء الأندلس ، والسعي إلي إنقاذها ولم تكن أحوال مصر يومئذ مما يسمح لها بإرسال جيش أو غيره من المساعدات المادية ، إلي ميدان حرب ناء كالأندلس ، - - -

ذلك أن سلطان مصر الأشرف ، أجاب علي سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية إلي البابا وملوك النصرانية ، ولكنه لم يعهد بها إلي سفراء مسلمين ، وإنما عهد بها سفراء من رعاياه النصاري ، واختار لأدائها راهبين من جماعة القديس فرنسيس أحدهما القس انطونيو ميلان وعهد إليهما بكتب إلي البابا وإلي ملك نابولي ، وإلي فرناندو وإيسابيلا ملكي قشتالة وأراجون ،

وفي هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصاري ، علي ما ينزل بأبناء دينه المسلمين في مملكة غرناطة ، وعلي توالي الاعتداء عليهم ، وغزو أراضيهم وسفك دمائهم ، ونهب أملاكهم ، في حين أن رعاياه النصاري في مصر وفي بيت المقدس ، وهم ملايين ، يتمتعون بجميع الحريات والحمايات ، آمنين علي أنفسهم وعقائدهم وأملاكهم ، ولهذا فهو

يطلب إلي ملكي قشتالة وأراجون ، الكف عن هذا الاعتداء ، والرحيل عن أراضي المسلمين ، وعدم التعرض إليهم ، ورد ما أخذ من أراضيهم ، ويطلب إلي البابا وملك نابلي أن يتدخلوا لدي ملكي قشتالة وأراجون ، لردهما عما يدبرانه من المشاريع لإيذاء المسلمين والبطش بهم ، هذا وإلا فإن سلطان مصر يضطر إزاء هذا العدوان ، أن يتبع نحو رعاياه النصاري سياسة التنكيل والقصاص ، ويبطش بكبار الأحرار في بيت المقدس ، ويمنع دخول النصاري كافة إلي الأراضي المقدسة ،

١٤٤. السلطان الأشرف قنصوة الغوري يستقبل بعثة دبلوماسية في الحوش السلطاني

بالقلعة



لوحة استقبال سفير البندقية في القاهرة

لوحة زيتية لفنان من مدينة البندقية يدعي جينيتيلي بليني ١٤٢٩-١٥٠٧م

ويبدو السلطان قنصوة الغوري جالساً علي دكة معتمراً غطاء رأس له ستة أطراف وخلفه اثنين من حاشيته ، عند استقباله لبعثة دبلوماسية إيطالية برئاسة السفير دومينيكو تريفيزانو من مدينة البندقية ويبدو أعضاء البعثة معتمرين قلنسوات سوداء ، يتقدمهم مترجم يرتدي عمامة بيضاء واللوحة محفوظة بمتحف اللوفر

وكان السلطان الغوري يحكم مصر والشام والحجاز كمن سبقوه من سلاطين المماليك وكان يلقب بملك البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين

وكانت مصر في ذلك العهد تسيطر علي حركة التجارة العالمية إلا أنها قد تأثرت إلي حد ما باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح

كما كانت مصر في ذلك الوقت مقراً للخلافة العباسية منذ أن انهارت بغداد عاصمة العباسيين علي يد التتار إلي أن صدهم المماليك ثم استضافوا الخلافة العباسية في القاهرة

، وكانت القاهرة من أرقى عواصم العالم فنا وحضارة وعلماً وعمارة

وقد كتب المؤرخ الكبير ابن اياس الحنفي عن السلطان الأشرف قنصوة الغوري ما يلي :وأما ما أنشأ من العمائر التي بالقاهرة فمن ذلك الجامع والمدرسة اللتان أنشأهما في الشرايين والوكالة والحواصل والربوع التي أنشأها خلف المدرسة عند المصبغة والمئذنة التي أنشأها في الجامع الأزهر وهي برأسين ، وأنشأ هناك الربع والحوانيت التي بالسوق خلف الجامع ، وأنشأ الربوع التي بخان الخليلي ، وجدد عمارة خان الخليلي وأنشأ به الحواصل والدكاكين ، وأنشأ الميدان الذي تحت القلعة ونقل إليه الأشجار من البلاد الشامية ، وأجري إليه ماء النيل من سواقي نقالة ، وأنشأ به المناظر والبحرة وأنشأ جامعاً خلف الميدان عند حوش العرب بخطبة ومأذنة ،

وجدد عمارة قاعات القلعة منها قاعة البيسرية وقاعة العواميد وقاعة البحرة وأنشأ المقعد القبطي الذي بالحوش ، وجدد عمارة سبيل المؤمني وجعل سقفه عقود بالحجر ، وأنشأ الربع والدكاكين التي بسوق عبد المنعم ، وأنشأ الربع والوكالة التي في الجسر الأعظم ، وجدد عمارة ميدان المهارة الذي بالقرب من قناطر السباع وبناءه بالفص الحجر المشهر بعدما كان

مبنياً بالطوب اللبن ، وجدد عمارة المقياس وأنشأ به القصر علي تلك البسطة التي كانت بها ، وأنشأ بها المقعد المطل علي البحر ، وجدد عمارة قاعة المقياس ، والجامع الذي هناك ، وجدد عمارة قنطرة بني وائل ، والقنطرة الجديدة ، وقنطرة الحاجب ، وأنشأ بثغر رشيد سورا وأبراجا لحفظ الثغر وجدد عمارة أبراج الإسكندرية ، وأصلح طريق العقبة وأنشأ هناك خانا بأبراج علي بابيه وجعل فيه الحواصل مثل الخان الذي في العقبة

وحفر هناك الآبار في عدة مواضع من مناهل الحجاج وأنشأ بمكة المشرفة مدرسة ورياطا للمجاورين والمنقطعين هناك وأجري عين بازان بعد ما كانت قد انقطعت من سنين وأنشأ بجدة سورا علي ساحل البحر الملح وفيه عدة أبراج بسبب حفظ بندر جدة من الفرنج جاء هذا السور من أحسن المباني هناك وأنشأ علي شاطئ البحر الملح بالينبع الصغير سورا وأبراجا منيعة وله غير ذلك من الآثار الحسنة عدة مبان بها نفع للمسلمين

وفي الجملة إن السلطان الغوري كان خيار ملوك المماليك الجراكسة علي عوج فيه ولم يجئ من بعده أحد من الملوك يشابهه في أفعاله ولا علو همته ولا عزمه في الأمور وكان كفئا تاما للسلطنة ، مبجلا في المواكب تملأ منه العيون نقلا عن كتاب (المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور) تأليف محمد بن أحمد بن اياس الحنفي - مكتبة الأسرة ١٩٩٦ صفحة ٥٦ ، ٥٧

والصورة نقلاً عن كتاب - مصر في عيون الغرباء - من الرحالة والفنانين والأدباء - القرن التاسع عشر - المجلد الثاني - تأليف د ثروت عكاشة - دار الشروق - الطبعة الثانية ٢٠٠٣ - صفحة ٨ ، ٩

١٤٥ . سطور من كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور

لأحمد بن محمد بن إياس الحنفي المصري

— — — وفي يوم الخميس المقدم ذكره صنع السلطان - الأشرف قنصوة الغوري - وليمة حافلة بالمقياس ، واجتمع بها القضاة الأربعة ، وأعيان الناس من العلماء وغير ذلك ، ومد هناك الأسمطة الحافلة ، واجتمع هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ وكانت ليلة حافلة ، والسلطان كل سنة يصنع مثل ذلك بالمقياس قرب وفاء النيل ،

وفي سنة عشر وتسعمائة صنع وليمة بالمقياس مثل هذه فزاد الله تعالى في النيل المبارك تلك الليلة خمسين أصبعاً دفعة واحدة ، فعد ذلك من النوادر ، وفي يوم الاثنين ثاني عشرينه حضر إلي الأبواب الشريفة الأمير طومان الدوادر ، وكان له مدة وهو مسافر في الصعيد بسبب ضم المغل ، فلما كان يوم الأحد بلغ السلطان وصوله إلي الجيزة فنزل إلي المقياس ولقاه من هناك ، وكذلك قاصد ابن عثمان ، فلما طلع إلي القلعة يوم الاثنين المذكور خلع عليه السلطان خلعة حافلة ، ونزل من القلعة في موكب مشهود ، وصحبته سائر الأمراء المقدمين والمباشرين وأعيان الناس ، واستمر علي ذلك حتي دخل إلي داره ، وخلع عليه السلطان في ذلك اليوم فوقاني أخضر بطرز يلبغاوي عريض ، ومشت الأفيال وهي مزينة قدامه في ذلك الموكب وشق من الصليبة ، وفي يوم الثلاثاء ثالث عشرينه توفي الأمير ماما جوشن أحد الأمراء المقدمين الألوف ، وكان رئيساً حشماً جميل الهيئة قليل الأذي بين الأمراء ، ومات وهو في عشر الستين ، وقيل أصله من ممالك الظاهر خشقدم من كتابيته ، واشتراه الأشرف قايتباي من بيت المال وأعتقه فهو من جملة معاتيق الأشرف قايتباي ومن ممالكه ، فلما بلغ السلطان وفاته نزل وصلي عليه ، وكانت جنازته مشهودة رحمة الله تعالى عليه ، وفي يوم الثلاثاء المذكور كان وفاء النيل المبارك ، أوفي بعد الظهر ، وعلق الستر علي شباك القصر الذي أنشأه السلطان علي بسطة المقياس ، وقد أوفي الله الست عشرة ذراعاً وأصبعين من سبع عشرة ، ووافق ذلك ثاني عشرين مسري ، وقد أبطأ هذا النيل عن نيل السنة الماضية بسبعة أيام ، وكانت الناس بسببه في غاية الاضطراب ، وفي يوم الأربعاء رابع عشرينه ، الموافق الثالث عشرين مسري ، فتح السد وكان يوماً مشهوداً قل أن يقع مثله في الفتك والفرجة ، ورسم السلطان للأتابكي سودون العجمي بأن يتوجه ويفتح السد علي العادة ، فكان له في ذلك موكب حافل ، وخلع عليه السلطان فوقاني أخضر بطرز يلبغاوي عريض ، وحصل للناس غاية الجبر بكسر السد في ذاك اليوم ، وقد قيل في المعني :

كسر الخليج وكان ذلك نعمة سرت قلوب العالمين لبشره

ومن العجائب والغرائب أنه جبرت قلوب المسلمين لكسره

ووافق أن النيل زاد بعد فتح السد بيومين عشر أصابع في دفعة واحدة ، ثم في اليوم الثالث من فتح السد زاد الله في النيل المبارك احدي عشرة أصبعاً في دفعة واحدة ، ثم في اليوم الخامس من فتح السد زاد سبع أصابع فزاد ست عشرة أصبعاً من ثماني عشرة ذراعاً وذلك في أواخر مسري بعد الوفاء بخمسة أيام ، فعد ذلك من النوادر ، وفي رجب كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء ، فجلس السلطان في الميدان ، وطلع إليه الخليفة والقضاة الأربعة يهنونه بالشهر ،

١٤٦. عندما وصف المؤرخ ابن إياس الحنفي معركة مرج دابق

التي وقعت في ٢٤ أغسطس سنة ١٥١٦م في شمال سوريا بين المماليك بقيادة السلطان الأشرف قنصوة الغوري والعثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول

(في يوم الخميس رابع عشره ورد علي السلطان مطالعة^١ من عند سيبيائي نائب الشام وقد بلغه حركة سفر السلطان من مصر إلي البلاد الشامية فأرسل يقول له : يا مولانا السلطان إن البلاد الشامية مغلية والعليق والتبن ما يوجد والزرع في الأرض لم يحصد ولا ثم عدو متحرك فلا يتعب السلطان سره ولا يسافر وإن كان ثم عدو متحرك فنحن له كفاية - - فلم يلتفت السلطان إلي كلامه واستمر باقياً علي حركة السفر إلي حلب)^٢

(وفي يوم الأربعاء ويوم الخميس أنفق السلطان علي المماليك بقية النفقة - - وفي يوم السبت ثالث عشرينه أكمل السلطان النفقة علي المماليك قاطبة من قرانصة وجلبان ونادي لهم في الحوش أن السفر أول الشهر فاضطرب أحوال المماليك وارتجت القاهرة وعز وجود الخيل والبغال ، وصارت المماليك يهجمون الطواحين ويأخذون منها الخيول والبغال والأكاديش ، فغلقت الطواحين قاطبة وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق ووقع القحط بين الناس وضج العوام وكثر الدعاء علي السلطان)^٣

(وفي يوم السبت سادس عشر شعبان ٩٢٢ هـ أشيعت هذه الكاينة العظيمة التي طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار ، فلما خرج السلطان من حلب توجه إلي حيلان فبات بها فلما أصبح يوم الأربعاء حادي عشرين رجب رحل السلطان من حيلان وتوجه إلي مرج دابق فأقام به إلي يوم الأحد خامس عشرين رجب وهو يوم نحس مستمر فما يشعر إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان - - فقبل أول من برز للقتال الأتابكي سودون العجمي وملك الأمراء سيبيائي نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان ، فقاتلوا قتالاً شديداً هم وجماعة من النواب فهزموا العثمانيين وكسروهم كسرة مهولة وأخذوا منهم سبعة صناجق - -

فهم ابن عثمان بالهروب أو يطلب الأمان وكانت النصر للمماليك أولاً وباليات لو تم ذلك ، ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان لا تقاتلوا شي وخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم فلما بلغهم ذلك تنوا عزهم عن القتال ، فبينما هم علي ذلك وإذا بالأتابكي سودون العجمي قد قتل في المعركة وقتل ملك الأمراء سيبيائي ٤ بك نائب الشام فانهزم من في الميمنة من المماليك ثم إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة - - ويقال إن خاير بك كان موالساً علي السلطان في الباطن وهو مع ابن عثمان علي السلطان وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد فكان أول من هرب هو قبل المماليك قاطبة وكان ذلك خذلاناً من الله تعالي للمماليك حتي نفذ القضاء والقدر - - وانعقد بين العسكرين غباراً حتي صار لا يري بعضهم بعضاً وكان نهار غضب من الله تعالي قد انصب علي المماليك وغلت أيديهم عن القتال)^٥

(وقد أقامت هذه الوقعة من طلوع الشمس إلي بعد الظهر وانتهي الحال علي أمر قدره الله تعالي فقتل في تلك الساعة من العثمانيين ومن المماليك ما لا يحصى عدده)^٦

ومات الغوري في المعركة من شدة القهر بعد أن طلب من المماليك القتال وقال لهم (هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة فأخذ يستغيث فلم يسمع له أحد ، ويروي أن الغوري عندما رأي جيشه يفر من أمام عينيه وتحقق من الهزيمة أصيب

^١ مطالعة = رسالة مكتوبة

^٢ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ١٩

^٣ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٢٠

^٤ كان نائب الشام سيبيائي بك قائد الميمنة بينما كان خاير بك نائب حلب هو قائد الميسرة وقد تم قتل سيبيائي بك أثناء القتال وانسحب خاير بك بدون سبب أثناء المعركة وهناك من أوقع الخلاف بين المماليك القرانصة والمماليك الجلبان في أخرج مواقف المعركة

^٥ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٣٥ ، ٣٦

^٦ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٣٨

بالشلل وطلب جرعة من الماء فجاءوا له بها ولكنه لم يتمالك نفسه وهوي من فوق صهوة فرسه ميتاً وداسته الخيل ^١ والغريب أنه لم يعثر له علي جثة بعد المعركة ، واستمر سليم الأول يزحف بجيشه نحو مصر ويضم إليه كل ما يقابله من بلاد

وعندما تأكدت وفاة السلطان الغوري طلب الأمراء المماليك من الأمير طومان باي أن يتولى السلطنة
 نقلاً باختصار عن كتاب المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (محمد بن احمد ابن إياس الحنفي) تحقيق محمد
 مصطفى مكتبة الأسرة ١٩٩٦

^١ مصر في العصور الوسطى (د محمود الحويري) صفحة ٢٨٠

١٤٧. ملك الأمراء خاير بك الذي أصبح خاين بك

كان الأمير خاير بك نائب حلب للسلطان الأشرف قنصوة الغوري
وعندما وقعت معركة مرج دابق في شمال سوريا بين السلطان الغوري والسلطان العثماني سليم الأول ، تولي خاير بك
قيادة الميسرة في جيش الغوري
ولكنه كان علي اتفاق مع السلطان العثماني ضد السلطان الغوري ،
فانسحب بميسرة الجيش أثناء المعركة بدون مبرر وكان ذلك من أهم عوامل هزيمة جيش مصر في معركة مرج دابق
أمام الجيش العثماني ،
والذي ترتب عليها بعد ذلك ضم مصر للحكم العثماني
وعن خيانة الأمير خاير بك يقول المؤرخ ابن إياس الحنفي :
(وممن كان موالساً علي السلطان في الباطن خاير بك نائب حلب ، فإنه أول من كسر عسكر السلطان ، وانهزم عن
ميسرته ، وتوجه إلي حماه ، ولما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه ،
فلما حضر إليه خلع عليه وصار من جملة أمرائه ، ولبس زي التراكمة ، وقص ذقنه
وسماه السلطان العثماني (خاين بك) لكونه خان سلطانه وطاع ابن عثمان ،
فلما جري ذلك تسحبت ممالك خاير بك ، وتوجهوا إلي مصر ، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان)

نقلًا عن كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) تأليف محمد بن أحمد بن إياس الحنفي

١٤٨. عندما تم شنق سلطان مصر علي باب زويلة

إنه طومان باي الذي أجمع معظم المؤرخون أنه كان سلطاناً عالي الهمة وقليل الأذى للرعية ، وقد كان السلطان الغوري قد عينه نائباً له في مصر قبل أن يتجه إلى لقاء العثمانيين في مرج دابق بشمال سوريا ، وعندما تأكدت وفاة الغوري خلال المعركة طلب الأمراء في مصر من طومان باي أن يتولى السلطنة ، (ولقد تمنع طومان باي عن قبول السلطنة مدة خمسين يوماً إلا أنه قبلها بعد ذلك تحت ضغط) ١ ، (وحين تولي طومان باي السلطنة كانت البلاد في أقصى درجات التدهور والدولة المملوكية في آخر رمق ، نتيجة لعوامل متعددة ، إذ قد استشري الفساد في كيان الدولة المملوكية - - وكأنها حتمية النهاية ، ولم يعد هناك أي أمل في استنقاذها) ٢

وبالرغم من كل هذه المعوقات حاول طومان باي أن يستعد للحرب الحتمية (بينما رفض أن يأخذ أموال الناس قهراً أو من أي سبيل حتي لا تحدث في أيامه مظلمة أبداً) ٣

وكتب ابن إياس (فلما كان يوم الخميس التاسع عشرين ذي الحجة فيه وقعت كائنة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولي الألباب وتضل لهولها الآراء عن الصواب) ٤ ، (زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله إلي الجبل الأحمر فلما بلغ السلطان طومان باي ذلك زعق النفير في الوطاق ونادي السلطان للعسكر بالخروج إلي قتال عسكر ابن عثمان - - فركبت الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حريباً وركب العسكر قاطبة حتي سد الفضاء وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم فتلاقي الجيشان في أوائل الريدانية فكان بين الفريقين وقعة مهولة يطول شرحها أعظم من الوقعة التي كانت في مرج دابق - - حتي انكسر عسكر مصر وولي مدبراً ، فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باي - - وهو يقاتل بنفسه في نفر قليل من الرماة والمماليك السلحدارية) ٥ ، وانتهت معركة الريدانية بهزيمة ساحقة للمماليك ودخل سليم الأول مصر منتصراً

وكتب ابن إياس (فاستمر السلطان طومان باي - يقع - مع عسكر ابن عثمان ويقتل منهم في كل يوم ما لا يحصي عددهم - - فرأى عين الغلب وقد تكاسل العسكر عن القتال واختفوا في بيوتهم وتفرقت الأمراء واستمر السلطان يقاتل وحده بمفرده في نفر قليل - - وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات في أفعاله فكان كما يقال : ٦)

قليل الحظ ليس له دواء - - ولو كان المسيح له طبيب

(- وكان السلطان ، كلما رام أن ينتصر علي ابن عثمان ينعكس فكان كما يقال في المعني) ٧

إذا لم يكن عون من الله للفتي - - فأول ما يجني عليه اجتهداه

فكان من الطبيعي أن يخفي السلطان طومان باي بعد أن تفرق المماليك من حوله وبدا له مما لا يدع مجالاً للشك مدي تكاسلهم عن القتال فذهب طومان باي إلي بعض من يثق به من معارفه ولكن للأسف تم العثور عليه ولم يصدق الناس خبر القبض علي السلطان طومان باي فأمر السلطان سليم الأول بشنقه علي باب زويلة حيث اعتاد الحكام شنق القتلة وقاطعي الطرق

(- فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف فإنه كان شاباً حسن الشكل سنه نحو أربع وأربعين سنة وكان شجاعاً بطلاً تصدي لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب وحده بنفسه ، وكان ملكاً حليماً

^١ طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عيد المنعم ماجد) صفحة ٤١

^٢ طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عيد المنعم ماجد) صفحة ٥٣

^٣ طومان باي آخر سلاطين المماليك (د عيد المنعم ماجد) صفحة ٥٩

^٤ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٨٠. ولاحظ معي أسلوب ابن إياس في وصف المصيبة التي حلت بسلطان مصر ويبدو أن الحنفي كان راجل شاعر ومثقف وعلي قدر عالي من الوعي وله أسلوب شيق في الكتابة

^٥ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٨٢

^٦ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ٩٢

^٧ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ١٠٦

قليل الأذى كثير الخير وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً ، وكان في هذه المدة في غاية التعب والنكد وقاسي شدائد ومحناً وحروباً وشروراً وهجاً من البلدان وآخر الأمر شنى علي باب زويلة وأقام ثلاثة أيام وهو معلق علي الباب حتي جافت رائحته - - وفي اليوم الثالث أنزلوه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ومضت أخباره كأن لم يكن ^١

ويري الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني أن (التي تدلت من الحبل لم تكن جثة طومان باي ولكنها كانت في الحقيقة جثة مصر ، ولقد ماتت قروناً طويلة قبل أن يكتب لها البعث من جديد وجاء السلطان العثماني ودخلت مصر في سرداب التاريخ وتحولت من سلطنة إلي ولاية وخيم عليها الظلام وأصابها الضمور وإذا كان السلطان العثماني قد قطع رأس سلطان المماليك فقد أبقى علي المماليك أنفسهم ، ولم يلبث هؤلاء أن تزيوا بزي العثماني ورطنوا بلسانه واشتغلوا تحت رايته ^٢

نقلًا عن كتاب (بدائع الزهور في وقائع الدهور) تأليف محمد بن أحمد بن إياس الحنفي
وكتاب (طومان باي آخر سلاطين المماليك) تأليف (د عبد المنعم ماجد) وكتاب مصر من تاني لمحمود السعدني

^١ المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور (ابن إياس الحنفي) صفحة ١١١
^٢ مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ٦٧

١٤٩. وصف أسلوب المؤرخ ابن اياس الحنفي كما ورد بكتاب مصر الإسلامية

وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان ١٨٩٦-١٩٨٦ -

الهيئة المصرية العامة للكتاب - مكتبة الأسرة ١٩٩٨ - مقتطفات من صفحة ٢١٩ وما بعدها ، ، وفي هذا القسم من روايته ، أعني تدوين حوادث عصره ، وهو يشمل زهاء نصف قرن ، من أواخر القرن التاسع إلى سنة ٩٢٨هـ ، يبدي ابن اياس نوعاً من الطرافة والبراعة ، ويبدي بالأخص دقة في الملاحظة ، ومقدرة لا بأس بها في تحليل الأنفس والعواطف ، وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى سير الحوادث نفسها وإلى المفاجآت والوقائع الغريبة التي قدر للمؤرخ أن يشهدها في خاتمة حياته ، فهي التي تغذيه خلال روايته بما يلاحظ وما يعلق ، ونستطيع بالأخص أن نستخرج من رواية ابن اياس خلال المجتمع المصري في هذا العصر ، وأن نتعرف هذا المجتمع المستهتر الطروب في بعض أثوابه الحقيقية ، وأن نقرأ في سلوكه وتصرفاته كثيراً من عواطفه وميوله ويوادر نفسه ، وأن نقف على صور شائقة من عاداته وأحواله الاجتماعية ، وهذا ما تعرضه رواية الحوادث ذاتها ، ولكن لابن اياس فضلاً في ذلك ، هو أنه يعني في كثير من الأحيان بتدوين بعض أحوال الحياة الخاصة ، وتتبع آثار الحوادث في نفس الشعب وطبقاته الاجتماعية المختلفة ، فنري في روايته ، طبقة الأمراء والأرستقراطية تتحكم في سائر الطبقات اجتماعياً واقتصادياً ، ولا تبحث إلا عن تحقيق أهوائها ورفاهيتها ، عاش الناس أم هلكوا ، ونشعر بوجي القضاة وغيرهم من رجال الدين واضحاً في سياسة السلاطين ، كما نراهم سند السلاطين في إباحة المصادرة ونهب الأرزاق والأموال ، وإصدار ما يحقق أهواءهم من الفتاوي والأحكام ، ونري الطبقة المتوسطة منكشمة لا تكاد تأخذ بقسط في مجري الحوادث ، أما الطبقة الدنيا أو العامة فنراها صاحبة فائرة ، تظهر في طليعة كل اضطراب ، ولكنها كعادتها تهدأ وتختفي أمام القوة ، ويتتبع ابن اياس حركات العامة بصفة خاصة ، فيصف سلوكهم ونزعاتهم وعواطفهم من غضب ورضى ومرح واكتئاب ، في نبذ ممتعة كثيراً ما تثير الابتسام أما نظم السياسة والحكم والتشريع والإدارة فيعرضها فيعرضها ابن اياس في سياق روايته خير عرض ، فيشرح لنا كيف كان يلي السلطان العرش ويباشر الحكم بنفسه أو علي يد خاصته وأمرائه ، وكان نظام البلاط والحكومة يومئذ من أغرب النظم الملوكية التي عرفت ، يمتزج فيه التشريع والتنفيذ والقضاء ، وسلطات الحرب والمالية في صعيد واحد ، - - - -

ونري مما يذكر إلي أي حد كانت دولة المماليك الشراكسة تمعن في المركزية والاستئثار بالسلطات - - - كذلك يصف التقلبات الاقتصادية من غلاء ورخاء ، ، وعلي الجملة فإنه يصور لنا في سياق روايته مجتمع عصره سواء في الحياة العامة أو الخاصة أو في الخلال والعادات ، والميول والأهواء تصوراً قوياً شائقاً

كانت حوادث الفتح العثماني آخر ما دون قلم ابن اياس فهو يصل في روايته حتي خاتمة سنة ٩٢٨هـ - ١٥٢٢م - ونحن نعرف أن المؤرخ توفي بعدئذ بقليل سنة ٩٣٠هـ - - فهو يترك لنا عن هذه الحوادث الشهيرة سجلاً يومياً مسهباً يستند إلي تحقيق المعاصرة والمشاهدة ، وهو لا يمهّد فيه إلي الحوادث ، ولا يعني بربطها بل يدونها مرسلّة كما وقعت ويحصى آثارها إحصاء من رأي وسمع ، وكل ما هنالك ان ابن اياس يطلق العنان لشعوره وعواطفه ، فنراه يحمل علي السفاكين والظلمة في عبارات شديدة وأحياناً مؤثرة ، - -

ويفيض في تفاصيل الواقعة الهائلة التي نشبت بين الغزاة وبين الجيش المصري في مرج دابق سنة ١٥١٦م وما أوقعه الغزاة بعسكر مصر من سفك ونهب ، ويصف صدي النكبة في القاهرة وكيف قام (نعي السلطان في ذلك اليوم ونعي الأمراء والأعيان الذين قتلوا وصار في كل حارة وزقاق وشارع في القاهرة صراخ وبكاء ، ورجت القاهرة وضجت الناس واضطربت الأحوال وكثر القيل والقال) ثم يقف المؤرخ قليلاً ليصف السلطان الغوري وخلال له ويعدد مثاليه ومآثره وينظم في ذلك قوله :

طالعت تاريخ الملوك فلم أري فيما سمعت حوادثاً مما جري

لا زالت الأيام يبدو فعلها بعجائب وغرائب بين الوري

لكن هذه وقعة ما مثلها سبقت لسلطان ولا متأمر

والأشرف الغوري كان مليكنا لكنه قد جار فينا وافتري

أعماله ردت عليه بما جني والدهر جازاه بأمر قدرا

١٥٠. المقرئزي يكتب عن المماليك

ما يلي :

(الطباقي بساحة الإيوان) : عمرها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأسكنها المماليك السلطانية وعمر حارة تختص بهم وكانت الملوك تعني بها غاية العناية ، حتي أن الملك المنصور قلاوون كان يخرج في غالب أوقاته إلي الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك ويأمر بعرضه عليه ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداعته فمتي رأي فيه عيباً اشتد علي المشرف والاستادار ونهرهما وحل بهما منه أي مكروه

وكانت المماليك أبداً تقيم بهذه الطباقي لا تبرح فيها ، فلما تسلطن الملك الأشرف خليل بن قلاوون ، سمح للمماليك أن ينزلوا من القلعة في النهار ولا يبيتوا إلا بها ، فكان لا يقدر أحد منهم أن يبيت بغيرها ، ثم إنه الملك الناصر محمد بن قلاوون سمح لهم بالنزول إلي الحمام يوماً في الأسبوع فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدام ثم يعودون آخر نهارهم ولم يزل هذا حالهم إلي أن انقرضت أيام بني قلاوون

وكانت للمماليك بهذه الطباقي عادات جميلة : أولها أنه إذا قدم بالملوك تاجر عرضة علي السلطان ونزله في طبقة جنسه وسلمه لطواشي برسم الكتابة ، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم ، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار وكان الرسم إذ ذاك ألا تجلب التجار إلا المماليك الصغار ، فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه وأقرأه فيه مقدمه ، فإذا صار إلي سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتي يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه وإذا ركبوا إلي لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم

فينقل إذن إلي الخدمة ويتنقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلي أن يصير من الأمراء ، فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه واشتد ساعده في رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ومرن علي ركوب الخيل ، ومنهم من يصير في رتبة فقيه عارف أو أديب شاعر أو حاسب ماهر هذا ولهم أزمة من الخدام وأكابر من رؤوس النوب : يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافي ويؤاخذونه أشد المؤاخذة ويناقشونه علي حركاته وسكناته

فإن عثر أحد من مؤيديه الذي يعلمه القرآن أو الطواشي الذي هو مسلم إليه أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه ، علي أنه اقترف ذنباً أو أخل برسم أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا قابله علي ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه فذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار وتعدّي ، وكانت لهم الإدارات الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلاوات والفواكه والكسوات الفاخرة والمعالي من الذهب والفضة بحيث تتسع أحوال غلمانهم ويفيض عطاؤهم علي من قصدهم

ثم لما كانت أيام الظاهر برقوق راعي الحال في ذلك بعض الشيء إلي أن زالت دولته في سنة أحدى وتسعين وسبعمائة ، فلما عاد إلي المملكة رخص للمماليك في سكني القاهرة وفي التزوج فنزلوا من الطباقي من القلعة ونكحوا نساء أهل المدينة وأخذوا إلي البطالة ونسوا تلك العوايد

ثم تلاشت الأحوال في أيام الناصر فرج بن برقوق وانقطعت الرواتب من اللحوم غيرها حتي عن ممالك الطباقي مع قلة عددهم ورتب لك واحد منهم في اليوم مبلغ عشرة دراهم من الفلوس فصار غذاؤهم في الغالب الفول المصلوق عجزاً عن شراء اللحم وغيره

هذا وبقي الجلب من الممالك إنما هم الرجال الذين كانوا في بلادهم ما بين ملاح سفينة ووقاد في تنور خباز ومحول ماء في غيط أشجار ونحو ذلك واستقر رأي الناصر علي أن تسليم الممالك للفقهاء يتلفهم بل يتركون وشئونهم فبدلت الأرض غير الأرض وصارت الممالك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً وأشحهم نفساً وأجهلهم بأمر الدنيا وأكثرهم إعراضاً عن الدين ما فيهم إلا من هو أزني من قرد وألص من فأرة وأفسد من ذئب ، لاجرم أن خربت أرض مصر والشام من حيث يصب النيل إلي مجري الفرات بسوء إيالة الحكام وشدة عبث الولاة وسوء تصرف أولي الأمر حتي أنه ما من شهر إلا ويظهر من الخلل العام مالا يتدارك فرطه

وبلغت عدة الممالك السلطانية في أيام الملك المنصور قلاوون ستة آلاف وسبعمائة فأراد ابنه الأشرف خليل تكميل عدتها عشرة آلاف مملوك وجعلهم طوائف فأفرد طائفة الأرمن والجركس وسماهم البرجية لأنه أسكنهم في أبراج بالقلعة فبلغت عدتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة وأفرد جنس الخطا والقبحاق وأنزلهم بقاعة عرفت بالذهبية والزمردية وجعل منهم جمدارية وسقاة وسماهم خاصكية وعمل البرجية سلاحدارية وجمقدارية وجاشنكيرية وأوشاكية

ثم شغف الملك الناصر محمد بن قلاوون بجلب الممالك من بلاد أزيك وبلاد توريز وبلاد الروم وبغداد وبعث في طلبهم وبذل الرغائب للتجار في حملهم إليه ، ودفع فيهم الأموال العظيمة ثم افاض علي من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامة الأصناف دفعة واحدة في يوم واحد ولم يراع عادة أبيه ومن كان قبله من الملوك في تنقل الممالك في أطوار الخدم حتي يتدرب ويتمرن كما تقدم وفي تدريجه من ثلاثة دنانير في الشهر إلي عشرة دنانير ثم نقله من الجامكية إلي وظيفة من وظائف الخدمة ، بل اقتضي رأيه أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة

فأتاه من الممالك شئ كثير رغبة فيما لديه حتي كان الأب يبيع ابنه للتاجر الذي يجلبه إلي مصر وبلغ ثمن المملوك في أيامه إلي مائة ألف درهم فما دونها وبلغت نفقات الممالك في كل شهر إلي سبعين ألف ثم تزايدت حتي صارت في سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، مائتين وعشرين ألف درهم

نقلاً عن كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرية - الجزء الثالث - تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقريري - تحقيق محمد زينهم ، مديحة الشرقاوي - مكتبة مدبولي

١٥١. من التقاليد السلطانية عند سفر السلطان وعند ركوبه إلي الميدان في العصر

المملوكي من كتاب خطط المقرئ

التقاليد عند السفر

وكان من رسوم السلطان في خروجه إلي سرياقوس وغيرها من الأسفار ألا يتكلف إظهار كل شعار السلطنة بل يكون الشعار في موكبه السائر فيه جمهور مماليكه مع المقدم عليهم واستاداره ، وأمامهم الخزائن والجنايب والهجن ، وأما هو نفسه فإنه يركب معه عدة كبيرة من الأمراء الكبار والصغار من الغرياء والخواص ، وجمله من خواص مماليكه

ولا يركب في السير برقبة ولا بعصائب بل يتبعه جنائب خلفه ويقصد في الغالب تأخير النزول إلي الليل فإذا جاد الليل حملت قدامه فوانيس كثيرة ومشاعل فإذا قارب مخيمه تلقى بشموع موكبية في شمعدانات كفت ، وصاحت الجاويشية بين يديه ، ونزل الناس كافة إلا حملة السلاح فإنهم وراءه والوشاقية أيضاً وراءه وتمشي الطبردارية حوله

حتى إذا وصل القصور بسرياقوس أو الدهليز من المخيم ، نزل عن فرسه ودخل إلي الشقة وهي خيمة مستديرة متسعة ثم منها إلي شقة مختصرة ثم منها إلي اللاجوق ، وبدائر كل خيمة من جميع جوانبها من داخل سور خركاه ، وفي صدر اللاجوق قصر صغير من خشب برسم المبيت فيه ، وينصب بإزاء الشقة الحمام بقدر الرصاص والحوض ، علي هيئة الحمام المبني في المدن إلا أنه مختصر

فإذا نام السلطان طافت به الممالك دائرة بعد دائرة ، وطاف بالجميع الحرس وتدور الزفة حول الدهاليز في كل ليلة وتدور بسرياقوس حول القصر في كل ليلة مرتين : الأولى منذ يأوي إلي النوم والثانية عند قعوده من النوم

وكل زفة يدور بها أمير جاندار وهو من أكابر الأمراء وحوله الفوانيس والمشاعل والطبول والبياتة وينام علي باب الدهليز النقباء وأرباب النوب من الخدم

ويصحب السلطان في السفر غالب ما تدعو الحاجة إليه حتي يكاد يكون معه مارستان ، لكثرة من معه من الأطباء وأرباب الكحل والجراح والأشربة والعقاقير وما يجري مجري ذلك ، وكل من عاده طبيب ووصف له ما يناسبه ، يصرف له من الشراب خانه أو الدواء خانه المحمولين في الصحبة ، والله أعلم

وكان من مصطلح الملوك أن تكون تفرقة السلطان الخيول علي الأمراء في وقتين أحدهما عندما يخرج إلي مرابط خيله في الربيع عند اكتمال تربيعها وفي هذا الوقت يعطي أمراء المئين الخيول مسرجة ملجمة بكنابيش مذهبة ويعطي أمراء الطبلخانات خيلاً عرياً ، والوقت الثاني يعطي الجميع خيولاً مسرجة ملجمة بلا كنبابيش بفضة خفيفة وليس للأمراء العشراوات حظ في ذلك إلا ما يتفقدون به علي سبيل الإنعام ولخاصكية السلطان المقربين من أمراء المئين وأمراء الطبلخانات زيادة كثيرة من ذلك بحيث يصل إلي بعضهم المائة فرس في السنة

التقاليد عند الركوب إلي الميدان :

وكان من شعار السلطان أن يركب إلي الميدان وفي عنق الفرس رقبة حرير أطلس أصفر بزركش ذهب فتستر من تحت أذني الفرس إلي حيث السرج ويكون قدامه اثنان من الأوشاقية راكبين علي حصانين أشهبين برقبتين نظير ما هو راكب به ، كأنهما معدان لأن يركبهما ، وغاشية السرج محمولة أمام السلطان وهي أديم مزركش مذهب يحملها الركابدارية قدامه ، وهو ماش في وسط الموكب ، ويكون قدامه فارس يشبب بشبابة لا يقصد بنغمها الإطراب ، بل ما يقرع بالمهابة سامعة ومن خلف السلطان الجنايب وعلي رأسه العصائب السلطانية وهي صفر مطرزة بذهب بألقابه واسمه

وهذا لا يختص بالركوب إلي الميدان بل يعمل هذا الشعار أيضاً إذا ركب يوم العيد أو دخل إلي القاهرة أو إلي مدينة من مدن الشام ويزداد هذا الشعار في يوم العيدين ودخول المدينة برفع المظلة علي رأسه ويقال لها الحبر وهو أطلس أصفر مزركش من أعلاه قبة وطائر من فضة مذهبة ، يحملها يومئذ بعض أمراء المئين الأكابر وهو راكب فرسه إلي جانب السلطان ، ويكون

أرباب الوظائف والصلاحية كلهم خلف السلطان ، ويكون حوله وأمامه الطبردارية وهم طائفة من الأكراد ذوي الإقطاعات والإمرة ويكونون مشاة وبأيديهم الأبطال المشهورة

نقلًا عن كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرية - الجزء الثالث - تأليف تقي الدين أحمد بن علي المقرزي - تحقيق محمد زينهم ، مديحة الشرقاوي - مكتبة مدبولي - من صفحة ٣١ وما بعدها

وجدير بالذكر أن السلطان المملوكي في ذلك الوقت كان يحكم مصر والشام والجزيرة العربية وبعض جزر البحر المتوسط وكان من ألقابه ملك البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين

١٥٢. الصراع المملوكي البرتغالي حول البحر الأحمر

بدأ هذا الصراع منذ وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية حيث عمل كل طرف علي الاستيلاء وأسر سفن تجار الطرف الآخر بل عمل كل فريق علي العبث وإتلاف وإفساد ثروات الفريق الآخر ، وعادت هذه الأعمال العدائية من جانب الطرفين بالخسارة الشديدة علي موانئ البحر الأحمر وبخاصة موانئ عدن ومخا وجدة كما تذكر المصادر المعاصرة وكثرت الاشاعات بفساد الافرنج وتعبثهم علي التجار وقد جابوا حول بندر جدة

وقد قامت سياسة البرتغاليين في حقيقة الأمر منذ تلك الفترة علي أساس القضاء علي كل نفوذ تجاري للتجار العرب في -البحار- الشرقية ، ومن هنا كانت مطاردتهم للسفن العربية وإغراقها والعمل علي طرد العرب من المراكز التجارية الهندية والإفريقية منذ وصول فاسكو داجاما إلي هذه البحار حيث قام أثناء رحلته الثانية سنة ١٥٠٢ بإرسال حملة مكونة من خمس سفن حربية للإقامة الدائمة عند مدخل البحر الأحمر والعمل علي مهاجمة السفن العربية ومنعها من مزاوله النشاط التجاري في مياه المحيط الهندي إلا بتصريح من البرتغاليين

وفعلًا تمكن قائد هذه الحملة البرتغالية من القيام ببعض الأعمال العدائية ضد السفن التجارية العربية كما تمكن من أسر بعض البحارة العرب

وقد ازدادت حدة الحصار البرتغالي شدة حينما وصل إلي المياه الشرقية البوكميرك سنة ١٥٠٦ الذي شدد من فرض الحصار البحري المفروض علي البحار العربية ومداخلها مما أضر ضرراً فادحاً باقتصاد كل من مصر واليمن والبندقية التي كانت تسعى جادة في تلك الآونة علي مقاومة الخطر البرتغالي عن طريق حث السلطان الغوري علي النهوض لمقاومة هذا العدو المشترك

ورغم سوء الظروف الداخلية التي كانت تحيط بالسلطان الغوري فإن خطته قائمة آنذاك علي تقوية نفوذه في أقاليم البحر الأحمر وتحصين سواحله إدراكاً منه لأهمية هذا البحر الإقتصادية والاستراتيجية بالنسبة لأملاكه في مصر والحجاز ولذا فإنه أرسل في ٦ جمادي الآخرة سنة ٩١١ هـ - ٤ نوفمبر سنة ١٥٠٥م حملة بحرية تحت قيادة حسين الكردي من ميناء السويس ووجهتها الهند علي أن تعمل في نفس الوقت علي تحصين ميناء جدة استعداداً لمواجهة أي خطر برتغالي في المستقبل لمهاجمة الأماكن المقدسة ، ولذا فإن الحملة زودت بالفنيين اللازمين للقيام بهذه التحصينات ، وقد أقام هؤلاء الفنيون فعلاً بعض الاستحكامات في هذا الميناء ثم اتجهت الحملة إلي موانئ اليمن الواقعة علي البحر الأحمر مثل قمر بجيزان وجزيرة كمران ثم اتجهت إلي مخا فعند حيث ذكر الأمير حسين الكردي قائد الحملة لحاكم عدن الطاهري أن الحملة تستهدف الذهاب إلي الهند لمحاربة البرتغاليين فأمدّه حاكم عدن بما يشاء من طعام ومؤن ومع أن الحملة تمكنت حينما وصلت إلي (ديو) من التحالف مع بعض الإمارات الهندية وإحراز انتصارات جزئية علي القوي البرتغالية إلا أن الهزيمة حلت بها في النهاية ولم تحقق الهدف المرجو منها

ومنذ تلك الآونة ازداد اقتراب الخطر البرتغالي إلي مداخل البحر الأحمر

من كتاب (فصول من تاريخ مصر الإقتصادي والإجتماعي في العصر العثماني) د عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم - من سلسلة كتب (تاريخ المصريين) رقم ٣٨ - الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة سنة ١٩٩٠ صفحة ١٢١ وما بعدها

١٥٣. المؤرخ البريطاني ستانلي لين بول يصف بعض أمراء من ممالك العصر

العثماني

وجدير بالذكر أن الممالك في العصر العثماني تحولوا إلي أمراء وبكوات وكانوا قبل ذلك سلاطين وملوك في أيام الممالك البحرية والممالك البرجية ، حتي خضعت مصر للحكم العثماني وأصبحت ولاية تابعة بعد أن كانت مملكة مستقلة وبالرغم من ذلك قام ممالك العصر العثماني بمحاكاة سابقهم من سلاطين الممالك لينالوا المجد والشرف ولكن كان هناك فرق كبير وعن هذا الموضوع كتب المؤرخ والباحث البريطاني ستانلي لين بول ما يلي :

والواقع أنه يصعب علينا كشف أي فارق جوهري بين هؤلاء الأمراء المتأخرين ، وبين أولئك الذين ظهروا خلال العصر الذهبي لحضارة الممالك ، حقيقة أن فرصهم المواتية كانت أقل ، لأنهم لم يقفوا علي القتال في سوريا أو آسيا الصغرى لمصلحتهم الخاصة ، وذلك لأن الخطط التي كانت ترسم في مصر علي الدوام للاستغلال الأجنبي ، كانت تستخدم كجانب ضئيل للجيش العثمانية ، إلا أن من الواضح أن شخصياتهم وأعمالهم وميولهم كانت تشبه إلي أبعد الحدود ما كانوا عليه في القرنين السابقين لهم ، فقد كان الفرق إذن في الحكم لا في النوع ، ذلك أنهم لم يكونوا أناساً ذوي فرص عظيمة مثلما كان أسلافهم ، وإنما كانوا يشبهونهم في الجنس والخلق والعمل إلي حد بعيد والحقيقة أن بعضهم كان ذا شخصية قوية يمكن مقارنتها بشخصيات المدرسة القديمة ، فعثمان بك ذو الفقار - علي سبيل المثال - في النصف الأول من القرن الثامن عشر - - - في عام ١٧٣٩م أصبح أميراً للحج وهو من أشهي المناصب في مصر ، - -

وكان عثمان بك هو أول أمير يجرؤ علي دعوة باشا مصر (العثماني) لوليمة في قصره ، وقد كان خضع بسيطرته بقية نبلاء مصر خضوعاً تاماً ، كما أنه كان يعقد مجلساً في قصره الخاص لبحث أسباب الشكوي ، وكان يعاقب في صرامة وشدة كل حالات الاغتصاب والظلم ، لأنه هو نفسه كان نقياً نزيهاً ، كذلك كان يراقب مفتش الأسواق عن كذب ، ويحدد أسعاراً ثابتة للخبز وغيره من ضروريات الحياة ، ويتأكد من أن أموال البر تنفق في الأوجه الصحيحة ، ولقد كان سامياً في خلقه ، ذا أفكار وآراء نبيلة ، عادلاً ، قوياً ، نزيهاً ، ذا حياة شريفة ، ألبياً كريماً ، بحيث أنه خلف من ورائه أثراً ، حينما تسببت مؤامرات خصومه في نفيه من مصر ، كان من نتيجته أن كان ينسب إليه عصر من العصور ، فقد كان القوم يقولون مثلاً : إن ذلك الشئ حدث بعد رحيل عثمان بك ببضعة سنوات ، أو لقد كان عمري كذا من السنين حينما رحل عثمان بك ، ولقد كان رضوان بك الجلفي ، علماً بارزاً آخراً من أعلام القرن الثامن عشر ، فحينما كان يتولي السلطة هو ونائب آخر يدعي إبراهيم ، كانت البلاد تتمتع بسلام شامل ، وكان الطعام أرخص منه في أي وقت قبل ذلك ، وعلي الجملة فإن جميع الطبقات كانت تعيش في يسر ورخاء ، وكان كل رجل عظيم في تلك الأيام يفتح منزله مرتين كل يوم في الظهر والمساء لكل قاص ودان ، وذلك في بهو عظيم الاتساع ، وكان السيد وضيوفه يتصدرون المائدة ، ثم يليهم الممالك والأتباع ، وكان من العار الا يسمح لأي غريب بالدخول ما دام قد قدم بنفسه إلي هناك ، أما أيام الأعياد فكانت توزع أطباق كبيرة من الأرز وعسل النحل أو اللبن علي الفقراء ، كذلك كانت توزع الحلوي في أيام الجمع والاحتفالات الرسمية ، وكان أحد منازل رضوان الأنيقة يقع علي بركة الأزيكية التي كانت موجودة في ذلك الوقت ، وكانت تعلو ردهاته قباب بديعة الزينة ، فيها نقوش عربية من الذهب علي أرضية لونها أزرق ومرصعة بالزجاج باللون المتناسق الذي يكسبها روعة فوق الروعة ، كذلك فإنه بني أكشاكاً في حديقة بجوار قناة حيث كان قد حفر بركة وأقام جندلاً ، وهناك وحينما خمدت أطماعه وآماله كان ينغمس في الملذات التي كان يسر منها كثيراً ، والحقيقة أن رضوان لم يكن يهتم بالأخلاق مثلما كان يهتم عثمان بك

١٥٤. جامع سنان باشا ببولاق

يعتبر هذا المسجد من التحف المعمارية القليلة من العصر العثماني وقد وردت أبعاد هذا الجامع بموسوعة ويكيبيديا كالآتي :



يبلغ طول الجامع ٣٥ متر وعرضه ٢٧ متر وقوام المسجد قبة مركزية كبيرة محاطة بثلاث أيوانات من الجهات الشمالية والجنوبية والغربية والجامع ليس له حرم بمعنى أنه لا يتقدمه أي فناء مكشوف والسبب في ذلك صغر المساحة حيث كان الجامع يطل مباشرة على ثغر النيل وقد أستعاض مهندس الأثر عن الفناء بالأروقة وقد كان الجامع محاط من خارجه بأسوار كانت تحوي أبواب

وقد وردت معلومات عن سنان باشا في موسوعة تاريخ مصر لأحمد حسين بالجزء الثالث ، حيث تولي هذا الوالي العثماني حكم مصر في سنة ١٥٦٨م - ٩٧٥هـ في عهد السلطان العثماني سليم خان الثاني ، ثم شغل بعد ذلك وظيفة الصدر الأعظم وهو الرجل الثاني بالدولة العثمانية

وأثناء تولي سنان باشا حكم مصر قامت الدولة العثمانية بتكليفه بقيادة حملة لليمن واستخلف علي مصر اسكندر الشركسي ، وقد نجح سنان باشا في مهمته في اليمن واستطاع أن يدخل صنعاء لأول مرة ، وأن يفتح جميع القلاع المستعصية ، وقد ظل في اليمن ينظم شئونه ويقر الأمن في نصابه لمدة عامين وبضعة شهور وأعيد سنان باشا إلي ولاية مصر بعد نجاحه في اليمن في أول صفر من سنة ٩٧٩هـ فخط في تاريخ الولاية العثمانيين في مصر أزهى صفحة

إذ أعاد ترعة الإسكندرية التي كانت قد ردمت فحرمت الإسكندرية معين الحياة ، وبني وعمر وأنشأ جوامع وشوارع وحمامات ،

واختص ببولاق باهتمامه فشق فيها شارعاً وأنشأ وكالات للتجار ، وشيد جامعته الشهير الذي لا يزال قائماً ومعروفاً باسمه ، وهو من خير ما أنتج العهد العثماني

ويصف أمين باشا سامي عهد سنان باشا بقوله إن الرخاء شمل مصر في أيامه حتي وصل سعر الإردب القمح عشرة أنصاف ، وأعاد توزيع المستحقات للعلماء والفقراء والمرضى

١٥٥. الأعمال المعمارية الرائعة للأمير عبد الرحمن كتحدا

خلال العصر العثماني كما وصفها المؤرخ البريطاني ستانلي لين بول في كتابه سيرة القاهرة حيث كان هذا الأمير مولع بترميم وإصلاح العماائر الإسلامية القديمة وكلما أتاحت له الفرصة لذلك حتي أن المؤرخ البريطاني وصفه بكبير المصلحين علي الإطلاق ، كما وصف ذوقه الرفيع أيضاً فقال :

، ، - - - فكل سائح لابد وأن يعرف ذلك السبيل الدقيق الذوق - كصاحبه الذي كان وسيماً ومتأنقاً في ملبسه - في نهاية بين القصرين بما فيه من قرميد وبما فوقه من مدرسة مكشوفة بها أقواس ، إلا أن هذا كان أقل أعماله طراً ، فقد بني مسجداً خارج باب الفتوح وآخر بجوار باب الغريب فيه حوض وينبوع ومدرسة ، كذلك بني خزناً كبيراً للمياه ، فيه ينبوع ومدرسة للسقائين ، وأصلح ضريح السيد زينب والسيدة سكيمة وأنشأ أضرحة أخرى بجوار باب القرافة ، وفي الموسكي وفي حي الحسينية ، وفي شارع عابدين ، وغير ذلك

ولعل أهم إصلاح قام به حقاً هو إصلاح الجامع الأزهر الذي يدين له بالكثير مما يوجد به الآن ، فقد وضع قرناً من الحجر لتثبيت الأعمدة الرخامية ، غطاها بطبقة من الأخشاب الفاخرة ، كذلك بني محراباً ومنبراً جديدين ، وشيد رواقين : أحدهما فوقه مدرسة لليتامي ، والآخر تعلوه مئذنة ، - - - ، وزود المسجد بالمكتبات ، وقاعات المطالعة ، والمطابخ ، وغير ذلك من الأبنية التي كانت تفيد الطلاب الذين يأتون من صعيد مصر ، ووسع مدرستي الطبرسية والأكبروية الملحقتين بالأزهر ، وبني بوابة فخمة بينهما ، في مواجهة وكالة قايتباي ، وأثث الأروقة لتكون مأوي لطلبة مكة والسودان ، وقرر أموالاً خاصة للإنفاق علي معيشتهم ، هذا إلي جانب تقديم كميات وافرة من الأرز والزبد والزيت والدقيق إلي مطبخ الأزهر كل يوم من أيام شهر رمضان ، وذلك للترفيه عن الطلاب بعد صومهم طول النهار ،

كذلك فإن عبد الرحمن أصلح مسجد الإمام الشافعي ، ومهد الممر الموجود فيه بالرخام الملون ، وأصلح ضريح السيدة نفيسة ومارستان قلاوون ، - - - -

وعلي الرغم من كل ما كان يشاع عنه ، فإن أعمال هذا الرجل الخيرية لا حد لها ففي وقت الشتاء كان يوزع الملابس الصوفية علي العميان الذين كانوا يكثرون في القاهرة ، وكذلك علي المؤذنين حتي يقيهم من البرد حينما كانوا يؤذنون للصلاة أثناء الليل ، وكان الفقراء يتدافعون علي بابه مساء كل يوم من أيام رمضان ينتظرون أطباق الطعام التي لم تكن ترفض علي الإطلاق ، فإذا ما انتهوا من تناول طعام الإفطار ، انصرفوا في بشر وسعادة وقد حمل كل منهم رغيفين وقطعتين من النقود لشراء ما يلزم لطعام السحور ،

وعلي الجملة فإن عبد الرحمن كتحدا بني أو أعاد بناء ثمانية عشر مسجداً إلي جانب الأضرحة والسبل والمدارس والجسور وغير ذلك من الأبنية ، فقد كان لديه شغف بالبناء ، ومن حسن الحظ أن ذوقه كان رفيعاً ، وكان الناس يسمونه بحق المحسن العظيم وقد توفي عبد الرحمن في القاهرة عام ١٧٧٦ في سن متقدمة بعد أن أمضي اثنتي عشرة سنة أسيراً ذلك أن أعماله الخيرية لم تكن لتعفيه من شكوك علي بك الكبير ، ولقد سار في جنازته العلماء والأساتذة والطلاب والفقراء نقلاً عن كتاب سيرة القاهرة لستانلي لينبول ، ترجمة د حسن إبراهيم حسن ، د علي إبراهيم حسن ، د إدوار حليم ،

طبعة مكتبة الأسرة ١٩٩٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب صفحة ٢٤٤ ، ٢٤٥

١٥٦. الأمير عبد الرحمن كتخدا أمير البنائين في العصر العثماني

عبد الرحمن كتخدا بناء عظيم عالي الهمة في أيام العثمانيين، يعتبر في مقدمة الساعين في تجميل القاهرة وترصيعها بمبانيه. كان صاحب نفوذ قبل أيام علي بك الكبير، وقد ورث عبد الرحمن ميوله الفنية عن أبيه الذي استطاع أن يشيد مما جمعه من ثروة - مدرسة ومسجداً وسبيلاً بالقرب من بركة الأزبكية، وفي يوم افتتاحها ملأ حوضاً كبيراً وكل ما وصلت إليه يده من الأواني بالشراب المحلي بالسكر ليسقي الأهالي. وبنى منشآت خيرية أخرى

كان الأمير عبد الرحمن كتخدا مصر (محافظاً لها) في عام ١٧٤٤ وقد عشق البناء، فأنشأ وجدد كثيراً من المساجد والأسبلة والأضرحة. وقد اشتهر عبد الرحمن بما أدخله من زيادات في الجانب الشرقي من الأزهر، ومن بينها ضريحه الخاص وجزء من المدخل وخمسون عموداً من رواق القبلة ومنبر ومحراب جديان وشيد منذنتين وبابى الشورية والصعايدة.

جمع عبد الرحمن كتخدا في أكثر مبانيه بين الجمال والفن، ويتجلى ذلك في سبيله الرائع الواقع عند ملتقى شارعي النحاسين والجمالية والمعروف باسمه حتى اليوم. ولهذا السبيل ثلاث واجهات بها ثلاث فتحات عقودها من الرخام الملون و "تواشيحها" من الرخام الدقيق موضوع عليها شبابيك نحاسية، ويعلو السبيل كتاب ذو مظلات وحواجز من خشب الخرط. ويتضمن السبيل كتابات تحتوي على اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء (١١٥٧هـ/١٧٤٤) أما حجرة السبيل فقد غشيت جدرانها بالقاشاني، وعلى جزء من جداره الشرقي رسم صورة الكعبة الشريفة. وأنشأ الأمير عبد الرحمن عند باب الفتوح مسجداً وصهرجياً وكتاباً، وفي مدخل الأزهر أعاد بناء المدرسة الطبرسية وجعلها مع مدرسة الأقبغوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير من أحسن المباني فخامة وبهاء، كما أنه بنى المشهد الحسيني، وأنشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب مسجداً وصهرجياً وحوضاً وسقايةً ومكتباً، وشيد مسجداً بجهة الأزبكية ومكتباً وحوضاً. وبنى مشهد السيدة زينب، ومشهد السيدة سكيئة والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة، والسيدة فاطمة والسيدة رقية، وعمر المدرسة السيوفية. كما جدد المارستان المنصوري وغير ذلك من المساجد والأسبلة

ومن أجمل عمارته - دار سكته بحارة عابدين وكانت من الدور العظيمة المحكمة الإتقان والبناء، لم تماثلها دار بمصر في حسنها وزخرف مجالسها وبابها من النقوش والرخام والقاشاني، وغرس بها بستاناً بديعاً بداخله قاعة متسعة بوسطها نافورة مفروشة بالرخام. وموجز القول أن عدد المساجد التي بناها أو جددها عبد الرحمن كتخدا بلغ ثمانية عشر مسجداً، يضاف إليها الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والقطاير.. الخ

عظم شأن عبد الرحمن حتى استفحل أمر علي بك الكبير، فأخرجه منفياً إلى الحجاز وذلك في أول ذي القعدة عام ١١٧٨هـ (١٧٦٤) فأقام بالحجاز اثنتي عشرة سنة حتى أحضره يوسف بك أمير الحج في عام ١١٩٠هـ (١٧٧٦) بعد أن استولى عليه الهرم، فدخل إلى بيته مريضاً، فأقام فيه أحد عشر يوماً ثم مات، ودفن بالمدفن الذي أعده لجثمانه بجوار باب الصعايدة بالأزهر .

نقلاً عن كتاب عبد الرحمن زكي، بناء القاهرة في ألف عام، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص ٧٨ -

١٥٧. اسماعيل أبو طاقة شاهبندر التجار

اتخذت الحياة العملية لإسماعيل أبو طاقة في مجال التجارة الدولية أبعاداً كثيرة منذ مطلع التسعينيات من القرن السادس عشر ، فعلى الصعيد الجغرافي ظل البحر الأحمر يمثل القطاع الأكبر لنشاطه التجاري ، ولكنه ما لبث أن امتد شرقاً إلى مخا باليمن ، ثم إلى الهند ، وكانت الشبكة التجارية التي أقامها تضم شركاء ووكلاء يسافرون بين القاهرة والهند ، أو إلى مكة وجدة ، حيث ينتدبون شريكاً من الشركاء هناك للسفر إلى الهند نيابة عنهم ، وهو ما كان يفعله غيره من تجار ذلك الزمان

وكانت الهند عندئذ أقصى مركز تجاري في الشرق يتعامل معه تجار القاهرة ، وإضافة إلى ذلك ، أقام إسماعيل أبو طاقة شبكة تجارية أخرى ضمت بعض مدن البحر المتوسط وامتدت إلى استانبول وسالونيك والبندقية ، فكان يصدر نسبة كبيرة من البضائع التي يجلبها من الهند إلى بعض موانئ الدولة العثمانية وأوروبا عن طريق الإسكندرية ورشيد ودمياط ،

وكان له وكيل تجاري في أفريقيا ، مصدر تجارة الذهب وريش النعام والعاج ، وبلغ نشاطه مدينة كانو في نيجيريا وفوق كل ذلك ، اهتم اسماعيل أبو طاقة بالتجارة المحلية ، وخاصة تجارة منطقة الدلتا ، وتنوعت البضائع التي أبحر بها تنوعاً كبيراً كالأحجار الكريمة وخاصة ياقوت سرنديب والذهب الذي جلبه من كانو

وعند نهاية القرن السادس عشر كانت التوابل السلعة الغالبة في التجارة وليس الأحجار الكريمة واحتل البن منزلة تقع بين النوعين وينسحب نفس الشئ على السكر الذي كان اسماعيل أبو طاقة يصدره بكميات متزايدة في مطلع القرن السابع عشر ، كما أبحر بالمنسوجات على نطاق واسع

وتوجت حياة إسماعيل أبو طاقة العملية عندما أصبح شاهبندر التجار عام ١٠٢٢هـ / ١٦١٣م واحتفظ اسماعيل بالمنصب حتى وفاته عام ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م

وقد مارس اسماعيل أبو طاقة مهام الشاهبندر باهتمام كبير ، فكان يتدخل في المسائل التي تهم التجار ويتوسط في المنازعات التي تنشأ بينهم ويشهد على معاملاتهم ، فكان حاضراً دائماً عند الحاجة إليه وكانوا يتوقعون مساعدته دائماً عند الأزمات

ومن الطريف أن نرى كيف كان الشاهبندر يستقبل عند قدومه إلى السوق كل صباح لممارسة عمله ، فقد جرت العادة أن يصحبه التجار إلى مقر الشاهبندر ويقرأون الفاتحة أمامه ويتمنون عليه يوماً طيباً ثم ينصرف كل منهم إلى متجره ، وتدل الحكاية على أن الشاهبندر كان يتمتع بقدر كبير من التبجيل

وقد أدار أبو طاقة تلك الشبكة التجارية من مقره بالقاهرة دون أن يضطر إلى مغادرتها ، سواء للسفر خارج البلاد أو إلى الأقاليم الداخلية التي تعامل معها

لم يزد المجال المكاني الذي تحرك فيه إسماعيل أبو طاقة خلال ممارسته العمل الروتيني اليومي عن مسافة بلغت حوالي كيلومتر واحد ،

فكان يخرج من بيته الكائن بالقرب من سوق أمير الجيوش ، شمالي المدينة ، متخذاً طريقه فيما وراء جامع الأقمر الفاطمي ، والمجموعة المعمارية للسلطان قلاوون في قلب المدينة ، حتى يصل إلى أحد حوانيته بسوق الوراقين ، أو بعض حواصله بوكالة الحمزاوي ، وقد يذهب من حين لآخر إلى الوكالة الكبرى والوكالة الصغرى وراء مجموعة قلاوون المعمارية ، ومن تلك المواقع زاول إسماعيل أبو طاقة نشاطه ، وارتبط بهذا الروتين اليومي ارتباطاً وثيقاً بزياراته المتفرقة للمحاكم ،

حيث كان يسجل الصفقات التي أبرمها في السوق أو الوكالة على أوراق رسمية في سجلات المحكمة

وهكذا كان أبو طاقة يدير شبكة تجارية امتدت عبر ثلاث قارات

لقد حدثت تطورات عمرانية ملحوظة في زمن أبو طاقية ، ونظراً لأن معظم تلك التطورات حدثت علي يد التجار ، وتؤكد الانطباعات التي نخرج بها من كتابات الرحالة الأوروبيين الذين زاروا مصر

ويذكر مايكل هيببرر فون بريتن في ١٥٨٥م أن المدينة كانت كبيرة ومزدحمة بالناس ، ولا شك أن انطباعاته جاءت علي وسط المدينة الذي كان أكثر أنحاء القاهرة ازدهاراً ، وبعد ذلك ببضع سنوات ، يذكر الرحالة الألماني يوهان فيلد الذي اقام بالمدينة فيما بين ١٦٠٦-١٦١٠م أن التجارة كانت بالغة الازدهار ، وأنه انبهر بالحوانيت المليئة بالتوابل والأحجار الكريمة والأخشاب الثمينة ذات الروائح الذكية والقلانس الجميلة والمنسوجات القطنية الرفيعة التي جاءت من الشرق كما شاهد المرجان والمنسوجات الصوفية التي جلبها البنادقة

مقتطفات مختصرة نقلاً كتاب تجار القاهرة في العصر العثماني - سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار - تأليف د نللي حنا - ترجمة وتقديم د رعوف عباس - الناشر الدار المصرية اللبنانية - الطبعة الأولى ١٩٩٧م

١٥٨. علي بك الكبير

من أبرز الأحداث في العصر العثماني في مصر ما حدث في عهد الأمير المملوكي علي بك الكبير فأتثناء قيام الدولة العثمانية بقتال روسيا والنمسا خلال القرن الثامن عشر كان شيخ البلد في مصر واحد اسمه علي بك الكبير الذي انتهز فرصة حروب العثمانيين الكثيرة وانشغالهم بها وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وإليك بعض ما كتبه الرافعي عن هذا الموضوع (فلما نشبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٧٦٨ جاهر بخلع يده من طاعة الدولة وأعلن استقلال مصر وامتنع عن دفع الخراج سنة ١٧٦٩م "١١٨٣هـ" وعزل الوالي التركي ومنع ورود الولاة العثمانيين وضرب النقود باسمه ودانت له مصر بحريها وقبليها وكان من ممالিকে وأتباعه أحمد " باشا " الجزار ومحمد بك أبو الذهب وإسماعيل بك وحسن بك الجدوي وإبراهيم بك ومراد بك وغيرهم مما كانت لهم الأدوار الكبيرة علي مسرح الحوادث) ١ ، (وكان علي بك طموح النفس واسع المطامع فجرد الجيوش وفتح معظم جزيرة العرب ونادي به شريف مكة " سلطان مصر وخاقان البحرين " وأوفد محمد بك أبا الذهب ليفتح باسمه سوريا ففتح معظمها ولكنه لم يكد يتم له فتح دمشق حتي انقلب علي علي بك الكبير واتفق مع الباب العالي وعاد إلي مصر ليستأثر بالحكم فيها وقامت الحرب بينه وبين سيده وانتهت بقتل علي بك سنة ١٧٧٣ وعادت مصر ولاية عثمانية وخلصت إمارتها لمحمد بك أبو الذهب واستقر شيخاً للبلد وكافأته تركيا بفرمان تثنيتها في مشيخة البلد وتوليته حكم مصر وصار له الأمر والنهي في البلاد ورجعت تركيا إلي إرسال الولاة كما كان الأمر قديماً غير أن الوالي كان محجوراً عليه مسلوباً حوله وقوته ومحمد بك أبو الذهب يختار الوالي الذي يرتضيه والأمراء وقواد الجند وأعيان الدولة وكافة ممالিকে وأتباعه إلي أن مات سنة ١٧٧٥ م " ١١٨٩هـ " فخلفه في مشيخة البلد إبراهيم بك وقاسمه السلطة مراد بك) ٢ ومحمد بك أبو الذهب يوجد باسمه حالياً مسجد بجوار الجامع الأزهر

وقد وصف الجبرتي محمد بك أبو الذهب عندما كتب عن حوادث سنة ١١٨٨ هـ " ١٧٧٤م " فقال : (استهلت ووالي مصر خليل باشا محجور عليه ليس له في الولاية إلا الاسم والعلامة علي الأوراق والتصرف الكلي للأمير الكبير محمد بك أبو الذهب والأمراء وأعيان الدولة ممالিকে وإشرافاته والوقت في هدوء وسكون وأمن والأحكام في الجملة مرضية والأسعار رخيصة وفي الناس بقية وستائر الحياء عليهم مرخية شعر :

وما الدهر في حال السكون بساكن - - - ولكنه مستجمع لوثوب) ٣

وكتب الرافعي يصف أحوال المصريين قبل دخول نابليون ما يلي (كان المسلمون والأقباط يشتركون علي السواء في احتمال ظلم الحكام وسوء الإدارة وشارك الأقباط إخوانهم المسلمين في الزراعة والصناعة والتجارة وتخصص الأقباط في الأعمال الحسابية والمالية فعهد إليهم البكوات المماليك والكشاف بتحصيل الضرائب وتقديرها) ٤ كما وصف الرافعي القاهرة في ذلك الوقت بقوله (كانت القاهرة ولم تنزل أكبر مدن القطر المصري وعاصمته ومقر حكومته وكانت حدود العمران فيها تنتهي شمالاً من الحسينية إلي باب الحديد وجنوباً من القلعة إلي باب عرب اليسار إلي باب السيدة عائشة إلي جامع السيدة نفيسة فباب طولون فباب البغالة فباب السيدة زينب ، وشرقاً من القلعة فباب الوزير فباب الغريب فالحسينية ، وغرباً من باب الحديد إلي الأزبكية فباب اللوق فباب الشيخ ريحان فباب الناصرية فباب السيدة زينب ، وكان موقع المدينة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطئ النيل وبينها وبينها مزارع وإذا أردت أن تعرف الفرق بين عمرانها في ذلك العصر وحدوده في العصر الحاضر فحسبك ملاحظة بعض المعالم المعروفة في العصرين فجامع الظاهر مثلاً وهو الكائن الآن بميدان الظاهر كان خارج باب الحسينية وخارج مباني القاهرة وكان باب الحديد نهاية حدود مباني القاهرة من الشمال الغربي والأزبكية والمباني التي حولها نهاية العمران غرباً والطريق بينها وبين بولاق مقفرة خالية من العمران لذلك كانت بولاق تعد من ضواحي العاصمة كما كانت مصر القديمة أيضاً وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليس بها

^١ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ١ صفحة ٣٧

^٢ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ١

^٣ عجائب الآثار (الجبرتي) ج ٢ صفحة ٦٠٤

^٤ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج ١ صفحة ٦٥

إلا مزارع وحدائق ولم يكن علي شاطئ النيل سوي بعض مبان قليلة كقصر إبراهيم بك " قصر العيني " تجاه الروضة وبجواره بيت لمحمد كاشف الأرنؤوطي وعن شماله بيت لمصطفى بك ، وكانت بولاق مرفأ القاهرة في الشمال ومصر القديمة مرفأها في الجنوب (١) ويضيف الرافعي (وبالرغم مما أصاب البلاد والعاصمة من التأخر في خلال العصور فإن عظمتها القديمة قد تغلبت علي عوامل الفناء وسوء الإدارة فقد كانت أعظم بلاد الشرق قاطبةً بعد الأستانة وكان بها كثير من المساجد والعمائر الجميلة وكثير من القصور والمعاهد ودور الكتب الملحقة بها والحمامات وبها كثير من الأسواق التجارية الكبيرة والخانات والمخازن " الوكائل ") (٢) وبالمناسبة كان هناك أربعة ميادين رئيسية كبيرة منها ميدان قراميدان تحت القلعة وميدان الرميطة المجاور لقراميدان ويفصلهما باب اسمه قراميدان وميدان بركة الفيل وميدان الأزبكية " بركة الأزبكية " (وكان ميدان الأزبكية أو بركة الأزبكية كما كانوا يسمونها أجمل الميادين الأربعة تحيط به القصور البديعة يسكنها الأمراء والأعيان) (٣) وكان تقدير عدد سكان العاصمة القاهرة حوالي ٣٠٠٠٠٠ نسمة؛ وفي تقدير آخر ٢٦٣٠٠٠ نسمة وكانت الإسكندرية ولا زالت أهم وأكبر مدينة بعد القاهرة

نقلًا عن كتاب تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ١ و كتاب عجائب الآثار (الجبرتي) ج ٢

١ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج ١ صفحة ٦٧ ، ٦٨
 ٢ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج ١ صفحة ٦٩
 ٣ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج ١ صفحة ٦٩
 ٤ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج ١ صفحة ٧٠

١٥٩. الجبرتي يصف أسعار السلع سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٤م وهو العام الذي ولد

فيه

نقلًا عن كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتي حيث كتب ما يلي :

، - - - ، ومصر في تلك المدة هادئة من الفتن والشور والإقليم القبلي والبحري أمن وأمان والأسعار رخيصة والأحوال مرضية ، واللحم الضاني المجروم من عظمه رطله بنصفين والجاموسي بنصف والسمن البقري عشرته بأربعين نصف فضة ، اللبن المنعد كذلك والمكرر قنطاره بألف نصف والعسل القطر قنطاره بمائة وعشرين نصفًا وأقل ، والرطل البن القهوة بأثني عشر نصفًا والتمر يجلب من الصعيد في المراكب الكبار ويصب علي ساحل بولاق مثل عرم الغلال ويبيع بالكيل والأردب ، والأرز أردبه بأربعمائة نصف ، والعسل النحل قنطاره بخمسائة نصف وشمع العسل رطله بخمسة وعشرين نصفًا وشمع الدهن بأربعة أنصاف والفحم قنطاره بأربعين نصفًا والبصل قنطاره بسبعة أنصاف وفسر علي ذلك

يقول جامعه : أني أدركت بقايا تلك الأيام وذلك أن مولدي كان في سنة ١١٦٧ هـ ولما صرت في سن التمييز رأيت الأشياء علي ما ذكر إلا قليلا وكنت أسمع الناس يقولون الشئ الفلاني زاد سعره عما كان في سنة كذا ، وذلك في مبادئ دولة إبراهيم كتحدا وحدوث الاختلال في الأمور ،

وكانت مصر إذ ذاك محاسنها باهرة وفضائلها ظاهرة ولأعدائها قاهرة ، ويعيش رغدًا بها الفقير وتتسع للجيل والحقير ، وكان لأهل مصر سنن وطرائق في مكارم الأخلاق لا توجد في غيرهم ، أن في كل بيت من بيوت جميع الأعيان مطبخين أحدهما أسفل رجالي ، والثاني في الحريم ، فيوضع في بيوت الأعيان السماط في وقتي العشاء والغداء مستطيلًا في المكان الخارج مبذولًا للناس ، ويجلس بصدرة أمير المجلس وحوله الضيفان ، ومن دونهم مماليكه وأتباعه ، ويقف الفراشون في وسطه يفرقون علي الجالسين ويقربون إليهم ما بعد عنهم من القلايا والمحمرات ، ولا يمنعون في وقت الطعام من يريد الدخول أصلاً ويرون أن ذلك من المعاييب

حتي أن بعضي ذوي الحاجات عند الأمراء إذا حجبهم الخدام أنتظروا وقت الطعام ودخلوا فلا يمنعهم الخدم في ذلك الوقت ، فيدخل صاحب الحاجة ويأكل وينال غرضه من مخاطبة الأمير ، لأنه إذا نظر علي سماطه شخصاً لم يكن رآه قبل ذلك ولم يذهب بعد الطعام عرف أن له حاجة ، فيطلبه ويسأله عن حاجته فيقضيها له ، وإن كان محتاجاً وإسائه بشئ ، ولهم عادات وصدقات في أيام المواسم ، مثل أيام أول رجب والمعراج ونصف شعبان وليالي رمضان والأعياد وعاشوراء والمولد الشريف ، يطبخون فيها الأرز باللبن والزردة ويملأون من ذلك قصاعاً كثيرة ويفرقون منها علي من يعرفونه من المحتاجين ، ويجتمع في كل بيت الكثير من الفقراء فيفرقون عليهم الخبز ويأكلون حتي يشبعوا من ذلك اللبن والزردة ، ويعطونهم بعد ذلك دراهم ولهم غير ذلك صدقات وصلات لمن يلوذ بهم ، ويعرفون منه الإحتياج ،

وذلك خلاف ما يعمل ويفرق من الكعك المحشو بالسكر والعجمية والشريك علي المدافن والترب في الجمع والمواسم ،

كذلك أهل القرى والأرياف فيهم من مكارم الأخلاق ما لا يوجد في غيرهم - - - ، فإن أقل ما فيهم إذا نزل به ضيف ولو لم يعرفه أجتهد وبادر بقراه في الحال وبذل وسعه في إكرامه وذبح له ذبيحة في العشاء ، وذلك ما عدا مشايخ البلاد والمشاهير من كبار العرب والمقدام ، فإن لهم مضاييف واستعدادات للضيوف ، ومن ينزل عليهم من السفر والأجناد ، ولهم مساميح وأطيان في نظير ذلك خلفاً عن سلف إلي غير ذلك مما يطول شرحه ويعسر استقصاؤه

١٦٠. مراد بك

تحت عنوان كذاب الزفة كتب المؤرخ الكبير جمال بدوي يصف إبراهيم بك ومراد بك آخر من سيطر من بكوات المماليك علي حكم مصر في العصر العثماني وإليك مقتطفات مما كتبه

(كان هذان المملوكان الغاصبان - إبراهيم بك ومراد بك - يتمتعان بكمية هائلة من السفالة وقلّة الحياء فهما أسدان جسوران علي الشعب المصري المسالم المستكين ولا يتورعان عن حرق القرى وتدمير المزروعات وهتك الأعراض وسبي النساء وسفك الدماء وتشريد الناس في القلوات من أجل حفنة ريالات ولكنهما كانا أرنبين هزيلين في ساحة الوغى فما إن يبدأ وطيس القتال حتي يطلقا سيفانهما للريح تاركين المصريين العزل كالأيتام علي مائدة اللثام

فإذا زال الخطر وانقشع العدو عاد المماليك ليستأنفوا مظالمهم وجبروتهم بعد أن يقسموا بأغلظ الأيمان أنهم تابوا وأنابوا ولن يعودوا سيرتهم الأولى والمؤسف أن المصريين كانوا يصدقونهم ، فيسلمون إليهم رقابهم مرة أخرى ،

كان إبراهيم بك أكثرهما دهاء ومكرًا ولذلك لم يورط نفسه في معركة غير محسوبة

أما مراد بك فكان كما وصفه الجبرتي " يغلب عليه طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط في الإقدام مع عدم الشجاعة ، ولم يعهد عنه أنه انتصر في حرب باشرها أبداً علي ما فيه من الإدعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور "

ولقد دلت جميع الأحداث علي أن هذا الأمير المتسلط كان مغروراً إلي حد البلاهة " همباكاً " إلي درجة العبط " جعجاعاً " في تقدير بطولته وقدرته علي سحق الألوف بضربة واحدة من سيفه - - - ولذلك تشاءم المصريون عندما علموا أنه سوف يتصدي لملاقاة جيش نابليون أثناء زحفه علي القاهرة قادماً من الإسكندرية لأنهم كانوا يعرفون أن قائدهم " كذاب زفة " ولن يصمد طويلاً في المعركة

وكان مراد بك قد صرح قبل خروجه إلي المعركة بأن الفرنسيين مثل حبات الفستق لا يصلحون إلا للكسر والأكل)^١

نقلًا عن كتاب مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي)

^١ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٢٣ ، ٢٤

١٦١. كيف وصف الجبرتي أول سنة من الحملة الفرنسية علي مصر

وبداية أحداث الحملة وقد يكون بعض أو معظم كلام الجبرتي غير مفهوم بالنسبة لنا حالياً ولكن تأكد أن الذي لن تفهمه سوف تشعر بمعناه وبمعني كل حرف فيه كتب الجبرتي يصف سنة ١٢١٣ هـ ما يلي

(-----) وهي أولى سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة

والوقائع النازلة والنوازل الهائلة

وتضاعف الشرور وترادف الأمور

وتوالي المحن واختلال الزمن

وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع

وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال

وفساد التدبير وحصول التدمير

وعوموم الخراب وتواتر الأسباب

{وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} (١١٧) سورة هود ،

وفي يوم الأحد العاشر من شهر محرم الحرام من هذه السنة " ٢٤ يونيو ١٧٨٩م" وردت مكاتبات علي يد الساعة من ثغر الإسكندرية ومضمونها:

أن في يوم الخميس ثامنه حضر إلي الثغر عشرة مراكب من مراكب الإنكليز ووقفت علي البعد بحيث يراها أهل الثغر وبعد قليل حضر خمسة عشر مركباً أيضاً فانتظر أهل الثغر ما يريدون وإذا بقايق واصل من عندهم وفيه عشرة أنفار فوصلوا البر، واجتمعوا بكبار البلد والرئيس إذ ذاك فيها والمشار إليه بالإبرام والنقض، السيد محمد كريم الآتي ذكره، فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم فأخبروا: أنهم إنكليز حضروا للتفتيش علي الفرنسيين لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ولا ندرى أين قصدهم فربما دهموكم فلا تقدرين علي دفعهم ولا تتمكنون من منعهم،

فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول وظن أنها مكيدة وجاوبهم بكلام خشن فقالت رسل الإنكليز:

نحن نقف بمراكبنا في البحر محافظين علي الثغر لا نحتاج منكم إلا الإمداد بالماء والزاد بثمنه، فلم يجيبوهم لذلك وقالوا: هذه بلاد السلطان وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل فذهبوا عنا، فعندها عادت رسل الإنكليز وأقلعوا في البحر ليمتاروا من غير الإسكندرية

وليقتضي الله أمراً كان مفعولاً (١)

من كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار (تأليف عبد الرحمن الجبرتي تحقيق د عبد الرحيم عبد الرحمن عبد

الرحيم) الجزء الخامس صفحة ١ مكتبة الأسرة ٢٠٠٣

١٦٢. علي متن السفينة ولا يعرفون إلى أين تتجه

من مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية علي مصر - ترجمة وتقديم كاميليا صبحي
وقد خيبت الطرق التي سلكناها كافة تكهنات بحارتنا ، وغيب عنهم الغاية التي نستهدفها ، فإذا سرنا بمحاذاة الشاطئ قالوا إنها جنوة ، وإذا نأينا عنه فالذهاب إلي سردينيا ، هكذا راحت المزاعم تختلف في كل لحظة بيد أن كل هذا اللغط ما لبث أن توقف حينما صدر لنا أمر بالاتجاه صوب سردينيا وراح الجميع إثر هذا يتصايحون : (إذاً سنتم عملية الإنزال هذا المساء ومع صباح الغد سنكون أسياذ هذه الجزيرة) ، وكما كانت دهشة هؤلاء العرافين حينما صدر أمر بالمضي صوب عرض البحر بعد عدة أيام أمضيها في تلك المحطة وما لبثت اليابسة أن غابت من جديد عن ناظرينا وعاد ضباط البحرية يصيحون : (الآن لم يعد ثمة شك نحن نتجه إلي صقلية) ،

ما لبثت أن سرت أنباء تفيد رؤية قلعو إنجليزية في الأفق وسرعان ما انتشر هذا الخبر وراحت تتناقله الأفواه همساً حتي خشينا أن تكون قافلة (سيفيتا فيشيا) التي كان مقرراً أن تلحق بنا عند سردينيا قد سقطت في أيدي العدو وقد أدي ظهور تلك الأشربة في الأفق إلي تدعيم مخاوفنا وصدر أمر لأسطولنا بتفقد الأمر فانطلقت السفينة سبارسيات واكتشفت أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد مراكب شراعية فصلتها بعض الرياح عن الأسطول ومع هذا دام القلق وتزايدت المخاوف بعد حين بلغنا مشارف صقلية وقد ظننا البحارة محطة الرسو نظراً للسرعة التي كنا نسير بها وراحوا يقولون : (الآن تأكد الأمر لابد أننا ذاهبون إلي مالطا) ، ربما تصدق تكهناتهم هذه المرة سوف نري وبينما نحن نسير كيفما شاءت الرياح وآلهة البحار لمحنا مرة أخرى في الأفق سفناً لم تبد لنا فرنسية لابد أنها المفزة الإنجليزية المتقدمة

أصدر الأميرالاي أمراً بالاستكشاف فاطلقت سفينتنا من جديد ولمحت أربع سفن دنمركية تحمل القمح لجزيرة مالطا فاعترضنا مسيرتها مما جعلنا نعتقد أن تلك الجزيرة هي غايتنا بل أصبحنا شبه متأكدين من هذا هيأت لنا الرياح الاقتراب من هذه الجزيرة الشهيرة التي رحنا ننظر إليها وكأنها الأرض الموعودة وخاتمة مشوارنا ، في هذه الأثناء لمحنا مراكب شراعية كثيرة ، قال أحدهم : (إنه الأسطول الإنجليزي) بينما طمأنه آخر بأنها سفن فرنسية وما لبثت شكوكنا أن تبددت بعد أن تعرفنا علي السفينة لأكوراجوز المكلفة بحراسة قافلة سيفيتا فيشيا التي ظلت محط اهتمامنا الدائم منذ أن ارتحلنا ، أخيراً لحقت بنا وهي في خير حال دون التعرض لأي هجوم أو تكبد أي خسائر فكانت سعادتنا غامرة وعلي الرغم من الوجود القوي للإنجليز في البحر الأبيض إلا أن الحظ حالفنا ولم نلقهم نقلاً عن كتاب مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية علي مصر - ترجمة وتقديم كاميليا صبحي

وجدير بالذكر أن الأسطول الإنجليزي بقيادة نلسون كان يبحث عن العمارة البحرية الفرنسية في البحر المتوسط ولم يتمكن من العثور عليها لمحافظة نابليون علي أسرار الحملة وقد وصل نلسون بالفعل إلي الإسكندرية قبل وصول الحملة الفرنسية ولم يمكنه المصريون من الانتظار بها ثم غادرها وعاد بعد أن تمكنت الحملة الفرنسية من احتلال مصر فقام الأسطول الإنجليزي بتدمير الأسطول الفرنسي في معركة أبي قير البحرية الشهيرة

١٦٣. المماليك والحملة الفرنسية

قبل وصول الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت كان الأمراء المماليك يحكمون مصر في ظل الحكم العثماني وكما لو كانوا قد توقف بهم الزمن عند أيام أسلافهم من سلاطين المماليك قبل خضوع مصر للحكم العثماني فكانوا يعيشون علي ذكريات أمجاد الانتصارات التاريخية القديمة علي التتار وغيرهم فلم يدركوا حجم التطور الهائل الذي وصل إليه جيش نابليون بونابرت

فقد وصف الجبرتي عدم اهتمامهم عند سماعهم خبر قدوم الحملة الفرنسية علي مصر بل (ولم يكثرثوا به اعتماداً علي قوتهم وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الفرنج لا يقفون في مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيولهم) ١ ، وقد وردت تفاصيل عجيبة عن المعركة التي دارت بين المماليك والفرنسيين في الكتاب الخامس من سلسلة كتب - صفحات من تاريخ مصر - وهو بعنوان تاريخ مصر من عهد المماليك إلي نهاية حكم اسماعيل - تأليف المستر جورج يانج - تعريب : علي أحمد شكري - الطبعة الثانية ١٩٩٦ - مكتبة مدبولي - ويؤكد المؤرخ جورج يانج في هذا الكتاب أن فن المماليك العسكري قد صار عتيقاً ويقول :

وقد نشعر بالعطف علي ما أظهره المماليك من الإقدام والبسالة عند مهاجمتهم لنابليون وقد رأي نابليون أن احتلال مصر عسكرياً لن يكلفه متاعب كبيرة لأن الجيش الفرنسي وعدده حوالي ٤٠٠٠٠ زحف بطريق الصحراء بشكل مربع مجوف علي القاهرة وكان رسل المدنية الحديثة المائة والاثنتان والعشرون في قلب الجيش بينما جيش المماليك في عرض الأفق ووقف المماليك يرمقون العدو بنظرة الاحتقار والإزدراء وأخيراً برز أحدهم ظاناً أن عصر الفروسية ما يزال باقياً وقد لبس عدة الحرب الكاملة المطرزة بالحريز وتقدم إلي الفرنسيين حتي صار علي بضع خطوات منهم ، وهناك طلب مبارزة الكولونيل ولكن الفرنسيين وقد أضناهم الحر والجوع والعطش - أجابوا علي طلب المبارزة بإطلاق الرصاص من بنادقهم فتركوا صاحبنا نصير الفروسية مجرد سلب ملطخ بالدماء وما كانت معركة الأهرام التي نشبت علي أثر ذلك وحاول فيها المماليك منع دخول الفرنسيين إلي القاهرة سوي تكرر لهذا الحادث ولكن علي مقياس أكبر

فقد اشترك فيها نحو ١٠٠٠٠ من فرسان المماليك وبضعة آلاف من المشاه الإنكشارية وعدد من المقاتلين المصريين ولكن كان نصيبهم جميعاً الهزيمة ثم الغرق في مياه النيل ، هذا في حين أن خسائر الفرنسيين لم تتجاوز المائة ، علي أن بكوات المماليك لم يجيدوا الكر والفر فقط بل كثيراً ما اقتحموا مربعات القادة الفرنسيين - ديزيه ورينييه ولكن هذا الاستبسال كانت نتيجته الفناء الأكيد وجدير بالذكر أن هذه المعركة المعروفة باسم معركة الأهرام أو معركة إمبابية تمت في يوم ٢١ يوليو سنة ١٧٩٨ نزل الفرنسيون علي بعد ميلين من إمبابية فكانوا بين النيل والأهرام وإمبابية أمامهم ، وفيها مراد بك وجنوده وهم بدروعهم البراقة وملابسهم الزاهية ، فلما رأي بونابرت حسن استعدادهم التفت إلي جنوده وقال جملته المأثورة : اعلما أن خمسين قرناً تنظر إليكم من قمم هذه الأهرامات وتراقب حركاتكم تنظر ما سيصبح عليه أمركم مع هؤلاء المماليك - - ثم أمر فرقة الجنرال ديزيه بالتقدم نحو اليمين والفرق الأخرى نحو اليسار - -

ولكن مراد بك أدرك سر هذه المناورة فأمر أيوب بك الدفتردار بالهجوم ، فهاجم أيوب بك وهو يصيح ويل لكم أيها الملاعين ، قد سافكم كبرياؤكم إلي أرضنا - - إننا سنملأ القبور بأجسادكم ونجعل هذا اليوم يوماً تذكركم أعقابكم من بعدكم - - - ودارت المعركة إلي أن تقهقر المماليك وقتل أيوب بك وفر مراد بك إلي الصعيد واستولي بونابرت علي إمبابية

^١ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج ٥ صفحة ٢

١٦٤ . كيف خاطب نابليون الشعب المصري مع بداية الحملة الفرنسية علي مصر

من كتاب مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي)

(- -) ولم يكن المصريون وحدهم هم الذين فضحوا زيف نابليون ، فالعلماء والقادة وكبار الضباط الذين صحبوه في حملته كانوا يعلمون مدي كذبه ، وكانوا يسخرون منه وهو عاكف علي ظهر الأسطول يدبج صيغة المنشور قبل أن يدفع به إلي المطبعة العسكرية لتطبعه بالعربية والتركية والفرنسية ، وتحفظ السجلات الفرنسية رسالة القائد البحري " جوبير " إلي وزير بحرية فرنسا والتي يقول فيها : " لعلكم أيها الباريسيون تضحكون حين تقرأون هذا المنشور الإسلامي الذي وضعه قائدنا الأعلي ولكنه لم يعبأ بكل سخريتنا من المنشور " ، بل إن نابليون نفسه ، اعترف في أخريات أيامه ، بأن هذا المنشور كان قطعة من الدجل " ولكنه دجل من أعلي طراز " وعندما كان يجتر ذكرياته وهو سجين في سانت هيلانة ، اعترف لأحد أخصائه بما فعل ، ويرر سلوكه بأن " علي الإنسان أن يصطنع الدجل في هذه الدنيا لأنه السبيل الوحيد إلي النجاح " وتلك طبيعة الطغاة الذين يستخفون بالشعوب ، ولا يدركون الحقيقة إلا بعد أن يزول عنهم السلطان فيموتوا كمدا (١)

١٦٥. عند حضور نابليون إلي مصر نشر منشور علي الشعب المصري وفيما يلي

مقتطفات منه :

(بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني علي أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونايرته يعرف أهالي مصر جميعاً أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية، يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي فحضر الآن ساعة عقوبتهم - - هذه الزمرة المماليك يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذي لا يوجد في كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر علي كل شئ فإنه قد حكم علي انقضاء دولتهم، يا أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وأنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم وقولوا أيضاً لهم : إن جميع الناس متساوون عند الله وأن الشئ الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ماذا يميزهم عن غيرهم حتي يستوجبوا أن يملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شئ أحسن فيها من الجواري الحسان والخيول العتاق والمساكن المفرحة فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين رعوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك ، أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصاري علي محاربة الإسلام - - ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه - - طوبي ثم طوبي لأهالي مصر الذين يتفوقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلي مراتبهم طوبي أيضاً للذين يقعدون في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين ولكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون علي المماليك في محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلي الخلاص ولا يبقى منهم أثر - المادة الأولى : جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسرا عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليهم أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذي هو أبيض وكحلي وأحمر، المادة الثانية : كل قرية تقوم علي العسكر الفرنسي تحرق بالنار)

من كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار (تأليف عبد الرحمن الجبرتي تحقيق د عبد الرحيم عبد الرحمن عبد

الرحيم) الجزء الخامس صفحة ٤ ، ٥ ، ٦ مكتبة الأسرة ٢٠٠٣

١٦٦. نابليون والاحتفالات الدينية في مصر

من الثابت تاريخياً أن نابليون اهتم بإحياء الموالد والاحتفالات الدينية ولكن السبب في ذلك يختلف من وجهة نظر كل مؤرخ وطبقاً لرؤيته فمثلاً يقول الراجعي : (كان نابليون يسعى بكل الوسائل إلى كسب قلوب المصريين واستئلال الضغينة منها وتخفيف حدة النفرة والكراهية التي كانت تبدو عليهم منذ احتلال الفرنسيين للبلاد ومن الوسائل التي ابتكرها إقامته الحفلات والأفراح لإدخال السرور إلى قلوبهم ولعله كان يدرك ميل المصريين الفطري إلى الابتهاج والانشراح -- -- فأراد أن يصل إلى قلوبهم عن طريق التفریح وكان له غرض آخر من إقامة المهرجانات والحفلات ذلك حين أراد أن يحجب عن الشعب أثر النكبة التي حلت بأسطوله في واقعة أبو قير البحرية ويتظاهر بأنه لا يكتثر لها ويتودد إلى زعماء الشعب ليكسب ثقتهم في تلك الأوقات العصيبة بعد أن أصبح محصوراً في القارة الأفريقية)^١ كان هذا رأي الراجعي أما رأي الجبرتي شاهد العيان فكان له رأي آخر فعندما تكلم عن أحد الموالد قال : (فلما فتح أمر الموالد والجمعيات ورخص الفرنسية ذلك للناس لما رأوا منه من الخروج عن الشرائع واجتماع النساء وإتباع الشهوات والتلاهي وفعل المحرمات أعيد هذا المولد مع جملة ما أعيد)^٢ وكان هناك إصرار عجيب من نابليون علي إحياء هذه الموالد ويدعمها بالمال فمثلاً (سأل صاري عسكر عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه كعادتهم ؟ فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال فلم يقبل وقال " لابد من ذلك " وأعطى له ثلثمائة ريال فرانسة معاونة وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل واجتمع الفرنسية يوم المولد ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم ودبادبهم -- -- وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة وعملوا في الليل حراقة نفوط وسواريح تصعد في الهواء)^٣ كما وصف الجبرتي أيضاً ما كان يحدث في مولد الحسين رضي الله عنه فقال : (ويوم الأحد سادسه نادي القبطان الفرنسية الساكن بالمشهد الحسيني علي أهل تلك الخطة وما جاورها بفتح الحوانيت والأسواق لأجل مولد الحسين وشدد في ذلك وأوعد من أغلق حانوته بتسميره وتغريمه عشرة ريال فرانسة)^٤ ويضيف الجبرتي متأسفاً (فيصفون أكتافهم في أكتاف بعض -- -- ويلتوون وينتصبون ويرتفعون وينخفضون ويضربون الأرض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة -- -- فيقع في المسجد دوي عظيم ، هذا مع ما ينضم إلي ذلك من جمع العوام وتحلقهم بالمسجد للحديث والهديان وكثرة اللغظ والحكايات والأضاحيك والتلفت إلي حسان الغلمان الذين يحضرون للتفرج والسعي خلفهم والافتتان بهم ورمي قشور اللعب والمكسرات والمأكولات في المسجد -- -- فيصير المسجد بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ملتقحاً بالأسواق الممتلئة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)^٥

من كتاب تاريخ الحركة القومية (الراجعي) ج ١ صفحة ٢٥٣ ، وكتاب عجائب الآثار (الجبرتي) ج ٥ صفحة ٦٧

^١ تاريخ الحركة القومية (الراجعي) ج ١ صفحة ٢٥٣

^٢ عجائب الآثار (الجبرتي) ج ٥ صفحة ١٣٨

^٣ عجائب الآثار (الجبرتي) ج ٥ صفحة ٢٥ ، ٢٤

^٤ عجائب الآثار (الجبرتي) ج ٥ صفحة ٦٧

^٥ عجائب الآثار (الجبرتي) ج ٥ صفحة ٦٧

١٦٧. مقاومة الحملة الفرنسية :

(إن سلوك نابليون مع المصريين خالف في كثير من المواطن ما وعدهم به في منشوراته وبياناته لقد كان ينعى علي المماليك ظلمهم فانظر ماذا فعل هو في إرهاب الأهالي بالضرائب والمغارم) ١ لقد فرض نابليون علي المصريين ضرائب فوق طاقتهم (وقد تفنن الفرنسيون في ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل) ٢ كما فرض ضريبة لم تكن معروفة من قبل في مصر وهي الضريبة العقارية (ومن مظالم الفرنسيين التي أخرجت الصدور أنهم أخرجوا كثيراً من أصحاب البيوت من بيوتهم بحجة حاجتهم إليها وهدموا كثيراً من المباني والآثار والمساجد بحجة تحصين القاهرة) ٣ وحاول الديوان الذي أسسه نابليون من المشايخ إلغاء هذه الضرائب أو حتي تخفيفها ولكن فشل (ومن المظالم التي أثارت نقمة الناس اعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الإسكندرية الوطني والحكم عليه بالإعدام ، والواقع أن الفرنسيين كانوا يسرفون في قتل الناس ليدخلوا الرهبة في قلوب الأهالي ويحملوهم علي الخضوع والإذعان) ٤ ونتيجة لكل هذا وغيره قامت الثورة في القاهرة وكان الجامع الأزهر هو المكان الرئيسي لها ومصدرها وتم قتل الجنرال ديبوي حاكم القاهرة والعديد من الجنود الفرنسيين وسيطر الثوار علي أبواب القاهرة الرئيسية مثل باب زويلة وباب الفتوح ويقول الرافعي (أسلفنا أن عدد من قتلهم الفرنسيون من سكان العاصمة في إخماد الثورة بلغ علي أرجح الروايات أربعة آلاف ولا جدال في أن قمع الثورة في مدينة اشتهر أهلها بالوداعة والسكينة ما كان يدعو إلي إفناء هذا العدد الكبير من السكان - - علي أنك إذا تأملت في الفظائع التي ارتكبتها الفرنسيون بعد تسليم المدينة وإخلائها إلي السكينة وجدتها أبعد ما تكون عن مقتضيات الحرب والقتال ولهي أجد أن تعتبر من ضروب التنكيل والانتقام) ٥ وإليك بعض ما كتبه الجبرتي عن هذه الأحداث وتتابع الرمي من القلعة والكيهان حتى تزعزت الأركان وهدمت في مرورها حيطان الدور وسقطت في بعض القصور ونزلت في البيوت والوكائل وأصمت الآذان بصوتها الهائل

فلما عظم هذا الخطب وزاد الحال والكرب ركب المشايخ الي كبير الفرنسيين ليرفع عنهم هذا النازل ويمنع عسكره من الرمي المتراسل ويكفهم كما تكف المسلمون عن القتال والحرب خدعة وسجال فلما ذهبوا اليه واجتمعوا عليه عاتبهم في التأخير وأتهمهم بالتقصير فاعتذروا اليه فقبل عذرهم وأمر برفع الرمي عنهم وقاموا من عنده وهم ينادون بالامان في المسالك وتسامع الناس بذلك فردت فيهم الحرارة وتسابقوا لبعضهم بالبشارة واطمأنت منهم القلوب وكان الوقت قبل الغروب :وأما أهل الحسينية والعطوف البرانية فانهم لم يزلوا مستمرين وعلى الرمي والقتال ملازمين ولكن خانهم المقصود وفرغ منهم البارود والافرنج اثنوهم بالرمي المتتابع بالقنابر والمدافع الى ان مضى من الليل نحو ثلاث ساعات وفرغت من عندهم الادوات فعجزوا عن ذلك وانصرفوا وكف عنهم القوم وانصرفوا

وبعد هجعة من الليل دخل الافرنج المدينة كالسيل ومروا في الازقة والشوارع لا يجدون لهم ممانع كأنهم الشياطين أو جند ابليس وهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخل طائفة من باب البرقية ومشوا الي الغورية وكروا ورجعوا وترددوا وما هجعوا وعلموا باليقين ان لا دافع لهم ولا كمين وتراسلوا ارسالاً ركبانا ورجالا ثم دخلوا الي الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفرقوا بصحته ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالاورقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والاواني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الارض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيه وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيها وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجه وأصبح يوم الثلاثاء فأصطف منهم حزب بباب الجامع فكل من حضر للصلاة يراهم فيكر راجعا ويسارع وتفرقت طوائفهم بتلك النواحي

^١ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج ١ صفحة ٢٦٠

^٢ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج ١ صفحة ٢٦١

^٣ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج ١ صفحة ٢٦٥

^٤ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج ١ صفحة ٢٦٧

^٥ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج ١ صفحة ٢٨١

افواجا واتخذوا السعي والطواف بها منهاجا وأحاطوا بها احاطة السوار ونهبوا بعض الديار بحجة التفتيش على النهب وآلة السلاح والضرب وخرجت سكان تلك الجهة يهرعون وللنجا بأنفسهم طالبون وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد ان كانت أشرف البقاع وكثير من الناس ذبحوهم وفي بحر النيل قذفوهم ومات في هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها الا الله

فركب المشايخ أجمع وذهبوا لبيت صارى عسكر وقابلوه وخاطبوه في العفو ولطفوه والتمسوا منه أمانا كافيا وعفوا ينادون به باللغتين شافيا لتطمئن بذلك قلوب الرعية ويسكن روعهم من هذه الرزية فوعدهم وعدا مشوبا بالتسويق وطالبهم بالتبيين والتعريف عن تسبب من المتعممين في اثاره العوام وحرصهم على الخلاف والقيام فغالطوه عن تلك المقاصد فقال على لسان الترجمان نحن نعرفهم بالواحد فترجوا عنده في اخراج العسكر من الجامع الأزهر فأجابهم لذلك السؤال وأمر باخراجهم في الحال

واستهل شهر جمادى الثانية بيوم السبت سنة ١٢١٣ فيه كتبوا عدة اوراق على لسان المشايخ وارسلوها الى البلاد والصقوا منها نسخا بالاسواق والشوارع وصورتها

: نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة ، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ونبرأ إلي الله من الساعين في الأرض بالفساد ، نعرف أهل مصر المحروسة من طرف الجعيدية وأشرار الناس حركوا الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنسية بعدما كانوا أصحاباً وأحباباً بالسوية ، وترتب علي ذلك قتل جملة من المسلمين ونهبت بعض البيوت ، ولكن حصلت أظاف الله الخفية وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابرتة ، وارتفعت هذه البلية لأنه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة علي المسلمين ومحبة إلي الفقراء والمساكين ولولاه لكانت العساكر - الفرنسية - أحرقت جميع المدينة ونهبت جميع الأموال وقتلوا كامل أهل مصر ، فعليكم أن لا تحركوا الفتن ولا تطيعوا أمر المفسدين ولا تسمعوا كلام المنافقين ولا تتبعوا الأشرار ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يقرأون العواقب لأجل أن تحفظوا أوطانكم وتطمئنوا علي عيالكم وأديانكم ، فإن الله سبحانه وتعالى يؤتي ملكه من يشاء ويحكم ما يريد ، ونخبركم أن كل من تسبب في تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم وأراح الله منهم العباد والبلاد ، ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا بأيديكم إلي التهلكة واشتغلوا بأسباب معيشتكم وأمور دينكم وادفعوا الخراج الذي عليكم والدين النصيحة والسلام

نقلًا عن كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار للمؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتي

١٦٨. رسالة نابليون من أمام عكا

رسالة نابليون إلي الشعب المصري بعد فشله في اقتحام عكا سنة ١٢١٤ هجرياً يعلمهم فيها بقرار عودته من أمام عكا إلي مصر كما أوردها الجبرتي في كتابه الممتع عجائب الآثار في التراجم والأخبار حيث كتب ما يلي :

ثم دخلت سنة أربع عشر ومائتين وألف

استهل شهر المحرم بيوم الأربعاء فيه حضر جماعة من الفرنسيين إلي العادلية فضربوا خمسة مدافع لقومهم ، فلما كان في ثاني يوم عملوا الديوان وأبرزوا مكتوباً مترجماً ونسخته :

صورة جواب من العرضي قدام عكا ، وفي سابع عشرين فريبال الموافق لحادي عشر شهر الحجة ١٢١٣ (١٥ مايو ١٧٩٩) من بونايرته ساري عسكر أمير الجيوش الفرنسية إلي محفل ديوان مصر ، نخبركم عن سفره من بر الشام إلي مصر ، فإني بغاية العجلة بحضوري لطرفكم نساfer بعد ثلاثة أيام تمضي من تاريخه ونصل عندكم بعد خمسة عشر يوماً وجانب معي جملة محابيس بكثرة وبيارق ومحقت سراية الجزائر (أحمد باشا الجزائر والي عكا في ذلك الوقت) وسور عكا وبالقنبر هدمت البلد ما أبقيت فيها حجراً علي حجر وجميع سكانها انهزموا من البلد إلي طريق البحر والجزار مجروح ودخل بجماعته داخل برج من ناحية البحر وجرحه يبلغ لخطر الموت ، ومن جملة ثلاثين مركباً موسوقة عساكر الذين حضروا يساعدون الجزائر ثلاثة غرقت من كثرة مدافع مراكبنا وأخذنا منها أربعة موقرة مدافع والذي أخذ هذه الأربعة فرقاطة من بتوعنا والباقي تلف وتبهدل والغالب منهم عدم وإني بغاية الشوق إلي مشاهدتكم ، لأنني بشوف أنكم عملتم غاية جهدكم من كل قلبكم لكن جملة فلاتية دائرون بالفتنة لأجل ما يحركون الشر في وقت دخولي ، كل هذا يزول مثل ما يزول الغيم عند شروق الشمس ، ومنوره مات من تشويش هذا الرجل صعب علينا جداً والسلام ،

منتوره هذا ترجمان ساري عسكر وكان لبيباً متبحراً ويعرف باللغة التركية والعربية والرومية والطليناني والفرنساوي ، ولما عجز الفرنسية عن أخذ عكا وعزموا علي الرجوع إلي مصر أرسل بونايرته مكاتبة إلي الفرنسية المقيمين بمصر يقول فيها إن الأمر الموجب للانتقال عن محاصرة عكا خمسة عشر سبباً :

الأول الإقامة تجاه البلدة وعدم الحرب ستة أيام إلي أن جاءت الانكليز وحصنوا عكا باصطلاح الافرنج

الثاني الستة مراكب التي توجهت من الاسكندرية فيها المدافع الكبار أخذها الانكليز قدام يافا

الثالث الطاعون الذي وقع في العسكر ويموت كل يوم خمسون وستون عسكرياً

الرابع عدم الميرة لخراب البلاد قريب عكا

الخامس وقعة مراد بك مع الفرنسية في الصعيد مات فيها مقدار ثلثمائة فرنساوي

السادس بلغنا توجه أهل الحجاز صحبة الجبلاني لنانحية الصعيد

السابع المغربي محمد الذي صار له جيش كبير وادعي أنه من سلاطين المغرب

الثامن ورود الانكليز تجاه الاسكندرية ودمياط

التاسع ورود عمارة الموسقو قدام رودس

العاشر ورود خبر نقض الصلح بين الفرنسية والنميساء

الحادي عشر ورود جواب مكتوب منا لتيبو أحد ملوك الهند كنا أرسلناه قبل توجهنا لعكا

الثاني عشر موت كفرلي الذي عملت المتاريس بمقتضي رأيه وإذا تولي أمرها غيره يلزم نقضها ويطول الأمر وكفرلي

هذا هو المعروف بأبي خشبة المهندس

الثالث عشر سماع أن رجلاً يقال له مصطفى باشا أخذه الانكليز من اسلامبول ومرادهم أن يرموه علي بر مصر

الرابع عشر أن الجزائر أنزل ثقله بمراكب الانكليز وعزم علي أنه عندما تملك البلد ينزل في مراكبهم ويهرب معهم

الخامس عشر لزوم ومحاصرة عكا ثلاثة شهور أو أربعة وهو مضر لكل ما ذكرناه من الأسباب انتهى
وفي يوم الثلاثاء سابعه حضر جماعة أيضاً من العسكر بأنقالهم وحضرت مكاتبة من كبير الفرنساوية أنه وصل إلي
الصالحية وأرسل دوجا الوكيل ونبه علي الناس بالخروج لملاقاته بموجب ورقة حضرت من عنده يأمر بذلك

١٦٩. عندما تعجب الجبرتي من سفر نابليون في البحر مع تربص الأسطول

الإنجليزي



من المعروف أن الأسطول البريطاني قام بتدمير أسطول وسفن الحملة الفرنسية في معركة أبي قير البحرية الشهيرة وبالتالي تم عزل الحملة تماماً عن الوطن الأم في فرنسا ، وبالرغم من ذلك سافر نابليون عندما شعر بضرورة توجهه إلى فرنسا في ذلك الوقت فقام بترك عدة رسائل أهمها بالطبع للجنرال كليبر الذي قرر أن يخلفه في قيادة الحملة ، وسافر في سرية تامة إلى فرنسا

وقد حاول الجبرتي الوقوف علي ملابسات هذا الموضوع كمؤرخ ولكنه لم يتمكن من ذلك
وفيما يلي رواية الجبرتي وهو يكتب عن أحداث هذا اليوم فيقول :

وفيه ورد من بونابارته ساري عسكر الفرنسية كتاب من الإسكندرية خطاباً لأهل مصر وسكانها
فأحضر قائم مقام دوجا الرؤساء المصرية وقرأ عليهم الكتاب ، مضمونه أنه سافر يوم الجمعة حادي عشرين الشهر المذكور إلى بلاد الفرنسية لأجل راحة أهل مصر وتسليك البحر فيغيب نحو ثلاثة أشهر ، ويقدم مع عساكره فإنه بلغه خروج عمارتهم ليصفوا له ملك مصر ويقطع دابر المفسدين ، وأن المولي علي أهل مصر وعلي رئاسة الفرنسية جميعاً كليبر ساري عسكر دمياط ،

فتحير الناس وتعجبوا في كيفية سفره ونزوله البحر مع وجود مراكب الانكليز ووقوفهم بالشجر ورصدهم الفرنسية من وقت قدومهم الديار المصرية صيفاً وشتاء ،

ولكيفية خلوصه وذهابه أنباء وحيل لم أقف علي حقيقتها

وفي يوم السبت تاسع عشرينه قدم ساري عسكر كليبر صبيحة ذلك اليوم فضربوا لقدمه المدافع من جميع القلاع وتلقته كبار الفرنسية وأصاغرهم وذهب إلي بيت بونابارته الذي كان ساكناً به وهو بيت الألفي بالأزبكية وسكن مكانه ،
وفيه ذهب أكابر البلد من المشايخ والأعيان لمقابلة ساري عسكر الجديد للسلام عليه فلم يجتمعوا به ذلك اليوم ووعدوا إلي الغد ، فانصرفوا وحضروا في ثاني يوم فقابلوه فلم يروا منه بشاشة ولا طلاقة وجه مثل بونابارته ، فإنه كان بشوشاً وببساط الجلسة ويضحك معهم

نقلًا عن كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار - عبد الرحمن الجبرتي - صفحة ٥٢٣

١٧٠. الجنرال كليبر



يتولي قيادة الحملة الفرنسية بعد مغادرة نابليون إلى فرنسا

هو الجنرال جان باتيست كليبر - Jean-Baptiste Kléber

ولد في 9 مارس 1753 وقتل في 14 يونيو 1800

من أحداث الحملة الفرنسية علي مصر

قرر نابليون السفر إلى فرنسا نظراً لاضطراب الأحوال بها وترك قيادة الحملة إلى الجنرال كليبر كما أعطاه الإذن للتفاوض مع العثمانيين واتخاذ القرار المناسب بل إن نابليون نفسه عرض الصلح على العثمانيين قبل سفره وترك رسالة بمثابة شرح وافي لجميع التفاصيل لكليبر كما ترك رسائل أخرى لعدة جهات منها الجنرالات والمشايخ وكل رسالة لها مضمون يتناسب مع المرسل إليه ،

أما أهم هذه الرسائل فتلك التي تركها لكليبر وكان سفر نابليون في البحر بمثابة مخاطرة كبيرة بحياته نظراً لوجود الأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط حيث ذكر لكليبر في نهاية رسالته (أما أنا فأني أغادر مصر والأسف يملأ قلبي - - وإن مصلحة الوطن ومجده وواجب الطاعة لندائه والحوادث المحزنة التي وقعت أخيراً كل ذلك يلجني إلي أن أغامر بنفسي وسط أساطيل الأعداء لأصل إلي أوروبا علي أني سأكون معك بقلبي وفكري)^١

كليبر يحاول التفاوض مع العثمانيين :

أيقن كليبر أن احتلال مصر والبقاء بها شبه مستحيل مع انقطاع الاتصال مع فرنسا فلا يوجد أسطول قوي يؤمنه هو وجنوده كما أن هناك عداً شديداً بين الشعب المصري وبين الحملة الفرنسية ولم تعد تتج محاولات الخداع والتودد للشعب فقد ظهر الوجه القبيح للحملة الفرنسية ولم يعد ممكناً وضع أي نوع من أنواع الأتقنة الزائفة ،

وبالتالي قرر الصلح مع الدولة العثمانية التي فشلت في إخراج الحملة الفرنسية من مصر وحدها وقررت التحالف مع الإنجليز لطرد الفرنسيين من مصر وكان هذا التحالف بطبيعة الحال من أشد ما يقلق كليبر ، وأرسل كليبر رسالة إلى الصدر الأعظم يوسف باشا الذي جاء علي رأس جيش ضخم ، وبالفعل تم الاتفاق علي ما يسمى بمعاهدة العريش التي كانت تنص علي أن يغادر الجيش الفرنسي مصر سالماً بسفن يتم توفيرها من الجانب العثماني وبتكاليف يتم دفعها وجمعها من الشعب المصري ، وقد كان شعب مصر سعيداً بجمع أموال ترحيل الفرنسيين ،

ولكن لم تتم هذه المعاهدة بسبب الإنجليز حيث كانوا يريدون أن يقوم الجيش الفرنسي بتسليم نفسه كأسري حرب ولا يريدون له الرحيل بهذا الأسلوب

^١ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج ٢ صفحة ٨٧

ونجح الإنجليز بالفعل في إفشال المعاهدة مما أدى إلى حدوث معركة بين الجيش العثماني والجيش الفرنسي في منطقة عين شمس حيث كان الجيش العثماني قد اقترب كثيراً من العاصمة وفي انتظار استلامها من الفرنسيين معركة عين شمس وثورة القاهرة الثانية :

انتصر كليبر علي الجيش العثماني في معركة عين شمس انتصار ساحق وقام بمطاردته في اتجاه الشرق غير أن مجموعة من الجيش العثماني بقيادة نصوح باشا تركت ساحة القتال وتوجهت إلى القاهرة حيث أثار نصوح باشا الشعب ضد الفرنسيين ، فعندما عاد كليبر إلى القاهرة بعد مطاردته للجيش العثماني وجد القاهرة كلها في حالة ثورة عارمة وهي المعروفة بثورة القاهرة الثانية والتي كانت بمساعدة العثمانيين وتحريضهم ، حيث قام كليبر بقمع الثورة بشكل وحشي واستخدم ما أعده نابليون من قلاع وتجهيزات حول العاصمة بعد ثورة القاهرة الأولى ،

وجدير بالذكر أن الثورة لم تكن بالقاهرة وحدها بل امتدت إلى عدة مدن وقرى بطول مصر وعرضها وبالتالي كانت في منتهى الخطورة مما أدى إلى رد فعل فرنسي عنيف وقاسي ، واستطاع كليبر إخضاع الوجه البحري بالكامل أما الوجه القبلي بقيادة مراد بك فقد يأس تماماً من إخضاعه ولذلك قام بعقد اتفاقية مع مراد بك بحيث يتولي مراد حكم الصعيد ويأمن جانبه بل واتفقا علي الدفاع المشترك ضد أي عدوان علي أي منهما وهكذا اتضحت حقيقة مراد بك الذي اتفق مع الفرنسيين علي أن يقوم بإمداد الفرنسيين بالكميات اللازمة من القمح والشعير والحبوب من الجنوب وكان قبل ذلك يمنع وصولها إليهم ، وهكذا قام كليبر بتحديد مراد بك تماماً

الفظائع الفرنسية في قمع الثورة :

ولا بد هنا أن نذكر بعض ما ارتكبه الفرنسيون من جرائم لا تمت للإنسانية بصلة بل وتزيد بشكل مبالغ فيه عن متطلبات قمع الثورة ، حيث وصفها الجبرتي باستفاضة ملخصها ما يلي (وجري علي الناس ما لا يسطر في كتاب ولم يكن لأحد في حساب) وكتب الرافعي (أسرف الفرنسيون في ارتكاب الفظائع لإخماد الثورة ولجأوا إلي الطريقة الوحشية التي اتبعوها في كثير من المواطن وهي إضرام النار في الأحياء الآهلة بالسكان وإرسالها علي المدينة وأهلها موتاً أحمر فأحدثت الحرائق تخريباً فظيماً في القاهرة واحترقت أحياء برمتها وتهدمت بيوت عامرة ودفنت تحت أنقاضها عائلات بأكملها)^١ وهكذا تم إخماد الثورة (وأصبح الجنرال كليبر حاكماً بأمره في البلاد وهو الذي كان قبل شهرين يعد معدات الرحيل عنها ولكن السياسة الإنجليزية هي التي غيرت سير الأمور وتسببت في نقض معاهدة العريش ومنعت الجنود الفرنسية من السفر إلي فرنسا فأشعلت نار الحرب ثانية)^٢

مقتل كليبر :

استطاع أحد طلبية الأزهر الشريف وهو سليمان الحلبي أن يقتل الجنرال كليبر وكان هذا العمل من الأعمال التي هزت كيان الجيش الفرنسي بالكامل في مصر بل وكان ذلك تمهيداً لنهائيتهم في مصر حيث لم يجد الفرنسيون قيادة بعد ذلك علي نفس مستوي نابليون وكليبر مما أدى إلي فشل الحملة في مصر ، ووقع هذا الحدث في حديقة منزل القائد العام بالأزبكية وتم محاكمة سليمان الحلبي وبعض طلبية الأزهر الذين اتهمهم الفرنسيون بأنهم علموا نية سليمان الحلبي ولم يقوموا بالإبلاغ عنه ، ونص الحكم الذي أصدرته المحكمة (حكمت بإحراق يد سليمان الحلبي اليمني ثم إعدامه علي الخازوق وترك جثته تأكلها الطير وإعدام شركائه الأربعة بقطع رءوسهم وإحراق جثثهم بعد الإعدام مع مصادرة أموال المتهم الغائب عبد القادر الغزي" ولم يكن له مال")^٣ واعتبر الفرنسيون الجامع الأزهر مصدراً للعنف ، وتولي الجنرال مينو القيادة العامة للجيش الفرنسي في مصر

الصورة للجنرال كليبر

نقلاً باختصار عن كتاب (تاريخ الحركة القومية في مصر - الجزء الثاني) تأليف عبد الرحمن الرافعي - دار المعارف

^١ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج ٢ صفحة ١٥٠

^٢ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج ٢ صفحة ١٥٢

^٣ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج ٢ صفحة ١٧٠

١٧١. الجنرال مينو والأيام الأخيرة للحملة الفرنسية



وكيف غادرت مصر بعد احتلال دام ثلاثة أعوام وشهرين
بعد مقتل الجنرال كليبر علي يد سليمان الحلبي ،

تولي الجنرال مينو قيادة الحملة الفرنسية Jacques François Menou

وكان مينو قد أعلن إسلامه وتزوج من مسلمة من رشيد أثناء وجوده كحاكم لرشيد وتظاهر بتمسكه بشعائر الدين الإسلامي وأطلق علي نفسه اسم " عبد الله جاك مينو " وكان مينو بعد توليه حكم مصر يعتقد أن الفرنسيين لابد أن يقيموا في مصر بشكل دائم فقد كان (من دعاة اتخاذ مصر مستعمرة فرنسية) ١ ، وفرض مينو علي المصريين ضرائب وإتاوات فادحة وذاق الشعب المصري المرار وكثرت هجرة المصريين من بلادهم هرباً من كثرة المظالم والنهب والإرهاق والتخريب وكانت سياسة مينو بصفة عامة تنم عن أنه قائد دون المستوي ، ومن الغريب أنه (فكر في إنشاء مصنع للجوخ في القاهرة لسد الحاجة الماسة إلي الأجواخ التي انقطع ورودها من أوروبا بسبب الحصار البحري لكن أعضاء اللجنة الإدارية عارضوا في قبول العمال المصريين في هذا المصنع بحجة الضرر الذي يلحق الصناعة الفرنسية إذا عرف المصريون أسرارها وكتبت اللجنة رسالة في هذا الصدد قالت فيها : إن مقدرة المصريين في تقليد المبتكرات الصناعية من شأنها أن تضر بالمصانع الفرنسية) ٢

الدولة العثمانية تستعين بالإنجليز في تحالف لطرد الفرنسيين من مصر :

تم إجراء استعدادات ضخمة عثمانية إنجليزية لطرد الفرنسيين من مصر ووصلت بالفعل قوات إنجليزية إلي أبي قير واستطاعت هزيمة من بها من الفرنسيين وواصلت الزحف ووقعت معركة شرسة في المنطقة المعروفة حالياً بسيدي جابر بالإسكندرية وانتهت بهزيمة الفرنسيين هزيمة قاسية علي الرغم من كثرة عدد القتلى الإنجليز وظل الصراع دائر بين الإنجليز والفرنسيين في الإسكندرية مما أدى إلي ارتباك الجنرال مينو بالقاهرة وكان مينو أقل كفاءة بكثير من نابليون وكليبر في القيادة فقام بإصدار أوامر متضاربة وتشتت جيشه في عدة مواقع ومدن (فكانت القوات الفرنسية موزعة بين القاهرة والجيزة والصالحية والمنصورة وميت غمر ومنوف والبرلس والرحمانية والوجه القبلي ولما تحقق مينو من نزول

^١ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج ٢ صفحة ١٧٩

^٢ تاريخ الحركة القومية (الرافي) ج ٢ صفحة ١٨٩ ، ١٩٠

الإنجليز إلى البر عزم آخر الأمر علي السير لملاقاتهم (١) ووصل مينو ومعه نصف الجيش الفرنسي إلى الإسكندرية ولكن بعد أن تم هزيمة الفرنسيين بمعركة سيدي جابر مينو في الإسكندرية وبلبار في القاهرة :

وهكذا انقسم الفرنسيين تحت قيادتين أحدهما الجنرال مينو في الإسكندرية والثاني الجنرال بلبار في القاهرة وكان كل منهم يواجه جيشاً كبيراً ، وكان العثمانيون قد هزموا جيش بلبار بالقرب من بلبس فعدا منسحباً وتحصن بالقاهرة بينما كان مينو يواجه التحالف العثماني الإنجليزي في الإسكندرية ، وجدير بالذكر أن بلبار أرسل إلي مراد بك يستنجد به ويطلب منه تنفيذ اتفاقية الدفاع المشترك التي وقعها مع كليبر ، ولكن كان مراد بك في ذلك الوقت قد أصابه الطاعون ومات وكان موت مراد بك ضربة كبيرة أصابت آمال الفرنسيين علي حد تعبير الرافعي لأنهم فقدوا بموته حليفاً قوياً كان يمكن أن يمددهم بالقوة اللازمة ولم يتمكن الفرنسيين من التحالف مع خليفة مراد بك وكان اسمه عثمان بك الطنبورجي الذي رأي أن كفة العثمانيين والإنجليز هي الأرجح

استسلام القاهرة قبل الإسكندرية :

اجتمع الجنرال بلبار مع مجلس الحرب ليتشاوروا في الموقف الحرج الذي تورطوا فيه وقرروا التفاوض مع العثمانيين والإنجليز وتم بالفعل توقيع اتفاقية الجلاء في ٢٧ يونيو ١٨٠١ بعد مفاوضات استمرت أربعة أيام (وأن يكون جلاء الجنود بأسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم بطريق فرع رشيد ومن رشيد وأبو قير يبحرون إلي فرنسا علي نفقة الحلفاء) ٢ وقام العثمانيون والإنجليز بتوفير المراكب والسفن اللازمة لرحيلهم ، علي أن يسري هذا الاتفاق بين بلبار والحلفاء علي الجنرال مينو وجيشه بالإسكندرية في حالة موافقته علي بنوده ، ولكن مينو عندما بلغه هذا الاتفاق رفضه تماماً بل واتهم بلبار بالتفريط في الشرف الحربي ، واستمر مينو في عناده وقتاله للحلفاء (علي أنه لم يمض خمسون يوماً علي تسليم القاهرة حتي أذعن الجنرال مينو للتسليم بشروط أسوأ من الشروط التي قبلها الجنرال بلبار) ٣ وهكذا غادرت الحملة الفرنسية مصر بغير رجعة ولكن بعد أن لفتت نظر بريطانيا العظمي لموقع مصر الذي أصبح حليماً لبريطانيا قامت بتحقيقه بعد ذلك في سنة ١٨٨٢ م

نقلًا عن كتاب (تاريخ الحركة القومية - الجزء الثاني) تأليف المؤرخ الكبير (عبد الرحمن الرافعي) بتصرف
الصورة للجنرال عبد الله جاك مينو

^١ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج ٢ صفحة ١٩٧
^٢ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج ٢ صفحة ٢١٧ ، ٢١٨
^٣ تاريخ الحركة القومية (الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٢٣

١٧٢. الكاتب الكبير يحيى حقي يكتب عن المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي

في كتابه الممتع صفحات من تاريخ مصر

طبعة يناير ٢٠٠٨ - نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - من صفحة ٣٥ وما بعدها

وتحت عنوان ٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨م

فيما يلي ملخص قصير مما كتبه عن الجبرتي :

، -- من حسن الحظ أن كان يعيش في مصر حينئذ رجل ، لا أعرف من أجدادنا أحداً يفوقه في قدرته علي تملك حبي

وإعجابي وعلي تثبيت الإعزاز ببلدي في قلبي ، هذا هو الجبرتي مؤرخ مصر العظيم ،

ومن حسن الحظ أيضاً أنه كان يمثل أرقى ما وصلت إليه الحضارة الشرقية - - - -

بل إن المهم أن ذهنه كان متفتحاً لا يشله الغرور أو التعصب ، فنحن بإزاء شهادة رجل مثقف متزن حكيم نشأ في بيت

من أرقى بيوت القاهرة في ذلك العهد ،

إنني اعتبر يوم ٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨م من أهم أيام مصر الحديثة ولهذا اتخذته عنواناً لهذه الكلمة ،

ففي ذلك اليوم خرج الجبرتي من داره ليتفرج علي ما يفعله الفرنسيون في هدم المباني لشق طرق حديثة في قلب

العاصمة ، - - - - فلما رجع لداره كتب لنا ما يلي :

- - فعلوا هذا الشغل الكبير والفعل العظيم في أقرب زمن ، كانوا يصرفون الرجال من بعد الظهر ويستعينون في

الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول ، المساعدة في العمل وقلة الكلفة ، كانوا يجعلون بدل الغلقان

والقصاع عربات صغيرة ويدها ممتدتان من الخلف يملؤها الفاعل تراباً أو طيناً أو حجارة من مقدمها بسهولة ، بحيث تسع

مقدار خمسة غلقان ، ثم يقبض علي خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجري علي عجلتها بأدني مساعدة إلي محل

العمل فيميلها بإحدي يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة وكذلك لهم فنوس وقزم محكمة الصنعة متقنة الوضع ،

غالب الصناع من جنسهم ولا يقطعون الأحجار والأخشاب إلا بالطرق الهندسية علي الزوايا القائمة والخطوط المستقيمة ، ،

، ويعلق الكاتب الكبير يحيى حقي علي ما كتبه الجبرتي فيقول :

هكذا كانت تعيش مصر في عالمها المقلل إلي حد أن عربة نقل صغيرة بعجلة أمامية واحدة بدت للجبرتي كأنها معجزة

شيطانية ،

ينبغي ألا نفتخر علي الابتسام بمحبة لسذاجة الجبرتي ، بل نتأمل قوله بإمعان ، ففي وصفه دلالة بينة علي الفروق

العميقة بين عقلية الشرقي وعقلية الغربي ،

فلو كان محله رجل أوروبي وشاهد مثلاً علي تفوق الإنتاج لما انشغل حتي ذلك الوقت إلا بحساب الفرق بين أجر

العمل اليدوي والعمل الآلي ، وقاس هذا الفرق بمقياس الفائدة المئوية لقرض يستدينه لشراء الآلة الحديثة ولا يعكر مزاجه

في التفكير في مصير العامل الذي ستوفره الآلة ، هذه هي العقلية التي قامت عليها عظمة النظام الرأسمالي ،

وأما الجبرتي فإن أورد لفظ الكلفة في كلامه ، فمن الواضح أنه لم يكن معنياً إلا بأثر الآلة في التخفيف من سخرة

الإنسان في العمل الجسماني - - - - لم يكتب الجبرتي بالفرجة علي شق الطرق يوم ٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨ فهو قد ذهب

أيضاً في اليوم ذاته -ياله من يوم عظيم- إلي المجمع العلمي الفرنسي - - - ثم عاد لداره ووصف لنا ما شاهده بدهشة

طفل ساذج كما سنري ، فهل أنا مبالغ إذا قلت إن الصدمة العقلية العنيفة بين الشرق والغرب حدثت يوم ٥ ديسمبر ١٧٩٨ ،

استيقظت مصر وأدركت أن هناك علماً حديثاً غير علمها القديم وأن هذا العلم الحديث - - هو سر غلبة الغرب علي

الشرق ،

مصر في ذلك اليوم هي الجبرتي

١٧٣. كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي بكتابه الممتع عجائب الآثار يصف

علماء الحملة الفرنسية :

(وإذا حضر إليهم - بعض من - يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلي أعز أماكنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر في المعارف بذلوا له مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم مما يحير الأفكار)^١ ،

(ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصب منها شيئاً في كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى فعلا الماءان وصعد منه دخان ملون حتي انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر فقلبه علي البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجر أزرق وبأخرى فجمد حجر أحمر ياقوتياً وأخذ مرة شيئاً قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه علي السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة انزعجنا منه فضحكوا منا ،

وغير ذلك من أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع ، ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجات فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شئ كثيف ويظهر له صوت وطققة وإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلاً بها ولمس آخر الزجاجات الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه وطققت عظام أكتافه وسواعه في الحال برجة سريعة، ولهم فيها أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا)^٢

نقلًا عن كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار (عبد الرحمن الجبرتي) ج ٥ - مكتبة الأسرة ٢٠٠٣

^١ عجائب الآثار (الجبرتي) ج ٥ صفحة ٥٧

^٢ عجائب الآثار (الجبرتي) ج ٥ صفحة ٦٠

١٧٤. تعداد سكان مصر طبقاً لتقدير علماء الحملة الفرنسية

من كتاب موسوعة وصف مصر - المصريون المحدثون - الجزء الأول - الطبعة الثالثة - ١٩٩٢ تأليف علماء الحملة الفرنسية - ترجمة زهير الشايب - الكتاب الأول - دراسة في عادات وتقاليده سكان مصر المحدثون - تأليف ج دي شابرول الفصل الأول - لمحة عامة عن الطقس والسكان وعن تقاليد وعادات المصريين - 2 عن السكان وطبقاتهم المختلفة ، باختصار من صفحة ٢٢ إلى صفحة ٢٤ - - - - - :-

كان تقدير عدد سكان مصر علي الدوام عرضة لأخطاء خطيرة ، وقد وقع أغلب المؤرخين المحدثين والقدامي في مبالغات كبيرة يمكن لأي توصيف بسيط للأماكن أن يدحضها وإلي جانب الخدمات التي التي قدمتها الحملة الفرنسية للعلوم والفنون والآثار في مصر ، فإنها قد حثت كذلك علي استخدام الإحصاء في الأبحاث والدراسات التي تتخذ موضوعاً لها أحد الأمور الهامة ، وهكذا أمكن التوصل ليس فقط إلي تحديد مساحة الأراضي المنزرعة والقابلة للزراعة بطريقة أقرب إلي الموضوعية ، بل وكذلك عدد القرى والكفور التي تغطي وادي النيل كما أمكن بالمثل تقدير تعداد السكان في مصر ، وكذا تعداد سكان مدنها الهامة ، وبخلاف ما جمعه أثناء وجودي في مصر من معلومات فقد استعرت هنا بعض التفاصيل من الدراسة التي كتبها جومار Jomard عن تعداد السكان في مصر الحديثة مقارناً بتعداد السكان في مصر القديمة ، وحيث أن جومار قد أقام حساباته علي معطيات أكثر دقة عن تلك التي جمعت حتي الآن ، وحيث أنه أبان عدد الموتى وخصوبة السيدات ومقدار الضرائب واستهلاك الحبوب بالإضافة إلي أمور أخرى هامة ذات طابع اقتصادي وسياسي فإنه قد توصل بذلك إلي نتائج نعتبرها قريبة من الحقيقة ، - - - - - وسوف أكتفي هنا بإيراد فقرة من ملخصه تضم نتيجتين متقاربتين وصل إليهما عن طريقين مختلفين: إن تحديد المساحة الحقيقية للأرض المزروعة ثم حصر عدد السكان في جزء محدد من مساحة البلاد يؤدي ، بعد تعميم هذه النسبة وإضافة الناتج الإجمالي إلي عدد سكان القاهرة ، إلي نتيجة شبه مؤكدة وهي أن تعداد سكان مصر يبلغ ٢٤٤٢٢٠٠ نسمة ، أما الطريقة الثانية فقد بنيت أن عدد قري مصر يبلغ ٣٦٠٠ قرية وأن متوسط سكانها هو ٥٣٤ شخصاً لكل قرية ، أي أن تعداد سكان القري يبلغ ٢١٠٢٤٠٠ نسمة ، وبإضافة سكان المدن إلي ذلك الرقم فإن تعداد مصر يبلغ ٢٤٦٧١٠٠ وحسب ما سبق فقد تحدد تعداد سكان مصر بحوالي ٢.٥ مليون من السكان ولا يدخل ضمن ذلك مطلقاً عدد العربان الذين يعمرن الصحراوات والذين لا يمكن إخضاعهم لتعداد دقيق ، لكن مسيو جوبير Jaubert من جهة أخرى يقدر عدد الفرسان العربان حسب الإحصاء الذي قام به ب ٢٧٠٠٠ فارس ، فإذا ما أضفنا إليهم نفس العدد لأشخاص راجلين وعدداً يتناسب مع ذلك من السيدات والأطفال فإن مجموع تعداد أبناء قبائل العربان سوف يرتفع إلي ١٣٠٠٠٠ نفس ، - - - كانت القاهرة في عام ١٧٩٨ تضم ما بين ٢٥٠-٢٦٠ ألفاً من الأشخاص بما في ذلك المماليك والتجار الأجانب ، وقد قدر تعدادها بحسب إحصاء تم قبل مجئ الحملة الفرنسية ب ٣٠٠٠٠ نسمة

١٧٥. مقتطفات من مقدمة كتاب وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة

زهير الشايب

كتبت الاستاذة مني زهير الشايب في مقدمة الطبعة الثالثة من كتاب وصف مصر في أكتوبر ١٩٩٢ ما ملخصه :
لقد مضي علي صدور هذا الكتاب في طبعته الأولى من الترجمة العربية أكثر من خمسة عشر عاماً ، لاقى خلالها -ولا يزال- الاهتمام المتزايد من القارئ والمتخصصين ، ولعل السبب وراء هذا الاهتمام يتضح لنا مما ذكره فورييه في مقدمة الطبعة الفرنسية حيث يقول : (لم يسبق لأي بلد آخر أن خضع لأبحاث بمثل هذا الشمول وهذا التنوع ، وفضلاً عن ذلك فليست هناك بلاد أخرى جديرة بأن تكون موضوعاً لأبحاث كهذه ، فمعرفة مصر أمر يهم في الحقيقة كل الأمم المتحضرة) ، وإذا كان لعلماء الحملة الفضل والتقدير لتأليف هذا الصرح الفريد ، فقد أتاح المترجم الفرصة لأناس كثيرين -لا سيما المصريين- كي يعرفوا قدر هذا الوطن العظيم ، الشامخ علي مر العصور ،
انتهي كلام أو بعض كلام الأستاذة مني زهير الشايب أما ما كتبه الأستاذ زهير الشايب نفسه في مقدمة كتابه في فبراير ١٩٧٦ فقد اخترت لك منه ما يتعلق بما ذكره علماء الحملة عن الدين الإسلامي من وجهة نظرهم وكيف عالج المترجم هذا الأمر حيث كتب ما يلي :

ولقد آثرت هنا أن أقدم ترجمة كاملة أمينة نصاً وروحاً لكل ما ذكره المؤلف خاصاً بنا وبمعتقداتنا ، وسوف يلاحظ القارئ أنني قد آثرت عدم التدخل إلا في أضيق نطاق ممكن لاعتبارات لا بأس من طرح بعضها :

- ١ - أننا هنا بصدد أثر علمي هام ينبغي أن يحظى بالاحترام
 - ٢ - أنه ليس كل ما يقال عنا صحيحاً علي إطلاقه ، وإن كان ينبغي علينا في كل الأحوال ألا نخشي أية فكرة صحيحة
 - ٣ - أنه قد آن الأوان لنواجه بشجاعة ما يقال عنا ، فتجاهل ذلك أو الصمت عنه ليس هو الوسيلة المثلي ، فذلك الموقف لن يعني إلا تسليمنا ولو بشكل سلبي بصحته ، ومعرفة ما يقال عنا هي أفضل وسيلة لمواجهته بل ودحضه
 - ٤ - أن الأقوياء لا يخافون معرفة ما يقال بشأنهم ، ولا أظن أحداً يجادل في قوة عقيدتنا
- وأنني فيما فعلت إنما كنت أصدر عن تقديس كبير للإسلام ولنبيه الكريم صلي الله عليه وسلم ، كما أنني واثق أنني فيما التزمت به من أمانة في النقل كنت أقرب ما يكون إلي روح الإسلام ، الذي ينهض أول ما ينهض علي الإقناع العقلي ، والذي كانت أول آية في كتابه الكريم تدعو إلي القراءة والفهم والذي لا يستوي -بنص آياته- الذين يعلمون والذين لا يعلمون ،

وأضاف الأستاذ زهير الشايب في نهاية مقدمته ما يلي :

وبرغم كل شيء فإن واجب الأمانة يقتضي بأن أعترف بما يأتي :

- ١ - أنني قد حذفت من الجزء الخاص بالأقباط نصف جملة وجدت أن اللياقة تقتضي حذفها
- ٢ - أنني حذفت هامشاً كاملاً أثار -عند نشره بمجلة الثقافة- ردود فعل لم أكن أتوقعها ، ولا يتجاوز هذا الهامش أربعة سطور

- ٣ - أنني حذفت آخر عبارة في الكتاب (حوالي سطر ونصف) إذ وجدت من الأفضل ألا تترك هذه الجملة طعماً مريراً في حلق القارئ ، بعد صحبة ممتعة مع مؤلف حاول جهده أن ينصفنا طيلة مؤلفه

١٧٦. إعجاب علماء الحملة الفرنسية بالصناعة المصرية - ورد في كتاب وصف

مصر ما يلي :

(وقبل الدخول في تفاصيل فنون الصناعة ، ينبغي أن أنهه بالمقدرة المتميزة للغاية لدى الصناع المصريين ، فهم يملكون علي وجه الخصوص تلك الموهبة التي تثير إعجابنا لدى الصينيين ، موهبة المحاكاة المتقنة لأعمال الآخرين إلي درجة ينتج عنها في بعض الأحيان عدم القدرة علي التمييز بين التقليد والأصل ، ومن ناحية أخرى فنحن نعرف أيضاً أن المصريين يعتادون العمل وهم جالسون ، وهم في نفس الوقت يعملون بخفة في صناعات مما لا يستطيع صناعنا أن يقوموا به في أوضاع مماثلة)

صفحة ٢٤٩ موسوعة وصف مصر - الجزء العاشر - تأليف علماء الحملة الفرنسية - ترجمة وتحقيق زهير الشايب

ومني زهير الشايب - مكتبة الأسرة ٢٠٠٢

١٧٧. اندهاش علماء الحملة الفرنسية من التسامح بين الأديان في مصر

علي عكس ما كانوا يعتقدون - ورد في كتاب وصف مصر ما يلي :

(-----) وسنعجب لأن العامة الجاهلة الموسومة بالتعصب لا تلحن اليهود ، أو المسيحيين من الكاثوليك والأقباط والأرمن والسوريين والروم .. إلخ ، لأنها ألقت مشاهدتهم في جميع الأيام منتشرين بأعداد كبيرة ، يتاجرون بحرية في الشوارع والأسواق والأماكن العامة ، وتنتشر الأحياء التي يسكنها الأقباط والإفرنج والروم واليهود في كل أجزاء المدينة ، دون أن تحميها أية أسوار خاصة ، وكل طائفة لها كنائسها التي تمارس فيها شعائرها في سلام ، ودون أي نوع من المضايقات ، وهذه أيضاً مسألة لدينا عنها في أوروبا تصورات قل أن تطابق الواقع - - وتقع حارة النصارى - أحد أحياء الأقباط - جنوب ميدان الأزبكية أما أكبر أحيائهم التي تحمل هذا الاسم فيقع شمال هذا الميدان نفسه - - وللمسيحيين الروم كنيستهم قرب الحمزاوى في الغرب ، ولهم أيضاً حي يسمى حارة الروم إلى الشرق من السكرية - - والحي اليهودي - حارة اليهود - شديد الاتساع والازدحام - - ومن اللافت للنظر بدرجة كبيرة أن يوجد مسجد في قلب هذا التجمع اليهودي الكثيف ويوجد بالحي اليهودي عشرة معابد - -)

موسوعة وصف مصر - مقتطفات مختارة من الجزء العاشر - تأليف علماء الحملة الفرنسية - ترجمة وتحقيق زهير

الشايب ومنى زهير الشايب - مكتبة الأسرة ٢٠٠٢

١٧٨. جانب من وصف التجارة المصرية بموسوعة وصف مصر تأليف علماء الحملة

الفرنسية

كما ورد بالجزء الأول من موسوعة وصف مصر - صفحة ٢٥٦ ، ٢٥٧ ما ملخصه كالآتي :

، - - - - - وتشتمل تجارة التصدير المصرية أساساً علي : الأرز والبن وجلود الماعز والأقمشة والقطن والسكر والقمح والعقاقير الطبية والخضروات الجافة ، وكانت الحنة مرغوبة بكثرة في كل البلاد

وكان جزء من مالية مصر يذهب إلي تركيا لتسديد الجزية التي يدفعها الباشا للسلطان ، مع ما يرسل من هدايا كان يقدمها للوزراء والمقربين من السلطان ، حتي يثبت في مكانه ، - - -

وكان ميزان العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا لصالح مصر بشكل كبير إذ لم تكن مصر تدفع أموالاً علي الإطلاق ، وكان المقابل دائماً يتم في صورة بضائع ، بينما كانت أوروبا مضطرة في معظم الأحيان إلي دفع الأموال ، وكانت فرنسا ترسل الأصواف وصبغة النيل والأسلحة ومختلف المواد اللازمة لصناعة الحدايد والنحاس ، أما البندقية فكانت تصدر لمصر العملات الذهبية الإيطالية والخرز والمرايا ، أما ألمانيا فكانت ترسل البورسلين والأواني الزجاجية والمواد اللازمة لصناعة الحدايد والنحاس ، - -

أما تجارة الهند ومكة - علي العكس من ذلك - مكلفة لمصر - -

ولكي نعطي للقارئ فكرة موضوعية عن تجارة مصر ، نضع تحت يده جداول مختلفة ، نوضح فيها بالتفصيل كل مواد الاستيراد والتصدير التي تغذي هذه التجارة ، وتعود هذه الأرقام إلي عام ١٧٧٥ م ،

- - - - - وقد أورد علماء الحملة الفرنسية هذه الجداول من صفحة ٢٥٨ إلي صفحة ٢٦٣ بالجزء الأول من الموسوعة - -

نقلاً باختصار عن الجزء الأول من كتاب موسوعة وصف مصر - تأليف علماء الحملة الفرنسية - ترجمة زهير الشايب

١٧٩. عندما كانت فرنسا تستورد القمح المصري

ورد في كتاب وصف مصر الذي قام بإعداده علماء الحملة الفرنسية ، وتحديداً في الجزء الرابع الذي يصف الزراعة والصناعات والحرف والتجارة في مصر ، بيان ما تقوم مصر بتصديره واستيراده من أصناف وأنواع التجارة المختلفة ، ومما يلتفت النظر ما جاء تحت عنوان (تجارة مصر مع فرنسا) فقد كتب علماء الحملة الفرنسية ما يلي :

الواردات :

كان يصدر من فرنسا إلى القاهرة سلع مختلفة تنتجها المصانع الوطنية بالإضافة إلى بضائع متنوعة ، قادمة من بلاد أجنبية ، وخزنت في مرسيليا ، وكانت أهم البضائع الفرنسية تشتمل علي أجواخ لانجدوق المعروفة باسم لندران درجة أولى وثانية ، وكذلك علي أجواخ من سيدان ومن لوفيه وآب فيل ، ومنسوجات من ليون محلاة بجالونات ذهبية وفضية ، - - - ثم يستمر المؤلف الفرنسي في وصف المنتجات التي تقوم مصر باستيرادها من فرنسا إلى أن يصل إلى بند الصادرات المصرية إلى فرنسا فيقول :

الصادرات :

تصدر مصر إلى فرنسا : الأرز والقمح والزعفران وملح النشادر والنطرون والصودا والقطن المغزول والأقمشة القطنية والكتانية من مختلف الأصناف والسنامي وجلود الجاموس والأبقار والجمال وبخلاف هذه السلع المنتجة أو المصنوعة في مصر كانت الأخيرة تصدر إلى فرنسا أيضاً السلع الآتية والتي كانت تعد مستودعاً لها ، وهي تشتمل علي السلع القادمة من أواسط أفريقيا ، عن طريق دارفور وسنار : الصمغ ، التمر هندي ، العاج ، ريش النعام ، وكمية ضئيلة من تراب الذهب (التبر) - - - وكان الأرز يصدر في العادة عن طريق دمياط - - - أما القمح الذي يصدر إلى فرنسا فكان يخزن أولاً في رشيد ، ومن هناك يرسل في مراكب إلى أبي قير والإسكندرية ، ومنها يبحر القمح في السفن التي تشكل قافلة المشرق - - - وكانت السفن اليونانية علي وجه الخصوص ، ومن مختلف جزر الأرخبيل ، هي التي تستخدم في نقل القمح من فرنسا حين عانت إيطاليا من نقص الغلال - - - في منتصف القرن الماضي ، وتقدر الكمية التي صدرت من القمح خلال سنوات القحط الثلاث ، والتي أصابت هذه المناطق ، بنحو ثمانين ألف أردب ، وفرض مراد بك ، وهو الذي كان يحصل علي عائد جمرك رشيد ، رسم خروج قدره ١٨٠ مدينني عن كل أردب من القمح

نقلًا عن كتاب (موسوعة وصف مصر - جزء الزراعة والصناعة والتجارة) تأليف ب س جبرار من علماء الحملة الفرنسية - ترجمة زهير الشايب - الجزء الرابع - مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ - مقتطفات من صفحة ٣٠٤ إلى صفحة ٣١٠

١٨٠. وصف علماء الحملة الفرنسية للشعب المصري في ذلك الوقت

من كتاب موسوعة وصف مصر - المصريون المحدثون - الجزء الأول - الطبعة الثالثة - ١٩٩٢ تأليف علماء الحملة الفرنسية - ترجمة زهير الشايب

يوجد في مصر - شأنها شأن بقية بلدان الشرق - خليط مضطرب من العادات والتقاليد ، تعود إلى أصول متنوعة ، وتنتج عن أسباب كثيرة ، وهل كان يمكن للأمر أن يكون علي نحو آخر في بلد يمكن القول بأن كافة الأمم قد اختلطت فيه ، فالعادات إذن تتنوع بنفس الطريقة التي تشكلت بها فئات السكان بمختلف أديانهم وأصولهم ، فنحن نجد في المدن - مع شئ من الاختلاف - نفس عادات الشعوب الشرقية ، ولقد كان هذا الاختلاف أمراً ضرورياً بسبب طبيعة التربة وتأثير الطقس ، أما في الريف وفي الصحراوات فسوف نتعرف علي رجل العصور الأولى ببساطة أذواقه ، هذا إذا لم تكن العصور المنصرمة قد تكفلت بإتلاف فطرته

ولا يمكنك أن تكشف ما يعتل في نفس المصريين عن طريق ملاحظهم ، فصورة الوجه ليست مرآة لأفكارهم ، فشكلهم الخارجي في كل ظروف حياتهم يكاد يكون هو نفسه ، إذ يحتفظون في ملاحظهم بنفس الحيدة وعدم التأثير ، سواء حين تأكلهم الهموم أو يعضهم الندم ، أو كانوا في نشوة من سعادة عارمة ، وسواء كانت تحطمهم تقلبات غير منتظرة أو كانت تنهشهم الغيرة والأحقاد ، أو يغفلون في داخلهم من الغضب أو يتحرقون للانتقام ، فليس ثمة مطلقاً فعل منعكس : احمرار في الوجه أو شحوب مفاجئ ، يستطيع أن يشي بصراع تلك العواطف العديدة التي تهزم ويمكننا أن نلمس أسباباً عديدة لهذا الجمود المذهل في الملامح ، قد لا يكون الطقس بعيداً عن هذه الحالة ، فحيث يبدو الطقس علي الدوام بنفس الشكل فإنه ينقل إلي النفوس - علي نحو ما - ثباته الدائم ، ومع ذلك فإن الأسباب الرئيسية لذلك تكمن بالتأكيد في شكل التربية ، وفي الاعتقاد في القضاء والقدر والمنتشر بين كافة الناس ،

كما تعود في النهاية إلي تعودهم أن يكونوا علي الدوام عرضة لنزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم البلاد ، ففي كل يوم تنشأ أخطاء وبشاعات جديدة ، تصبح الغفلة معها بالنسبة للمصريين ، والشرقيين عموماً ، نوعاً من الحيلة لمواجهة هذا العنف ، فعندما يعاقب الإنسان علي حركة أو بسبب نظرة - - فإنه يصبح وقد اكتسب مقدرة عميقة علي الاستيعاب بحيث تصبح هذه الأمور حالات عادية ويبدو خمول المصريين الملتصقين بمدنهم أمراً بالغ التناقض مع تقاليدنا ، فتحركاتهم وأحاديثهم وأبسط حركاتهم بل ومسراتهم ، كل ذلك يشي بعدم اكتراث مذهب ،

- - - ويرغم من ذلك فتحت هذا القناع من السلبية البادية علي ملامحهم يكمن خيال ملتهب ، وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كل حساسية فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم علي العكس ، وحيث يمكنهم بذلك تركيزها ، - - إن ملكة الانتباه والقدرة علي التذكر ، تذهب إلي أبعد مدي عند هؤلاء الناس الذين نخالهم غارقين في بلادة مطلقة ،

إن كل شئ في هذا الشعب يقدم صورة من التناقض الواضح مع عاداتنا نحن الأوروبيين

(- - وهذا يبرهن علي ما سبق أن قلناه من أن إصلاح مساوئ نظام الحكم سوف يؤدي - بسهولة فائقة - إلي أن يرد لهذا الشعب كل الفضائل التي فقدها ، بل التي لا يظنها هو نفسه كامنة فيه ، كما أن ذلك سوف يوقظ فيه كل مشاعر النبل والهمة ، وعظمة الروح التي خنقتها إلي حين تلك الأنظمة الشيطانية التي يزرع تحت نيرها ، إذ تعمل هذه الأنظمة الخبيثة علي تدمير أخلاقيات الأفراد بشكل محزن - - -)

١٨١. علماء الحملة الفرنسية يوضحون أسباب عدم تكاثر المماليك في مصر

وإليك بعض ما ورد في كتاب وصف مصر عن هذا الموضوع :

— — — يمكن للزوجة المصرية أن تصبح أمّاً في سن الثانية عشرة ، لكنها تصل لذلك في العادة في سن الرابعة عشرة .

وتظل في سنواتها المقبلة تقدم الأدلة علي خصوبتها المذهلة — —

ولكننا نستطيع القول — لكي نقدم نسبة دقيقة — بأن كل مصرية تتزوج تنجب طفلاً كل ثلاثة أعوام ، ويقيم ذلك نوعاً من التعويض بالنسبة للسيدات اللاتي يمرضن ، أو اللاتي يتميزن بخصوبة قليلة ، ، والعقم التام شديد الندرة في هذه البلاد ، — — —

وتتم الولادة عن طريق القابلات وهي علي الدوام حوادث سعيدة ، وعندما لا تستطيع امرأة — بعد أن تكون استنفذت كل الوسائل — أن تتمتع بسعادتها في أن تكون أمّاً ، أو أن تحتفظ بالأبناء الذين أتت بهم إلي هذا العالم ، فإن التبنّي يعوضها عن ذلك الحرمان — — —

ويقوم الموت بحصد أطفال العائلات الأجنبية علي وجه الخصوص ، فالمماليك واليونانيون والعثمانيون والأوروبيون وكافة أبناء الأجناس التي لا تنتمي لهذا الوطن يموتون في العادة دون ذرية تخلفهم ، وذلك إذا ما تناسلوا فيما بينهم ، أما عندما يتزوجون من سيدات هذا البلد فإن بمقدورهم أن يتمتعوا بمباهج الأبوة ، دون أن يستطيعوا مع ذلك أن يتطلعوا إلي أن ينالوا نعمة أن يتركوا بعدهم ذرية كبيرة العدد ، ، — — —

وهكذا يمكن القول بأن هذا الشعب يدين بوجوده لخصوبة نسائه ، بينما يصعب علي الأجناس الأخرى أن تستمر علي قيد الحياة في هذه البلاد ، ، وسوف نقدم الدليل علي ذلك في الجدول الآتي عن حالة أهم الأسر المملوكية :

اسماعيل بك : لم يترك إلا بنتاً واحدة

إبراهيم بك : له طفلان علي قيد الحياة

قاضي أغا : أنجب أحد عشر طفلاً ، بقي منهم أربعة علي قيد الحياة

مراد بك ، أيوب بك الصغير وأيوب بك الكبير ، الألفي بك ، محمد بك المنفوخ ، عثمان بك تباس ، عثمان بك الشرقاوي ، عثمان بك الأشقر ، عبد الرحمن بك ، عثمان بك البرديسي ، عثمان بك الطمبورجي ، حسن بك الجداوي ، صالح بك ، إبراهيم بك الوالي ، محمد بك العبدولي ، كل هؤلاء بلا أطفال ، ، محروق بك بن إبراهيم بك : له طفلة واحدة علي قيد الحياة

علي بك الكخيا : له طفلة واحدة علي قيد الحياة وكذلك سليمان بك

أحمد بك الكراجي : لم ينجب أطفال علي الإطلاق ، ونفس الشئ بالنسبة لعثمان بك حسن ، وكذلك سليم بك أبو دياب ، وقاسم بك ، حسن كاشف الشركسي لم يخلف سوي طفل أعمي

محمد أغا : أنجب اثنين وعشرين طفلاً لم يبق منهم علي قيد الحياة سوي طفل واحد ضعيف البنية

ومن هذا نري كيف كان عدد أطفال المماليك الذين يبقون علي قيد الحياة ضئيلاً ، ويمكننا من جهة أخرى أن نعد أسراً أجنبية أخرى كثيرة لم تكن بأسعد حظاً من ذلك ، ،

وهذا دليل علي أن الوطنيين وحدهم في مصر هم الذين لديهم فرصة البقاء عن طريق التناسل ، ويبدو أن طبيعة المناخ تلفظ بعناد بذور الأجناس الغريبة

ملحوظة : ربما يفسر ذلك قيام المماليك بشراء المزيد من المماليك بصفة مستمرة من أسواق الرقيق في ذلك الوقت

نقلًا باختصار عن الجزء الأول من كتاب موسوعة وصف مصر — تأليف علماء الحملة الفرنسية — ترجمة زهير الشايب

١٨٢. إعجاب علماء الحملة الفرنسية باحترام الشيخوخة في مصر

ورد في الجزء الأول من كتاب وصف مصر عن هذا الموضوع ما ملخصه :

قد لا يكون من المناسب أن نبحث عن ممارسة الفضائل الطبيعية عند الشعوب المتحضرة ، حيث تتوافق الأنانية والمصالح - وهما أبناء الحضارة الشرعيين - مع أضواء المعرفة ، إذا صح القول ، ذلك أن أفق المعارف عند الشعوب كلما اتسع كلما ابتعدت هذه الشعوب عن حياة الطبيعة ، ولا ينبغي أن نمضي بهذه الفكرة بحد أبعد من ذلك ، ومع أننا لا ننتوي هنا أن نعقد مقارنة متعسفة ، فإنه ينبغي علينا القول بأن الشرقيين وإن كانوا قد أهملوا تعلم العلوم والآداب ، فقد استطاعوا علي الأقل أن يحتفظوا ببعض آثار من العادات والفضائل البدائية ، وإلا ، فهل ثمة عند أمم الشرق ما يستوجب المديح أكثر من ذلك الاحترام العميق الذي يكنونه نحو الشيخوخة ؟

ويتميز المصري علي وجه الخصوص بهذا الشعور النبيل ، - - - - -

وفي مقابل ذلك ، فإن المفكر يستطيع أن ينعي علي الشعوب الأوروبية - التي تطورت صناعاتها ومعارفها لحد مذهل

- هذه اللامبالاة الشديدة نحو الشيخوخة - - -

ونستعير هنا ، حول هذا الموضوع ، بعض الافكار التي وردت علي لسان مؤلف كتاب

رسائل عن مصر *Lettres sur L'Egypte*

الذي انتقدنا بمرارة وأحياناً تحامل صارم ، وترسم أقواله بدقة ذلك الفرق الكائن بين أفكار وعادات شعوب الشرق ، وبين

مثيلاتها عند شعوب الغرب ، بخصوص الشيخوخة :

إن الشيخوخة عند كل الشعوب المتحضرة ، حيث يعيش الإنسان وسط عائلته فترة أقل ، لا تلقي من الاحترام نفس ما تلقاه في مصر ، بل إنها تكاد تكون في معظم الأحيان نقيصة ، حيث ينبغي علي ذي الشعيرات البيضاء أن يصمت أمام غرور الشباب ومباهاته ، وأن يلعب دور طفل حتي يمكن تحمله في داخل نطاق العائلة ، فما أن يحس الإنسان عندنا بأن سنوات العمر قد بدأت تثقل كاهله ، حتي يري نفسه وقد أصبح عبئاً ثقيلاً علي أولئك الذين يدينون بوجودهم له ، يري نفسه وقد أنكر عليه حق الرعاية وأغلقت دونه القلوب ، وترتجف من برودة الوحدة روحه ،

أما المشاهد التي كنت أراها هنا في مصر قد اضطرتني أن أقدم لكم النقيض المقابل ، فهنا في مصر ، يبتسم العجوز وهو يلقي الاحترام ، يبتسم برغم وطأة وضعف هذه الشيخوخة - لأحفاده وهم يأتون لمداعبته ، وينشرح صدره وهو يري أربعة أجيال تهرع نحوه لتقدم إليه ما تفرضه عليها الشفقة الحنون ، فيتذوق بذلك بهجة الحياة حتي آخر لحظة من لحظات عمره ، وفي واقع الأمر فإن الأوروبيين لا يمكنهم أن يرضوا عن أنفسهم بثقة وإعجاب عندما يرون هذا الاحترام الذي يبلغ مرتبة التقديس ، - - - فهوؤلاء الناس الذين نطلق عليهم ذلك النعت المقزز المرعب : المتوحشون البرابرة ، يقدمون لنا في هذا الخصوص مثلاً يجدر بالاحتذاء ، علي أجمل الفضائل ، فكل شئ في كبار السن يفصح عن المهابة والأهمية ، فإذا تكلموا أنصت الجميع لما يقولون في احترام شديد ، ويترجم العرب كلمة Vieillard (مسن-عجوز) بكلمة : شيخ ، وهو لقب شرف يوحى بمعنى التشريف والسيادة ، والكلمة الأولى في كل العائلات المصرية للأكبر سناً ، - - -

وفضلاً عن ذلك فإن الشرق - الذي نتفق علي أنه مهد الحضارات - كان مسرحاً للتقاليد الأبوية القديمة ، - - -

وإذا كانت أوروبا هي وطن الفنون ومسرح ملذات الشباب ومغامراته ، فإن الشرق ، - ومصر بوجه خاص - هو علي

نحو ما ، جنة الشيوخ

نقلاً باختصار عن الجزء الأول من كتاب موسوعة وصف مصر - تأليف علماء الحملة الفرنسية - ترجمة زهير الشايب

١٨٣. حمامات الساونا على الطريقة المصرية كما وصفها علماء الحملة الفرنسية

من كتاب وصف مصر - تأليف علماء الحملة الفرنسية - الجزء الأول

ترجمة زهير الشايب

تحت عنوان الحمامات العامة كتب علماء الحملة الفرنسية ما يلي :

يمكن أن نحصى أكثر من مائة حمام بالقاهرة ، يواظب السكان على الذهاب إليها ، وبخاصة في الشتاء ، - - - إذ يسمح الصيف للطبقة الدنيا منهم بالتطهر والاعتسال في النهر حيث تكون مياهه شبه فاترة ، أما الشتاء ببرده فإنه يحرمهم من هذه الوسيلة الاقتصادية ، وهنا يتوجه إلى الحمامات ، حوالي مرة كل أسبوع ، أولئك القادرون منهم ، ليحصلوا بمصاريف زهيدة على متعة يطمح إليها الفقراء والأغنياء معاً ،

أما رجال الطبقة الممتازة ، أو بالأحرى أولئك الذين يحوزون ثروة كبيرة . فإنهم يمتلكون في بيوتهم حمامات خاصة ، وبرغم ذلك فإن هذا لا يمنعهم من أن يلتقوا بين الحين والحين في الحمامات العامة ، ليروحوها عن أنفسهم فيما بينهم ،

- - - - -

ويوجد بكل حمام مغطس ملئ بمياه شديدة السخونة ، وبعد أن ينتهي المرء من استحمامه يغطس فيه للحظات ، وطريقة الاستحمام التي تتبع هناك تختلف عن طريقتنا نحن في ذلك ، فبعد أن يدخل المرء ، يستقبله الخدم في الحجرة الأولى حيث يودع ملابسه ، ويعقد حول جسمه فوطة بسيطة ، ثم يقاد إلى ممر يشعر وهو سائر فيه بوهج الحرارة يشتد شيئاً فشيئاً لتصبح قوية عند اقترابه من الحجرة الثانية ،

وهناك يجد نفسه وسط سحابة من بخار ساخن معطر يخترق مسام كل جسمه ، ويرقد على قطعة من قماش صوفي فيقترب منه على الفور خادم يلبس في يده قفاز ، أو يمسك بفوطه من صوف ناعم ، وعندما يتأكد أن البخار قد اخترق كل المسام بشكل كاف ، يبدأ بأن يقطع كل مفاصل الوافد وتكاد هذه العملية لا تسبب سوى ألم خفيف تعوضه تلك الليونة التي تحدثها بعد ذلك في حركة الجسم ، ويستطيع الأوروبيون الذين لم يعتادوا مثل هذه العملية ويخشون نتائجها ، أن يرفضوها بمطلق حريتهم ، وبعد ذلك يدلك الخادم الجسم بالقفاز أو قطعة الصوف التي بيده ، ويكون التدليك قوياً لحد يظن معه المرء أن جلده سينفصل عن جسمه ، ويتوالى سقوط خيوط سوداء ، إذ يتخلص الجسم من كل الوساخات التي كانت عالقة به ،

بل إن المسام نفسها تتخلص من أقل شئ يمكن أن يسدها ، وفي أثناء هذه العملية يكون النزول الصبور غارقاً في عرقه ، ثم يقتاد بعد ذلك إلى حجرة مجاورة ليبقى وحده ، ويغتسل بمياه تأتي من عيني مياه إحداهما ساخنة ومياه الأخرى باردة ، ثم يرتدي قميصاً ليعود في النهاية إلى الحجرة الأولى ، حيث يقدم له الخادم وهو جالس على أريكته النارجيلة وفنجاناً من القهوة ، وعندما يحين خروجه تكون ملابسه قد تعطرت بدخان خشب الصبر ، وترش رأسه وكل جسمه برغاوي صابون معطر ، - - - ويقوم مدير الحمام بتعطير الحجرات وإعداد ماء الورد ، ويحصل عادةً مقابل كل هذه الخدمات على ما يكفيه ، إذا كان رواده من الأثرياء ، ونادراً ما يكون مكان الاستحمام واحداً بالنسبة للجنسين ، إذ ينقسم المبنى إلى قسمين لكل منهما مدخل مستقل ، وفي الحالة الأولى يخصص لكل من الجنسين موعد خاص ، وتذهب النساء عادةً إلى الحمام في وقت متأخر ، وما إن يدخلن حتي تعلق قطعة من قماش مطرزة أو سجادة لتنبه الجمهور إلى حضورهن ، ومنذ ذلك الوقت لا يمكن لأي رجل أن يدخل ، ويستبدل بكافة الخدم الذكور على الفور وبدون استثناء خادمت - - -

نقلًا باختصار عن كتاب موسوعة وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب الجزء الأول من

١٨٤. علماء الحملة الفرنسية يصفون الأسبلة في القاهرة

بالجزء العاشر من موسوعة وصف مصر ترجمة زهير الشايب ومنى زهير الشايب
 في صفحة ٢١٢ وما بعدها وتحت عنوان الكتاتيب ، الأسبلة ، والأحواض العامة ورد ما ملخصه :
 - - - ذكرت من قبل أن الأسبلة والكتاتيب العامة بالقاهرة ، قد نتجت معظمها عن منشآت -- لأمرأ وأثرياء
 كرسوها لصالح سكان هذه المدينة الكبيرة وراحتهم
 وقد لا تكون هناك مدينة في أوروبا تضم هذا العدد من الأسبلة ، ونلاحظ في هذه الأبنية أعمدة الرخام والنقوش الرائعة
 ، وكذلك حليات من الحجر والبرونز ، ومنها يحصل الناس في جميع الفصول ومجاناً علي احتياجاتهم من الماء الذي يحمل
 إليها بمشقة بالغة من الفرع الأقرب من النيل ، حيث تصادفنا في الشوارع الجمال المخصصة لهذه الخدمة بدون انقطاع ،
 وفضلاً عن الأحواض التي يغترف منها الماء بوفرة يوجد في خارج هذه الأبنية سبيل مصاص يترشف المارة منه الماء
 لتخفيف ظمئهم ،
 أما الأعمدة التي تزدان بها واجهات هذه الأسبلة فمن المؤلف أن تكون قطعاً من الرخام الأبيض نفذت في إيطاليا ،
 وهي ملساء أحياناً ، وقد تكون حلزونية الشكل أحياناً ، أو ذات شكل مضلع أحياناً أخرى ، وكثيراً ما يجمع بين هذه الأشكال
 ، مع حليات من البرونز الذهبي اللون ، كما أن نوافذ السبيل نفسها مزودة بقضبان من البرونز مشغولة بمهارة ، وعلي
 الجدران نقوش محفورة تخلد اسم صاحب السبيل ،
 والأسبلة عبارة عن ثلاثة طوابق ، أولها الموجود تحت سطح الأرض ، وهو عبارة عن خزان واسع تصب فيه قرب المياه
 التي تحملها الجمال ، أما الطابق العلوي فيرفعه عدد من الدعامات أو الأعمدة ، وهكذا تضم هذه الأبنية عدداً ضخماً من
 الأعمدة الجرانيتية والحجرية جمعت من المباني القديمة ،
 ولست أشك في أننا لو قمنا بفحصها لوجدنا من بينها قطعاً قديمة بالغة الأهمية ، وعدد هذه المنشآت النافعة كبير وهو
 يبرهن علي أن روح الإحسان في الشرق أكثر انتشاراً من تصورنا المعتاد ، وسيكون تعداد هذه الأسبلة إطالة مفرطة ،
 وسأقتصر علي ذكر أهمها وأكثرها فخامة فيما يتصل بالعمارة ، - - - - -
 ويبلغ العدد الإجمالي للأسبلة ، أو تلك التي قمت بزيارتها علي الأقل ، مائتين وخمسة وأربعين سبيلاً ، تتميز ببنائها
 الرائع ، وغالباً ما يعلو السبيل طابق يضم مدرسة مجانية (كتاب) أسسها رجل الإحسان نفسه الذي أنشأ السبيل ، وتحمل
 اسمه أيضاً ،

١٨٥. حكام مصر من أسرة محمد علي :

- ١ - والي مصر (محمد علي) باشا فترة الحكم حوالي ٤٣ سنة من ١٨٠٥/٥/١٧ إلى ١٨٤٨/٩/١ توفي في ١٨٤٩/٨/٢
- ٢ - والي مصر (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) فترة الحكم حوالي شهرين من ١٨٤٨/٩/٢ إلى ١٨٤٨/١١/١٠ توفي في ١٨٤٨/١١/١٠
- ٣ - والي مصر (عباس حلمي) الأول ابن (أحمد طوسون) باشا ابن (محمد علي) فترة الحكم حوالي ٦ سنوات من ١٨٤٨/١١/١٠ إلى ١٨٥٤/٧/١٣ اغتيل في يوليو ١٨٥٤ توفي والده أحمد طوسون باشا في حياة محمد علي
- ٤ - والي مصر (محمد سعيد) باشا ابن (محمد علي) كان أصغر من عباس الأول ابن اخيه وحكم مصر حوالي ٨.٥ سنة من ١٨٥٤/٧/١٤ إلى ١٨٦٣/١/١٨ توفي في يناير ١٨٦٣
- ٥ - والي ثم خديوي مصر الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ١٥.٦ سنة من ١٨٦٣/١/١٩ إلى أن تم عزله سنة ١٨٧٩/٦/٢٦ توفي سنة ١٨٩٥ بالآستانة ودفن بالقاهرة وفي عهده تم افتتاح قناة السويس
- ٦ - خديوي مصر الخديوي (محمد توفيق) ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ١٠.٥ سنة من ١٨٧٩/٦/٢٦ إلى ١٨٩٢/١/٧ توفي سنة ١٨٩٢ وفي عهده قامت الثورة العربية واحتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢
- ٧ - خديوي مصر الخديوي (عباس حلمي) الثاني ابن الخديوي (محمد توفيق) ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ٢٢ سنة من ١٨٩٢/١/٨ إلى ١٩١٤/٩/١٩ توفي سنة ١٩٤٤ عزله الإنجليز مع بداية الحرب العالمية الأولى
- ٨ - سلطان مصر السلطان (حسين كامل) ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ٣ سنوات من ١٩١٤/١٢/١٩ إلى ١٩١٧/١٠/٩ أعلنه الإنجليز سلطاناً لتستقل مصر رسمياً عن الدولة العثمانية تماماً وفرضوا الحماية علي مصر وتوفي سنة ١٩١٧

٩ - سلطان ثم ملك مصر الملك (فؤاد) الأول ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ١٩ سنة من ١٩١٧/١٠/٩ إلى ١٩٣٦/٤/٢٨ قامت في عهده ثورة ١٩١٩ وفي عهده تم رفع الحماية الإنجليزية عن مصر وتوفي سنة ١٩٣٦

١٠ - ملك مصر الملك (فاروق) الأول ابن الملك (فؤاد) الأول ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر حوالي ١٦ سنة من ١٩٣٦/٤/٢٨ إلى ١٩٥٢/٧/٢٦ تنازل عن العرش لابنه تحت ضغط ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وتوفي في إيطاليا سنة ١٩٦٥ ودفن في مصر بمسجد الرفاعي ١٩٣٦

١١ - ملك مصر تحت الوصاية الملك (أحمد فؤاد) الثاني ابن الملك (فاروق) الأول ابن الملك (فؤاد) الأول ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) حكم مصر تحت والوصاية سنة واحدة تقريباً من ١٩٥٢/٧/٢٦ إلى ١٩٥٣/٦/١٨ تم إعلان الجمهورية يوم ١٨/٦/١٩٥٣ وكان الملك طفلاً صغيراً تحت الوصاية

١٨٦. عندما تولي محمد علي باشا حكم مصر

خمس سنوات تقريباً (١٨٠١-١٨٠٥ م) هي الفترة بين جلاء الحملة الفرنسية وبين تولي محمد علي باشا حكم مصر وكانت أحوال مصر خلال هذه السنوات الخمسة في غاية الاضطراب فقد تصارعت عدة قوي علي الحكم والطريف أن محمد علي شخصياً كان وراء هذه الاضطرابات والعقل المدبر لها أو علي الأقل لمعظمها فكان يستخدم جميع الوسائل المتاحة من قوة ودهاء ليضمن عدم سيطرة أحد الفرق المتصارعة وعدم استقرار الأمور لأي فريق منهم في مصر كما كان يتقرب من الزعامة الشعبية ويبرهن عليها فالشعب هو القوة الباقية التي يمكن أن تمنحه حكم مصر وسط كل هذه الصراعات وكانت الحملة الفرنسية قد أشعلت روح الجهاد في الشعب المصري وتسببت في إفاقة من سباته العميق ربما دون أن تقصد ولكن من هو محمد علي وما هي الأساليب التي استخدمها ليصل إلي حكم مصر وما الذي دار خلال هذه السنوات الخمسة ؟

ولد محمد علي سنة ١٧٦٩ م ١ ونشأ بمدينة قولة من ثغور مقدونيا وكان منذ صغره يبدو عليه النبوغ والجرأة واقتحام المخاطر وروح المغامرة منذ التحق بالجيش وكان يميل إلي حل المواقف والمشاكل الصعبة بطرق غير تقليدية تعتمد علي الذكاء الحاد وسرعة البديهة وانتهاز الفرص المناسبة بغض النظر عن أي اعتبارات أخرى ، ومارس محمد علي لفترة تجارة الدخان مما جعله يكتسب خبرة كبيرة في المسائل التجارية والاقتصادية وكان لا يعرف القراءة والكتابة

ثم ترك محمد علي تجارة الدخان وعاد مرة أخرى إلي الحياة العسكرية وعندما قام السلطان العثماني بتجميع جيش كبير لقتال الحملة الفرنسية في مصر طلب من كل حاكم ولاية أن يرسل قوة لتتضم إلي هذا الجيش (صدر الأمر إلي متصرف قولة بتقديم ما لديه من الجنود فألف كتيبة من ثلثمائة جندي انضم محمد علي في سلكها) ٢ ووصلت هذه القوة مع مثيلاتها تحت قيادة حسين قبطان باشا إلي أبي قير في شهر مارس سنة ١٨٠١ م علي متن السفن العثمانية ومنذ ذلك التاريخ شهد محمد علي كل الأحداث وحتى جلاء الحملة الفرنسية وكان محمد علي من ذلك الطراز من القادة الذين عرفوا إمكانيات مصر جيداً وعلي حد تعبير الأستاذ جمال بدوي عنهم (وضعوا أيديهم علي مفتاح شخصيتها فباحت لهم بسررها وجعلت منهم حكماً يلهج بذكرهم التاريخ) ٣

وعندما تقرأ عن الأحداث التي مرت بها مصر خلال السنوات الخمسة التي أعقبت جلاء الفرنسيين عن مصر تشعر أن محمد علي كان يلعب بالنار في جرأة وشجاعة يحسد عليها ، وكان الرجل الثاني في القوة الألبانية الموجودة بمصر ضمن قوات الجيش العثماني ،

وقد قام السلطان العثماني بتعيين عدة ولاة علي مصر خلال هذه الفترة واحداً تلو الآخر ولكن لم يصمد أحد منهم وسط الظروف التي كانت تحيط به ، وكان أول والي بعد جلاء الحملة الفرنسية مباشرة هو خسرو باشا ثم أحمد باشا ثم علي باشا الجزائري أما آخر والي فكان اسمه خورشيد باشا وكل هؤلاء لم يتمكنوا من فرض سيطرتهم علي مصر وقد يكون السبب في ذلك هو محمد علي نفسه

فيقول عن هذه الفترة المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي (كان محمد علي هو الرأس المدبر للحملة علي خسرو باشا ثم علي أحمد باشا ثم علي علي باشا الجزائري ، ولكنه ظل بعيداً عن الميدان وترك عثمان بك البرديسي " من زعماء المماليك " ياتمر بعلي باشا الجزائري ويتولي أمر قتله ليحتمل تبعه هذا العصيان الخطير في نظر الباب العالي إذا ما جاء وقت الحساب ، والواقع أن مقتل الجزائري كان فيه القضاء علي مظهر السلطة العثمانية في مصر وبذلك تخلص محمد علي من إحدي القوتين اللتين كان يعمل علي سحقهما ولم يبق أمامه إلا قوة المماليك فبدأ العمل علي التخلص منها

^١ تاريخ الحركة القومية ج ٢ (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٢٥٦ [وهذه السنة ولد بها نابليون أيضاً]

^٢ تاريخ الحركة القومية ج ٢ (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٢٥٨

^٣ محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٣٣

وتمهيداً لهذه الغاية ترك لزعماء المماليك السلطة ظاهراً حتي يحملهم تبعه الحكم ومساوئه ويجعلهم هدفاً لسخط الشعب (١) كانت الفرصة سانحة ليحقق محمد علي آماله ويتولي سلطة الحكم في مصر فالمماليك قد دالت دولتهم والقوة التركية قد تلاشت من البلاد والوالي التركي في القلعة سجين وليس ثمة قوة حربية سوي الألبانيين " الأرناؤوط " الذين تحت قيادته ولكن محمد علي كان طويل الأناة بعيد النظر فرأى ألا يصل إلي سلطة الحكم بقوة الجند وآثر أن ينتظر حتي يصل إلي تلك الغاية بإرادة الشعب وبذلك يبرهن أنه لم يناوئ المماليك لمطامع شخصية بل لمحض الصالح العام فيزداد الشعب تعلقاً به (٢)

(وصل خورشيد باشا إلي بولاق في أواخر مارس سنة ١٨٠٤ وهو خامس من تقلد ولاية مصر - - فأولهم خسرو باشا وقد خلع ، ثم طاهر باشا وقد قتل ثم أحمد باشا وقد طرد ثم علي باشا الجزائري وقد قتل ، ثم خورشيد باشا وفي عهده قامت الثورة) (٣) ،

(وأسقط في أيدي المماليك ورأوا أنفسهم حيال قوتين ثورة الأهالي من جهة وجنود محمد علي من جهة أخرى فلم يجدوا سبيلاً للنجاة سوي الفرار من القاهرة) (٤)

(وكان خورشيد باشا سئ الرأي فاسد التدبير ميالاً إلي الظلم غير مكترث بميول الشعب معتمداً علي القوة الغشوم - - تعددت مظالمه فتدخل العلماء غير مرة لرفعها عن الناس - ففي عهده قوي سلطان العلماء وبلغ نفوذهم أقصى مداه حتي أثاروا الشعب واقتلعوا بقوته الوالي عن كرسي ولايته وأجلسوا محمد علي مكانه ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل) (٥) وهكذا ثار الشعب علي الوالي خورشيد باشا بالقوة وكان زعيم الثورة وقاندها هو السيد عمر مكرم الذي أعطي السلطة لمحمد علي بعد أن أخذ منه العهود والمواثيق أن يعدل بين الناس وأن يحكم البلاد بما يرضي الله ، وأرسل الشعب المصري إلي السلطان العثماني يطلب منه تعيين محمد علي والياً علي مصر واستجاب السلطان لرغبة الشعب وأرسل فرماناً بتولية محمد علي حكم مصر ، ولم تتوقف الحرب بين الشعب والوالي إلا عند وصول هذا فرمان من الأستانة يوم ٩ يوليو سنة ١٨٠٥ م (٦) ونزل خورشيد باشا من القلعة وهو يعتبر آخر والي تم تعيينه بإرادة السلطان العثماني قبل تولي محمد علي ، أما محمد علي فكان تعيينه بإرادة الشعب وقبل كل هذا وبعده إرادة المولي عز وجل

^١ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٨٥

^٢ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٣

^٣ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٤

^٤ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٣

^٥ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٢٩٦

^٦ تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج ٢ صفحة ٣١٤

١٨٧. الزعامة الشعبية صدام في رأس الباشا فكيف تخلص منها



يقول عبد الرحمن الرافعي : (من الراجح أن محمد علي باشا كان يميل في ذات نفسه إلى التخلص من الزعامة الشعبية التي أجلسه علي قمة المجد ، لأن هذه الزعامة كانت في هذه السنوات الأولى من حكمه بمثابة سلطة ذات شأن تستقصي عليه وتراقب أعماله مراقبة مستمرة وكانت ملجأ الشاكين ممن ينالهم الظلم - - ولئن كان محمد علي مديناً للزعامة الشعبية بولاية الحكم وثبتيته وتذليل العقبات التي اعترضته وإحباط الدسائس والمؤامرات التي تدبر له فإن السلطة في ذاتها من شأنها أن تطغي صاحبها وتنزع به إلى الاستبداد بالأمر ، فمحمد علي بعد أن استقر في الحكم وثبتت أقدامه طمحت نفسه إلى الاستبداد بالأمر وبدأ يشعر بالغضاضة من تدخل العلماء وأهل الرأي في شئون الحكم وسعيهم في دفع المظالم عن الناس) ١ ، ويقول الجبرتي : (ولما انقضى هذا الأمر واستقر الباشا وأطمأن خاطره وخلص له الإقليم المصري - - فأول ما بدأ به أنه أبطل مسموح المشايخ والفقهاء ومعافي البلاد التي التزموا بها - - واغثروا بذلك واعتقدوا دوامه وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها بدون القيمة واقتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسه العلم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء - - واتخذوا الخدم والأعوان - - وانقلب الوضع فيهم بضده وصار دينهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام - - وأوقع مع ذلك زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحادث علي الرئاسة) ٢ ، ويؤكد الرافعي أن السيد عمر مكرم لم يخضع لمغريات محمد علي باشا (فلم تلن قناته للمنافع والمغريات ولم تزعه الكوارث والتهديدات وقد ظل يمثل النزاهة والاستقامة حتي آخر نسمة من حياته وأيده في مسلكه بعض الشيوخ ولكن أغلبيتهم قد انصرف إلي أسباب المنافع والاستكثار من الأموال والضياع والدور والقصور) ٣ ، أما المؤرخ الكبير جمال بدوي فكتب يقول عن هذا الموقف ما يلي (فبعد تولية محمد علي وانفراده بالحكم ونكوصه عن العهود والمواثيق التي أقسم علي احترامها كان عليه أن يزيح عمر مكرم ثم ينفيه إلي دمياط وطنطا تنفيذاً لتعليمات مكيفيللي التي تنصح الأمير بأن يطيح بكل الذين ساعدوه علي الوصول إلي الحكم ووجد محمد علي تشجيعاً وتأييداً - بل تحريضاً - من مشايخ الأزهر للخلاص من عمر مكرم مقابل انعامات رخيصة أغدقها عليهم ثم استردها منهم بعد أن استخدمهم في التآمر علي زعيمهم وعندما ذهبوا إليه محتجين علي إلغاء امتيازاتهم لم يجدوا منه سوي أقذع العبارات وهي نتيجة طبيعية لمن يبيع نفسه ثم يعجز عن استردادها مرة أخرى بعد أن تكون النفس قد تلوثت وفسدت) ٤

نقلاً عن كتاب عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٨١ ، وكتاب عجائب الآثار (الجبرتي) ج ٧ صفحة ١١٣ ، ١١٤ ، وكتاب محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ١٣ ، ١٤

١ عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٨١

٢ عجائب الآثار (الجبرتي) ج ٧ صفحة ١١٣ ، ١١٤

٣ عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٨٣

٤ محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ١٣ ، ١٤

١٨٨. (مذبحة القلعة)

بعد أن كسر محمد علي شوكة المشايخ وقام بنفي كبيرهم السيد عمر مكرم خارج القاهرة بعيداً عن الأحداث قرر أن يتخلص من الأمراء والقادة المماليك الذين أعطاهم الأمان وجعلهم يتركون ساحات القتال وسكنوا بالقاهرة وعاشوا حياة كريمة غير متطلعين للحكم فقام بدعوتهم لحضور احتفال ضخم وفخم بالقلعة لوداع ابنه أحمد طوسون باشا الذي كان متوجهاً علي رأس جيش لمهمة خارج البلاد وكان يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١م (وقبل ابتداء الحفلة دخل البكوات المماليك علي محمد علي باشا في قاعة الاستقبال الكبرى فتلقاهم بالبشر والحفاوة وقدمت لهم القهوة وشكرهم الباشا علي إجابته دعوته وألمع إلي ما ينال ابنه من التكريم إذا ما ساروا معه في موكبه فأجابوه بالشكر - -

- وعندئذ نهض المماليك وساروا إلي حيث يأخذون مكانهم في الموكب الفخم (٢) وكان الموكب يتواجد به مجموعات من الجنود تسير أمام وخلف مجموعة المماليك ، وكان يمر بمنطقة شديدة الضيق بالقلعة وفي نهايتها باب خرج منه مقدمة الموكب ثم تم إغلاقه علي المماليك والجنود وانهال عليهم ضرب النار من أعلي الأماكن المجاورة لهذا الممر الضيق (لم يستطع المماليك دفاعاً عن أنفسهم ولم يكن لديهم الوقت ولا القدرة علي الحركة أو الرجوع القهقري أو النزول عن جيادهم لضيق المكان الذي حصروا فيه ولأنهم جاءوا للاحتفال من غير بنادق ولا رصاص ولم يكونوا يحملون سوي سيوفهم وهيات أن تعمل السيوف في ذلك الموقف شيئاً فانصب عليهم الرصاص وحصدهم حصداً وجاءهم الموت من كل مكان (٣) ، (وهكذا دخل القلعة في صبيحة ذلك اليوم أربعمائة وسبعون من المماليك وأتباعهم قتلوا جميعاً ولم ينج منهم إلا واحد اسمه أمين بك فإنه كان في مؤخرة الصفوف (٤) وقفز بجواده من فوق سور القلعة وتلقي الجواد الصدمة ونجا هو وفر متنكراً إلي أن وصل سوريا فيما بعد ، وكانت المذبحة مؤامرة محكمة من محمد علي استطاع أن يقتل فيها من لم يستطع أن يقتله في ساحات القتال حيث الأماكن المخصصة للقتل الشريف ، أما ما فعله الباشا فهو غدر بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني وقد علق المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي علي هذه المذبحة فكتب الآتي :

(تلك هي الواقعة الشهيرة بمذبحة القلعة ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن المماليك - - ولكن مهما بلغت سيئاتهم فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الإنسانية ولو أن محمد علي باشا استمر في محاربتهم وجهاً لوجه حتي تخلص منهم في ميادين القتال لكان ذلك خيراً له ولمسمعته (٥) ، ويقول المسيو جومار وهو الذي جعله محمد علي باشا مديراً لأول بعثة مدرسية مصرية في فرنسا (لو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد علي هدفاً لأحكام التاريخ القاسية - - ويضيف الرافعي فيقول : ومن جهة أخرى فإن الفتك بالمماليك علي هذه الصورة الرهيبة قد كان له أثر عميق في حالة الشعب النفسية لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب في قلوب الناس وكان من نتائجها أن استولت الرهبة علي القلوب فلم يعد ممكناً إلي زمن طويل أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلي نفوس الناس (٦)

من كتاب (عصر محمد علي) تأليف عبد الرحمن الرافعي - مقتطفات بتصرف من صفحات أرقام ١٠٨ وحتى ١١٤

^١ عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١٠٨

^٢ عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١٠٩

^٣ عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١٠

^٤ عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١١

^٥ عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١٤

^٦ عصر محمد علي (الرافعي) صفحة ١١٤ صفحة ١١٥

١٨٩ . محمد علي والجبرتي :

يقول المؤرخ الكبير جمال بدوي :

(لم يكن عبد الرحمن الجبرتي مؤرخاً حكومياً يكتب ما يرضي الحاكم ولكنه كان مؤرخاً شعبياً من الطراز الأول يسجل ما يراه في أمانة ودقة دون ابتغاء مرضاة السلطة أو خوفاً من سخطها ومثل هذا المسلك الأخلاقي لم يكن مما يعجب الحكام لأن الحاكم يريد من المؤرخين المعاصرين له أن يحرقوا له البخور وينتحلوا البطولات ويزيفوا الحقائق فيجعلوا من مخازيه مجداً ومن سوءاته عزاً فإن لم يفعلوا سخط عليهم وعصف بهم وهذا ما فعله محمد علي الكبير عندما نمي إلي علمه ما كتبه الجبرتي عنه في صفحات ذاعت وشاعت وتداولتها أيدي الناس فلم يرحم شيخوخته وأوعز إلي أعوانه فاغتالوا ابنه خليل أثناء سيره في شارع شبرا وارتاع الرجل وهو يتلقي جثمان ابنه الصريع وفهم بذكائه دوافع الجريمة فامتألت نفسه هماً وكمداً وظل البقية الباقية من أيامه يبكي ابنه حتي أبيضت عيناه من الحزن فكف بصره كما كتبت يده عن الكتابة إلي أن وافاه الأجل فغادر الدنيا حزينا مكلوماً عام ١٨٢٥ م) ١ ،

(لقد ساء الجبرتي أن يري محمد علي وقد تملكته نزعة الشره إلي الأموال فيصادرها دون سند من الشريعة ثم هو لا يتورع عن جمع الأموال بأخس الوسائل حتي لو تطلب الأمر شراء المحاصيل من الفلاحين بأسعار زهيدة وفرضها علي الناس بأسعار باهظة) ٢ ،

، والطريف أن الجبرتي لم يكن ضد محمد علي علي طول الخط بل إنه كان يذكر أعماله النشيطة ويصفه بالهمة العالية في المشاريع الكبرى التي كان يقوم بتأسيسها فمثلاً ذكر الآتي عن أحد مشاريع محمد علي :

(وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان فلو وفقه الله لشئ من العدالة علي ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه) ٣

من كتاب (مصر من نافذة التاريخ) تأليف جمال بدوي صفحة ٣٩-٤٠ ، وكتاب عجائب الآثار للجبرتي صفحة ٤١٠

^١ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٣٩

^٢ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٤٠

^٣ عجائب الآثار (الجبرتي) صفحة ٤١٠

١٩٠. محمد علي باشا وتأسيس مصر الحديثة

(- -) ليس في منشآت محمد علي باشا ما نال عنايته مثل الجيش المصري ، ويكفيك دليلاً علي مبلغ تلك العناية أن منشآته الأخرى متفرعة عنه والفكرة في تأسيسها أو استحداثها إنما هي استكمال حاجات الجيش فهو الأصل وهي التبع فتقرير محمد علي باشا إنشاء مدرسة الطب مثلاً يرجع في الأصل إلي تخريج الأطباء الذين يحتاج إليهم الجيش وكذلك دور الصناعة ومصانع الغزل والنسيج كان غرضه الأول منها توفير حاجات الجيش والجنود من السلاح والذخيرة (١) ، ومن هنا يتضح أن المدارس والبعثات العلمية إلي الخارج وبناء المصانع والاهتمام بالنواحي الاقتصادية بشكل عام كان بسبب الجيش فهو الدافع وراء معظم هذه الإنجازات إن لم يكن كلها

(وقد ساعد تكوين طبقة تعلمت تعليماً عالياً قبل إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية أن الأزهر كفل إمداد المدارس العالية والبعثات بالشبان المتعلمين الذين حازوا من الثقافة قسطاً يؤهلهم لتفهم دروس المدارس العالية في مصر أو في أوروبا فكان الأزهر خير عضد للتعليم العالي) (٢)

وكانت أول مدرسة عالية أنشئت في عصر محمد علي هي مدرسة الهندسة بالقلعة سنة ١٨١٦م ثم توالى بعد ذلك المدارس علي كافة مستوياتها وانتشرت في أنحاء البلاد (والظاهر أن مدرسة القلعة لم تف علي مر السنين بحاجات البلاد إلي المهندسين أو أن برنامجها لم يكن وافياً بالمرام ، فأنشأ محمد علي في سنة ١٨٣٤م مدرسة أخرى للمهندسخانة في بولاق وعين أرتين أفندي أحد خريجي البعثات العلمية وكيلاً لها - - وفي سنة ١٨٣٨م أسندت نظارتها إلي المسيو لامبير بك " الفرنسي " لغاية سنة ١٨٤٩م - - ،

وأسس محمد علي مدرسة الطب سنة ١٨٢٧م إجابة لاقتراح الدكتور كلوت بك " الفرنسي " وكان مقرها في أول عهدها بأبي زعبل لوجود المستشفى العسكري بها من قبل) (٣)

كما تم إنشاء مدرسة للصيدلة والولادة ومدرسة الألسن هذا بالإضافة إلي المدارس الحربية والبحرية (لما تقدمت المدارس العالية والخصوصية التي أنشأها محمد علي واتسع نطاقها رأي أن ينشئ لها إدارة خاصة سميت " ديوان المدارس " سنة ١٨٣٧م وكان موجوداً من قبل باسم مجلس شوري المدارس وقد ساعد علي تنظيم هذه الإدارة تخرج نوابغ أعضاء البعثات وعودتهم إلي مصر) (٤)

واهتم محمد علي باشا بالصناعة الحربية فأسس مصانع للأسلحة والمدافع بالقلعة ومخازن بارود وقتابل ومصنع بنادق بالحوض المرصود وأقام معمل للبارود في المقياس بطرق جزيرة الروضة وكذلك في أماكن أخرى عديدة ،

كما اهتم محمد علي بملابس الجند وتصنيعها ومهمات الجيش بشكل عام

وجدير بالذكر أن محمد علي أنشأ الأسطول المصري واهتم بصناعة السفن الحربية في ترسانة بولاق ودار الصناعة الكبرى بالإسكندرية كما اهتم اهتماماً بالغاً بإقامة القلاع والاستحكامات للدفاع عن مصر (فأصلح قلعة صلاح الدين بالقاهرة وشحنها بالمدافع وبنى علي مقربة منها قلعة أخرى علي ذروة جبل المقطم تعرف بقلعة محمد علي وتشرف علي الأولي وأصلح قلاع الإسكندرية وأنشأ غيرها واستدعي من فرنسا لهذا الغرض مهندساً حربياً في فن الاستحكامات يسمى المسيو " جليس " وأنعم عليه برتبة البكوية ، وجعله باشمهندس الاستحكامات) (٥)

^١ عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٣٢١

^٢ عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٣٩٧

^٣ عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤٠٠

^٤ عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤٠٤

^٥ المرجع السابق صفحة ٣٥٠

ومن إنجازات محمد علي أيضاً ترعة المحمودية " نسبة للسلطان محمود " وغيرها من الترع في شمال وجنوب مصر كما أنشأ الجسور العديدة والقناطر كما أنه قام بتحويل نظام الري من ري بالأحواض إلي ري دائم بعد أن أنشأ القناطر الخيرية (كانت أراضي الوجه البحري - - تروي بطريق الحياض كري الوجه القبلي فلا يزرع فيها إلا الشتوي ولا يزرع الصيفي إلا علي شواطئ النيل أو الترع القليلة المشتقة منه وقد أخذ محمد علي في تغيير هذا النظام تدريجياً إذ أخذ في شق الترع وتطهيرها وإقامة الجسور علي شاطئ النيل ليضمن توفير مياه الري في معظم السنة وصارت الترع تروي الأراضي في غير أوقات الفيضان جهد المستطاع ولا سيما بعد إقامة القناطر عليها - -

وقد توج محمد علي أعمال الري التي أقامها بإنشاء القناطر الخيرية واسمها يغني عن التعريف فإنها قوام الري الصيفي في الوجه البحري وهي وإن كانت آخر أعماله في الري إلا أنها أعظمها نفعاً وأجلها شأنًا وأبقاها علي الدهر أثراً (١) كما قام محمد علي بتوسيع نطاق الزراعة وغرس الأشجار واهتم بتحسين زراعة القطن وأدخل أنواعاً جديدة تصلح للنسيج واستقدم خبير فرنسي لتنظيم مصانع النسيج وكان اسمه المسيو " جومل " أما عن صناعة النسيج فحدث ولا حرج فقد أنشأ العديد من المصانع مثل مصنع الخرنفش ومصنع أمشاط الغزل بحي السيدة زينب ومصنع الجوخ ببولاق ومصنع الحرير ومصنع الحبال ونسيج الصوف والعديد والعديد من المصانع في عدة مدن وقرى مصرية

وبالإضافة إلي مصانع النسيج أنشأ محمد علي مصانع أخرى مثل معمل سبك الحديد في بولاق ومصانع ألواح النحاس ومعامل السكر في الوجه القبلي ومصانع النيلة وغيرها ، وكان يشرف علي معظم هذه المصانع خبراء أجانب ،

كما اهتم محمد علي بتشديد المباني العامة كالقصور والمصانع ودور الحكومة وما إليها (فمن ذلك أنشأ بالقلعة قصره الشهير " قصر الجوهرة " الذي كان مقر الحكم في عهده وقصر شبرا وسراي رأس التين بالإسكندرية) (٢) وبني جامع كبير بالقلعة الذي تم دفنه فيه بعد ذلك

(وأنشأ مدينة الزقازيق لمناسبة بناء قناطر بحر موبس وعني بشئون البلاد الصحية - - وأنشأ المستشفيات والمحاجر الصحية علي النظام الأوروبي) (٣)

وجدير بالذكر أن محمد علي أنشأ مطبعة كبيرة في بولاق وكانت تطبع بها الجريدة الرسمية " الوقائع المصرية " وكانت تصدر بالعربية والتركية ثم بالعربية فقط كما كانت هناك مطابع أخرى صغيرة في أماكن متفرقة وهكذا يتضح أن محمد علي قد قام بإنشاء العديد والعديد من المشاريع الضخمة والتي تتم عن مدي مثابرته واجتهاده وهمته العالية كما كان يعتمد علي الخبراء الأجانب وخاصة الفرنسيين في معظم هذه المشاريع كما ساعده في ذلك خريجي البعثات من المصريين نقلاً عن كتاب (عصر محمد علي) لعبد الرحمن الرافعي

^١ المرجع السابق صفحة ٣٩٤

^٢ المرجع السابق صفحة ٥١٠ ، ٥١١

^٣ المرجع السابق صفحة ٥١١

١٩١. أهم أعمال محمد علي باشا

الأديب والمؤرخ إلياس الايوبي (١٨٧٤-١٩٢٧) يصف بإيجاز بليغ فكتب ما ملخصه :

أما ما كان من نقله مصر إلي بيئة غير البيئة التي وجدها فيها فقد عمل ذلك :

أولاً بأن ألقع عن طريقة الحكم التي سبقت عهده فاحتاط بديوان مؤلف من نخبة الرجال المحنكين دعاه الديوان الخديوي ثانياً أنشأ من أبناء البلد جيشاً زاهراً مدرباً علي الطريقة الغربية ، بالرغم من صعاب كانت الواحدة منها كافية لتفل الحديد وتلك الجبال - - وأنشأ بجانب هذا الجيش عمارة بحرية فخمة جولت الراية المصرية مهابة معظمة في مياه البحر المتوسط ومياه البحر الأحمر وأنشأها من العدم وبالرغم من من عدم وجود مادة واحدة لديه من المواد اللازمة لبنائها ،

ثالثاً بأن جدد بجدة المعارف بتغييره برامج التعليم وطرقه ، ففتح محمد علي المدارس تترى ، ابتدائية وثانوية وعالية ، فالمدارس الابتدائية كانت سبعة وأربعون ، والمدارس الثانوية والعالية والخصوصية كانت أربعاً وعشرين ، منها مدرسة القصر العيني ومدرسة اللغات ومدرسة المعادن ومدرسة الطب البيطري ومدرسة الطب والتوليد ومدرسة الموسيقى إلخ

ولم يكتف بذلك بل أرسل البعثات تلو البعثات إلي المعاهد الأوروبية

وإضافة إلي المدارس إقامة المعامل والمصانع في طول البلاد وعرضها ، لتتمكن البلاد من الاستغناء جل الاستطاعة عن الواردات الأجنبية

رابعاً بأن غطي وجه القطر بالأشغال والأعمال المفيدة فمن سد أبي قير إلي سد الترعة الفرعونية إلي سد فتحة بحيرة المنزلة إلي تقوية جسر قشيش وهو الذي كان يصون مديرية الجيزة من الغرق إلي بناء جسر لسد قطع في البحر اليوسفي ، إلي تعزيز قنطرة اللاهون ،

إلي حفر الترعة العديدة وأهمها المحمودية والخطاطبة ومسد الخضراء والنعناعية والسرساوية والباجورية والبوهية والمنصورية والشرقاوية إلي إقامة قناطر حاجزة عليها ومسهلة للري ، إلي بناء الترسانة وحوض تصليح السفن ، وتشديد قناطر بحر شبين ، والقناطر الخيرية الكبرى وهي معجزة أعماله ، إلي ابتناء الحصون والقلاع علي السواحل المصرية وابتناء السرايات العديدة ، وأهمها سراي رأس التين ، وسراي شبرا ، وسراي قصر النيل ، إلي الشروع في تحويل الأزبكية إلي منتزه عمومي إلي غير ذلك من الأعمال العظيمة التي غيرت وجه القطر تغييراً محسوساً ،

خامساً بأن هدم الحواجز التي كانت العصور السالفة قد أقامتها بين تعامل الغرب والشرق ومكن العالمين من الاختلاط معاً لا بالإتجار الواسع فحسب بل بالاحتكاك اليومي ، فحبب إلي الغربيين المجئ إلي القطر واستغلال رؤوس أموالهم في أرضه ، وإنشاء مدارس لأولاهم علي سطحه ، وفتح أمام قومه أبواب السفر إلي الغرب ، والتعرف بحاله والاقتباس عنه ،

سادساً بأن سن قانوناً للبلد كل مواده متشربه بالرغبة في فتح عصر جديد للأمم ،

مقتطفات مختصرة جداً نقلاً عن كتاب محمد علي سيرته وأعماله وآثاره بقلم إلياس الايوبي

١٩٢. عندما لم تعجب محمد علي باشا درجات الطلبة المصريين المبعوثين في

أوروبا :

(وقد بلغ عدد الطلبة جميعاً الذين أوفدهم محمد علي إلي أوروبا من سنة ١٨١٣م إلي سنة ١٨٤٧م ٣١٩ تلميذاً منهم ٢٨ في الرسائل الثلاث الأولى ابتداء من سنة ١٨١٣م إلي سنة ١٨٢٥م و ٢٩١ في البعثات الكبرى ابتداء من سنة ١٨٢٦ فيكون مجموعهم ٣١٩ تلميذاً وهو عدد عظيم إذا قيس بدرجة الثقافة التي بلغتها مصر في ذلك العصر وعظيم في نتائجه لأن هذه البعثات كان لها أوفر قسط في نهضة مصر الإجتماعية والعلمية والاقتصادية والحربية والسياسية)^١ وكان محمد علي يتابع بنفسه أخبار المبعوثين في الخارج بل ويرسل إليهم الرسائل التي تحفزهم علي اكتساب العلوم ، وإليك مقدمة أحد هذه الرسائل

(قدوة الأمثال الكرام الأفندية المقيمين في باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم ننهي إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية والجدول المكتوب فيها مدة تحصيلكم وكانت هذه الجداول المشتملة علي شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه في هذه المدة - -)^٢

من كتاب (عصر محمد علي) تأليف (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤٠٩ ، ٤١٠

^١ عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤٠٩

^٢ عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤١٠

١٩٣. محمد علي باشا والمهندسخانة

عن هذا الموضوع كتب المؤرخ الكبير جمال بدوي ما يلي :

كان أول ما فكر فيه محمد علي إنشاء مدرسة الهندسة وهذا يدل كما يقول الرافعي علي الجانب العملي من تفكيره فإنه رأى البلاد في حاجة إلي مهندسين ليقوموا بأعمال العمران فبدأ بإنشاء مدرسة الهندسة عام ١٨١٦م ، ويذكر الجبرتي في سبب تأسيس هذه المدرسة قصة طريفة ، ذلك أن أحد أبناء البلد ، واسمه حسين شلبي عجوة ، اخترع آلة لضرب الأرز وتبييضه ، وقدم نموذجها إلي محمد علي ، فأعجب بها وأنعم علي مخترعها بمكافأة ، وأمره بتركيب مثل هذه الآلة في دمياط ، وأخري في رشيد ، فكان هذا الاختراع باعثاً لتوجيه فكره إلي إنشاء مدرسة للهندسة فأنشأها في القلعة ،

قال الجبرتي :

إن الباشا لما رأى هذه النكتة (والنكتة في لغة الجبرتي تعني الحادثة أو الواقعة) من حسين شلبي ، قال إن في أولاد مصر نجابة ، وقابلية للمعارف ، فأمر ببناء مكتب (مدرسة) بحوش السراية بالقلعة ، ورتب فيها جملة من أولاد البلد ومماليك الباشا ، وجعل معلمها حسن أفندي ، المعروف بالدرويش الموصللي ، يقرر لهم قواعد الحساب والهندسة وعلم المقادير والقياسات ، والارتفاعات ، واستخراج المجهولات مع مشاركة شخص رومي - - يقال له روح الدين أفندي ، بل وأشخاص من الإفرنج ، وأحضر لهم آلات هندسية متنوعة من أشغال الإنجليز ، يأخذون بها الأبعاد والارتفاعات والمساحة ، ورتب لهم شهريرات وكساوي في السنة ، واستمروا علي الاجتماع بهذا المكتب وسموه (مهندسخانة) في كل يوم من الصباح إلي بعد الظهيرة ثم ينزلون إلي بيوتهم ويخرجون في بعض الأيام إلي الخلاء لتعلم مساحات الأراضي بالأقصاب وهو الغرض المقصود للباشا

ولما ضاقت مدرسة القلعة عن الوفاء بحاجة البلاد من المهندسين ، أنشأ في عام ١٨٣٤ مدرسة أخري للمهندسخانة في بولاق ، وعين أرتين أفندي أحد خريجي البعثات العلمية وكيلاً لها ، ثم تولي نظارتها يوسف هاككيان أفندي أحد خريجي البعثات أيضاً - وهو الذي أدخل زراعة اليوسفي إلي مصر ، وإليه ينتسب ، ثم تولاها علي باشا مبارك ، ومن هذه المدرسة تخرج عدد كبير من المهندسين الذين خدموا البلاد خدمات جليلة وشاركوا في بناء القناطر والسدود ، وبقية المنشآت العمرانية التي زخر بها عصر محمد علي

نقلًا عن كتاب - محمد علي وأولاده - بناء مصر الحديثة - للمؤرخ الكبير جمال بدوي - مكتبة الأسرة طبعة سنة

١٩٤ . حفلات نزول السفن الحربية إلى البحر في عهد محمد علي باشا

من كتاب عصر محمد علي للمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافي حيث كتب بصفحة ٣٧٥ وما بعدها ما ملخصه :
وكانت السفن التي يتم إنشاؤها تقام لها حفلات فخمة ابتهاجاً بنزولها إلى البحر كالحفلات التي تقيمها الحكومات الأوروبية في ثغورها البحرية لمناسبة إنشاء البوارج الجديدة ، وكان محمد علي باشا يحضر بنفسه معظم هذه الحفلات تقديراً لها وإعلاء لشأن الأسطول ، قال رفاعة بك رافع في هذا الصدد :

(وكان محمد علي يديم النظر في السفن عند صناعتها ، ويصور الغرض منها ، وكلما شارفت الإتمام ازداد فرحاً وسروراً ، وإذا نزلت سفينة في البحر لم يتمالك نفسه مع ما كان عليه من كمال الهيبة وحفظ ناموس الوقار أن يظهر أمانة السرور ، فلهذا أكملت عنده دونمة ملوكية طبق مرامه ، وطقمها بالمدافع والعساكر ، ونظمها علي نسق نظام العساكر البرية وأنشأ مدرسة بحرية بثغر الإسكندرية ليخرج منها من الضباط ما تحتاج إليه هذه الدونمة ، وترجم العلوم البحرية وصار لها كتب كافية كسائر العلوم الأخرى) وإنا ذاكرون هنا ما جاء بالوقائع المصرية ، في وصف تلك الحفلات ننقله بنصه لنعرف منه تفاصيل الحفلة ، ولنطلع علي نموذج من لغة الجريدة الرسمية في ذلك العصر :

(إن الغليون ذا الهيئة السنية ، المحلي باسم الإسكندرية ، تعريف إنشاء آلاته البهية وعمل أدواته الحربية ، ووصف أبعاده الثلاثية ، قد تقدم ذكره الشائع ، واندراج في سلك السطور والوقائع ، والمراد ذكره الآن قطع حبال تعلقاته من القطر البري ، ليطيّر بأجنحة العنقاء إلي العالم البحري ، وقد وافق هذا غرة شعبان المعظم في الساعة الرابعة من النهار ، حيث تجلت مشاهد الأنوار ، وكان ذلك بحضرة جميع الأمراء والعظماء ، وزمرة الصلحاء والعلماء ، وقناصل الدول المستأمنين ، وقاطبة الأهلين ، مع جملة أولادهم الكبار ، وعيالهم الصغار ، وكانوا لدي ساحة الترسانة الواسعة الأرجاء ، منتشرين كنجوم السماء ، وأما سعادة أفندينا ولي النعم فإنه ركب الفلك بجرأ ، وهلم جرا ، واستصحب بمعيته أحد رجال الدولة العلية ، المأمور بتشريف الديار المصرية ، أعني به مصطفى أفندي نظيف ، حتي وضع لدي موضع الترسانة قدمه الشريف ، وكان الغليون إذ ذاك قد بادر إلي قطع أكثر العلائق ، ووداع الخلائق ، بحضور المهندس الذي هو لكل منقبة حاوي ، الخواجة سريزي الفرنسي ، فتقدم الموما إليه لدي ساحة مكارم ولي النعم ، وأشار إلي أن هذا هو وقت الدعاء من زمرة العلماء ، فتقدموا إلي جهة الغليون الرسي كالطود المتين ، ولدي دعائهم قال الحاضرون آمين ، فتلا حينئذ لسان حال الغليون ، عم يتساءلون ،

ثم نبذ باقي العلائق ، وأنشد بمحضر الخلائق :

لست أخشي عسف الرياح إذا ما بنتُ من ساحل ووسطت بحرا)

١٩٥. من مقدمة كتاب أسرة محمد علي - تأليف سهير حلمي - باختصار

الأمة الحية هي التي يحيا فيها أمواتها ، والأمة الميتة يموت فيها أحيائها وهنا يكمن الفرق بين الشرق والغرب وهو عملية الجمع فهذه الأمم تجمع العمل علي العمل فتكون الحصيصة عملاً ، أما الشرق فلا يعرف غير عمليات الطرح فهو يطرح العمل من العمل فتكون النتيجة صفراً ،

والآن حيث يسود القلق وتزداد الضغوط وتتداخل الأزمات حتي أصبح المجتمع الإنساني يعيش في حاضر دائم ينتشله من الماضي ويحجب عنه المستقبل المبهم شأن جميع الأطفال الذين لا يدركون من الزمان إلا حاضره ، لذلك نحن في أشد الحاجة للنظر في مرآة التاريخ فهموم الحاضر قد يبدها سكوت الماضي ووداعته ولكي نبني عالماً في هذا الاتجاه ينبغي أن نحفر عميقاً لأننا سوف نقوم بإلقاء نظرة سريعة خاطفة علي تلك الأعماق حتي لا نزعج الراقدين خلف أبواب التاريخ الموصدة بأحكام مسبقة كثيراً ما أدانتهم وأجهدت سيرتهم وذلك يتنافي مع أصول القضاء لأنهم لا يملكون الدفاع عن أنفسهم وتبرير أفعالهم فنحن نحاكمهم من قاعدة زمنية مختلفة ونتجاهل الظروف المحيطة بهم التي لا نعلمها أو ما يعرف بالمسكوت عنه في التاريخ والذي يكون في بعض الأحيان هو التاريخ الحقيقي نسبياً

ولا غرابة في ذلك ألم يقل فولتير إن التاريخ ما هو إلا حاصل احتيال الأحياء علي الأموات
وحيث بدأت العمل في هذا البحث المتواضع عن أسرة محمد علي صادفني بعض علامات الاستفهام ، الملحة التي لم أتمكن من تجاوزها فقررت الهبوط إلي الطبقات الأولى لتاريخ مصر الحديث وفكرت في البحث عن أصاًااا
أصوات حكام هذه الأسرة من أجل إضفاء المزيد من الحيوية علي المادة التاريخية فهم يخرجون رؤوسهم من الماضي لكي نسمعهم - - - -

فالمعضلة التي تواجه أي كاتب يتطرق للكتابة عن الشخصيات التاريخية ، أن شبح الكتابة الأولى يظل يطارده بعد أن تكون الشخصية قد وصمت بوشم يدخلها بحيرة التاريخ الراكدة ، وتكون الكتابة عنها بعد ذلك من وجهة نظر مخالفة ، نوعاً من السباحة ضد التيار ، والسباحة ضد التيار ترسو بصاحبها إلي بر الأمان في تعب وإعياء لكنها لا تغير اتجاه التيار ، إلا لمن أراد أن يبذل مجهوداً خاصاً لكي يصل إلي قناعة ذاتية ترضيه ، من هذا المنطلق طالت إقامتي بين الموسوعات والوثائق والدراسات التاريخية لكبار مؤرخينا ، حتي كدت أصاب بداء التاريخ الذي تحدث عنه نيتشه ، - - - -

وقد شهدت مصر تطوراً كبيراً خلال عهدي محمد علي والخديوي إسماعيل اللذين تعاظم دورهما في النهوض بمصر حضارياً ومعمارياً وثقافياً - - - وفي إطار التقييم العام لهذه الأسرة يمكننا قبول اعتذار الجد الأكبر محمد علي وحفيده إسماعيل عن أخطاء وسليبيات بقية حكامها الذين لم يؤهلوا للحكم بالفعل وكانوا سبباً مباشراً للاحتلال البريطاني لمصر

١٩٦. أمام أسوار عكا فشل الجيش الفرنسي بقيادة نابليون وانتصر الجيش المصري

بقيادة إبراهيم باشا

أثناء وجود الحملة الفرنسية في مصر وعندما شعر نابليون بخطر الجيش العثماني وزحفه في اتجاه مصر براً وبحراً قرر أن يبادر هو باحتلال سوريا وملاقاة أي تهديدات عثمانية قبل وصولها وبالفعل قام بحملة كبيرة علي سوريا وفلسطين واستمر يقاتل ويحقق انتصارات ويكسب أراضي جديدة إلي أن توقف أمام عكا حيث قام بفرض حصار علي عكا ولكنه فشل في اقتحامها (فقد بلغ عدد القتلى الفرنسيين ٢٢٠٠ قتيل منهم ١٢٠٠ قتلوا في المعارك وخاصة في حصار عكا و ١٠٠٠ ماتوا من الأمراض وبلغ عدد الجرحى ٢٥٠٠ جريح ومريض) واضطر نابليون إلي العودة إلي مصر ، وعندما وصل محمد علي باشا لحكم مصر وتطورت الأحداث في عهده إلي أن حدثت المواجهة بينه وبين الدولة العثمانية قام بدفع الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا في اتجاه سوريا وفلسطين كما فعل نابليون من قبل ، ويقول الرافي عن حصار إبراهيم باشا لعكا الذي بدأ في نوفمبر سنة ١٨٣١ :

(كانت عكا علي جانب عظيم من المنعة ، ولا غرو فهي التي أعجزت نابليون منذ نيف وثلاثين سنة عن فتحها ،) وحدث أن وصل جيش عثماني لإنقاذ عكا فترك إبراهيم باشا قوة لاستمرار حصارها وقام إبراهيم باشا بملاقاة الجيش العثماني قبل أن يصل إلي عكا وبعد أن تأكد إبراهيم باشا من تمام هزيمة الجيش العثماني عاد بقواته إلي عكا وفتحها في ٢٧ مايو ١٨٣٢ ،

ويقول الرافي :

(فلا غرو أن كان لفتح عكا دوي عظيم تجاوب في الخافقين ، فإن عكا هي التي امتنعت علي نابليون وعجز عن فتحها وارتد عنها خائباً ، فانتصار إبراهيم باشا في فتحها هو صفحة مجد وفخار للجيش المصري - -)

- وقد كان لسقوط عكا تأثير ابتهاج عظيم في مصر فأقيمت الزينات في القاهرة ثلاثة أيام متواليات (من كتاب (تاريخ الحركة القومية) الجزء الثاني - عبد الرحمن الرافي - صفحة ٣٣ وكتاب عصر (محمد علي) تأليف عبد الرحمن الرافي - دار المعارف - الطبعة الخامسة ١٩٨٩ ، بتصرف من صفحة ٢٢٤ ، ٢٢٨

١٩٧. سليمان باشا الفرنساوي



هو الكولونيل سيف Seves ، وهو فرنسي الأصل ولد في مدينة ليون بفرنسا ، وكان أبوه صاحب مصنع في المدينة ، ودخل في مهمة البحرية وحضر واقعة الطرف الأغر ثم انتظم في سلك الجيش البري وقاتل في حروب نابليون وارتقي في المراتب العسكرية

، ولما انتهى عهد نابليون خرج الكولونيل سيف من الجيش وانقطع للتجارة والزراعة ، ثم نصحه صديق له وهو الكونت دي سيجور بالذهاب إلى مصر ، فجاءها وقابل محمد علي باشا فأعجب به وعهد إليه بتنظيم الجيش المصري علي الأساليب الحديثة فكان له الفضل الكبير في الاضطلاع بهذه المهمة ،

وقد اعتنق الإسلام في مصر واختار لنفسه اسم سليمان فصار يعرف بسليمان بك ، واشترك في عدة حروب وأنعم عليه محمد علي باشا بالباشاوية عقب الحرب السورية الأولى فعرف في ذلك الحين بسليمان باشا الفرنساوي وقد عين رئيساً عاماً لرجال الجهادية المصرية أي للجيش المصري واحتفظ بهذا المنصب في عهد إبراهيم وعباس وسعيد باشا ، وتوفي في سنة ١٨٦٠ وأقيم له تمثال في ميدان باسم سليمان باشا في وسط البلد (تم استبداله بعد ذلك بتمثال طلعت حرب وكذلك تم تغيير اسم الميدان)

وحدث مرة أن تمرد تلاميذه عليه وعصوه وتهددوه بالقتل ، فطلب إليهم أن يبارزوه متعاقبين واحداً تلو الآخر حتي لا يدنسوا أنفسهم بالخيانة والغيلة ، فكان لهذه الشجاعة والبطولة وسعة الصدر تأثير سحري في نفوس أولئك الفتيان الذين مهما يكن ما اتصفوا به فإنهم يقدرون الشجاعة حق قدرها ،

فبعد أن كانوا ناقلين عليه صاروا من خاصة أوليائه يحيطونه بإعجابهم وإجلالهم فتمكن الكولونيل سيف من إتمام تعليمهم في مدي ثلاث سنوات في أسوان بعيداً عن العاصمة كما أمر بذلك محمد علي باشا ليكونوا نواة للضباط في الجيش المصري الذي حقق العديد من الانتصارات في عهد محمد علي باشا

ويبدو في الصورة تمثال سليمان باشا الفرنساوي بعد أن تم نقله من الميدان إلي القلعة

نقلًا عن كتاب (عصر محمد علي) تأليف عبد الرحمن الراعي صفحة ٣٢٧ - الطبعة الخامسة - دار المعارف

١٩٨ . كلوت بك

صبي الحلاق الذي أصبح صاحب الفضل الكبير علي النهضة الطبية في مصر
في عهد محمد علي باشا

ولد في مدينة جرينوبل بفرنسا سنة ١٧٩٣ من أبوين فقيرين ، ولما ترعرع أكب علي الدرس علي ما كان فيه من عوز وفاقه ، وتعلم الطب واضطر أن يشتغل صبياً عند حلاق بمرسيليا ليتابع دروسه ، ولم يزل مكباً علي تعلم الطب إلي أن أخذ أجازته وعين طبيباً ثانياً في مستشفى الصدقة بمرسيليا ، ثم انفصل عن هذا المنصب ، ومارس مهنة الطب في تلك المدينة إلي أن تعرف إلي تاجر فرنسي كان محمد علي باشا عهد إليه بأن يختار له طبيباً للجيش المصري ، فرغب إليه قبول هذه المهمة فرضي بها وجاء مصر سنة ١٨٢٥ ، وكان علي أخلاق فاضلة وعزيمة صادقة ، فعهد إليه محمد علي بتنظيم الإدارة الصحية للجيش المصري ، وجعله رئيس أطباء الجيش ، فعني بتنظيم هذه الإدارة عناية تامة ، ثم أشار علي محمد علي بإنشاء مستشفى عسكري ووافق الباشا ثم أشار علي الباشا أيضاً بإنشاء مدرسة للطب ، ولكلوت بك العديد من المؤلفات الطبية ، وقد بذل جهوداً صادقة في ترقية حالة البلاد الصحية ومقاومة الأمراض ، وأشار باستعمال تطعيم الجدري الذي كان يموت بسببه ستين ألف طفل مصري كل سنة ، وكافح وباء الكوليرا أيضاً وقاوم الطاعون الذي حل بالبلاد سنة ١٨٣٥ وقد سر محمد علي باشا من جهوده فأُنعِمَ عليه بالبكوية فأصبح يعرف باسم كلوت بك نقلاً عن كتاب (عصر محمد علي) تأليف عبد الرحمن الرافعي - صفحة ٤٠٢ - الطبعة الخامسة - دار المعارف -

١٩٩. محرم بك

محافظ الإسكندرية في عهد محمد علي باشا والي مصر ، وزوج ابنته

هو الأميرال محرم بك

أصله من مدينة قولة ثم أخذ مصر وطناً له فتواصل مع محمد علي باشا واستخدمه في كثير من مهام الحكومة ، ورأي فيه من الصدق والإخلاص وحميد الصفات ما جعله يقربه إليه ، وزوجه بكريمته تفيدة هانم ، وجعله حاكماً للجيزة ، ثم محافظاً للإسكندرية فأحسن إدارتها ،

وبعد أن أنشأ محمد علي باشا الأسطول المصري الأول جعل محرم بك أميرالاً له سنة ١٨٢٦ وتولي قيادته في المرحلة الثانية من حرب اليونان ، وحضر واقعة نافارين البحرية ، وشهد نكبة الأسطول المصري فيها عندما تحالفت الدول الكبرى علي إغراقه لكسر شوكة محمد علي باشا ،

وبعد أن عاد محرم بك إلي مصر بقي في وظيفته الأولى محافظاً للإسكندرية وانفرد بهذا المنصب إلي أن توفي في ١٢ محرم سنة ١٢٦٤ هـ الموافق ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٤٧ م ، فأسف عليه الناس أسفاً كبيراً لجميل سيرته وحبه للخير ، وباسمه سمي الحي المشهور في الإسكندرية بحي (محرم بك)

نقلا عن كتاب (عصر محمد علي) تأليف عبد الرحمن الرافعي - صفحة ٣٨٥

٢٠٠. القائد إبراهيم

علي الرغم من أن محمد علي باشا قد اعتمد في عدة حروب علي قادة من أبنائه مثل طوسون باشا واسماعيل باشا إلا أن إبراهيم باشا قد أثبت جدارته ومواهبه العسكرية المتميزة عن سائر أبناء محمد علي باشا فأصبح يعتمد عليه اعتماداً رئيسياً في حروبه بعد ذلك حتي أصبح كما يقال يد محمد علي الحربية ولقد خاض إبراهيم باشا العديد من الحروب أثبت فيها كفاءة منقطعة النظير . فكان كما يقال الكارت الراح في يد محمد علي باشا

ويكفي الإشارة لمثال واحد قد يعبر عن الكثير عن مدي كفاءة إبراهيم باشا كقائد عسكري محنك حيث يقول الكاتب والمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافي تعليقا علي فتح الجيش المصري لمدينة عكا بقيادة إبراهيم باشا (فلا غرو أن كان لفتح عكا دوي عظيم تجاوب في الخافقين ، فإن عكا هي التي امتنعت علي نابليون وعجز عن فتحها وارتد عنها خائبا ، فانتصار إبراهيم باشا في فتحها هو صفحة مجد وفخار للجيش المصري ، وقد كان لسقوط عكا تأثير ابتهاج عظيم في مصر فأقيمت الزينات في القاهرة ثلاثة أيام متواليات) ١ ومن هنا يتضح أن الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا نجح فيما فشل فيه الجيش الفرنسي بقيادة نابليون .

نقلا عن كتاب (عصر محمد علي) تأليف عبد الرحمن الرافي

^١ كتاب عصر (محمد علي) تأليف عبد الرحمن الرافي من صفحة ٢٢٤ ، ٢٢٨

٢٠١. أولاد محمد علي باشا

كان محمد علي باشا يستفيد من الخبرات الأجنبية لتأسيس مصر الحديثة وتحقيق مشروعه الكبير سواء بحضور هذه الخبرات إلى مصر كسليمان باشا الفرنسي وكلوت بك علي سبيل المثال أو بإرسال البعثات إلى أوروبا وكان يتابع بنفسه هذه البعثات والإرساليات ، وعن هذا الموضوع كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي في كتابه الشهير عصر محمد علي مايلي :

(وقد بلغ عدد الطلبة جميعاً الذين أوفدهم محمد علي إلى أوروبا من سنة ١٨١٣م إلى سنة ١٨٤٧م ٣١٩ تلميذاً منهم ٢٨ في الرسائل الثلاث الأولى ابتداء من سنة ١٨١٣م إلى سنة ١٨٢٥م و ٢٩١ في البعثات الكبرى ابتداء من سنة ١٨٢٦ فيكون مجموعهم ٣١٩ تلميذاً وهو عدد عظيم إذا قيس بدرجة الثقافة التي بلغتها مصر في ذلك العصر وعظيم في نتائجه لأن هذه البعثات كان لها أوفر قسط في نهضة مصر الإجتماعية والعلمية والاقتصادية والحربية والسياسية)^١

وكان محمد علي يرسل إليهم الرسائل التي تحفرهم علي اكتساب العلوم ، وإليك مقدمة أحد هذه الرسائل (قدوة الأمائل الكرام الأفندية المقيمين في باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم ننهي إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم وكانت هذه الجداول المشتملة علي شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه في هذه المدة - -)^٢

أما عندما تولي أولاد محمد علي باشا حكم مصر فلم يكونوا علي نفس مستواه ، فبدلاً من أن يستغلوا الأوروبيين في تحقيق أهدافهم ، حدث العكس تماماً أي استغلهم الأوروبيون في تحقيق أهدافهم والتي انتهت باستفحال الديون في عهد اسماعيل ثم باحتلال مصر في عهد توفيق الأمر الذي لم يكن ليحدث في حياة محمد علي بطبيعة الحال وقد كتب الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني عن أولاد محمد علي باشا ما يلي :

(ترك - محمد علي باشا - وراءه حكماً دون المسؤولية جهلة ومتعاطمين وعلي درجة عالية من التفاهة ورأوا أن محمد علي أضاع حياته في ما لا يجدي وقضي العمر في ما لا ينفع وأن الحاكم الفذ هو الذي يستمتع بالسلطة ويهناً بالسلطان ومر سعيد وعباس ومصر في حالة أكثر انحطاطاً مما كانت عليه أيام المماليك فأغلقت المصانع أبوابها وتحول الجيش إلي أداة للزينة أيام التشريفه ووقت خروج المحمل وفي تشييع جنازات العظماء ، ثم جاء الخديوي اسماعيل وهو رجل طموح ولكنه في الوقت نفسه كان يحسب حساباته بدقة ولقد رأي أن محمد علي تعرض للهلاك عندما خرج يتحدى الغرب ولذلك قرر أن يهادن الغرب - وما دام الغرب قوياً فلا بد من أن يكون السبب هو نمط الحياة التي يحيها الغرب فقرر أن يتحول بمصر إلي الحضارة الغربية

وهنا أخطأ اسماعيل في الحساب لأنه لم يدرك أن الحضارة ليست عملية تجميل فحسب - ولذلك سنراه يغرق في الديون حتي أدنيه ليجعل من القاهرة قطعة من أوروبا ولقد نجح اسماعيل في ذلك بالفعل ، شق الشوارع والميادين وبث النافورات والتماثيل وأقام المتاحف والمعارض ومد الجسور علي النيل وشيد القصور الملكية علي أرفي هندسة العصر وافتتح داراً للأوبرا وداراً للتمثيل وألف مجلساً للشورى وجعل من اللغة الفرنسية لغة رسمية للصالونات والنادي في عاصمة مصر

ولكن بصره لم يمتد إلي أبعد من القاهرة وعينه لم تلاحظ وجود فلاحين يعيشون في الريف عيشة أكثر تعاسة من عيشة الكلاب ، فلم يكن الريف في نظره إلا مخزناً للطعام ، ومستودعاً للبشر المستعدين دائماً للخدمة والصبر !!
نقلًا عن كتاب (مصر من تاني) بقلم الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني رحمه الله - صفحة ١١٠ ، ١١١

^١ عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤٠٩

^٢ عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة ٤١٠

٢٠٢. عباس الأول ورفاهية الفلاح المصري

نقلًا باختصار عن كتاب (المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر) - د يونان لبيب رزق - المجلس الأعلى للثقافة - الفصل الرابع (مصر بين عهدي محمد علي وإسماعيل) - عبد الله محمد عزباوي

عباس الأول ١٨٤٨-١٨٥٤

ولي عباس الحكم بعد وفاة عمه إبراهيم وفي حياة جده محمد علي إذ كان أكبر أفراد الأسرة العلوية سنًا وبالتالي أحقهم بولاية الحكم بعد إبراهيم ، وهو ابن طوسون ابن محمد علي

ولم يرث عباس عن جده مواهبه وعبقريته ولم يشبهه عمه إبراهيم في عظمته - - -

وكان محمد علي قد توفي في ٢ أغسطس ١٨٤٩ بسراي رأس التين ونقل جثمانه إلي القاهرة ودفن بمسجده في القلعة ، وكان في استقبال جثمانه جميع أفراد الأسرة الباقيين علي قيد الحياة ولم يتخلف سوي عباس

وخلال الفترة التي حكم فيها عباس والتي استمرت خمس سنوات ونصف غدا عباس غريب الأطوار - - - - سيئ الظن بالناس ولهذا كان كثيراً ما يأوي إلي العزلة ويحتجب بين جدران قصوره التي كان يتخير لبنائها الجهات الموغلة في الصحراء أو البعيدة عن العمران

من هذه القصور البعيدة عن العمران القصر الضخم الذي شيده في صحراء الريدانية التي سميت منذ ذلك الحين باسم العباسية نسبة إليه - - - -

وفي عهد عباس أصبح الفلاح آمناً في حقله من اللصوص ، ذلك أن عباس قد عني باستتباب الأمن فضرب علي أيدي الأشقياء وقطاع الطرق وطاردهم وعاملهم بقسوة فخشوا بأسه وانقطع دابرهم وأمن الناس شرورهم ، كما أصبح الفلاح آمناً من تصرفات رجال الجندية وأعمال السخرة وذلك لقلة عدد الجيش ولعدم وجود أشغال عامة كمحفر القناطر ، وترتب علي قلة المصروفات بسبب هذه الخطة التي اتبعها عباس أن خفت الضرائب ، - - ولم يفرض عباس أي ضرائب جديدة علي الفلاحين ، وفي ذلك يذكر نوبار في مذكراته أن ناظر المالية اقترح عليه فرض ضريبة جديدة وقد سأله عباس : هل ميزانيتنا متوازنة ؟ وجاء الرد أن الميزانية متوازنة بل وهناك فائض في الإيراد وعندئذ قال له عباس : إذن في هذه الحالة ما ضرورة فرض عبء جديد إنها جريمة وخطيئة ، حذار من الآن لا تطرح أمامي مثل هذه الاقتراحات

وفي عهد عباس ألغي نظام الاحتكار ، فعم الرخاء واغتبط الفلاح بثمرة كده وعمله ، ففي سنة ١٨٤٩ أصدر عباس قراراً بإلغاء احتكار شراء الكتان من الفلاحين وقد جاء في هذا القرار (طلباً لرفاهية الأهالي وفائدتهم كان محصول الكتان بمديرية المنوفية يورد للأشوان الأميرية بسعره المعلوم ولكن ظهر بعد البحث والتنقيب أن هذا الصنف إذا لم يورد في الأشوان ويباع بيد أصحابه يكون أفيد وأولي لراحتهم ولرفاهية الرعية ولذلك قرر المجلس المنعقد يوم الأربعاء ٢٦ ذي الحجة ١٢٦٤هـ في القلعة أن يرخص للأهالي في بيع محصولهم كما يريدون وقد وافق لدينا اتباع ذلك)

وأعقب إلغاء نظام الاحتكار في عهد عباس أن انطلق التجار الشوام واليونانيون إلي أنحاء الريف المصري سعياً وراء شراء المحاصيل من الفلاحين ، ووجد الفلاحون المجال أمامهم واسعاً لبيع حاصلاتهم وتسلم الثمن نقداً

وشهد عهد عباس تقدماً من ناحية الإدارة لم يعرفه عهد محمد علي ، فقد انتظمت مرتبات الموظفين بفضل سياسة صارمة في التدبير والتوفير وأصبح الموظفون يتقاضون مرتباتهم في موعدها بعد أن كانوا في أيام محمد علي ينتظرون ١٥ أو ٢٠ شهراً لتسلم هذه المرتبات

وفي عام ١٨٥٢ شرع عباس في مد السكة الحديدية بين الإسكندرية والقاهرة

اعتقد عباس أن جده محمد علي قد أفسح المجال للنفوذ الأوروبي في مصر ولذا فقد مضى في سياسة الحذر من الغرب ، فعمل علي هدم النفوذ الأوروبي في مصر ، إذ كان يعتقد أنه إذا ما تحتم عليه الخضوع لأحد فليكن للخليفة العثماني وليس للأوروبيين وكان يري أن النضال بين السلطان والوالي لن يفيد سوي الأوروبيين ولن يؤدي إلا إلي الانهيار التام للإمبراطورية العثمانية بما فيها مصر

وقد نشبت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا سنة ١٨٥٣ فطلب السلطان عبد المجيد من عباس أن يمدّه بالجيش والأسطول فلبى عباس طلبه

وقد أبلى المصريون بلاءً حسناً في هذه الحرب التي استمرت إلى عهد سعيد فقد استطاع الجيش المصري أن يكسر هجمات الروس في سنة ١٨٥٤

علي الرغم من السلبيات التي شهدتها عصر عباس الأول من إهمال للتعليم وإغلاق للمصانع وانحطاط الجيش والبحرية فإن عصره قد تميز بعدم التدخل الأجنبي في البلاد ، وعدم اللجوء إلى الاستدانة ، ولم يترك أي دين علي حكومة البلاد ، ولم يثقل خزانة البلاد بالديون الأجنبية التي كبلها خلفاؤه من بعده وكان يجتهد دائماً في سد عجز الميزانية دون أن يلجأ إلي القروض

٢٠٣. سعيد باشا والمكرونة وقناة السويس

كان " محمد سعيد باشا " في صباه يميل إلى البدانة وكان أبوه " محمد علي باشا " حريصاً علي تربية أبنائه علي الحياة العسكرية والنشأة الرياضية ، فكان يحتم علي الصبي " محمد سعيد " أن يسبح ويعدو كل يوم مسافات طويلة ، ويأمر له بالقليل من الطعام الذي لا يسمن ولا يشبع ، وكان " ماثيو دليسبس " والد " فرديناند " صديقاً لمحمد علي ، يحبه من عهد وساطته عند الباب العالي في اختياره للأريكة المصرية ، وكان يأذن لأبنائه في زيارة القنصل لتوثيق عري المودة وإتقان اللغة الفرنسية ، فكان محمد سعيد يجد في دار القنصل شبعه من المكرونة التي كان مشغولاً بأكلها ، وكان صحبته لفرديناند الصغير خير شفيح للمهندس الفرنسي فيما بعد لاستجابته رجائه " الخاص بحفر قناة السويس " بعد طول تردد فيه علي أيام أبيه ،

واتفق أيضاً أن فرديناند دليسبس هذا كانت تربطه بالإمبراطورة " أوجيني " صلة قرابة ومودة ، فلولا المكرونة وهذه المصادقة التي ربطت بين دليسبس وبلاط فرنسا لما استطاع الرجل أن ينجح حيث أخفق غيره ، ولحبط العمل كله بعد الشروع فيه لولا اليد القوية التي كانت تنقذه من ورطة بعد ورطة في بلاط باريس ، إلا أن دليسبس قد استخدم كل ما في جعبته من الوسائل لإقناع سعيد باشا بفوائد مشروع قناة السويس ، - والجدير بالذكر أن جميع المحاولات لإقناع محمد علي باشا بحفر قناة السويس باءت بالفشل لعلم محمد علي أن هذه القناة قد تجر إلي مصر أطماع الدول الكبرى ، ولم يتم إقرار المشروع إلا في عهد سعيد باشا ثم تم افتتاحها في عهد الخديوي اسماعيل ثم تم احتلال مصر في عهد الخديوي توفيق

نقلًا عن كتاب (ضرب الإسكندرية في ١١ يوليو) بقلم عباس محمود العقاد - صفحة ٧٥ - الطبعة الثانية ١٩٨٣ -

دار المعارف - بتصرف

٢٠٤ . الجيش المصري وشجاعة فائقة في المكسيك

تحت عنوان (من أجل عيون فرنسا)

كتب المؤرخ الكبير جمال بدوي ما يلي

من الجائز أن تجامل صديقك في أفراحه فترسل إليه بوكيه ورد أو بطاقة تهنئة ، ومن الواجب أن تجامله في أحزانه وأزماته بعبارات تنم عن المشاركة الوجدانية ، أما أن تجامله بإرسال الجيش ليحارب معه في بلاد بعيدة ، فهذا أغرب أنواع المجاملة التي سجلها تاريخ مصر الحديث ، عندما بعث الوالي سعيد باشا بكتيبة من الجيش المصري لتخوض حرباً مع المكسيك مجاملة لإمبراطور فرنسا نابليون الثالث وفاء لروابط الصداقة بينهما ،

كان نابليون الثالث يحلم بإقامة إمبراطورية فرنسية في العالم الجديد ، فانتهاز فرصة قيام ثورة في المكسيك ضد نظامها الجمهوري وعمل علي إذكاء نارها ، وحاول تحريض إنجلترا وأسبانيا لتدخل بحجة حماية الرعايا الأوروبيين ، فلم تأبه الدولتان لتحريضه ، فتحمل وحده مسئولية التدخل ، بعث بقوات فرنسية تعرضت لهزائم متوالية ، فلما تحرج موقفه لم يجد من ينقذه من ورطته سوي صديقه الحميم سعيد باشا ، وأبت شهامة الوالي المصري أن يعتذر لصديقه بأن من غير المنطقي أن يذهب الجيش المصري ليحارب في بلاد لا تربطها بمصر صداقة أو عداة من بعيد أو من قريب ، وإنما استجاب للاعتبارات الشخصية وقام بتجهيز كتيبة قوامها ١٢٠٠ جندي وضابط تحت قيادة البكباشي السوداني خيرة الله محمد ، وأبحرت الكتيبة إلي المكسيك في عام ١٨٦٣ وخاضت المعارك التي فرضت عليها في شجاعة تحسد عليها حتي أن القائد الفرنسي وصف أفرادها بأنهم أسود وليسوا جنوداً وبعد أربع سنوات من الحرب اليائسة كانت الكتيبة قد فقدت معظم أفرادها بمن فيهم قائدها ، ولم يبق منهم سوي ٣٠٠ جندي عادوا إلي باريس في صحبة الجيش الفرنسي المهزوم ، فاستعرضها الإمبراطور وأشاد بشجاعة أفرادها وخلع عليهم الأوسمة ، وبعد وصولهم إلي الإسكندرية استعرضهم الخديوي اسماعيل - بعد وفاة سعيد - في قصر رأس التين وأمر بترقية بعض رجالها اعترافاً بشجاعتهم

نقلاً عن كتاب (محمد علي وأولاده) تأليف المؤرخ الكبير جمال بدوي

٢٠٥ . عندما جلس الخديو اسماعيل علي عرش مصر

تولي اسماعيل باشا ابن ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا حكم مصر سنة ١٨٦٣م بتقليد من السلطان العثماني عبد العزيز ، ولقد وجه اسماعيل باشا (الخديو اسماعيل) عنايته الفائقة إلي جيش مصر ، فعمل علي رفع مستواه العلمي وأنشأ له المدارس الكبيرة واستقدم بعض الخبراء العسكريين ، كذلك نالت البحرية قسطاً كبيراً من اهتمام الخديو اسماعيل فأخذ في أوائل حكمه يعتني بتجديد الأسطول فبعث النشاط في ترسانة الإسكندرية

وكان اسماعيل باشا يعمل علي تكوين إمبراطورية مصرية عظيمة بالتوسع جهة الجنوب في أفريقيا بعيداً عن حوض البحر المتوسط والمنطقة العربية ، حتي لا تعارضه الدول الأوروبية كما عارضت جده محمد علي باشا من قبل ، وفي طليعة حملات الجيش المصري فتح دارفور والتوسع في السودان الشرقي ، كما أتم توسيع أملاكه السودانية من الجنوب ، وعين الكولونيل شارلز جوردون حاكماً لمديرية خط الأستواء سنة ١٨٧٤م ومن قبله صمويل بيكر الذي مد نفوذ مصر حتي بحيرة فيكتوريا سنة ١٨٧١م ، وفي عهد الخديو اسماعيل استقرت السيادة المصرية علي جميع شاطئ البحر الأحمر الغربي إلي بربرة في الصومال ،

أما علي النطاق الداخلي في مصر فقد نهض الخديو اسماعيل بالتعليم من أجل التعليم ، فأُنشئت مدارس الحقوق ودار العلوم بجانب مدرسة المهندسخانة والطب البيطري والفنون والصنائع والألسن والآثار ، وأنشئت الجمعية الجغرافية وظهرت العديد من الصحف العلمية والأدبية ،

وفي أيامه أنشئت مئات من منشآت الري أهمها ترعة الإبراهيمية والإسماعيلية و ٢٠٠ ترعة أخرى تقريباً ، أما في مجال الزراعة فاهتم الخديو اسماعيل بزراعة القطن وقصب السكر لسد حاجة أوروبا منهما ، وزادت الأراضي الزراعية في عهده مع إصلاح القناطر الخيرية ،

ومدت خطوط السكك الحديدية في الوجهين القبلي والبحري وأنشأ ما يزيد علي ٥٠٠٠ ميل من الأسلاك التلغرافية ، وفي عهده استخدمت الطوايع لتوضع علي خطابات البريد بلا أنشأ هيئة البريد رسمياً ،

أما في مجال العمران فقد أنشئ كوبري قصر النيل وكوبري الجلاء ودار الأوبرا ودار الآثار المصرية ودار الكتب المصرية ، وتم تهيئة شارع الهرم وشارع محمد علي وبناء جامع الرفاعي وافتتحت الملاحة في قناة السويس رسمياً في حفل بهيج سنة ١٨٦٩م ، وازدهرت المدن بالمباني الحديثة وازدانت بالقصور ، مثل سراي عابدين ، وسراي الإسماعيلية ، وسراي الجزيرة وسراي الجيزة والقصر العالي وسراي الزعفران وسراي رأس التين وسرايات أخرى ، مع حبه الشديد لبناء الحدائق والبساتين مثل بستان الجيزة وبستان الجزيرة وبستان الأورمان وبستان الأزبكية ،

كما دعا اسماعيل باشا السلطان عبد العزيز لزيارة مصر وهو أول سلطان عثماني يأتي لمصر منذ فتح السلطان سليم الأول لها سنة ١٥١٧م ، واستقل اسماعيل باشا وجود السلطان وأغدق عليه العديد من الهدايا حتي حصل منه علي فرمان سنة ١٨٦٦م بتعديل نظام الوراثة في حكم مصر ليكون في أكبر أبناء اسماعيل - وكان من قبل في أكبر أبناء أسرة محمد علي بشكل عام - كما منح اسماعيل لقب خديو سنة ١٨٦٧م

ويعتبر اسماعيل هو أول من وضع تماثيل العظماء في الشوارع مثل تمثال والده إبراهيم باشا وأنشأ المحاكم المختلطة يشترك في الجلوس علي مناصاتها مع المصريين رجال القانون الأجانب ، وقد أصدر الخديو اسماعيل سنة ١٨٦٤م قراراً بتكوين مجلس شوري النواب وقد افتتحه سنة ١٨٦٦م وكان عدد أعضائه ٧٥ عضواً ويعد هذا المجلس أول خطوة في سبيل إشراك المصريين في شئون البلاد

ولتحقيق كل ما سبق كان لابد من توفير الأموال اللازمة فأقدم علي اقتراض المال بدون حساب ، وكان الخديو يعقد القروض بفوائد باهظة ويدفع عمولة للوسطاء ، وفي سنة ١٨٧٥م بيعت أسهم مصر في قناة السويس (وكانت حصتها ٤٤% من الأسهم) بثمن بخس وهو ٤ ملايين جنيه في وقت كانت تساوي فيه أكثر من ٤٠ مليون جنيه ولجأ إلي بيع بعض المصالح الحكومية ورهن البعض الآخر ،

ومن هنا بدأ القلق يساور حملة سندات الديون المصرية وراجت حقيقة سوء أحوال مصر المالية الأمر الذي أدى إلي وثوب الأجانب ، فاضطر اسماعيل لتهدئة خواطر دائنيه وتأمينهم علي أموالهم إلي أن يحني رأسه للعاصفة ويتنازل عن كثير من سلطاته ونفوذه ويستدعي الخبراء والبعثات الأجنبية لفحص الحالة المالية في البلاد وطرق إصلاحها ، مثل بعثة كيف وبعثة جوشن وجوبير وصندوق الدين ولجنة التحقيق حتي فرض الأجانب علي الخديو التنازل عن أملاكه وتخصيص مرتب سنوي له وتعيين وزارة مسئولة برئاسة نوبار باشا نوبريان الأرمني وعضوية السير رفرز ولسن للمالية ومسيو دي بلنير للأشغال ، ورأي الأجانب -اقتصاداً في المصروفات- توقف المشروعات والإصلاحات لسداد الديون وأرباحها مع زيادة الضرائب علي الأهالي ،

تقدم الأعيان وأعضاء مجلس شوري النواب إلي الخديو اسماعيل يطلبون وضع حد للتدخل الأجنبي مطالبين بتعيين حكومة وطنية وكانت استجابة الخديو اسماعيل لذلك الطلب حجر الزاوية في ضغط الدول الأوروبية علي السلطان لعزله ، خاصة أن ألمانيا علي غير انتظار تدخلت ، متهمة الخديو اسماعيل بخرق الاتفاقات الدولية وخوفاً من إعطاء بسمارك مستشار ألمانيا ذريعة للتدخل في مصر بجانب اشتداد التيار الوطني حملت إنجلترا وفرنسا السلطان العثماني علي عزل الخديو سنة ١٨٧٩م

نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر - من مينا إلي مبارك - إعداد حمدي عثمان - المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية ٢٠١٢

٢٠٦. عقد شركة قناة السويس

وعندما يكون الخصم هو الحكم

كان سعيد ومن بعده اسماعيل يثقان ثقة عمياء في نزاهة ملوك أوروبا وفرنسا بالذات ، علي عكس مؤسس الأسرة العلوية محمد علي باشا الذي كان شديد الحذر من ناحية الأطماع الأوروبية ، ولم يكن يحسن الظن بهم ، ولا يسمح لهم بالتغلغل في شئون البلاد تحت ستار المشروعات والمصالح المشتركة

وعمل علي حماية الاستقلال الوطني من الوقوع في براثن النفوذ الأوروبي ،

وإن كان الموقف الراض للهيمنة الأوروبية لم يمنع محمد علي من اقتباس أساليب النهضة الأوروبية في تأسيس مشروعه الكبير ، فبعث البعثات إلي هناك ، واستقدم العلماء والخبراء إلي مصر ليعملوا تحت عينه الثاقبة ، ومضي وريثه عباس الأول علي هديه في مقاومة النفوذ الأوروبي ،

وإذا كان عهد عباس يتميز بالجهالة والتخلف والرجعية إلا أن استمساكه بالاستقلال الوطني هو الحسنة الوحيدة التي تذكر له ، فسلم البلاد بعد أربع سنوات شداد إلي من جاء بعده وهي خالية من النفوذ الأجنبي

فلما كان عصر سعيد نجح دليسيبس فيما فشل فيه أيام أبيه ، واستغل ضعف شخصية والي الجديد وانبهاره الشديد بالحضارة الفرنسية وصدافته الحميمة مع الإمبراطور نابليون الثالث ، في الحصول علي امتياز شق قناة السويس وإبرام عقد يلزم الحكومة المصرية بأعباء فادحة ، ولم يترث سعيد في دراسة بنود العقد وتمحيص ما يحتويه من مظالم ، وأسرع بتوقيع العقد ثقة منه في سلامة النوايا الفرنسية

وكان اسماعيل أوروبي النزعة ، مما جعله يثق في ساستها ورجال المال فيها ، ويعتقد فيهم حسن النية ، ولم يظن إلي مطاعمهم الاستعمارية ، وبلغت به السذاجة أن لجأ إلي صديقه الإمبراطور نابليون الثالث ليكون حكما في النزاع بينه وبين شركة قناة السويس حول الامتيازات الظالمة التي نص عليها العقد في عهد سلفه سعيد باشا

وقد شعر اسماعيل في بداية حكمه بفضاعة الالتزامات التي كبلت مصر بأعباء جسيمة فأزمع إلغائها إنطلاقا من الشعار الذي أعلنه بأن تكون القناة ملك مصر لا أن تكون مصر ملكا للقناة ، فاعترض علي البنود التي تلزم الحكومة المصرية بتقديم عشرون ألف عامل لحفر القناة بالسخرة وتفرض علي مصر أن تدفع للشركة تعويضات في حالة تقصيرها عن توفير هذا العدد ، واعترض علي إعطاء الشركة حق تملك جميع الأراضي الواقعة علي ضفتي القناة وإعفائها من الضرائب ورفضت الشركة الفرنسية التنازل عن هذه الامتيازات ، وحرضت الصحف الفرنسية علي شن حملة ضد حكومة مصر ، وتعزيد حق الشركة في هذه المكتسبات ، وكان من الطبيعي أن ينحاز الرأي العام الفرنسي إلي جانب مصالحه الاستعمارية ومن خلفه دوائر المال والبنوك والحكومة فماذا يعمل خديو مصر إزاء هذا التكتل الاستعماري ؟

لجأ إلي صديقه الحميم نابليون الثالث ليكون حكما في النزاع دون أن يدرك بأن إمبراطور فرنسا لا يمكن أن يتخذ موقفا محايدا يعارض المصالح الاستعمارية لبلاده ، وتجاهل اسماعيل الحقيقة البديهية بأن الخصم لا يمكن أن يكون حكما عادلا وأن سياسات الدول الاستعمارية لا تعرف الصداقة الشخصية

وفي عام ١٨٦٤ أصدر الإمبراطور حكمه ويقضي بإلزام الحكومة المصرية دفع تعويضات باهظة إلي الشركة الفرنسية مقابل تعديل بعض بنود العقد ، وبلغت هذه التعويضات ٨٤ مليون فرنك أي ما يعادل ثلاثة ملايين و ٣٦٠ ألف جنيه مصر في ذلك الوقت ، وإذا علمت أن كل رأس مال الشركة هو ثمانية ملايين جنيه ، أمكنك أن تقدر فداحة التعويضات التي حكم بها الإمبراطور وأنها تقارب نصف رأس مال الشركة

نقلا عن كتاب - محمد علي وأولاده - للمؤرخ الكبير جمال بدوي

٢٠٧. الخديوي اسماعيل وشغفه بتشبيد القصور

كما ورد بكتاب (القاهرة رحلة في المكان والزمان) - تأليف عرفه عبده علي - تقديم الأديب الكبير جمال الغيطاني

كانت عناية الخديو إسماعيل بتشبيد القصور تفوق ما شيده أسلافه من الولاه والسلطين وأعظمها روعة وجلالاً سراي عابدين وسراي الجزيرة وسراي الجيزة وفي عام ١٨٩٠ أقيمت حديقة الحيوان علي جزء من حدائق سراي الجيزة وهدمت سراي الجيزة عام ١٩٠٣ وتجدر الإشارة إلي أن الملك فؤاد الأول قد ولد بهذه السراي في ٢٦ مارس عام ١٨٦٨م

ويقول محمد بك المويلحي في كتابه حديث عيسي بن هشام عن هذه السراي :

ووصلنا إلي قصر الجيزة ومتحف الآثار وملتقي السيارة من سائر الأقطار فدخلنا روضة تجري من بينها الأنهار كأنها الجنة بعينها تحسب أرضها مفروشة ببسط منقوشة ، ثم شاهدنا قصرًا يكل عنه الطرف ويقصر دونه الوصف فسرنا نرتاد خلاله ونتفياً ظلاله فإذا الأسود مقصورات في المقاصير ، فقلت سبحان الله القادر العظيم ، هذا بيت اسماعيل بن إبراهيم ، طالما كانت حجراته مطالع للأقمار ودرجاته منازل للأقدار ، كان إذا نادي صاحبه : يا غلام - شقيت أقوام وسعدت أقوام

ومن طريف ما يروي أن ولي عهد بروسيا أحد ضيوف إسماعيل باشا في الاحتفالات الأسطورية عام ١٨٦٩ قد أبدى رغبته في مشاهدة قصور الخديوي ، فسأل الخديوي أحد ندمائه الشيخ علي الليثي قائلاً :

يا شيخ علي ، إذا أمرتك بمصاحبة ولي عهد مملكة بروسيا فعلي أي القصور تفرجه ؟

علي قصر الجيزة

وبعدين تفرجه علي أي قصر ؟

علي قصر الجزيرة

وبعدين ؟

وبعدين أوديه علي السرايا الصفرا مباشرة

أنت اتجننت يا شيخ علي ؟

هو فيه حد يتفرج علي السرايتين دول ولا يتجننش يا أفندينا

فلم يتمالك إسماعيل باشا نفسه من الضحك وأمر له بجائزة

مقتطفات مختصرة نقلاً عن كتاب - القاهرة رحلة في المكان والزمان - تأليف عرفه عبده علي - تقديم الأديب الكبير

جمال الغيطاني - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

٢٠٨. الخديوي اسماعيل بعيون القنصل

قنصل أمريكا في مصر في الفترة الواقعة بين ١٨٧٦ حتى ١٨٨١ هو "ألبرت لي فارمان"، المعاصر للسنوات الأخيرة من عهد الخديو إسماعيل؛ الذي إستمر من ١٨ يناير ١٨٦٣ حتى عزله ونفيه خارج البلاد ٢٦ يونيو ١٨٧٩، ومن الآثار المفيدة لهذا القنصل كتابه بعنوان:

Egypt and its betrayal، ترجمه الأستاذ عبد الفتاح عنايت بعنوان "مصر وكيف غُدر بها"؛

يقع الكتاب في ٣٧٧ صفحة و ٢٤ فصلا يصف القنصل الأمريكي "فارمان" بالتفصيل أول واجب قام به في القاهرة، عند وصوله إليها ١٨٧٩، وهو زيارة الخديو إسماعيل، في "قصر الجزيرة" الواقع على الشاطئ الغربي للنيل في مواجهة المدينة، بالقرب من حديقة الحيوانات وحدائق النباتات، ويسهب في وصف الخديو إسماعيل: "... رجب بي الخديو في بلاده ولما كان لا يتكلم الإنجليزية فقد كانت محادثتنا باللغة الفرنسية التي كان يتكلمها بطلاقة. لم يكن إسماعيل باشا جذابا من الناحية الجسمانية، كان يبلغ من العمر حوالي السابعة والأربعين، قصير القامة، عريض المنكبين، ضخمة الجثة، ولون بشرته أكثر سمرة من بشرة الأوروبيين، أما جفونه فكانت مرتخية، وكانت اليسرى أكثر إرتخاء من اليمنى، وعندما تكون ملامحه ساكنة تبدو عيناه وكأنها نصف مغلقة، وكانت حواجبه فاحمة اللون، خشنة، كثة الشعر وبارزة إلى الأمام، أما لحيته البنية الداكنة فكانت قصيرة، وأذناه كبيرتان وليست من الحسن بمكان". لكنه في محاولة لإنصاف إسماعيل يشهد بأنه: "... رغم كل نقائصه و مساوئه الجسمانية كان محدثا ممتعا، يتسم في كثير من الأحيان، بشوشا دائما ومثيرا للإهتمام. كان صوته هادئا يبعث على السرور وألفاظه مُنتقاه ومُعبرة، فائق الذكاء ولديه معلومات دقيقة حتى عن التفاصيل التي تخص حكومته وشؤونه الخاصة الشاسعة، وتبرهن نظراته الحادة الثاقبة، حينما تكون عيناه مفتوحتين من أثر حديث شائق، وإجابته السريعة الدقيقة، ومعلوماته الخاصة بموضوعات ليس من المفروض أصلا أن يكون ملما بها، تبرهن لكل هؤلاء الذين استمتعوا بالحديث معه أنه رجل يمتاز بقدرة غير عادية، أضاف إلى ذلك أنه كان يملك القدرة النادرة على أن يكتسب ثقة زائره بأن يزيح عن كاهله كل حرج ممكن ويجعله على طبيعته تماما..."، في نهاية هذا الفصل يقول فارمان: "... قبل حفل الإستقبال الرسمي الذي أقيم لي، كثيرا ما قمت بزيارة الخديو الذي أشعرني بأني على صلة وثيقة بسموه وكان ينبغي على أكثر من مرة أن أقوم بواجب غير سار وهو المطالبة غير الرسمية، وإن كانت بطريقة مُلحة، بدفع التعويضات الأمريكية ضد الحكومة المصرية، وكانت الحكومة المصرية في ضائقة مالية شديدة ولذا كان مجرد ذكر أي تعويض مالي لا بد وأن يسبب بعض الضيق،

نقلا عن مقدمة لعرض كتاب قنصل أمريكا في عهد الخديو إسماعيل - صافي ناز كاظم

٢٠٩ . الخديوي في باريس

(ذهب الخديو -اسماعيل- لحضور المعرض الدولي في باريس وصدرت الصحف الباريسية تبشر بوصول خديو مصر إلي عاصمة الإمبراطورية الفرنسية ولما كان هذا اللقب جديداً علي المسامع ، أقبل الناس يتساءلون : خديو ؟ ما هو الخديو ؟ - - وكان اسماعيل قد ذهب إلي باريس وجيوبه ملأ بالنقود وخزائن المصارف بباريس ولندن تحت أمره وتصرفه ففتح يده بسخاء وبذخ لم يعهدهما العالم الغربي من عاهل من العواهل الذين زاروا المعرض فبات أحدوثة إعجاب الجميع - -

ووقع في خلد العامة أن الخديو إنما هو أحد ملوك ألف ليلة وليلة بعث إلي الحياة ثانية وأنه خليفة الفراعين علي عرش القطرين أكبر ملك حلت قدماه أرض فرنسا ^١)
وتحت عنوان فتاة القصر كتب الأستاذ جمال بدوي

(ومن الأحداث التي وقعت خلال زيارة الخديو لباريس ، تلك القصة التي رواها الكونت دي لافيزون في مذكراته وهي أن أحد كبار النبلاء دعا الخديو اسماعيل إلي وليمة في قصره بضواحي باريس فأجاب الخديو دعوته وإذا به يري قصراً بلغ من الجمال والجلال وفاخر الرياش ما لم يكن أحد يتوقع وجود مثله أبداً في حوزة غير الملوك فأعجب اسماعيل به أيما إعجاب وبعد تناول الغداء وبينما المحادثة دائرة في قاعة التدخين أبدي لمضيفه استحسانه العظيم لقصره فشكره النبيل علي تلافه وكان قد قيل لإسماعيل إن النبيل في ضيق مالي شديد فأحب مساعدته بشكل لا يتحرج له إحساسه فسأله عما إذا كان يريد بيع قصره وكان الرجل علي شدة احتياجه إلي النقود لا يري في استطاعته التجرد من ملكية ذلك البناء الفخم ، وتخرج أن يقابل لطف الخديو بخشونة الرفض فخطر له أن يبالغ في تقدير الثمن ليحمله علي العدول عن رغبته في المشتري ، فأجاب : إني قد أبيعه يا مولاي مقابل خمسة ملايين من الفرنكات - ولم يكن القصر يساوي أكثر من مليون ونصف مليون فرنك ، ولكن اسماعيل التقط الكلمة من فم الرجل وهي طائفة وقال : إني اشتريته منك بهذا المبلغ وحرر له في الحال حوالة بثمنه علي أحد البنوك بباريس ولم يجد الرجل مفرأ من قبول البيع غير أن اسماعيل التفت فوجد فتاة هيفاء لا تتجاوز الخامسة عشر ربيعاً وعرف أنها ابنة النبيل فقال بابتسام جميل مخاطباً والدها : " علي أني لا أحسبك تمانع في تحرير عقد البيع للآنسة ابنتك هذه اللطيفة تخليداً لذكري استحسان خديو مصر ظرفها وآدابها ولكيلا يقال أني زرتك لأجرك من قصرك " ^٣)

من كتاب (محمد علي وأولاده) تأليف (جمال بدوي) صفحة ٢٣٠ ، ٢٣١ مكتبة الأسرة ١٩٩٩

^١ المرجع السابق صفحة ٢٣٠

^٢ لاحظ مراعاة إحساس واحد فرنسي نبيل وعدم مراعاة الحياة الكريمة للفلاحين المصريين علي كثرتهم

^٣ محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٢٣١

٢١٠. افتتاح قناة السويس للملاحة في عهد الخديوي اسماعيل



البيانات الرسمية المصرية عن سير العمل في قناة السويس إلى يوم افتتاحها

كما جاءت في تقويم النيل لصاحبه أمين سامي باشا المؤرخ المشهور

١ - كان مبدأ العمل في حفر قنال السويس حصل في بورسعيد يوم ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ الموافق ٢١ رمضان سنة

١٢٧٥ هـ

٢ - صرفت شركة مساهمة القنال في برزخ السويس ٤٨٠ مليوناً من الفرنكات بما في ذلك أماكن العمال وبناء

مدينتي بورسعيد والإسماعيلية والمحاط والمكافآت التي كانت تعطي زيادة علي المرتبات

٣ - بلغ عدد العمال الوطنيين الذين أعدتهم الحكومة لهذا العمل بدون أجرة (سخرة) ٢٧٠٠٠ نفس ، وأما عدد المستأجرين والمستخدمين فبلغ خمسة آلاف نفس تقريباً

٤ - بلغ طول القنال من بورسعيد إلى السويس (محطة توفيق) ٨٧ ميلاً

٥ - حصل الاحتفال بالسفر فيه يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، وقد حضر هذا الاحتفال كل من جلالة إمبراطورة فرنسا ، و جلالة إمبراطور النمسا والمجر ، الأمراء أولياء عهد روسيا وبروسيا وهولندا ، وحضر أيضاً بالنيابة عن دولة إنجلترا رئيس عمارة حربية

٦ - وأول سفينة تجارية مرت بالقنال بعد الاحتفال بافتتاحه دافعة عوائد المرور باعتبار عشرة فرنكات عن كل طنولاته هي السفينة المسماة " أمبيراتريس "

نقلاً عن كتاب (ضرب الإسكندرية في ١١ يوليو) بقلم عباس محمود العقاد - صفحة ٨٢ ، ٨٣ -

الطبعة الثانية ١٩٨٣ - دار المعارف

الصورة لحفل افتتاح قناة السويس ١٧ نوفمبر ١٨٦٩

٢١١. أفرح الأنجال

عن هذا الموضوع كتب المؤرخ الكبير جمال بدوي رحمه الله في كتابه الممتع أنا المصري ما ملخصه :

من الأقوال المأثورة عن الخديو توفيق في وصف أبيه إسماعيل : لن يأتي الزمن بمثله في أبهة الملك وفخفته السنية - وهو وصف صحيح يمثل شخصية إسماعيل أصدق تمثيل ، وكل ما تسمعه من أوصاف خيالية عن ألف ليلة وليلة تتواضع إلي جانب لبالي إسماعيل وحفلاته الصاخبة وسهراته المخملية ، كان إسماعيل يلتمس - بل يفتعل - المناسبات السعيدة لإقامة الحفلات ، وإذا كانت احتفالات افتتاح قناة السويس قد بهرت ملوك أوروبا وأميراتها فإن أفرح الأنجال فاقت الأولى في بذخها وإسرافها وتواصلها أربعين يوماً لباليها ، ولا ننسى أن أفرح الأنجال أقيمت بعد أربع سنوات من حفلة القناة ، والأنجال الأربعة كانوا ثلاثة ذكور وفتاة ، أولهم ولي العهد توفيق وعروسه الأميرة أمينة والثاني الأمير حسين كامل وعروسه الأميرة عين الحياة والثالث الأمير حسن واختار له أبوه عروسه الأميرة خديجة وفاء لوعده قطعه لها ، ولهذا الوعد قصة طريفة ، بدأت عندما كان الخديو يتفقد الدراسة في مدرسة البلاط التي أنشأها لتعليم الأميرات ، ولما وجد التلميذة خديجة أخذ يحثها علي الاجتهاد في تحصيل العلم وحفظ القرآن وبعد سنوات ذهب الخديو لزيارة المدرسة وسأل خديجة عما حفظته من القرآن الكريم فأجابت علي الفور : وأذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد ، وانبسبت أسارير الخديو لذكائها وحسن تصرفها ، وضحك قائلاً : أجل أجل لن أنسي وعدي واختارها زوجة لابنه حسن ، أما الابنة الوحيدة التي احتفل الخديو بزواجها فهي الأميرة فاطمة وهي التي سجلت اسمها في التاريخ بسبب التبرعات القيمة التي قدمتها لإنشاء الجامعة المصرية ، ووقائع أفرح الأنجال رواها مؤرخ عصر إسماعيل إلياس الأيوبي نقلاً عن الكتاب الأوروبيين الذين شاهدوا الأفرح ، وبدأت الاحتفالات يوم ١٥ يناير ١٨٧٣ واستمرت أربعين يوماً بمعدل عشرة أيام لكل واحد من الأنجال ، وزينت الشوارع الممتدة من القصر العالي إلي قصر الجزيرة ، إلي سراي القبة ، بالنجف والفوانيس المختلفة الألوان ، وفي نهاياتها أقيمت أقواس النصر تعلوها الشموع ، فسطعت الأضواء حتي جعلت القاهرة شعلة من النور ، وفي أهم الميادين أقيمت المسارح للفرق الموسيقية والغنائية وأهمها فرقة عبده الحامولي ، وفي اليوم الخامس عشر بدأ خروج الهدايا المقدمة من الوالدة باشا وزوجات الخديو إلي العرائس من القصر العالي وبدأ موكب شوار عروس ولي العهد في حراسة صفوف الفرسان وآلاي من المشاة في ملابس بيضاء ناصعة ، وكانت الهدايا عبارة عن مجوهرات وقلاند من الماس من نوع البرلنتي ومناطق من الذهب الخالص وأقمشة مطرزة باللؤلؤ وزمرد في حجم البيض وآنية متنوعة من الفضة الصب وكان من بين الهدايا المقدمة من الخديو لولي عهده سرير من الفضة الصب الخالصة محلاه بماء الذهب الأبريز وعواميده الضخمة مرصعة بالماس والياقوت الأحمر النادر والزمرد والفيروز واجتاز الموكب شوارع العاصمة ولم يختلف شوار الأميرات عين الحياة وخديجة وفاطمة عن شوار الأميرة أمينة

نقلاً باختصار عن كتاب -أنا المصري- للمؤرخ الكبير جمال بدوي - هيئة الكتاب - مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ - مقتطفات

مختصرة من صفحة ١٠١ وما بعدها

٢١٢. البتشتي.. القناوي الأزهرى الجريء الذي تحدى الخديوي إسماعيل

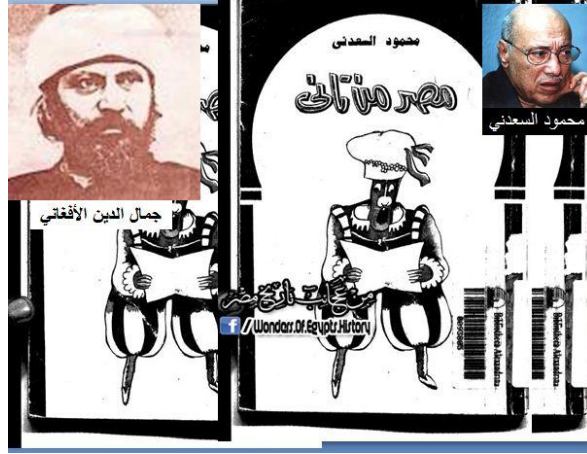
وكان أرضها الطيبة، وموقعها على النيل بين الجبال، جعلها أرضاً خصبة بالرجال مليئة بالأوفياء، كلما احتاج الوطن رجالاً أقوياء في الحق أشداء على الباطل، لم تتأخر قنا عن تقديمهم لمصر، ومن بينهم الشيخ توفيق محمد خليفة، الذي عُرف بـ"توفيق البتشتي"، وينسب إسمه إلى مسقط رأسه مركز أبو تشت، أول مراكز محافظته قنا ١٨٧٧، كان الشيخ توفيق البتشتي، من الطراز المتميز في تفكيره وطريقة تعبيره وأسلوبه في عرض المسائل العلمية، مما حُبب الطلاب فيه، فانتسعت حلقات دروسه، وضاق المكان بالراغبين في علمه، وانفرد برقعة شاسعة من الأزهر، ساعده فيها صوته الجهوري وحجراته القوية.

عُرف عنه أنه يرفع راية الحق لا يخشى حاكمًا، ولا يتملق سلطانًا، فحين وقعت الحرب بين مصر والحبشة، في عهد الخديوي إسماعيل، وتوالت الهزائم، وضاق صدر الخديوي، فقال له شريف باشا رئيس النظار: إذا لجأت إلي علماء الأزهر الأطهار وقرأوا البخاري يفرج الله الكرب وينتصر الجيش، فكلّم الخديوي الشيخ العروسي، شيخ الأزهر، فجمع له من العلماء الصالحين، وأخذوا يتلون البخاري أمام القبلة القديمة في الأزهر، ولكن أخبار الهزائم ظلت تتوالى وانتصارات العدو تتعاضد، فرجع الخديوي إلي العلماء واتهمهم بأن ما قرأوه إما ليس صحيح البخاري، أو إنهم ليسوا علي مستوى سلفهم الصالح، فسكت العلماء وصرخ البتشتي من آخر الصف "هزمنّا منك يا إسماعيل، فإنّا روينّا عن النبي (ص) إنه قال: لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم."

أطرق الخديوي، وانصرف ومعه شريف باشا، ثم رجع أحد مماليكه يطلب الشيخ المتحدث واصطحبه معه إلي القصر، وطلب منه الخديوي أن يعيد ما قاله، فأعاد الشيخ حديثه وشرحه، فتساءل الخديوي: ماذا صنعنا حتى ينزل بنا البلاء؟ فأجابه الشيخ بأن قوانينه تبيح الزنا وترخصه وكذلك الخمر، فبرر الخديوي بأن تلك العادات نُقلت لهم من -أوروبا-، فرد الشيخ "إن لا ذنب للبخاري وعلماء الأزهر"، فصمت الخديوي وصدق على كلامه وكافأه على جراته.

نقلًا باختصار عن موقع حكاية الجنوب - تحت عنوان البتشتي.. القناوي الأزهرى الجريء الذي تحدى الخديوي إسماعيل- بقلم سعيد عطية

٢١٣. جمال الدين الأفغاني يزور مصر



كتب الكاتب الكبير محمود السعدني في كتابه الرائع (مصر من تاني) عن زيارة جمال الدين الأفغاني لمصر ما يلي :

(وفي هذه الأثناء مر علي مصر رجل كالأنبياء ، قاطع كالسيف واضح كالشمس هو جمال الدين الأفغاني وتعجب من الحال التي وصلت إليها مصر شعب صابر ومسال� وحاكم فاجر وعصابة من اللصوص الأجانب وجلس الرجل الذي كانت الثورة حرفته علي مقهى متاتيا بميدان العتبة الخضراء يبيت تعاليمه في تلاميذه الذين التفوا حوله يعدون أنفاسه ، ويسجلون كل حرف يخرج من بين شفتيه وكان الرجل يصرخ في وجه تلاميذه عجبني علي هؤلاء المصريين يجري النيل في بلادهم بينما أبدانهم المتسخة تفوح برائحة العفن إنكم تعيشون عيشة البهائم بينما جلاؤكم يعيشون عيشة الملوك إنه خير لكم لو توقفتكم عن شق بطن الأرض لتزرعوها وتشقوا صدور أعدائكم ، ولو انتصرتكم لغنمتهم كل شئ ولو خسرتكم فلن تخسروا إلا البؤس والفاقة ، وكانت دائرة التلاميذ تتسع كل يوم حتي ضاق المقهى بالرجل وتلاميذه وكانوا خليطاً من أنواع شتي ، طالب الدين محمد عبده ، - - والشاعر محمود سامي البارودي ، والفلاح محمد عبد العال الصعيدي ، والصعلوك الظريف عبد الله النديم ولقتت الندوة انتباه السلطة وجذبت رائحتها جواسيس الحكومة (١) وتم القبض علي الأفغاني وإبعاده عن مصر

نقلًا عن كتاب (مصر من تاني) صفحة ١١١ تأليف محمود السعدني - دار أخبار اليوم (طبعة ١٩٩٨)

^١ مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ١١١

٢١٤ . من مقدمة كتاب حديث عيسى بن هشام

تأليف محمد المويلحي ، حيث كتب ما يلي

حدثنا عيسى بن هشام قال : رأيت في المنام ، كأني في صحراء الإمام ، أمشي بين القبور والرجام ، في ليلة زهراء قمراء ، يستر بياضها نجوم الخضراء ، وكنت أحدث نفسي بين تلك القبور ، وفوق هاتيك الصخور ، بغرور الإنسان وكبره ، وشموخته بمجده وفخره ، واستعظامه لنفسه ، ونسيانه لرمسه ، - - - وبيننا أنا في هذه المواعظ والعبر ، وتلك الخواطر والفكر ، إذا برجة عنيفة من خلفي ، كادت تقضي بحتفي ، فالتفت التفاتة الخائف المذعور ، فرأيت قبراً انشق من تلك القبور ، وقد خرج منه رجل طويل القامة ، عظيم الهامة ، عليه بهاء المهابة والجلالة ، ورواء الشرف والنبالة ، فصعقت من الوهل والرجل ، صعقة موسى يوم دك الجبل ، ولما أفقت من غشيتي ، وانتبهت من دهشتي ، أخذت أسرع في مشيتي ، فسمعت يناديني ، وأبصرته يدانيني ، فوقفت امتثالاً لأمره ، واتقاء لشره ثم دار الحديث بيننا وجري ، علي نحو ما تسمع وتري :

الدفين :

ما اسمك أيها الرجل ؟ وما عملك ؟ وما الذي جاء بك ؟

فقلت في نفسي : حقاً إن الرجل لقريب العهد بسؤال الملكين ، فهو يسأل علي أسلوبهما ، فاللهم أنقذني من الضيق ، وأوسع لي في الطريق ، لأخلص من مناقشة الحساب ، واكتفي شر هذا العذاب ، ثم التفت إليه فأجبتة :

عيسى بن هشام :

اسمي عيسى بن هشام ، وعلمي صناعة الأقلام ، وجئت لأعتبر بزيارة المقابر ، فهي عندي أوعظ من خطب المنابر

الدفين :

وأيّن دواتك يا معلم عيسى ودفترك ؟

عيسى بن هشام :

أنا لست من كتاب الحساب والديوان ، ولكني من كتاب الإنشاء والبيان

الدفين :

لا بأس بك ، فأذهب أيها الكاتب المنشئ فاطلب لي ثيابي ، وليأتوني بفرسي دحمان

عيسى بن هشام :

وأيّن يا سيدي بينكم فإني لا أعرفه ؟

الدفين (مشمئزاً) :

قل لي بالله من أي الأقطار أنت ؟ فإنه يظهر لي أنك لست من أهل مصر ، إذ ليس في القطر كله من أحد يجهل بيت أحمد باشا المنيكلي ناظر الجهادية المصرية

عيسى بن هشام :

أعلم أيها الباشا أنني رجل من صميم أهل مصر ، ولم أجهل بيتك إلا لأن البيوت في مصر أصبحت لا تعرف بأسماء أصحابها ، بل بأسماء شوارعها وأزقتها وأرقامها ، إذا تفضلت وأوضحت لي شارع بيتكم ورقمه انطلقت إليه وأتيّتك بما تطلبه

الباشا (مغضباً) :

ما أراك أيها الكاتب إلا أن بعقلك دخلاً ، فمتي كان للبيوت أرقام تعرف بها ، والأولي أن تناولني رداءك استتر به وتصاحبني حتي أصل إلي بيتي
قال عيسى بن هشام : فنزلت له عن رداي وقد كان المعهود سلب المارة لا يكون إلا من قطاع الطريق ، فإذا هو أيضاً من سكان القبور ، ثم ارتداه مستكفاً متردداً وهو يقول :
الباشا :

للضرورة أحكام ، وقد لبسنا أدنى من هذا الرداء في مصاحبتنا لأفندينا المرحوم إبراهيم باشا علي طريقة التنكر ،
والتبديل في الليالي التي كان يقضيها في البلد ، ليستطلع بنفسه أحوال الرعية ، - - - - -
قال عيسى بن هشام : فسرنا في طريقنا ، وأخذ الباشا يزيدني تعريفاً بنفسه ، ويقص علي من أنباء الحروب وأخبار
الوقائع التي شاهدها بعينه وسمعها بأذنه
وما زلنا علي تلك الحال حتي وصلنا في ضوء النهار إلي ساحة القلعة ، فوقف وقفة المستكن الخاشع ، يقرأ سورة
الفاحة لضريح محمد علي ، ويخاطب القلعة بقوله :

إيه لك يا مصدر النعم ، ومصرع الجبايرة من عتاة المماليك ، ويابيت الملك وحصن المملكة ، ومنبع العز ، ومهبط
القوة ، ومرتفع المجد وموئل المستغيث وحمي المحتمي ، وكنز الرغائب ومنتهي المطالب ، ومثوي البطل الشهم ومقبر
الملك الهمام ، أيها الحصن كم فككت بالكرم عانيا ، وقيدت بالإحسان عافيا ، وكم أرغمت أنوفاً ، وسللت سيوفاً ، وجمعت
بين الناس والندي ، وداورت بين الحياة الردي

نقلاً عن كتاب حديث عيسى بن هشام - تأليف محمد المويلحي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مكتبة الأسرة

٢١٥. الخديوي اسماعيل يقلد أوروبا :

كان الخديوي اسماعيل يحاول تقليد أوروبا بشتي الطرق لجعل مصر قطعة من أوروبا إلي أن تم في عهده برلمان يسمى مجلس شوري النواب ليتباهي به أمام أصدقائه من ملوك أوروبا وكان هذا البرلمان بلا صلاحيات تذكر ومع ذلك سبب هذا البرلمان إزعاج للحكومة وللخديوي بعد أن زادت ديون مصر بشكل خطير أدى إلي تدخل مجلس شوري النواب وإليك بعض ما كتبه المؤرخ الكبير جمال بدوي رحمه الله عن الخديوي اسماعيل وديونه وبرلمانه :

(كان أقصي ما يريده اسماعيل أن يبدو أمام ملوك أوروبا في صورة الفنجري القاعد علي أموال قارون ثم ينثرها ذات اليمين وذات الشمال ولو عن طريق السلف من بيوت الربا والبنوك الأوروبية وكان هؤلاء الملوك يعرفون الحقيقة المفزعة وهي أن هذه الأموال هي من خزائن بنوكهم وهي بضاعتهم ردت إليهم في أشكال من السفه والبذخ والفشخرة الكدابة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً)^١ ،

(ومضي اسماعيل في تقليد الأوروبيين في عاداتهم وسلوكياتهم وملابسهم وسهراتهم متناسياً أنه حاكم مسلم يحكم شعباً مسلماً له موروثاته وعاداته وتقاليده وأن تبديل العادات والتقاليد عن طريق الصدمات والطفرات يؤدي إلي نتائج عكسية لأن عملية التطور الاجتماعي تتطلب تهيئة ذهنية وثقافية طويلة المدى ولم يلتفت إلي ملاحظات وانتقادات رجال الدين لمظاهر التفرنج بل بطش بمشايع الأزهر عندما عارضوه وانتشي بمدائح الكتاب الأوروبيين الذين باركوا سياسته وانهالت مقالاتهم بنزعة التحررية ومسايرته لروح العصر ولم تكن هذه المقالات لوجه الله وإنما مقابل الأعطيات التي كان يغدقها عليهم الخديو والتي بلغت خمسة ملايين جنيه في تقدير بعض المؤرخين)^٢

(هل كان اسماعيل وهو يضع لبنات مجلس شوري النواب يتوقع أن ينقلب الهزار إلي جد ؟ وأن يتحول هذا المجلس الضعيف المسالم إلي شريك مخالف شرس ؟ وأن يصيح أحدهم في وجه الطاغية حين أراد فض المجلس دون النظر في الميزانية : أننا هنا سلطة الأمة ولن نخرج من هنا إلا بقوة الحراب (!) قالها عبد السلام المويلحي في صباح يوم الخميس ٢٧ مارس ١٨٧٩ م عندما توجه رياض باشا وزير الداخلية ورمز الاستبداد وهو منتفخ الصدر إلي قاعة مجلس النواب بالقلعة ليتلو قرار فض الدورة حتي تكتمل المؤامرة التي دبرها رئيس الوزراء نوبار باشا مع الوزيرين الدخيلين - الإنجليزي والفرنسي - لإعلان إفلاس مصر كحل أخير لأزمة الديون الأجنبية وعلمت العناصر الوطنية في المجلس بما تدبره الحكومة في الخفاء ، فأعدوا مشروعاً مضاداً يقضي أن يلتزم المصريون بتسديد الديون من دخلهم القومي بشرط تنظيم الشئون المالية وإصلاح مفاصل الإدارة بعيداً عن الوزيرين الأجبيين)^٣ وبالرغم من مغادرة رياض باشا المجلس غاضباً ظل المجلس في حالة انعقاد وتناوب الأعضاء علي المبيت في القاعة حتي استقالت الحكومة

مقتطفات من كتاب محمد علي وأولاده (جمال بدوي) من صفحة ٢٢٩ ، و صفحة ١٥٠ مكتبة الأسرة ١٩٩٩

^١ محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ٢٢٩

^٢ المرجع السابق صفحة ٢٢٩

^٣ محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة ١٥٠

٢١٦. عندما تولى الخديوي توفيق حكم مصر

وخطاب تكليف شريف باشا برئاسة الوزراء

هو محمد توفيق بن اسماعيل بن ابراهيم بن محمد علي ، ولد يوم الخميس ١٠ رجب سنة ١٢٦٨ هـ الموافق ٣٠ ابريل سنة ١٨٥٢ م ، ولما شب وترعرع ألحقه والده بمدرسة المنيل فتلقى فيها العلوم الأولية ، ثم انتقل إلى المدرسة التجهيزية فتلقى فيها علومها ، ودرس اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية والتركية والفارسية وتزوج سنة ١٨٧٣ بالأميرة أمينة إلهامي كريمة الأمير إبراهيم إلهامي نجل عباس باشا الأول ، ولم يتزوج من غيرها ، ورزق منها سنة ١٨٧٤ بالأمرير عباس حلمي - الخديو عباس حلمي الثاني - وفي سنة ١٨٧٦ بالأمرير محمد علي ، ثم رزق منها بالأميرتين خديجة ونعمت ، ولما بلغ التاسعة عشرة من عمره قلده أبوه رئاسة المجلس الخصوصي الذي كان بمثابة مجلس الوزراء ، ثم ولي وزارتي الداخلية والأشغال ومرن قليلاً علي أحكام الإدارات والدواوين ، ثم قلد رئاسة الوزراء في ١٠ مارس سنة ١٨٧٩ عقب سقوط وزارة نوبار باشا حين اشتد النزاع بين اسماعيل والدول الأوروبية ، وكانت هذه الوزارة تضم وزيرين أوروبيين ، أحدهما إنجليزي والآخر فرنسي ، ولم تدم طويلاً إذ قام الخلاف بينها وبين مجلس شورى النواب ، واستهدفت لحركة معارضة قوية انتهت بسقوطها وتأليف وزارة محمد شريف باشا الأولي في سنة ١٨٧٩ ، وهي الوزارة التي بقيت تتولي الحكم إلى أن خلع اسماعيل ، فلما ورد النبأ البرقي بخلعه يوم الخميس ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ تلقى توفيق باشا في اليوم ذاته نبأ إسناد منصب الخديوية إليه ، وكانت سنة ١٢٨٠ هـ ثلاثين سنة هجرية إلا ثلاثة أيام ، فأقيمت حفلة تنصيب في مساء ذلك اليوم بالقلعة ، وكان يوماً مشهوداً ، فتوجه من سراي الإسماعيلية إلى القلعة يصحبه في عربته أخواه الأمير حسين كامل باشا - السلطان فيما بعد - والأمير حسن باشا ، وشريف باشا رئيس مجلس الوزراء ، تتبعه عربات الأعيان والكبراء وقناصل الدول ، وابتدأ إطلاق المدافع إيذاناً بتحريك الموكب من سراي الإسماعيلية ، وأطلقت مائة مرة ومرة ، اتباعاً للرسوم المعتادة ولما بلغ سراي القلعة جلس في قاعة التشريعات وكان بها كبار العلماء والموظفين والقناصل والأعيان ، وتلقى تهاني المهنئين بجلوسه علي العرش ، وبعد الفراغ من الحفلة أطلقت المدافع ثانية مائة مرة ومرة ، وعاد الخديو إلى سراي الإسماعيلية

لم يكن في ماضي توفيق قبل ولايته الحكم ما يسترعي النظر أو يدل علي اتجاه معين في سياسته ، علي أن هذا الماضي كان يبعث الأمل في أن يكون عهده خيراً من عهد اسماعيل ، فقد شهد المتاعب التي استهدفت لها البلاد بسبب إسراف أبيه وتورطه في القروض ، وتولي الوزارة في ظروف اشتد فيها نفوذ الدول الأوروبية بسبب هذا الإسراف ، ورأي بعينه ما فرضته إنجلترا وفرنسا علي أبيه من أن يكون لهما وزيران يمثلانها ويحميان مصالح الدائنين من الأوروبيين ، وكان له في استقامته الشخصية وميله إلى الاقتصاد ما يجعله بمنأى عن أخطاء أبيه

علي أن ثمة ناحية ضعف في شخصيته ، وهي أنه كان ضعيف الرأي متردداً ، قليل الشجاعة والحزم ، فاستشعر الخوف من النفوذ الأوروبي من يوم توليته الحكم ، وكان همه الأول طوال عهده النزول علي إرادة الدول الأوروبية ، ولم يكن مؤمناً بالنظام الدستوري ، بل كان في خاصة نفسه من أنصار الحكم المطلق ، ومن ذلك كله تولدت في عهده الأزمات والمشاكل التي جاوزت في خطورتها وعواقبها ما حدث في عهد أبيه

وفي الحق أن اسماعيل كان أكثر شجاعة واقداماً من توفيق ، ولو كان توفيق يجمع إلي خصاله الطيبة شجاعة أبيه ، وجرائته وعلو همته لنجت البلاد من الكوارث التي وقعت في عهده ، ولتغير مجرى التاريخ القومي إلي خير مما كان وأقوم ، كان محمد شريف باشا ، الوزير المشهور رئيساً للوزارة حين ولي توفيق باشا الحكم ، فقدم استقالته جرياً علي العادة

المتبعة عند تغيير ولي الأمر ، ولكن توفيق باشا رغب إليه في البقاء وتأليف الوزارة مرة أخرى ، وكتب إليه في هذا الصدد بتاريخ ٢ يولييه سنة ١٨٧٩ كتابا رقيقا يؤكد فيه ثقته ويعرب عن آماله في الإصلاح ، قال فيه :

يا وزيرى العزيز

لقد استعفت الوزارة فأكلفك بتشكيل وزارة جديدة ، ولا أزيدك بحقيقة الحال علماً ، ولما قضت العناية الأزلية بتولييتي أمر بلادي جعلت علي واجبات ليس من همي إلا النهوض بها بأمانة وشهامة علي علمي بمقدار صعوبتها وجسامتها المطالب المتراكمة علي مع الارتباك والفترة المالية التي انزعجت منها الخواطر إذ وقفت حركة التجارة وأوجدت فترة في البلاد لم تقع في مصر من قبل ، علي أنني عظيم الميل إلي بلادي شديد الرغبة في تحقيق آمال الأمة التي أظهرت السرور بولايتي وفي إخراجها من هذه الحال السيئة ، ومع هذه العواطف فإني عازم عزماً أكيدا علي بذل الجهد وصرف الهمة إلي التماس أحسن الوسائل لإزالة هذا الاختلال المفسد لكثير من المصالح ، وذلك بتقرير الاقتصاد الحق القانوني في نفقات الحكومة ورعاية الأمانة والاستقامة في الخدمة العمومية وإصلاح شئون الهيئة القضائية والهيئة الإدارية تلك هي الوسائل الأولى التي يهمني اتخاذها لتقوي بها المملكة علي استرجاع قوتها وتوسيع موارد ثروتها وإنجاز وعودها ووفاء عهودها ، إلا أن إدراكي لهذه الغاية التي هي موضوع آمالي يتوقف علي مساعدة الأمة بجملتها ووجود الغيرة الوطنية في قلوب مأموري الحكومة وصدق العزيمة في الذين يساعدونني علي إدارة الأعمال مسئولين عما يفعلون ويقيني أن لا أفقد هاته المساعدات ولا أعدم من الله الكريم مدداً وأنتك ستتهض بما كلفتك به علي الوجه الموافق لنيتي وللغاية التي أسعي إليها ، فاقبل يا وزيرى العزيز تأييد مودتي الصادقة

محمد توفيق

نقلا عن كتاب - الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي - تأليف عبد الرحمن الرافعي - دار المعارف

٢١٧. عندما توقف قطار الخديوي في منفلوط



مر الخديو توفيق بالقطار الملكي علي منفلوط ذات يوم وخرج الأعيان لاستقباله بالمحطة وتقدم إليه شاعر منفلوط حينئذ الشيخ أبو النصر واستأذن أن يلقي بين يديه قصيدة للترحيب ، فتنازل الخديو وأذن له ، وربما فعل لعلمه بأن القطار لن يقف بالمحطة إلا دقائق معدودة ، ولعله كان يعرف الشاعر إذ كانت له شهرة مستفيضة في خفة الدم والظرف والفكاهة وبدأ الشاعر تلاوة قصيدته ، بيتاً بعد بيت ، والخديوي يهز رأسه بالرضي والإعجاب ، ثم يصبر ، والشاعر ماض لا يفتتر عن التلاوة ، تتلاحق الأبيات ، دون أن تلمع بارقة أمل في قرب الختام ،

فتململ الخديوي وانتقل غليان القاطرة وضجرتها إليه بالعدوي ، فقاطع الشاعر قائلاً بضيق يقتعه بابتسام :

- هي القصيدة كام بيت يا شيخ أبو النصر ؟

فأجابه كلمح البرق :

- ٩٩ يا أفندينا

هذا جواب لا يمكن السكوت عليه بل يثير بلا تردد سؤالاً لا مفر منه ولا يختلف فيه اثنان

فارتفع حاجب الخديوي واختلجت عينه وقال بعجب :

- طب وماخلتهاش ١٠٠ ليه ؟

فكان الرد أسرع من سابقه :

- أصلي ناقصني بيت يا أفندينا

ففهم الخديوي - - هذه التورية وابتسم لها وأقطعه بيتاً في منفلوط ، مكافأة للشاعر علي لباقته وظرفه ، ولينقذ نفسه

-علي الأقل- من قصيدة لا تنتهي

نقلاً عن كتاب خليها علي الله للكاتب الكبير يحيى حقي - مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ - صفحة ٢٣١-٢٣٣

٢١٨. من مقدمة كتاب (الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي)



بقلم المؤرخ الكبير عبد الرحمن الراجحي

لثورة العربية كما لكل ثورة أنصار وخصوم ، فلها أنصار يتحيزون إليها ويسوغون مواقفها كلها علي السواء ، ويدافعون عن رجالها في كل ما عملوا ، كأنهم علي حق في الخطأ والصواب جميعاً ، ولها خصوم يتحاملون عليها فينكرون حسناتها ويعدون عليها السيئات ، وإنك لتلمح هذا التحامل أو ذلك التحيز فيما تطالع من مختلف المؤلفات والمذكرات عن الثورة العربية ، ولقد بدا لي إزاء هذه الآراء المتباينة أن أدرس الثورة من غير سابق حكم عليها ، لأنتهي إلي رأي يهدي إليه البحث والتمحيص ، وهذا ما أدعو إليه كل محب للحقيقة ،

وبذلك نجلي الغموض الذي يلابس كثيراً من حوادث الثورة ، ونجعل منها صفحة واضحة من عبر الماضي ، فإن التجارب خير هاد إلي ما ينفع الأمم في حياتها القومية ، وهي العلم الذي لا يعلمه إلا الزمن ، علي أني حين أخذت في دراسة الثورة قد اختلج في نفسي شعور ملازم من العطف عليها ، لأنها علي ما كان من نهايتها فإنما قامت في الأصل لغرض نبيل هو إنقاذ الأمة من مظالم الاستبداد ، وإقامة قواعد الحكم الدستوري ، وتحرير البلاد من التدخل الأجنبي ، لكن هذا الشعور لم يصرفني عن تعرف أخطائها وزلاتها ، وبخاصة أخطاء زعمائها وأقطابها ، لأن هذه الأخطاء كان لها دخل أيما دخل فيما صارت إليه من الحبوط والإخفاق ،

وخلاصة ما انتهيت إليه في هذه الناحية أن للثورة مرحلتين مختلفتين ، فالمرحلة الأولى تبدأ بظهورها علي عهد وزارة رياض باشا في فبراير ١٨٨١ ذلك حين اعتقلت الحكومة أحمد عرابي وصاحبيه علي فهمي وعبد العال حلمي -- فثار زملاؤهم -- وأطلقوا سراحهم ، فاضطربت الوزارة لهذا الحادث الجلل ، واضطر الخديو توفيق باشا إلي الإذعان لمطالب الثوار ، فاستقال عثمان رفقي باشا وزير الحربية ، وعين بدله محمود باشا سامي البارودي الذي كان موضع ثقة العربيين ، فكان ذلك أول انتصار للثورة ، وبعد فترة من الهدوء الظاهري عادت الحرب سجالاً بين الخديو -- والعربيين فكانت الوقفة الشهيرة للثورة العربية -- في ميدان عابدين يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ، وقدموا للخديو مطالبهم -- ، وأهم هذه المطالب سقوط وزارة رياض باشا ، وتأليف مجلس النواب ، فاضطر الخديو إلي النزول علي حكمهم ، واستقالت وزارة رياض ، ثم عهد الخديو إلي شريف باشا تأليف الوزارة تحقيقاً لإرادة العربيين ، فألف شريف وزارته الدستورية ، ودعا إلي إنشاء مجلس نيابي كامل السلطة ، فاستجاب له الخديو وأمر بإجراء الانتخابات العامة ، وانتخب مجلس النواب ، وافتتحه الخديو يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ فكان افتتاحه يوماً مشهوداً في تاريخ الحركة القومية ،

وأخذ يضطلع بمهمته ، تتعلق به الآمال وترنو إليه الأبصار ،

وعرض عليه شريف باشا الدستور الذي وضعه سنة ١٨٧٩ ليقر ما رآه في شأنه ، أي أنه جعل من المجلس جمعية تأسيسية تضع الدستور وتقره ، وبذلك نالت البلاد مجلساً نيابياً تتمثل فيه سلطتها الدستورية والتشريعية ، إلى هنا سارت الأمور سيراً حسناً ، فكانت علي صراطها المستقيم وانتصرت الثورة علي طول الخط ، وحققت آمال البلاد ،

ولكنها استهدفت لدسائس السياسة الاستعمارية التي لم تكن تنتظر بعين الرضا إلي قيام النظام الدستوري في مصر ، فأخذت الدولتان الإنجليزية والفرنسية تلقيان العقبات والعراقيل في سبيل استقرار هذا النظام ، وتنتحلان لأنفسها التدخل في شئون البلاد ،

وكان أول مظهر لهذا التدخل مذكرة ٧ يناير سنة ١٨٨٢ التي قدمتها الدولتان وقوامها أنهما حيال الحوادث الأخيرة قد أجمعتا علي تأييد سلطة الخديو ،

ثم عارضتا في تخويل مجلس النواب حق تقرير الميزانية ،

بحجة أن تقريرها يمس حقوق الدائنين أو ينال منها ، وهي حجة واهية ظاهرة البطلان ، لم تضمنه الدستور من أن المجلس يراعي في تقرير الميزانية العهود والاتفاقات المالية التي ارتبطت بها الحكومة إزاء الدول ، واجهت البلاد أزمة سياسية خطيرة نشأت عن تقديم مطالب الدولتين ،

وكان مجلس النواب ينظر وقتئذ في الدستور الذي عرضه عليه شريف باشا تمهيدا لإقراره ،

فرأي شريف باشا ، درعاً للأزمة أن يوجّل مجلس النواب قراره النهائي في المادة المتعلقة بالميزانية ، ويرجنها إلي حين ، حتي تنجلي الغمة ويفاوض الدولتين في مطالبهما ،

والتأجيل في ذاته لم يكن مضيعاً لحقوق الأمة في الدستور ولا مخلّاً به ، لأن وضع الدستور في صيغته النهائية قد يستغرق وقتاً يطول أو يقصر علي حسب الأحوال والملابسات ،

فكان من المستطاع اتقاء الأزمة بتأجيل البت في هذه المادة ، ولكن ظهر في الميدان عامل جديد كان له أثره في تطور الأحداث ،

وهو طموح محمود باشا سامي البارودي في رئاسة الوزراء ، ورغبة العربيين في التخلص من شريف باشا ليجعلوا الوزارة مؤلفة من خاصة رجالهم ،

فاتخذوا من طلبه تأجيل البت في مادة الميزانية وسيلة لتوهين مركزه ، وبدت منهم الرغبة في إقصائه عن الحكم ، - - ، مما دعاه إلي تقديم استقالته ، فقبلها الخديو وتألّفت وزارة البارودي ،

ومن ثم ابتدأت المرحلة الثانية للثورة ،

ومن رأي أن الثورة أخذت تتعثر في سيرها منذ بدء هذه المرحلة ، وأن زعماءها أخطأوا في تنحية شريف باشا عن الحكم لأنه كان أقدر من سواه علي معالجة الأزمات وإحباط الدسائس والمؤامرات التي كانت تدبرها السياسة الاستعمارية الإنجليزية ، كانت هذه الدسائس والمؤامرات أهم العوامل في إخفاق الثورة العربية ،

إذ لا نزاع في أن الحكومة الإنجليزية قد انطوت علي نية نمت عليها الحوادث التي تعاقبت في ذلك العهد وهي خلق الأسباب والذرائع الباطلة لاحتلال البلاد ، علي أن مصر كانت تستطيع أن تحبط هذه المؤامرات وتنجو من أشرائها أو علي الأقل تخفف من عواقبها ، ولو أنها عرفت كيف تواجهها ، فإنه ما من أمة إلا وهي عرضة لمؤامرات خصومها المتربصين بها ، وليست تخلق أمة من أحداث تستهدف لها في حياتها السياسية والقومية ، وأنما يختلف مصير الأمم تبعاً لمقدرة كل منها علي مواجهة الأزمات والتغلب عليها ، وعندي أن أول ما استعانت به السياسة الإنجليزية في تدبيرها هو وقوع الانقسام بين الخديو والعربيين ،

فإن هذا الانقسام قد فتح الثغرات لتدخل الإنجليز ،

كما أنه أضعف قوة المقاومة في البلاد ،
 إذ انقسمت إلي معسكرين كلاهما يبغى الكيد للآخر ويضمر له ،
 في وقت كان الإنجليز يعدون فيه العدة للقضاء علي المعسكرين معاً ،
 ، ولا تتسع مقدمة الكتاب للإسهاب في تفاصيل هذا الانقسام ن ولكني أذكر هنا خلاصة رأيي في هذا الصدد ، وهو أن
 العربيين والخبديو كلاهما لم يقدر مضار الانقسام ولم يتبين عواقبه ،
 وكلاهما يتحمل تبعته ومسئوليته ، ففي الحق أن تبعاتهما من هذه الناحية تكاد تكون متعادلة متكافئة ، ولكن من الحق
 أيضاً أن نقول أن الموقف قد تغير منذ ضرب الإسكندرية ، إذ انحاز الخديو إلي الجيش الإنجليزي وساعده علي التغلغل في
 البلاد ، فهو المسئول عن هذا الموقف ، علي أن الذي يؤخذ علي العربيين في مدة الحرب أنهم لم يبذلوا من المدافعة
 والاستبسال فيها ما يثير في الأمة روح الإقدام والتضحية مما هو أخص واجبات زعماء الثورة في ساعة الخطر ،

٢١٩. كيف قام الإنجليز بضرب الإسكندرية عند احتلالهم لمصر سنة ١٨٨٢ :

(---- في الساعة السابعة من صبيحة الثلاثاء ١١ يوليو ١٨٨٢ أعطي الأميرال سيمور إشارة الضرب فانهاالت قذائف الأسطول البريطاني علي مدينة الإسكندرية ، كانت القنابل تنطلق بدقة وإحكام ، فتصيب أهدافها إصابات مباشرة أما مدافع الحصون والطوابي المصرية ، فكانت ضعيفة خائرة متراخية فتسقط قنابلها في مياه البحر ، دون أن تصل إلي البوارج الإنجليزية واستمر إطلاق الحمم حتي قبيل غروب الشمس ، وهي فترة كانت كافية لتدمير المدينة وتحويل أحيائها الآهلة إلي أطلال تتراكم فيها الجثث وتنقع البوم بعد أن فر سكانها وهاموا علي وجوههم نحو الريف بحثاً عن مأوي بقيهم نار الجحيم ، كانت مجزرة بشرية رهيبة ، ارتكبتها بريطانيا العظمي عقاباً للشعب المصري لأنه رفض الاستسلام للنفوذ الأوروبي الذي تغلغل في أنحاء الديار المصرية ويات يشكل خطراً علي روحها وشخصيتها وأخلاقها واستقلالها الوطني ، كان حكام مصر من سلالة محمد علي قد فتحوا أبواب البلاد علي مصاريعها أمام الأجانب ومنحهم امتيازات وحصانات جعلتهم بمنأى عن المساءلة إذا ارتكبوا أخط الجرائم ولم يكن هؤلاء الأجانب في مستوي الطبيب الشهير كلوت بك أو القائد العسكري الكولونيل سيف وإنما كان معظمهم من حثالات البشر المكسسين في الموانئ الأوربية من الأفاقين والمرايين وتجار الأعراض فلما تسامعوا عن الخير الوفير في مصر المحروسة شدوا إليها الرحال طمعاً في الثراء الرخيص وامتنهوا أحقر المهن وانتشروا في خدمة الحانات والخمارات وبيوت الدعارة فلما كثرت النقود في أيديهم وظفوها في الربا واستطاعوا تملك الأراضي الشاسعة والعقارات الثمينة - - -) (١ - وهناك تعليق للمسيو جون نينيه السويسري عن هذه المجزرة البشعة حيث قال (ويجب أن نعترف بأن هذه مجزرة همجية لم يكن لها أي مسوغ وليس الباعث عليها سوي الشهوة الوحشية المتعطشة إلي القتل وسفك الدماء) (٢ كما أن الأستاذ جمال بدوي علق علي موقف فرنسا من هذه المجزرة (فقد اعتبرت الحكومة الفرنسية مجزرة الإسكندرية وما تبعها من احتلال عسكري عملاً من أعمال البطولة تستحق عليه بريطانيا التهنة الحارة وكان جواب حكومة لندن علي التهنة : " إن انتصارنا هو انتصار أوروبي ولو انهزم الإنجليزي لكان ذلك كارثة علي كل الدول التي تحسب حساباً للتعصب الإسلامي ") (٣ ويضيف الأستاذ جمال بدوي في استنكار واضح (التعصب الإسلامي !! أنعم النظر في هذه العبارة الغريبة حتي يملك الغيظ ، بريطانيا العظمي تحرك في نفس شريكاتها النعرة الصليبية المقيتة وتري في دفاع أمة صغيرة عن حريتها واستقلالها وكرامتها مظهراً للتعصب الديني أما امتصاص دماء المصريين ونهب ثرواتهم وإذلال كرامتهم فهو عين التسامح الديني الذي تريده الدول العظمي !! ، منطق غريب جداً ولكنه منطق الذئاب الضارية مع الحمل الوديع في كل عصر) (٤

مقتطفات من كتاب (مصر من نافذة التاريخ) تأليف المؤرخ الكبير جمال بدوي رحمه الله - صفحة ٩٨ ، ٩٩ ،

١٠٠ مكتبة الأسرة طبعة ١٩٩٥

^١ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٩٨

^٢ مصر من نافذة التاريخ (جمال بدوي) صفحة ٩٩

^٣ المرجع السابق صفحة ١٠٠

^٤ المرجع السابق صفحة ١٠٠

٢٢٠. مصر تحت الاحتلال البريطاني

سمح الخديوي توفيق للجيش البريطاني باحتلال مصر والقضاء علي الثورة العربية ولم يكن يعرف أن دوره سينتهي بدخول الإنجليز وستصدر جميع القرارات بواسطة الاحتلال فلم يتحمل القهر ومات وعمره أربعين عاماً فقط وعن هذا الموضوع يقول المؤرخ الكبير جمال بدوي رحمه الله وهو يصف عودة الخديوي توفيق من الإسكندرية عاد الخديو الخائن توفيق بالقطار من الثغر المحترق إلي القاهرة المحتلة وكان في استقباله بمحطة العاصمة قادة الجيش البريطاني الذين سبقوه إلي القاهرة ومهدوا له طريق العودة وانطلق مكعب الخديو إلي قصر عابدين عبر الشوارع التي خلت من الجماهير وازدحمت بجيوش الاحتلال لقد خسر الشعب معركته بفعل الخيانة وبفعل القهر المسلح وأضحى الوطنيون بين طريد تتعقبه عيون العملاء والخونة وسجين ينتظر النفي والتشريد والوطن كله ينزف دماً من جراح الهزيمة وبدأ الظلام ينشر أعلامه السوداء علي مصر المحروسة وكان علي المصريين أن يعيشوا مرحلة الضياع كالأيتام علي مأدبة اللئام لقد مضى ذلك العصر الذي جلجلت فيه صيحات النديم والأفغاني ومحمد عبده وصرخة عرابي في وقفة عابدين وانطوت تلك الصفحة المجيدة من كفاح الشعب وبدأت مرحلة الانحطاط والهبوط إلي أسفل السافلين ، بات قصر الدوبارة - مقر المعتمد البريطاني - قبلة الكبراء والوجهاء الباحثين عن الأسلاب والمغانم بين حطام المعركة ، وأصبحت مصر نهياً لكل خوان أثيم

،عجبي علي مصر وسكانها قد خربت أركانها العامرة وأصبحت بالنذل مقهورة من بعد ما كانت هي القاهرة ،وبمرور الوقت تعاظم دور بريطانيا في مصر في الوقت الذي تضاعلت فيه سلطة الخديو الفعلية حتي أصبح من الملائم تتويج اللورد كرومر - - فإذا كان عهد اسماعيل هو عصر الأحلام الوردية فإن حكم توفيق جسد الكوابيس الاستعمارية التي أفزعته أيضاً ولم يحتملها كثيراً ووافته المنية عام ١٨٩٢م عن عمر يناهز أربعين عاماً نقلاً عن كتاب (مصر من نافذة التاريخ) تأليف جمال بدوي صفحة ١١٢ ، وكتاب (أسرة محمد علي) تأليف (سهير حلمي) صفحة ٢٤٦

٢٢١. من مقدمة كتاب دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي تأليف

فوزي جرجس تقديم جلال السيد



(رأيت أن أكتب للناس كتاباً يهتدون به إلى تلك الحقيقة المرموقة ، تمحيصاً للتاريخ من دون الأهواء الفاسدة والمفتريات الباطلة وسميته : كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العربية – قياماً بالواجب علي لأبناء وطني الأعزاء وتصحيحاً للتاريخ)

بهذه الكلمات صدر الزعيم أحمد عرابي مذكراته التي انتهت من كتابتها عام ١٩١٠ أي قبل وفاته بعام ، وكان قد أدرك منذ عودته من المنفى إلى أرض الوطن استمرار المؤامرة علي الثورة العربية ، فلم يكن كافياً للاحتلال البريطاني والعائلة الخديوية ما حدث من دمار وخراب لمصر ولم يأبهوا بآلاف الشهداء والضحايا ولا بآلاف المواطنين الذين قدموا للمحاكمة في أعقاب الاحتلال البريطاني ، بل كانوا يبحثون عن المسببات التي تحول بين المصريين وتطلعهم نحو الثورة ، كما حدث في الثورة العربية ، والتي كان من بينها (التاريخ)

فعملوا علي تشويه التاريخ المصري خاصة الثورة العربية وقادتها ، وحاولوا أن يوهموا المصريين أن الفتنة والتمرد والعصيان وما قام به عرابي ورفاقه هم سبب البلاء بل بلغ الأمر بأحد كتابهم بأن حمل الزعيم أحمد عرابي جريمة الاحتلال وبلغت الدعاية مداها من كتاب الاحتلال وشعراء القصر حتي أثرت في أحد الشبان المصريين المضللين الذي ما رأي عرابي حتي بصق في وجهه

وقد أدرك المستعمرون – منذ فترة طويلة – خطورة (التاريخ) وأهميته بالنسبة للشعوب وحركتها الجماهيرية ، فنجد أن مع جماعات الاستطلاع لغزو المنطقة العربية بدأت عمليات النهب والسرقة للآثار القديمة والمخطوطات العربية والتي مازالت في العواصم الأوروبية شاهدة علي جرائمهم وكانت تنفذ هذه العمليات طبقاً لتقارير الرحالة والمستشرقين الذين هجموا علي المنطقة منذ القرن السابع عشر

وأصبح في جامعتي أكسفورد وكمبريدج أقساماً لدراسة اللغة العربية وآدابها – منذ القرن الثامن عشر – هذا إلي جانب حركة الاستشراق في هولندا وألمانيا وغيرها ، ونحن نعرف أن الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ لم تقتصر علي الجنود

والمدافع والذخيرة ، بل كان ضمن أفرادها العلماء والمستشرقين والمهتمين بالتاريخ وهم الذين أعدوا المنشورات لنابليون ، وأنتجت هذه البعثة العلمية التي كانت ضمن الحملة الكتاب الشهير والمهم (وصف مصر) وفي ظل الاحتلال البريطاني دأب رجال الاحتلال علي تشويه تاريخنا من خلال ما كتبه المبشرون والتجار وعملاء المخابرات البريطانية والمعتمدين البريطانيين وكانت الثورة في رأيهم تمرد وعصيان وفتنة والجماهير تعني الغوغاء أما أبناء الشعب فهم الرعاع ولم تكن هذه النظرة قاصرة علي الاحتلال وموظفيهم بل شاركهم فيها السياسيون والكتاب والصحفيون الذين كانوا يدورون في فلکهم ، وأصبح من بينهم من يدافع عن الاحتلال - صراحة - وعن أعماله (العظيمة)

٢٢٢. ستانلي لينبول في القاهرة

ولد المؤرخ والرحالة البريطاني ستانلي لينبول في مدينة لندن في الثامن عشر من شهر ديسمبر سنة ١٨٥٤ ودرس في جامعة أكسفورد وجامعة دبلن وبدأ حياته العملية كمؤرخ وباحث في الآثار ، وقد زار مصر أكثر من مرة وعمل بها وله مؤلفات عديدة تتناول تاريخها وتوج في سنة ١٩٠٢ سلسلة مؤلفاته في تاريخ مصر بكتاب (سيرة القاهرة)

أو تاريخ القاهرة The Story of Cairo والذي قام بترجمته كل من د حسن إبراهيم حسن و د علي إبراهيم حسن وإدوار حليم وفي هذا الكتاب وصف رائع للعاصمة المصرية من أعلي قلعة الجبل (قلعة صلاح الدين) حيث يقول : ولكنك إذا وقفت علي أسوار هذا الحصن لم تعد تري أي اختلاف أو تناقض ، وإنما تبصر من حولك كل ما هو شرقي صميم ، -- هناك تجد الكثير من القباب والمآذن والأديار ذات القباب ، والمنازل المنبسطة الأسقف ، منها الأصفر والأبيض ، ومنها الأسمر ، كذلك بقعاً خضراء هنا وهناك ، يتخللها شجر الجميز العتيق وفي الجهة المقابلة تشاهد صفوف من النخيل ، وأخدوداً من الفضة حيث يجري ذلك النهر الطويل الصافي حالماً بين ضفتيه القاتمتين ، وهناك في الأفق حيث تأخذ الشمس في المغيب فتترك ورائها لونا أحمر قانياً ، هناك تبصر الأهرام الخالدة ، كذلك تشاهد المآذن الدقيقة وقد ارتفعت كثيراً عن مستوي القباب ، وسطوح المباني الأخرى ، حيث تكون لنفسها عالماً خاصاً بها ، فيه الكثير من السحر والجمال ، إن كل واحدة من هذه المآذن لها قصة جديرة بأن ترويها لنا ، قصة انتصار أو انكسار ، أو قصة مجاعة أو غزو ، أو قصة ثقافة وزهد ، وإذا ما اتجهت بنظرك شمالاً ، شاهدت مآذن جامع المؤيد البديعة من فوق باب زويلة ، إن هذه المآذن لتذكرنا بمئات الأحداث والقصص ، ووراء هذه المآذن ترتفع مآذن حي النحاسين وهي أنموذج كامل للفن الإسلامي ، ووراء هذه المآذن أيضاً نشاهد بعض الأبراج ، إنها أبراج جامع الحاكم ، وأمام هذه الأبراج يقع جامع السلطان حسن ، أكبر وأعظم المساجد التي ترجع إلي عهد المماليك ، وإلي اليسار قليلاً يري الناظر بروج وأروقة جامع ابن طولون الذي يطل علي التلال التي تحيط به - - - ويستمر المؤرخ البريطاني في الوصف منبهراً بكل ما يراه من عراقة إلي أن يقول : وهنا نعرف القاهرة لأول مرة علي أنها مدينة من مدن العصور الوسطي ،

بل أكثر من هذا نعرفها كمدينة لها تراثها المجيد منذ فجر التاريخ ، فنحن حين نطل من أعلي أسوار القلعة ، ندرك أن هناك محيطات أخرى غير تلك التي نعهداها زاخرة بالمياه ، وأن حاضرة مصر لا يمكن أن يكون لها حدود أنسب من الصحاري التي هي بمثابة الدرع الواقي لها ، والأهرام التي تعلن في جلاء ووضوح عن أعمالها المجيدة التي تمت منذ أقدم عصور التاريخ ولقد قال الإسرائيلي الحكيم : من لم يشاهد القاهرة لم يشاهد الدنيا فأرضها تبر - ونيلها سحر ، ونساؤها حور الجنة في بريق عيونهن ، ودورها قصور ، ونسيمها عليل ، عطر كعود الند ينعش القلب ، وكيف لا تكون القاهرة كذلك وهي أم الدنيا ،

مقتطفات من صفحة ٤٣-٤٦ من كتاب سيرة القاهرة - تأليف ستانلي لينبول - الهيئة المصرية العامة للكتاب-مكتبة

الأسرة - ١٩٩٧

٢٢٣. المؤرخ البريطاني ستانلي لينبول يصف الجامع الأزهر عندما جاء إلى مصر

عام ١٨٨٣م واشتغل بدراسة آثارها

ويوضح في كتابه سيرة القاهرة كيف كان بناء الجامع الأزهر من أول اهتمامات القائد جوهر الصقلي الذي أرسله المعز لدين الله الفاطمي علي رأس جيش كبير وأمره ببناء مدينة القاهرة بأسوارها وقصورها وأبوابها فكتب ستانلي لينبول عن هذا الموضوع ما يلي :

فقد كان أول ما عمله جوهر بعد أن بدأ في بناء أسوار القاهرة ، هو وضع أساس ذلك الجامع الذي لا يزال قائماً حتي اليوم ، والذي يعرفه العالم بأسره بإسم الجامع الأزهر ، وكان اليوم الذي وضع فيه أساس هذا المسجد العظيم هو يوم الأحد الموافق ٣ إبريل عام ٩٧٠م ، وقد تم بناؤه في الرابع والعشرين من شهر يونيه عام ٩٧٢ ، وفي عام ٩٨٨ أصبح العلماء يؤمنونه من كل حذب وصوب ، ومنذ ذلك الوقت صار ذلك الجامع من أهم الجامعات الإسلامية كافة ، يجتمع فيه عدد وفير من الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، من ساحل الذهب حتي ولايات الملايو ، ولكل شعب رواق خاص به ، ويتلقى هؤلاء الطلاب علي أيدي الشيوخ دروساً في مختلف فروع العروض والمنطق والبلاغة والجبر وما إلي ذلك ، وإلي عام ١٩٠١ كان يذهب إلي الجامع الأزهر أكثر من تسعة آلاف طالب يتلقون علومهم علي أيدي مائتين وتسع وثلاثين من الأساتذة ، ويتعلم هؤلاء الطلاب بالمجان ، ولم يبخل أهل العلم والأدب في القاهرة في كثير من العواصم الأجنبية بعلمهم وثقافتهم علي طلابهم ، وكانوا يكسبون عيشهم من التدريس ومن نسخ الكتب الخطية ،

وكان الطلاب الأجانب لا يتلقون العلم بدون مقابل فحسب ، بل كانوا يعطون قدراً من الطعام ينفق عليه من المال الموقوف ، وكانت الثقافة الأزهرية في بادئ الأمر محدودة ، ولكن علي الرغم من ذلك فإنه مثال طيب للتعليم الحر الذي يفتح أبوابه للفقراء دون تمييز في الجنس أو اللغة أو الطبقة ، وليس من السهل علي المرء أن ينسي منظر الطلاب وقد التفوا حلقة حول أستاذهم وأخذوا ينصتون إليه وكأن علي رؤوسهم الطير ، أو منظرهم وهم يمشون مقبلين مدبرين يستظهرون ما تعلموه من أستاذهم ، والواقع أن هؤلاء يمثلون في أذهاننا ما كانت عليه الثقافة العربية في العصور الوسطي ، حيث الرغبة الصادقة في العلم ، التي لا تتحسس في طلبه بقصد الحصول علي الجوائز ، أو اجتياز الامتحانات ، وذلك مما تفتقر إليه الجامعات الغربية ، والواقع أن قسماً من البناء الحالي للأزهر ، يمثل البناء الأصلي القديم ، فقد تم إصلاحه أكثر من مرة ، وأعيد بناؤه علي نطاق واسع في القرن الثامن عشر ، وأواسط القرن التاسع عشر ، الميلاديين ، علي الرغم من أنه يوجد بعض الأفاريز الكوفية الجميلة والأروقة الفارسية التي تتميز بها فترة الحكم الفاطمي ، إلا أن صبغته الآن علي وجه العموم صبغة حديثة ، ومهما يكن من شيء ، فإن الفناء المربع الشكل يقع في نفس المكان الذي قام فيه الخليفة المعز بالصلاة في عام ٩٩٣م - - - -

نقلًا عن كتاب سيرة القاهرة لستانلي لينبول ، ترجمة د حسن إبراهيم حسن ، د علي إبراهيم حسن ، د إدوار حليم ، طبعة مكتبة الأسرة ١٩٩٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٢٤. وصف الباحث والمؤرخ البريطاني ستانلي لينبول لمدينة القاهرة ومقارنته بما

كتبه المقريري

نقلًا عن كتاب سيرة القاهرة لستانلي لينبول ، ترجمة د حسن إبراهيم حسن ، د علي إبراهيم حسن ، د إدوار حليم ، طبعة مكتبة الأسرة ١٩٩٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب

ستانلي لينبول - هو باحث ومؤرخ إنجليزي ، قدم إلى الشرق في عدة رحلات علمية وله عشرات المؤلفات في التاريخ والآثار ، ونالت مصر القسط الأوفر من مؤلفاته ، عين أستاذًا للغة العربية بجامعة دبلن ١٨٩٧-١٩٠٤

ولد ستانلي لينبول في لندن عام ١٨٥٤م وأكمل تعليمه جامعتي أكسفورد ودبلن ،

وفي عام ١٩١٤ عمل أمينًا في المتحف البريطاني ، جاء إلى مصر عام ١٨٨٣م واشتغل بدراسة آثارها فيما بعد ، وتوالت زيارته التي أثمرت عن عديد من الكتب منها : النقود الإسلامية ثلاثة أجزاء ، صور القاهرة ، دراسات في مسجد ، الحياة الاجتماعية في مصر ، تاريخ مصر في العصور الوسطى ، أخلاق المصريين وعاداتهم ، وغيرها بالإضافة لمؤلفات أخرى عن الهند وتاريخ العرب في أسبانيا ، والسير والتراجم ، و استطاع بين عامي ١٨٧٦ ، ١٨٩٣ أن يتم المعجم العربي ، وتوج أعماله عام ١٩٠٢ بهذا الكتاب عن القاهرة ، وإليك بعض ما ورد في هذا الكتاب - سيرة القاهرة - من صفحة ٢٢١ وما بعدها :

- وفي مواجهة باب زويلة كان يوجد سوق الفاكهة حيث كانت تباع حاصلات البساتين التي حول القاهرة ، وكان لهذا السوق سقف ، شأنه في ذلك شأن أغلب الأسواق في سالف الزمان ، ليمنع الشمس من النفاذ إلى داخله ، وكانت الفاكهة ذات الرائحة التي تشبه رائحة حدائق الجنة ، ترتب في صورة تتم عن ذوق كثير ، وتزدان بالورود والحشائش الجميلة وهناك كثير من الأبنية المماثلة ، يروي لنا تاريخها المقريري ، بحيث نستطيع أن نكون من خلال وصفه صورة لما كانت عليه المدينة في القرن الخامس عشر ، والحق أن القاهرة كانت مكاناً جميلاً وأنيقاً في تلك الأيام ، وكانت قصور الممالك القديمة التي لا نجد لها أثراً سوى في تلك البقايا التي تتمثل في الجدران الضخمة الباهتة لقصر بشتاك والبوابة الضخمة لدار يشبك بجوار مسجد السلطان حسن ، ثم قصور قايتباي والأمير ممالي ويعرف باسم بيت القاضي كل هذه القصور كانت في ذلك الوقت في أوج عظمتها ، وكانت الأحياء المختلفة لا تزال منفصلة عن بعضها البعض بواسطة الأبواب المتينة التي تغلق حينما يرخي الليل سدوله ، وكانت الأسواق تظل بواسطة الحصر أو السقوف الخشبية ، كما كانت النوافذ ذات المشربيات الدقيقة الصنع تطل على الشوارع ، ويصف لنا المقريري سبعة وثلاثين حارة ، وثلاثين حياً (خطاً) ، وخمس وستين شارعاً (داراً) ، وواحد وعشرين شارعاً جانبياً ومتفرعاً (زقاق وخوخة) ، وتسع وأربعين ميداناً (رحبة) ، وخمسين سوقاً ، وثلاث وعشرين سوقاً كبيراً (قيصرية) ، وأحد عشر فندقاً (خاناً ، وكالة) ، وخمسة وخمسين قصرًا شهيرًا (داراً) ، وأربع وأربعين حماماً عاماً ، وثمانية وعشرين حكرًا وحديقة (بستاناً) وأحد عشر ميداناً ، وكثيراً من منازل النزهة (منظرة) ،

ولا يزال كثير من الشوارع يوجد في نفس مكانها القديم ، كما أن بعضها لا يزال يحتفظ باسمه مثل شارع الصليبية وبين القصرين وحارة برجوان وسوق السلاح وخان الخليلي والدرب الأصفر والحبانية والخرنفش

٢٢٥. المؤرخ البريطاني ستانلي لينبول يصف بعض النقوش الفاخرة عند زيارته

لمصر سنة ١٨٨٣م

، ، إن فن نحت الخشب لم يزدهر ولم يبلغ أقصى مداه إلا أثناء حكم السلاطين المماليك وعلي الأخص حكم الملك الناصر فقد كانت الأخشاب ذات الألوان المختلفة تستخدم لإحداث تأثير ملطف كما حل الترصيع محل النحت في الكتل الصلبة وأحياناً كنا نجد كل صفحة صغيرة منحوتة توضع في إطار من الأبنوس حافل بدوره هو الآخر بالنحت والنقوش ، وكثيراً ما كان يتكون من إطارين أو ثلاثة إطارات متميزة الواحد منها خارج الآخر ، ومن الغريب أن الرسم الداخلي لم يكن يتكرر في صفيحتين ، علي الرغم من مئات الصفائح التي كانت توجد هناك ، ولا يخفي علينا مقدار الجهد الذي كان يتكلفه نحت تلك الصفائح ووضعها ، بعد نقشها إلي جانب بعضها البعض ، وهناك نماذج كثيرة توجد في المساجد ، كما أن هناك نماذج أرق منها تتمثل في الأبواب الخشبية المرصعة بالعاج في كنائس بابليون القبطية ، والتي أغلب الظن أن المسلمين أخذوا منها فنهم ، إلا أن أروع نماذج لنحت المماليك توجد الآن في لندن ، ذلك أن عدداً كبيراً من تلك النماذج نقل أثناء حكم الخديوي اسماعيل ، وحتى قبل ذلك ، إلي المتحف الموجود جنوب كنسجتون فهناك نستطيع أن ندرس علي مهل بعض النقوش العربية الفاخرة - والتي ليست جد متقنة في الوقت نفسه - المأخوذة من المنبر الذي الذي بناه السلطان لاجين في مسجد ابن طولون عام ١٢٩٦م ، وهناك قطع أخرى منحوتة من جامع المرداني ١٣٣٩م موضوعة في شكل غير مقبول فوق منضدة فرنسية ، ومجموعة ثالثة لعلها من منبر جامع قوصون ، موضوعة كذلك في إطار حديث ولو أن النحت العربي مازال محتفظاً برونقه وجماله ، وأخيراً نجد منبراً كاملاً يحمل اسم قايتباي ولكن لا يعرف من أي مسجد أخذ ، وهذه الأشياء في مجموعها تكون معرضاً جميلاً لنقش الخشب في أحسن عصوره

ومهما يكن من شئ ، فإن المجموعات فيها بعض الاختلاف ، وأحياناً شئ من التدهور ،

وأن دراسة فاحصة للرسوم سوف ترينا أن الفن وصل إلي أقصى مداه في نقوش جامع المرداني ، أي بعد حكم الناصر مباشرة ،

نقلًا عن كتاب سيرة القاهرة لستانلي لينبول ، ترجمة د حسن إبراهيم حسن ، د علي إبراهيم حسن ، د إدوار حليم ، طبعة مكتبة الأسرة ١٩٩٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٢٦. المؤرخ ستانلي لين بول ووصفه الممتع لاحتفال المصريين بمولد سيدنا

الحسين سنة ١٨٨٢ م

حيث كتب ما ملخصه :

ومهما يقال عنا معشر الإنجليز من أننا نكون مكتئبين علي الدوام أثناء لهونا ، فإنه حتي ذلك الجمهور الذي اعتاد أن يشاهد مسرحيات إبسن سوف يقف مدهوشاً أمام تلك الاحتفالات الإسلامية ، فعلي حين لا توحى أعيادنا الدينية بأي مرح للرجل الإنجليزي العابس ، تجد الرجل القاهري يتمتع بأعياده الدينية إلي أقصى الحدود بالطريقة الرزينة الهادئة المعروفة ، وتلك الأعياد جد كثيرة ، والمولد في القاهرة ليس احتفالاً يستغرق يوماً واحداً وإنما قد يمتد في بعض الأحيان إلي تسعة أيام ، وكل سائح زار القاهرة لابد أن يعرف بعض هذه الأعياد ، من ذلك الاحتفال بالكسوة الشريفة ومرور المحمل بقافلة الحجاج إلي مكة ، هذه المشاهد جديدة بأن يراها كل منا ، إذا تصادف وقوعها في موسم السياحة ، فالسنة الهجرية لا تزال تسير وفقاً للتقويم الذي يعتمد علي القمر ، فهذا التقويم من شأنه أن يتغير فيغير معه الأعياد كلما دار الفلك دورته ، والواقع أنه قد يندر أن يمر أسبوع واحد دون أن يكون هناك عيد أو احتفال ، - - - والحسين مما لا شك فيه ينال حقاً من الاحترام والتبجيل في القاهرة ، والاحتفال بمولده من المشاهد التي يسر لها السائح الأوروبي كثيراً ، فليس هناك في الواقع أبهج ولا أروع من تلك المناظر التي نشاهدها في شوارع القاهرة وأسواقها في ليلة الحسين الكبرى ، والشئ الغريب حقاً أنه في إحدى ليالي الشتاء وبعد موقعة النل الكبير ، حينما كنت واقفاً - لأن الركوب كان إذ ذاك متعذراً - وسط جمع محتشد غفير في شارع الموسكي ، وجاهدت لأشق طريقي إلي ذلك الزقاق الذي يؤدي إلي بيت القاضي ومسجد الحسين ، أقول إنه من الغريب حقاً أنني لم ألاحظ هناك أية روح سيئة أو تعصب ، علي الرغم من وجود كثير من الأوروبيين الذين كانوا يجتالون في الطرقات البهيجة المزدانة بالأنوار في ليلة عيد ، ولكنك بدلاً من هذا كنت تجد النساء الإنجليزيات يتخللن الأسواق ، والضباط الإنجليز والسائحين يختلطون بالجمهور ، بل إنهم بلغوا في بعض الأحيان أبواب الجامع المقدس نفسه دون أن يمسمهم أحد أو ييدي لهم أدنى مضايقة بل أقل ملاحظة ،

وفي بعض الأحيان قد تشاهد سيدة مصرية وهي تدعو بعض الأجانب وتطلب منه أن يصلي علي النبي وقد تذهل السيدة المصرية حينما يجيبها بقوله اللهم صل عليه ، علي أنه إذا لم يعرف ذلك الأجنبي كيف يجيب عن مثل هذه الأسئلة إجابة صحيحة ، فلن ينتج عن ذلك ضرر علي الإطلاق ، فإن طيبة القلب والطبيعة السمحة التي توحى بها مثل تلك الأعياد مما ينسي ذكري الحرب ، ومن المؤكد أنه لا يمكن أن يكون هناك جمهور إنجليزي يعتمد عليه ويوثق به يستطيع أن يسلك مثل هذا المسلك البديع مع وجود أقلية غير مرغوب فيها معه ولما انحرفت في أحد أزقة خان الخليلي الكبير كان ذلك المنظر يشبه إحدى صور ألف ليلة وليلة ، وإذا خرجنا من الخان وجدنا أناساً كثيرين يتدفقون إلي جامع الحسين ، وعلي قيد بضعة خطوات نري بعض الرجال يدخلون إحدى الخيام وأحد المهرجين وهو يقوم بالتقليد في صورة تبعث علي المرح وفي سرادق آخر نجد القراجوز فنجد أفراداً قد أخذهم المرح حتي لتكاد جوانبهم تنفجر من كثرة الضحك ، وهم مهمم رأوا ، وأينما ساروا ، ومهما قابلوا ، من الناس ومهما يكن فقرهم وهمومهم الخاصة كل ذلك لا يمكن أن ينال من طيبعتهم المرحّة في ليلة الحسين المباركة ،

ولعل أول ما يتميز به الجمهور المصري أنه يمكن تسليته في سهولة تامة ، فإن أبسط المناظر وأقدم النكات تبعث فيه المرح والسرور ، ويكفي أن تجعل الأوروبي المدقق يأسف علي ضبطه نفسه ليري كيف أن هؤلاء البسطاء يدخل المرح قلوبهم من أقل شئ

نقلًا باختصار عن كتاب سيرة القاهرة تأليف ستانلي لين بول - ترجمة د حسن إبراهيم حسن ، د علي إبراهيم حسن ، د إدوار حليم - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مكتبة الأسرة طبعة ١٩٩٧

٢٢٧. عندما كان المهندس المصري يصمم بيتاً يوفر الراحة والهدوء والخصوصية

كما وصفه الباحث والمؤرخ البريطاني ستانلي لين بول الذي جاء إلى مصر سنة ١٨٨٣

فقال عن تصميم البيوت المصرية ما يلي :

(----) وفي داخل الدار ممر ينعطف فجأة بعد خطوة أو خطوتين ، ويحول دون مشاهدة أي شيء في الداخل وأنت بالباب الخارجي ، وفي نهاية هذا الممر نجد أنفسنا أمام فناء متسع به بئر المياه - في أحد الأركان الظليلة ، وفي أغلب الأحيان نجد شجرة عتيقة للجميز ، وفي هذا المكان لا تتلمس دليلاً علي أن ثمة حياة ، فالأبواب مغلقة في إحكام إمعاناً في الغيرة والحذر ،

والنوافذ تحجبها تلك الستائر الخشبية البديعة التي تروق عين الفنان ، وتغري الكثير من الغواة باقتنائها ، والفناء الداخلي لا يقل في هدوئه وسكونه عن تلك الأجزاء التي تطل علي الشارع نفسه ، وهنا لا نري أية علامة لحياة هؤلاء السكان المنزلية ، لأن غرف النساء منعزلة تماماً عن هذا الفناء ولا تطل عليه ، إنما تطل عليه غرف الرجال وحجرات الاستقبال وما إلى ذلك

والواقع أن هذا المكان الهادئ منعش جداً حينما يأوي إليه المرء بعد أن قاسي الكثير من الجلبة والصخب في الشارع حينئذ يشعر المرء أن المهندسين المصريين قد أدركوا لحسن الحظ ما تقتضيه الحياة في الشرق ، فهم يجعلون الشوارع ضيقة ، ويظللونها بالمشربيات البارزة حتي لا تصل أشعة الشمس المحرقة إليها ، كما هو الحال في شوارع المدن الأوروبية الواسعة ، حيث تستطيع الشمس أن تنفذ إلي هذه الدور ، ولكنهم يجعلون المنازل نفسها فسيحة الأرجاء ، ويحيطونها بالحدائق والأفنية ، لأن حرارة الشمس لا تطاق في الغرف في أثناء الصيف ما لم يتخللها الهواء إن فن المهندس الشرقي يتلخص في أنه يبني لك منزل بحيث لا يستطيع أن تري شيئاً من خلال نوافذ جارك ، وبحيث لا يستطيع جارك في الوقت نفسه أن يري شيئاً مما يدور خلف نوافذ منزلك

والطريق الواضح للوصول إلي هذه الغاية ، هو أن تكون الحجرات بحيث يحيط بها فناء واسع فسيح الأرجاء ، وأن تكون النوافذ محتجبة بالستائر الخشبية المتشعبة التي تسمح لقبس ضئيل من النور أن يدخل ، وتدع قدراً وفيراً من الهواء يتخلل أجزائها كما يسمح بالنظر من خلال هذه النوافذ دون أن يري الغريب من المارة ما بداخلها والستائر الخشبية والفناء المنعزل من شأنهما أن يعمل علي تحقيق ذلك النظام الذي يحتمه الإسلام بفصل الجنسين بعضهما عن بعض ،

والحجرات السفلى التي تواجه أبوابها الفناء مباشرة ، وهي تلك الحجرات التي يستطيع الشخص أن يمشي فيها آمناً ولا يخشي أن يري وجهاً لأية امرأة في البيت ،

وإلي إحدى تلك الحجرات السفلى يتقدمنا مضيفنا ، طالباً إلينا في أدب جم أن نوليهِ الشرف بأن نظهر كما لو كنا في بيوتنا الخاصة ،

إنها حجرة الاستقبال ، أو المنطرة ، وهي بمثابة أنموذج لما ينبغي أن تكون عليه الغرف في العادة ، والجزء الذي ندخل منه في الحجرة منخفض عن بقية الأجزاء ، وإذا كان المنزل أنيقاً حقاً فإننا نجد هذا الجزء المنخفض مغطى بالرخام المصنوع من الفسيفساء ، وفي وسطه نافورة تعمل علي تبريد الهواء ، وبإزاء الباب نجد قطعة مسطحة من الرخام محملة علي أقواس ، حيث توضع قلال الماء وأقداح القهوة وأدوات غسيل الأيدي

ونحن نخلع أحدىتنا الخارجية ونتركها علي الجزء الرخامي من الحجرة قبل أن نطأ ذلك الجزء المغطي بالبسط ، وهناك تجد الأرض مغطاة ببسط من الصوف الخشن ، كما نجد بمحاذاة ثلاثة من أضلاع الحجرة ديواناً منخفضاً وفي الحائط الخلفي مشربية بداخلها وسائد مريحة ، وبأعلاها نحو من ستة من النوافذ مكونة من قطع صغيرة من الزجاج الملون ، ومن حولها إطار من الطلاء ، فتكون بذلك علي شكل زهرة ، وهذه النوافذ من شأنها أن تسمح لنصف الهواء فقط بأن يمر من خلالها ، أما الجانبان الآخران فمطلبان بالجير ، وليس بهما خشب أو قرميد ، بل أعدت بها بضعة أصونة خشبية منخفضة لها أبواب صغيرة تفتح بطريقة هندسية معقدة ، وعلي جانبي كل صوان من هذه الأصونة كوة صغيرة مقوسة ، وفي أعلاه رف وضعت عليه الأطباق المزخرفة والأوعية وغيرها من أدوات الزينة المنقوشة ، أما سقف الحجرة فيتكون من ألواح مثبتة في جذوع ضخمة ، ولونه في العادة أحمر قاتم ، غير أنه في البيوت القديمة نجد في السقف غالباً بعض النقوش الجميلة ،

ولا نجد في الحجرة مناضد أو كراسي أو مدفئات أو أي شئ من الأثاث الذي يعرفه الأوروبي ، وحينما يحين وقت الطعام ، يحضر خوان صغير مستدير ، وإذا كان الجو بارداً قدم موقد أوقد فيه فحم الخشب ، وبدلاً من الكراسي نجد القاهري يضع رجليه من تحته علي الديوان ويجلس القرفصاء ، تلك الجلسة التي إذا فكر الأوروبي أن يجلس مثلها أصيب بتشنج في الأعصاب ،

نقلا عن كتاب (سيرة القاهرة) تأليف المؤرخ البريطاني (ستانلي لين بول) ترجمة د حسن ابراهيم حسن ، و د علي ابراهيم حسن ، و د إدوار حليم -مكتبة الأسرة ١٩٩٧- الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٢٨. عندما كان أمير الشعراء (أحمد شوقي) يمدح الدولة العثمانية

بحمد الله رب العالمينا وحمدك يا أمير المؤمنين
 لقينا في عدوك ما لقينا لقينا الفتح والنصر المبينا
 هم شهروا أذي وشهت حربا فكنت أجل إقداماً وضربا
 أخذت حدودهم شرقاً وغرباً وظهرت المواقع والحصونا
 وقبل الحرب حرب منك كانت نتائجها لنا ظهرت وبانت
 ألفت الحادثات بها فلانت وغادرت القياصر حائرنا
 رأي كيف السبيل إلي كريد وكيف عواقب الطيش المزيد
 وكيف تنام يا عبد الحميد وتغفل عن دماء العالمينا
 ولا والله والرسل الكرام وبيتك خير بيت في الأنام
 لما كانوا وسيفك ذو انتقام يعادل جمعهم منا جنينا
 رأيت الحلم لما زاد غرا وجرأ ملكهم حتي تجرا
 فجاءتك الدعاوي منه تتري وجاءته جنودك مبطلينا
 بخيل في الهضاب وفي الروابي ونار في القلاع وفي الطوابي
 وسيف لا يلين ولا يحابي إذا الآجال رجت منه لينا
 وجيش من غزاة عن غزاة هم الأبطال في ماض وآتي
 ومن كرم أذلوا كل عاتي وذلوا في قتال المؤمنين
 أبعد بلائهم في كل حرب وضرب في الممالك أي ضرب
 تحاول صبية في زي شعب وتطمع أن تدوس لهم عرينا
 ويوم ملون إذ صحننا وصاحوا ، ذكرنا الله من فرح وناحوا
 ودارت بينهم بالراح راح ودارت راحت الإيمان فينا
 علي الجبلين قد بتنا وباتوا وقتناهم منيتهم وقاتوا
 وقد متنا ثباتاً واستماتوا وما البسلاء كالمستبسلينا
 خسفنا بالحصون الأرض خسفاً تزيد تأبياً فنزيد قذفاً
 بنار تنسف الأجيال نسفاً وتلقف نارهم والمطلقينا
 ثبت مؤملاً منك الثبات توافيك الرسائل والسعاة
 وحولك أهل شورك الثقات تسوسون الجيوش مظفرينا
 هناك الصحف سارت حاكيات وطيرت البروق محدثات
 وحدثت الممالك آخذات علوم الحرب عنكم والفنونا
 بني عثمان إنا قد قدرنا فتوحكم الكبار وقد شكرنا
 سألنا الله نصراً فانتصرنا بكم والله خير الناصرينا

٢٢٩. الوالي الأخير

عباس حلمي الثاني

كانت مصر كجزء من الدولة العثمانية تحت الاحتلال البريطاني منذ عام ١٨٨٢ في عهد الخديوي توفيق ، وظل هذا الاحتلال مستمر بهذا الشكل حتي قررت بريطانيا تغيير المسميات بشكل يجعل من مصر كيان مستقل وليس جزء من دولة كبرى ، وبالرغم من أن الاحتلال لم يتغير إلا أن المسمي تغير وكأنها خطوة في طريق تفتيت الدولة الكبرى إلي عدة دول تحت الحماية البريطانية ، وقد يكون السبب في ذلك هو ترك هذه الدول والكيانات المستقلة عند انتهاء الاحتلال بحيث لا يتم جمعها بأي رابطة من أي نوع تحت أي مسمي بعد ذلك ، ويعتبر الخديوي عباس حلمي الثاني هو آخر والي في تاريخ مصر يتبع الخلافة الإسلامية (العثمانية آنذاك) حيث تم عزله ثم أصبح السلطان حسين كامل هو أول حاكم لمصر لا يتبع الخلافة بتاريخ ١٩ ديسمبر ١٩١٤ وكانت بريطانيا قد أعلنت الحماية علي مصر في اليوم السابق لعزل الخديوي بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٩١٤ قبل الحرب العالمية الأولى

وكان الخديوي عباس حلمي في ذلك الوقت في الآستانة عاصمة الدولة العثمانية التي أصبحت في حالة حرب مع بريطانيا

، وفيما يلي نص قرار عزل الخديوي عباس كما ورد في كتاب (ثورة ١٩١٩) للمؤرخ عبد الرحمن الرافعي صفحة ٣٢ (يعلن ناظر الخارجية لدي جلالة ملك بريطانيا العظمي أنه بالنظر لإقدام سمو عباس حلمي باشا خديو مصر السابق علي الانضمام لأعداء الملك قد رأت حكومة جلالتة خلعه من منصب الخديوية ، وقد عرض هذا المنصب السامي مع لقب سلطان مصر علي سمو الأمير حسين كامل باشا أكبر الأمراء الموجودين من سلالة محمد علي فقبله) القاهرة في ١٩ ديسمبر ١٩١٤

وجدير بالذكر أن أول والي تابع للخلافة الإسلامية كان عمرو بن العاص وآخر والي تابع للخلافة الإسلامية هو عباس حلمي الثاني

حيث توالى الخلافة علي مصر مع اختلاف المسميات من عصر الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين إلي أن انتهت بالعثمانيين وهي آخر خلافة كانت مصر ولاية تابعة لها

٢٣٠. من قصيدة : دعاء الشرق

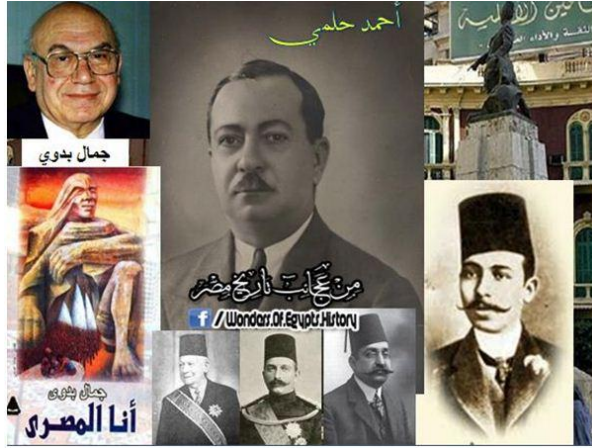
شعر : محمود حسن اسماعيل

يا سماء الشرق طوفي بالضياء وانشري شمسك في كل سماء
 ذكرىه واذكري أيامه بهدي الحق ونور الأنبياء
 كانت الدنيا ظلاماً حوله وهو يهدي بخطاه الحائرين
 أرضه لم تعرف القيد ولا خفضت إلا لباريها الجبين

كيف يمشي في ثراها غاصب يملأ الأفق جراحاً وأنينا
 كيف من جناتها يجني المني

ونري في ظلها كالغرباء

٢٣١. أحمد حلمي



كتب عنه المؤرخ الكبير جمال بدوي ما ملخصه : عجب حظ هذا الرائد الصحفي ، كان اسمه يدوي في جميع أنحاء الديار المصرية طوال العقد الأول من القرن العشرين كان الناس يتلهفون علي قراءة مقالاته وخاصة عن حادث دنشواي ويتابعون نضاله علي صفحات جريدة اللواء إلي جوار زعيم الوطنية الشاب مصطفى كامل ثم علي صفحات جريدته القطر المصري وتهفو إليه قلوبهم وهو حبيس ثمناً لجرائته فكان أول مصري يسجن بتهمة العيب في الذات الخديوية ورغم هذه الحياة الحافلة بالكفاح الوطني فإن المصريين المعاصرين لا يعرفونه إلا من خلال اسمه الذي أطلقوه علي محطة ركاب الأقاليم بالقاهرة والشارع الذي يمتد منها شمالاً حتي يلامس ترعة الإسماعيلية إنه أحمد حلمي الكاتب الصحفي الجسور ورفيق مصطفى كامل وساعده الأيمن منذ صدور جريدة اللواء في ٢ يناير ١٩٠٠ وصاحب المعارك الجريئة من أجل الاستقلال والدستور والوحدة الوطنية وتشجيع كل ما هو مصري ورغم هذه الحياة الحافلة لم يصدر عن هذا الرجل سوي كتابين ، وقد ولد أحمد حلمي عام ١٨٧٥ في حي الحسين بالقاهرة أما أشد كتابات أحمد حلمي تأثيراً في الجماهير فهي تقاريره الصحفية عن دنشواي والتي نقل فيها وصفاً دقيقاً وفي يوم تنفيذ الأحكام علي الفلاحين كان أحمد حلمي شاهد عيان فيقول : كاد دمي يجمد في عروقي بعد تلك المناظر الفظيعة فلم أستطع الوقوف بعد الذي شاهدته فقفلت راجعاً وركبت عربتي وبينما كان السائق يلهب خيولها بسوطة ، كنت أسمع صياح ذلك الرجل يلهب الجلاب جسمه بسوطة هذا ، ورجائي من القراء أن يقبلوا معذرتي من عدم وصف ما في البلدة من مآثم عامة ، وكآبة سادت كل بيت . وحزن باسط زراعته حول الأهالي - بدنشواي - - - وكان من أثر هذه الكلمات أن التهبت مشاعر المصريين حتي أن المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي وكان لا يزال طالباً بكلية الحقوق يعترف بأنه عندما قرأ هذه المقالة لأحمد حلمي أقشعر بدنه ، وخلال السنوات الثماني التي قضاها أحمد حلمي في صحيفة اللواء أثار العديد من القضايا التي تهم المجتمع ، وفي يناير ١٩٠٨ توفي مصطفى كامل فأصدر أحمد حلمي صحيفة القطر المصري

كان أحمد حلمي شخصية متعددة المواهب فهو إلي جانب احترافه الصحافة ، كان شاعراً مجيداً وبالإضافة إلي ذلك كان خطيباً مؤثراً وكان لديه اهتمامات كبيرة بالزراعة وبعد الحرب العالمية الأولى أصدر جريدة الزراعة واستأجر عزبة كبيرة مساحتها ألف فدان في كفر دملاش بمركز شربين وأشرف علي زراعتها ونظم طرق الري والصرف بها وأصلح كثيراً من الأرض البور ولكن الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالبلاد في الثلاثينيات أطاحت بكل هذه الثروة الطائلة فأصابته الأمراض إلي أن لقي ربه في ١٨ يناير ١٩٣٦ يرجمه الله

نقلًا باختصار عن كتاب -أنا المصري- للمؤرخ الكبير جمال بدوي - هيئة الكتاب - مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ - مقتطفات مختصرة من صفحة ١٧٧ وما بعدها

٢٣٢. من هو السلطان حسين ؟

قد يردد البعض اسم السلطان حسين دون أن يعرف من هو ،

واسمه بالكامل هو السلطان حسين كامل ابن الخديوي (اسماعيل) ابن (ابراهيم) باشا ابن (محمد علي) باشا وقد حكم مصر كسلطان تحت الحماية البريطانية من ١٩١٤/١٢/١٩ إلى ١٩١٧/١٠/٩ حوالي ثلاث سنوات ، وبدأت القصة قبل بدء الحرب العالمية الأولى عندما أعلنت بريطانيا الحرب على الدولة العثمانية ، فأعلن السلطان العثماني الجهاد في سبيل الله لجميع المسلمين في العالم ضد بريطانيا ، فشعلت بريطانيا بخطورة شديدة حيث ستكون حربها مع كل مسلمي العالم في وقت واحد ، فقررت فصل القوميات المختلفة داخل الدولة العثمانية وكانت أهم القوميات داخلها هي القومية التركية والقومية العربية والقومية المصرية ، فوعدت العرب بدولة عربية كبرى في حالة وقوفهم في الحرب ضد الدولة العثمانية (تركيا) ، كما نجح الإنجليز في تنمية القومية المصرية لتفصلها عن القومية الإسلامية والقومية العربية ، فقررت عزل الخديو عباس حلمي الثاني والي الأخير المنتمي للدولة العثمانية ، وأعلنت الحماية البريطانية علي مصر كدولة مستقلة ، وعرضت منصب سلطان مصر علي أكبر أبناء أسرة محمد علي في ذلك الوقت الأمير حسين كامل فوافق علي ذلك ، توفي السلطان حسين في أكتوبر ١٩١٧ ، عن ابن واحد هو الأمير كمال الدين حسين وقد تنازل هذا الابن عن حقوقه في تولي السلطنة فحكم مصر الملك فؤاد الأول ابن اسماعيل والشقيق الأصغر للسلطان حسين من ٩ أكتوبر ١٩١٧ إلى أن توفي في ٢٨ إبريل ١٩٣٦ (سلطان ثم ملك)

٢٣٣. اتفاقية سايكس بيكو



قام وزير الحربية البريطاني كتشنر بإرسال عرض للشريف حسين للتعاون معاً كحلف ضد الدولة العثمانية وقد وصله عرض كتشنر في ٣١ أكتوبر ١٩١٤ عن طريق المندوب السامي البريطاني في مصر آرثر هنري مكماهون ، الذي حثه علي الخروج عن سلطة الأتراك - - وقد قام الأمير فيصل بن الحسين بالتنسيق مع القوميين العرب حيث قاموا بإعداد مخطط باسم بروتوكول دمشق وتم فيه توضيح حدود الدولة العربية التي يجب أن تعترف بها إنجلترا خلال المفاوضات (وفي ١٤ يوليو ١٩١٥ أرسل الشريف حسين رسالته الأولى إلي مكماهون - - والتي جاء فيها المطالبة باعتراف بريطانيا بدولة عربية بالحدود المذكورة في بروتوكول دمشق ، والموافقة علي إعلان خليفة عربي للمسلمين ، مقابل أن تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية بريطانيا في كل المشروعات الاقتصادية في البلاد العربية) وكانت في هذه الفترة إنجلترا وفرنسا لم تصل إلي اتفاق نهائي بعد حول تقسيم الدول العربية بينهما (وبذلك وجد مكماهون أنه لا يستطيع تقديم وعود للحسين قبل أن تتضح الصورة في المفاوضات التي كانت لا تزال مستمرة بين إنجلترا وفرنسا والتي انتهت باتفاق الإنجليزي مارك سايكس والفرنسي جورج بيكو علي الاتفاقية التي تم تسميتها بألقابهما سايكس - بيكو وبالتالي قام مكماهون برد غير حاسم ووعد تشجيعية ولكنها غير محددة

فأصر الحسين في رسالة بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩١٥ إلي مكماهون علي أن مسألة الحدود لا تحتل المراوغة مما اضطر مكماهون إلي أن يعده في ١٥ أكتوبر ١٩١٥ بالاعتراف باستقلال العرب طبقاً للحدود الواردة في رسالة الحسين مع بعض التعديلات البسيطة (وعلي هذا الأساس دخل العرب الحرب العالمية الأولى ، عندما أعلن الشريف الحسين بن علي الثورة في ١٠ يونيو ١٩١٦) ، وكانت إنجلترا وفرنسا قد وقعتا بالفعل اتفاقية سايكس-بيكو التي علي أساسها تم تقسيم الدولة العثمانية فيما بينهما وهاجمت القوات العربية ثكنات الجيش العثماني في كل مدن الحجاز وفي أقل من ثلاثة أشهر نجح الجيش العربي في الاستيلاء علي مدن الحجاز جميعها ، وبدأت التقدم نحو الشام--- وبعد أن تأكدت إنجلترا من اشتراك العرب في الثورة ومن تورط الشريف حسين في الحرب ضد الأتراك بحيث انقطع عليه خط الرجعة ، سارعت بتوجيه الطعنة الثانية - بعد سايكس بيكو - إلي العرب فأصدرت في ٢ نوفمبر ١٩١٧ تصريح بالفور الذي ينص علي إنشاء وطن قومي

لليهود في فلسطين وهو المعروف بوعده بالفور ، وانتهت الحرب وتم تنفيذ اتفاقية سايكس بيكو ولم يحصل العرب علي أي شئ وكل ما فعلوه استبدال النفوذ العثماني بالنفوذ الأوروبي ويقول الدكتور طه حسين عن هذا الموضوع (تبين اليائسون البائسون أنهم لم يخرجوا من يؤسهم ذاك إلا ليفرض عليهم بؤس أشد منه ، وأي بؤس أشد نكراً من أن يتحكم الأجنبي في حياة الناس وأرزاقهم ومصالحهم ، وفي آمالهم ومستقبلهم ، كانوا عبيداً أو كالعبيد لقوم يمتنون لهم ببعض الأسباب ، فأصبحوا عبيداً أو كالعبيد لقوم ليسوا منهم في قليل ولا كثير ، يختلفون عنهم في كل شئ ولا يقاربونهم في شئ)

٢٣٤. الشيخ محمد عبده يحذر من مؤامرات الغرب

كانت بريطانيا قد خدعت العرب قبل الحرب العالمية الأولى ووعدهم بدولة عربية كبرى إذا ساعدها العرب في القضاء على الدولة العثمانية حيث قام وزير الحربية البريطاني كتشنر بإرسال عرض للشيخ حسين للتعاون معاً كحلف ضد الدولة العثمانية وقد وصله عرض كتشنر في ٣١ أكتوبر ١٩١٤ عن طريق المندوب السامي البريطاني في مصر آرثر هنري مكماهون وقد حرصت بريطانيا بمساعدة فرنسا أن تصطدم القومية العربية مع القومية التركية وهما أكبر قوميتان في الدولة العثمانية التي كانت تجمعها القومية الإسلامية ، وفي نفس الوقت الذي وعدت فيه بريطانيا العرب بدولة كبرى كانت قد اتفقت مع فرنسا علي تقسيم الدولة العثمانية بعد هزيمتها وتفتيتها فيما يعرف باتفاقية سايكس بيكو ، وقد شعر الإمام محمد عبده في مصر بهذه المؤامرات قبل أن تحدث فقال (إن العرب أهل للاستقلال عن الترك ، ولكن الترك لا يمكنونهم منه ، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عند العرب ، فإذا شعروا بذلك أو رأوا بوادره قاتلوهم ، حتي إذا وهنت قوة الفريقين وثبت دول أوروبا الواقفة لهما بالمرصاد ، فاستولوا علي الفريقين ، أو علي أضعفهما ، وهذان الشعبان هما أقوي شعوب الإسلام ، فتكون العقوبة إضعاف الإسلام وقطع الطريق علي حياته)^١

^١ (الحركة القومية العربية – الأسس والتاريخ) د عماد أحمد هلال صفحة ٦٢-٦٣ – الطبعة الثانية ٢٠٠٦

٢٣٥. جانب قصير من حوار تاريخي

بين سعد باشا زغلول وعبد العزيز فهمي بك وعلي شعراوي باشا
مع السير رجنلد ونجت المندوب السامي البريطاني في مصر

هذا الحديث تم بتاريخ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨

بدأ السير ونجت الحديث بقوله :

إن الصلح اقترب موعده ، وإن العالم يفيق بعد غمرات الحرب التي شغلته زمناً طويلاً ، وإن مصر سينالها خير كثير ،
وإن الله مع الصابرين ، وإن المصريين هم أقل الأمم تألماً من أضرار الحرب ، وإنهم مع ذلك استفادوا منها أموالاً طائلة ،
وإن عليهم أن يشكروا دولة بريطانيا العظمى التي كانت سبباً في قلة ضررهم وكثرة فائدتهم
فأجابه سعد باشا :

ما تكون إنجلترا فعلته خيراً لمصر فإن المصريين بالبداية يذكرونه لها مع الشكر ، وخرج من ذلك إلي القول بأن الحرب
كانت كحريق انطفأ ولم يبق إلا تنظيف آثاره وأنه يظن أن لا محل لدوام الأحكام العرفية ولا لمراقبة الجرائد والمطبوعات ،
وأن الناس ينتظرون بفروغ الصبر زوال هذه المراقبة كي ينفسوا عن أنفسهم ويخففوا عن صدورهم الضيق الذي تولاهاهم أكثر
من أربع سنين
فقال السير ونجت :

حقاً أنه ميال لإزالة المراقبة المذكورة ، وأنه تخابر فعلاً مع القائد العام للجيش البريطانية في هذا الصدد ، ولما كانت
هذه المسألة عسكرية فإنه بعد تمام المخابرة والاتفاق مع القائد سيكتب للحكومة البريطانية ، ويأمل الوصول إلي ما يرضي
، ثم استمر قائلاً : يجب علي المصريين أن يطمئنوا ويصبروا ويعلموا أنه منذ فرغت إنجلترا من مؤتمر الصلح فإنها تلتفت
لمصر وما يلزمها ولن يكون الأمر إلا خيراً
فقال سعد باشا :

إن الهدنة قد عقدت ، والمصريون لهم الحق أن يكونوا قلقين علي مستقبلهم ، ولا مانع يمنع الآن من أن يعرفوا ما هو
الخير الذي تريده إنجلترا لهم
فقال :

يجب ألا تتعجلوا وأن تكونوا متبصرين في سلوككم ، فإن المصريين في الحقيقة لا ينظرون للعواقب البعيدة
فقال سعد باشا :

إن هذه العبارة مبهمة المعني ، ولا أفهم المراد منها
فقال :

أريد أن أقول إن المصريين ليس لهم رأي عام بعيد النظر
فقال سعد باشا :

لا أستطيع الموافقة علي ذلك فإني إن وافقت أنكرت صفتي ، فإني منتخب في الجمعية التشريعية عن قسمين من
أقسام القاهرة ، وكان انتخابي بمحض إرادة الرأي العام مع معارضة الحكومة واللورد كتشنر في انتخابي ، وكذلك كان الأمر
مع زميلي علي شعراوي باشا وعبد العزيز بك فهمي
فقال السير ونجت :

إنه قبل الحرب كثيراً ما حصل من الحركات والكتابات من محمد فريد وأمثاله من الحزب الوطني ، وكان ذلك بلا تعقل ولا روية ، فأضرت مصر ولم تنفعها فما هي أغراض المصريين ؟

فقال علي شعراوي باشا :

إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر لا العبد للحر

فقال السير ونجت :

إذا أنتم تطلبون الاستقلال ؟

فقال سعد باشا :

ونحن له أهل ، وماذا ينقصنا ليكون لنا الاستقلال كباقي الأمم المستقلة ؟

فقال السير ونجت :

ولكن الطفل إذا أعطي من الغذاء أزيد مما يلزم تخم

فقال عبد العزيز بك فهمي :

نحن نطلب الاستقلال التام وقد ذكرتم جنابكم إن الحزب الوطني أتى من الحركات والكتابات بما أضر ولم يفد ، فأقول لجنابكم إن الحزب الوطني كان يطلب الاستقلال ، وكل البلد كانت تطلب الاستقلال ، وغاية الأمر إن طريقة الطلب التي سار عليها الحزب الوطني في تنفيذ مبدئه الأساسي الذي هو مبدأ كل الأمم ، وهو الاستقلال التام ، قام جماعة من الشيوخ الذين لا يظن فيهم التطرف في الإجراءات وأسسوا حزب الأمة وأنشأوا صحيفة "الجريدة" وكان مقصدهم هم أيضاً الاستقلال التام ، وطريقتهم أخف في الحدة من طريقة الحزب الوطني ، وذلك معروف عند الجميع ، والغرض منه خدمة نفس المبدأ المشترك بطريقة تمنع الاعتراض ، ونحن في طلبنا الاستقلال التام لسنا مبالغين فيه فإن أمتنا أرقى من البلغار والصرب والجبل الأسود وغيرها ممن نالوا الاستقلال قديماً وحديثاً

فقال السير ونجت :

ولكن نسبة الأميين في مصر كبيرة لا كما في البلاد التي ذكرتها إلا الجبل الأسود والألبان علي ما أظن

فقال عبد العزيز بك فهمي :

إن هذه النسبة مسألة ثانوية فيما يتعلق باستقلال الأمم ، فإن لمصر تاريخاً قديماً باهراً وسوابق في الاستقلال التام وهي قائمة بذاتها وسكانها عنصر واحد ذو لغة واحدة وهم كثيرو العدد وبلادهم غنية ، وبالجمله فشرط الاستقلال التام متوفرة في مصر ، ومن جهة نسبة الأميين للمتعليمين ، فهذه مسألة لا دخل لها في الاستقلال كما قدمت ، لأن الذين يقودون البلاد في كل الأمم أفراد قلائل ، فإني أعرف أن لإنجلترا وهي بلاد العظمة والحرية عند أهلها ثقة كبرى بحكومتها فأرباب الحكومة وهم أفراد قلائل هم الذين يقودونها وهي تتبعهم بلا مناقشة في كثير من الأحوال لشدة ثقافتها بهم وتسليمها لهم ، ولذلك فمجلس نوابها ليس كل أفرادهم العاملين ، وإنما العامل منهم فئة قليلة ، فبلاد مصر يكفي أن يكون فيها ألف متعلم ليقوموا بإدارتها كما ينبغي ، وهي مستقلة استقلالاً تاماً - ونحن عندنا كثير من المتعلمين ، بدليل أن أولى الحل والعقد نسمع منهم في كثير من الأحيان أن التعليم زاد في البلد حتي صار طائفة من المتعلمين العاطلين ، وأما من جهة تشبيهنا بالطفل يتخم إذا غذي بأزيد من اللازم فاسمحو لي أن أقول إن حالنا ليست مما ينطبق عليها هذا الشبه ، بل الواقع أننا كالمريض مهما أتيت له من نطس الأطباء استحال عليهم أن يعرفوا من أنفسهم موقع دائه ، بل هو نفسه الذي يحس بألم الداء ويرشد إليه ، فالمصري وحده هو الذي يشعر بما ينقصه من أنواع المعارف وما يفيد في الأشغال العمومية وفي القضاء وغير ذلك ، فالاستقلال التام ضروري لرقينا

فقال السير ونجت :

أتظنون أن بلاد العرب وقد أخذت استقلالها ستعرف كيف تسير بنفسها ؟

فقال عبد العزيز بك :

إن معرفة ذلك راجع إلي المستقبل ، ومع ذلك فإذا كانت بلاد العرب وهي دون مصر بمراحل أخذت استقلالها فمصر أجدد بذلك

فقال السير ونجت :

قد كانت مصر عبداً لتركيا ، أفتكون أحط منها لو كانت عبداً لإنجلترا ؟

فقال شعراوي باشا :

قد أكون عبداً لرجل من الجعليين وقد أكون عبداً للسير ونجت الذي لا مناسبة بينه وبين الرجل الجعلي ، ومع ذلك لا تسرني كلتا الحالتين ، لأن العبودية لا أرضاها ولا تحب نفسي أن تبقي تحت ذلها ، ونحن كما قدمنا نريد أن نكون أصدقاء لإنجلترا صداقة الأحرار لا صداقة العبيد

فقال السير ونجت :

ولكن مركز مصر حربياً وجغرافياً يجعلها عرضة لاستيلاء كل دولة قوية عليها وقد تكون غير إنجلترا

فقال سعد باشا :

متي ساعدتنا إنجلترا علي استقلالنا التام ، فإننا نعطيها ضماناً معقولة علي عدم تمكين أي دولة من استقلالنا - - -

وبقية الحديث بكتاب ثورة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي - دار المعارف

حيث استمر الحديث الطويل إلي أن وعدهم المندوب السامي البريطاني بعرض الموضوع علي الحكومة البريطانية
وجدير بالذكر أن سعد باشا زغلول ورفاقه قد تم نفيهم بعد ذلك مما أشعل ثورة ١٩١٩

٢٣٦. الدكتور حسين مؤنس يلقي الضوء على دور ثورة ١٩١٩ وأهميتها في تاريخ

مصر

حيث كتب في كتابه الممتع دراسات في ثورة ١٩١٩ ما يلي :

لا شك في أن مصر وعالم العرب كانا قبل سنة ١٩١٩م يختلفان كل الاختلاف عن مصر وعالم العرب بعدها ، قبل ١٩١٩ كان الاستعمار والذل والاستسلام ، والمحاولات الضعيفة للخروج من قبضة اليأس المحتوم كالقدر ، وبعد ١٩١٩ يبدأ السير الحثيث الواعي في طريق النهوض والأمل - - -

ويجروا الناس علي الاحتلال الإنجليزي بعد أن تحدوه في قوة - - -

والذي حدث أن ثلاثة من أهل مصر - سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي -

توجهوا إلي دار المعتمد البريطاني السير ريجينالد وينجت في صباح ١٣ نوفمبر ١٩١٨ وقالوا له إن الأوان قد آن

للبحث في مصير مصر - - -

وفهم الرجل أنهم يطلبون الاستقلال لوطنهم وأنهم يريدون أن يسافروا إلي أوروبا لعرض قضية بلادهم علي مؤتمرات

الصلح التي كان الاستعداد لها يجري علي قدم وساق - بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى -

وكان يري ان مصير مصر مسألة تخص الإمبراطورية البريطانية وحدها فهي بلد تحت الحماية الإنجليزية أي جزء من

أملكها وأراضيها

ولهذا رفض السماح لهم بالسفر وقال إنه ليس لهم الحق في الكلام باسم مصر - - -

فسارع الثلاثة إلي أخذ توكيل من الشعب ليتكلموا باسمه وسارع الشعب فأعطاهم التوكيل بالإجماع واعتبرهم - وفداً -

موكلًا منه للكلام باسمه والمطالبة بحريته - - -

وفي ٦ مارس ١٩١٩ تلقي الوفد إنذاراً من المعتمد البريطاني يطلب إلي رجاله أن يكفوا عن سعيهم للاستقلال - -

وفي ٨ مارس اعتقل الإنجليز سعداً وثلاثة من صحبه - - -

وفي اليوم التالي أرسلوهم منفيين إلي مالطة

وما إن علم الشعب باعتقال رجاله حتي انفجر بركان الثورة في ٩ مارس ١٩١٩م

وبدأ الإنجليز في التراجع فأفرجوا عن سعد وأصحابه يوم ٧ ابريل ١٩١٩

وبدأ الكفاح المرير في سبيل الحرية ، كفاح شاق حافل بالتضحيات ولكنه كفاح رجال يشحن الهمم ويقوي النفوس ويزيد

العيون بصراً والقلوب وعياً . وهذه أهمية ثورة ١٩١٩ وذلك هو دورها في تاريخنا

فقبل ثورة ١٩١٩ كانت مصر وأمة العرب تسيران سيراً بطيئاً هادئاً نحو الموت ، وبعد ثورة ١٩١٩ انفتح أمام مصر ثم

أمة العرب طريق الحياة وهو طريق طويل عسير حافل بالنكبات والمآسي ،

مآسي تنفع وتعلم وإن كانت تؤلم وتعطل المسير

قبل ١٩١٩ كنا نجاهد لكي نوجد

كانت إنجلترا صاحبة السيادة علي بلادنا ، تقول أننا غير موجودين منذ الاحتلال البريطاني في سبتمبر ١٨٨٢

وكانت مشكلة المعتمدين البريطانيين هي :

كيف يمكن الاحتفاظ بمصر بدون المصريين ؟

بعد موت مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ وخروج محمد فريد من مصر واضطراره إلي حياة النفي في أوروبا بعيداً عن وطنه

وعقاباً له علي حبه إياه ، خيل إلي الإنجليز أنهم نجحوا أخيراً في إخراج المصريين من الميدان حتي كان يوم ١٣ نوفمبر

١٩١٨ والحديث التاريخي الذي دار بين ممثلي مصر وممثل الاحتلال البريطاني في البلاد

لقد كانت دهشة السير وينجت كبيرة وهو يصغي إلي سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي وهم يتحدثون إليه عن مصر وحقوقها

وتستوقف النظر في ذلك الحديث السطور التالية :

علي شعراوي :

إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر لا صداقة العبد للحر

وينجت :

إذن فأنتم تطلبون الاستقلال ؟

سعد :

ونحن أهل له ، وماذا ينقصنا ليكون لنا الاستقلال مثل باقي الأمم المستقلة ؟

وينجت :

ولكن الطفل إذا أعطي من الغذاء أزيد مما يلزمه أصيب بالتخمة

هنا - في هذه السطور القليلة من الحوار ، نري الفرق الهائل بين مصر كما كان يريدوا الإنجليز ومصر كما أرادها أهلها ، هذه السطور تعين لنا نقطة النهاية لقرون طويلة من ضياع مصر والمصريين ، ونقطة البداية لوجودها ووجودهم ، نقلاً باختصار عن كتاب - دراسات في ثورة ١٩١٩ - للدكتور حسين مؤنس - دار الرشاد - الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٥

٢٣٧. لجان شعبية في ثورة ١٩١٩

أثناء ثورة ١٩١٩ ألف المتظاهرون جماعة منهم يتولون حفظ النظام في أثناء سير المظاهرات وفي الاجتماعات التي كانت تعقد لسماع الخطب أو لتنظيم المظاهرات ، سميت (الشرطة الوطنية) جعل لأفرادها شارات خاصة تميزهم عن سواهم ، وهي شريط من القماش الأحمر يحيط بالذراع الأيسر ، وقد كتب عليه بالقماش الأبيض (بوليس وطني) وكانوا يحملون العصي ليقصوا عن المتظاهرين من يندس فيهم من الغوغاء ، ومنهم من كان يحمل القرب وقلل الماء لسقيا من يظماً من المتظاهرين ، وكان الجمهور يستجيب لنداء الشرطة الوطنية ، ويعمل بإرشاداتهم عن طوعية واختيار ، فكان لهذه الجماعة فضل كبير في تنظيم المظاهرات والبعد بها عن الاعتداء علي الممتلكات والأنفس ، وقد أسندت رئاستها إلي الشيخ مصطفى القاياتي ، وكان يصدر تعليماته إلي أفرادها من منزله بالسكرية ، وبالرغم من أن هذه الجماعة قد أفادت في حفظ النظام ومنع اندساس الغوغاء في المظاهرات فإن السلطة العسكرية البريطانية أصدرت أمراً في ١٨ إبريل سنة ١٩١٩ بمنعها ، وتوعدت من ينتمي إليها بالاعتقال والمحاكمة

نقلاً عن كتاب (ثورة ١٩١٩) لعبد الرحمن الرافعي - صفحة ٢٣٥

٢٣٨. نداء

كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي : اجتمع أعضاء الوفد وكبار العلماء وبعض الوزراء السابقين والأعيان واتفقوا علي إصدار نداء إلي الأمة يدعونها فيه إلي الإخلاء الهدوء والسكينة ، قالوا : أصدرت السلطة العسكرية - البريطانية - إنذاراً بأنها ستتخذ أقسى ما يكون من الوسائل الحربية عقاباً علي ما يقع من الاعتداء علي طرق المواصلات والأماكن العمومية ، ولا يخفي علي أحد أن الاعتداء سواء كان علي الأنفس أو علي الأملاك محرم بالشرائع الإلهية والقوانين الوضعية ، وإن قطع طرق المواصلات يضر أهل البلاد ضرراً واضحاً إذ هو يحول بينهم وبين مباشرة مصالحهم ، ويوقف حركة نقل المحاصيل والأرزاق ، ويعطل المعاملات والأخذ والعطاء ، ويسبب العسر وسوء الحال ، علي أن العقاب عليه يعرض بعض القرى للتخريب ويعرض الأنفس البريئة إلي أن تؤخذ بما لم ترتكب من الذنوب ، وينبغي أن يلاحظ أن مثل هذا الاعتداء يضيع علي المصريين ما ينتظرونه من العطف عليهم بما يسبب من رواج إشاعات السوء عنهم ، من أجل ذلك رأي الموقعون علي هذا من أقدس الواجبات الوطنية أن يناشدوا الشعب المصري باسم مصلحة الوطن أن يتجنب كل اعتداء وأن لا يخرج أحد في أعماله عن حدود القوانين حتي لا يسد الطريق في وجه كل الذين يخدمون الوطن بالطرق المشروعة ، كما أننا ندعو أعيان البلاد وأرباب النفوذ فيها أن يقوموا بالواجب عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيسارعوا إلي اتخاذ جميع ما لديهم من الوسائل لمنع وقوع كل ما ينجم عنه ضرر للبلاد وإنا شديدو الرجاء في أن الأمة المصرية بما عرفت به من التعقل والروية تصغي إلي هذا النداء ، وتلتزم طريق الحكمة في سلوكها ، والله الهادي إلي سواء السبيل ، ٢٤ من مارس سنة ١٩١٩ ، من كتاب (ثورة ١٩١٩ - تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلي سنة ١٩٢١) تأليف عبد الرحمن الرافعي - صفحة ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ - الطبعة الرابعة ١٩٨٧ - دار المعارف

٢٣٩. شاعر النيل حافظ إبراهيم يصف مظاهرات النساء في ثورة ١٩١٩

مقتطفات من القصيدة

خرج الغواني يحتجن ... ورحت أرقب جمعهنه
 فإذا بهن تخذن من ... سود الثياب شعارهنه
 فطلعن مثل كواكب ... يسطن في وسط الدجنه
 وإذا بجيش مقبل ... والخيـل مطلقـة الأعنة
 وإذا الجنود سيوفها ... قد صوبت لنحورهنه
 وإذا المدافع والبنادق ... والصوارم والأسنه
 والخيـل والفرسان قد ... ضربت نطاقاً حولهنه
 والورد والريحان في ... ذاك النهار سلاحهنه
 فتطاحن الجيشان ... ساعات تشيب لها الأجنة
 ثم انهزمن مشتتات ... الشمل نحو قصورهنه

من كتاب (ثورة ١٩١٩ - تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١)
 تأليف عبد الرحمن الرافعي - صفحة ٢١٤ - الطبعة الرابعة ١٩٨٧ - دار المعارف

٢٤٠. جمهورية زفتي

عندما رفض أهل زفتي الخضوع للحكم البريطاني

من أحداث ثورة ١٩١٩ كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي ما يلي :

ألف طلبة المدرسة الثانوية (مدرسة السيد بك كشك) بزفتي مظاهرة طافت في المدينة وانضم إليها الأهليون ، فبعثت في المدينة وما حولها روح الثورة ، وتألّفت لجنة للثورة برئاسة المرحوم الأستاذ يوسف أحمد الجندي ، أعلنت الاستقلال عن - الحكم البريطاني - وأنزلت العلم الذي كان يرفع علي المركز ، ورفعت بدله علماً آخر وطنياً ، إيداناً بإعلان الاستقلال ، وأذاعت في منشور طبعته ووزعته في المدينة أن إليها يرجع الأمر والنهي ، وكان مأمور المركز من خيار الرجال ، وهو المرحوم اسماعيل بك حمد ، فتعاون مع اللجنة بصفة غير رسمية ، وشاركها شعورها وميولها ، إذ كانت ميوله وطنية ، وتركها تباشر سلطة الإدارة ، فألفت لجاناً فرعية ، إحداها للمحافظة علي الأمن وأخري لتحصيل عوائد البلدية ورسوم شركة الأسواق ، وأخذت تنفق ما حصلته في مرافق المدينة ، وردمت بعض المستنقعات وأصلحت الشوارع ، وشغلت في ذلك العمال العاطلين ، وكان اسماعيل بك حمد يجتمع وأعضاء اللجنة في مقرها بأعلي قهوة (مستوكلي) وأصدرت جريدة اسمتها (الجمهور) كانت تطبع بمطبعة محمد أفندي عجينة ، ولما ترامي نبأ هذه اللجنة وبخاصة إعلانها الاستقلال إلي السلطة العسكرية البريطانية ، أنفذت إليها قوة من الاستراليين لقمع الثورة ، وحين اقتربت القوة من المدينة أخذ الأهالي يحفرون الخنادق العميقة في الطرق الزراعية الموصلة إليها ، فاستعدت القوة لمهاجمة المدينة ، وصوبت إليها المدافع ، فتدخل اسماعيل بك حمد في الأمر وتوسط بين القوة ولجنة الثورة ونصح هذه بالكف عن المقاومة إبقاء علي المدينة ، وأذن للقوة بدخولها علي أن لا تتدخل في شئون الإدارة ، إذ احتمل هو مسئوليتها ، فدخل الجند المدينة ، وعسكروا في بحريها وقبليها ، وأخذوا يبحثون عن أعضاء لجنة الثورة ، فلم يرشد إليهم أحد ، وحظرت القوة علي الآهليين التجول في المدينة من غروب الشمس إلي مطلع الفجر

من كتاب (ثورة ١٩١٩ - تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلي سنة ١٩٢١)

تأليف عبد الرحمن الرافعي - صفحة ٢٤٥ ، ٢٤٦ - الطبعة الرابعة ١٩٨٧ - دار المعارف

٢٤١. أخلاق الشباب بعد ثورة ١٩١٩

قال المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي رحمه الله عن أخلاق المصريين بعد ثورة ١٩١٩ علي أن الأخلاق عامة قد تراجعت بعد الثورة ، الصدق والإخلاص ، والوفاء والمروءة قد نقص مستواها عما كانت عليه من قبل ، وطغت علي النفوس موجة من النفعية يلزمنا أن نتعاون علي صدها ، وهذه العوارض لا علاقة لها بالثورة وبعضها كان موجوداً إلي حد ما قبل الثورة ، ولكن قوة الملاحظة قد زادت فينا بسبب ارتقاء مستوي المدارك والأفكار فكشفت لنا عن عيوب كنا نغفل عنها ، أو لا نلقي بالاً إليها ، وازدياد قوة الملاحظة ظاهرة طبيعية تدل علي أن الأمة سائرة في الجملة إلي الأمام ، ومن الحق أن نقرر أن معظم عيوبنا الأخلاقية قد ورثناها عن الأجيال الماضية ، وهي من نتائج نظم الحكم التي كانت مضروبة علي البلاد كما أن الجانب الأكبر منها يرجع إلي الاحتلال الأجنبي ، وما أفسده من نفوس الناس وأخلاقهم ووطنيتهم ، فهذا الذي نشكو منه من نفاق وجبن وذنبية وتهافت علي المنافع الشخصية هو في الغالب من تراث الحكم المطلق وتأثير الاحتلال علي أن من الواجب أن نعترف أيضاً أن الشباب المتعلم كانوا قبل الثورة خيراً منهم بعدها -- - ولعل من أهم أسباب هذه الظاهرة أن الثورة قامت علي أكتاف الشباب -- - فسري الزهو والخيلاء إلي نفوس الشباب عامة ، حتي الذين لم يشتركوا في تضحيات الثورة ، ولم يقتبسوا من فضائلها فصرفهم هذا الشعور عن الإكباب علي دروسهم والاستزادة من العلم والمعرفة وداخلهم من هذه الناحية شئ كبير من الاستهتار والغرور ومال ميزان الأخلاق في نفوس الجيل ومما زاد الحالة سوءاً أن الشباب رأوا من تمليق بعض الشيوخ والزعماء لهم ما زادهم غروراً -- - ولما استمر الانقسام بين الزعماء جهد بعضهم في أن يستميل -- بعض الشباب -- إلي جانبه وأغروهم بالمنافع والمزايا فأفسدوا فيهم روح الإخلاص وأضعفوا فيهم الناحية الخلقية (من كتاب عبد الرحمن الرافعي (ثورة ١٩١٩) صفحة ٥٨١

٢٤٢. عندما اكتشف سعد باشا أن المصالح الاستعمارية أقوى من مبادئ الديمقراطية

من كتاب (في محراب الفكر) لجمال بدوي

لم تتمتع مصر بالديمقراطية مثلما تمتعت بها الشعوب الأوروبية ولم يكن طريق الديمقراطية مفروشا بالورود رغم أن النهج الديمقراطي يقضي بنقل السلطة إلى الشعب بالوسائل السلمية وليس الثورية وتبدد الأمل الذي تطلعت إليه مصر عشية انتهاء الحرب العالمية الأولى واستطاع المعسكر المعادي للديمقراطية أن يعمل علي تعطيلها وخنقها عن طريق التآمر والدس والانقلابات ورغم أن هذا المعسكر كان يضم أشتاتاً من عناصر متنافرة إلا أن إرادتهم اتفقت علي حرمان الشعب المصري من ممارسة حقه في الديمقراطية ولو بحثت عن الأصول الفكرية والنظرية لهذه العناصر فسوف تكتشف أنهم ينتمون إلي الفكر الغربي الديمقراطي وأنهم من دعاة تقليد النظم الأوروبية بزعم أن فيها الخلاص والأمل في نهضة مصر

فأقطاب حزب الأمة الذين روجوا للديمقراطية الليبرالية بلسان رائدهم أحمد لطفي السيد تنكروا لمبادئهم عندما وضعوا في محك التجربة ، وازداد عداؤهم للديمقراطية عندما لفظتهم الجماهير في الانتخابات وتربصوا بالدستور كيد المنون ، واشتركوا في الانقلابات التي دبرها القصر لتعطيل الحياة النيابية ، ورأينا الملك الجالس علي العرش -أحمد فؤاد- الذي تلقى تعليمه في المدارس الأوروبية وقضي شطر حياته الأولى في العواصم الغربية يتنكر للحياة الديمقراطية التي عايشها شاباً ويأبى أن يكون ملكاً ديمقراطياً علي شعب حر ، ورأيناه يستعيد التقاليد الأوتوقراطية التي ورثها عن أبائه ، أما الاحتلال الإنجليزي فصار يمثل الضلع الثالث في هذا المثلث المعادي للديمقراطية رغم انتسابه إلي بريطانيا العظمى التي دخلت التاريخ علي أنها أم الديمقراطية والنموذج المثالي لكل دولة تتطلع إلي الحياة النيابية الدستورية ، ونشأت من هذه القوي (ضعيفة) متشابكة المصالح والأهداف لإخماد رغبة الشعب المصري في الانطلاق والتحرر من التبعية والعبودية

عندما أذنت شمس الحرب العالمية الأولى علي المغيب خيل إلي الأمة المصرية أنه قد آن الأوان كي تنال حقها في الاستقلال يحدوها الأمل في أن تجد المساندة من الدول الأوروبية ذات التقاليد العريقة في الحرية ، ولكن المحن التي تعرض لها الكفاح الوطني المصري كشفت عن زيف الشعارات والمبادئ التي رفعتها هذه الدول وتبين أن إيمانها بالديمقراطية والحرية هو إيمان عنصري يقتصر علي الشعوب البيضاء أما الشعوب المقهورة فلا يحق لها أن ترتفع إلي مستوي الدول الحرة

كانت بريطانيا قد فرضت حمايتها علي مصر عشية اندلاع الحرب وتحولت مصر بمقتضي الحماية إلي محمية بريطانية تحكم بقرارات من دار المعتمد البريطاني بالقاهرة ، وبلغت المهانة إلي حد تعيين الأمير حسين كامل سلطاناً علي مصر بقرار إداري من قصر الدويارة ، وتكررت نفس المهانة في تعيين السلطان أحمد فؤاد ، وكان من شأن هذا الإذلال أن يوغر صدور المصريين ويدفع زعماءهم إلي السعي من أجل إزالة وصمة الحماية ، فلما أعلنت الترتيبات لعقد مؤتمر الصلح في باريس وجدها زعماء الحركة الوطنية فرصة لعرض قضية مصر علي المؤتمر علي أمل أن ينتزعوا من الدول الأوروبية المنتصرة قراراً برفع الحماية وشجعهم علي ذلك إعلان الرئيس الأمريكي ويلسون مبادئه الشهيرة في مساندة الدول المقهورة وعلي رأسها حق تقرير المصير وتقدم نفر من الساسة المصريين هم سعد زغلول وعلي شعراوي وعبد العزيز فهمي إلي دار المعتمد البريطاني يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ طالبين الإذن لهم بالسفر إلي باريس ولكنه رفض السماح لهم بهذا الحق بحجة إنهم لا يمثلون الأمة وأدي هذا الرفض إلي استفزاز المشاعر الوطنية واستنهاض الهمم لتحرير التوكيلات التي تحولت إلي حركة شعبية عارمة أعطت ثقتها في هذا (الوفد) باعتباره ممثلاً عن شعب مصر وبدلاً من أن تعترف بريطانيا -أم الديمقراطية- بشرعية هذه التوكيلات ضربت ضربتها باعتقال سعد زغلول وأعضاء الوفد يوم ١٨ مارس ١٩١٩ وفي اليوم التالي اندلعت الثورة في كل أنحاء البلاد وأعربت الجماهير المصرية عن غضبتها علي الاحتلال بكل ما تملك من وسائل

السخط - - وتصدت قوات الاحتلال للمتظاهرين وتساقط الشهداء في كل مكان واضطرت الحكومة البريطانية إلى الإفراج عن سعد وصحبه من منقاهم في مالطة والسماح لهم بالسفر إلى باريس ولحق بهم بقية أعضاء الوفد واكمل عقد الوفد في عاصمة النور والثقافة والديمقراطية ومهبط أفكار فولتير وروسو ومونتسكيو وغيرهم من آباء الليبرالية الديمقراطية ، يحدوهم الأمل في أن تقف أوروبا الديمقراطية إلى جانب الحق المصري ، ولكن ، ، وقع ما لم يكن في حسابهم ووجدوا هذه الدول تتنكر لمبادئها وتدوس شعاراتها وتنصر الظالم على المظلوم وأصدر مؤتمر الصلح قراراً يعترف فيه باستمرار الحماية البريطانية على مصر ، وكانت تلك أول صدمة واجهت الوفد المصري ، أما الصدمة الثانية فكانت في تراجع الرئيس الأمريكي عن مبادئه واعترافه بالحماية البريطانية وتبين أن كلامه عن حق تقرير المصير للشعوب المقهورة لم يكن سوى شعار زائف يضحك به علي العالم ، وكشف العالم الغربي الحر عن وجهه القبيح وسقطت الأقنعة التي خدعوا بها السذج الذين لم يفتنوا إلى الفجوة الهائلة بين المبادئ والتطبيق ، وتبين أن المصالح الاستعمارية أقوى من مبادئ الديمقراطية وأن المدنية الأوروبية لا تتورع عن استخدام نفس الأساليب والأخلاقيات التي كانت سائدة في العصور الوسطى

لقد أصيبت الحركة الوطنية المصرية بصدمة لا يمكن إنكارها ولقد أعرب سعد زغلول عن خيبة الأمل في السياسة الأوروبية في رسالة بعث بها إلى محمود باشا سليمان رئيس حزب الأمة ووكيل الوفد يقول فيها :

منذ وصولنا باريس وجدنا جميع الأبواب موصدة في وجوهنا وكل الجهود والمسااعي لم تؤد إلى نتيجة ، إن مهمة الوفد قد انتهت ولم يبق أمل في الحصول علي الاستقلال التام ، وإن كل قول عدا ذلك يعد مغالطة وأن عمل الوفد الآن ما هو إلا تنظيم للهزيمة

كانت كلمات سعد تعبيراً عن المرارة وخيبة الأمل في دول أوروبا التي باعت مبادئها من أجل مصالحها - - - -

ولكن سعد زغلول الزعيم الذي حنكته التجارب والمحن لم يستسلم للهزيمة وازداد اقتناعاً بأن الكفاح الحقيقي في مصر وليس في أوروبا وأن عبء الاستقلال يقع علي عاتق المصريين أنفسهم وليس علي عاتق الأوروبيين أو الأمريكيين

نقلاً باختصار عن كتاب في محراب الفكر - للأستاذ جمال بدوي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٨ - مقتطفات من صفحة ٦٥ وما بعدها

٢٤٣. اللورد ألنبي وعبد الخالق ثروت باشا واتهامات بالتقصير

عن هذا الموضوع كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي ما ملخصه :
وتعددت حوادث اغتيال الموظفين البريطانيين ولم يعرف الفاعلون في معظمها وتحرج لها موقف الوزارة ،
ففي مارس ١٩٢٢ أطلق مجهولان الرصاص علي المستر مكنتوش بك مدير قسم القطارات بالسكك الحديدية بالقرب من منزله بالزيتون فأصيب
بإصابات بليغة

وفي مايو أطلق مجهول الرصاص علي البكباشي كيف مساعد حكمدار فرقة ب بشارع الفلكي فمات من جراء إصابته
وبلغت هذه الحوادث سبعا ولم تهتد الحكومة إلي الجناة فيها

احتجاج الحكومة البريطانية علي حوادث الاغتيال

أدي تكرار هذه الحوادث وعدم ظهور الفاعلين فيها إلي انزعاج الحكومة البريطانية فاحتجت رسمياً لدي الحكومة المصرية ، وأبلغ هذا الاحتجاج
كتابة إلي ثروت باشا رئيس الوزراء في مايو سنة ١٩٢٢ عن يد اللورد ألنبي المندوب السامي البريطاني وقد جاء فيه :
" إن عدم الاهتمام إلي مرتكبي تلك الجرائم وبقائهم بعيداً عن طائلة القانون يدل اوضح الدلالة علي عدم كفاية التدابير التي اتخذت لمنع وقوع تلك
الاعتداءات ، وإن الحكومة البريطانية تجد نفسها تلقاء هذه الحالة مضطرة لأن تعتبر الحكومة المصرية مسئولة عن تعويض من يقع عليه اعتداء
من الأجانب أو تعويض ورثته إن أدركته الوفاة ، كما أنها تحتفظ بحق تقدير كفاية التعويض الذي تمنحه الحكومة المصرية أو عدم كفايته"
ورد ثروت باشا علي هذا الاحتجاج بأن الحكومة المصرية أول من يأسف لوقوع تلك الاعتداءات التي تنكرها وينكرها الشعب المصري ، وأنها اتخذت
التدابير الأدبية والمادية لمنع وقوعها وهي لا تتأخر عن التشديد علي جهات البوليس بمضاعفة اليقظة والانتباه مبالغة في العمل علي زيادة تأثير
التدابير التي سبق اتخاذها ، وأما عن التعويض فمع أن الحكومة لا تري بأنها مسئولة بأكثر من توفير شرطة تقوم بأداء واجباتها قياماً حسناً ، إلا
أن ما تعودته من حسن الضيافة نحو الأجانب يجعلها لا تتردد في أن تمنح برأ منها وكرماً من وقع به أمثال هذه الاعتداءات السياسية ما تري أن
الظروف تقضي به من التعويضات وأن الحكومة أظهرت استعدادها للجري علي هذه الخطة في أحوال سابقة وأنها ستظهر مثل هذا الاستعداد كلما
رأت الظروف تدعو إلي ذلك

وفي الحق أن الرد صيغ في قالب مملوء حكمة وكرامة واتزاناً ، ولم تقف حوادث الاعتداء إثر هذا الاحتجاج والرد عليه
ففي ٣ يولييه اكتشف مؤامرة لاغتيال المستر برت المفتش بالسكة الحديدية ، وفي ١٥ يولييه أطلق بعض المتآمرين الرصاص علي الكولونيل بيجوت
الموظف بالمصلحة المالية التابعة للجيش البريطاني فاصيب بإصابات بليغة ، فأرسل اللورد ألنبي إلي ثروت باشا كتاباً في ٢٠ يولييه يبلغه فيه أن
الحكومة البريطانية تنظر بقلق متزايد إلي الاعتداءات المتكررة التي لم يتوصل إلي معاقبة مرتكبيها وآخر مثل منها محاولة اغتيال الكولونيل بيجوت
وإن الحكومة المصرية يتعلق بها أن تتخذ إجراءات شديدة لاكتشاف الجناة ومعاقبتهم ، وأن تضع حداً قاطعاً لحملة الجرائم السياسية ، علي أنه
كلف بأن يخبره بأنه إن لم يتم ذلك فإن الحكومة البريطانية ستعتبر أن المسألة ذات خطورة كبرى

فرد عليه ثروت باشا بأن المندوب السامي لا يجهل أن الحكومة المصرية لم تقصر في اتخاذ تدابير خاصة في هذا الشأن وأخصها زيادة عدد القوات
الأوروبية في البوليس لكي يتيسر له زيادة عدد دورياته وإذا كانت هذه التدابير لم تؤد إلي منع وقوع تلك الجرائم وتعرف مرتكبيها فإن الحكومة
المصرية أول من يأسف علي ذلك علي أنها ستثابر علي الخطة التي أبلغها في رده السابق وأنها عملاً بهذه الخطة لن تألو جهداً في أن تزيد علي
قدر المستطاع أشد التدابير المتخذة لمنع وقوع هذه الجرائم والبحث عن فاعليها وأنها تنوي أن تنشئ في وزارة الداخلية فرعاً خاصاً تحصر في يده
التحقيقات الخاصة بالاعتداءات السياسية والإشراف علي الأبحاث المتعلقة بها

نقلًا عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) - الجزء الأول - عبد الرحمن الرافعي - دار المعارف- الطبعة الرابعة ١٩٨٧
وجدير بالذكر ونقلًا عن ويكيبيديا أن اللورد ألنبي هو إدmond هنري هاينمان ألنبي بالإنجليزية Edmund Henry Hynman Allenby ،
الفايكونت الأول للنبي - 1861 - 1936- ضابط وإداري بريطاني، اشتهر بدوره في الحرب العالمية الأولى حيث قاد قوة التجريدة المصرية في
الاستيلاء على فلسطين وسوريا عامي 1917 و١٩١٨.

وعبد الخالق ثروت باشا(1928 - 1873)، رئيس وزراء مصر في عهد الملك فؤاد الأول. تولى رئاسة الوزراء لفترتين من 1
مارس 1922 إلى 30 نوفمبر 1922 ، ومن 26 أبريل 1927 إلى 16 مارس 1928.

٢٤٤ . كيف وصف العقاد استقبال الشعب لسعد زغلول عند عودته من أوروبا بعد

فشل الوفد في مفاوضات الاستقلال



نقلاً عن كتاب (#سعد_ زغلول سيرة وتحية) لعباس محمود العقاد :

ملك سعد ناصية الموقف من ساعة وصوله إلي شاطئ الإسكندرية ، وثبت في عالم العيان لمن كان في شك من الأمر إن هذا الرجل أقوي قوة في سياسة مصر القومية وأن كل اتفاق بين مصر وانجلترا يتم علي الرغم من هذا الرجل أو مع إغفال شأنه وتهوين خطره مستحيل

لقد كان اليوم الرابع من إبريل -يوم وصوله إلي الإسكندرية- يوم الجبل بأسره في العالم بأسره ولك أن تقول وأنت آمن من الغلو أن استقبال سعد في ذلك اليوم وفي اليوم الذي بعده كان أفخم استقبال لرجل من الرجال في أوائل القرن العشرين ، فقد انتظمت مصر موكباً واحداً للحفاوة به من شاطئ البحر بل من مدخل الميناء إلي عاصمة الديار المصرية وارتفعت الزينات وأقواس النصر من سلم الباخرة إلي حجرته في فندق كلارنج الذي نزل فيه وكان الناظر لا يري في كل مكان إلا صورة سعد ولا يسمع إلا الهتاف باسمه وأناشيد المترنمين بذكره ، وانقضي اسبوع قبل وصوله والوفود تتزاحم علي الاسكندرية من أقصى القطر إلي أقصاه حتي تعذر المبيت في الفنادق ولجأ الناس إلي البيوت يسألون أصحابها أن يؤوهم إلي مكان يسكنون إليه ريثما يحين اليوم الموعود ، ولم تبق شرفة في الطريق إلا غالي المستأجرون بثمن الوقفة فيها بضع ساعات حتي نيفت أجرة الشرفة علي أجرة البيت ، وضائق الطرقات عن مسير المركبات وأوشكت أن تضيق عن مسير الأقدام من مجاز إلي مجاز ، ولما استقل القطار من الإسكندرية إلي القاهرة تلاحقت الجموع علي طول الطريق تأبي إلا أن تستوقفه مرات في غير مواضع الوقوف ومنهم من كانوا يترامون علي القضبان في بعض القرى الصغيرة ليغتتموا لحظة من الوقت يقف فيها القطار ويطل فيها الزعيم علي المستقبلين ، وخرج كل مستطيع الخروج في مدينة القاهرة إلي الطريق ما بين باب الحديد إلي بيت الأمة يترقبون من الصباح ساعة قدوم الرئيس في نحو الخامسة من المساء فلما لاح لهم في سيارته نسوا أنفسهم أفراداً وذكروا أنفسهم قوماً واحداً لا اختلاف فيه بين صوت وصوت ولا بين دعاء ودعاء ، وبلغ من نسيان النفس وغلبة الوجدان علي الإرادة أن أناساً كانوا يتسلفون الأشجار والأسوار أرسلوا أيديهم ليصفقوا وهم لا يدرون أنهم معتمصون بتلك الأيدي من خطر الوقوع ، ولا خطر في الحقيقة من الوقوع حيث لا أرض في طول الطريق إلا وقد غشاها ألوف الواقفين

وتمشت السيارة الهوينا وهي تكاد تزحف من بطء المشية بين الصفوف ، وسعد واقف عليها بقامته المديدة وطلعته المهيبة ومحضره المأنوس يحيي المحيين بكلتا يديه وتسترسل الدموع من عينيه ، وتلك طبيعة فيه إذا جاشت نفسه بالشعور واهتزت أريحته بهزة الجمهور

ولا نطيل في سرد أسماء المستقبليين ووصف معالم الاستقبال فإنما أردنا الأثر الطبيعي المفاجئ الذي كان لاستقبال سعد في ضمير الأمة مما له دلالة قومية ، ولم نرد المراسم والأشكال التي قد تتكرر في كل يوم بغير دلالة ، ويكفي أن نقول ان مصر لم تتمثل تمثلاً في موكب الاحتفال بعودة زعيمها الراجع إليها ولكنها كانت كلها موكب احتفال واحد لم يتخلف عنه مصري واحد قادر علي حضوره أو المشاركة فيه ، وانقضي يوم الوصول إلي الإسكندرية ويوم الوصول إلي القاهرة ولم يحدث في المدينتين الحافلتين بالألوف الألوف من أهلها والوافدين إليهما ولا في طول الطريق بينهما حادث واحد مما يسجله الموكلون بالأمن في سائر الأيام ، كأنما غاب الأفراد في غمار (أمة واحدة) فلم يبق بينهم ما يكون بين الأفراد من نزاع واعتداء - - - فلم يخرج الشعب لفرجة - - ولكنها قوة أحسها الشعب فانبعث بها إلي حيث تتلاقى أفواجه وتتزخر أمواجه ، وذلك الرجل هو عنوان تلك القوة أو لسان تلك القوة أو مناط الأمل المرجو من تلك القوة ، وإذا وجدت الشعوب نفوسها واهتدت إلي سريرتها فإنما تجدها وتهتدي إليه في لحظة من لحظات النشوة الوطنية كتلك اللحظة التي استثارها فيها حب الزعيم والشوق إلي مرآه ،

٢٤٥ . انقسام الشعب بين عدلي وسعد سنة ١٩٢١



حيث كان عدلي باشا يكن يتولي رئاسة الوزراء وقام بتشكيل وفد رسمي لاستئناف المفاوضات مع الاحتلال الإنجليزي وعرض علي سعد باشا زغلول ومن معه المشاركة فيه ليصبح الوفد الشعبي جزء من الوفد الرسمي مما أغضب سعد زغلول ومؤيديه والذي كان يرأس الوفد الشعبي الذي سافر إلي أوروبا من قبل بعد ثورة ١٩١٩ وسدت جميع الأبواب في وجهه ، فانقسمت البلاد بين مؤيد للوفد الرسمي ومؤيد للوفد الشعبي وإليك بعض مما كتبه عبد الرحمن الرافعي عن هذا الموضوع :

وقد زادت المظاهرات عنفاً بعد تأليف الوفد الرسمي سواء في القاهرة أو الاسكندرية وفي كثير من المدن الأخرى واتخذت طابع العداء لكل من خالف سعداً في رأيه ، والنداء بسقوطهم والاعتداء علي منازلهم بالطوب والحجارة ، وكان هذا من الظواهر الأليمة للانقسام ، ومن الأسلحة الممقوتة في الخصومة السياسية لأن النضال السياسي بين المختلفين في الرأي من أبناء الأمة يجب أن يكون مقصوداً علي نضال الآراء ومقارعة الحجة بالحجة وبذلك ينضج الشعب وترقي أفكاره ومداركه ، أما تحريض الجماهير علي الخصوم السياسيين واتخاذ الاعتداء وسيلة لإكراههم علي تغيير آرائهم فهو وسيلة تفسد الحياة السياسية وتهدم حرية الرأي والعقيدة ، ولقد نشر الأمير عمر طوسون نداءً بتاريخ ٢١ مايو سنة ١٩٢١ يستنكر فيه هذا الاعتداء قال فيه :

(يا أبناء بلدي الأعزاء ، بلغني مع أشد الأسف ما حدث من بعض أشخاص غير مسئولين في أثناء المظاهرات السلمية مثل مهاجمة بيوت بعض المخالفين لكم في الرأي والتقاذف بالأحجار في الشوارع الأمر الذي ما كنا ننتظر صدوره من أي مصري ونحن قوم نريد الاستقلال ونطلب الحرية وأساس هذا المبدأ احترام كل فريق رأي الآخر وعدم الحظر علي أحد وإن شذ في رأيه ، وإذا لم نحترم هذا المبدأ فلماذا نشكو من ضغط الإنجليز علي حريتنا ومصادرتهم لنا في آرائنا وكيف بعد هذا تريد طائفة منا إرغام مخالفينا علي اتباع رأيها بالقوة ؟ ، فأرجوكم أشد الرجاء الإقلاع عن هذه الخطة التي تضر قضيتنا المقدسة أكبر ضرر وتشين سمعتنا وتحط من كرامتنا ، وأناشد كل مخلص لوطنه محب لبلاده أن يجتهد في منع ما يثير شبه الأجانب فينا ويبعد عطفهم ويخلق التهم بالباطلة لنا ، إنني لأقول هذا لا انحيازاً إلي جانب الوزارة لأنني غير موافق

علي خطتها كما أظهرت في اقتراحي ولكن الواجب هو الذي دفعني أن أبين لكم الخطر الذي ينجم عن سلوك طائفة منا غير المسلك القويم ، هداانا الله جميعاً إلي الصواب)

ولكن هذا النداء الحكيم ذهب عبثاً في تيار الفتنة التي فرقت بين الناس وألقت بينهم العداوة والبغضاء وازدادت المظاهرات عنفاً في الاسكندرية ، واشتبك المتظاهرون يوم الأحد ٢٢ مايو سنة ١٩٢١ مع بعض الأجانب من الطبقات المتأخرة في حي الهماميل وتبادل الفريقان إطلاق الرصاص واشتعلت النار في عدة منازل ونهبت بعض المحال التجارية الأجنبية ، وبالجملية تحولت هذه المظاهرات إلي اضطرابات ألقت الفزع في النفوس ، وقد تدخل البوليس ثم الجيش المصري لقمعها ، ولم يعد النظام إلا في نحو الساعة الثالثة صباحاً ، واستمرت الاضطرابات الدامية يوم الاثنين ٢٣ مايو وتبدلت العيارات النارية من جديد بين الوطنيين والأجانب ، فتدخل جيش الاحتلال وتولي قومندان القوة البريطانية المراقبة في الاسكندرية قيادة المدينة ، وأصدر أمراً عسكرياً بمنع المرور في الشوارع بين الساعة التاسعة والنصف مساءً إلي الساعة الرابعة صباحاً ما لم يكن بيد الشخص إذن بالمرور ، ويغلق جميع المحال العمومية في الساعة التاسعة مساءً ، وقد عاد الهدوء إلي المدينة منذ مساء ذلك اليوم

وبلغ عدد ضحايا تلك الاضطرابات الممقوتة ٤٣ قتيلاً و ١٢٩ جريحاً من المصريين و ١٥ قتيلاً و ٧١ جريحاً من الأوروبيين فكان لهذه المأساة وقع أليم في النفوس

ورأي سعد أن المظاهرات قد تعدت إلي الأجانب وتحولت إلي اضطرابات هي أبعد ما تكون عن التظاهر وأدرك خطورة العواقب السيئة التي نجمت عنها فنشر نداء ٢٤ مايو بالحث علي الهدوء والسكينة وحسن معاملة الأجانب نقلاً عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية سنة ١٩١٩) - الجزء الأول - عبد الرحمن الرافعي - دار المعارف - الطبعة الرابعة ١٩٨٧

وجدير بالذكر ان مفاوضات الوفد الرسمي برئاسة عدلي باشا يكن قد باءت بالفشل أيضاً كمفاوضات الوفد الشعبي برئاسة سعد زغلول ثم استقالت الوزارة ، وعندما أدرك الإنجليز عدم جدوي المفاوضات قاموا بإعلان تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ من جانب واحد وفرضوا فيه ما رفضه المصريون في المفاوضات وهو وجود قاعدة عسكرية بريطانية في مصر وإعلان الاستقلال وقيام حكومة دستورية في البلاد مع وجود مندوب لبريطانيا يتمتع بنفوذ خاص

٢٤٦. الاحتلال البريطاني ومعاناة الشعب المصري

من أفضل الأمثلة علي سخط الشعب المصري علي ضياع حقوقه وسط الأجانب في ظل الاحتلال البريطاني هو ما قاله الشاعر بيرم التونسي عندما شاهد الأوضاع في مصر

(كانت التفاتة بيرم التونسي العبقريّة هي سبب نفيه فقد رأي أزمة مصر الحقيقيّة في تفاوت مستوي المعيشة بين الناس وبينما كان يزداد البعض تخمة ، كان الآخرون يبحثون عن طعامهم وسط أكوام القمامة كالكلاب ، وكان الخواجات هم أكثر الناس حظاً في الثروة وأقلهم جهداً في خدمة البلاد ، مالطيون وقبارصة وأروام وأرمن وجركس يملكون الملايين وأبناء البلد ليس معهم إلا الستر والصبر ، وانطلق بيرم التونسي يندد بالأوضاع المقلوبة و - -

القطن برضه لمزراحي ولقرداحي - - وابن البلد قاعد ماحي في بلاده يتيم

أقطانه هو اللي زرعها واللي جمعها - - ويوم ما باعها ماجبتله حق البرسيم

بنايوتي يقبض ويحصل وده بيوصل - - ويجري دايماً ما يحصل ولا حتي بهيم)^١

نقلًا عن كتاب (مصر من تاني) تأليف (محمود السعدني) صفحة ١٢٧

أما رأي شاعر النيل حافظ ابراهيم في الاحتلال البريطاني فصاغه شعراً :

لقد كان فينا الظلم فوضي فهذبت حواشيه حتي بات ظلماً منظماً

وقال الشاعر أيضاً عن الإنجليز :

سعيت إلي أن كدت أنتعل الدما وعدت فما أعقبت إلا التندما

لحي الله عهد القاسطين الذي به تهدم من بنياننا ما تهدما

إذا شئت أن تلقي السعادة بينهم فلا تك مصر يا ولا تك مسلما

^١ مصر من تاني (محمود السعدني) صفحة ١٢٧

٢٤٧. د محمد حسين هيكل (١٨٨٨-١٩٥٦م) يوضح ما صدره الغرب للشرق

تحت عنوان المخدوعون كتب المؤرخ الكبير جمال بدوي في كتابه الممتع (في محراب الفكر) ما ملخصه :
لقد تراءى للجيل الذي تربى في ظل الحكم الأوروبي وذهب للدراسة في الجامعات الأوروبية ، ثم عاد إلي بلاده يدعو للقيم الأوروبية في السياسة والحضارة والحياة كلها ، تراءى له كم كان مخدوعاً وأن للغرب وجهين متناقضين وأن مؤثراته التي يصدرها للمستعمرات أغلبها بهرج وقشور ، أما تبشيره بثقافته وقيمه فالهدف منها زعزعة تراث المنطقة العربية وهدم كيانه الحضاري الموحد أكثر منه نشرأ مخلصاً للفكر الإنساني الحديث المتحرر

وهذا أحد غلاة المجددين الذي عرف منذ شبابه الباكر بحماسته للتغريب والدعوة إلي الاغتراف من منابع الغرب ، والبعد عن مؤثرات العروبة والإسلام ، هو الدكتور محمد حسين هيكل الذي استقى هذه الأفكار بحكم صلة القربى إلي أستاذه أحمد لطفي السيد ، لقد ذهب هيكل إلي باريس في العقد الأول من القرن العشرين وبهرته أوروبا ثم عاد إلي وطنه ليتسلم الراية من أستاذه ويصير أحد أقطاب حزب الأحرار الدستوريين الوريث الشرعي لحزب الأمة ، ثم لا يحل عام ١٩٣٢ إلا يقدم لنا هيكل شهادته واعترافه بالمحنة التي تعرض لها شباب مصر الذين سافروا إلي أوروبا واعتنقوا مذاهب الغرب في الفكر ثم فقدوا ثقتهم في هذا الفكر فيما بعد ، لقد كتب هيكل في ملحق السياسة الأسبوعية بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٩٣٢ مقالاً هو أقرب إلي الإدانة لحضارة وثق بها ذات يوم :

عاد هؤلاء (المبعوثون من شباب العرب) إلي بلادهم يبشرون بالحضارة الغربية لكنهم ما لبثوا أن صدمتهم ظاهرتان عجيبتان أثارتا دهشتهم لتناقضهما مع أصول الحضارة الغربية تناقضاً بيناً :

الأولي : هذه الحرب المنظمة التي يقوم بها الاستعمار الأوروبي لحرية العقل ، - - - - -

الثانية : انتشار المبشرين الغربيين في كل مكان من المدن الكبيرة والصغيرة بل في القرى يدعو إلي المسيحية ولا يتورعون عن التعريض بالإسلام

وبالرغم من هاتين الظاهرتين ظل هؤلاء الشباب يدعون إلي الحضارة الغربية مستندة إلي أصلها الصحيح - -

ولكن مع مرور الوقت فتح عيونهم علي حقيقة أخرى لم تكن أقل إثارة لدهشتهم من الظاهرتين اللتين قدمنا ، فما يصدر الغرب للشرق من آثار حضارته قد وقف أو كاد عند أسوأ ثمرات هذه الحضارة وما كان يأتي بلاد الغرب من الريح المادي يمدد بأسباب الرخاء والترف ، فتجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللهم وجوقات الهذر المسرحي كان أول ما يصدم الناظر لآثار الغرب في الشرق

ولم يقدم الغرب إلي جانب هذا من صالح ثمرات حضارته ما يستر سوءاتها هذه ، بل هو كما قدمنا قد وقف حائلاً دون سرعة انتشار العلم الصحيح مما كان هؤلاء الشبان يجاهدون بكل ما يدخل في حدود طاقتهم لنشره والتمكين له ، ثم كشف تعاقب السنين من بعد الحرب الأولي عن الحقيقة المؤلمة المضنية فقضية أوروبا التي حاربت في سبيلها أربع سنوات تباعاً - - لم تكن إلا قضية الاستعمار ، ومن يكون له حق التوسع فيه

ثم بدت حقيقة أشد من هذه الحقيقة مرارة وإيلاماً تلك أن الغرب الذي تزعم دوله أنه تحرر من قيود التعصب الديني مازال يذكر الحروب الصليبية - - وإن كلمة لورد اللنبي يوم استولي علي القدس وقوله (إن الحروب الصليبية قد انتهت) كانت تعبر عن معني يجول بخاطر الدول الأوروبية جميعاً ، في ظل هاتين الحقيقتين الأليمتين جعلت دول الغرب التي وضعت يدها علي العالم الإسلامي تمد في أسباب الجمود الديني عن طريق الجامدين المتعصبين لتزيد الشعوب الإسلامية جموداً وليزيدها الجمود ضعفاً - - -

إن هذه الشهادة ضد أوروبا - - يجب ألا يفوتنا مغزاها فهي تصدر بعد مرور أقل من عشر سنوات ١٩٢٣-١٩٣٢ علي استقلال مصر وإقامة نظام دستوري برلماني حزبي علي الطريقة الغربية في جو مفعم بالأمل في توجه مصر نحو

الحضارة الغربية واستفادتها من قيمها وإنجازاتها ، وهي شهادة لا تصدر عن شيخ أزهرى ولا عن مفكر سلفى بل تصدر عن مثقف درس في أوروبا وأعجب بحضارتها والتزم بالدعوة لها ، ثم ها هو يقف وقفة مراجعة ، علي ضوء تجربته وتجربة جيله المتحمس للتغريب - ليكتشف أن دول الغرب في الشرق لا تقف مع المؤمنين المخلصين لحضارتها الصحيحة من أبناء المنطقة - -

نقلًا باختصار عن كتاب في محراب الفكر - للأستاذ جمال بدوي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٨ - مقتطفات من صفحة ١٧ وما بعدها

٢٤٨ . سعد باشا زغلول والملك فؤاد يحتكمان لبارون بلجيكي

هذا الموقف التاريخي رواه البارون البلجيكي فيرمين فان دن بوش في مذكراته التي كتبها بعنوان عشرون عاما في مصر حيث كان يشغل منصب النائب العام في المحاكم المختلطة في مصر فكتب ما ملخصه :

في يوم سبت من شهر أبريل سنة ١٩٢٤ والوقت ظهر وأنا في مكنتي فإذا بالقاهرة تدق التليفون المتحدث هو سعد باشا زغلول رئيس الوزراء يطلب مني أن أزوره في مكتبه غداً في الساعة الرابعة بعد الظهر فاعترضت بأنني رتبت أموري علي السفر للعاصمة يوم الخميس - - فيكون جوابه لا يمكن إن الأمر عاجل وهام ، وأدرك من نبرة صوته أن الأمر خطير ، ويدق تليفون القاهرة بعد عشر دقائق مرة أخرى ، إنه نشأت باشا الرجل الذي يعتمد عليه الملك فؤاد يسألني إذا كان الاتفاق قد تم علي الوفاء بالموعد الذي حدده رئيس الوزراء ويضيف هو الآخر : لا غني عن حضورك في غد

يوم الأحد أسافر للقاهرة بقطار الصباح وحين أبلغ محطة بنها إذا بمواطني المحامي جورج موزياخ يدخل مقصورتني دخول عاصفة هوجاء ، إنه جاء بالسيارة ليدركني قبل الوصول ليحذرنني بما علمه من أحد الوزراء من أنني دعيت من أجل تسوية نزاع دستوري خطير بين الملك فؤاد وسعد باشا زغلول وأن الحل الذي سيسفر عنه هذا النزاع سيتوقف عليه مصير الحكومة وأمن البلاد . أبدت له وجهاً يزعم أن الأمر لا يهولني ولكني أدرك في قرارة نفسي ما لهذا الأمر من خطور بالغة نظراً لعلمي بخلق الرجلين المتنازعين

في الساعة الرابعة أصل إلي رئاسة الوزراء . الحديقة غاصة بوفود ترفرف عليها الأعلام - - وترتفع منها هتافات مجنونة : (يحيا سعد)

حجرة الانتظار مزدحمة بالزوار ولكن السكرتير لم يكد يراني حتي يهرول نحوي ويدخلني إلي مكتب الرئيس . سعد زغلول جالس وراء مكتبه ناصباً قامته ويمد لي يده ويقول : مرحباً بك إننا في حاجة إليك ، ثم يمضي من فوره يشرح لي النزاع الذي نشب بين الملك والوزارة بشأن تفسير مادة في الدستور ، وإذ كان هذا الدستور مستمداً في كثير من نصوصه من الدستور البلجيكي فقد دعيت للإدلاء بالرأي في هذا النزاع ، فالمادة ٧٤ من الدستور المصري تنص علي أن الملك يعين خمس أعضاء مجلس الشيوخ بلا حاجة إلي انتخابه فهل هذا النص يمنح الملك حقاً مرتبطاً بشخصه وحده له أن يباشره دون دخل من وزرائه أم ان هذا الحق مرتبط بالقاعدة العامة المنصوص عليها في المادة ٤٨ التي تقرر أن الملك يباشر سلطاته عن طريق وزرائه ؟ ويختم رئيس الوزراء حديثه وهو يدق بيد عنيفة علي مكتبه : هذه هي المسألة وينبغي أن تحل في ٢٤ ساعة

أبدأ بالتراجع وراء العذر بأن مواد الدستور ليست حاضرة كلها في ذهني وأطلب أن أراجعها وأن يتاح لي الوقت للتدبر - - ، ما أعجب أن تجد في رجل بلغ السبعين وأضناه النفي والمرض مثل هذا التوقد الذهني المدهش ، بل الأعجب أن تجد فيه مثل هذه الإرادة القوية الطاغية

لا ينقطع هتاف الوفود مطالبة أن يظل عليهم ، يذهب مرة وأخرى وثالثة إلي الشرفة ويشكرهم بلطف وإيجاز ، لم يرهقه الإلحاح ويفقده ضبط أعصابه فتقوس قامته علي الشرفة ويصرخ بلهجة آمرة : طيب ، طيب ، دعوني أعمل بهدوء من أجلكم ، ثم يغلق الشرفة بحركة خاطفة وتنتهي الزيارة ، يقول الباشا لي : إلي غد في الساعة العاشرة بقصر عابدين تحل عتمة المساء وأشق بصعوبة طريقي وسط حشود المتظاهرين في بحر من أثواب متعددة الألوان . الأعلام ترفرف كأجنحة الطير المذعور الأيدي كلها مضمومة مرتفعة فوق الرؤوس وهدير صاحب يؤم هذا الشيخ العظيم ، إنه واقف في الشرفة العالية في غمرة الضوء ذراعه المفتوحان كأنما زاد طولهما ليضم بحنان إلي صدره العريض هذا الخلق جميعاً ، وحين دخلت في صباح الغد علي الملك في مكتبه وجدته بادي الاضطراب يعالج قلقه بلعب يده بقاطع للورق ، وزغلول باشا قبالة مسيطر كل السيطرة علي نفسه يتكلم ببطء هادئ

ودار النقاش بينهما أمامي فأدركت من فوري أهمية النزاع وخطورة نتائجه ، ففي جانب ملك نشأ في أحضان التقاليد الشرقية التي تسند السلطة إلي شخصه ، وهو اليوم يحاول أن يستبقي لنفسه آخر رمق فيها ، وفي جانب رئيس الوزراء

معتد كل الاعتداد بالحقوق التي منحها له الدستور ، الكلام بينهما مهذب ولكني أحسست تحته خصومة تتهيأ للانفجار المؤدي إلي كارثة ، وأنه ينبغي فضها بغير تمهل

وفي أثناء الجلسة حين اشتدت حدة النقاش نطق زغلول بأشأ بهذه الكلمات (لو أننا استشرنا الشعب - - - - -) وقلت في سري (كلمة واحدة من فم هذا الرجل السياسي الذي يملك في يده مصر كلها أرواحها وأجسادها فإذا صورة هذه الحياة الوديعه خالية البال تنقلب إلي مشهد مخيف لغضب الشعب) ، وارتفع صوت زغلول وقال : هل تقبل جلالتم أن يفصل النائب العام في النزاع وأن يكون قراره حاسماً ؟ فكر الملك برهة قصيرة ثم خضع وقال : (فليكن) استاذنت أن أخلو بنفسي قليلاً فقادني أحد الأمناء إلي صالون يطل علي حدائق القصر ، في هذا الإطار الفريد خلوت إلي نفسي أفكر وكتبت علي عجل بضعة أسطر ولما عدت إلي الرجلين وجدتهما في عين الوضع الذي كنت تركتهما فيه ، أحسست بالتأثر يغلبني بشدة وأنا أقرأ عليهما التصريح التالي :

(- - - - -) إعفاء الملك من المسؤولية هو أساس هذا الدستور ، فليس له أن يباشر سلطاته إلا عن طريق وزرائه ، وهذا المبدأ لا يقبل في نظر القانون أي استثناء ويسري علي كل أعمال الملك فإذا ابحنا فيها له استثناء واحداً نكون قد هدمنا الدستور من أساسه ولذلك أري أن تعيين أعضاء مجلس الشيوخ ينبغي أن يصدر من الملك بناء علي عرض من مجلس الوزراء) - - -

نقلًا باختصار عن كتاب صفحات من تاريخ مصر للكاتب الكبير يحيي حقي حيث ورد هذا الموضوع في فصل بعنوان (احتكام غريب)

٢٤٩ . مجلس نواب لمدة تسع ساعات يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٢٥

استقالت وزارة #سعد زغلول بعد حادث مقتل السير لي ستاك وتولي أحمد زيور رئاسة الوزارة وتم حل مجلس النواب ثم تم الدعوة لانتخاب مجلس جديد ثم تم حله في نفس يوم انعقاده ، وعن هذا الموضوع كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي ما ملخصه :

افتتح البرلمان بمجلسيه في هيئة مؤتمر صبيحة يوم الاثنين ٢٣ مارس سنة ١٩٢٥ برئاسة محمد توفيق نسيم باشا رئيس مجلس الشيوخ وحضر #الملك فؤاد جلسة الافتتاح وتلا زيور باشا خطاب العرش ثم انفض المؤتمر

واجتمع مجلس النواب في نحو الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وبدأ في انتخاب رئيسه ، فظهر من نتيجة الانتخاب أن أغلبية النواب من الوفديين إذ كان التنافس علي الرئاسة بين سعد زغلول وعبد الخالق ثروت ، فنال سعد ١٢٣ صوتاً ونال ثروت ٨٥ صوتاً فقط فظهرت بذلك النتيجة التي لا شك فيها في الانتخابات العامة لمجلس النواب الجديد ، وأنها أسفرت عن أغلبية وفدية خلافاً لما زعمته الحكومة في بلاغها يوم ١٣ مارس ، وظهر أن الوزارة لا تحوز ثقة المجلس الجديد ، فكانت هذه النتيجة صدمة شديدة للوزارة ، وتأجل اجتماع المجلس إلي الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم لمتابعة أعماله وأولها انتخاب وكيلي المجلس والسكرتيرين والمراقبين (أعضاء مكتب المجلس)

ولو اتبعت أحكام الدستور وكان الغرض من حل مجلس النواب الأول هو الرجوع إلي الأمة لكان واجباً علي الوزارة أن تستقيل ، وقد أعدت استقالتها فعلاً عقب انتخاب سعد لرئاسة المجلس ولكن كان الأمر ميئاً علي أن تكون الاستقالة صورية وأن تكون اتهاماً للأغلبية وأن لا يقبل الملك هذه الاستقالة فرفع زيور باشا كتاب الاستقالة إلي الملك ، ومما جاء فيه قوله :

"بمجرد انعقاد المجلس وقبل بحث برنامج الوزارة الذي تضمنه خطاب العرش ظهرت في المجلس روح عدائية علي الإصرار علي تلك السياسة التي كانت سبباً لتلك النكبات التي لم تنته البلاد من معالجتها وقد بدت تلك الروح جلية في أن المجلس اختار لرياسته زعيم تلك السياسة والمسئول الأول عنها" والسياسة التي أشار إليها زيور في هذا الكتاب هي سياسة البرلمان الأول التي أغضبت الحكومة البريطانية إذ رفض مطالبها الجائرة ،

لم يقبل الملك استقالة الوزارة وجدد ثقته فيها علي الرغم من خذلان مجلس النواب الجديد لها ، فرفع زيور إلي الملك كتاباً آخر عرض فيه حل هذا المجلس فأصدر الملك علي الفور مرسوماً بحله استأنف المجلس اجتماعه في الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم ورأس الجلسة سعد باشا ، وأخذ الأعضاء في انتخاب الوكيلين - - - وفيما كانت الأوراق تفرز دخل زيور باشا ومعه الوزراء وخاطب الأعضاء قائلاً :

أتشرف بإخبار المجلس أن الوزارة رفعت استقالتها إلي جلالة الملك فأبي قبولها ، فأشارت الوزارة علي جلالته بحل المجلس فأصدر المرسوم الآتي نصه وتلاه وهو يقضي بحل المجلس وبدعوة المندوبين لإجراء انتخابات جديدة في ٢٣ مايو سنة ١٩٢٥ وأن مجلس النواب الجديد سيجتمع أول يونيه

كانت تلاوة مرسوم الحل قبيل الساعة الثامنة مساءً ، فلم يعيش ذلك المجلس سوي تسع ساعات ، لأنه انعقد في الساعة الحادية عشرة صباحاً ، وحل في الثامنة مساءً فكان أقصر المجالس النيابية عمراً

قبيل حل مجلس النواب بالدهشة والألم لأنه كان مفهوماً أن يبقى وتستقيل الوزارة ، وكان هناك طرائق كثيرة لمعالجة هذه الأزمة بان تؤلف وزارة جديدة من حزب الأغلبية أو موالية لها وتنال ثقة المجلس

وتسير الأمور طبقاً لأحكام الدستور ولكن العناد الذي يشبه عناد الأطفال جعل الوزارة باتفاقها مع السراي والإنجليز تستصدر المرسوم بحل مجلس النواب ، منتهكة بذلك حرمة الدستور وإرادة الأمة

وكان الباعث علي هذا الذي وقع هو تعلق بضعة نفر من الوصوليين بكراسي الوزارة فحسب ورغبتهم الجامعة في ألا تفلت هذه الكراسي من أيديهم

صار الحكم منذ تأليف وزارة زيور باشا حكماً غير دستوري لأن الوزارة بدلاً من أن تواجه البرلمان لكي تنال ثقته وبدلاً من أن تنزل علي إرادته حلت مجلس النواب الأول ثم حلت مجلس النواب الثاني حين آنست أن الأغلبية ليست في جانبها وبذلك حل مجلس النواب لسبب واحد مرتين وهذا نقض لأحكام الدستور - - - واستفحل نفوذ السراي في ظل هذا النظام لأن الوزارة لم يكن لها سند غير السراي ، بعد أن أهدرت إرادة الأمة - - - وهكذا عطل الدستور

ومن عجب أن من هؤلاء السادة من صبروا علي حكم الاحتلال السنين الطوال ولم يتبرموا به أو يقاوموه أو يعارضوه ثم هم أولاء لم يصطبروا علي حكم الشعب أشهر معدودات

نقلًا عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية) الجزء الأول - لعبد الرحمن الرافعي

٢٥٠. شاعر النيل حافظ إبراهيم يصف حياد بريطانيا سنة ١٩٣٠ بالحياد الكاذب :

نقلاً باختصار عن كتاب في أعقاب الثورة المصرية - ثورة ١٩١٩ - لعبد الرحمن الرافعي - الجزء الثاني - دار المعارف : كانت الأفكار تتناقل الإشاعات المختلفة عما تبيته الحكومة للحياة الدستورية وكان الظن أن تلجأ إلى تعديل قانون الانتخاب لتضمن تدخلها وضغطها علي حرية الناخبين أو توقف الحياة الدستورية كما فعلت وزارة محمد محمود ولكن وزارة اسماعيل صدقي كانت أمعن في العدوان مما ظنه الناس إذ استقر عزمها علي إلغاء الدستور ووضع دستور آخر يضيق من سلطة الأمة

صدر الأمر الملكي في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣٠ بإلغاء دستور ١٩٢٣ ويحل مجلسي النواب والشيوخ وإعلان الدستور الجديد ووقع الملك فؤاد علي هذا الأمر وعلي الدستور الجديد ووقع مع الوزراء اسماعيل صدقي و --- وصدر في نفس اليوم قانون الانتخاب الجديد منسجماً مع الدستور الذي ابتدعه الوزارة ، وعرضت الوزارة خفية أمر هذا الدستور علي الحكومة البريطانية قبل إصداره وأطلعت وزارة الخارجية البريطانية علي نصوصه وكانت هذه علي علم باليوم المحدد لصدوره ، فكان جوابها أن هذه من المسائل الداخلية التي لا شأن لها بها ومدلول الجواب موافقتها علي هذا الاعتداء فمضت الوزارة مطمئنة إلي إنفاذه وكان موقف الحكومة البريطانية تحت ستار الحياد ينطوي علي الانتقام من الأمة لعدم قبول حكومتها البرلمانية مشروع المعاهدة ، فسياستها هي إما قبول السيطرة البريطانية وإما حرمان الأمة حقوقها الدستورية بواسطة الوزارات الرجعية ، - أشارت جريدة الديلي ميل الإنجليزية بقولها قبيل صدور الدستور الجديد : (تدبر أزمة جديدة في سراي عابدين - الملك فؤاد بمعاونة صدقي باشا قد سنا دستوراً جديداً تماماً - - إلي أن قالت ومعني هذا أن الحكومة تكون حكومة السراي وأن الحكومة هي الملك نفسه وستكون نتيجة هذا التغيير المنتظر نقل السيطرة البرلمانية من الوفديين المضادين للبريطانيين إلي الملك الذي يتسني له إذ ذاك أن يحكم البلاد حكماً مطلقاً ، أما الذين يعلمون طريقة سير الحوادث في مصر فيقولون إنه من المستحيل علمياً أن تتبع بريطانيا سياسة عدم التدخل في الشؤون المصرية ، فما دامت بريطانيا واضعة جنودها في القاهرة وأسطولها علي مقربة من الإسكندرية فإن عدم تدخلها يعتبر علي الأقل معادلاً للتأييد السلبي) - - -

قال شاعر النيل حافظ إبراهيم مخاطباً الإنجليز مندداً بسياسة الحياد ناعياً عليهم ظلمهم وإخلافهم وعودهم للأمة :

بنيتم علي الأخلاق أساس ملككم فكان لكم بين الشعوب ذمام

أخاف عليكم عثرة بعد نهضة فليس لملك الظالمين دوام

أضعتم وداداً لو رعيتم عهوده لما قام بين الأمتين خصام

أبعد حياد لا رعي الله عهده وبعد الجروح الناعرات وئام ؟

وقال في هذا المعني : لا تذكروا الأخلاق بعد حيادكم فمصابكم ومصابنا سيان

حاربتمو أخلاقكم لتحاربوا أخلاقنا فتألم الشعبان

وقال عن الحياد الكاذب :

قصر الدوبارة قد نقضت العهد نقض الغاصب

أخفيت ما أضمرته وأبنت ود الصاحب

الحرب أروح للنفوس من الحياد الكاذب

وقال مخاطباً المندوب السامي البريطاني مندداً بحياد الإنجليز المصطنع :

ألم تر في الطريق إلي كباد تصيد البط بؤس العالمينا

الم تلمح دموع الناس تجري من البلوي - ألم تسمع أننا

الم تخبر بني التاييز عنا وقد بعثوك مندوباً أميناً

بأننا قد لمسنا الغدر لمساً وأصبح ظننا فيكم يقيناً

كشفنا عن نواياكم فلستم وقد برح الخفاء محايدينا
سنجمع أمرنا فترون منا لدي الجلي كراماً صابرينا
فهل يجديكم الأسطول نفعا إذا ما نازل الحق المبينا ؟
وقال أيضاً : أمحايد أم حائد عن منهج الحق المبين ؟

نازلت شعباً أعزلاً بمدرعين مدججين
وأمنت عقبي الظالمين وبئس عقبي الظالمين
مهما تصب منا فلسنا الجازعين اليائسين
إنا بجبار السماء وبالعقيدة نستعين
إن العقيدة لا تزلزلها حراب الغاصبين
فلئن ملكتم يومكم لغد لرب العالمين
أأمنتمو صرف الزمان وفتكه بالغاشرين
وقال مخاطباً اسماعيل باشا صدقي :

قد مر عام يا سعاد وعام وابن الكنانة في حماه يضام
صبوا البلاء علي العباد فنصفهم يجبي البلاد ونصفهم حكام
أشكو إلي قصر الدبارة ماجني صدقي الوزير وماجبي علام
ودعا عليك الله في محرابه الشيخ والقسيس والحاخام

٢٥١. بعض من مقال (يا هادي الطريق جرت) للأستاذ أحمد حسن الزيات

أحمد حسن الزيات باشا 1885 - 1968 من كبار رجال النهضة الثقافية في مصر والعالم العربي، ومؤسس مجلة الرسالة. اختير عضواً في المجامع اللغوية في القاهرة، ودمشق، وبغداد، وحاز على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 1962 م في مصر.

(-----) لقد تعدد الهداة في القافلة واختلفت الشياطين بين هؤلاء الهداة ، فتنازعوا الزعامة ، وتجادبوا الأزمة ، فأخرجنا هذا من مذهب إلي مذهب ، وصرفنا ذلك من مطلب إلي مطلب ، حتي إذا انكشفت عن عيوننا أغطية الغفلة ، وجدنا أنفسنا بعد الجهد الجاهد دور حول الموقف الذي كنا فيه ، أو نرجع إلي الموضوع الذي فصلنا عنه ، علي هذه القيادة المتضاربة الأفيئة رجعا القهقري زهاء ثمانين سنة ، رجعا إلي العهد الذي كنا نهدهد الدستور فيه علي هوي السلطان المطلق ، وندريب القانون علي مصارعة العرف الغالب ، ونعلم الشعب الأجير معني الأمة المالكة ، لينتنا عدنا إلي ذلك العهد بأخلاقه ورجولته ، فقد كنا علي قتلنا أعزة ، وعلي فاقتنا أعفة ، وعلي جهالتنا أعلم بالخير ، وأفهم لمعني المجتمع ، كنا نتواصي علي الصبر ، ونتعاون علي البر ، ونتهادي صنائع المعروف ، ونحفظ وحدة الأسرة بالحب ، وسلطان الدولة بالطاعة ، وحقوق الله بالورع فما كان منا من يخون الأمانة ، ويسرق الأمة ، ويتكئ علي النقيصة ، ويتحمل علي الخبث ، ويتجر بالدين ، ويتخذ عدو وطنه ولياً ، ويعتقد خطة غاصبيه شريعة ، ولكننا وأأسفاه ، بعد هبة مصطفى^١ ، ونهضة سعد^٢ ، وجهاد خمسة عشر عاماً ، تمكن فيها السلطان ، واستبحر العمران ، وازدهر العلم ، وتولّد النبوغ ، وتوحد الشعب ، وتكون الرأي ، نصاب بهذه النكسة الشديدة ، فنعود ناقضين ما أبرم ، خاسرين ما غنم ،

اللهم إن النيل لا يزال يفيض ، وإن الوادي لا يزال يُنبِت ، وإن الشمس التي أنضجت أذهان الفراعين لا تزال تُشع ، وإن الأيدي التي غرست أولي الحضارات علي الغدوتين لا تزال تعمل ، فما بالناس اليوم يتقدم الناس ويتأخر ، وتتحرر شعوب الناس الضعيفة ونحن لا نتحرر (

كتب الزيات هذا المقال في فترة من أحلك الفترات في تاريخ الحكم المصري ، فقد كانت البلاد آنذاك تديرها حكومة (صدقي باشا) وحكم البلاد أسوأ حكم ، وكانت المصالح الحزبية فوق كل اعتبار ، وكان للإقطاع ورأس المال والمحسوبية سطوة في كل مناحي الدولة وكانت مصر تحت الاحتلال البريطاني

^١ الزعيم مصطفى كامل
^٢ الزعيم سعد زغلول

٢٥٢. كتاب الجبهة الوطنية إلى #الملك فؤاد - ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥

نقلًا عن كتاب في أعقاب الثورة المصرية - ثورة ١٩١٩ - لعبد الرحمن الرافعي - الجزء الثاني - دار المعارف :
حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك

نتشرف نحن الموقعين علي هذا بأن نرفع إلي سدتكم الرفيعة هذا الملتمس الذي تتمثل فيه إرادة الشعب المصري مجتمعة كلمته منيعة جبهته ، فلقد حلت بالبلاد أزمة سياسية خطيرة اجتمع فيها الخطر الخارجي الذي يهدد البلاد بحرب جائحة إلي الخطر الداخلي الذي يهدد حريتها وطمأنيتها ويمس حقها المعترف به في تصريف أمورها والاستمتاع بدستورها مما دعا إلي انتشار روح القلق في البلاد واضطراب المصالح العامة والخاصة معاً

وإننا لنري بكل احترام أنه ما من مخرج من هذه المحنة أو علاج حاسم لها إلا أن يعود إلي الأمة فوراً دستوراً الصادر في سنة ١٩٢٣ ، وما كنا فيما نري صادريين إلا عن الرأي الذي ارتضته حكمة جلالته السامية في كتابكم الملكي الصادر إلي مجلس الوزراء بتاريخ ٢٠ إبريل سنة ١٩٣٥ ، والذي ورد فيه ما يأتي بحروفه :

(إن أعز أمانينا كما تعلمون هو أن تحيا البلاد الحياة الدستورية التي ترضاها ، سواء بإعادة دستور سنة ١٩٢٣ معدلاً علي النحو يريثيه حسب المقتضيات نواب الأمة طبقاً لأحكام المواد ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ من ذلك الدستور أو وضع دستور تصدق عليه جمعية تمثيلية وطنية وإننا مع ذلك نفضل الطريقة الأولى)

(يا صاحب الجلالة)

(إذا كان الشعب ممثلاً في هيئاته وأحزابه السياسية قد أجمع هذا الإجماع الرائع علي وجوب عودة دستور الأمة منذ الآن فإنه إنما يقصد إلي استقرار نظام الحكم علي أساس سلطة الأمة توصلًا لإيجاد حكومة دستورية تعمل لإصلاح ما فسد وتحقق استقلال البلاد)

ولما كان الدستور من حق جلالته والشعب المصري

ولما كنا نعلم أن أسمى رغبات جلالته أن تطمئن الأمة إلي صيانة حقوقها ومرافقها فتهيأ لنفسها المصير الذي ينتظرها والمكان اللائق بها بين الأمم

لذلك

نلتمس من جلالته

التعطف بإصدار أمرهم الكريم بإعادة دستور سنة ١٩٢٣ فوراً ونرفع إلي سدتكم مع هذا الالتماس أسمى فروض الولاء لعرشكم والإخلاص لذاتكم

ولا زلنا يا صاحب الجلالة لمقامكم العالي المطيعين المخلصين

١٢ ديسمبر ١٩٣٥

وقد وقع علي هذا الكتاب كل من : مصطفى النحاس رئيس الوفد المصري ، محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، اسماعيل صدقي رئيس حزب الشعب ، يحيى إبراهيم رئيس حزب الاتحاد ، حافظ رمضان رئيس الحزب الوطني ، عبد الفتاح يحيى ، حمد الباسل وحافظ عفيفي عن المستقلين وتسلمه علي ماهر رئيس الديوان الملكي ورفعته إلي الملك

أما عن ملخص علاقة الملك فؤاد بالحياة الدستورية في مصر فقد كتب عنها الرافعي في موضع آخر من كتابه ما يلي :

ومن هنا صارت المرحلة الثالثة من حياة الملك فؤاد -وهي معظم سني حكمه- نضالاً مستمراً بينه وبين الأمة وقعت فيها ثلاثة انقلابات حطمت الحياة الدستورية ، وهذا لعمري مما لا يشرف صفحة الملك ، وخاصة إذا لاحظنا أنه لم يبذل مثل هذا النضال ولا أقل منه في ميدان آخر كان هو الجدير به ، ونعني به ميدان النضال ضد الجانب البريطاني جانب الاحتلال والعدوان علي الاستقلال - - بل كان يعمل علي مسايرة السياسة البريطانية وتفادي الصدام بها اعتبر ذلك قبل

ثورة ١٩١٩ وفي خلالها وفي أعقابها ، ومن المحقق أيضاً أن هاتيك الانقلابات الثلاثة التي وقعت في عهده كانت تتم باتفاق بينه وبين الجانب البريطاني مع اختلاف في المقاصد والأغراض ، فالجانب البريطاني كان يري فيها عقوبة لمصر علي عدم إذعانها لسياسته ، والملك والمستوزرون يرون فيها استرداداً للحكم المطلق علي حساب سلطة الأمة ولا ينهض عذراً للملك فؤاد في مناوآته للدستور ما يدعيه بعض الرجعيين من أن الأمة لم تنضج لهذا النظام ، فإن هذه الدعاية إنما ابتدعها الاحتلال منذ سنة ١٨٨٢ ليسوغ بها عدوانه علي استقلال البلاد إلغاء دستورها سنة ١٨٨٣ - -

ويكفيك للتحقق من بطلانها أن تقارن بين الوزارات التي اختارها الشعب والوزارات التي اختارها الملك فؤاد وفرضها علي الشعب فرضاً ، سواء في عهد الحماية أو في عهد ثورة ١٩١٩ أو في أعقابها فإنك من غير تردد أو تحيز تقطع بأن اختيار الشعب في مجموعه كان خيراً من اختيار الملك فهذا دليل ناطق علي أن الشعب ناضج للحياة الدستورية كفاء لأن يختار الحكومة التي يرضاها

٢٥٣. المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي يوضح كيف تدهورت الحالة الاجتماعية في

ظل الاحتلال البريطاني

نقلًا عن كتاب في أعقاب الثورة المصرية - ثورة ١٩١٩ - لعبد الرحمن الرافعي - الجزء الثاني - دار المعارف - حيث كتب ما يلي :

، ، ، والطبقة الفقيرة من الفلاحين والعمال وهم أغلبية الشعب قد ساءت حالتهم في عهد الاحتلال ، فهو المسئول الأول عن انتشار الجهل والامية بينهم - - وهو سياسته التعليمية قد حال دون تعليمهم وتهذيبهم وتثقيفهم ، فحرموا نور العلم والتربية الأخلاقية والدينية وساءت حالتهم المادية والمعنوية وأهمل الاحتلال حالتهم المادية والصحية والمعنوية وانتشرت فيهم الأمراض ،

واجتمعت إلى ذلك رعاية الحكومة للآفات الاجتماعية التي جاءت من أوروبا ورعاها الاحتلال وحماها ، فعمت طبقات الشعب علي السواء ، كبيرها ومتوسطها وصغيرها ، وأولي هذه الآفات الربا ، فقد انتشر انتشاراً ذريعاً ، وساعد علي ذيوعه ما فطر عليه معظم الطبقات في بلادنا من قصر النظر وعدم تقدير العواقب وحب الظهور والإسراف ، ووجد المرابون من هذا الضعف ومن النظم والقوانين ورعاية المحاكم المختلطة ما جعلهم يتغلغون في مختلف الأوساط في العواصم والبنادر والقرى القريبة والبعيدة فكلوا الأهلين بالديون ، مما أفضي إلي ضياع ثروات الكثيرين منهم ، وانتشار الفقر والبؤس في الطبقات الكبيرة ، ثم المتوسطة والصغيرة

وانتشرت الخمر الفتاكة بين سكان المدن ، ثم سكان الريف ، وصارت محلات المسكرات تفتح علناً في القرى بين الفلاحين ، وفي الأحياء الآهلة بالعمال في المدن ، برعاية الحكومة وحمايتها ، وفي كنف الامتيازات الأجنبية ، ففتكت بهم فتكاً ذريعاً ، وأفسدت عليهم صحتهم ودينهم وأخلاقهم ، ونقصت مقدرتهم علي العمل والإنتاج ، وساعدت علي ازدياد حوادث الإجرام والإخلال بالأمن العام

فبينما الحكومات الأوروبية والأمريكية التي لا تحرم الخمر تحاربها وتمنع انتشارها وبخاصة بين الفلاحين والعمال وتتعقد المؤتمرات الدولية وتنشئ اللجان والنظم لمكافحتها والحد من أضرارها ، كانت هذه الآفة تلقي من الحكومة الرعاية والتشيط ، وصار تجار الخمر في المدن والأرياف ذرائع للتسليف بالربا الفاحش واستلاب أموال الأهلين وإفساد أخلاقهم ، وانتشرت أيضاً آفة الميسر إلي جانب آفة الخمر فساءت حالة الشعب الاجتماعية تبعاً لذلك

لم تتقدم إذن حالة الشعب الاجتماعية في عهد الاحتلال بل ساءت وصارت وبالاً وزادته هذه الآفات بؤساً وانحلالاً وفي ذلك يقول الأمير (السلطان) حسين كامل في حديث له نشرته جريدة ذي إجبشيان استاندر - اللواء المصري - (عدد ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٠٨) يصف بؤس الفلاح : إن الفلاح يقضي حياته مثقلاً بالدين ، لا يزيد إيراده علي الضرائب المفروضة عليه وفوائد الديون المطلوبة منه وهو لكي يسد حاجات زراعته في مواعيدها مضطر دائماً إلي الاستدانة بالربا الفاحش ، فلهذا العسر من جهة ، ولخلوه من المال من جهة أخرى ، ولكثرة من يعولهم من جهة ثالثة قد بقي الفلاح غريقاً في بحار الضنك لا يعرف لنفسه مخلصاً منها

وصفوة القول أن سياسة الاحتلال كانت من أهم أسباب تأخر البلاد الاجتماعي وتشاركه في حمل هذه المسؤولية الحكومات الأهلية والبيانات المصرية

٢٥٤. حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وإصرار النحاس باشا علي وزارة وفدية خالصة

بضغط علي الملك فاروق من الإنجليز بالقوة :

نقلًا عن كتاب في أعقاب الثورة المصرية - ثورة ١٩١٩ - لعبد الرحمن الرافعي - الجزء الثالث - دار المعارف - حيث كتب ما ملخصه :

اتجهت نية الإنجليز خلال الحرب العالمية الثانية إلي إسناد الوزارة إلي النحاس أو اشتراك حزبه (الوفد) في الوزارة ، وأبلغوا هذه الرغبة إلي جلاله الملك ، - - فلما تحرجت الأمور في أواخر عهد وزارة حسين سري جدد السفير البريطاني (لورد كيلرن) إبداء هذه الرغبة إلي جلاله الملك فاستدعي النحاس وحدد له يوم ٣ فبراير سنة ١٩٤٢ للمقابلة الملكية وعرض عليه جلاله الملك أن يؤلف وزارة قومية برآسته ، وكان من الممكن أن يتم الأمر في هدوء وبغير حاجة إلي التدخل البريطاني المسلح الذي حدث يوم ٤ فبراير ، لو أن النحاس قبل أن يؤلف وزارة قومية ، ولكنه أبي ذلك استجابة لأنانيته واتباعاً لعادته في رفض الائتلاف إلا مكرهاً ، واعتذر لجلاله الملك من عدم إجابته هذا الطلب مستنداً إلي عدم استطاعته الاشتراك في الحكم مع رجال الانقلاب -علي الدستور- - - ولما علم السفير البريطاني علي أثر هذه المقابلة بأن النحاس رفض تأليف وزارة قومية برآسته قابل رئيس الديوان الملكي (أحمد محمد حسنين) وأخبره بأنه علم برفض النحاس تأليف وزارة قومية -من جميع الأحزاب- ، وطلب إليه أن يرفع إلي جلاله الملك نصيحة السفير أن يكلف النحاس بتأليف وزارة وفدية ، فرد عليه رئيس الديوان بأن المسألة بين الملك ورؤساء الأحزاب

وفي اليوم التالي (٤ فبراير) دعي رؤساء الأحزاب وبعض الشخصيات البارزة - - فاجتمعوا بالقصر في نحو الساعة الرابعة مساء ورأس جلاله الملك الاجتماع وتلا أحمد محمد حسنين رئيس الديوان بياناً باسم جلالته أشاد فيه بفضل الاتحاد ونوه إلي أن جلالته بدأ منذ أمس يستدعي بعض المجتمعين ليدعوهم إلي تأليف وزارة قومية ولكن قبل أن تبدأ المشاورات طلب إلي السفير البريطاني استدعاء النحاس باشا وتكليفه بتشكيل الوزارة - - - وأن السفير طلب اليوم ٤ فبراير مقابلة رئيس الديوان وسلمه إنذاراً هذا نصه :

(إذا لم أسمع قبل الساعة السادسة مساءً أن النحاس باشا قد دعي لتأليف وزارة فإن جلاله الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب علي ذلك من نتائج)

Unless I hear by 6 p.m. that Nahas Pasha has been asked to form a cabinet His Majesty King Farouk must accept the consequences.

وختم البيان بدعوة المجتمعين إلي تبادل الرأي في هذا الموقف وانصرف جلاله الملك تاركاً لهم حرية التشاور في الأمر تشاور المجتمعون فيما ذا يكون الرد علي الإنذار وكانت الفكرة الغالبة أن تؤلف وزارة قومية برآسة النحاس ولكن النحاس رفض فكرة الوزارة القومية وكانت عاقبة هذا الرفض أن وقع هذا الحادث الذي يعد من الأحداث الخطيرة في تاريخ مصر الحديث ، وانتهى المجتمعون إلي الاحتجاج علي الإنذار وكتب الاحتجاج ووقعوا عليه جميعاً وهذا نصه :

(أن في توجيه التبليغ البريطاني اعتداء علي استقلال البلاد ويخل بأحكام المعاهدة)

وعاد جلاله الملك إلي الاجتماع وعلم بما تم عليه الاتفاق من الاحتجاج فأقره

حمل رئيس الديوان إلي السفير البريطاني نص الاحتجاج ، فأجاب أن هذا ليس رداً وأنه سيحضر لمقابلة جلاله الملك في الساعة التاسعة مساء

وقبيل هذا الموعد جاءت دبابات بريطانية مسلحة بالمدافع وربطت أمام القصر ،

ثم حضر السفير البريطاني بصحبة الجنرال استون قائد القوات البريطانية في مصر وقتئذ وبعض الضباط مسلحين بالمسدسات ودخل السفير والجنرال استون إلي غرفة جلاله الملك واجتمعوا به بحضور رئيس الديوان وكان السفير يحمل ورقة بالتنازل عن العرش فاخترت رئيس الديوان بالملك وأسدي إليه النصيحة بقبول الإنذار فقبله

٢٥٥ . مجلس نواب لمدة تسع ساعات يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٢٥

استقالت وزارة #سعد زغلول بعد حادث مقتل السير لي ستاك وتولي أحمد زيور رئاسة الوزارة وتم حل مجلس النواب ثم تم الدعوة لانتخاب مجلس جديد ثم تم حله في نفس يوم انعقاده ، وعن هذا الموضوع كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي ما ملخصه :

افتتح البرلمان بمجلسيه في هيئة مؤتمر صبيحة يوم الاثنين ٢٣ مارس سنة ١٩٢٥ برئاسة محمد توفيق نسيم باشا رئيس مجلس الشيوخ وحضر #الملك فؤاد جلسة الافتتاح وتلا زيور باشا خطاب العرش ثم انفض المؤتمر

واجتمع مجلس النواب في نحو الساعة الحادية عشرة قبل الظهر وبدأ في انتخاب رئيسه ، فظهر من نتيجة الانتخاب أن أغلبية النواب من الوفديين إذ كان التنافس علي الرئاسة بين سعد زغلول وعبد الخالق ثروت ، فنال سعد ١٢٣ صوتاً ونال ثروت ٨٥ صوتاً فقط فظهرت بذلك النتيجة التي لا شك فيها في الانتخابات العامة لمجلس النواب الجديد ، وأنها أسفرت عن أغلبية وفدية خلافاً لما زعمته الحكومة في بلاغها يوم ١٣ مارس ، وظهر أن الوزارة لا تحوز ثقة المجلس الجديد ، فكانت هذه النتيجة صدمة شديدة للوزارة ، وتأجل اجتماع المجلس إلي الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم لمتابعة أعماله وأولها انتخاب وكيلي المجلس والسكرتيرين والمراقبين (أعضاء مكتب المجلس)

ولو اتبعت أحكام الدستور وكان الغرض من حل مجلس النواب الأول هو الرجوع إلي الأمة لكان واجباً علي الوزارة أن تستقيل ، وقد أعدت استقالتها فعلاً عقب انتخاب سعد لرئاسة المجلس ولكن كان الأمر ميئاً علي أن تكون الاستقالة صورية وأن تكون اتهاماً للأغلبية وأن لا يقبل الملك هذه الاستقالة فرفع زيور باشا كتاب الاستقالة إلي الملك ، ومما جاء فيه قوله :

"بمجرد انعقاد المجلس وقبل بحث برنامج الوزارة الذي تضمنه خطاب العرش ظهرت في المجلس روح عدائية علي الإصرار علي تلك السياسة التي كانت سبباً لتلك النكبات التي لم تنته البلاد من معالجتها وقد بدت تلك الروح جلية في أن المجلس اختار لرياسته زعيم تلك السياسة والمسئول الأول عنها" والسياسة التي أشار إليها زيور في هذا الكتاب هي سياسة البرلمان الأول التي أغضبت الحكومة البريطانية إذ رفض مطالبها الجائرة ،

لم يقبل الملك استقالة الوزارة وجدد ثقته فيها علي الرغم من خذلان مجلس النواب الجديد لها ، فرفع زيور إلي الملك كتاباً آخر عرض فيه حل هذا المجلس فأصدر الملك علي الفور مرسوماً بحله استأنف المجلس اجتماعه في الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم ورأس الجلسة سعد باشا ، وأخذ الأعضاء في انتخاب الوكيلين - - - وفيما كانت الأوراق تفرز دخل زيور باشا ومعه الوزراء وخاطب الأعضاء قائلاً :

أتشرف بإخبار المجلس أن الوزارة رفعت استقالتها إلي جلالة الملك فأبي قبولها ، فأشارت الوزارة علي جلالته بحل المجلس فأصدر المرسوم الآتي نصه وتلاه وهو يقضي بحل المجلس وبدعوة المندوبين لإجراء انتخابات جديدة في ٢٣ مايو سنة ١٩٢٥ وأن مجلس النواب الجديد سيجتمع أول يونيه

كانت تلاوة مرسوم الحل قبيل الساعة الثامنة مساءً ، فلم يعيش ذلك المجلس سوي تسع ساعات ، لأنه انعقد في الساعة الحادية عشرة صباحاً ، وحل في الثامنة مساءً فكان أقصر المجالس النيابية عمراً

قبول حل مجلس النواب بالدهشة والألم لأنه كان مفهوماً أن يبقى وتستقيل الوزارة ، وكان هناك طرائق كثيرة لمعالجة هذه الأزمة بان تؤلف وزارة جديدة من حزب الأغلبية أو موالية لها وتنال ثقة المجلس

وتسير الأمور طبقاً لأحكام الدستور ولكن العناد الذي يشبه عناد الأطفال جعل الوزارة باتفاقها مع السراي والإنجليز تستصدر المرسوم بحل مجلس النواب ، منتهكة بذلك حرمة الدستور وإرادة الأمة

وكان الباعث علي هذا الذي وقع هو تعلق بضعة نفر من الوصوليين بكراسي الوزارة فحسب ورغبتهم الجامعة في ألا تفلت هذه الكراسي من أيديهم

صار الحكم منذ تأليف وزارة زيور باشا حكماً غير دستوري لأن الوزارة بدلاً من أن تواجه البرلمان لكي تنال ثقته وبدلاً من أن تنزل علي إرادته حلت مجلس النواب الأول ثم حلت مجلس النواب الثاني حين آنست أن الأغلبية ليست في جانبها وبذلك حل مجلس النواب لسبب واحد مرتين وهذا نقض لأحكام الدستور - - - واستفحل نفوذ السراي في ظل هذا النظام لأن الوزارة لم يكن لها سند غير السراي ، بعد أن أهدرت إرادة الأمة - - - وهكذا عطل الدستور

ومن عجب أن من هؤلاء السادة من صبروا علي حكم الاحتلال السنين الطوال ولم يتبرموا به أو يقاوموه أو يعارضوه ثم هم أولاء لم يصطبروا علي حكم الشعب أشهر معدودات

نقلًا عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية) الجزء الأول - لعبد الرحمن الرافعي

٢٥٦. المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافي يوضح مزايا الحكم الدستوري حيث كتب ما

ملخصه :

وعبرت عن هذا المعنى أيضاً في جلسة ٢٢ ابريل سنة ١٩٤٣ بمجلس الشيوخ إذ قلت : إني بالرغم من معارضتي للوفد وبالرغم من أنني كنت معارضاً لسعد سنة ١٩٢٤ في البرلمان الأول ، وبالرغم مما أصابني من سعد وخلفاء سعد ، فإني أدين بأن الحكم يجب أن يكون بإرادة الأمة كما أدين أيضاً بحق الأغلبية في تولي الحكم مهما تكن هذه الأغلبية ، لنا أو علينا لأن حكم الأغلبية هو حكم الأمة وهو الحكم الذي يجب أن تتجه إليه جهودنا وأفكارنا وأنظارنا ، إن حكم الشعب له أخطاء وله عيوب ، وقد يخطئ الشعب في اختيار ممثليه ، ولكن هذا الخطأ يمكن إصلاحه ويكون ذلك بممارسة الشعب حقوقه السياسية إذ لا توجد أمة في العالم قد وصلت في النظام الدستوري إلى حد الكمال في سنة أو سنتين كلا ، فإن التربية السياسية للشعب تحتاج إلى سنين طويلة يمارس فيها الشعب حقوقه السياسية ، فخير علاج للنظام الدستوري ولما فيه من العيوب هو أن يمارس الشعب حقوقه ويتولاها بنفسه هذا هو الطريق الصحيح لحكم الشعب نفسه بنفسه ، وهو الطريق الذي يبعث في الأمة روح الاستقلال ، روح العزة والكرامة روح التقدم إلى مستوى الأمم العظيمة

وأود في هذا المقام أن أنقل ما كتبه دفاعاً عن الدستور في كتاب (ثورة سنة ١٩١٩) لأن متابعة لرأيي وعقيدتي منذ سنة ١٩١٢ ، بل منذ سنة ١٩٠٨ حين ساهمت في المطالبة بالدستور علي يد المرحوم محمد بك فريد قلت : وهنا يلزمني أن أرد علي قوم لا يعدون الحياة الدستورية مغماً بل يتجهمون لها ويتكرون ، ويطيب لهم ان يعدو عليها المآخذ والعيوب ويضعوا في طريقها العقبات سراً وعلناً هؤلاء الناقمون لهم دعايتهم ضد الدستور وهم إن لم يعلنوا هذه الدعاية جهرة فإنهم يبتونها في إحاديتهم ومجالسهم وتنم عليها أعمالهم وتدابيرهم ، واتجاهات أفكارهم فإلي هؤلاء الناقمين أوجه القول في صدق وإخلاص - - مهما تكن عيوب الحياة الدستورية فإن الزمن كفيل بإصلاحها أما النظم الاستبدادية فعيوبها مستديمة وحسبك أنها تقتل في الأمم روح العزة والكرامة وتغرس فيها طبائع الذل والهوان والعبودية

كانت هذه النظم آفة الشرق بالجملة بل كانت سبيل الغرب إلى سيطرته علي بلدانه ، فلقد وجد الاستعمار الأوروبي في الشرق مرتعاً خصباً لم يجد مثله في الغرب ولهذا الظاهرة أسباب شتى أهمها أن الشعوب الشرقية قد أضعفتها النظم الاستبدادية الداخلية وأرهقتها علي توالي السنين وأفسدت أخلاقها وأضعفت روح المقاومة المعنوية في نفوس أبنائها فلم تقو علي صد أمواج الاستعمار التي ارتطمت بها لأن الشعب الذي يألف العبودية الداخلية هيهات أن يقاوم العبودية أو السيطرة الأجنبية فالعيوب التي ظهرت أو ستظهر في الحياة الدستورية عندنا أقل بكثير من مزاياها ثم إنها بلا مرأ أقل من الحكم المطلق وإصلاح هذه العيوب لا يكون بالتنكر للدستور والتبرم به بل بإصلاح أخلاقنا وتقويمها ولا تصلح الأخلاق في ظل الاستبداد والحكم المطلق بل تزداد ضعفاً وفساداً لأن الاستبداد آفة الأخلاق والنفوس ، والنظم الحرة تنشئ الأمم الحرة ، أما النظم الاستبدادية فلا تنشئ إلا أمماً مستعبدة

هذا إلى أن الدعاية إلى إهدار حقوق الأمة الدستورية تضر بالبلاد في حقوقها الاستقلالية لأن هذه الدعاية معناها أن الأمة لا تصلح لأن تحكم نفسها بإرادتها وأنها في حاجة إلى وصاية داخلية تفرضها عليها الحكومات فرضاً وهذا ولا شك شر إعلان عن الأمة وإساءة إلى سمعتها بين الدول والشعوب وهو سلاح يستخدمه الغير للعدوان على حقوقها الاستقلالية

نقلاً عن كتاب (في أعقاب الثورة المصرية) الجزء الأول - لعبد الرحمن الرافعي
وجدير بالذكر أن المؤرخ عبد الرحمن الرافعي كان عضواً بارزاً بالحزب الوطني الذي أسسه الزعيم مصطفى كامل ثم خلفه محمد فريد وكان الرافعي يؤمن بمبادئ الحزب ويتمسك بها واشترك الرافعي في أول انتخابات أجريت حسب دستور ١٩٢٣م، حيث رشح نفسه في انتخابات مجلس النواب عن دائرة مركز المنصورة، وفاز أمام مرشح حزب الوفد، وشكل مع من قدر لهم الفوز من أعضاء الحزب الوطني المعارضة في مجلس النواب، وتولى رئاسة المعارضة بمجلس النواب على هدي مبادئ الحزب الوطني.

غير أن هذا المجلس لم تطل به حياة بعد استقالة سعد زغلول من رئاسة الحكومة، ثم عاد الرافعي إلى المجلس مرة أخرى بعد الانتخابات التي أجريت في سنة ١٩٢٥م، ولم يكد المجلس الجديد يجتمع في يوم ٢٣ من مارس ١٩٢٥م حتى حُلَّ في اليوم نفسه، وظلت الحياة النيابية معطلة بعد هذا الحل نحو ٨ أشهر، حتى اجتمع المجلس النيابي من تلقاء نفسه في ٢١ من نوفمبر ١٩٢٥م، واتفقت الأحزاب على توزيع الدوائر الانتخابية فيما بينها، ولم يخصص للرافعي دائرته السابقة، وأصر حزب الوفد على أن تكون دائرة مركز المنصورة من الدوائر التي يسمح فيها بالمنافسة بين الوفد والحزب الوطني، ونتيجة لذلك انسحب الرافعي من الترشح لمجلس النواب.

وظل الرافعي بعيداً عن الحياة النيابية قرابة ١٤ عاماً، عاد بعدها نائباً في مجلس الشيوخ بالتزكية، وبقي فيه حتى انتهت عضويته به سنة ١٩٥١م. خلال هذه الفترة تولى وزارة التموين في حكومة حسين سري الائتلافية سنة ١٩٤٩م

ولد عبد الرحمن الرافعي بالقاهرة في ٨ فبراير ١٨٨٩ وتوفي رحمه الله في ٣ ديسمبر ١٩٦٦

٢٥٧. الجهل بالموقف الدولي أيام إبراهيم بك ومراد بك

من كتاب (صفحات من تاريخ مصر) للكاتب الكبير يحيى حقي

حيث كتب تحت عنوان (وجهة نظر قابلة للتصحيح) ما ملخصه :

السؤال الذي يتردد في خاطري وأنا أقرأ تاريخ مصر الحديث هو عن مدي إلمام قادتها بالموقف الدولي ، فإن الجهل به كان - فيما أعتقد - سبب وقوعهم في أخطاء كثيرة وإصابتهم بخيبة أمل من جنس واحد ، مرة بعد مرة دون أن يتعظوا لم يتمثل الجهل المطبق بالموقف الدولي كما تمثل في إبراهيم بك ومراد بك حينما ظهر أسطول نلسون أمام الشواطئ المصرية وأرسل إليهما يقول إنه يطارد أسطول نابليون الذي أبحر لغزو مصر ، لم يسأل أحد من هو نابليون ؟ ولماذا يريد غزو مصر ؟ ولماذا تطارده حضرتك ؟

قالا له إن مصر كنانة الله في أرضه وهي منيعة لأنها من بلاد الدولة العلية ، حسبها زعقة أو كرشة بين اثنين من العصبية لا شأن لمصر بهما ، ومع أن مصلحة الممالك توحدت ومصلحة إنجلترا في صد عدوان فرنسا علي مصر ، فإن مراد بك وزميله لم يحاولا أن يلعبا ورقة نلسون ضد نابليون ، كانا يجهلانه كل الجهل الصراع القائم بين إنجلترا وفرنسا ، وعاد نلسون من حيث أتى دون أن يظفر بإنسان يفهم عنه ، ليس في الجبرتي أي دليل علي أن مصر أدركت أن سبب غزو نابليون لأرضها هو - قبل كل شيء - لكسر شكيمة إنجلترا في أوروبا والمحيطات كذلك لم ينطق نابليون للمصريين بكلمة واحدة تعينهم علي فهم الموقف الدولي ودور مصر فيه ، لعله وجدهم دون مستوي الفهم

هناك كتب في التاريخ عنوانها (لو أن) ، فمن الجائز أن يكون من بين فصولها محاولة الإجابة علي السؤال الآتي : (ماذا كان سيحدث لو أن مراد بك وزميله سمحا لنلسون بانتظار نابليون أمام شواطئ مصر بحيث يتم تحطيم أسطول نابليون في موقعة أبو قير قبل الغزو لا بعده؟) ، لك أن تتخيل ما تشاء فإني لا أحب هذه التخمينات لأنها سفسطة فارغة - - - - -

من الخطأ إطلاق وصف (القادة) علي إبراهيم بك ومراد بك ، لم يكن كل منهما في حقيقة الأمر إلا شيخ منصر همه السلب والنهب وامتلاء جوفه وخزانته ، فليس بعجيب عليهما هذا الجهل المطبق بالموقف الدولي ودور مصر فيه ننتقل الآن إلي محمد علي ، لا يمكن لعصامي مثله الجمع بين طغيان الشخصية وشدة الدهاء إلا أن يكون - رغم أميته - (رجل دولة) بالمعني الحديث لهذا التعبير ، أراد من أول يوم أن يستأثر هو وأبناؤه بحكم مصر لأنه أحبها كما يحب الأكل البطني أكلة شهية ، هي جنته في الأرض ينعم بها قبل أن يأذن له سيدنا رضوان بدخول جنة السماء ، علمك ، فكان لابد له أن يفهم سياسة الباب العالي في استنبول وهي في ذاتها عقدة العقد ، وأن يظل متسمعا لكل همس يدور في سراي (خولمة باغجة) أو (يلديز) وعن طريق سياسة الباب العالي نفذ محمد علي إلي فهم الموقف الدولي في أوروبا

من الممكن الدفاع عن الرأي القائل أن محمد علي لم يفهم هذا الموقف الدولي حق الفهم وأنه ظل حبيس أفقه المحلي الدائر حول محور (رأس التين - خولمة باغجة) لعل السبب أن أطماعه كانت أقوى من ذكائه ، والطمع يعمي ويصم فقد أخطأ في تقدير أن أوروبا ستقف مكتوفة الأيدي تشهده ينشئ إمبراطورية عربية تغير علي الدولة العثمانية فإما أن تحتلها وإما أن تقص جناحها علي الأقل وتنتزع منها الخلافة - - - وأخطأ في تقدير مدي مساعدة فرنسا له حسبها أنها - وهي مرضعته - ستقف إلي جانبه علي طول الخط ، لم يفهم أن تركة الرجل المريض (الدولة العثمانية) معدة للتوزيع علي دول أوروبا لا علي بلاد آسيا وأفريقيا ، كلها في نظر أوروبا بلاد نيام نيام ، وأن أوروبا وإن اختلفت فهي متفقة علي منع قيام دولة عظيمة في هذا الموقع الذي تحتله مصر - - -

فلما توغل إبراهيم باشا في الأناضول وأصبح قاب قوسين أو أدنى من استانبول اشتركت أوروبا - في مقدمتها فرنسا - في توجيه إنذارها لمحمد علي بالرجوع إلي جحره والانكماش فيه ، وكان تحطيم أسطول مصر غدراً في موقعة نافارين مثلاً آخر علي اتحاد أوروبا وفي مقدمتها فرنسا علي كبح جماح مصر

من السهل ربط خيبة أمل محمد علي ببوادر إصابته بالجنون ، لا شك أن الإنذار الأوروبي كان صدمة شديدة له ، والجاهل لا العالم هو الذي يصاب بمثل هذه الصدمة حين يستيقظ علي الحقيقة المرة التي كانت خافية عليه ومن الجائز الدفاع عن الرأي المضاد القائل أن محمد علي لم يكن غرا حتي يتصور أنه يستطيع إقامة إمبراطورية بمشهد - - من أوروبا التفسير المعقول لسياسته هو أنه أراد أن تكثر في يده أوراق اللعب ولو ضحي في سبيل ذلك بالجيوش والأساطيل كل هذه الأوراق لا تلزمه ولا يطمع في الربح منها إلا ورقة واحدة ، وإنما لابد له أن يحتال لامتلاكها ليساوم بها فيتنازل عنها جميعاً من أجل استبقاء هذه الورقة الواحدة في يده ، إنها ورقة استيلائه علي عرش مصر حقاً له ولذريته من بعده ، - - إذا كان محمد علي قد انسحب من الحجاز واليمن وسوريا والأناضول وإذا كان اسطوله قد تحطم فإن هذا كله كان الثمن الذي لابد من دفعه لحصوله علي عرش مصر كان محمد علي يعلم هذا الثمن وكان مستعداً لدفعه ومما يؤيد هذا الرأي أن مودته ومودة خلفائه من بعده لفرنسا لم تتغير رغم كل الذي فعلته ،

وإذا جئنا لعربي وجدناه هو أيضاً لسوء الحظ غير ملم بالموقف الدولي الإلزام الواجب لرجل مثله يقود أمته وسط الأعاصير ليس هناك دليل قاطع علي أنه فهم سياسة إنجلترا نحو قناة السويس وكيف تحولت من معارضتها إلي الطمع فيها ثم إلي اتخاذ العدة للاستيلاء عليها ، لم يمد بصره إلي أوروبا ليعرف كيف تقف من إنجلترا إذا أزمعت غزو مصر منفردة ، لم يحاول البحث عن نصير حتي لو حكم من أول الأمر أن لا نصير له - - -

كان ينبغي ان يكون ملما كل الإلزام بالموقف الداخلي في فرنسا ليزن بميزان صحيح قيمة وعد دي ليسبس له بأن إنجلترا لن تخرق حياد القناة من أجل ذلك وقع في خطأ عسكري جسيم هو عدوله عن ردمها ، لم تجد إنجلترا في عربي خصماً ذا دهاء يجيد المناورة ، بل رجلاً طيباً يؤمن بأن الاعتداء جريمة وبأن الشجاعة تغلب المدفع ، فلما وقعت النكبة فسرّها بأنها من تصارييف القدر - - ولم يتزلزل اعتقاده في أنه قام بواجبه في الدفاع عن كرامة شعبه وحقوق بلاده ، وإذا كانت حكمته موضع درس فإن إخلاصه فوق الشبهات ،

وفي السنوات الأولى للاحتلال البريطاني نسيت مصر الدرس الذي تلقاه محمد علي ثم عربي علي يد فرنسا وتعلقت آمال بعض قادتها من جديد بهذه الصديقة التي تعد ثم تخلف بل قد تنحاز للعدو ، حسب هؤلاء القادة أن الوعود المعسولة في الخطب الرنانة والاجتماعات الخاصة لها قيمة المعاهدات الرسمية ، - - -

أما الوفد المصري فقد أدرك من الموقف الدولي القدر الضئيل الذي يلزمه فلم يتلأأ في تحويل قضية مصر عن النطاق الدولي المأمول إلي علاقة ثنائية بينها وبين إنجلترا فشد الرحال إلي لندن للمفاوضة ، بعد أن وجد جميع أبواب مؤتمر الصلح مغلقة في وجهه ، بعض رسائله أعيدت إليه دون أن تفتح

وقد أصيبت مصر بخيبة أمل قاسية جاءت هذه المرة من أمريكا لا من فرنسا ، هتفنا في المظاهرات إلي أن بحت الأصوات بحياة ويلسون وميثاقه المؤلف من ١٤ نقطة ، من بينها نقطة تعترف بحق كل شعب في تقرير مصيره ، فإذا بنا نعلم ذات يوم أن أمريكا اعترفت بالحماية البريطانية ، إنني لا أنسي إلي اليوم سخونة وجهنا في ذلك اليوم من أثر تلك الصفعة ، وقد كنا نكون في منجي من الإحساس بهذه الصفعة المؤلمة لو أن أحد بصرنا بحقيقة هامة كثيراً ما غابت عن قادة أفريقيا وآسيا وهي أن القانون الدولي موضوع لمصلحة دول حضارة أوروبا الغربية وحدها - - -

إن ويلسون حين نادي بحق كل شعب في تقرير مصيره كان لا يقصد شعوب آسيا وأفريقيا بل شعوب أوروبا - - - إنه لم يخن مصر ، بل مصر هي التي أساءت فهمه

٢٥٨. المجلس البلدي

من كتاب الأعمال الكاملة - للشاعر بيرم التونسي

قد أوقع القلب في الأشجان والكمد
هوى حبيب يُسمّى المجلس البلدي

أمشي وأكتم أنفاسي مخافة أن
يعدّها عامل للمجلس البلدي

ما شرّد النوم عن جفني القريح سوى
طيف الخيال خيال المجلس البلدي

إذا الرغيف أتى ، فالنصف أكله
والنصف أتركه للمجلس البلدي

وإن جلست فجنبي لست أتركه
خوف اللصوص وخوف المجلس البلدي

وما كسوت عيالي في الشتاء ولا
في الصيف إلا كسوت المجلس البلدي

كأن أُمّي بلّ الله تربتها
أوصت فقالت : أخوك المجلس البلدي

أخشى الزواج إذا يوم الزفاف أتى
أن يتنبري لعروسي المجلس البلدي

ورُبّما وهب الرحمن لي ولداً
في بطنها يدّعيه المجلس البلدي

يا بائع الفجل بالمليم واحدة
كم للعيال وكم للمجلس البلدي

٢٥٩. بيرم التونسي يسخر من مفاوضات الباشوات مع الاحتلال البريطاني

من كتاب الأعمال الكاملة لبيرم التونسي

الحماس ما تبط من أيام عرابي وانتهينا
 لنجليز شالوا المدافع والطوابي واتلهينا
 الخازوق ماسك متين والفرقة تبني بالمدافع
 والحقوق تطلبها بالروب والجوانتي وابقى رافع
 للبلد جايبين حكمدار من جلاسكو واستلمها
 متحمص لو كان في مدريد ولا مسكو كان هدمها
 في الفوتيل قاعد أمير والشغل داير حمري حمري
 ون زغر لاعظم وزير بردون يا ماهر بطنه تجري
 مشروعات اتنفذت وسيادنا تنهب في الفوايد
 من سكات ون كنت تزعل يللا هبهب في الجرايد
 المعسكر ينبنى يوم المفاوضة ونت مالك
 دي الأوامر ، والمرافعات والمعارضة خلوها لك
 وقت ما يهف الغرام قول ياللابينا عالمراتب
 ستميت كبتن يجولك ع المدينة م المراكب
 نتفق أو نختلف برضه انت تطلع بالبشاشة
 والنشان الحلو في صدرك بيلمع وانت باشا
 ياللي قصر الزعفران مقفول عليكم كلمونا
 سلمتكم مصر روحها بين يديكم طمنونا

٢٦٠. من ديوان شاعر النيل حافظ إبراهيم

مقتطفات من قصيدة حطمت اليراع

حَطَمْتُ اليراعَ فلا تَعَجَّبِي وعِفْتُ البَيَانَ فلا تَعْتَبِي
 وكم فيك يا مصرُ من كاتِبٍ أَقالَ اليراعَ ولم يَكُتُبِ
 فلا تُعَذِّبيني لهذا السكوتِ فقد ضاقَ بي منك ما ضاقَ بي
 وكم غَضِبَ الناسُ من قَبْلنا لَسَلْبِ الحُقوقِ ولم نَغْضَبِ
 أَنابَتَةَ العَصْرِ إِنَّ الغريبَ مُجِدُّ بمصرَ فلا تلعبِي
 يقولون: في النَّشْءِ خَيْرٌ لَنَا وَلِلنَّشْءِ شَرٌّ من الأجنبي
 أفي (الأزبكية) مَثوى البَنينِ وبين المساجد مَثوى الأب؟
 وكم ذا بمصرَ من المضحكاتِ كما قال فيها أبو الطيّبِ
 أمورٌ تمرُّ وعيشٌ يُمرُّ ونحن من اللّهُو في ملعب
 وشعب يفرُّ من الصالحاتِ فرارَ السَّليم من الأجرِ
 وقالوا: دخيلٌ عليه العفاء ونعم الدَّخيلُ على مذهبي!
 رَأنا نياماً ولما نُفِقْ فشمَرَ للسَّعي والمكسبِ
 وماذا عليه إذا فاتنا ونحن على العيش لم ندأب؟
 أَلفنا الخمولَ ويا ليتنا أَلفنا الخمولَ! ولم نَكْذِبِ!
 فيا أُمَّةَ ضاقَ عن وصفها جَنانُ المَفوّه والأخطَبِ
 تَضيعُ الحَقِيقَةُ ما بيننا ويصلَى البريء مع المذنبِ
 ويَهْضَمُ فينا الإمامُ الحَكيم ويُكْرَمُ فينا الجَهِولُ الغَبي
 على الشَّرْقِ مَنّي سلامُ الودود وإن طأطأ الشَّرْقُ للمغربِ
 لقد كان خِصباً بجذب الزَّمانِ فأجذبَ في الزَّمنِ المُخْصِب!

٢٦١. من قصيدة (أندلسية) شعر أمير الشعراء (أحمد شوقي)

يا نائح (الطلح) أشباه عوادينا	نشجى لواديك أم نأسى لوادينا ؟
ماذا تقص علينا غير أن يدا	قصت جناحك جالت فى حواشينا
فإن يك الجنس يابن الطلح فرقنا	إن المصائب يجمعن المصائبنا
لكن مصر وإن أغضت على مقة	عين من الخلد بالكافور تسقىنا
على جوانبها رقت تمانمنا	وحول حافاتها قامت رواقينا
ملاعب مرحت فيها مآربنا	وأربع أنست فيها أمانينا
نحن اليواقيت خاض النار جوهنا	ولم يهن بيد التشتيت غالينا
ولا يحول لنا صبغ ولا خلق	إذا تلون كالحرباء شانينا
لم تنزل الشمس ميزانا ولا صعدت	فى ملكها الضخم عرشا مثل وادينا
ولم يضع حجرا بان على حجر	فى الأرض إلا على آثار بانينا

٢٦٢. من قصيدة (مصر تتحدث عن نفسها)

شعر شاعر النيل (حافظ إبراهيم)

وَقَفَ الْخَلْقُ يَنْظُرُونَ جَمِيعاً كَيْفَ أَبْنَى قَوَاعِدَ الْمَجْدِ وَحْدِي
 وَبُنَاةَ الْأَهْرَامِ فِي سَالِفِ الذَّهْرِ كَفَوْنِي الْكَلَامِ عِنْدَ التَّحْدِي
 أَنَا تاجُ الْعِلَاءِ فِي مَفْرِقِ الشَّرْقِ وَذِرَاتُهُ فَرَائِدُ عِقْدِي
 أَيُّ شَيْءٍ فِي الْغَرْبِ قَدْ بَهَرَ النَّاسَ جَمَالاً وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ عِنْدِي
 أَنَا إِنْ قَدَّرَ الْإِلَهُ مَمَاتِي لَا تَرَى الشَّرْقَ يَرْفَعُ الرَّأْسَ بَعْدِي
 مَا زَمَانِي رَامَ وَرَاحَ سَلِيمًا مِنْ قَدِيمِ عِنَايَةِ اللَّهِ جُنْدِي
 كَمْ بَغَتْ دَوْلَةٌ عَلَيَّ وَجَارَتْ ثُمَّ زَالَتْ وَتِلْكَ عُقْبَى التَّعْدِي
 إِنِّي حُرَّةٌ كَسَرْتُ قُبُودِي رَغَمَ رُقْبَى الْعِدَا وَقَطَعْتُ قَدِي
 وَتَمَاتِلْتُ لِلشِّفَاءِ وَقَدْ دَانِيَتْ حَيْنِي وَهَيَّا الْقَوْمَ لَحْدِي
 قُلْ لِمَنْ أَنْكَرُوا مَفَاخِرَ قَوْمِي مِثْلَ مَا أَنْكَرُوا مَآثِرَ وَلَدِي
 هَلْ وَقَفْتُمْ بِقِمَّةِ الْهَرَمِ الْأَكْبَرِ يَوْمًا فَرَيْتُمْ بَعْضَ جُهْدِي
 هَلْ رَأَيْتُمْ تِلْكَ النُّفُوشَ الْمَوَاتِي أَعْجَزَتْ طَوْقَ صَنْعَةِ الْمُتَحْدِي
 حَالُ لَوْنِ النَّهَارِ مِنْ قَدَمِ الْعَهْدِ وَمَا مَسَّ لَوْنُهَا طَوْلُ عَهْدِ
 قَدْ عَقَدْتُ الْعُهُودَ مِنْ عَهْدِ فِرْعَوْنَ فِي مِصْرَ كَانَ أَوَّلُ عَقْدِ
 إِنْ مَجْدِي فِي الْأَوَّلِيَّاتِ عَرِيقٌ مِنْ لَهُ مِثْلُ أَوْلِيَّاتِي وَمَجْدِي
 فَسَلُّوا الْبَحْرَ عَنْ بِلَاءِ سَفِينِي وَسَلُّوا الْبِرَّ عَنْ مَوَاقِعِ جُرْدِي
 أَتْرَانِي وَقَدْ طَوَيْتُ حَيَاتِي فِي مِرَاسٍ لَمْ أَبْلُغِ الْيَوْمَ رُشْدِي
 أَيُّ شَعْبٍ أَحَقُّ مِنِّي بِعَيْشٍ وَارِفِ الظِّلِّ أَخْضَرَ اللَّوْنِ رَغْدِ
 أَمِنْ الْعَدْلِ أَنَّهُمْ يَرْدُونَ الْمَاءَ صَفْوًا وَأَنْ يُكَدَّرَ وَرْدِي
 أَمِنْ الْحَقِّ أَنَّهُمْ يُطْلِقُونَ الْأُسْدَ مِنْهُمْ وَأَنْ تُقَيَّدَ أُسْدِي
 نَظَرَ اللَّهُ لِي فَأَرْشَدَ أَبْنَائِي فَشَدُّوا إِلَى الْعُلَا أَيُّ شَدِّ
 إِنَّمَا الْحَقُّ قُوَّةٌ مِنْ قُوَى الدِّيَانِ أَمْضَى مِنْ كُلِّ أَبْيَضٍ هِنْدِي
 قَدْ وَعَدْتُ الْعُلَا بِكُلِّ أَبِيٍّ مِنْ رِجَالِي فَأَنْجَزُوا الْيَوْمَ وَعْدِي
 وَارْفَعُوا دَوْلَتِي عَلَى الْعِلْمِ وَالْأَخْلَاقِ فَالْعِلْمُ وَحْدَهُ لَيْسَ يُجْدِي
 إِنْ فِي الْغَرْبِ أَعَيْنًا رَاصِدَاتٍ كَحَلَّتْهَا الْأَطْمَاعُ فَيَكُمُ بِسُهِدِ
 فَوْقَهَا مَجْهَرٌ يُرِيهَا خَفَايَاكُمْ وَيَطْوِي شُعَاعَهُ كُلَّ بُعْدِ
 فَاتَّقَوْهَا بِجَنَّةٍ مِنْ وَثَامٍ غَيْرِ رَثِّ الْغُرَا وَسَعِيٍّ وَكَدِّ
 وَاصْفَحُوا عَنْ هَنَاتٍ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ رُبَّ هَافٍ هَفَا عَلَى غَيْرِ عَمْدِ
 إِنَّمَا عِنْدَ فَجْرِ لَيْلٍ طَوِيلٍ قَدْ قَطَعْنَاهُ بَيْنَ سُهْدٍ وَوَجْدِ
 غَمَرْتَنَا سُودُ الْأَهَاوِيلِ فِيهِ وَالْأَمَانِيُّ بَيْنَ جَزْرِ وَمَدِّ
 وَتَجَلَّى ضِيَاؤُهُ بَعْدَ لَآيٍ وَهُوَ رَمَزٌ لِعَهْدِي الْمُسْتَرَدِّ
 فَاسْتَبِينَا قَصْدَ السَّبِيلِ وَجَدُّوا فَالْمَعَالِي مَخْطُوبَةً لِلْمُجَدِّ

٢٦٣. شاعر النيل حافظ إبراهيم (١٨٧٢ - ١٩٣٢) يعبر عن مشاعره تجاه بلاد

الشام وأهلها

مقتطفات من قصيدة (لمصر أم لربوع الشام تنتسب)

لَمِصْرَ أُمَ لِرُبُوعِ الشَّامِ تَنْتَسِبُ هُنَا الْغُلَا وَهُنَاكَ الْمَجْدُ وَالْحَسَبُ
رُكْنَانِ لِلشَّرْقِ لَا زَالَتْ رُبُوعُهُمَا قَلْبُ الْهَلَالِ عَلَيْهَا خَافِقٌ يَجِبُ
أَيَّرَغْبَانِ عَنِ الْحُسْنَى وَيَتَّيْنُهُمَا فِي رَائِعَاتِ الْمَعَالِي ذَلِكَ النَّسَبُ
وَلَا يَمْتَنَانِ بِالْقُرْبَى وَبَيْنَهُمَا تِلْكَ الْقَرَابَةُ لَمْ يُقْطَعْ لَهَا سَبَبُ؟

إِذَا أَلَمَّتْ بَوَادِي النَّيْلِ نَازِلَةً بَاتَتْ لَهَا رَاسِيَاتُ الشَّامِ تَضْطَرِبُ
وَأِنْ دَعَا فِي ثَرَى الْأَهْرَامِ ذُو أَلَمٍ أَجَابَهُ فِي ذُرَا لُبْنَانٍ مُنْتَحِبُ
لَمْ تَبْدُ بَارِقَةً فِي أَفْقٍ مُنْتَجِعٍ إِلَّا وَكَانَ لَهَا بِالشَّامِ مُرْتَقِبُ

مَا عَابَهُمْ أَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ قَدْ نُثِرُوا فَالشُّهُبُ مَنُثَوْرَةٌ مِذْ كَانَتْ الشُّهُبُ
وَلَمْ يَضِرْهُمْ سُرَاءٌ فِي مَنَاكِبِهَا فَكَلَّ حَيٍّ لَهُ فِي الْكَوْنِ مُضْطَرِبُ
رَادُّوا الْمَنَاهِلَ فِي الدُّنْيَا وَلَوْ وَجَدُوا إِلَى الْمَجَرَّةِ رَكْبًا صَاعِدًا رَكِبُوا

هَذِي يَدِي عَنِ بَنِي مِصْرٍ تُصَافِحُكُمْ فَصَافِحُوهَا تُصَافِحْ نَفْسَهَا الْعَرَبُ
فَمَا الْكِنَانَةُ إِلَّا الشَّامُ عَاجَ عَلَى رُبُوعِهَا مِنْ بَنِيهَا سَادَةً نُجُبُ

إِنْ يَكْتُبُوا لِي ذَنْبًا فِي مَوَدَّتِهِمْ فَإِنَّمَا الْفَخْرُ فِي الذَّنْبِ الَّذِي كَتَبُوا

٢٦٤. مقتطفات من قصيدة - كم ذا يكابد عاشق ويلقي

لشاعر النيل حافظ إبراهيم

كَمْ ذَا يُكَادُ عَاشِقٌ وَيُلَاقِي - فِي حُبِّ مِصْرَ كَثِيرَةَ الْعُشَاقِ
 إِنِّي لِأَحْمِلُ فِي هَوَاكِ صَبَابَةً - يَا مِصْرُ قَدْ خَرَجْتَ عَنِ الْأَطْوَاقِ
 إِنِّي لَتُطْرِنُنِي الْخِلَالُ كَرِيمَةً - طَرَبَ الْغَرِيبِ بِأَوْبَةٍ وَتَلَاقِي
 وَتَهْزُنُنِي ذِكْرَى الْمَرْوَعَةِ وَالنَّدَى - بَيْنَ الشَّمَائِلِ هَزَّةَ الْمُشْتَاقِ
 مَا الْبَابِلِيُّ فِي صَنْعَاءِ مِرَاجِهَا - وَالشَّرْبُ بَيْنَ تَنَافُسٍ وَسِبَاقِ
 وَالشَّمْسُ تَبْدُو فِي الْكُئُوسِ وَتَخْتَفِي - وَالْبَدْرُ يُشْرِقُ مِنْ جَبِينِ السَّاقِي
 بِالَّذِي مِنْ خُلُقِي كَرِيمٍ طَاهِرٍ - قَدْ مَارَجْتُهُ سَلَامَةً الْأَدْوَابِ
 فَإِذَا رُزِقْتَ خَلِيقَةً مَحْمُودَةً - فَقَدْ إِصْطَفَاكَ مُفَسِّمُ الْأَرْزَاقِ
 فَالنَّاسُ هَذَا حَظُّهُ مَالٌ وَذَا - عِلْمٌ وَذَاكَ مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ
 وَالْمَالُ إِنْ لَمْ تَدَّخِرْهُ مُحَصَّنًا - بِالْعِلْمِ كَانَ نِهَايَةً الْإِمْلَاقِ
 وَالْعِلْمُ إِنْ لَمْ تَكْتَنِفْهُ شَمَائِلٌ - تَعْلِيهِ كَانَ مَطِيَّةَ الْإِخْفَاقِ
 لَا تَحْسَبَنَّ الْعِلْمَ يَنْفَعُ وَحْدَهُ - مَا لَمْ يُنَوِّجْ رَبُّهُ بِخَلَاقِ
 لَوْ كَانَ ذَا خُلُقٍ لِأَسْعَدَ قَوْمَهُ - بِبَيَانِهِ وَيَرَاعِهِ السَّبَاقِ
 الْأُمُّ مَدْرَسَةٌ إِذَا أَعَدَّتْهَا - أَعَدَّتْ شُعْبًا طَيِّبَ الْأَعْرَاقِ
 الْأُمُّ رَوْضٌ إِنْ تَعَهَّدَهُ الْحَيَا - بِالرِّيِّ أَوْرَقَ أَيَّامِ الْإِرَاقِ

٢٦٥. قصيدة بعنوان - حياتي - للشاعر الكبير بيرم التونسي

يلخص فيها بأسلوب رشيق وممتع علاقته بمصر وتونس وباريس

الأوله آه والتانية آه والتالته آه

الأوله - مصر - قالوا تونسي ونفوني
 والتانية - تونس - وفيها الأهل جحدوني
 والتالته - باريس - ، وفي باريس جهلوني

الأوله مصر قالوا تونسي ونفوني جزاة الخير وإحساني
 والتانية تونس وفيها الأهل جحدوني وحتى الغير ماصافاني
 والتالته باريس وفي باريس جهلوني وأنا موليير في زمني

الأوله شريتني من فراقها كاس بمرارة
 والتانية آه فرجتني ع الجمال ينداس يا خسارة
 والتالته يا ناس ياريتني كان لي فيها ناس وإدارة
 الأوله اشتيكها للي أجري النيل
 والتانية دمعي عليها غرق الباستيل
 والتالته لطشت فيها ممتل وذليل

والأوله آه والتانية آه والتالته آه

نقلًا عن كتاب - الأعمال الكاملة للشاعر بيرم التونسي - صفحة ٦٦ - دار صفا للنشر والتوزيع
 ولد الشاعر الشعبي محمود بيرم التونسي في الإسكندرية في ٣ مارس ١٨٩٣ م ،
 وسمي التونسي لأن جده لأبيه كان تونسياً ، وقد عاش طفولته في حي شعبي يدعي السيالة بالإسكندرية
 منحه الرئيس جمال عبد الناصر وسام الفنون والآداب من الدرجة الأولى عام ١٩٥٨ وتوفي سنة ١٩٦١

٢٦٦. قصيدة العامل المصري

شعر بيرم التونسي

ليه أمشي حافي ، و نا منبت مراكيبكم
 ليه فرشي عريان ، و نا منجد مراتبكم
 ليه بيتي ، خربان و نا نجار دواليبكم
 هي كده قسمتي ؟
 الله يحاسبكم
 ساكنين علالي العتب ، و نا اللي بانيتها
 فارشين مفارش قصب ، ناسج حواشيتها
 قاننين سواقي دهب ، و نا اللي ادور فيها
 يا رب ما هوش حسد
 لكن بعاتبكم
 من الصباح للمسا ، و المطرقة ف إيدي
 صابر على دى الأسا ، حتى نهار عيدي
 ابن السبيل انكسى ، و اسحب هراييدي
 تتعروا من مشيتي
 و اخجل أخاطبكم
 ليه تهدموني و نا اللي عزكم باني
 أنا اللي فوق جسمكم قطني و كتاني
 عيلتي في يوم دفنتي ما لقيتش أكفاني
 حتى الأسيه ، و نا راحل و سايبكم

٢٦٧. قصيدة الفلاح

شعر بيرم التونسي

الأوله آه والتانيه آه والتالته آه

الأوله عيرونى إن نا فلاح

والتانيه أزرع وأقلع اللى نام وارتاح

والتالته آه للى أحبه شط منى وراح

الأوله

عيرونى ان نا فلاح - بدفيه

والتانيه

أزرع وأقلع اللى نام وارتاح - فى دهبه

والتالته

آه اللى أحبه شط منى وراح - فى صبحيه

الأوله

عيرونى ان نا فلاح بدفيه - وعيشى حاف

والتانيه

أزرع وأقلع اللى نام وارتاح فى دهبه - بمقداف

والتالته

آه اللى أحبه شط منى وراح فى صبحيه - ما قال لى عواف

الأوله

مش بإيدى دا قضا محتوم

والتانيه

ومسيرها ناس تغرق وناس حتعوم

والتالته

ميت هم يرحل ألف هم يدوم

الأوله آه والتانيه آه والتالته آه

٢٦٨. سوق خان الخليلى فى عيون المؤرخين والرحالة

ملخص ما ورد فى كتاب - القاهرة رحلة فى المكان والزمان - تأليف عرفه عبده على - تقديم الأديب الكبير جمال الغيطانى - (-) - أما الأصول التاريخية لخان الخليلى فيصوغها العلامة المقرئى فى خطه فكتب :

هذا الخان بخط الزراكشة العتيق كان موضعه تربة القصر التى فيها قبور الخلفاء الفاطميين المعروفة بتربة الزعفران ، أنشأه الأمير جهاركس الخليلى أمير أخور الملك الظاهر برقوق وأخرج منها عظام الأموات - - - عندما قدم إلى مصر الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فى يوم الثلاثاء السابع من رمضان سنة ٣٦٢هـ / ٩٦٨م أحضر معه رفات آبائه فى توابيت من بلاد المغرب وأنشأ لهم مدفنًا خصص فيما بعد لدفن خلفائهم ونسائهم وذرياتهم واشتهر هذا المدفن بتربة الزعفران ، - - وكان الأمير جهاركس قد أوقف هذا الخان على عمل خبز يفرق بمكة على كل فقير منه فى اليوم رغيان وفى سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م آلت ملكية الخان إلى السلطان الغورى فأمر بهدمه وإعادة بنائه وأنشأ فيه حواصل وحوانيت وياى البادستان ، لا يزال مكتوب عليه اسم السلطان الغورى ويقول النص :

أنشأ هذا المكان المبارك السلطان الملك الأشرف أبو النصر قنصوة الغورى عز نصره وعقد هذا الباب محلي بمقرنصات أحيطت بزخارف جميلة

ويذكر على باشا مبارك فى خطه التوفيقية أن شارع خان الخليلى طوله مائتان متر وبه عدة عطف وعدة زوايا ووكانل ومنها زاويتا السلطان الغورى وزاوية السلطان العادل بوكالة الخياطين وزاوية السلطان جقمق وزاوية أحمد باشا يجن وزاوية خليل أغا بنهاية الشارع تجاه وكالة العناني والنشاط التجارى الضخم لخان الخليلى كان موضع اهتمام الرحالة والتجار الأوروبيين فكتب جان باليرن سنة ١٥٨١م : خان الخليلى يشبه قصر منيف فخم شديد بمهارة من أحجار منحوتة يتكون من ثلاثة طوابق الطابق الأرضي عبارة عن مجموعة حوانيت رائعة تحيط بها دعائم تعلوها قباب جميلة أما الطابق الأوسط فمخصص لبيع البضائع بالمزاد والجملة أما الطابق العلوي فهو مخصص لإقامة التجار الأجانب وقد أشاد الرحالة الفرنسي فيلامون إلى انتعاش التجارة فى القاهرة وأنها تعج بأعداد هائلة من التجار وتتركز فى أحياء الغورية وخان الخليلى تعرض فيها البضائع الهندية من التوابل وأجود الروائح والمسك والعنبر

وأكد سير ستانلي لين بول فى كتابه سيرة القاهرة على اهتمام السلاطين الجراكسة بتجارة الترانزيت بين الهند وأوروبا والتي كانت مصدراً مهماً لثروة البلاد ، ومن الحانات التي أنشئت فى العصور الوسطى وما زال يعرفها كل سائح خان الخليلى الذي شيده الأمير جركس الخليلى أمير أخور السلطان برقوق فى عام ١٤٠٠م

وتأخذنا عالمة المصريات الرحالة البريطانية إميلي إدوارد ما بين التنوع الرائع والزخارف إلى طرقات خافتة الإضاءة تزدهم بالعابرين وكأنهم فى مهرجان شرقي فتكتب فى عام ١٨٧٣م : (- - -) أما التجار فإن لطفهم وحلمهم لا نهاية له ، وصبرهم غير قابل للنفاذ ، فربما قلب المرء بضائعهم رأساً على عقب ويجرب كل معروضاتهم يغدو عليهم ويروح المرة تلو المرة دون أن يشتري ومع ذلك فهو يلقي منهم الترحيب إذا غدا والبسمة إذا راح ، ثم أشارت إميلي أنها وصديقتها مسز لفنجستون كانتا تقضيان ساعات طويلة تتعلمان اللغة العربية فى خان الخليلى - (ويحدثنا الأديب والرحالة البريطانى جوجلاس سلادين عن انطباعاته فيقول : (- -) إذا أخذت طريقك ماراً بالحوانيت والمساجد والحمامات وقصور رائعة تزينها المشربيات فستجد نفسك فى أشهر أسواق الشرق خان الخليلى مفتوناً مسلوب العقل فى أجواء ألف ليلة وليلة الساحرة المثيرة تتنفس هواء مشبعاً بروائح المسك والصندل والزعفران والبخور - (-)

مقتطفات مختصرة نقلاً عن كتاب - القاهرة رحلة فى المكان والزمان - تأليف عرفه عبده على - تقديم الأديب الكبير جمال الغيطانى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

٢٦٩. يا اهل المغنى - للشاعر الكبير بيرم التونسي

يا اهل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله
دا حنا شبعنا كلام ماله معنى ياليل وياعين ويا اه

طلعت موضه غصون وبلابل شابط فيها حزين
شاكى وباكى وقال مش عارف يشكى ويبكى لمين
واللى جابت له الداء والكافيه طرشه ماهش سامعاه
يا اهل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله

ردى عليه يا طيور بينادى وارمى له الجناحين
وانت كمان يا بابور الوادى قل له رايح على فين
قل له اياك يرتاح يا بابوره ويريحنا معاه
يا هل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله

كل جدع فرحان بشبابه يقول فى عنيه دموع
ياللى جلبتى شقاء وعذابه حلى لنا الموضوع
طالع نازل يلقى عوازل واقفه بتستناه
يا هل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله

حافظين عشره اتناشر كلمه نقل من الجورنال
شوق وحنين وأمل وأمانى وصد وتيه ودلال
واللى اتعاد يتزاد يا خوانا وليل ونهار هواه
يا هل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله

الشاعر الكبير محمود بيرم التونسي

4 مارس 5 - 1893 يناير 1961

هو شاعر مصري من أصول تونسية، ويعدّ من أشهر شعراء العامية المصرية

٢٧٠. بيرم التونسي يستنكر اهتمام الملك فؤاد بأحياء الأجانب مع عدم اهتمامه

بالأحياء الشعبية

قصيدة أهل الوطن والغرباء

وحول منازل الغرباء عنا غرست الورد ثم الياسمين
وأخضلت الغصون لهم سماء ومهدت الرخام الجذع حيناً
وما قرموا للحم الطير حتي منحتهم الأوز العائمين
تفجر تحت أرجلهم عيوناً وتفقأ وسط أعيننا عيوناً
وترضي عنهمو وتصد عنا وقد سخطوا ونحن الشاكرون
فمر بها علينا كل عام بحي الأشفياء البائسين
تري الوحلات جائئة وفيها بنات قد تعلمن العجينا
إذا كنت الطبيب ونحن ومرضى فأوص الناس خيراً بالبنينا

٢٧١. عندما خاطب أمير الشعراء نهر النيل المبارك

مقتطفات من قصيدة من أي عهد في القرى تتدفق لأحمد شوقي رحمه الله

في القرى تتدفق - وبأي كف في المدائن تُدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من - عليا الجنان جداولاً تترقرق
وبأي عين أم بآية مزنة - أم أي طوفان تفيض وتفهق
وبأي نول أنت ناسج بردة - للضفتين جديدها لا يخلق
تسود ديباجاً إذا فارقتها - فإذا حضرت إخضوضر الاستبرق
في كل آونة تبدل صبغة - عجباً وأنت الصابغ المتأنق
أتت الدهور عليك مهديك مترع - وحياضك الشرق الشهية دق
تسقي وتطعم لا إناؤك ضائق - بالواردين ولا خوانك ينفق
والماء تسكبه فيسبك عسجداً - والأرض تعرفها فيحيا المغرق
يتقبل الوادي الحياة كريمة - من راحتك عميمة تتدفق
متقلب الجنين في نعمائه - يعرى ويصبغ في نذاك فيورق
فيبيت خصباً في ثراه ونعمه - ويعمه ماء الحياة الموسيق
أين القراعنة الألى استدرى بهم - عيسى ويوسف والكليم المصق
الموردون الناس منهل حكمة - أفضى إليه الأنبياء ليستقوا
وتضوعت منك الدهور كأنما - في كل ناحية بخور يحرق
تابوت موسى لا تزال جلالة - تبدو عليك له ورية تشق
وجمال يوسف لا يزال لواءه - حولك في أفق الجلال يرقق
ودموع إخوته رسائل توبه - مسطورهن بشاطئك منمق
وصلاة مريم فوق زرعك لم يزل - يزكو لذكرها النبات ويسمق
وخطى المسيح عليك روحاً طاهراً - بركات ربك والنعم الغيدق
ودائع الفاروق عندك دينه - ولواؤه وبيانه والمنطق
بعث الصحابة يحملون من الهدى - والحق ما يحيي العقول ويفتق
فتح الفتوح من الملائك رزق - فيه ومن أصحاب بدر رزق
يبنون لله الكنانة بالقنا - والله من حول البناء موفق
ما كانت الفسطاط إلا حائطاً - يأوي الضعيف لركنه والمرهق
وبه تلوذ الطير في طلب الكرى - ويبعث قيصر وهو منه مؤرق
لي فيك مدح ليس فيه تكلف - أملاه حب ليس فيه تملق
مما يحملنا الهوى لك أفرخ - سنطير عنها وهي عندك ترزق
ترجى لهم والله جل جلاله - منا ومنك بهم أبر وأرقق
فاحفظ ودائعك التي استودعتها - أنت الوفي إذا ائتمنت الأصدق

٢٧٢. أمير الشعراء أحمد شوقي يداعب صديقه الطبيب محبوب ثابت

عندما استبدل جواده مكسي بسيارة قديمة

لكم في الخطَّ سيَّارَه - حديثُ الجارِ والجاره
 إذا حركها مالت - على الجنَّينِ مُنْهَارَه!
 وقد تَخَرَّنُ أحياناً - وتمشي وحدها تَارَه
 ولا تشبعها عينٌ - مِنَ البَنَزِينِ فَوَّارَه
 ولا تروى من الزيتِ - وإنِ عامتْ به الفاره
 ترى الشارعَ في دُغْرِ - إذا لاحتْ من الحاره
 وصبيانا يَضْجُونَ - كما يَلْقَوْنَ طَيَّارَه
 فقد تمشي متى شئت - وقد ترجعُ مُختارَه
 أدنيا الخيلِ يامكسي - كدُنْيا الناسِ غَدَّارَه!
 أَحَقُّ أَنْ مَحْجُوباً - سَلا عَنْكَ بِفَخَّارَه؟
 وباعَ الأَبْلَقَ الحُرَّ - بأوفرلاند نَعَّارَه؟

ولد أمير الشعراء أحمد شوقي بالقاهرة يوم ١٦ أكتوبر سنة ١٨٦٨ م ، وتوفي في ١٣ ديسمبر سنة ١٩٣٢ م

٢٧٣. النيل النهر الخالد

شعر محمود حسن اسماعيل

مسافر زاده الخيال . والسحر والعطر والظلال
 ظمآن والكأس في يديه . والحب والفن والجمال - شابت على أرضه الليالي . وضيعت عمرها الجبالُ
 ولم يزل ينشد الديارا . ويسأل الليل والنهارا
 والناس في حبه سكارى . هاموا على شطه الرحيب
 آه علي سرك الرهيب . وموجك التائه الغريب
 يا نيل يا ساحر الغيوب
 يا واهب الخلد للزمان . يا ساقى الحب والأغاني - هات اسقني ودعني . أهيم كالطير في الجنان
 يا ليتني موجة فأحكي . إلى لياليك ما شجاني
 وأغتدي للرياح جارا . وأحمل النور للحيارى
 فإن كواني الهوى وطارا . كانت رياح الدجى نصيبي
 آه علي سرك الرهيب . وموجك التائه الغريب
 يا نيل يا ساحر الغيوب
 سمعت في شطك الجميل . ما قالت الريح للنخيل - يسبح الطير أم يغني . ويشرح الحب للخميل
 وأغصن تلك أم صبايا . شربن من خمرة الأصيل
 وزورق بالحنين سارا . أم هذه فرحة العذارى
 يجري وتجري هناك نارا . حملت من سحرها نصيبي
 آه علي سرك الرهيب . وموجك التائه الغريب
 يا نيل يا ساحر الغيوب

٢٧٤. شارع عماد الدين

أو شارع الفن كما ورد في كتاب القاهرة رحلة في المكان والزمان ما ملخصه :

- - شارع الفن وكان في زمن علي باشا مبارك يمتد من شارع بولاق (فؤاد-٢٦ يوليو) إلي شارع جامع الإسماعيلي ،
وبه ضريح الشيخ عماد الدين ، ويمتد حالياً إلي شارع رمسيس ، والجزء الجنوبي من الشارع حتي تقاطعه مع شارع ٢٦
يوليو أطلق عليه شارع محمد فريد

وشارع عماد الدين هو شاهد علي أروع الأزمنة في تاريخنا الفني ، في أوائل القرن العشرين وقد شيدت مبانيه ،
أشهرها عمارات الخديو علي الطرازين الإيطالي والفرنسي ، وكان من أوائل الشوارع التي ازدانت بمصابيح الغاز علي جانبيه
، ومنذ البداية كان الحرص علي تشييد المسارح والصالات والمقاهي والكازينوهات لخدمة الجاليات الأوروبية في هذه
المنطقة بوسط البلد ثم أصبح الشارع ومسارحه ملتقى الراغبين من سكان الحلمية الجديدة والعباسية ومصر الجديدة
والزمالك ، والأعيان من الريف المصري ، وتحولت مقاهي عماد الدين إلي صالونات فكرية وفنية جمعت أمير الشعر أحمد
شوقي و خليل مطران والعقاد وحافظ إبراهيم والمازني ومحمد تيمور وفرح أنطون وعباس علام وأمين صدقي ونقولا ت كلا
وغيرهم من نجوم الأدب والصحافة ويذكر الشارع عبقرية الفنان سيد درويش وهو الذي آمن بأن الموسيقى للشعب ، أراد أن
يعني الشعب بجميع طبقاته ، فكتب لألحانه التي شهدت بها مسارح عماد الدين الخلود ومن المدهش أن فن المنولوج
الوطني والإجتماعي ولد في صالات ومسارح عماد الدين ، وكما تألفت في سماء عماد الدين فرق ونجوم في تاريخ المسرح
المصري ، أذكر منهم فرقة جورج أبيض ، فرقة عزيز عيد ، أولاد عكاشة ، فرقة يوسف وهبي -مسرح رمسيس - وفرقة
نجيب الريحاني وفرقة علي الكسار -بربري مصر الوحيد- وفرقة فاطمة رشدي - أضاء جورج أبيض مسرحه الرئيسانس
بشارع عماد الدين عام ١٩٢٣ وتبادل مع غيره من الفرق مسرح برنتانيا الجديد وكان مقهي الكورسال مكانه المفضل إلي
جانب قهوة متاتيا بالعتبة للقاء أهل الأدب والفن والصحافة وظل علي الكسار -عثمان عبد الباسط- مسيطراً علي شارع
عماد الدين نحو ٣١ عاماً ببساطته وطيبته وروحه المصرية المرحّة مع تمسكه بالقيم والتقاليد ، قدم خلالها ١٦٠ مسرحية
علي مسرح كازينو دي باري و ١٩٠ مسرحية علي مسرح الماجيستك وقد أحدث عماد الدين لنفسه أجنحة وطنية
بالاجتماعات التي كانت تقام في مقاهيه عقب ثورة ١٩١٩ ، ، عمال المترو والترام شركات الغاز والكهرباء والتليفونات
والسجاير ، ، وحتى جرسونات المقاهي ، ، وغيرهم من الطلبة وموظفي الحكومة ، ، وكان الشارع أحد منابر الوطنية والدعوة
إلي النهضة المصرية والخلاص من الاحتلال البريطاني ، ،

مقتطفات مختصرة نقلاً عن كتاب - القاهرة رحلة في المكان والزمان - تأليف عرفه عبده علي -تقديم الأديب الكبير

جمال الغيطاني - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

٢٧٥. شبرد اسم له تاريخ



أول مقر لفندق شبرد كان في قصر محمد بك الألفي الذي اتخذته قائد الحملة الفرنسية مقراً لقيادة الحملة الفرنسية ، ثم تحول إلى مدرسة الألسن وأغلقت في عهد عباس الأول ، وموقعه كان علي حافة بركة الأزبكية ، عند تقاطع شارعي الألفي والجمهورية حالياً

أسس هذا الفندق الشهير عام ١٨٤١ مستر صامويل شبرد تحت اسم فندق بريطاني ومستر شبرد البريطاني الجنسية كان ابناً لفلاح هرب من حياته البائسة إلى البحر وفي جيبه شلن إنجليزي ، لم يدرك شيئاً عن الفنادق سوى تواضع إمكانياتها في ذلك العصر ، لكنه ينتمي إلى ذلك الطراز من العباقر ، ومع تطور التجارة وحركة السفر النشطة بين أوروبا والشرق بلغت شهرته الآفاق وخلال عام ١٨٤٥ ظهرت لافتة فندق شبرد كانت إعلانات الفندق تفخر بأنه المكان المفضل للعائلات الملكية والإمبراطورية والأرستقراطية ، ومن المعالم الشهيرة للفندق شجرة كليبر التي لقي تحتها الجنرال كليبر مصرعه علي يد سليمان الحلبي

وفي عام ١٨٩١ هدم المبنى القديم للفندق وشيد مبني آخر يشرف علي حدائق الأزبكية ولأكثر من نصف القرن كان الفندق قلباً للمجتمع الأوروبي المترف في القاهرة ، وضم أكثر من ثمانين غرفة نوم بحمام مستقل وقاعة للقراءة وأخري للموسيقى وقاعة للرسم ثم قاعة ضخمة للطعام تتسع لخمسمائة مدعو ،

وقد قضى تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية العالمية فترة زيارته للقاهرة عام ١٩٠٣ بفندق شبرد لي طرح قضيته في إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين علي اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر

وأقام به السياسي البريطاني الأشهر سير ونستون تشرشل إبان مؤتمر القاهرة عام ١٩٢١ وخلال الحرب العالمية الثانية أصبح شبرد مركزاً للشئون السياسية ومكاناً مفضلاً للقاعات الجنرالات ، وفي عام ١٩٤٢ وبينما القائد الألماني روميل يتقدم شرقاً إلى الإسكندرية انتشرت الشائعات بأنه قرر أن يتخذ من فندق شبرد الشهير مقراً للقيادة الألمانية ، وفي رواية ساخرة أن أحد ضباط الحلفاء سأل موظف الاستقبال عما إذا كان السيد روميل قد وصل وأقام بالفندق فما كان من الموظف المندھش إلا أن راجع كشف الحجز بالفندق ثم أجابه بهدوء لا يا سيدي لم يصل بعد قد يكون في الطريق

والكتاب الذهبي للفندق كان كبار الشخصيات يوقعون فيه وكانت أشهر التوقيعات للأمير ويلز وفيصل ملك العراق والأغاخان والملك ألبرت وملك بلغاريا وملكة بلجيكا وملكة رومانيا وأمير الدنمارك وولي عهد السويد والملك ألفونسو وبرناردشو وملك وملكة إيطاليا ودوق لوكسمبورج وحشد من الأمراء والأميرات والجنرالات وأدباء وفنانين ، وعندما قرر الملك فؤاد زيارة الملك فرديناند في شبرد استقبل من باب جانبي عقب وقوف سيارته علي حافة بساط أحمر فاخر فرش خصيصاً لصاحب الجلالة وهو الوحيد من بين الأسرة المالكة الذي رفض التوقيع في الكتاب الذهبي معتذراً بأنه لا يوقع إلا في كتاب جديد وفي الصفحة الأولى

وفي يوم السبت الأسود ٢٦ يناير ١٩٥٢ الشهير بحريق القاهرة احترق الفندق ودمر ضمن ما نال منشآت العاصمة من خراب شامل وعبرت الكاتبة البريطانية إيفيلين وو عن مشاعرها قائلة :

القاهرة لن تكون القاهرة بدون فندق شبرد ولا بد أن ينهض ثانية كطائر العنقاء في الأسطورة المصرية القديمة الذي ما إن يحترق حتي يخلق ثانية في مكان آخر أكثر بهاء وجمالاً

واستمر التخطيط والإعداد للبناء الجديد نحو عامين في موقعه الحالي علي النيل بجوار فندق سميراميس وروعي أن يحتوي كل ثراء ماضيه العريق ، وتكلف المبنى الجديد أكثر من مليون جنيه وافتتح في يوليو عام ١٩٥٧ وأصدرت هيئة البريد طابعاً تذكاريّاً لتخليد المناسبة

مقتطفات مختصرة نقلاً عن كتاب - القاهرة رحلة في المكان والزمان - تأليف عرفه عبده علي -تقديم الأديب الكبير جمال الغيطاني - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

٢٧٦. حكاية ترام القاهرة

كانت مصر من أوائل الدول التي استفادت من الثورة الصناعية والتطورات الهائلة في مجالات النقل والمواصلات ، وقبل تسخير خطوط الترام في القاهرة كانت وسائل الانتقال هي الحمير وعربات الحنطور وسوارس

وصاحب فكرة الترام الكهربائي هو جون ف ترام J.F.Tram الذي مد أول خط حديدي داخل مدينة نيويورك عام ١٨٥٨ أعقبه بثلاث سنوات مد أول خط حديدي بمدينة لندن ، وفي البداية استخدم في سير العربات الدواب ، خاصة الخيول ثم تطور الأمر باستخدام القاطرة البخارية بدلاً من الخيول ، وقد استخدمت الخيل في نطاق محدود ، علي خط ترام الرمل بالإسكندرية في الفترة من ٨ يناير إلي ٢٢ أغسطس عام ١٨٦٢

في عام ١٨٩١ تقدمت شركة الترامواي البلجيكية إلي نظام الأشغال بطلب الحصول علي امتياز تسخير خطوط ترامواي بالقاهرة ، وكان الطلب مدعماً برسومات الخطوط التي وضعها مهندس الشركة جون فيل علي أن تمتد إلي ضواحي العاصمة في نوفمبر ١٨٩٤ صدق مجلس النظار علي منح الامتياز المطلوب للشركة علي أن ينتهي بعد ٥٠ عاماً ومنحها الحق في مد ثمانية خطوط يتفرع معظمها من أمام سراي العتبة الخضراء كان أهمها الخط الممتد إلي الخليج المصري فمصر القديمة إلي جزيرة الروضة

في أغسطس ١٨٩٦ احتفل بتسيير أول مركبة كهربائية في شوارع القاهرة حيث استقل ناظر الأشغال العمومية وكبار موظفي النظارة وبعض الأمراء والأعيان عربات الترام من بولاق إلي ميدان العتبة الخضراء ، وكان في انتظارهم محافظ العاصمة ومدير الشركة البلجيكية وقناصل الدول وجمع من المدعوين ثم سارت بهم المركبات بين حشد من الجماهير تصلصل بأجراسها المميزة الشهيرة إلي ميدان محمد علي (القلعة) وعن هذا الاحتفال قال مندوب الأهرام :

احتفل عصر اليوم بافتتاح خط الترامواي من ميدان العتبة الخضراء إلي شارع محمد علي من جهة وشارع بولاق من الجهة الأخرى ، وكان في العربة الأولى سعادة فخري باشا ناظر الأشغال وبعض كبار الموظفين وفي سائر العربات جميع الكبراء والأعيان المدعوين وكانت المحطة مزدانة بزينة شائقة فسارت العربات تجريها الكهرباء ذهاباً وإياباً ونجحت تجربتها نجاحاً تاماً ، وسيوالي افتتاح الخطوط في الأيام التالية تباعاً ، جعل الله هذا المشروع جزيل الفوائد خلواً من المضرات بعد أن افتتح فخري باشا هذا المشروع الحضاري سمح للركاب باستخدام الترامواي الكهربائي من الساعة السابعة من مساء نفس اليوم ، علي خطين الأول من بولاق إلي كوبري قصر النيل والثاني من العتبة إلي باب الخلق

في أول ابريل عام ١٩٠٠ أصدرت الشركة لائحته التنظيمية بموافقة الحكومة ، ونشرت بجريدة الوقائع المصرية عدد ٢١ إبريل لسنة ١٩٠٠ وكان أهم بنودها :

(أن كل محدث غوغاء أو سكران أو مصاب بعاهة تشمئز منها النفس يمنع من ركوب الترامواي أو تعليق شئ عليها أو السير أمام العربات السائرة أو مرافقتها أو السير خلفها أو التعلق بها)

وبتعاقب السنين امتدت شبكة من خطوط الترام تربط أهم أحياء وميادين القاهرة ، باب الحديد والعتبة وشبرا وروض الفرج وبولاق والسبتية وعابدين والسيدة زينب والسكاكيني والعباسية ومصر القديمة والإمام الشافعي وحتى عام ١٩٢٢ كانت الشركة البلجيكية قد أتمت كثيراً من خطوطها مما لا شك فيه أن هذه الشركة قد أفادت القاهرة كثيراً وكان أثرها في تزايد العمران بالغا ، فقد ربطت المدينة وأطرافها والمناطق العمرانية الجديدة بشبكات منتظمة من خطوط الترام ، وبأجور بستة مليمات وأربعة مليمات للدرجة الثانية وكان النظام والنظافة والتفتيش اليومي والحرص علي راحة الركاب أبرز الخدمات التي تقدمها الشركة

في السنوات الأولى كان يوضع جهاز راديو لتسليية الركاب ، وفي بعض الأحيان بالورود والرياحين ولافتات للدعاية لافتتاح محل جديد أو مدرسة أو مطعم أو ملهي تطوف بالشوارع التي تمتد بها خطوط الترام

وكان حديث الترام مادة ثابتة في المجالات التي كانت تصدر بالقاهرة في أوائل هذا القرن والتي تولت متابعة أخبار (الدهس اليومي) لبعض المواطنين من عربات الترام التي تمضي في طريقها لا تلوي علي شئ وكأنها تسابق الريح ولعل البعض ما

زال يذكر حكاية (شد السنجة) التي كانت ظاهرة يومية دأب بعض الصبية علي القيام بها لمشاغبة سائقي الترام وإجبارهم علي التوقف

وتجدر الإشارة إلي أن كوبري الجيزة القديم (عباس) وكذلك كوبري الملك الصالح عندما افتتحتا في ٦ فبراير سنة ١٩٠٨ تقرر مد خط مزدوج في مارس من نفس السنة يربط الجيزة بمصر القديمة وخط آخر يربط الجيزة بالعتبة الخضراء ، كذلك امتدت خطوط الترام فوق كوبري بولاق (أبو العلا) وكوبري الزمالك عقب افتتاحها في يوليو سنة ١٩١٢ وعن طريق هذه الكباري تكونت شبكة خطوط أخرى تربط قلب القاهرة بأحياء الزمالك والجزيرة وإمبابة والجيزة والأهرام علي الضفة الغربية للنيل

ومع بداية الثمانينيات من هذا القرن انتهى بالفعل العصر الذهبي للترام فمع تزايد حركة الحياة وضغط المرور بشوارع القاهرة كان كل تعديل لتحقيق سيولة المرور علي حساب إلغاء عدد من خطوط الترام حتي اختفي تماماً من مناطق بأكملها مثل شارع الأهرام والجيزة والروضة ومصر القديمة وشارع قصر العيني ووسط القاهرة والجزيرة والزمالك وبولاق ويكاد يتواري علي استحياء فيما بين أول شارع الجيش وميدان العباسية

نقلاً عن كتاب - القاهرة رحلة في المكان والزمان - تأليف عرفه عبده علي -تقديم الأديب الكبير جمال الغيطاني -

الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

٢٧٧. نص البيان الأول لثورة يوليو ١٩٥٢ من اللواء محمد نجيب إلى الشعب

المصري



الإنذار الذي وجهه اللواء محمد نجيب إلى فاروق يوم ٢٦ يولييه بالتنازل عن العرش

«إنه نظرًا لما لاقته البلاد في العهد الأخير من فوضى شاملة عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعيثكم بالدستور وامتهانكم لإرادة الشعب، حتى أصبح كل فرد من أفرادها لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته، ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تقاديركم في هذا المسلك حتى أصبح الخونة والمرتشون يبدون في ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والإسراف الماجن على حساب الشعب الجائع الفقير، ولقد تجلّت آفة ذلك في حرب فلسطين وما تبعها من فضائح الأسلحة الفاسدة، وما ترتب عليها من محاكمات تعرضت لتدخلكم السافر، بما أفسد الحقائق وزعزع الثقة في العدالة، وساعد الخونة على ترسم هذه الخطي، فأثرى من أثري، وفجر من فجر، وكيف لا والناس على دين ملوكهم، لذلك فوضى الجيش الممثل لقوة الشعب أن أطلب إلى جلالكم التنازل عن العرش لسمو ولي عهدكم الأمير أحمد فؤاد؛ على أن يتم ذلك في موعد غايته الساعة الثانية عشرة من ظهر اليوم (السبت الموافق ٢٦ يولييه سنة ١٩٥٢ والرابع من ذي القعدة سنة ١٣٧١) ومغادرة البلاد قبل الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه، والجيش يحمل جلاليتكم كل ما يترتب على عدم النزول على رغبة الشعب من نتائج».

مقدمات ثورة
٢٣ يوليو ١٩٥٢
الكناخ في القتال - حريق القاهرة - وزارات المرفقين
أسياب الثورة - فاروق يهدد الثورة
عبد الرحمن الرافعي

ألقي هذا البيان الرئيس الراحل محمد أنور السادات عضو مجلس قيادة الثورة في ذلك الوقت

نقلاً عن كتاب -مقدمات ثورة يوليو سنة ١٩٥٢- عبد الرحمن الرافعي - دار المعارف

اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم ، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير علي الجيش وتسبب المرتشون والمغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين ، وأما فترة ما بعد هذه الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة علي الجيش وتولي أمره إما جاهل أو فاسد حتي تصبح مصر بلا جيش يحميها ، وعلي ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا وتولي أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب ، أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر ، وسيطلق سراحهم في الوقت المناسب ، وإني أؤكد للشعب المصري أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن في ظل الدستور ، مجرداً من أي غاية ، وأنتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بأن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف ، لأن هذا ليس من صالح مصر ، وإن أي عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل ، وسيلقي فاعله جزاء الخائن في الحال ، وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاوناً مع البوليس ، وإني أطمئن إخواننا الأجانب علي مصالحهم وأرواحهم وأموالهم ، ويعتبر الجيش نفسه مسئولاً عنهم ، والله ولي التوفيق



اللواء أركان حرب محمد نجيب (19 فبراير 28 - 1901 أغسطس (1984 سياسي وعسكري مصري، أول رئيس لجمهورية مصر بعد إنهاء الملكية وإعلان الجمهورية في 18 يونيو (1953، كما يعد قائد ثورة ٢٣ يوليو 1952 التي انتهت بعزل الملك فاروق ورحيله عن مصر، تولى منصب رئيس الوزراء في مصر خلال الفترة من 8 مارس 1954. 18 أبريل (1954، وتولى أيضاً منصب القائد العام للقوات المسلحة المصرية ثم وزير الحربية عام ١٩٥٢.

ولد محمد نجيب بالسودان، والتحق بكلية غردون ثم بالمدرسة الحربية وتخرج فيها عام ١٩١٨، ثم التحق بالحرس الملكي عام ١٩٢٣. حصل على ليسانس الحقوق في عام 1927 وكان أول ضابط في الجيش المصري يحصل عليها. حصل على دبلوم الدراسات العليا في الاقتصاد السياسي عام 1929 ودبلوم آخر في الدراسات العليا في القانون الخاص عام 1931.

في ديسمبر 1931 رقي إلى رتبة اليوزباشي (نقيب) (ونقل إلى سلاح الحدود عام 1934 في العريش، ثم أصبح ضمن اللجنة التي أشرفت على تنظيم الجيش المصري في الخرطوم بعدمعاهدة ١٩٣٦، وقد أسس مجلة الجيش المصري عام 1937 ورتبة الصاغ) رائد (في 6 مايو 1938 قدم محمد نجيب استقالته عقب حادث 4 فبراير 1942 الذي حاصرت فيه الدبابات البريطانية قصر الملك فاروق لإجباره على إعادة مصطفى النحاس إلى رئاسة الوزراء، وقد جاءت استقالته احتجاجاً لأنه لم يتمكن من حماية ملكه الذي أقسم له يمين الولاء، إلا أن المسؤولين في قصر عابدين شكروه بإمتنان ورفضوا قبول استقالته. رقي إلى رتبة القائمقام) عقيد (في يونيو 1944. وفي تلك السنة عين حاكماً إقليمياً لسيناء، وفي عام 1947 كان مسؤولاً عن مدافع الماكينة في العريش. ورتبة الأميرالاي) عميد (عام 1948.

شارك في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وأصيب ٧ مرات، فمُنح نجمة فؤاد العسكرية الأولى تقديراً لشجاعته بالإضافة إلى رتبة البكوية، وعقب الحرب عين مديراً لمدرسة الضباط، وتعرف على تنظيم الضباط الأحرار من خلال الصاغ عبد الحكيم عامر، وفي ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ نفذت الحركة خطة يوليو والتي سميت بـ(الحركة التصحيحية) وانتهت بتنازل الملك فاروق عن العرش لوريثه ومغادرة البلاد، وفي عام ١٩٥٣ أصبح نجيب أول رئيس للبلاد بعد إنهاء الملكية وإعلان الجمهورية.

أعلن مبادئ الثورة الستة، وحدد الملكية الزراعية، لكنه كان على خلاف مع ضباط مجلس قيادة الثورة بسبب رغبته في إرجاع الجيش لثكناته وعودة الحياة النيابية المدنية، ونتيجة لذلك قدم استقالته في فبراير، ثم عاد مرة ثانية بعد أزمة مارس، لكن في 14 نوفمبر 1954 أجبره مجلس قيادة الثورة على الاستقالة، ووضعه تحت الإقامة الجبرية مع أسرته في

قصر زينب الوكيل بعيداً عن الحياة السياسية ومنع أي زيارات له ، حتى عام ١٩٧١ حينما قرر الرئيس السادات إنهاء الإقامة الجبرية المفروضة عليه ، لكنه ظل ممنوعاً من الظهور الاعلامي حتى وفاته في 28 أغسطس 1984 بالرغم من الدور السياسي والتاريخي البارز لمحمد نجيب، إلا أنه بعد الإطاحة به من الرئاسة شُطب اسمه من الوثائق وكافة السجلات والكتب ومنع ظهوره أو ظهور اسمه تماماً طوال ثلاثين عام حتى اعتقد الكثير من المصريين أنه قد توفي، وكان يذكر في الوثائق والكتب ان عبد الناصر هو أول رئيس لمصر، واستمر هذا الأمر حتى أواخر الثمانينيات عندما عاد اسمه للظهور من جديد وأعيدت الأوسمة لأسرته، وأطلق اسمه على بعض المنشآت والشوارع،

٢٧٩. الزعيم جمال عبد الناصر



(١٥ يناير ١٩١٨ - ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠).

هو ثاني رؤساء مصر. تولى السلطة من سنة ١٩٥٤، بعد الرئيس محمد نجيب، إلى وفاته سنة ١٩٧٠. وهو العقل المدبر لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ومن أهم نتائج الثورة هي خلع الملك فاروق عن الحكم، وبدء عهد جديد في مصر والاهتمام بالقومية العربية والتي تضمنت فترة قصيرة من الوحدة بين مصر وسوريا ما بين سنتي ١٩٥٨ و ١٩٦١، والتي عرفت باسم الجمهورية العربية المتحدة. كما أن عبد الناصر شجع عدد من الثورات في أقطار الوطن العربي وعدد من الدول الأخرى في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. ولقد كان لعبد الناصر دور قيادي وأساسي في تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية في سنة ١٩٦٤ وحركة عدم الانحياز الدولية.

وفي عهده تم تأمين قناة السويس وتشديد السد العالي وغير ذلك من الإنجازات ، ويعتبر الزعيم جمال عبد الناصر من أهم الشخصيات السياسية في الوطن العربي وفي العالم للقرن العشرين والتي أثرت تأثيرا كبيرا في المسار السياسي العالمي. عرف عن عبد الناصر قوميته وانتمائه للوطن العربي، وأصبحت أفكاره مذهباً سياسياً سمي تيمناً باسمه وهو الناصرية والذي اكتسب الكثير من المؤيدين في الوطن العربي خلال فترة الخمسينيات والستينيات. وبالرغم من أن صورة جمال عبد الناصر تأثرت إلي حد ما بإبان نكسة ٦٧ إلا أنه أستطاع إستعادتها جزئياً من خلال حرب الاستنزاف التي أعقبت النكسة وسبقت حرب ٦ أكتوبر.، ولا زال ينظر إليه بشكل عام كرمز للكرامة العربية والحرية من الاستعمار

نقلاً باختصار عن موسوعة ويكيبيديا

٢٨٠. مقتطفات من خطاب الزعيم جمال عبد الناصر المتضمن قرار تأميم قناة

السويس بتاريخ ٢٦ يوليو ١٩٥٦

أيها المواطنون:

نحتفل اليوم باستقبال العيد الخامس للثورة.. باستقبال السنة الخامسة للثورة، بعد أن قضينا أربع سنوات نكافح ونجاهد ونقاتل؛ للتخلص من آثار الماضي البغيض.. للتخلص من آثار الماضي الطويل.. للتخلص من آثار الاستعمار الذي استبد بنا قروناً طويلة، وللتخلص من آثار الاستبداد الذي تحكم فينا، وللتخلص من آثار الاستغلال الأجنبي والاستغلال الداخلي.

إننا اليوم - أيها المواطنون - ونحن نستقبل العام الخامس للثورة نستقبله أشد عزمًا، وأمضى قوة، وأشد إيمانًا.

نعم - أيها المواطنون - لقد اتحدنا وثرنا وكافحنا وقاتلنا وجاهدنا وانتصرنا. واليوم ونحن نتجه إلى المستقبل.. اليوم - أيها المواطنون - ونحن نتجه إلى المستقبل، بعد سنوات أربع من الثورة، نتجه بقوة وعزم وإيمان، نعتمد على الله وعلى أنفسنا، نعتمد على الله وعلى عزيمتنا، نعتمد على الله وعلى قوتنا؛ من أجل تحقيق الأهداف التي قامت من أجلها هذه الثورة. من أجل تحقيق هذه الأهداف التي جاهد من أجلها الآباء والتي كافح من أجلها الأجداد، نتجه إلى المستقبل ونحن نشعر أننا سننتصر - بعون الله - انتصارات متتالية.. انتصارات متتابعة؛ من أجل تثبيت مبادئ العزة، ومن أجل تثبيت مبادئ الحرية، ومن أجل تثبيت مبادئ الكرامة، ومن أجل إقامة دولة مستقلة استقلالاً حقيقياً، لا استقلالاً زائفاً.. استقلالاً سياسياً، واستقلالاً اقتصادياً.

أيها المواطنون:

حينما نتجه إلى المستقبل نشعر أن معاركنا لم تنته، فليس من السهل.. ليس من السهل أبداً.. مش سهل أبداً ان احنا نبني أنفسنا في وسط الأطماع.. الأطماع الدولية المتنافرة، والاستغلال الدولي، والمؤامرات الدولية.. مش سهل أبداً ان احنا نبني أنفسنا.. نبني وطننا، ونحقق استقلالنا السياسي، ونحقق استقلالنا الاقتصادي. قدامنا - أيها الإخوة - معارك طويلة سنكافح فيها.. قدامنا معارك طويلة لنعيش أحرار، لنعيش كرماء، لنعيش أعزاء.-----

مبادئ باندونج العشرة - التي قررت في العام الماضي - بنقول: من الطبيعي أن يكون لجميع الأمم الحق في أن تختار بحرية نظمها السياسية والاقتصادية وطريقة حياتها؛ وفقاً لأغراض ومبادئ وميثاق الأمم المتحدة، وبالتحرر من الشك والخوف، وبالثقة وحسن النية المتبادلين، يجب على الأمم أن تمارس التسامح، وأن تعيش معاً في سلام.. يجب على الأمم أن تعيش جيراناً صالحين، يعملون لتمكين التعاون الصادق على الأسس الآتية:.. دى الأسس اللي وضعها مؤتمر باندونج للعلاقات بين الدول:-

أولاً: احترام حقوق الإنسان الأساسية وأغراض ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة.

ثانياً: احترام سيادة جميع الأمم وسلامة أراضيها.

ثالثاً: الاعتراف بالمساواة بين جميع الأجناس، وبين جميع الأمم كبيرها وصغيرها.

بعدين.. الامتناع عن أى تدخل في الشؤون الداخلية لبلد آخر.

وبعدين.. احترام حق كل أمة في الدفاع عن نفسها انفرادياً أو جماعياً.

ثم الامتناع عن استخدام التنظيمات الدفاعية الجماعية لخدمة المصالح الذاتية لأية دولة من الدول الكبرى.. كالأحلاف

اللى بيعملوها ويبدخلوها فيها تحت اسم الدفاع علشان تخدم مصالحهم.

وبعدين.. امتناع أى بلد عن الضغط على غيره من البلاد.

بعدين.. تجنب الأعمال أو التهديدات العدوانية أو استخدام العنف ضد السلامة الإقليمية، أو الاستقلال السياسي لأى بلد من البلاد.

وبعدين.. تسوية جميع المنازعات الدولية بالوسائل السلمية.

وبعدين.. تنمية المصالح المشتركة والتعاون المتبادل.

وبعدين.. احترام العدالة والالتزامات الدولية.

دى المبادئ اللى أقرها مؤتمر باندونج للعلاقات بين الدول؛ حتى لا تستخدم الدول الكبرى الدول الصغرى ألعبوة فى يدها.. تستخدمها كمخلب للقط تنفذ بها سياستها من أجل السيطرة ومن أجل النفوذ.

هذه المبادئ التى أقرها مؤتمر باندونج أعاد مؤتمر بريونى تأكيدها، وأعلن تمسكه بها، وأعلن أن هذه المبادئ يجب أن

تكون أساس العلاقات بين الدول -----

احنا لن نكرر الماضى أبداً، ولكن سنقضى على الماضى؛ سنقضى على الماضى بإننا نستعيد حقوقنا فى قنال السويس.

هذه الأموال أموالنا، هذه القتال ملك لمصر؛ لأنها شركة مساهمة مصرية، حفرت قنال السويس بواسطة أبناء مصر، ١٢٠ ألف مصرى ماتوا وهم يبحفروها.

شركة قنال السويس - اللى قاعدة فى باريس - شركة مغتصبة؛ اغتصبت امتيازاتنا.. "ديلسبس" أما جا هنا كان جاى زى ما جا "بلاك" علشان يتكلم معايا، نفس العملية.. التاريخ لن يعيد نفسه، بل بالعكس حنبى السد العالى، وسنحصل على حقوقنا المغتصبة.. حنبى السد العالى زى ما احنا عايزين، حنصم على هذا.. ٣٥ مليون جنيه كل سنة بتاخذها شركة القتال.. ناخذها احنا، ١٠٠ مليون دولار كل سنة بتحصلها شركة القتال لمنفعة مصر.. نحقق هذا الكلام، يبقى الـ ١٠٠ مليون دولار نحصلهم احنا لمنفعة مصر برضه.

ولهذا.. لهذا.. إنا اليوم - أيها المواطنون - حينما نبني السد العالى نبني أيضاً سد العزة والحرية والكرامة، ونقضى على سدود الذل والهوان، ونعلن مصر كلها جبهة واحدة.. كتلة وطنية.. متكاتفه.. متحدة.. مصر كلها ستقاتل لآخر قطرة من دمائها.. كل واحد من أبنائها زى ما قلت لكم - زى صلاح مصطفى وزى مصطفى حافظ - كلنا سنقاتل لآخر قطرة من دماننا فى سبيل بناء بلدنا، وفى سبيل بناء مصر. لن نمكن منا تجار الحروب، لن نمكن منا المستعمرين، لن نمكن تجار البشر، سنعمد على سواعدنا وعلى دماغنا وعلى أجسامنا.

احنا أغنياء.. كنا متهاونين فى حقوقنا بنسرتها، وقلت لكم فى الأول: معركتنا مستمرة، نسترد هذه الحقوق خطوة خطوة، وسنحقق كل شىء.. سنبنى مصر القوية، وسنبنى مصر العزيزة.

لهذا قد وقعت اليوم، ووافقت الحكومة على القانون الآتى:

قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقنال السويس البحرية. (تصفيق وهتاف).

باسم الأمة.. باسم الأمة

رئيس الجمهورية..

مادة ١: تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية، وينتقل إلى الدولة جميع ما لها من أموال وحقوق وما عليها من التزامات، وتحل جميع الهيئات واللجان القائمة حالياً على إدارتها، ويعوض المساهمون وحصة التأسيس عما يملكونه من أسهم وحصص بقيمتها، مقدرة بحسب سعر الإقفال السابق على تاريخ العمل بهذا القانون فى بورصة الأوراق المالية بباريس، ويتم دفع هذا التعويض بعد إتمام استلام الدولة لجميع أموال وممتلكات الشركة المؤممة.

مادة ٢: يتولى إدارة مرفق المرور بقناة السويس مرفق عام ملك للدولة.. يتولى إدارة مرفق المرور بقناة السويس هيئة مستقلة تكون لها الشخصية الاعتبارية، وتلحق بوزارة التجارة، ويصدر بتشكيل هذه الهيئة قرار من رئيس الجمهورية، ويكون لها - فى سبيل إدارة المرفق - جميع السلطات اللازمة لهذا الغرض، دون التقيد بالنظم والأوضاع الحكومية.

ومع عدم الإخلال برقابة ديوان المحاسبة على الحساب الختامى، يكون للهيئة ميزانية مستقلة، يتبع فى وضعها القواعد المعمول بها فى المشروعات التجارية، وتبدأ السنة المالية فى أول يوليو، وتنتهى فى آخر يونيو من كل عام، وتعتمد الميزانية والحساب الختامى بقرار من رئيس الجمهورية. وتبدأ السنة المالية الأولى من تاريخ العمل بهذا القانون وتنتهى فى آخر يونيه سنة ١٩٥٧. ويجوز للهيئة أن تندب من بين أعضائها واحداً أو أكثر لتنفيذ قراراتها أو للقيام بما تعهد إليه من أعمال، كما يجوز لها أن تؤلف من بين أعضائها أو من غيرهم لجاناً فنية؛ للاستعانة بها فى البحوث والدراسات. يمثل الهيئة رئيسها أمام الهيئات القضائية والحكومية وغيرها، وينوب عنها فى معاملتها مع الغير.

مادة ٣: تجمد أموال الشركة المؤممة وحقوقها فى جمهورية مصر وفى الخارج، ويحظر على البنوك والهيئات والأفراد التصرف فى تلك الأموال بأى وجه من الوجوه، أو صرف أى مبالغ أو أداء أية مطالبات أو مستحقات عليها إلا بقرار من الهيئة المنصوص عليها فى المادة الثانية.

مادة ٤: تحتفظ الهيئة بجميع موظفى الشركة المؤممة ومستخدميها وعمالها الحاليين، وعليهم الاستمرار فى أداء أعمالهم، ولا يجوز لأى منهم ترك عمله أو التخلّى عنه بأى وجه من الوجوه، أو لأى سبب من الأسباب؛ إلا بإذن من الهيئة المنصوص عليها فى المادة الثانية.

مادة ٥: كل مخالفة لأحكام المادة الثالثة يعاقب مرتكبها بالسجن والغرامة توازى ثلاثة أمثال قيمة المال موضوع المخالفة. وكل مخالفة لأحكام المادة الرابعة يعاقب مرتكبها بالسجن، فضلاً عن حرمانه من أى حق فى المكافأة أو المعاش أو التعويض.

مادة ٦: ينشر هذا القرار فى الجريدة الرسمية، ويكون له قوة القانون، ويعمل به من تاريخ نشره، ولوزير التجارة إصدار القرارات اللازمة لتنفيذه.

٢٨١. موال النهار - أغنية #عبدالحميد حافظ

كلمات عبد الرحمن الأبنودي، ألحان بليغ حمدي.

عدّى النهار - و المغربية جاية - تتخفى ورا ظهر الشجر
 و عشان نتوه في السكة - شالت من ليالينا القمر
 و بلدنا ع التربة بتغسل شعرها = جانا نهار مقدش يدفع مهرها
 يا هل ترى الليل الحزين - أبو النجوم الدبلانين - أبو الغناوي المجروحين
 يقدر ينسيها - الصباح - أبو شمس بترش الحنين؟
 أبدأ.. بلدنا ليل نهار - بتحب موال النهار - لما يعدّي في الدروب - و يغني قدام كل دار
 و الليل يلف ورا السواقي - زي ما يلف الزمان - و على النغم - تحلم بلدنا - بالسنابل والكيزان
 تحلم ببيكره و اللي حبيبته معاه تنده عليه في الضلّة و بتسمع نداء
 تصحى له من قبل الأذان تروح تقابله في الغيطان في المتاجر و المصانع.. والمعامل
 و المدارس.. والساحات طالعة له صحبة جنود طالعة له رجال.. أطفال.. بنات
 كل الدروب واخدة بلدنا للنهار و احنا بلدنا ليل نهار بتحب موال النهار لما يعدّي في الدروب
 و يغني قدام كل دار

٢٨٢. على اسم مصر التاريخ يقدر يقول ما شاء

على اسم مصر التاريخ يقدر يقول ما شاء
أنا مصر عندي أحب وأجمل الأشياء

بحبها وهي مالكة الأرض شرق وغرب

وبحبها وهي مرمية جريحة حرب

بحبها بعنف وبرقة وعلى استحياء

واكرهها وألعن أبوها بعشق زي الداء

واسيبيها واطفش في درب وتبقى هي ف درب

وتلتفت تلاقيني جنبها في الكرب

والنبض ينفض عروقي بألف نعمة وضرب"

صلاح جاهين



الأرض بتتكلم عربى وقول الله - ان الفجر لمن صلاه
مات طولش معاك الآه

الأرض ..الأرض .. الأرض - الأرض بتتكلم عربي
الأرض بتتكلم عربي ومن حطين - رد على قدس فلسطين
أصلك فيه وأصلك طين

الأرض ..الأرض .. الأرض - الأرض بتتكلم عربى
الأرض بتتكلم عربى بوجود وشوق - الفرع الى يهم لفوق
لأجل الجذر يشم الضوء

الأرض .. الأرض .. الأرض - الأرض بتتكلم عربى
الأرض بتتكلم عربى ولا ترتاح - واصل كالسيل المجتاح
فتحك يا عبد الفتاح

الأرض .. الأرض .. الأرض - الأرض بتتكلم عربى

ولد سيد مكاوي بحى السيدة زينب بالقاهرة فى ٨ مايو ١٩٢٦م وتوفى فى ٢١ أبريل ١٩٩٧م



تولي رئاسة مصر من ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ إلى أن استشهد في ٦ أكتوبر ١٩٨١ م
اتخذ الرئيس السادات قراراً حاسماً بالقضاء على مراكز القوي في ١٥ مايو عام ١٩٧١ وهو ما عرف بثورة التصحيح
وفي نفس العام صدر دستور جديد لمصر
وقام في عام 1972 بالاستغناء عن ما يقرب من ١٧٠٠٠ خبير روسي في أسبوع واحد، ولم يكن خطأ استراتيجي ولم
يكلف مصر الكثير إذ كان السوفييت عبء كبير على الجيش المصري، وكانوا من قدامى العسكريين السوفيت والمحالين
للتنقاع
وقد أقدم على اتخاذ قرار مصيري وهو قرار الحرب ضد إسرائيل في أكتوبر 1973 عندما استطاع الجيش تدمير خط
بارليف وعبور قناة السويس فقاد مصر إلى أول انتصار عسكري على إسرائيل.
ثم قام بافتتاح قناة السويس للملاحة البحرية وكانت هذه أكبر شهادة للعسكرية المصرية التي كانت تؤمن الملاحة في
قناة السويس في منطقة من أكثر المناطق توتراً في العالم
بتاريخ ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ قام بزيارته الشهيرة لإسرائيل ليدفع بيده عجلة السلام وقام برحلته الشهيرة إلى الولايات
المتحدة الأمريكية في ١٩٧٨ من أجل التفاوض لاسترداد الأرض وخلال هذه الرحلة قام بتوقيع اتفاقية كامب ديفيد ثم تم
توقيع معاهدة السلام مع إسرائيل في عام ١٩٧٩ والتي علي أساسها انسحبت القوات الإسرائيلية من سيناء
وقد حصل علي جائزة نوبل للسلام مناصفة مع رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيجين وذلك علي جهودهما الحثيثة في
تحقيق السلام في منطقة الشرق الأوسط
وقد استشهد في يوم احتفاله بانتصارات أكتوبر سنة ١٩٨١

٢٨٥ . السادات وحلاوة النصر

مقتطفات من خطاب الرئيس محمد أنور السادات بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٩٧٣
لست أظنكم تتوقعون مني أن أقف أمامكم لكي نتفاخر معاً ونتباهي بما حققناه في أحد عشر يوماً من أهم وأخطر بل أعظم وأمجّد أيام تاريخنا
وربما جاء يوم نجلس فيه معاً لا لكي نتفاخر ونتباهي،
ولكن لكي نتذكر وندرس ونعلم أولادنا وأحفادنا جيلاً بعد جيل ،
قصة الكفاح ومشاقه، ومرارة الهزيمة و آلامها،
وحلاوة النصر وآماله،
نعم سوف يجيئ يوم نجلس فيه لنقص ونروى ماذا فعل كل منا في موقعه
وكيف حمل كل منا أمانته وأدى دوره،
كيف خرج الأبطال من هذا الشعب وهذه الامة في فترة حالكة ساد فيها الظلام، ليحملوا مشاعل النور وليضيئوا الطريق
حتى تستطيع أمتهم ان تعبر الجسر ما بين اليأس والرجاء
إن القوات المسلحة المصرية قامت بمعجزة علي أي مقياس عسكري ، لقد أعطت نفسها بالكامل لواجبها ، استوعبت
العصر كله تدريباً وسلاحاً ، وعلماً واقتداراً

وحين أصدرت لها الأمر أن ترد علي استفزاز العدو وأن تكبح جماح غروره فإنها أثبتت نفسها ، وأن هذه القوات أخذت
في يدها بعد صدور الأمر لها زمام المبادأة وحققت مفاجأة العدو وأفقدته توازنه بحركتها السريعة

ولست أتجاوز إذا قلت أن التاريخ العسكري سوف يتوقف طويلاً بالفحص والدرس أمام عملية السادس من أكتوبر
١٩٧٣ حين تمكنت القوات المسلحة المصرية من اقتحام مانع قناة السويس الصعب واجتياح خط بارليف المنيع وإقامة
رؤوس جسور لها علي الضفة الشرقية من القناة بعد أن أفقدت العدو توازنه كما قلت في ست ساعات

إن هذا الوطن يستطيع أن يطمئن ويأمن بعد خوف أنه قد أصبح له درع وسيف

وقد كنا نطمئن بعطف العالم ونحن الان نعتز باحترامه

واقول لكم بصدق وأمانه أنني افضل احترام العالم ولو بغير عطف

على عطف العالم اذا كان بغير احترام

وأحمد الله

٢٨٦. رأيتك جذع جميز علي ترعة

رأيتك قطعة من صخرة الأهرام منتزعة

رأيتك حائطا من جانب القلعة

مقتطفات من قصيدة - إلي أول جندي رفع العلم -

شعر صلاح عبد الصبور

تمليناك ، حين أהלّ فوق الشاشة البيضاء ،

وجهك يلثم العلما

وترفعه يداك ،

لكي يحلق في مدار الشمس ،

حر الوجه مقتحما

ولكن كان هذا الوجه يظهر ، ثم يستخفي.

ولم ألمح سوي بسمتك الزهراء والعينين

ولم تعلن لنا الشاشة نعتا لك أو إسما

ولكن ، كيف كان اسم هنالك يحتويك ؟

وأنت في لحظتك العظمي

تحولت إلي معني

كمعني الحب ، معني الخير ، معني النور ، معني القدرة الأسمي.

تراك ،

وأنت في ساح الخلود ، وبين ظل الله والأملاك

تراك ، وأنت تصنع آية ، وتخط تاريخا

تراك ، وأنت أقرب ما تكون

إلي مدار الشمس والأفلاك

تراك ذكرتني ،

وذكرت أمثالي من الفنانين والبسطاء

وكان عذابهم هو حب هذا العلم الهائم في الأنواء

وأضحى ظلك المرسوم منبهما

رأيتك جذع جميز علي ترعة

رأيتك قطعة من صخرة الأهرام منتزعة

رأيتك حائطا من جانب القلعة

رأيتك دفقة من ماء نهر النيل

وقد وقفت علي قدمين

لترفع في المدي علما

يحلق في مدار الشمس،

حر الوجه مبتسما.

٢٨٧. اتربى وشبع من خيرك

أغنية أم البطل - غناء شريفة فاضل - كلمات نبيلة قنديل - ألحان علي اسماعيل

ابنى حبيبى يا نور عينى
 بيضربوا بيك المثل - كل الحبايب بتهنئنى
 طبعا منا انا ام البطل
 يا مصر ولدى الحر
 اتربى وشبع من خيرك - اتقوى من عظمة شمسك
 اتعلم على ايد احرارك - اتسلح بايمانه واسمك
 شد الرجال شق الرمال - هد الجبال عدى المحال
 زرع العلم طرح الامل - وبقيت انا ام البطل
 يامصر ولدى الحر
 العالم وصلت اخباره
 وشجاعته وتحريره لارضه - اتلموا اخواته واعمامه
 من كل بلد عربى جمبه
 الكل قال باسم النضال - وقفة رجال صدق اللى قال
 زرعوا العلم طرحوا الامل
 وبقيت انا ام البطل

٢٨٨. رسالة مباشرة من الرئيس السوفييتي بريجنيف إلى وزير الخارجية الأمريكي

هنري كيسنجر اثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣



كما ورد بكتاب المعارك الحربية على الجبهة المصرية للمؤرخ العسكري اللواء جمال حماد حيث كتب ما يلي :

ولكن كيسنجر في غمرة مناوئاته الملتوية نسي أن زعماء الكرملين في موسكو كانوا يدركون جيداً حقيقة أهدافه ومرامييه في سبيل خدمة إسرائيل ، ولذا أدركته الدهشة حينما نقل إليه القائم بالأعمال السوفييتي مذكرة عاجلة موجهة إليه من الرئيس السوفييتي بريجنيف ، إذ إن ذلك الإجراء لم يسبق حدوثه من قبل ، فإن بريجنيف وفقاً للأعراف الدبلوماسية لا يوجه رسائله إلا إلى الرئيس الأمريكي نيكسون ، وفهم كيسنجر علي الفور أن الرئيس السوفييتي يريد أن يلفت نظره بهذه الرسالة المباشرة المرسله إليه ، إلي أنه يدرك جيداً حقيقة الدور الذي يلعبه في الخفاء لكي يخدم إسرائيل ، وسجل بريجنيف في رسالته أن القوات الإسرائيلية تتحرك جنوباً بمحاذاة الضفة الغربية لقناة السويس وأن هذه الأعمال الإسرائيلية غير مقبولة وتمثل خداعاً وتحايلاً فاضحاً ، ولذا فهو يقترح اجتماعاً عاجلاً لمجلس الأمن ظهراً لإعادة تأكيد وقف إطلاق النار وإصدار الأمر للقوات الإسرائيلية بالعودة إلى المواقع التي كانت عليها لحظة صدور القرار رقم ٣٣٨ في اليوم السابق وفور تلقي كيسنجر رسالة بريجنيف سارع بالاتصال بالسفير الإسرائيلي في واشنطن سيمحا دينتز لإبلاغه بهذا التطور ، وخلال دقائق معدودات كانت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل علي سماعة الهاتف تطلب كيسنجر من تل أبيب وأخبرها كيسنجر بأن الولايات المتحدة لن تتمكن من الاعتراض علي مشروع قرار يتقدم به الاتحاد السوفييتي إلي مجلس الأمن لعودة القوات المتحاربة إلي خط ٢٢ أكتوبر وفقاً لقرار رقم ٣٣٨ الذي اشتركت الولايات المتحدة نفسها في صياغته وتقديمه ، وعندما لاحظ كيسنجر قلقها أخذ يهدئ من روعها فقال لها وفقاً لما ورد في مذكراته بالحرف (إنني اقترح عليك أن تنسحب قوات إسرائيل في هذه الحالة مئات قليلة من اليارات من أي مواقع تكون قد وصلت إليها الآن ، ثم تقف وتقول إن هذا هو خط ٢٢ أكتوبر) ، وأضاف كيسنجر متهمكاً لرئيسة وزراء إسرائيل : (كيف يمكن لأي شخص أن يعرف علي الإطلاق أين كان يوجد خط ٢٢ أكتوبر في الصحراء)

وهكذا أعطي كيسنجر الضوء الأخضر لإسرائيل لكي تمضي قواتها في عملياتها الحربية منتهكة قرار وقف إطلاق النار دون خوف من العقاب ، إذ إن الحل بسيط فيما لو تأزمت الأمور ، هو أن تنسحب قوات إسرائيل بضع مئات من اليرادات وتقول : هذا هو خط ٢٢ أكتوبر

لقد كان هنري كيسنجر هو وزير خارجية إحدى القوتين العظميين ، ويمكنها أن تعرف بسهولة بوسائلها المتطورة في الاستطلاع الجوي أين كان يوجد خط ٢٢ أكتوبر على وجه التحديد ،

نقلًا عن كتاب المعارك الحربية على الجبهة المصرية- للمؤرخ العسكري اللواء جمال حماد - دار الشروق -

وجدير بالذكر أن القوات الإسرائيلية بعد حدوث الثغرة لم تتمكن من الصمود غرب القناة لفترة طويلة وتم انسحابها بالكامل إلى شرق القناة بعد مباحثات الكيلو ١٠١ التي جرت بين القادة المصريين والقادة الإسرائيليين بينما استمرت القوات المصرية في مواقعها شرق القناة دون انسحاب جندي واحد بعد العبور العظيم

٢٨٩. ملحمة #السويس الخالدة يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣

عن هذه الملحمة كتب المؤرخ العسكري اللواء جمال حماد في كتابه الممتع المعارك الحربية علي الجبهة المصرية ما ملخصه :

ولم تكتف القوات الإسرائيلية بالحصار البري الذي ضربته علي السويس بقطع كل الطرق المؤدية إليها ولا بالحصار البحري بقطع الطريق المائي المؤدي إلي الخليج والبحر الأحمر ، بل عمدت إلي توجيه أقسى أساليب الحرب النفسية ضد سكانها وبغير شفقة أو رحمة بقصد ترويعهم والضغط علي أعصابهم لحملهم علي التسليم ، ولهذا تم لها قطع ترعة السويس المتفرعة من ترعة الاسماعيليه والتي تغذي المدينة بالمياه الحلوة ، كما دمرت شبكة الضغط العالي التي تحمل التيار الكهربائي من القاهرة إلي السويس ، وقطعت بعد ذلك أسلاك الهاتف التي تربط المدينة بالعالم الخارجي وكانت القيادة الإسرائيلية علي يقين بأن أهل السويس سوف يقابلون دبابتهم ومدركاتهم بالأعلام بالبيضاء حال ظهورها في الشوارع بعد أن أصبحوا في هذه الظروف المعيشية التي لا يمكن لبشر أن يتحملها فلا مياه ولا طعام ولا كهرباء ولا معدات طبية أو أدوية للمرضي والمصابين ولا اتصالات هاتفية مع الخارج

وفضلاً عن ذلك ركزت مدفعيتها قصفها العنيف علي أحيائها السكنية وانطلقت طائراتها تملأ سماء المدينة لتصب علي مرافقها ومنشأتها الحيوية وإبلاً من صواريخها لتتشعل في المدينة النار والدمار وليخر تحت قصفها المدمر مئات من الشهداء وآلاف من الجرحي حتي ضاق المستشفى العام بالجرحي والمصابين وأصبحوا لفرط الازدحام يوضعون علي الأرض في طرقات المستشفى ، وكان الهدف من هذه الحرب النفسية الشرسة هو إقناع الجميع في السويس بأنه لا جدوي من المقاومة وأن الحل الوحيد للخلاص من كل متاعبهم هو الاستسلام للغزاة

كان أول نبأ رسمي يصل إلي بدوي الخولي محافظ السويس وقتئذ عن التحركات الإسرائيلية حول المدينة هو التبليغ الهاتفي الذي تم له تلقيه عن طريق العقيد فتحي عباس مدير مخابرات جنوب القناة في الساعة الخامسة والنصف مساء يوم ٢٣ أكتوبر فقد أبلغه أن الدبابات الإسرائيلية وصلت إلي منطقة شركات البترول بالزيتية وأنها في طريقها إلي ميناء الأدبية وبناء علي دعوة المحافظ انعقد مؤتمر عسكري بالمحافظة - - لبحث إجراءات الدفاع عن المدينة وتأمين مداخلها - - ورغم الظروف العصيبة التي كانت تواجه السويس كان الأمل ما يزال قوياً في قهر العدوان الذي أوشك أن يطبق علي المدينة فلقد كان من بين مواطنيها فتية آمنوا بريهم ووطنهم وصمموا علي الدفاع عن مدينتهم الخالدة حتي آخر رمق في حياتهم ، - - وكان العميد أح يوسف عفيفي يتولي قيادة الفرقة ١٩ مشاة التي كانت تحتل مساحة كبيرة من رأس كوبري الجيش الثالث شرق القناة ، وعندما أدرك الخطر الذي باتت تتعرض له السويس قرر بمبادرة شخصية منه ضرورة الدفاع عن المدينة التي ارتبطت بها فرقته بأوثق الروابط منذ سنوات طويلة ، وفي يوم ٢٣ أكتوبر أرسل سرية مقذوفات موجهة ضد الدبابات بقيادة المقدم حسام عمارة لصد العدو علي طريق المعاهدة وقد قامت السرية بالاشتباك مع دبابات العدو ، وبالإضافة إلي هذه السرية أرسل قائد الفرقة إلي السويس صباح يوم المعركة طاقم اقتناص دبابات بقيادة الملازم أول عبد الرحيم السيد - - وعلي الرغم من أن الدفاع عن السويس كان خارج مهمة الفرقة القتالية فقد تم للفرقة ١٩ احتلال السواتر الترابية علي ضفتي القناة وتم توجيه بعض مواشير مدافع الميدان لتغطية بعض القطاعات الحيوية غرب القناة ، - - واستعدت الشرطة بأقسامها ووحداتها للمعركة وأصبحت غرفة عمليات الدفاع المدني بميدان الأربعين مقراً لقيادة أعمال الدفاع الشعبي ، وبذلت أجهزة الإطفاء والإنقاذ جهوداً جبارة خلال الغارات الجوية ، كما فتحت الشرطة مخازن السلاح لإمداد المتطوعين بالأسلحة والذخائر ، وأصبحت الشبكة اللاسلكية الخاصة بشرطة النجدة هي حلقة الاتصال الوحيدة بين السويس والقاهرة ،

لم تتم المدينة الباسلة وظل جميع أبنائها ساهرين طوال الليل في انتظار وصول الأعداء وعندما نادي المؤذن لصلاة الفجر اكتظمت المساجد بالناس وفي مسجد الشهداء بجوار مبني المحافظة أم المصلين الشيخ حافظ سلامة وعقب الصلاة ألقى

المحافظ كلمة قصيرة أوضح فيها للناس أن العدو يستعد لدخول السويس وطالبهم بالهدوء وضبط الأعصاب وأن يسهم كل فرد بما يستطيعه واختتم كلمته بالهتاف (الله أكبر) وارتفع الدعاء من أعماق القلوب إلى السماء

وابتداء من الساعة السادسة صباحاً بدأت الطائرات الاسرائيلية في قصف أحياء المدينة لمدة ثلاث ساعات متواصلة في موجات متلاحقة وبشدة لم يسبق لها مثيل وكان الغرض هو تحطيم أي مراكز للمقاومة داخل المدينة والقضاء على أي تصميم على القتال لدى أهل السويس - - وتنبيه أفراد المقاومة إلى ظاهرة مهمة ، وهي أن الطائرات في أثناء هجماتها الشرسة تتجنب إصابة الشوارع الرئيسية في المدينة والتي تمثل امتداد المحاور الثلاثة التي اعتزم العدو التقدم عليها بمدرعاته ، (محور المثلث - محور الجنائن - محور الزيتية) - -

وعبرت قوة مدرعة منطقة المثلث وأخذت تجتاز الطريق في ثبات وتؤدة وقد بلغت ثقة الإسرائيليين بعدم تجرؤ أحد من أهل المدينة على مقاومتهم إلى الحد الذي جعل قادة الدبابات يقفون جميعاً ليطلوا من أبراج دباباتهم المفتوحة للفرجة على الشوارع التي يمرون من خلالها ووصلت الموجة الأولى إلى ميدان الأربعين دون أن تصطدم بأي مقاومة ، وأمسك البطل ابراهيم سليمان بالقاذف أر بي جي ٧ وعندما أصبحت الدبابة الأولى التي تتقدم الرتل المدرع علي بعد حوالي ١٢ متر صوب بدقة نحوها لتنتطلق القذيفة وتستقر أسفل برج الدبابة التي اختل توازنها وتوقفت ومالت ماسورة مدفعها إلى الأرض ، وفي الوقت الذي توقفت فيه مدرعات الموجه الأولى أمام قسم شرطة الأربعين بتأثير المفاجأة خرجت آلاف حاشدة من الجنود والمواطنين إلى الميدان والشوارع المحيطة بقسم الشرطة وهم يهتفون في حماسة (الله أكبر ، الله أكبر) وأخذوا في إطلاق نيران بنادقهم ورشاشاتهم علي أطقم الدبابات بينما ألقي البعض بقنابله اليدوية داخل أبراج الدبابات التي أخذت تنفجر ويشعل بعضها بالنار حتي تحولت المنطقة إلى قطعة من الجحيم - -

وعندما أبصرت دبابات الموجتين الثانية والثالثة ما لحق بمدرعات الموجه الأولى من فتك وتدمير حاولت الاستدارة إلى الخلف في ارتباك شديد للعودة إلى منطقة المثلث ونظراً لضيق الشارع اصطدمت بعضها ببعض وأثناء عودتها خرجت حشود ضخمة من البيوت المهدامة علي طول الشارع وأخذوا يطلقون النيران ويقذفون الدبابات بالقنابل اليدوية وهي تفر أمامهم كالفئران المذعورة

٢٩٠. من ديوان راهب الليل - طاهر أبو فاشا (19891908 -)

قصيدة في انتظار الفجر
 بقلبي ما بقلبك أو أشدُّ
 وعندي من جواك جوى وسهْدُ
 ولكني أكابر فيك ضغفي
 ودمعي مثل دمعك مُستَبِدُّ
 ثراوُدي دواعيه فأغضي
 وبني من كبرياءِ الدمعِ جهْدُ
 إذا سكنتُ إليه العينُ يوماً
 تمرّد في دمي لهبٌ ووَقْدُ
 فيزمني على العبراتِ وجْدُ
 ويثني عن العبراتِ وجْدُ
 ولو أني بكيتُ لَخَفَّ ما بي
 ولكن البكاءَ للحرِّ قيدُ

* * * *

هي الدنيا فلا تعتبْ وخُذْها
 على علاتها لا شيءَ بَعْدُ
 وللأيام أعمارٌ قصار
 وأقدارٌ تروحُ بنا وتغدو
 قوافلُ في ضمير الغيبِ تمضي
 وصرفُ الدهرِ يهزلُ أو يجدُ
 ونائحةٌ على الأغصانِ تبكي
 كهاتفةٌ على الأغصانِ تشدو
 فلا تعتبْ على الدنيا ودعها
 لمن يبكي عليها وهي تعدو

* * * *

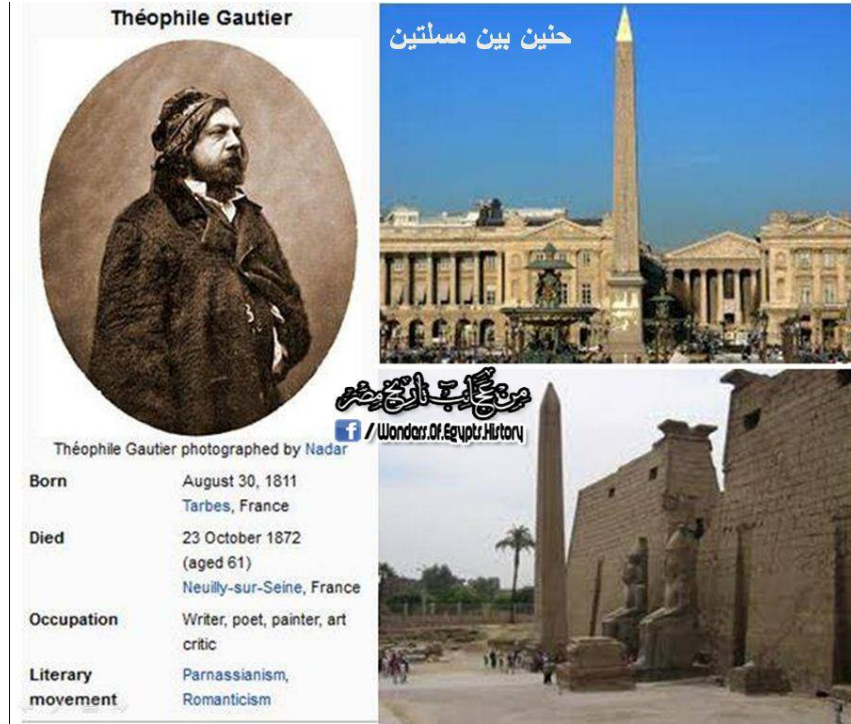
تعال إلى خميلِ الحبِّ نشدو
 كسالفِ عهدنا والعيشُ رَعْدُ
 تعال فنحن في دنيا هوانا
 نعيشُ وبيننا سببٌ وعهدُ
 تعال فليس بعد الحبِّ شيءُ
 وليس لعالمِ الأشواقِ حدُ
 يدُ الأيامِ أقصرُ من هوانا
 فكيف تنالُ منه وهو خُلْدُ

ولكنَّ الظلام إذا تمادى
فليس من انتظارِ الفجرِ بُدُ
وقد يأتي الصبحُ على هوانا
وقد تجري الرياحُ كما نودُ

٢٩١. كلمات أغنية فيروز - مصر عادت شمسك الذهب

مصر عادت شمسك الذهب تحمل الأرض و تغترب
 كتب النيل على شطه قصصاً بالحب تلتهب
 لك ماض مصر إن تذكرى يحمل الحق و ينتسب
 و لك الحاضر في عزه قُبب تغوى بها قُبب
 جئت يا مصر و جاء معي تعب إن الهوى تعب
 و سهاد موجع قلته هارباً مني و لا هرب
 صرت نجم الحب أحصى إذا أحصيت في الظلمة الشهب
 قسماً بالمبدع سبياً يا حبيبي إنك السبب
 الحضارات هنا مهدها بعطاء المجد تصطبخب
 نقشت في الصخر أسفارها فإذا من صخر الكتب
 مصر يا شعباً جديدا غدٍ صوب وجه الشمس يقترب

٢٩٢. حنين بين مسلتين



كان تيوفيل جوتييه صحفي وأديب فرنسي يعشق مصر ويحلم أن يعيش علي شاطئ النيل وقد أورد اسمه الدكتور ثروت عكاشة في كتابه الرائع - مصر في عيون الغرباء - فكتب عنه تحت عنوان - الحالم المفتون بمصر فقال أنه لم يتح له أن يري مصر إلا قبل وفاته بثلاث سنوات عام ١٨٦٩ حين دعي ضمن من دعوا لزيارتها مع الإمبراطورة أوجيني إذ كان مراسلاً للجريدة الرسمية في فرنسا وقام بوصف أحداث احتفالات افتتاح قناة السويس في البلد الذي طالما عاش فيه بفكره وخياله من خلال قراءاته لكتابات أصدقائه من الأدباء والأثريين والفنانين

وكانت مصر مصدر فيض غزير لإنتاج جوتييه الروائي

وفي عام ١٨٥١ نشر جوتييه قصيدته - حنين بين مسلتين - مسلتي الأقصر وبإريس والقصيدة مترعة بالشوق الرومانسي ، وبحساسيته المرفهة ونزعته الرومانسية الشفافة نسج أنشودتين حزينتين علي لسان ناصبين ثمينين ، أحدهما المسلة المصرية المقامة ببإريس والأخري شقيقتها التي ما تزال قائمة أمام مدخل معبد الأقصر

فتمضي المسلة الأولى تنن في مهجرها وهي توازن بين المناخ القارص لسماء باريس وبين الدفء الممتع المحرك للعواطف في أحضان وادي النيل

فقد كانت تعيش محتفي بها في بيتها محاطة بأهلها وذويها وبمن يقدسونها فإذا هي تنزح إلي طقس قارص ، وينظر إليها المارة نظرة عابرة ، ويتطلعون إليها وكأنها من غرائب البيئات النائية وفيما يلي مقتطفات مختصرة من مطلع القصيدة المترجمة عن اللغة الفرنسية

كم يقسو علي الملل في هذا الميدان الموحش

أنا المسلة المنتزعة من جذورها

يرتعد جبيني الذي لوحه الصدا

وأخذ يتعاوره الجليد والصقيع والرياح والمطر

وفي هذا الجو الذي لا تشرق فيه الزرقة قط
تشحب رأسي الضامرة المدببة
التي صبغتها بالحمرة مواقد السماء النارية
ويثقلها الحنين الجارف للوطن

ليتني أعود ثانية لبلادي
وأنتصب من جديد إلي جانب شقيقتي الوردية اللون
علي مقربة من تمثالي ممنون العملاقين
الصارمي الوجه أمام بوابات الأقصر

فأخترق قبة السماء الزرقاء بقمتي الهرمية القرمزية
بينما ألقى ظلي علي الرمال
مسجلة عليها خطي الشمس

نقلًا باختصار عن كتاب - مصر في عيون الغرباء - من الرحالة والفنانين والأدباء - القرن التاسع عشر - المجلد الأول -
تأليف د ثروت عكاشة - دار الشروق - الطبعة الثانية ٢٠٠٣ - صفحات ٢٩١-٢٩٣

٢٩٣. تميز موقع القاهرة كعاصمة لمصر

القاهرة (الخاصة والعنق ، والقمة والرأس)

تحت هذا العنوان كتب د جمال حمدان بكتابه الممتع شخصية مصر ما يلي :

هكذا إذن ، إذا كان كل من الوادي والدلتا علي حدة تنقصه البؤرة والمركزية المحددة ، فإنهما فيما يخلقان مركزية حادة عند التقائهما في منطقة القاهرة ، فالواقع أن منطقة القاهرة هي خاصرة الوادي بكل معني ، فعدا العقديّة الهيدرولوجية الأساسية التي تأخذ -مع انفراد فرعي الدلتا- شكل حرف Y الأفرنجي ، هناك عدة أصابع ثانوية من اللاندسكيب الطبيعي تشير إليها بقوة ، لسان وادي الطميلات من الشرق ووادي النطرون من الشمال الغربي ، ووصلة شبه واحة الفيوم من الجنوب الغربي ، فإذا أضفنا أن الطرق الصحراوية بين الشرق والغرب علي طول السواحل الشمالية تنتهي جنوباً مستهدفة القاهرة لتتحاشي صعوبة اختراق الدلتا بشبكة ترعها المترصصة - - - ، إذا أضفنا هذا فإن القاهرة تبرز لنا كخاصرة الصحراء أيضاً مثلما هي خاصة الوادي ، إن كل الطرق تؤدي إلي القاهرة ، وإذا كان النيل يصب في مصر فإن مصر برمتها تصب في القاهرة منطقة القاهرة إذن عنق الزجاجاة ، عنق مصر ، هي من الناحية الهندسية البحتة مركز الثقل الطبيعي ، ومن الناحية الميكانيكية نقطة الارتكاز التي يستقطب حولها ذراعا القوة والمقاومة من شمال وجنوب ، ومن الناحية الحيوية نقطة التبلور ، ومن الناحية الوظيفية ضابط الإيقاع بين كفتي ، إنها تبدو حقاً -كما قال ريكلي- كما لو كانت موقعاً من اختيار الآلهة ، هذا من حيث الشكل ، ولكن المضمون لا يقل عن شكل الإقليم أثراً في التوجيه نحو المركزية ، فقد لا يكون موقع القاهرة متوسطاً من حيث المسافة المطلقة بين الشمال والجنوب ، بل لعله أبعد ما يكون عن التوسط ، ولكنه متوسط تماماً من حيث وزن المعمور الفعال ، فالصعيد أضعاف الدلتا طولاً ١٠٠٠ كم مقابل ١٧٠ كم ، ولكن الدلتا ضعفه مساحة ٢٢٧٩٠ كم^٢ مقابل ١٢٢٤٠ تقريباً بينما يتقارب الاثنان سكاناً بدرجة أو بأخرى - - - علي أساس أن هذه المقارنات تستبعد القاهرة من أي من الوجهين

والتي جانب هذا فإن نمط الكثافة وتوزيع السكان في مصر يجعل من القاهرة قمة طبيعية وتتويجاً لزحف سكاني صاعد نظيم يبدأ من أقصى شمال الدلتا وأقصى جنوب الصعيد علي السواء فبروفيل الكثاف في الوادي برمته كما رأينا أشبه بالهرم المدرج سقفه منطقة القاهرة ، والواقع أن دائرة نصف قطرها ٧٥ كم ومركزها القاهرة ، تضم وحدها ربع سكان القطر في ثمن مساحته فقط ، أي بكثافة هي ضعف المعدل القومي وذلك بحسب أرقام عام ١٩٧٤ ، بينما تشي أرقام ١٩٦٦ بمزيد من التركيز ففيها تضم الدائرة نفسها ٢٨.٣% من سكان مصر - - -

معني هذا أن هنا مركز الثقل البشري في الوادي ، - - - ولهذا كان طبيعياً أن توصف القاهرة بأنها زر ماسي يمسك مروحة الدلتا ويد الصعيد ، أو كما يقول ستامب من وجهة نظر مصر الحديثة ، ربما كانت القاهرة أكثر عواصم العالم منطقاً في توقيعتها وليس أدل علي هذه المركزية من البعد التاريخي ، فتوطن العاصمة في موقع ما لحقب طويلة يدل -يقيناً- علي قيمة خاصة لذلك الموقع

٢٩٤. إنهم يحترمون آثارنا الفرعونية

تحت هذا العنوان كتب الكاتب الصحفي عباس الطرابيلي في كتابه الممتع عجائب الأسفار ، وغرائب الأطباق ما ملخصه :

— — — ففي فرنسا وضعوا المسلة الفرعونية في أكبر وأفخم ميادين باريس : الكونكورد ، حيث تتوسط المسلة المنطقة بين حدائق التويلري الشهيرة وحيث نهر السين الذي يجذب السياح ،

وأيضاً حيث تري قوس النصر والشارع الأسطوري الشانزلزيه - وعلي مرمي البصر من مبني الجمعية الوطنية (البرلمان) ، وأمامها اثنان من أشهر فنادق باريس التاريخية ، وبالقرب منها قصر الإليزيه - مقر الحكم - ثم يتفرع من الميدان شارع ريفولي التجاري الشهير ، ، وهكذا ،

أي أن فرنسا -لأنها أم الفنون- أفسحت للمسلة الفرعونية من كل جانب حتي يراها كل الذين يرتادون أو يعبرون هذه الشوارع والمناطق الحيوية ، والأهم من ذلك أخلت كل ما حول المسلة حتي لا يلفت نظر الناس شئ غيرها ، أي حتي تنفرد المسلة بكل شئ وتراها الأعين من كل الاتجاهات وعلي أبعد مدي وتلك خصوصية لم يتمتع بمثلها أثر فرعوني آخر سواء داخل مصر أو خارجها ،

وفي لندن وضع الإنجليز المسلة علي أشهر أنهارهم التيمز - - - وقد حظيت المسلة المصرية بهذا المكان الرائع ، وكما فعل الفرنسيون فعل الإنجليز ، إذ شرحوا علي لوحات جدارية قصة المسلة وكيف تم نقلها من مصر إلي بريطانيا والحادث الذي تعرضت له وغرقت فيه إلخ ،

ولم يتوقف الإنجليز عند هذا الحد بل صنعوا قاعدة فنية نصبوا فوقها المسلة حتي ترتفع عن سطح الشارع ، ليس هذا فقط بل وضعوا تماثيل علي يمين المسلة وعلي يسارها علي شكل (أبو الهول) ويحرص مرشدو السفن السياحية التي تمر عبر باب نهر التيمز علي الإشارة للمسلة المصرية عند عبورهم لمنطقتها ،

ونفس الشئ مع المسلة المصرية في نيويورك وما تحظى به من اهتمام ورعاية ونظافة تفوق كل تصور ،

نقلاً باختصار عن كتاب - عجائب الأسفار ، وغرائب الأطباق - من أدب الرحلات والأكلات - عباس الطرابيلي - صفحة ١٨٦ ، ١٨٧ - مكتبة الأسرة ٢٠٠١ - الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٩٥ . ليلة صافية عند الأهرامات

- في كتابه الممتع - مصر في عيون الغرباء - كتب د ثروت عكاشة تحت عنوان عاشق مصر وآثارها - ببير لوتي - -
 - - ويقدم لنا ببير لوتي الأديب الفرنسي الكبير وأحد أساطين أدب الرحلات وعضو الأكاديمية الفرنسية كتابه الخالد -
 موت فيله -

بعد رحله قام بها إلي مصر عام ١٩٠٧ طاف خلالها ببلدانها المختلفة واستطاع أن يلمح بعينه الثاقبة الطابع الفرعوني والمسيحي والإسلامي لمصر ويتذوقه ، ذلك الطابع الذي يجعلها فريدة بين أمم العالم ، لها نكهتها الخاصة وشخصيتها المميزة ، وقد أهدي كتابه هذا إلي ذكرى صديقه النبيل مصطفى كامل باشا الذي قضى نحبه عام ١٩٠٨
 - - والكتاب بعد ذلك لا يحوي تحليلاً علمياً أو اجتماعياً بل هو مجرد انطباعات أديب لمارح يملك أن يرسم بقلمه مختلف الألوان في بهجة تجذب القلوب وتشد العقول - - - ، وتهزه أهرامات الجيزة وأبو الهول ذات ليلة فيشدو متغنياً :
 ليلة صافية رهيفة الشفافية تومض بألوان لا ينبض بها مناخنا ، تغشي موقعاً سحرياً يكتنفه الغموض
 يتوهج القمر فيها بلونه الفضي فيحرك فينا الانبهار ، ويضئ عالماً لم يعد من عالمنا ، بعيد الشبه عن كل ما وقعت عليه عيوننا من قبل ، عالماً يتخذ نمطاً واحداً في ورديته تحت وميض نجوم منتصف الليل ،
 تنتصب فيه رموز عملاقة كالأطراف ، أتراها هضبة انبثقت أمامنا من بين الرمال ، أم تراها موجة عارمة أحالها الزمن سحابة وردية فسيحة دفع بها لتستقر ساكنة في هذا المكان إلي الأبد وقد توسطها شبح آدمي جبار وردي اللون هو الآخر ، ولكن وردية خاصة عصية تتراعي وتتواري ؟ أي روعة هذه ، أتراها روعة متخيلة هي انعكاسات إشعاعات يوجهها القمر إلي وجه أبي الهول من عاكسات ضوء خفية تكشف بهاءه ؟

ومن وراء هذا الوجه الرهيب وفوق قمم الكثبان الرملية غير المحدودة تنبثق صوب السماء ثلاث علامات وردية مذهلة منتظمة الخطوط الهندسية ولكنها تبدو عن بعد ضخمة تثير الرهبة حتي توهمناها ذاتها مضيئة إذ تتجلي ورديتها شاحبة وسط زرقة الفراغ المحشود بالنجوم - -

علي أن استحالة هذا الإشعاع الذاتي يزيدها هيبة ويضفي عليها مزيداً من جلال
 نقلاً باختصار عن كتاب - مصر في عيون الغرباء - من الرحالة والفنانين والأدباء - القرن التاسع عشر - المجلد الأول
 - تأليف د ثروت عكاشة - دار الشروق - الطبعة الثانية ٢٠٠٣ - صفحات ٣٣٥-٣٣٧

٢٩٦. جان ليون جيروم - الفنان عاشق مصر



كان الرسام والنحات الفرنسي المشهور جان ليون جيروم Jean-Léon Gérôme

١٨٢٤-١٩٠٤م من أشهر الفنانين المستشرقين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ،

زار مصر عام ١٨٥٤ ، وطاف بالعديد من بلدان الشرق الأدنى

إلا أن مصر ظلت هي معشوقته الأثيرة

وأمضي أكثر من شتاء في ذهبية علي النيل بالقاهرة يدرس بعناية شديدة المباني الإسلامية ومحتوياتها ، ويفتش بعيون

كاتب الحوليات وعالم الآثار عن مشاهد الحياة اليومية المصرية والأحداث التاريخية - -

حتى أذهل معاصريه باتساع الموضوعات التي تناولها - -

ولمدة ثلاثين سنة احتلت لوحات جيروم مكان الصدارة في معارض صالون باريس سواء تصاوير القصص والشخصيات

التاريخية

نقلًا عن كتاب - مصر في عيون الغرباء - من الرحالة والفنانين والأدباء- القرن التاسع عشر- المجلد الثاني -

تأليف د ثروت عكاشة - دار الشروق - الطبعة الثانية ٢٠٠٣ صفحة ١٨١

٢٩٧. مشاهد من مصر بريشة فنان بريطاني



كان العديد من الرحالة الذين زاروا الشرق الأدنى بكثرة قرب نهاية القرن الثامن عشر علي مستوي عالي من الكفاية الفنية ،

فقد كان معظم أثرياء الإنجليز قبل اختراع التصوير الفوتوغرافي من هواة الرسم ،
ومن لم يكن يجيد التصوير منهم اصطحب معه في رحلته رساماً
وقد قام الفنان البريطاني لويجي مايير

Luigi Mayer

برسم ثلاثة عشر لوحة عن مصر في الفترة من سنة ١٨٠١م إلي سنة ١٨١٠م
وكانت أبرز هذه اللوحات لوحة مقياس النيل ولوحات الأهرامات والنيل

نقلًا عن كتاب - مصر في عيون الغرباء -المجلد الثاني - تأليف د ثروت عكاشة - دار الشروق - الطبعة الثانية

٢٠٠٣ صفحة ٢٥٥

٢٩٨ . كيف كان يحتفل المصريون بوفاء النيل

في كتابه الممتع صفحات من تاريخ مصر كتب الأديب الكبير يحيى حقي ترجمة مقال للمستشرق الفرنسي جاستون فييت Gaston Wiet تحت عنوان الأعياد والألعاب في القاهرة ،
فيما يلي مقتطفات مختصرة من المقال :

إن أوفي وصف لأعياد وفاء النيل في القاهرة نجده عند الجغرافي ليون الأفريقي المولود سنة ٤٨٣م بعد أن زار مصر سنة ١٥١٧م قال :

في بدء الأيام التي يغمر فيها النيل أرض مصر يقام في القاهرة عيد كبير وتعلو فيه الضجة وأنغام الموسيقى - تستقل كل أسرة قارباً تزينه بأغلي الأقمشة وأجمل السجاجيد وتحمل معها أطيب الطعام والحلوي وشموعاً غاية في اللطف والبهاء الناس كلهم في القوارب يلتمس كل منهم لهوه حسب طاقته ، ويشارك السلطان نفسه في الاحتفال بهذا العيد يصحبه أعوانه فيأخذ طريقه إلي خليج في النيل يسمى بالخليج الكبير حيث موقع السد

ويتناول السلطان فأساً ويشرع بضرب جدار السد ثم يحذو حذوه كبار رجال حاشيته حتي ينهدم جانب الجدار الذي يحبس الماء عن الجريان ، فلا يكاد الجدار ينهدم حتي يتدفق النيل في الخليج وهو يهدر بعنف ، ثم ينصب من هناك إلي الخلجان الأخرى في المدينة المحمية بسورها ، فيتاح التنقل بالقوارب بين مساكن مصر ونواحيها كلها ، وهكذا فإن ثمرة ما ربحه التاجر أو الصانع خلال العام كله ينفقه في هذا الأسبوع علي الطعام والحلوي والشموع والعطور واستخدام محترفي الغناء والموسيقي ، وهذا العيد بعث لأعياد كانت عند قدماء المصريين ،

وهكذا ما إن يعلن عن وفاء النيل حتي يحتشد له أغلب سكان القاهرة وينصبوا خياماً لهم علي الشاطئ وفي جزر النهر ولا يتخلف عن الجمع أحد من المطربين وعازفي الموسيقى ، ومحترفي الألعاب ، وأصحاب أماكن اللهو تحف بهم جموع من شباب صاخب ، كلهم بلا استثناء يشاركون في بهجة العيد وينفقون أموالاً لا حصر لها ، ويورد الرحالة كارلبيه دي مبتون ١٥٧٩م مزيداً من التفاصيل فيقول :

إن الناس تخرج في هذا العيد إلي الشوارع يلتمسون ما يتاح لهم من اللهو ، والجانب الشيق عندنا في هذا الاحتفال الذي يقام في الخلاء هو امتداده أيضاً إلي الليل ، فتقام زينة من الأنوار بهية لم يفت المؤلفات العربية وصفها ، وبقي الاحتفال بهذا العيد من التقاليد المرعية وبلغ التألق في زينته أقصى غايته فكانت الفوانيس ترتب بحيث يخلل لرائيها إنه إزاء قلاع أو قصور ،

ويمدنا الرحالة كويان ١٦٣٨م بتفاصيل شيقة عن هذا العيد فيقول :

إن الكثير من الناس تتجمع في سطح الماء أو علي الشواطئ أو حتي داخل المساكن يعلق علي واجهاتها فوانيس عديدة حتي تصبح كأنها بساط من النور ، يربط هذه الفوانيس حبال رقيقة علي الجدران طولاً وعرضاً وفق نسق جميل ، لكل واجهة زينتها الخاصة ، وتبقي الفوانيس مضاءة طول الليل ولا تنطفئ

وعلي الجانب الآخر من النيل يتراعي للناس مركبان من أكبر المراكب التي تشق النيل ويعلو فوق هذين المركبين هرم خشبي ثبتت عليه الفوانيس متقاربه تبدل أماكنها صعوداً وهبوطاً أو في حركة دائرية ويتم ذلك في سرعة مذهلة منظر يبهج العيون ، ولا يتأتى لأحد أن يلحظ كيف يتم هذا التبدل والدوران ، ولا شك أن هذه الفوانيس موصولة بعجلات يحركها رجال من خلف الهرم الخشبي ، فتبعث السرور في القلوب

نقلًا عن كتاب صفحات من تاريخ مصر - يحيى حقي - طبعة ٢٠٠٨ - نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - مقتطفات مختصرة من صفحة ٨٧ وما بعدها

٢٩٩. الأزبكية

لقد أبدع المؤرخون والرحالة والشعراء في وصف بركة الأزبكية ، فقال عنها الأديب والرحالة الفرنسي سافاري C.E.Savary وقد شهد بها احتفالات كسر الخليج إبان زيارته لمصر عام ١٧٧٦ واستقر بها ثلاث سنوات ، (كان أكثر الازدحام بطبيعة الحال عند الأزبكية وهي أوسع مناطق المدينة ويبلغ محيطها أكثر من نصف فرسخ وتكون بحيرة رحبة محاطة بقصور البكوات وهي أجمل بيوت المدينة ، وتضاء بأنوار مختلفة الألوان وتسبح فوقها آلاف من المراكب ذات سوار تتدلي منها المصابيح المضيئة ، مكونة هالة من أضواء متحركة تتغير مشاهدتها كل لحظة ، وتنسب الأزبكية إلي الأمير سيف الدين أزبك بن ططغ الأشرفي الظاهري الذي كان يقطن بالقرب من هذه المنطقة ، فأراد أن ينشئ مناخاً لخيوله وجماله ، فمهد ما كان بها من كيما ، وحفر بها البركة المنسوبة إليه وأجري إليها الماء من الخليج الناصري ، وجدد عمارة قنطرة خليج الذكر وبلغ ما أنفقه مائتي ألف دينار وشيد بها جامعاً (بالقرب من مدخل شارع الأزهر حالياً) بالإضافة إلي عدد من القصور والربوع والقياسر والحمامات والحوانيت حتي صارت مدينة علي انفرادها كما قال المؤرخ العلامة ابن اياس ، وذكر علي باشا مبارك أن مساحة البركة كانت ستين فداناً

كما أشار الكاتب والرحالة دي تيفينو الذي زار القاهرة عام ١٦٥٦ وتحدث عن مشاهداته القاهرية في كتابه (رحلات في أوروبا وآسيا وأفريقيا) فبالقرب من الطريق المؤدية إلي بولاق استرعي انتباهه حي أسماء لزبكية يقصد الأزبكية وقال إن الماء يبقي فيه نحو أربعة أو خمسة أشهر كل عام ، وشيدت حول البركة قصور رائعة الجمال للبكوات وأمرأ البلاد ليمكثوا بها بضعة أيام من حين إلي آخر ، طلباً للراحة والاستجمام وقد أشار المؤرخ العظيم الجبرتي إلي شهرة الأزبكية كمركز للتنزه والملذات والمتع الليلية في وقت الفيضان ، كما أنها كانت منطقة جذب للطبقة البرجوازية من الأمراء والبكوات وكبار التجار والأعيان ، ومن أشهر القصور والدور التي كانت تشرف علي بركة الأزبكية دار السيد إبراهيم بن سعودي وكانت دار عظيمة عني بتشبيدها ثم آلت إلي الأمير محمد بك الألفي سنة ١٧٩٦ فهدمها وتغالي في إعادة بنائها ولم يسكن بها سوي أيام حتي اغتصبها الفرنسيون وأقام بها نابليون واتخذها مقراً لقيادة الحملة ، أيضاً من الدور الشهيرة التي أوردتها الجبرتي دار الشيخ عبد الله الشبراوي والسيد الدمرداش - - - كذلك شيد علي بك الكبير سنة ١٧٧٠ قصراً لزوجه الست نفيسة ، وقصر رضوان بك ، والدار العظيمة للست خاتون زوجة مراد بك وكانت ذات ثراء وعز وسيادة وكلمة نافذة وعلي الحافة كانت دور الشربيني قال عنها الجبرتي : إحدى دور المجد ، ألحقت بها مكتبة قيمة حافلة وكان مسموحاً فيها بالإطلاع والاستعارة خارجها ، ثم انتقلت ملكيتها للأمير رضوان كتحدا الجلفي فأدخل عليها كثيراً من التعديلات ووسع حدائقها وأباحها للنزهة ، - - - وعند الشروع في عملية تنظيم ميدان العتبة وفتح شارع محمد علي (القلعة) هدم جامع أزبك وكثير من البيوت والزوايا والحمامات والربوع والحوانيت وردمت البركة عام ١٨٦٤ بعد أكثر من أربعة قرون من حفرها ، وشيدت حديقة الأزبكية وأقيمت بها الجبلية الصناعية وزرعت بها الأشجار النادرة ، أشرف علي تصميم الحديقة وتنفيذها المهندس باريل بك وهو الذي نظم حدائق الأورمان ، وصمم سراي الجزيرة ، وأنشئ بالحديقة مسرح كوميدى في سنة ١٨٦٩ أنشئت دار الأوبرا الخديوية وكانت مساحة الحديقة نحو ٢١ فدان

وفي ٢٧ إبريل سنة ١٩٥٤ امتد شارع ٢٦ يوليو ليخترق الحديقة ويقسمها إلي شطرين وفتحت أبوابها لجمهور الشعب ، وأقيم بها مسرح للعرائس ومسرح ٢٦ يوليو ، أما مسرح الأزبكية (المسرح القومي) فقد كان موجوداً من قبل ، وكانت تديره شركة مصر للتمثيل والسينما إحدى شركات بنك مصر ، وكان بجوار المسرح داخل الحديقة مكان يستخدم سينما في الهواء الطلق صيفاً وللباتيناج شتاءً

نقلاً باختصار عن كتاب - القاهرة رحلة في المكان والزمان - تأليف عرفه عبده علي -تقديم الأديب الكبير جمال الغيطاني - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

٣٠٠. الذوق مخرجش من مصر و لكنه مات حزينا علي بابها (بوابة الفتوح)

قبة خضراء صغيرة اعتلاها هلال ذهبي اللون اتخذت مكانها في ركن ضيق بحيث يمكن رؤيتها فور الدخول أو الخروج من بوابة الفتوح التي تعد مدخل لشارع المعز لدين الله و كلمات سطرت بالأسود أعلى الباب الخشبي المتخذ طريقه أسفل تلك القبة "ضريح العارف بالله سيدي الذوق". "لعلك سمعت يوماً تلك المقولة " الذوق مخرجش من مصر " و أخذك المعنى القريب إلى "الذوق و الحس و فنون الإتيكيت الشعبي" و ما تربينا عليه من موروثة ثقافية طيبة إلا أن الكثير لا يعرف أن " الذوق " لم يطاوعه قلبه للخروج من مصر و فارق الحياة قبل أن يخرج من "بوابة الفتوح " غاضبا و أسفا على حال مصر.

في وقت قديم ربما يعود لعهد الدولة المملوكية كان يعيش رجل عُرف بصلاحه و رجاحة عقله ارتضاه رجال "المحروسة" حاكماً يفض ما نزع بينهم من مشاحنات و كان اسمه "حسن الذوق" عاش "حسن" سنوات في الحي القديم بجوار الأزهر الشريف و مسجد "الحسين" يمارس مهنته في التجارة و يقضي بين الناس بالعدل و الإنصاف. و ذات مرة نشبت منازعة بين "فتوات المحروسة" و فشل "حسن" في الصلح بين المتخاصمين و وصل الأمر إلى " الحاكم " في ذلك الوقت فتم وضع الفتوات في السجون بدلاً من أن يتم التراضي بين المتخاصمين فأحس "حسن" بأن حكمته بدأت تتهاوى و حزن على ما وصل إليه حال "المحروسة" و قرر أن يخرج منها لا يعلم حتى إلى أين وجهته. قلب "سيدي حسن الذوق" لم يتحمل فراق "المحروسة" و على بعد بضع خطوات من "بوابة الفتوح سقط ميتا و حزن الناس عليه و قرروا أن يدفنوه حيث وقع و بالفعل دفنوه خلف الردف الخشبي لـ "بوابة الفتوح - حيث كانت الجيوش تخرج للقتال" ' و دهنوا مقامه بذلك اللون الأخضر.

٣٠١. علي باشا مبارك يصف جامع وقبة السلطان الأشرف قنصوة الغوري

من كتاب الخطط التوفيقية - الجزء الثاني - صفحة ٢٤ ، ٢٥

ويوسط هذا الشارع جامع الغوري المشهور يصعد إليه بدرج علي يمين المار من الغورية طالباً باب زويلة أنشأه السلطان قانصوة الغوري مدرسة تشتمل علي إيوانين كبيرين وآخرين صغيرين ومنبر من الخشب النقي بديع الصنعة يقصده السياحون للفرجة ويقال أن بها طلسماً لمنع الذباب أن يدخلها ولها منارة عظيمة مرتفعة وأنشأ في مقابلتها خانقاه ومكتباً وسبيلاً ومدفناً عليه قبة ووقف علي جميع ذلك أوقافاً كثيرة وذلك في سنة إحدى عشر وتسعمائة وهي عامرة إلي الآن وشعائرها مقامة من ريع أوقافها بنظر الديوان ، وذكر ابن سنبل أنه كان محلها مسجد متخرب وكان في مقابلته مسجداً آخر متخرب أيضاً وأراد أحد الطواشية أن يحدد أحدهما فمنعه السلطان الغوري وبني مدرسته هذه وقبة المدفن والسبيل في محلها انتهى ، وقيل أن هذه القبة بناها الملك الغوري للآثار النبوية التي منها مصحف بخط أمير المؤمنين عثمان بن عفان قيل أنه هو الذي كان أمامه لما قتل وعليه دمه قال الشيخ حسن بن حسين المعروف بابن الطولوني الحنفي المولود سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة في كتابه النزهة السنية في أخبار الخلفاء والملوك المصرية عند ذكر الملك الأشرف أبي النصر قانصوة الغوري وقد جدد مولانا السلطان عز نصره للمصنف العثماني الذي بمصر المحروسة بخط مشهد الحسين جلداً بعد أن آل جلده الواقعي له من التلف والعدم ولمكته من زمن السيد عثمان إلي يومنا هذا فألهم الله تعالى مولانا المقام الشريف خلد الله ملكه بطلبه إلي حضرته بالقلعة الشريفة ، ورسم بعمل الجلد المعظم المتناهي في عمله لاكتساب أجره وثوابه وأن يعمل له وقاية من الخشب المنقوش بالذهب والفضة وأنواع التحسين وبرز أمره الشريف بعمارة قبة معظمة تجاه المدرسة التي أنشأها بخط الشرايشيين بسوق الجمالون وسوق الخشبية بمباشرة الجنب العالي الأميري الفاضلي السيفي ثاني بيك الخازندار وناظر الحسبة الشريفة وما مع ذلك وأن تكون القبة المعظمة المأمور بعملها إن شاء الله تعالى منازرة في الحسن والاتقان لما سبق كما رتبها بنظره الشريف ليكون فيها ما خصه الله تعالى به من تعظيمها بالمصنف العثماني والآثار الشريفة النبوية وغير ذلك من مصاحف وربعات انتهى ، وهذه القبة موجودة إلي الآن وتعرف بمدفن الغوري وقد حصل بها بعض تشعيث وتخريب وبقيت كذلك مدة إلي أن جعل محمود باشا الشهير بالبارودي ناظراً علي الأوقاف فشرع في ترميمها وكلف مهندسي الأوقاف بعمل رسم لذلك حتي ترجع كأصلها بلا زيادة ولا نقص فاهتموا في ذلك وعملوا الرسم وقرروا بشراء الدكاكين المزاحمة لبابها المشرف علي الشارع ثم شرعوا في العمل فجددوا سقف الإيوان وعملت القبة من البغدادلي والشبابيك من الخشب عوضاً عن الشبابيك الجبس لأن أغلبها كان قد تهدم ووقع وعماً قريب تتم إن شاء الله تعالى ،

وقد دخلت هذا المدفن وطففت بأطرافه فوجدته محكم البناء جميعه بالحجر الآلة وسمك حيطانه يقرب من مترين ونصف وقبته شامخة الارتفاع وأبوابها ملبسة بالنحاس علي أشكال متنوعة يتكون من مجموعها شكل لطيف ، ووجدت هناك باباً لليوان ينزل منه إلي حوش سماوي به عند الضلع القبلي قبر السلطان طومان باي الذي شنقه السلطان سليم بعد استيلائه علي مصر وتمهيد أمورها ، ويشاع علي ألسنة الناس أنه كان هناك مقعد لجلوس السلطان الغوري به في بعض الأوقات - - -

وهذا الشارع اليوم من أعظم شوارع القاهرة وأبهجها وهو عامر دائماً وبه الخانات والحوانيت والوكائل المشحونة بالبضائع من أنواع الأقمشة الحرير وغير ذلك وبأعلاها مساكن

٣٠٢. علي باشا مبارك يوضح سبب بناء سبيل محمد علي الموجود بناصية حارة

الروم بالغورية

من كتاب الخطط التوفيقية - الجزء الثاني - صفحة ٢٨ ، ٢٩

ثم بعد مسافة صغيرة يجد باب حارة الروم بجوار سبيل الباشا المعروف بسبيل العقادين أنشأه العزيز محمد علي باشا سنة ست وثلاثين ومائتين وألف علي روح ابنه طوسون باشا وهو سبيل كبير مبني بالرخام وفوقه مكتب جعل مدرسة لتعليم الأطفال القرآن والخط والنحو والرياضة والألسن ولهم خدمة وخوجات وامتحان سنوي مثل المدارس الملكية والصرف عليه من جهة ديوان الأوقاف العمومية كغيره من باقي المكاتب الأهلية ،

وطوسون باشا المذكور هو كما في الجبرتي المقر الكريم المخدم أحمد باشا الشهير بطوسون ابن حضرة الوزير محمد علي باشا مالك الأقاليم المصرية والأقطار الحجازية والثغور وما أضيف إليها ، سافر المترجم إلي البلاد الحجازية وحارب الوهابية فكانت النصر له ولما عاد إلي مصر أراد أن يسافر إلي جهة رشيد فأخذ العساكر وسافر إلي جهة الحماد وجعل عرضي خيامه هناك ، وصار ينتقل من العرضي إلي رشيد ثم إلي برنبال وأبي منصور والعزب وكان صحبتته من مصر أرياب الآلات المطرية المغنين وهم إبراهيم الوراق والحبابي وقشوة ومن يصحبهم من باقي رفقاءهم ثم ذهب ببعض خواصه إلي رشيد ومعه الجماعة المذكورون فأقام أياماً وحضر إليه من جهة الروم جوار وغلتمان قاصون فانتقل بهم إلي قصر برنبال

ففي ليلة حلوله بها نزل به ما نزل من المقدور فتمرض بالطاعون وتلمل به نحو العشر ساعات وانقضي نحيبه وذلك ليلة الأحد سابع شهر القعدة سنة احدى وثلاثين ومائتين وألف وحضر خليل أفندي قوللي حاكم رشيد وعندما خرجت روحه انتفخ جسمه وتغير لونه فغسلوه وكفنوه ووضعوه في صندوق ووصلوا به في السفينة منتصف ليلة الأربعاء عاشره وكان والده بالجيزة فلم يتجاسروا علي إخباره فذهب إليه أحمد أغا أخو كتحدا بيك فلما علم بوصوله ليلاً استنكر حضوره في ذلك الوقت فأخبره عنه أنه ورد إلي شبرا متوعكاً فركب في الحين الفتحة وانحدر إلي شبرا وطلع إلي القصر وصار يمر بالمخادع ويقول أين هو فلم يتجاسر أحد أن يخبره بموته وكانوا ذهبوا به وهو في السفينة إلي بولاق ورسوا به عند الترسانة وأقبل كتحدا بيك علي الباشا فرآه يبكي فانزعج انزعاجاً شديداً ونزل السفينة فأتي بولاق آخر الليل وانطلقت الرسل لإخبار الأعيان فركبوا بأجمعهم إلي بولاق وحضر القاضي والأشياخ والسيد المحروقي ثم نصبوا تظلاً سائراً علي السفينة وأخرجوا الناروس ونصبوا عوداً عند رأسه وضعوا عليه تاج الوزارة المسمي بالطلخان وانجروا بالجنائز من غير ترتيب والجميع مشاه أمامه وخلفه وليس فيها من جوقات الجنائز المعتادة كالفقهاء وأولاد المكاتب والأحزاب شئ ، من ساحل بولاق علي طريق المدابغ وباب الخرق علي الدرب الأحمر علي التبانة إلي الرميطة فصلوا عليه بمصلي المؤمنين وذهبوا به إلي المدفن الذي أعده الباشا لنفسه ولموتاه كل هذه المسافة ووالده خلف نعشه ينظر إليه ويبكي

ومع الجنائز أربعة حمير تحمل القروش وربيعات الذهب ودرهم أنصاف عديدة ينثرون منها علي الأرض وساقوا أمام الجنائز ستة رؤوس من الجواميس الكبار وأخرجوا لاسقاط صلاته خمسة وأربعين كيساً تناولها فقراء الأزهر ،

ولما وصلوا إلي المدفن هدموا التربة وأنزلوه فيها بتابوته الخشب لتعسر إخراجها منه بسبب انتفاخه وتهريه حتي أنهم كانوا يطلقون حول تابوته البخور والرائحة غالبية علي ذلك ، وامتنع الناس بالأمر عليهم من عمل الأفراح ودق الطبول ونوبة الباشا واسماعيل باشا وظاهر باشا ، وأقاموا عليه العزاء عند القبر مدة أربعين يوماً ومات وهو مقبل الشبيبة لم يبلغ العشرين وكان أبيض جسيماً بطلاً شجاعاً جواد له ميل لأولاد العرب منقاداً لملة الإسلام وكان يعترض علي أبيه في أفعاله تخافه العسكر وتهابه رحمه الله تعالى

٣٠٣. علي باشا مبارك يصف منطقة بين القصرين بشارع المعز كما كانت في عصره بالخطط التوفيقية

من كتاب الخطط التوفيقية تأليف علي باشا مبارك - الجزء الثاني صفحة ١٣، ١٤

المدرسة البرقوقية التي أنشأها الملك الظاهر برقوق سنة ست وثمانين وسبعمائة وهي عامرة للآن وتعرف بجامع البرقوقية ، ثم المدرسة الناصرية التي ابتدأ في عمارتها الملك العادل ولما عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى محكمة مصر أتمها سنة ثلاث وسبعمائة وهي عامرة لليوم وتعرف بجامع الناصرية وبداخلها سبيل متخرب ، ثم المدرسة المنصورية التي داخل باب البيمارستان أنشأها هي والقبّة التي تجاهها والبيمارستان الملك المنصور قلاوون قبل سنة تسعين وستمائة وهي عامرة لليوم وتعرف بجامع قلاوون وجامع البيمارستان وفي زمن دخول الفرنسيّة ديار مصر وجدوا بهذا الجامع مسلتين مجعولتين أعتاباً فأخرجوهما وأرسلوهما إلى باريز تحت مملكتهم مع أشياء أخر ، فقابل المركب في الطريق مركب إنجليزي فاستولي علي جميع ما في المركب وللآن المسلتان يوجدان في خزانة الآثار بمدينة لوندرة تحت مملكة الإنجليز ومما حرره الفرنسيّة في خططهم لديار مصر يعلم أن طول كل من الاثنين متران وستة أعشار متر وارتفاع القاعدة أربعة أعشار متر وثلاثة أعشار عشر المتر وهما من الحجر الصوان المصقول وعليهما كتابة قديمة ، وبعد جامع قلاوون حمام قلاوون ويعرف بحمام النحاسين ثم باب الصاغة التي تجاه حارة الصالحية وهذا وصف جهة اليمين ،

وأما جهة اليسار فبأولها درب قرمز وهو كبير غير نافذ وبأوله زاوية جديدة لم يكمل بناؤها ، ثم التكية المعروفة بتكية درب قرمز بداخلها أشجار ومبان جديدة وبجوارها ضريح الشيخ سنان ، ثم المدرسة السابقة التي أنشأها سابق الدين مثقال الأنوكي سنة ستين وسبعمائة وهي متخربة وتعرف بجامع درب قرمز وبهذا الدرب عدة دور كبيرة منها دار ملك ورثة السيد أحمد سعودي وأخيه السيد محمد سعودي ودار السيد أحمد أفندي خربوطلي بن أحمد أفندي خربوطلي عمدة خان الخليلى كان ، ثم حارة بيت القاضي وتعرف أيضاً بحارة القبوة بها بيت الشيخ عبد الهادي الدنف مفتي الضبطية سابقاً ، وبيت المعلم عشري الحريري ، ثم وكالة تعرف بوكالة خان اللونة ، بأعلاها مساكن وهي معدة لبيع الدهنات وغيرها ، وبأول هذه الحارة من جهة الشارع قبر تقول العامة قبر سيدي الأربعين وغالباً هو قبر سيدي الشريف المجذوب الذي ذكر الشعراني أنه دفن تجاه المارستان ،

ثم سبيل يعرف بسبيل النحاسين أنشأه العزيز محمد علي وأنشأ فوقه مكتبا ، وجعل ذلك صدقة علي روح ابنه اسماعيل باشا بعد أن مات محروقاً ببلاد السودان ، ثم شارع بيت القاضي الجديد الذي فتح بعد سنة تسعين ومائتين وألف وكان في محل رأس هذا الشارع المدرسة الظاهرية التي أنشأها الملك الظاهر بيبرس البندقداري سنة اثنتين وستين وستمائه فلما فتح هذا الشارع زالت هذه المدرسة ، ثم القبّة الصالحية وبلصفها المدرسة الصالحية ثم حارة الصالحية التي هي آخر الشارع وبهذا الشارع الآن عدة دكاكين من الجانبين لبيع النحاس الجديد وينصب به سوق كل أسبوع مرتين يباع فيه النحاس القديم ، فمن أجل ذلك عرف بشارع النحاسين وفي الأزمان القديمة كان يعرف بخط بين القصرين ، قال المقرئ وكان خط بين القصرين أعمر أخطاط القاهرة

٣٠٤. أكذوبة الاستبداد الشرقي

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ جمال بدوي في كتابه الممتع (في محراب الفكر) ما ملخصه :

هل صحيح أن الطغيان داء شرقي متوطن مثل البلهارسيا والانكلستوما ، وأن شعوب الشرق علي خلاف الشعوب الأوروبية يتقبلون الطغيان بدون شكوي أو تدمير لأنهم - في رأي أرسطو - مهينون بطبيعتهم لأن يكونوا عبيداً ، وأن الرق بالنسبة لهم نافع بقدر ما هو عادل ، إن هذه المقولات التي أطلقها أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد جرت مجري الحقيقة المؤكدة لدي فلاسفة الفكر السياسي حتي مشارف العصر الحديث والأعجب أن تري أصداؤها علي ألسنة مفكري الديمقراطية المحدثين مثل مونتسكيو الذي انتهى إلي أن الاستبداد نظام طبيعي بالنسبة للشرق لكنه غريب وخطر علي الغرب ، وأن الحكومة المعتدلة هي أصلح ما يكون للعالم المسيحي الغربي بينما الحكومة المستبدة هي أصلح ما يكون للعالم الإسلامي ، وبذلك انشطر العالم في نظر فلاسفة الغرب إلي قسمين ، قسم شرقي مهياً بحكم طبيعته لأن يحكم حكماً استبدادياً لأنه في مرتبة الحيوانات أو العبيد ، وقسم غربي له أنظمة سياسية خاصة تجعل طبيعة الاستبداد أمراً صعباً ، فإلي أي مدي يمكن قبول هذه الأقوال التي انتقلت إلينا عبر المؤثرات الثقافية التي جعلت منها مسلمات لا تقبل النقض أو النقد واستقبلتها تربتنا العقلية عن رضا دون إدراك لمخاطرها علي وجودنا الإنساني وما تزرعه في نفوسنا من يأس وإحباط واستسلام إلي الواقع واعتبار الاستبداد قدراً مقدوراً لا فكاك منه شأن العلل الوراثية

نحن الشرقيين لا ننكر أن مجتمعاتنا القديمة عانت في بعض مراحلها التاريخية من حكم الطغيان ولكن من قال إن الشعوب الأوروبية في عهدها القديمة والوسيط والحديثة أيضاً لم تتعرض لحكم الطغيان ؟ ولم تعان من القهر والاستبداد مثلما عانينا ؟ إن الحقيقة العلمية والتاريخية تشهد بأن الطغيان داء إنساني يفرض نفسه عندما تنهيا له ظروف تاريخية معينة ، مثل الأنفلونزا تصيب الإنسان إذا تعرض لتيارات الهواء بصرف النظر عن كونه مصرياً أو ألمانياً أو استرالياً وليس من الشعوب الشرقية (المتخلفة) وأن تبرأ منه الشعوب البيضاء الحقائق العلمية في شئ أن يكون الطغيان حكراً علي (المتحضرة) لأن الحضارة الغربية في قمة ازدهارها لم تمنع ظهور أشد طغاة العصر الحديث من أمثال هتلر وموسيليني وستالين وسالازار ، ولكنها النظرة العنصرية الخبيثة التي صاغت الفكر الأوروبي منذ عصر أفلاطون وأرسطو حتي عصر هيجل وماركس

نعم نحن نعترف بأن الطغيان في الشرق أقدم منه في الغرب لسبب تاريخي لا دخل لنا فيه وهو أن الشرق أقدم وأعرق وأسبق

ففي مصر قامت أول حكومة مركزية في التاريخ بينما كانت الجزر اليونانية في طور الطفولة فكان من الطبيعي أن تعرف مصر الأنظمة السياسية وأن تتحرف هذه الأنظمة إلي ممارسة الطغيان ، فلما بلغت المدن اليونانية مرحلة البلوغ والنضج تطورت أنظمتها السياسية وسري عليها ما سري علي دول الشرق ، وعرفت اليونان الطغيان مثلما عرفته مصر ظهر فيها ما يعرف في التاريخ باسم عصر طغاة الإغريق الذي يبدأ باعتلاء الطاغية كبسليوس عرش مدينة كورنثة عام ٦٥٠ قبل الميلاد وخلال قرن ونصف قرن من الزمان اكتوت المدن اليونانية بنار نخبة من عتاة الطغاة ، بل إن فقهاء اللغة يعودون بلفظ طاغية إلي جذور إغريقية - - ومعني ذلك أن اليونان التي تزدهر علي العالم بأنها مهد الديمقراطية لم تسلم من جحيم الطغيان شأنها في ذلك شأن مصر وغيرها من بلاد الحضارات القديمة وظهر فيها جيل من الطغاة قبل ثلاثة قرون من ظهور أرسطو الذي دفعه التعصب العنصري إلي جعل الطغيان صناعة شرقية بحتة ، وسار علي دربه المؤرخون الذين كتبوا عن الإسكندر الأكبر تلميذ أرسطو فقالوا إنه لم يكتسب صفة الطغيان إلا بعد أن جاء الشرق فوضع الطغيان من منابعه الأصلية وزعموا أن الفاتح المقدوني ظل يتمادي في طغيانه حتي جعل من نفسه إلهاً متأثراً بفكرة تأليه الحاكم في مصر

ونسى هؤلاء المؤرخون أن فكرة تأليه الاسكندر نشأت معه منذ ولادته وأن أمه أوليمبياس غرست في عقله أنه ليس ابن فيليب المقدوني ولكنه ابن الإله زيوس كبير آلهة اليونان ، فلما جاء الإسكندر إلي مصر فاتحاً وقع في حبال كهنة آمون الذين خدعوه وأفهموه أنه ابن الإله آمون - - -

الدكتور جمال حمدان في كتابه الجليل شخصية مصر في البداية لم ينكر أن الطغيان أو الاستبداد هو النغمة الحزينة في تاريخ مصر وأسوأ خط في دراما الشعب المصري ولكنه لا يلبث أن يتساءل هل هذا يعبر عن حقيقة شخصية مصر الاجتماعية الكامنة ؟ أهو يعني صفة موروثية أم مكتسبة خالدة أم عارضة ؟ ثم هل تنفرد به مصر أم يشاركها فيه غيرها ؟ ويجيب الدكتور جمال حمدان بأن ظاهرة الطغيان التعسة لم تقتصر علي مصر لا انفردت مصر بها سواء في الماضي البعيد أو القريب فإن الإمبراطوريات الاستبدادية في التاريخ القديم تفوق الحصر : بابل وآشور وفارس وفينيقيا ، الهند والصين وكل حضارات العالم الجديد ، إلخ ، أما اليونان وروما التي جعل البعض منها أسطورة الديمقراطية ومنبع الحرية فقد كانت علي العكس تماماً مثلاً بشعاً للاستبداد والظلم والتعذيب بل كانت مجتمعات العبودية الكلاسيكية وفي الإمبراطورية الرومانية بالذات كان الإمبراطور الطاغية - قيصر - يؤله كفرعون في مصر ولم يكن أقل منه طغياناً وبطشاً أما أوروبا في العصور الوسطي فقد كان المجتمع الإقطاعي نظاماً استبدادياً سافراً وكان الفلاح الأوروبي قنأ يعني عبداً ، - - أي أن الرجل الأوروبي كان أسوأ حالاً وحظاً من الإنسان المصري سواء في العصور القديمة أو الوسطي وحتى بالنسبة للرفيق الذي لم ينتشر في مصر نسبياً مثلما انتشر بأوروبا فقد كان يعامل برفق نوعاً إذا ما قيس بنظيره الأوروبي ويرى د جمال حمدان أن الاستبداد أو الطغيان حقيقة عرفتھا معظم البلاد في معظم العصور علي اختلاف بيناتها والفروق بين البشر أقل بكثير من التشابه الأساسي بل لقد كان تاريخ العالم حتي وقت قريب هو في الواقع الحكم المطلق والاستبداد بصورة أو بأخري وأن ما عرفته مصر في أغلب تاريخها من الطغيان إنما كان للأسف روح العصر وليس لحسن الحظ روح المكان وهو إذا كان قد طال في مصر بعد أن كان صفي في أوروبا مثلاً لعدة قرون فذلك بفعل الاستعمار الدخيل الآتي من أوروبا نفسها

٣٠٥. الاستعمار الاستيطاني في عصر أسرة #محمد علي في ظل الامتيازات الأجنبية

من كتاب مختارات من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان حيث كتب ما ملخصه :
كانت خطوط الملاحة ، وكل أنواع السفن تنقل حمولاته البشرية النهمة ، لتلقي بها علي أرصفة الإسكندرية ، التي أصبحت بوابة الاستيطان وأكبر مراكزه ، -

كذلك فلعن منها عناصر طيبة صالحة بالمستوي العلمي والفني أو بالمقياس الأخلاقي ، لكن تلك هي الأقلية النادرة ، الاستثناء الشاذ ، فالمسلم به حتي بإجماع المؤرخين الأوروبيين أنفسهم ، أنها في معظمهما تمثل مجاج الشمال ونفاية أوروبا وحثالة البحر المتوسط ، فتقريباً معظم هؤلاء المهاجرين الأوروبيين كانوا من المغامرين والأثافين ، وأصحاب السوابق والمزورين واللصوص والمجرمين والهاربين من يد العدالة من كل صنف بلا تعليم أو حرفة أو مهنة غالباً وبلا أخلاق علي الأغلب وعلي الأفضل من المراهبين والسماسرة وأصحاب الأعمال المشبوهة والكل تقريباً لا هدف له إلا أن يصنع ثروة بالحلال أو الحرام ، والحرام بالدرجة الأولى ، وذلك في ظل الامتيازات الأجنبية وعصر القناصل أو العصر الذهبي للقناصل

ومما له دلالاته أن بعضهم كان يغير اسمه في مصر ومعظمهم يخفي اسم عائلته وحتى أكثرهم احتراماً بين المستعمرة الأوروبية لم يكن فوق الشبهات وكان من أصل مشكوك فيه - - -
ويكاد المرء يخلص من هذا كله إلي أننا إلي حد بعيد إزاء مافيا عظمي ، إلا أنها للتناقض والأسف مافيا فوقية لا سفلية ، علي قمة المجتمع الضحية ، لا في قاعه كما ينبغي علي الأقل ، وهذا بدوره ما يضع أيدينا علي خلاصة الاستعمار الاستيطاني في مصر ، - - ، وعلي الجملة يمكن القول إن الجاليات الأوروبية في مصر انت تمثل وجه أوروبا القبيح بمثل ما أن الاستعمار عموماً هو الوجه القبيح للحضارة الأوروبية الحديثة
وإذا صح أن الامتيازات الأجنبية كانت جديرة بأن تفسد رجالاً أفضل منهم ، فالصحيح أيضاً أنهم كانوا عناصر فاسدة بالأصل ، وإذا كان البعض يزعم أنه لم يكن بديل لهذه الجاليات كأداة للتخضير والاحتكاك الحضاري والأوربة فإنه حقاً لثمن باهظ جداً بل ورهيب ذلك الذي دفعته مصر مادياً ومعنوياً ، إنسانياً وبشرياً في سبيل الحصول علي الحضارة الحديثة
فعلي المستوي المعنوي والاجتماعي فإن المستعمرة الأوروبية رغم أصولها الاجتماعية السفلي جاءت لتفرض نفسها في مصر أرستقراطية طبقية دخيلة علي قمة الهرم الاجتماعي الوطني ، كمجتمع فوق المجتمع ، بل ولتتحول بفضل الامتيازات الأجنبية ونظام الحماية والمحاكم المختلطة إلي دولة داخل الدولة تكاد تمثل في مواطنها الجديدة نوعاً من الامتيازات الإقليمية التي عرفتتها مواني الشرق الأقصى في وقت معاصر - -
من ناحية أخرى ، وبحكم الحاجز الديني فإنهم كانوا وظلوا أيضاً مجتمعاً معزولاً مغلقاً علي نفسه ، أشبه بالمعسكرات ، غير قابلة للاختلاط -التزاوج- أو الذوبان في المجتمع الوطني حتي مع الأقباط ، والنتيجة الصافية هي مجتمع منقول بكامل جذوره وبيئته ومناخه الحضاري والاجتماعي باختصار جزر أوروبية فرضت علي الأرض المصرية ، قطعة من أوروبا في مصر ، التي لم تصبح بهم علي أية حال قطعة من أوروبا

٣٠٦. الطبيعة المصرية في أوهام الناس

من مقدمة كتاب (سعد زغلول - سيرة وتحية) بقلم عباس محمود العقاد
طبيعة المصري موضع دراسات كثيرة جنسية ونفسية واجتماعية وسياسية يقوم كثير منها علي الإشاعة والغرض وقليل منها علي التحقيق والإنصاف

وليس ذلك لغموض أو تعقيد فيها فإن هذه الطبيعة واضحة سهلة ليس في الأمم العريقة كافة -فيما نعتقد- أمة أوضح منها وأسلم ولكنها قد احتجبت طويلاً لما أحاط بها من أقاويل الأمم المنافسة لها أو الموتورة منها ، وقد طال عهد مصر بمراس المنافسين والجيران الموتورين وطال إعراضها عما يصمونها به ويفترونه عليها ، حتي وقر في الأذهان وأصبح التعرض له بالتفنيد والتصحيح كالتعرض للحقائق المقررة والوقائع المكررة تبدو عليه شبهة الغرض والمحاباة من حيث لا تبدو علي تلك الأقاويل المفتراة ،

ونحن نرجع إلي الصفات الكثيرة التي تواترت بها أقاويل الأمم الناقمة أو الأمم الحاسدة فنستعرضها صفة صفة ونحاول أن نجد فيها ما يقتع السامع أو ينفي عنه الشك والتردد فلا نجد بينها صفة واحدة تطرق الأذهان من ناحية الإقناع ولا نعجب لشيء عجبنا من سرعة الأكاذيب في النفاذ إلي الأذان وسرعة الأوهام بعد ذلك في الاستقرار بالأخلاق حتي إذا جاء دور التفنيد والتصحيح كان العجب الأكبر أن تلك الأخلاق التي استقبلت الأوهام بالإذعان والاستسلام تنقلب فجأة من السلاسة والهوادة إلي التعصب والتشدد في وجه الحقيقة ، كأنما الأوهام صديق مسالم ينزل بها نزول النصير المأمون الجوانب المحمود العواقب ، أما الحقيقة فهي عدو مهاجم يدك الحصون ويبدل المعالم ولا يطرق العقول أبداً دون أن تلتفت له وتثور عليه ،

ورأس الأكاذيب علي الطبيعة المصرية أنها طبيعة أمة لا تحكم نفسها بنفسها ولا تبال غارة الأجنبي عليها ، فمن من أعداء المصريين يشك في هذه الأكذوبة ؟ أو يكلف نفسه وهو يقذفهم بها أن يضاهي بينهم وبين غيرهم ليعلم مقدار الشبه في هذه الخلقة بينهم وبين أبناء الأمم الأخرى ؟

علي أنها كما قلنا رأس الأكاذيب وأيسرها تفنيدياً عند النظر القريب فضلاً عن النظر البعيد ، فليس شأن المصريين في هذه الخلقة بمخالف لشأن الأمم كافة في العصور القديمة إذ هي كلها مزيج من غالب ومغلوب وأصلاء وغرياء ، لا تدري من أحقهم بوصف الوطني ومن أحقهم بوصف الدخيل ، إذا مضى عليهم جيلان أو بضعة أجيال ،

ولقد كانت هذه الأمم جميعاً لا تبالى من يحكمها من أبناء البلاد أو غير أبناء البلاد ، لأنها كانت منهوبة مظلومة علي كلتا الحالتين ، وكانت تطبق الحاكم حتي يجاوز بها حد الطاقة فتثور عليه وتمالئ أعداءه - - -
وقد أبطأت الإنسانية طويلاً قبل أن ت اخترع الديمقراطية أو الفكرة الوطنية ، وقد أصيبت جميع الأمم بما أصيب به المصريون من جراء هذا الإبطاء الذي لا ذنب فيه علي أحد

Contents

١	-
٣	مقدمة
٤	١. مقتطفات قصيرة ومختصرة من مقدمة كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار :
٥	٢. هل الانسان حيوان ذو تاريخ ؟
٦	٣. لماذا نقرأ التاريخ
٧	٤. شخصيات صنعت التاريخ
٨	٥. هؤلاء شاركوا في كتابة تاريخ مصر
١٣	٦. بعض عشاق الحضارة المصرية :
١٦	٧. من مقدمة كتاب المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور – تأليف محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري
١٨	٨. مكانة الكتابة والكتاب في مصر القديمة
١٩	٩. القاهرة مدينة يسكنها التاريخ
٢٠	١٠. السبق الحضاري ملمح أساسي في شخصية مصر
٢١	١١. عن مصر القديمة والبيئة الفيضية
٢٢	١٢. أول حكومة في التاريخ كانت في مصر
٢٣	١٣. مصر : جسم بشري واحد ووحد ، ووسط جغرافي أحادي بالتأكيد ، ونهر سائد وفريد
٢٤	١٤. السيولة السياسية في تاريخ العالم الإسلامي وخصائص شخصية مصر الاستراتيجية الكامنة :
٢٥	١٥. نقلاً باختصار عن كتاب شخصية مصر – دراسة في عبقرية المكان للدكتور جمال حمدان حيث كتب ما ملخصه :
٢٥	
٢٦	١٦. خصائص الشخصية المصرية من كتاب شخصية مصر للدكتور جمال حمدان، حيث كتب ما يلي :
٢٨	١٧. الشخصية القومية المصرية في ميزان د جمال حمدان
٢٩	١٨. آفة الشخصية المصرية
٣٠	١٩. الاستمرارية والانقطاع
٣٢	٢٠. فضائل مصر
٣٤	٢١. مصر أرض الشفاء
٣٥	٢٢. الأنبياء في مصر
٣٦	٢٣. لم يحكم المصريون مصر لمدة ٢٢٩٤ سنة
٣٧	٢٤. حكام مصر علي مر التاريخ
٣٨	٢٥. كيف كان يعيش المصري القديم في العصر الحجري
٣٩	٢٦. معلومات مختصرة عن ملخص العصر الفرعوني
٤١	٢٧. من أهم مصادر التاريخ الفرعوني : حجر بالرمو وبردية تورين وتاريخ مانيتون
٤٣	٢٨. أسئلة محاكمة الميت أمام أوزوريس
٤٤	٢٩. عندما كان الكاتب هو الأرقى اجتماعياً عند الفراعنة
٤٥	٣٠. الملك العقب
٤٧	٣١. الملك مينا الفرعون الأول والأسرة الأولى :
٤٨	٣٢. شرح لوحة الملك مينا (نارمر)
٤٩	٣٣. بناء قبر جيد في الدنيا ،،، يضمن لك حياة جيدة في الآخرة ،،، (اعتقاد فرعوني)
٥٠	٣٤. الاحتفال بالعيد الثلاثيني عند الفراعنة
٥١	٣٥. الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة الفرعونية
٥٣	٣٦. المهندس ايمحوتب
٥٤	٣٧. الملك سنفرؤ مؤسس الأسرة الرابعة الفرعونية
٥٦	٣٨. الأسرة الرابعة الفرعونية وبناء الأهرامات في مصر
٥٨	٣٩. الأسرة الخامسة (أسرة فرعونية غير مشهورة حالياً) :
٦٠	٤٠. ثورة الجياع في العصر الفرعوني
٦١	٤١. عندما كتب المظلوم شكواه بأسلوب رائع
٦٢	٤٢. نصائح الملك خيتي الرابع لابنه
٦٣	٤٣. الملك منتوحتب الثاني وبداية الدولة الوسطي الفرعونية

٤٤	الملك امنمحاح الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة الفرعونية
٤٥	قصة مسلة من الدولة الوسطي الفرعونية
٤٦	عندما انبهر المؤرخ اليوناني هيرودوت بمشروعات الملك امنمحاح الثالث
٤٧	في عهد الملك سنوسرت الثالث أبحرت السفن المصرية في الجرائيت
٤٨	أجمل المجوهرات من عهد الأسرة الثانية عشرة الفرعونية
٤٩	الهكسوس وعصر الاضمحلال الثاني للفرعونية
٥٠	ما قاله مانيتون عن الهكسوس
٥١	الملك سقنن رع الثاني
٥٢	إلى أي أسرة فرعونية ينتمي الملك أحمس الأول ؟
٥٣	عندما طارد فرعون بني إسرائيل
٥٤	الملكة حتشبسوت (ماعت كا رع) – الأسرة ١٨ الفرعونية - الدولة الحديثة
٥٥	من يريد أن يعرف كيف كانت حضارته قديماً فليأتني إلى مصر :
٥٦	الملك تحتمس الثالث ومسلاته الأربعة
٥٧	البحيرة المقدسة وعبقورية المهندس المصري القديم :
٥٨	الملك أمنحتب الثاني
٥٩	النبوءة المزعومة بين مخالب أبو الهول :
٦٠	الملك امنحتب الثالث وزوجته الملكة تي
٦١	رسالة الملكة تي
٦٢	الملك امنحتب الرابع-اخناتون- وزوجته الملكة نفرتيتي
٦٣	عندما سيطر كهنة آمون على الملك توت عنخ آتون وتغير اسمه إلى توت عنخ آمون
٦٤	توت عنخ آمون – لبيرم التونسي
٦٥	الملك حور محب يعيد الأمن والرخاء لشعب مصر
٦٦	الملك سيتي الأول وعصر الولادة في الأسرة ١٩ الفرعونية :
٦٧	أهم ملوك الأسرة ١٩ الفرعونية (الدولة الحديثة)
٦٨	الملك رمسيس الثاني وزوجته الملكة نفرتاري
٦٩	الأخطار التي كانت تهدد مصر في عهد الملك مرنبتاح
٧٠	الملك رمسيس الثالث
٧١	أثناء العصر الفرعوني قامت لجنة بالتحقيق في سرقة المومياءات
٧٢	عندما ورد اسم ملك مصر في التوراة
٧٣	عندما جلس الملك بعنخي ملك النوبة على عرش مصر
٧٤	الملك بسماتيك الأول
٧٥	لماذا قرر الملك الفارسي قمبيز فتح مصر سنة ٥٢٥ قبل الميلاد في عهد الملك بسماتيك الثالث آخر ملوك الأسرة ٢٦ الفرعونية ؟
٧٦	الاحتلال الفارسي لمصر ونهاية الفرعونية
٧٧	الاسكندر المقدوني
٧٨	لا أحد من البشر يقدر على قتل أبيك ،،،،
٧٩	الملك بطليموس الأول (سوتير)
٨٠	بطليموس الثاني فيلادلفوس
٨١	معركة رفح في عصر البطالمة تلهب الحماس وتبعث الروح مرة أخرى في الشعب المصري
٨٢	علاقة بطليموس الخامس بحجر رشيد
٨٣	عندما أنقذت روما عرش البطالمة في مصر
٨٤	بطليموس الثاني عشر (الزمار) يتنزل لروما :
٨٥	الملكة كليوباترا السابعة وقصة نهاية دولة البطالمة في مصر
٨٦	عندما كانت تتوقف الحروب بسبب الألعاب الأولمبية في العصر الهلنستي
٨٧	سر الإمبراطورية - إجراءات أغسطس في مصر :
٨٨	الرومان وبداية نهب مصر
٨٩	الإمبراطور أغسطس يعزل أول والي روماني على مصر فينتحر
٩٠	السيدة مريم العذراء تلجأ إلى مصر ومعها السيد المسيح
٩١	مؤامرة اليهود على الوالي الروماني بالإسكندرية في عهد الإمبراطور كاليغولا
٩٢	عندما أعاد الإمبراطور الروماني القمح للمصريين
٩٣	الثورة العارمة ضد الرومان :
٩٤	الملكة زنوبيا تسيطر على مصر وتتحدي الإمبراطورية الرومانية

عندما كانت مصر أتعس ولاية في الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور دقلديانوس	١٣٠	٩٥
زيارة عمرو بن العاص لمصر قبل الإسلام	١٣٢	٩٦
كيف أقنع عمرو بن العاص أمير المؤمنين عمر بفتح مصر	١٣٣	٩٧
أحداث فتح مصر علي يد القائد عمرو بن العاص رضي الله عنه	١٣٤	٩٨
الأنبيا بنيامين يجلس علي كرسي بطركيته الذي كان مغتصب من قبل الرومان	١٣٦	٩٩
المؤرخ البريطاني ستانلي لينبول يذكر أحداث فتح مصر	١٣٧	١٠٠
عمرو بن العاص يصف مصر لأمير المؤمنين	١٣٨	١٠١
الوالي مسلمة بن مخلد الأنصاري	١٣٩	١٠٢
لماذا اشتهرت السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب في مصر بلقب رئيسة الديوان ؟	١٤٠	١٠٣
عصر الولاة	١٤١	١٠٤
الوالي قرّة بن شريك يقاوم هجرة الفلاحين إلي المدن	١٤٢	١٠٥
الرخاء يعم الجميع في عصر الولاة	١٤٣	١٠٦
عندما قيل للخليفة المأمون عن مصر (فما ظنك بشئ دمره الله هذا بقيته)	١٤٤	١٠٧
أحمد بن طولون يتولى حكم مصر :	١٤٥	١٠٨
صدقات احمد بن طولون كما وردت في خطط المقرئزي حيث كتب ما يلي :	١٤٧	١٠٩
قطر الندي	١٤٨	١١٠
بعض أبيات من رثاء الدولة الطولونية من كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقرئزي :	١٤٩	١١١
أبو بكر الإخشيد يتولى حكم مصر (ويؤسس الدولة الإخشيدية)	١٥٠	١١٢
أبو الطيب المتنبّي يرثي أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد	١٥١	١١٣
أبَا كُلِّ طَيْبٍ لَا أَبَا الْمِسْكِ وَحَدَه	١٥٣	١١٤
سيف المعز وذهبه	١٥٥	١١٥
القاهرة الفاطمية في أيام مجدها الأول	١٥٦	١١٦
الشدة المستنصرية في العصر الفاطمي :	١٥٩	117.
شاوور وضرغام ونهاية الدولة الفاطمية في مصر	١٦٠	١١٨
صلاح الدين والصليبيين	١٦٤	١١٩
معاهدة سلام في العصر الأيوبي	١٦٥	١٢٠
الحملة الصليبية السابعة تستولي علي دمياط :	١٦٦	١٢١
مكانة المدرس في العصر الأيوبي	١٦٨	١٢٢
المماليك	١٦٩	١٢٣
الحياة الفكرية والأدبية في مصر في عهد المماليك :	١٧١	١٢٤
الحياة الاقتصادية في عصر المماليك :	١٧٢	١٢٥
كيف استعدت دولة المماليك البحرية لمواجهة التتار :	١٧٣	١٢٦
العز بن عبد السلام – سلطان العلماء	١٧٤	١٢٧
معركة عين جالوت :	١٧٥	١٢٨
سيرة الظاهر بيبرس بين خطر المغول وخطر الصليبيين	١٧٦	١٢٩
السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون وجلاء آخر جندي صليبي من الشام :	١٧٧	١٣٠
السلطان الناصر محمد بن قلاوون	١٧٨	١٣١
زيارة الرحالة الشهير ابن بطوطة لمصر :	١٧٩	١٣٢
ابن خلدون يصف مصر	١٨١	١٣٣
الخيول المملوكية	١٨٢	١٣٤
جامع السلطان حسن	١٨٤	١٣٥
السلطان الظاهر برقوق	١٨٦	١٣٦
السلطان يفي بالنذر	١٨٧	١٣٧
جزيرة قبرص بين الملك الأشرف شعبان والملك الأشرف برسباي :	١٨٨	١٣٨
سلطان مصر الأشرف إينال يستقبل رسالة من السلطان العثماني محمد الفاتح	١٨٩	١٣٩
قلعة قايتباي بالإسكندرية	١٩١	١٤٠
السلطان الأشرف قايتباي وبداية الاضطرابات بين الدولة المملوكية والدولة العثمانية	١٩٣	١٤١
وصف عودة السلطان الأشرف قايتباي من رحلة الحج كما ورد بكتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس الحنفي	١٩٤	١٤٢
كيف حاولت مصر إنقاذ الأندلس في العصر المملوكي	١٩٦	١٤٣
السلطان الأشرف قنصوة الغوري يستقبل بعثة دبلوماسية في الحوش السلطاني بالقلعة	١٩٨	١٤٤

٢٠٠	سطور من كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور	١٤٥
٢٠١	عندما وصف المؤرخ ابن اياس الحنفي معركة مرج دابق	١٤٦
٢٠٣	ملك الأمراء خاير بك الذي أصبح خاين بك	١٤٧
٢٠٤	عندما تم شنق سلطان مصر علي باب زويلة	١٤٨
١٤٩	وصف اسلوب المؤرخ ابن اياس الحنفي كما ورد بكتاب مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية تأليف محمد عبد الله عنان ١٨٩٦-١٩٨٦ -	١٤٩
٢٠٦	المقريزي يكتب عن المماليك	١٥٠
٢٠٧	من التقاليد السلطانية عند سفر السلطان وعند ركوبه إلي الميدان في العصر المملوكي من كتاب خطط المقريزي	١٥١
٢٠٩	الصراع المملوكي البرتغالي حول البحر الأحمر	١٥٢
٢١١	المؤرخ البريطاني ستانلي لين بول يصف بعض أمراء من ممالك العصر العثماني	١٥٣
٢١٢	جامع سنان باشا ببولاق	١٥٤
٢١٣	الأعمال المعمارية الرائعة للأمير عبد الرحمن كتحدا	١٥٥
٢١٤	الأمير عبد الرحمن كتحدا أمير البنائين في العصر العثماني	١٥٦
٢١٥	اسماعيل أبو طاقية شاهيندر التجار	١٥٧
٢١٦	علي بك الكبير	١٥٨
٢١٨	الجبرتي يصف أسعار السلع سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٤ م وهو العام الذي ولد فيه	١٥٩
٢٢٠	مراد بك	١٦٠
٢٢١	كيف وصف الجبرتي أول سنة من الحملة الفرنسية علي مصر	١٦١
٢٢٢	علي متن السفينة ولا يعرفون إلي أين تتجه	١٦٢
٢٢٣	المماليك والحملة الفرنسية	١٦٣
٢٢٤	كيف خاطب نابليون الشعب المصري مع بداية الحملة الفرنسية علي مصر	١٦٤
٢٢٥	عند حضور نابليون إلي مصر نشر منشور علي الشعب المصري وفيما يلي مقتطفات منه :	١٦٥
٢٢٦	نابليون والاحتفالات الدينية في مصر	١٦٦
٢٢٧	مقاومة الحملة الفرنسية :	١٦٧
٢٢٨	رسالة نابليون من أمام عكا	١٦٨
٢٣٠	عندما تعجب الجبرتي من سفر نابليون في البحر مع تربص الأسطول الإنجليزي	١٦٩
٢٣٢	الجنرال كليبر	١٧٠
٢٣٣	الجنرال مينو والأيام الأخيرة للحملة الفرنسية	١٧١
٢٣٥	الكاتب الكبير يحيي حقي يكتب عن المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي	١٧٢
٢٣٧	كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الجبرتي بكتابه الممتع عجائب الآثار يصف علماء الحملة الفرنسية :	١٧٣
٢٣٨		
٢٣٩	تعداد سكان مصر طبقاً لتقدير علماء الحملة الفرنسية	١٧٤
٢٤٠	مقتطفات من مقدمة كتاب وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية ترجمة زهير الشايب	١٧٥
٢٤١	إعجاب علماء الحملة الفرنسية بالصناعة المصرية - ورد في كتاب وصف مصر ما يلي :	١٧٦
٢٤٢	اندهاش علماء الحملة الفرنسية من التسامح بين الأديان في مصر	١٧٧
٢٤٣	جانب من وصف التجارة المصرية بموسوعة وصف مصر تأليف علماء الحملة الفرنسية	١٧٨
٢٤٤	عندما كانت فرنسا تستورد القمح المصري	١٧٩
٢٤٥	وصف علماء الحملة الفرنسية للشعب المصري في ذلك الوقت	١٨٠
٢٤٦	علماء الحملة الفرنسية يوضحون أسباب عدم تكاثر المماليك في مصر	١٨١
٢٤٧	إعجاب علماء الحملة الفرنسية باحترام الشيخوخة في مصر	١٨٢
٢٤٨	حمامات الساونا علي الطريقة المصرية كما وصفها علماء الحملة الفرنسية	١٨٣
٢٤٩	علماء الحملة الفرنسية يصفون الأسبلة في القاهرة	١٨٤
٢٥٠	حكام مصر من أسرة محمد علي :	١٨٥
٢٥٢	عندما تولي محمد علي باشا حكم مصر	١٨٦
٢٥٤	الزعامة الشعبية صداع في رأس الباشا فكيف تخلص منها	١٨٧
٢٥٦	(مذبح القلعة)	١٨٨
٢٥٧	محمد علي والجبرتي :	١٨٩
٢٥٨	محمد علي باشا وتأسيس مصر الحديثة	١٩٠
٢٦٠	أهم أعمال محمد علي باشا	١٩١
٢٦١	عندما لم تعجب محمد علي باشا درجات الطلبة المصريين المبعوثين في أوروبا :	١٩٢
٢٦٢	محمد علي باشا والمهندسخانة	١٩٣
٢٦٣	حفلات نزول السفن الحربية إلي البحر في عهد محمد علي باشا	١٩٤

٢٦٤	من مقدمة كتاب أسرة محمد علي - تأليف سهير حلمي - باختصار	١٩٥
٢٦٥	أمام أسوار عكا فشل الجيش الفرنسي بقيادة نابليون وانتصر الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا	١٩٦
٢٦٦	سليمان باشا الفرنسي	١٩٧
٢٦٧	كلوت بك	١٩٨
٢٦٨	محرم بك	١٩٩
٢٦٩	القائد إبراهيم	٢٠٠
٢٧٠	أولاد محمد علي باشا	٢٠١
٢٧١	عباس الأول ورفاهية الفلاح المصري	٢٠٢
٢٧٣	سعيد باشا والمكرونة وقناة السويس	203
٢٧٤	الجيش المصري وشجاعة فائقة في المكسيك	٢٠٤
٢٧٥	عندما جلس الخديو اسماعيل علي عرش مصر	٢٠٥
٢٧٧	عقد شركة قناة السويس	٢٠٦
٢٧٨	الخدوي اسماعيل وشغفه بتشييد القصور	٢٠٧
٢٧٩	الخدوي اسماعيل بعيون القنصل	٢٠٨
٢٨٠	الخدوي في باريس	٢٠٩
٢٨١	افتتاح قناة السويس للملاحة في عهد الخدوي اسماعيل	٢١٠
٢٨٢	أفراح الأنجال	٢١١
٢٨٣	البشنبي.. القناوي الأزهرى الجريء الذي تحدى الخدوي اسماعيل	٢١٢
٢٨٤	جمال الدين الأفغانى يزور مصر	٢١٣
٢٨٥	من مقدمة كتاب حديث عيسى بن هشام	٢١٤
٢٨٧	الخدوي اسماعيل يقلد أوروبا :	٢١٥
٢٨٨	عندما تولي الخدوي توفيق حكم مصر	٢١٦
٢٩٠	عندما توقف قطار الخدوي في منفوط	٢١٧
٢٩١	من مقدمة كتاب (الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي)	٢١٨
٢٩٤	كيف قام الإنجليز بضرب الإسكندرية عند احتلالهم لمصر سنة ١٨٨٢ :	٢١٩
٢٩٥	مصر تحت الاحتلال البريطاني	٢٢٠
٢٩٦	من مقدمة كتاب دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي تأليف فوزي جرجس تقديم جلال السيد	٢٢١
٢٩٨	ستانلي لينبول في القاهرة	٢٢٢
٢٩٩	المؤرخ البريطاني ستانلي لينبول يصف الجامع الأزهر عندما جاء إلى مصر عام ١٨٨٣م واشتغل بدراسة آثارها	٢٢٣
٣٠٠	وصف الباحث والمؤرخ البريطاني ستانلي لينبول لمدينة القاهرة ومقارنته بما كتبه المقرئ	٢٢٤
٣٠١	المؤرخ البريطاني ستانلي لينبول يصف بعض النقوش الفاخرة عند زيارته لمصر سنة ١٨٨٣م	٢٢٥
٣٠٢	المؤرخ ستانلي لين بول ووصفه الممتع لاحتفال المصريين بمولد سيدنا الحسين سنة ١٨٨٢ م	٢٢٦
٣٠٣	عندما كان المهندس المصري يصمم بيتاً يوفر الراحة والهدوء والخصوصية	٢٢٧
٣٠٥	عندما كان أمير الشعراء (أحمد شوقي) يمدح الدولة العثمانية	٢٢٨
٣٠٦	الوالي الأخير	٢٢٩
٣٠٧	من قصيدة : دعاء الشرق	٢٣٠
٣٠٨	أحمد حلمي	٢٣١
٣٠٩	من هو السلطان حسين ؟	٢٣٢
٣١٠	اتفاقية سايكس بيكو	٢٣٣
٣١٢	الشيخ محمد عبده يحذر من مؤامرات الغرب	٢٣٤
٣١٣	جانب قصير من حوار تاريخي	٢٣٥
٣١٦	الدكتور حسين مؤنس يلقي الضوء علي دور ثورة ١٩١٩ وأهميتها في تاريخ مصر	٢٣٦
٣١٨	لجان شعبية في ثورة ١٩١٩	٢٣٧
٣١٩	نداء	٢٣٨
٣٢٠	شاعر النيل حافظ إبراهيم يصف مظاهرات النساء في ثورة ١٩١٩	٢٣٩
٣٢١	جمهورية زفتي	٢٤٠
٣٢٢	أخلاق الشباب بعد ثورة ١٩١٩	٢٤١
٣٢٣	عندما اكتشف سعد باشا أن المصالح الاستعمارية أقوى من مبادئ الديمقراطية	٢٤٢
٣٢٥	اللورد ألنبي وعبد الخالق ثروت باشا واتهامات بالتقصير	٢٤٣
٣٢٦	كيف وصف العقاد استقبال الشعب لسعد زغلول عند عودته من أوروبا بعد فشل الوفد في مفاوضات الاستقلال	٢٤٤
٣٢٨	انقسام الشعب بين عدلي وسعد سنة ١٩٢١	٢٤٥

٢٤٦	الاحتلال البريطاني ومعاناة الشعب المصري	٣٣٠
٢٤٧	د محمد حسين هيكل (١٨٨٨-١٩٥٦م) يوضح ما صدره الغرب للشرق	٣٣١
٢٤٨	سعد باشا ز غول والملك فؤاد يحتكمان لبارون بلجيكي	٣٣٣
٢٤٩	مجلس نواب لمدة تسع ساعات يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٢٥	٣٣٥
٢٥٠	شاعر النيل حافظ إبراهيم يصف حياد بريطانيا سنة ١٩٣٠ بالحياد الكاذب :	٣٣٧
٢٥١	بعض من مقال (يا هادي الطريق جرت) للأستاذ أحمد حسن الزيات	٣٣٩
٢٥٢	كتاب الجبهة الوطنية إلي #الملك فؤاد - ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥	٣٤٠
٢٥٣	المؤرخ الكبير عبد الرحمن الراعي يوضح كيف تدهورت الحالة الاجتماعية في ظل الاحتلال ٣٤٢	
٢٥٤	البريطاني	
٢٥٤	حدث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وإصرار النحاس باشا علي وزارة وفدية خالصة بضغط علي الملك فاروق من	
٢٥٥	الإنجليز بالقوة :	٣٤٣
٢٥٦	مجلس نواب لمدة تسع ساعات يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٢٥	٣٤٤
٢٥٧	المؤرخ الكبير عبد الرحمن الراعي يوضح مزايا الحكم الدستوري حيث كتب ما ملخصه :	٣٤٦
٢٥٨	الجهل بالموقف الدولي أيام إبراهيم بك ومراد بك	٣٤٨
٢٥٩	المجلس البلدي	٣٥٠
٢٦٠	بيرم التونسي يسخر من مفاوضات الباشوات مع الاحتلال البريطاني	٣٥١
٢٦١	من ديوان شاعر النيل حافظ إبراهيم	٣٥٢
٢٦٢	من قصيدة (أندلسية) شعر أمير الشعراء (أحمد شوقي)	٣٥٣
٢٦٣	من قصيدة (مصر تتحدث عن نفسها)	٣٥٤
٢٦٤	شاعر النيل حافظ إبراهيم (١٨٧٢ - ١٩٣٢) يعبر عن مشاعره تجاه بلاد الشام وأهلها	٣٥٥
٢٦٥	مقطعات من قصيدة - كم ذا يكابد عاشق ويلقي	٣٥٦
٢٦٦	قصيدة بعنوان - حياتي - للشاعر الكبير بيرم التونسي	٣٥٧
٢٦٧	قصيدة العامل المصري	٣٥٨
٢٦٨	قصيدة الفلاح	٣٥٩
٢٦٩	سوق خان الخليلي في عيون المؤرخين والرحالة	٣٦٠
٢٧٠	يا اهل المغني - للشاعر الكبير بيرم التونسي	٣٦١
٢٧١	بيرم التونسي يستنكر اهتمام الملك فؤاد بأحباء الأجانب مع عدم اهتمامه بالأحباء الشعبية	٣٦٢
٢٧٢	عندما خاطب أمير الشعراء نهر النيل المبارك	٣٦٣
٢٧٣	أمير الشعراء أحمد شوقي يداعب صديقه الطبيب محبوب ثابت	٣٦٤
٢٧٤	النيل النهر الخالد	٣٦٥
٢٧٥	شارع عماد الدين	٣٦٦
٢٧٦	شبرد اسم له تاريخ	٣٦٧
٢٧٧	حكاية ترام القاهرة	٣٦٩
٢٧٨	نص البيان الأول لثورة يوليو ١٩٥٢ من اللواء محمد نجيب إلي الشعب المصري	٣٧١
٢٧٩	الرئيس محمد نجيب	٣٧٢
٢٨٠	الزعيم جمال عبد الناصر	٣٧٤
١٩٥٦	مقطعات من خطاب الزعيم جمال عبد الناصر المتضمن قرار تأميم قناة السويس بتاريخ ٢٦ يوليو ٣٧٥	
٢٨١	موال النهار - أغنية #عبدالحليم حافظ	٣٧٨
٢٨٢	على اسم مصر التاريخ يقدر يقول ما شاء	٣٧٩
283.	الأرض بتتكلم عربي	٣٨٠
٢٨٤	الرئيس محمد أنور السادات	٣٨١
٢٨٥	السادات وحلاوة النصر	٣٨٢
٢٨٦	رايتك جذع جميل علي ترعة	٣٨٣
٢٨٧	اتربى وشبع من خيرك	٣٨٤
٢٨٨	رسالة مباشرة من الرئيس السوفييتي بريجنيف إلي وزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر اثناء حرب أكتوبر ٣٨٥	
١٩٧٣	ملحمة #السويس الخالدة يوم ٢٤ أكتوبر ١٩٧٣	٣٨٧
٢٨٩	من ديوان راهب الليل - طاهر أبو فاشا (1908 - 1989)	٣٨٩
٢٩٠	كلمات أغنية فيروز - مصر عادت شمسك الذهب	٣٩١
٢٩١	حنين بين مسلتين	٣٩٢
٢٩٢	تميز موقع القاهرة كعاصمة لمصر	٣٩٤

٣٩٥	 إنهم يحترمون آثارنا الفرعونية	٢٩٤
٣٩٦	 ليلة صافية عند الأهرامات	٢٩٥
٣٩٧	 جان ليون جيروم - الفنان عاشق مصر	٢٩٦
٣٩٨	 مشاهد من مصر بريشة فنان بريطاني	٢٩٧
٣٩٩	 كيف كان يحتفل المصريون بوفاء النيل	٢٩٨
٤٠٠	 الأزبكية	٢٩٩
٤٠١	 الذوق مخرجش من مصر و لكنه مات حزينا علي بابها (بوابة الفتوح)	٣٠٠
٤٠٢	 علي باشا مبارك يصف جامع وقبة السلطان الأشرف قنصوة الغوري	٣٠١
٤٠٣	 علي باشا مبارك يوضح سبب بناء سبيل محمد علي الموجود بناصية حارة الروم بالغورية	٣٠٢
٤٠٤	 علي باشا مبارك يصف منطقة بين القصرين بشارع المعز كما كانت في عصره بالخطط التوفيقية	٣٠٣
٤٠٥	 أكلوبة الاستبداد الشرقي	٣٠٤
٤٠٧	 الاستعمار الاستيطاني في عصر أسرة #محمد_علي في ظل الامتيازات الأجنبية	٣٠٥
٤٠٨	 الطبيعة المصرية في أوهام الناس	٣٠٦
٤٠٩	 المحتويات	٣٠٧